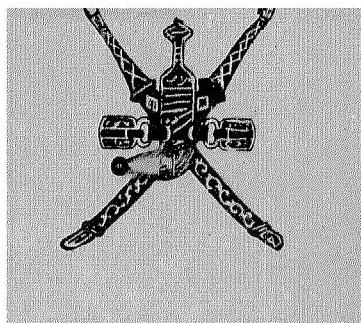


سَلْطَنَةُ عُومَانِ
وَزَارَةُ التَّرَاثِ الْقَوْمِيّ وَالثَّقَافَةِ



بَرِيْطَانِيَا وَالْحَلِيْجِ

١٧٩٥ : ١٨٧٠

تَأْلِيْفُ
چون. ب. كيلی

الجزء الأول

ترجمة
محمد أمين عبداللہ



Bibliotheca Alexandrina



0024428

سَاطِنَةُ عُمان

وزارة التراث القومي والثقافة

بريطانيا والخليج

١٧٩٥ : ١٨٧٠

تأليف

جون. ب. كيلن

الجزء الأول

ترجمة

محمد أمين عبدالستار

راجع الكتاب واشرف على طبعه الاستاذ

عبد المنعم عامر

طبع مطبعة علي بن أبي طالب وشركاه

سلطنة عمان
وزارة التراث القومى والثقافة
مكتب الوزير

تقديم

عايشت منطقة الخليج خلال القرن التاسع عشر الميلادى أحداثا على جانب كبير من الأهمية كان لها أثرها البعيد فيما آلت اليه حياة الشعوب فى هذه المنطقة .

وكان الشعب العماني فى نشاطاته البشرية وفى بيئته الطبيعية - كما لا يزال - عاملا مشتركا فى تواريخ شعوب منطقة الخليج ، وتاريخه هو المرآة التى تبين على صفحاتها الأحداث العالمية . والسياسات الدولية ، والتيارات الفكرية والعقائدية التى نشطت فى المنطقة خلال تلك الفترة .

ولقد تناول المؤرخون على اختلاف مذاهبهم وألوانهم وجنسياتهم تاريخ منطقة الخليج من زوايا مختلفة ، فكتبوا المؤلفات العديدة بلغات أوروبية وغير عربية ، وكان من بين هؤلاء المؤرخين ، المؤرخ البريطانى جون كيلي الذى ألف هذا الكتاب . وسماه ، بريطانيا والخليج بين عامى ١٧٩٥ و ١٨٨٠ م . ونظرا لما لهذا الكتاب من قيمة تاريخية فقد رأت الوزارة أن يترجم الكتاب الى اللغة العربية ، وأن تنشره الوزارة تبينا لما تضمنه من تواريخ عالج المؤلف أحداثها بقدر كبير من الوفاة والتمام .

وانه لمن المعروف بداهة أن كتب التاريخ تمثل صورا لأحداث ماضية وهى فى كل أحوالها تعبر عن انطباعات مؤلفيها وآرائهم الخاصة ، ومن ثم فإن الآراء والمعلومات التى يتضمنها كتاب بريطانيا والخليج لا تمثل أى وجهة نظر معينة ، سياسية كانت أو غير سياسية ، لحكومة سلطنة عمان . وانا لنرجو أن تحقق خطة الوزارة لنشر الكتب على مختلف ألوانها ما تصبو اليه من بيان ومعارف يتزود بها الفكر العماني والعربى فيستنير بها فى مسيرته الحضارية ، ونحن نخطو نحو الامجاد التى نترسمها فى ظلال من رعاية صاحب الجلالة السلطان قابوس .

فيصل بن على بن فيصل
وزير التراث القومى والثقافة

مقدمة المؤلف

على الرغم من أن الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للخليج في عالم اليوم لم تعد موضع نزاع ، فإن التاريخ الحديث لهذه المنطقة وتاريخ الوجود البريطاني فيها لم يلقيا الاهتمام الوافي من الباحثين في هذا المضمار وقد يرجع هذا النقص الى ارتباط الخليج بالحكم البريطاني في الهند ، وبالتالي لم يحظ من المؤرخين البريطانيين المعاصرين بذلك الاهتمام الذي كان له في السابق ومازال له حتى اليوم . ان غروب شمس الامبراطورية البريطانية لا ينبغي أن يعزف الاهتمام بماضي تلك الامبراطورية وإنما على العكس من ذلك ، فهذا الماضي قد يشير في النفس كثيرا من الانطباعات عنيفة كانت أم مفروضة عن ماضي تلك الامبراطورية على ضوء المفاهيم السائدة أو أنه قد يشجع على اغفال ذلك الماضي كليا . وقد يكون صحيحا ان الخليج هو آخر محطة ينحسر عنها الوجود الاستعماري ، مهما كانت الطريقة التي تم بها ذلك الانحسار ، لقد كان الخليج أول منطقة اتجهت اليها انظار المغامرين من رجال التجارة البريطانيين في الشرق ، وقد مضت الآن ثلاثة قرون ونصف بالتحديد منذ أن نزلت أول شحنة للبضائع على شواطئ الخليج، وهي الشحنة التي استهلكت بها شركة الهند الشرقية نشاطها التجاري مع فارس واقامت على أساسها علاقات تجارية استمرت حتى هذا اليوم أما الاتصال بدول ساحل الخليج فلم يتحقق قبل مرور قرنين منذ ذلك الوقت الذي أصبحت فيه العلاقات البريطانية مع الخليج تخضع للاعتبارات السياسية أكثر مما تخضع للمصالح التجارية . وانطلاقا من تلك الاعتبارات فرضت بريطانيا حمايتها البحرية على الخليج منذ ذلك الوقت .

ان أهم المؤلفات التي صدرت عن تاريخ وجغرافية الخليج هو « دليل الخليج الفارسي » - « عمان والمنطقة الوسطى للجزيرة العربية » . تأليف : جى . جى . لوريمار ، فقد قام لوريمار باعداد هذا الكتاب في قسم الشؤون

الخارجية لحكومة الهند فيما بين عام ١٩٠٥ ، ١٩٢٥ ، وقد صدر المجلد الجغرافي من الكتاب عام ١٩٠٨ ، كما صدر المجلد التاريخي عام ١٩٢٥ م ، أى بعد وفاة لوريمار بوقت قصير . ويعتبر الكتاب من أضخم وأهم الأعمال التى صدرت فى هذا المضمار ، بل قد يفوقها جميعا ، أننا لا نتصور أن يضارعه أى عمل آخر حاضرا أو مستقبلا ، فضلا عن التفوق عليه . غير أنه من المؤسف أن هذا الكتاب لم يلقى ما يستحق من الرواج والتداول ، فقد اقتصر تداوله على الجهات الرسمية حتى الخمسينات من القرن التاسع عشر ، وحتى بعد هذا التاريخ كان الكتاب نادر الوجود . وفى غضون الخمسين عاما بعد صدور هذا السفر التاريخي العظيم لم يصدر أى مؤلف هام عن تاريخ الخليج فيما عدا كتاب أرنولد ويلسن « الخليج الفارسي » الذى صدر عام ١٩٢٨ وأعيد طبعه عام ١٩٥٤ . ولما كان كتاب أرنولد ويلسن قد ركز على العصور القديمة من تاريخ الخليج حتى هذا القرن ، فقد جاءت معالجته لتاريخ القرن التاسع عشر مقتضبة ، غير أن ذلك الكتاب بوجه عام يعتبر مزجا بارعا بين الثقافة العلمية الواسعة والخبرة الطويلة بالمنطقة ، وهذه ميزة تنفرد بها مؤلفات رجال الادارة البريطانية الذين عملوا فى الدوائر السياسية فى الهند .

ان الغاية من وضع هذا الكتاب هى ايضاح المراحل التى مر بها النفوذ البريطانى فى الخليج خلال القرن التاسع والاسس التى قام عليها هذا النفوذ ، واتخاذ عام ١٧٩٥ نقطة انطلاق لدراسة هذا النفوذ ليس لها اعتبارات خاصة ، وكل ما فى الأمر هو أنه لابد من اختيار مرحلة تاريخية من القرن الثامن عشر نبدأ بها دراسة منطقة الخليج ، من حيث تركيبات المجتمع والتجارة والسياسة قبل أن تتأثر تلك العوامل بمضاعفات الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ - وبظهور الوهابيين على مسرح الأحداث فى اواسط شبه الجزيرة العربية بعد مرور عام أو عامين منذ ذلك التاريخ .

وعلى الرغم من ذلك فان عام ١٧٩٥ لا يخلو من الأهمية فى التاريخ الحديث للخليج . ففى ذلك العام حقق القاجار وهى الأسرة التى قدر لها أن تحكم فارس طوال القرن التاسع عشر ، وجزءا من القرن العشرين ،

- ٥ -

انتصارهم على بقايا أسرة الزند في جنوب فارس ، وهو نفس العام الذي امتد فيه النفوذ الوهابي الذي قدر له أن يصبح القوة السياسية المؤثرة في وسط شرق الجزيرة العربية الى ساحل الخليج على اثر احتلال الوهابيين للاحساء وخضوعهم لهم . وقد كنت مدفوعا في استعراض الوجود البريطاني في الخليج فيما بين عام ١٧٩٥ ، ١٧٨٠ بهدفين .

الهدف الأول :

ان استعرض تطور السياسة البريطانية في الخليج بالذات .

والهدف الثاني :

أن أحدد موقع الخليج في السياسة البريطانية في الشرق الأدنى كله .
وخلال ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر الأولى كان تصاعد النفوذ البريطاني في الخليج حقيقة مفروغا منها ، فلقد كان الخليج اذا استخدمنا الاصطلاح الذي كان متداولاً قبل جيل أو جيلين « بحراً موصداً » امام الدول الأخرى ولكن في أواخر القرن بدأ النفوذ البريطاني يواجه تحديات وبتدرجات متفاوتة وان لم تكن خطيرة فتركيا أولا ثم فرنسا ، ثم ألمانيا وروسيا . وقد قررت ان أنهى أحداث هذا الكتاب بقصة الوجود العثماني ، ثم بإبرام « المعاهدة الخاصة » مع البحرين عام ١٨٨٠ ، وهي المعاهدة التي كانت الأساس المباشر لاحتكار بريطانيا النفوذ في المنطقة ، وكانت واحدة في سلسلة الاتفاقيات التي عقدت مع دول الساحل العربية كنتيجة لظهور دول أخرى على المسرح السياسي في الخليج ابان العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، كما كان لتلك المعاهدة الفضل في وضع أسس المعاهدات التالية التي عقدتها بريطانيا مع دول الخليج في نفس الفترة لأنها في نظري هي الفترة المناسبة للتوقف عندها ، لكونها تعبر عن الحقبة التي كانت بريطانيا تمارس فيها سياستها في شبه انفراد عن الدول الأخرى في أوروبا ، وعن بدء مرحلة جديدة من الصراع مع الدول الأخرى .

ان حوالى ثلث المعلومات التي وردت في هذا المؤلف مقتبسة من رسالة كنت قد أعدتها فيما بين عام ١٩٥٢ ، ١٩٥٥ لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن تحت عنوان « السياسة البريطانية في الخليج » (الفارسي) . أما بقية المواد فقد قمت بجمعها خلال عام ١٩٥٥ - ١٩٥٨

— ٦ —

عندما كنت أشغل منصب رئيس قسم البحوث لمعهد دراسات الكومنولث بجامعة أكسفورد . وانه ليسعدنى كثيرا أن أعبّر على صفحات هذا الكتاب عن تقديرى لكافة الذين منحونى التأييد والتشجيع ، وأخص بالذكر البروفوسير كيه . اس . لامبتون ، والبروفوسير دبليو . ان . مدلكوت ، والبروفوسير اس . تى باندوف ، والبروفوسير برنارد لويس ، وجميعهم فى لندن ، والدكتور جى . ال لويس ، والسيدة/ايه ام . شلفر (عميدة كلية أكسفورد بلندن) كذلك أدين بالفضل بنوع خاص للبروفوسير لامبتون على ماأبداه من اهتمام بهذا الكتاب ، وعلى الاقتراحات والانتقادات التى وجهها الى خلال مرحلة اعداد الكتاب . أما السير هاملتون جب فقد تفضل مشكورا بمراجعة مسودة الكتاب ، وساهم فيه بأراء قيمة كثيرة .

ومن البديهي أن أقر بأننى المسئول عن أى خطأ فى الكتاب ، كما أشكر اللجنة المشتركة للمجلس الأمريكى للجمعيات العلمية ومجلس البحوث العلمية للشرق الأدنى والأوسط ثم مركز الدراسات للشرق الأدنى وشمال أفريقيا التابع لجامعة مشجن ، وعلى الأخص البروفوسير دبليو . دى شورجر الذى سمح لى بالتفرغ لكتابة هذا المؤلف أثناء العمل ، كذلك أغتنم هذه الفرصة لأعرب عن تقديرى للمساعدة الكريمة التى لقيتها من موظفى مكتبة ادارة الهند ، ثم من مكتب سجلات ادارة الهند ، خصوصا الأنسة اى . اف . طومسون نائبة أمين المكتبة ، والمستر دوجلاس ماثيوز الأمين المساعد السابق ونائب أمين مكتبة لندن حاليا ، بالإضافة الى عدد من الرجال الذين كان لهم الفضل فى انجاز هذا العمل ، وعلى الأخص عما قدموه الى من عون أثناء زيارتى للخليج للاعداد لهذا الكتاب ، فاذا لم أخصهم بالشكر فردا فردا ، فأرجو الا يتصوروا أننى قد جحدت فضلهم .

وأخيرا أهدي هذا الكتاب الى الرجل الذى كان له الفضل الأكبر فى اخراجه ، والذي لولا نصائحه واهتمامه لما قدر لهذا الكتاب أن يرى النور .

جى . بى . كيلي

لندن - اكتوبر ١٩٦٥

الفصل الأول

الخليج العربى فى أخريات القرن الثامن عشر

ليس فى وسع أى دولة أن تمارس نفوذاً على منطقة الخليج مالم تكن تلك الدولة تملك السيطرة على البحار . ولم يتسن لأى دولة أن تمارس مثل هذه السيطرة منذ سقوط الخلافة العباسية حتى الآن ، الا فى فترتين ، وفى كلتا الفترتين كانت الدولة المسيطرة من الدول البحرية ، مملكة البرتغال فى القرن السادس عشر ، والامبراطورية البريطانية فى القرن التاسع عشر . ولقد كانت السيطرة البرتغالية على الخليج جزءاً من خطة واسعة يعود الفضل فيها الى القائد الكبير الفونسو البكورك ، وكان الهدف منها الوصول الى جزر الهند الشرقية بالاستيلاء على مداخلها التقليدية – البحر الأحمر والخليج العربى ، ثم مضيق ملقا عبر رأس الرجاء الصالح حتى مصب نهر تاجوس . أما سيطرة بريطانيا على الخليج فقد تمت بطريقة عشوائية وعلى حين دخل البرتغاليون الخليج رافعين الاسنة والحرب لفرض سلطانهم عليه، جاء البريطانيون فى البداية كتجار مغامرين يبحثون عن التجارة والثروة ، ولم تتحقق السيطرة الكاملة للانجليز على الخليج الا بعد انقضاء قرنين من الزمان وكنتيجة لسيطرتهم على الهند ، وما ان ولى الربع الثانى، من القرن التاسع عشر حتى كانوا سادة الموقف فى الخليج ، ومنذ ذلك الوقت فرض البريطانيون وصايتهم على هذه المنطقة .

قبل قرون عديدة من وصول البرتغاليين كان الخليج واحداً من أهم المعابر التجارية فى آسيا وعن طريقه كانت تمر منتجات الهند والصين والأرخبيل الشرقى الى الأسواق فى ايران ، والشام ، والعكس من ذلك كانت تعبر السلع الواردة من الجزيرة العربية وايران وأوروبا من نفس هذا الطريق الى الهند والشرق الاقصى . كما قامت وازدهرت على ضفاف الخليج كثير من المدن التجارية المعروفة كالبصرة، والبحرين ، وصراف ، وقيس ، وهرمز، وبوشهر ، غير أن هذه المدن سرعان ماسقطت واندثرت تحت ضغط الأحداث

التي توالى على المنطقة مثل ثورة القرامطة ، وسقوط الخلافة العباسية ، وغزوات المغول ، وقيام امبراطورية صفوى فى ايران . وقد طواها الفناء نهائيا عند اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى الى الهند فى نهاية القرن الخامس عشر ، ومنذ ذلك الحين تحولت جميع الطرق التجارية الرئيسية التى تربط آسيا بأوروبا الى الجنوب بعيدا عن منطقتى الخليج العربى والبحر الاحمر ، أى عبر المحيطات الجنوبية ورأس الرجاء الصالح . ولم تستأنف مسارها القديم الا بعد شق قناة السويس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . أما فيما يختص بالمدن والدول التى نشأت على شواطئ الخليج فقد كانت نهاية القرن التاسع عشر بمثابة كارثة كبرى لتلك الدول ، اذ أن وجودها وازدهارها كطريق دولى للتجارة أخذ يعتمد على علاقاته التجارية بالشام وأسواق البحر الأبيض المتوسط ، وما ان جرد الخليج من هذا الدور حتى سقط فى قبضة السيطرة البرتغالية التى استمرت زهاء قرن من الزمان ، وهكذا أصبح للسفن البرتغالية السيطرة على مياه الخليج ، كما كان ولاية البرتغال هم الذين ينظمون الحركة التجارية فى المنطقة .

ومن قلعة هرمز الكبيرة مركز السلطة البرتغالية ، كان البرتغاليون يمارسون سيطرتهم على مداخل الخليج ولم يكن فى مقدور أى دولة من دول الخليج ، ولا حتى امبراطورية صفوى فى فارس تحرير المنطقة من قبضة النفوذ البرتغالى لأن أيا من هذه الدول ، ولا حتى الدولة الفارسية كانت فى وضع يسمح لها بتحدى القوة البحرية البرتغالية .

ولم تتح الفرصة للشاه عباس الأول ، أعظم أباطرة أسرة صفوى لطرد البرتغال من هرمز الا عند قدوم الانجليز الى المنطقة فى القرن السابع عشر ، حيث استعان بأسطولهم البحرى فى تحقيق هذا الأمر . وبسقوط قلعة هرمز فى يد قوة مهاجمة من الفرس والانجليز سنة ١٦٢٢ انتهت للأبد السيطرة البرتغالية على منطقة الخليج ، وانفتحت أسواق ايران والجزيرة العربية أمام التجارة البريطانية ، ولم تحاول هولندا أو فرنسا ، وهما الدولتان الأوربيتان التجاريتان اللتان جاءتا فى أعقاب الدخول البريطانى الى الخليج ، أن تمارسا سيطرتهم على الخليج على غرار السيطرة البرتغالية فقد حصرتا

تشاطهما في المنطقة ضمن النطاق التجارى فحسب ، وفي العشر الأخير من القرن الثامن عشر لم يبق من الوجود الأوروبى في الخليج غير شركة الهند الشرقية البريطانية ، وإن كانت مصالح هذه الشركة في تلك المرحلة قد تقلصت الى حد كبير ، ولقد عمت الفوضى المنطقة منذ النكسة التي أصيبت بها البرتغال ، وترك الأمر للمشيوخ العربى الصغيرة الواقعة على ساحل الخليج لتتنافس بين بعضها البعض على السلطة .

وكانت أكبر هذه الامارات هى سلطنة عمان التى تقع خارج حزام منطقة الخليج الأصلية . وفي العصور الوسطى كان اسم عمان يطلق على كل ذلك الجزء من الجزيرة العربية الذى يقع شرقى قطر ثم جنوبا الى المحيط الهندى ، وفي القرن الثامن عشر كان هذا الاسم يطلق على الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية والتي تشكل اليوم سلطنة عمان وساحل الهدنة . ولقد صنعت الجغرافيا من عمان استراتيجية ، اذ يحيط بها البحر من اجزائها الثلاثة ، بينما تلتف رمال الربع الخالى بجزئها الرابع الذى يفصلها عن بقية الجزيرة العربية ، وتحكم في عمان سلسلة من الجبال تسمى جبال الحجر تبدأ من رأس رموس الجبال حتى الخليج العربى، ثم تمتد صوب الجنوب الشرقى على شبه نصف دائرة كبيرة تمتد الى البحر العربى ، وإلى الشرق من هذه السلسلة بينها وبين خليج عمان يقع سهل الباطنة الساحلى ، ويبلغ طول هذا السهل ١٥٠ ميلا وعرضه نحو عشرة أميال ، ويبدأ من الجهة الشمالية من بلدة شناص ، وينتهى جنوبا في مدينة مسقط ، حيث تمتد الجبال داخل مياه البحر .

أما في الداخل فإن الأرض تمتد منتهية في شكل مجموعة من السهل الصخرى تشقه أعداد كبيرة من الوديان أو جداول المياه ، ويسمى الجزء الشمالى من هذا السهل الظاهرة ، والجنوبى منه حمراء الدروع ، أما في الغرب فإن المنحدرات تختلط بسلسلة من السهول الرملية أو بحيرات الملح ، حيث تقع على الناحية الجنوبية من منطقة الرمال المتحركة أو الرجراجة وتعرف (بأم السميم) وإلى الغرب أكثر من السبخة تقع سلسلة تلال رمال الربع الخالى غير المطروقة .

- ١٠ -

ويشق منطقة الحجر عدد من الوديان التي تفتح الطريق الى داخلية عمان ، وأكبر هذه الوديان وادى سمائل الذى يقسم منطقة الحجر قسمين الحجر الغربى والحجر الشرقى ، ولا يفصل وادى سمائل عن ثانى اكبر وديان عمان ، وهو وادى حلفين ، غير خور ضيق يمتد فى اتجاه الجزء الشرقى من خليج عمان شاقا طريقه نحو الجنوب حتى شواطئ البحر العربى ، ويطل على بطن وادى سمائل سلسلة من القمم تعرف فى مجموعها بالجبل الأخضر، يصل ارتفاعها الى ١٠ آلاف قدم ، وهى أعلى سلاسل الجبال العمانية كلها . وعلى بعد بضعة أميال الى الغرب تقع سلسلة جبل الكور التى لا تقل اثارة عن غيرها . أما الجانب الشرقى من عمان ، ابتداء من رأس الحد شمالا حتى ظفار جنوبا فان البلاد تشكل خليطا من كثبان الرمال كمنطقة بنى وهبة أو السهول الحجرية كمنطقة الهفوف ، والمنحدرات الصخرية كجده الحراسين. أما ظفار ، السهل الأخضر المطل على البحر العربى فان هبوب الرياح الموسمية السنوية عليه يجعله نعمة على هذا الجزء ، وذلك لما يصاحبه من أمطار ، الى جانب وجود سلسلة جبال القرا التى تحيط به من الشمال وتحميه من الرياح الحارة التى تهب عليه من صحراء الربع الخالى .

من الوجهة التقليدية تنقسم عمان الى عدد من المقاطعات لا يمكن وضع حدود دقيقة لها ، ولكنها تتوافق مع التقسيمات الطبوغرافية للبلاد . ولا يمكن اعتبار رؤوس الجبال ، وهى مجموعة الجبال المطلة على مدخل الخليج العربى كاحدى مقاطعات عمان القديمة ، وان كانت هذه المجموعة تؤلف جزءا من سلطنة عمان الحديثة ، كذلك لم تكن ظفار مقاطعة من مقاطعات عمان فى القرن الثامن عشر ، غير ان الباطنة التى تشكل السهل الساحلى هى المقاطعة الاولى لعمان ، وقد أطلق عليها هذا الاسم باعتبارها تمثل جوف عمان بالمقارنة الى مقاطعة الظاهرة التى تعتبر بمثابة ظهر عمان . وتمتد مقاطعة الظاهرة من واحة البريمى فى الشمال حتى جبل الكور فى الجنوب حيث تنتهى فى المنطقة الام أو عمان الوسطى أى المنطقة المحيطة بالجبل الأخضر أو جبل الكور والمرتفعات العليا لوادى حلفين . أما المنحنيات الجبلية الواقعة فى الشرق من وادى سمائل فتعرف بالشرقية ، والى الجنوب والشرق منها تقع جعلان ممتدة على البحر العربى حتى منطقة رأس الحد . أما المنطقة الشمالية والتى تعرف فى الوقت الحاضر بعمان المتصالحة فهى

تشكل ، كما يدل عليها اسمها ، الحدود الشمالية للبلاد ، وهي الوحيدة التي تطل على الخليج العربي . أما المقاطعة السادسة وهي المسماة بالغربية فلم يعد لها وجود الآن ، ولكنها كانت تشكل في العصور الوسطى الجزء الغربي من أبو ظبي امتدادا الى شبه جزيرة قطر . ولقد أثرت الطبيعة الجبلية لعمان على أهلها تأثير عميقا ، إذ أن معظم هؤلاء السكان الذين يقدر تعدادهم فيما بين نصف أو ثلاثة أرباع المليون يقطنون الوديان الغربية والشرقية من منطقة الحجر (١) ، وعلى الأخص المنطقة المحيطة بالجبل الأخضر وعلى سهل الباطنة .

ان التركيب الاجتماعي لعمان قبلى محض : ففيها قرابة مائتي قبيلة رئيسية واعداد لا تحصى من القبائل الفرعية . كما أن عزلة هذه البلاد عن العالم ، ثم عزلة كل قبيلة عن القبيلة الأخرى كان سببا في انتشار عمليات الثار والأحقاد القبلية فيما بينها . وتكتل قبائل عمان ضمن طائفتين سياسيتين متناوئتين هما الهناوية والغافرية . ومن العسير تحديد أو تفسير أصول هذا الانقسام القبلى ، وترى بعض الأوساط أن منشأ هذا الانقسام هو الحروب الأهلية التي مزقت عمان في القرن الثامن عشر ، بينما يرجعه البعض الآخر الى العرب الأوائل الذين استوطنوا عمان . فقد بدأت هجرة القبائل العربية الى عمان من الجنوب العربى للجزيرة في فترة مبكرة من القرن التاسع قبل الميلاد ، واستمرت في التدفق على البلاد على امتداد العشرة قرون التالية ، ولقد استأثرت هذه القبائل اليمنية أو القحطانية ، كما كانت تدعى ، بالأرض الجديدة حتى القرن الرابع أو الخامس بعد الميلاد ، عندما استقبلت البلاد أفواجا جديدة من المهاجرين من أواسط وشرق الجزيرة . وقد استقر

(١) حسب تقدير المعتمد السياسى البريطانى في مسقط كان سكان عمان

في سنة ١٨٨٠ نحو ٦٠.٠٠٠ نسمة وهم السكان الأصليون و ٢٠.٠٠٠ نسمة للأقليات والعناصر غير العمانية (من أفريقيين وهنود وإيرانيين . . . الخ) وذلك وفقا للتقرير الإدارى - السنوى ١٨٨٠ - ١٨٨١ من اعداد اللقنات كولوئيل اس . بى مايلز بعنوان «ملاحظات على القبائل العمانية » تأليف جى . جى . لوريمر الذى يقدر عدد سكان عمان سنة ١٩٠٨ بنحو ٥٠٠ ألف نسمة ، ٣٠ ألفا منهم من البدو . راجع جريدة الخليج الفارسى عمان وأواسط الجزيرة العربية مجلد ٢ طبعة كلكتا ١٩١٥ الجزء الثانى عدد ١٤١٢

القادمون الجدد من العدنانيين والنزاريين ، وهو الاسم الذى كانت تعرف به هذه القبائل اليمنية ، فى عمان ، رغم المعارضة القوية من اليمنيين القاطنين شمال وادى سمائل ، والمنطقة التى تعرف الآن بساحل الصلح . والمعروف أن القبائل المنحدرة من اصل يمنى تسمى الهناوية بينما المنحدرة من نزار تعرف بالغافرة ، أى أن الأولى من قبائل بنى هناء ، والثانية من سلالة بنى غافر . وظل هذا الانقسام يغذى الصراع القبلى الذى اشرنا اليه آنفاً^(١) . على أن أهم مافى مجموعة قبائل بنى هناء هم آل سعد أو بال سعد . سكان الباطنة ، والحِث والحجرين ، والحبوس سكان مقاطعة الشرقية ، وآل بوسعيد ، وبنى رواحة والعوامر سكان عمان الوسطى ، بالإضافة الى بنى بوعلى سكان الظاهرة وبنى بوحسن سكان جعلان ، والنعيم سكان الطاهرة ، وقبائل الحبشية وبال وهيبة وهما فصيلتان من ثلاث قبائل عمانية رئيسية ، وهما قبائل بدائية ، موطن نشاطها جنوب وشرقى عمان من ظفار حتى مقاطعة الشرقية ، وكلتا القبيلتين تنحدر من أصل هناوى ، بينما القبيلة الثالثة ، الدروع فمِنْطقة ارتيادها سفوح عمان ، وهى تنقل ولاءها من الهناوية الى الغافرية^(٢) .

وبجانب الانقسام القبلى بين هذين الفريقين ، هناك الانقسام المذهبى او الطائفى ، ذلك أن معظم ان لم يكن جميع قبائل الغافرية من السنة بينما تنتمى أغلبية الهناوية الى المذهب الاباضى ، وهو مذهب الخوارج الذى ظهر فى القرن الاول للهجرة بعد أن انشق مجموعة من المسلمين على الامام على ابن أبى طالب ، على اثر موقعة حطين فى شهر يوليو ٦٥٧ بعد الميلاد ، بسبب موافقته على التحكيم فى الصراع الذى نشأ بينه وبين خصمه معاوية على

(١) فى الوقت الحاضر لا تلعب هاتان القبيلتان دورا يذكر فى الشؤون السياسية للبلاد على الرغم من أن غالب بن على الذى تولى الامامة فى عمان سنة ١٩٥٤ ينتمى الى بنى هناء ، أما بنو غافر فقد كانوا يعرفون بالميايمة أى المتقبلو الولاء لانهم يمنحون ولاءهم مرة الى هذه القبيلة ومرة الى تلك .

(٢) بعض هذه القبائل مستثنون من الهناوية العاديين المنتمين الى الأصل اليمنى أو النزارى أو الغافرى . فالحِث وبنى رواته رغم كونهم هناوية الا أنهم ينحدرون من أصل نزارى أو يمنى بينما بنورىام والنعيم والجة وهى كلها قبائل غافرية تنحدر من أصل يمنى وليس نزاريا .

الخلافة فقد أصرت هذه الجماعة ببطلان التحكيم في الخلاف ، وطالبت بالاحتكام الى كتاب الله . وانكفأت تقاوم هذا الموقف بالقوة واللجوء الى الارهاب . ولكن الامام على تمكن من سحق هذه الفئة المرتدة عنه سنة ٦٥٨ م ، فيما عدا بعض الجيوب التي بقيت على قيد الحياة في العراق وفي غيره من الاقطار .

ان احدى فئات الخوارج هؤلاء وهى تقطن منطقة قريبة من البصرة هى فئة الاباضية وقد سمت بهذا الاسم انتماء الى أحد زعمائها الاوائل عبد الله ابن اباض الذى انفصل عن فئة الخوارج الأشد تطرفا في سنة ٦٨٥ بعد الميلاد، الامر الذى سهل للمتعاقبين من خلفاء أمية أن يقبلوا بوجود هؤلاء في مجتمعاتهم . وعند وفاة عبد الله بن اباض (وتاريخ وفاته مجهول) انتقلت زعامة الاباضيين الى عبد الله الشيت جابر بن زيد الأزدي الذى نزح من نزوى في عمان ، وعلى الرغم من المكانة العلمية التى كان يحتلها عبد الله الشيت بين مسلمى العالم (فقد كان معروفا أنه من أكبر جامعى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم) وأنه كان ينتهج سياسة وفاق مع خلفاء بنى أمية ، كما كان يفعل سلفه واتجهت الحركة الاباضية في عهده الى التجديد أكثر وأكثر حتى سنة ٧٢٠ هجرية عندما أقصى عدد كبير من أتباعها الى عمان .

ولقد انتشرت الأفكار الاباضية والخوارجية في عمان في مستهل الحركة وتعمقت فيها وعلى الأخص بين القبائل ذات الأصل اليمنى . وعند قيام الخلافة الأموية الأولى انفصلت عمان عن الامبراطورية العربية ، ولم تعد اليها الا خلال الحقبة الأخيرة من القرن السابع بعد الميلاد ، عندما أخضعها الحاكم الحجاج بن يوسف لسلطانه ، لكنها عادت فانفصلت عن الامبراطورية العربية بعد وصول الجماعات الاباضية المطرودة من البصرة بعد عام ٧٢٠ وبعد سقوط الخلافة الأموية في عام ٧٥١ ميلادية انتخبت عمان أول امام شرعى لحكمها هو الجلندى بن مسعود ، ولكن حكمه كان قصيرا الى حد كبير ، وخلال عام واحد منه قام السفاح الخليفة العباسى الجديد بفرض سلطانه على عمان بعد اعدام الامام الجلندى ، غير أن النظرية الاباضية كاثبت حتى ذلك الوقت قد تعمقت بصورة قوية في وجدان العمانيين حيث غدا من المستحيل استئصالها ، فضلا عن أنها قد ارتبطت في أذهانهم بالاستقلال .

وقد شهدت عمان عبر القرنين التاليين سلسلة من الأئمة المنتخبين ، قاد معظمهم ثورات متواصلة ضد الحكم العباسي ، ولكنهم أقصوا عن السلطة عن طريق الحملات التأديبية التي كان يقوم بها العباسيون .

وفي نهاية القرن العاشر للميلاد تلاشى نفوذ العباسيين كليا من عمان مع تفكك أوصال امبراطوريتهم ، ومن ثم استعادت الامامة سلطتها على عمان باعتبارها نظام الحكم المفضل .

مبدئيا لا يختلف الإباضيون عن المسلمين السنة كثيرا . والشئ الوحيد الذي يميزهم عن غيرهم من الفرق الاسلامية ، هو تمسكهم الشديد بنصوص الشريعة ، ويقول المؤرخ كارستين ينهور في ملاحظة له عن الإباضية خلال زيارته لمسقط سنة ١٧٦٥ بقوله « بأننى لم ألتق في حياتي بمحمديين يبدو عليه الوقار والتواضع كهؤلاء الإباضيين ، فهم لا يدخنون ولا يشربون الخمر ، كما أنهم يتناولون كميات قليلة من القهوة ، كما أن رجالهم لا يرتدون ملابس ازهى من الملابس التي يرتديها غيرهم من العامة ، كما لا يميزهم عن هؤلاء الا العمائم البيضاء المزركشة وسيوف لامعة مدلاة على اكتافهم ، كما يحملون الخناجر الجميلة ويحزمونها على أوساطهم ، كما أنهم مشهورون بعدم الانفعال بسرعة ، وهم مهذبون تجاه الأجانب ويسمحون لهم بالعيش في البلاد وفقا لقوانينهم (١) . وكفيرهم من الخوارج (الذين انقرض أكثرهم الآن) فان الإباضيين متسامحون مع غير المسلمين ، وبالأخص تجاه المسيحيين واليهود ، وهذا من الأمور البارزة اذا ما قورن بموقفهم المتشدد جدا تجاه الطوائف الاسلامية الأخرى ، ويعود هذا التعصب الى أصول العقيدة الإباضية .

وكان الإباضيون الأوائل عموما كفيرهم من الخوارج لا يقرون نظرية الحاكم الدائم ، وفي رأيهم أن الامام المنتخب شرعا هو شخص تفرضه الظروف ، ولكن لابد أن يتولى الامامة عن طريق الانتخاب في كل مرة ، ولا يحق لاي أسرة أو طبقة أن تحتكر الحكم لنفسها بالوراثة ، وعلى العكس من ذلك فان من حق أي فرد ، مهما كانت طبقة أو وضعه الاجتماعي أن يتولى مسؤولية الحكم اذا توفرت فيه الاستقامة الدينية والأخلاقية ، وبالعكس فمن واجب المسلمين الصادقين أن يقوموا باقالة أو اعلان بطلان شرعية أي حاكم لا تتوفر فيه خصائص الامامة الصحيحة ، ومن ثم فقد كان فريق من الخوارج يعتبر الامامة بمثابة خليفة المؤمنين ، وبالتالي فان الأئمة أو الخلفاء الذين يعتبرهم الخوارج أئمة شرعيين هم « أبو بكر وعمر » وعلى الرغم من أن بعض فرق

الخوارج كانت تعتبر عثمان أيضا اماما شرعيا من أئمة المسلمين وذلك في الفترة الأخيرة من حكمه ، وكذلك على ابن أبي طالب قبل موقعة حطين .

ويعتقد الإباضيون بأنهم الفئة الإسلامية الوحيدة التي تطبق الدين وفقا للمبادئ الإسلامية الصحيحة وبالتالي فإن الجنة في اعتقادهم ستكون مთاهم في اليوم الآخر . أما الفئات الإسلامية الأخرى فهي في نظرهم بعيدة عن الإسلام وأقرب إلى الكفر . وتحلل الفئة المتطرفة من الإباضيين دم غيرهم من المسلمين على هذا الأساس .

وعلى الرغم من أن جميع الإباضيين متفقون حول قضية الإمامة، شأنهم شأن الفئات الأخرى من الخوارج ، إلا أنهم أقل تطرفا تجاه المذاهب الإسلامية الأخرى فلا يرمونها بالضلالة أو الكفر كما أنهم لا ينادون بقتل أصحابها، ومن هنا فإن الإباضيين في عمان لا يصرون على أن يكون امام المسلمين اماما ملتزما ، بمعنى أن يعلن الجهاد على غير المسلمين (١) . وإنما يكفي أن يلتزم بالشورى في الحكم ، وبالتروى في قيادة الجماعة الإسلامية ، ووفق هذا المفهوم تصبح مهمة الامام قيادية تسير على هدى القرآن والسنة والأحاديث النبوية الصحيحة وأن يقتدى الامام بمن سبقه من الأئمة .

وعلى هذا الأساس فمن حق المسلمين خلع امامهم عن السلطنة اذا لمسوا فيه انحرافا أو خروجا على تلك المبادئ الأساسية . وقد يظل منصب الامام شاغرا في بعض الحالات لأن استمرارية الامام لا تعتبر في نظرهم شرطا الزاميا من شروط الإسلام ، أو ما يسمى بالإمامة الشرعية ، وذلك بعدد من الأسباب مقدمتها اعتقادهم بأن الخير والشر هما من فعل الانسان ، وإن الله يحاسب الخلق على أفعالهم خيرا كانت أم شرا . ولا يقر الإباضيون خلافة كل من الامام على وعثمان على نقيض غيرهم من مسلمي المذاهب الأخرى .

إن الصراع الطويل الذي استمر خلال القرنين التاسع والعاشر بعد الميلاد بين الإباضية في عمان وخلفاء بني العباس قد أضفى على نظام الإمامة

(١) يطلق الخوارج على أنفسهم اسم الشراة (جمع شاري) أى أولئك الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله عندما ثاروا ضد الامام على بن أبي طالب .

صبغة علمانية طغت على صبغته الدينية . وبالتالى أصبح ذلك الموقف خياريا وليس الزاميا بالنسبة للمؤهلات التى ينبغى أن تتوفر فى الامام لى يحكم المسلمين ويحمى الوطن الاسلامى . وقد اعتاد الاباضيون فى عمان على انتخاب أئمتهم من بين القبائل ذات الاصل اليمنى ، أما عملية الانتخاب فتتم عن طريق مجلس مشترك من زعماء القبائل وعلماء الدين .

وفيما يلى نموذج لصيغة البيان الذى يصدر به انتخاب الامام وهو البيعة وتعود صيغة هذا البيان الى عهد الامام مرشد بن الوليد الذى تولى الامامة فى القرن العاشر بعد الميلاد . (نص البيعة) (١) .

يشكل القسم الأعظم من المدون التاريخى عن عمان الذى استطاع أن يعثر عليه الأب جى . بى . بادجر فى عام ١٨٦٠ عندما كان عضوا فى لجنة تقصى الحقائق المشتركة بين مسقط وزنجبار (راجع الفصل الثانى عشر) ، وهو الذى قام بترجمته وتبويبه الأب المذكور ، وصدر من مؤسسة هلكوت عام ١٨٧١ تحت عنوان تاريخ (سلاطين وأئمة عمان) ويسمى بادجر مؤلف هذا الكتاب الذى يروى تسلسل الأحداث فى عمان حتى عام ١٨٥٦ سليل بن رزق ، غير أن اسمه الحقيقى كما يشير روس فى مؤلفه تاريخ عمان صفحة ١١٢ وكما جاء فى تقرير المقيم السياسى فى الخليج عام ١٨٨٢ - ١٨٨٣ تحت عنوان « ملخص لتاريخ (٢) عمان منذ عام ١٧٢٨ حتى ١٨٨٣ » فإن اسمه حمد بن محمد بن رزق وأن لفظة سليل معناها الابن ، وبالطبع كما يشير بادجر نفسه فى الصفحة الأخيرة من الترجمة هو أن اسمه حمد بن محمد بن رزق .

(١) لم يذكر المؤلف نص البيعة .

(٢) « عمان منذ فجر التاريخ حتى عام ١٨٢٣ م » تأليف الليفنتانت كولونيل اى . اس . روس المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط ويكاد يكون هذا الكتاب ترجمة انجليزية لكتاب « كشف الغمة » تأليف الشيخ سرحان بن سعيد من سكان نزوى وقد كتبه فى القرن الثامن عشر ويبدو أن المؤلف قد فرغ من كتابته عام ١٨٢٨ وهو التاريخ الذى تنتهى عنده أحداث الكتاب وعلى حد رأى روس فإن هذا الكتاب الذى هو صورة الاصل لكشف الغمة يشكل الجزء الاكبر من المخطوط التاريخى لعمان الذى حصل عليه القس . جى . بى . بادجر عام ١٩٦٠ وكان وقتها ضمن لجنة التحقيق لالزنجبارية المسقطية والذى قام بادجر بترجمته والتعليق عليه وقامت بنشره دار هلكوت =

وكان المؤلف مواطنا من بلدة (نخل) في عمان الوسطى ، وقد وافاه الأجل في عام ١٨٧٣ في مدينة مسقط .

وقد اختفت الامامة من عمان في منتصف القرن الثاني عشر ، وذلك بعد ان استولت قبيلة بنى نهان من أواسط عمان على السلطة في البلاد ، واقامت فيه حكما ملكيا شمل البلاد كلها ، واستمر حكمهم زهاء قرنين ونصف .

وقد اختفت الامامة من عمان في منتصف القرن الثاني عشر ، وذلك بعد. عندما بدأت سيطرة النباهنة في الانحلال وذلك بعد عام ١٤٢٩ تقريبا . وقد ظل نظام الامامة خلال القرنين التاليين في وضع غير مستقر ، وعلى حين ظلت السلطة في يد النباهنة في الأجزاء الداخلية من البلاد فان المناطق الساحلية قد خضعت لسلطة البرتغال .

وابتداء من عام ١٥٠٧ أصبحت سور ومسقط ومطرح وصحار وخورفكان في أيدي الغزاة البرتغاليين ، وبانتخاب الامار ناصر بن مرشد الذي ينتمي الى طائفة اليعاربة سكان بلدة الرستاق عام ١٦٢٤ استردت الامامة سيطرتها وسلطانها على البلاد . وقد استطاع اليعاربة أن يحققوا بعضا جديدا للسيطرة العمانية على المقدرات السياسية في شبه الجزيرة العربية ، كما استطاع مرشد أن يواصل ضغطه على البرتغاليين حتى أرغمهم على التخلي عن الساحل العماني بحيث لم يعد لديهم من المواقع عند وفاته عام ١٦٤٩ غير التحصينات الداخلية على مشارف مدينتي مسقط ومطرح ، ثم جاء ابن عمه

= عام ١٨٧١ تحت عنوان تاريخ «أئمة وسلاطين عمان» ويطلق بادجر على مؤلف هذا الكتاب الذي يتعرض الى تسلسل الأحداث في عمان منذ عام ١٨٥٦ سليل ابن رزيق غير أن الاسم الأصلي للكتاب كما يشير روس هو « تاريخ عمان » ص ١١٢ والتقرير الإداري السنوي للمعتمد البريطاني في الخليج ١٨٨٢ — ١٨٨٣ ، روس « ملخص لتاريخ عمان » ابتداء من عام ١٧٢٨ حتى ١٨٨٣ وأن اسمه هو حمد بن محمد بن رزيق وأن عبارة سليل تعنى الابن « أى ينحدر منه » وبالفعل فان بادجر نفسه يطلق عليه في الصفحة الأخيرة من ترجمته « انظر ص ٣٧ » أئمة وسلاطين عمان » يسميه حمد بن محمد بن رزيق وكان من سكان نخل من المنطقة الوسطى في عمان وقد توفي في مسقط عام ١٨٧٣ .

(م ٢ — بريطانيا والخليج)

سلطان بن سيف وطردهم من مسقط في يناير عام ١٦٥٠ ثم واصل القتال ضدهم بشن هجوم على تحصيناتهم في منطقتي ديو والدمام ، وقد تحولت عمان في ظل اليعاربة الى أكبر قوة بحرية غير أوربية في مياه الشرق ، وما كاد ينتهى القرن حتى تمكن الامام العمانى سلطان بن سيف من طرد البرتغاليين من كل من ممباسا وكليواوبمبا ، وارساء أسس أول حكم عمانى لأفريقيا الشرقية وما يبعث على الأسف أن اليعاربة رغم نجاحهم في اقامة قاعدة لأول حكم وراثى فى عمان ، لم يخلفوا وراءهم حكاما عمانيين من نفس طرازهم أو معدنهم ، ومن ثم فان دولتهم لم تخسر سمعتها فى الخارج بعد قرابة مائة عام من بداية حكمهم للبلاد بما فى ذلك الثلث الأول من القرن الثامن عشر فحسب ، وانما كانت على شفا الانهيار فى داخل البلاد نفسها(١) .

عند وفاة الامام اليعربى الحاكم سلطان بن سيف عام ١٧١٨ ، انتخب نجله سيف ، وكان صبيا عمره اثنا عشر عاما ، اماما جديدا لعمان ، وقد واجه انتخابه معارضة من بعض رؤساء القبائل التى رأت فى انتخاب قاصر خروجاً على المألوف ، واختاروا بدلا منه اماما آخر من أسرة اليعاربة وقد تسببت عملية الازدواج فى اختيار الامام منافسة قوية بين مؤيدى انتخاب نجل الامام سلطان بن سيف وكبار رؤساء القبائل ، وهو وضع لم يسئ الى نظام الحكم فحسب ، وانما أسفر عن سلسلة من الثورات والتمردات فى طول

(١) بالنسبة للاباضية والتاريخ القديم لعمان راجع عمان ص ١١٨ - ٦٦ ترجمة روس . وتتناول التعاليم الاباضية فى عمان كما ورد فى التقرير الادارى السنوى لدار المقيم البريطانى فى الخليج وملاحظاته عن الطائفة الاباضية فى عمان وكتاب « أئمة وسلاطين عمان » تأليف بادجر ص ١ - ٣٠ ومن ١ - ٩٩ ملحقاته وكتاب « أقطار وقبائل الخليج » تأليف الكولونيل اس . بى مايلز المجلد الثانى طبعة لندن ١٩١٩ وكتاب الخليج الفارسى تأليف السيرارنولد ولسون طبعة اكسفورد ١٩٢٨ من ص ٧٧ الى ٨٣ ودائرة المعارف الاسلامية تأليف هوتسما المجلد الرابع طبعة لندن ١٩٢٤ والاباضيون لعبد الله ابن أباض و « الاباضية » وموجز دائرة المعارف الاسلامية تأليف « ١ . ح . اى . أرجب ورجى » اس كرامرز طبعة لندن ١٩٣٥ .

البلاد وعرضها . وكان أنجح المتنافسين على الإمامة محمد بن ناصر من الغافريين ، الذي انتخب اماما في عام ١٧٢٤ بمعاونة أغلبية القبائل النزارية ، غير أن انتخابه لاقى معارضة عنيفة من خلف بن مبارك ، الملقب بالقزم ، وهو شيخ من بنى هناء ، وكان قد دخل في صراع مسلح بالفعل ضد زعيم الغافريين وكان خلف يخوض حربا بتأييد من بنى هناء لخلع محمد بن ناصر . وسرعان ما استدرجت الحرب الى ساحتها كل قبائل عمان تقريبا ، وتحالف نزاريو الشمال مع بنى غافر ، بينما تحالف قبائل الجنوب أو اليمينيين مع بنى هناء ولقد لقي كل من مبارك ومحمد بن ناصر مصرعهما خلال المعارك التي دارت رحاها في مدينة صحار عام ١٧٢٨ ، ومع ذلك فقد استمر الصراع بين الفريقين دون هوادة ، حتى أسفر في النهاية عن قيام معسكرين متخاصمين . وقبل ذلك كان سيف الثاني بن سلطان قد بلغ مبلغ الرجال مما أتاح لتحالف القبائل الهناوية الفرصة لانتخابه اماما على عمان ، بينما قامت مجموعة القبائل الغافرية بانتخاب امام منافس له ، هو بلعرب بن حمير . ولكن سيف تمخض عن شخصية ضعيفة وغير مؤهلة للحكم ، بل وعرض نفسه لعداء الفئات الاباضية الأشد تعصبا بانغماسه في الدعارة والفسق والتدخين^(١) حتى أوشك حكمه خلال سنوات قليلة على الانهيار ، وأخيرا اضطر سيف كخطوة يائسة الى طلب المساعدة العسكرية من شاه ايران يومئذ نادر شاه .

في ربيع عام ١٩٣٧ نزلت القوات الايرانية على الحدود الشمالية من عمان ، ومنها تقدمت الى واحة البريمي ، وقد التقى جيش بلعرب بن حمير مع القوات الايرانية في منطقة الظاهرة وانتهت المعركة بينهما بهزيمة بلعرب .

ولقد وصل الايرانيون في زحفهم عن طريق عبرى ونزوى الى مشارف مسقط ولكنهم سرعان ما انسحبوا من البلاد بعد تدعيمهم لحكم الامام سيف . وتنازل بلعرب عن الامامة كنتيجة للهزيمة التي منى بها . وقبل مضي وقت طويل ظهر في عمان منافس جديد على الامامة هو سلطان بن مرشد الذي سرعان

(١) وصف للجزيرة العربية ، طبعة كوبنهاجن عام ١٧٧٣ ص ٢٥٨ .

ما تمكن من طرد سيف من مسقط . وقد فر سيف الى ايران حيث استنجد مرة اخرى بالشاه متعهدا له بالتنازل عن مدينة صحار على طرف الساحل الشمالى للباطنة مقابل تأييده ، ولقد قام الفرس مرة اخرى بغزو عمان واجتياحها ، كما أعيد مرة أخرى تنصيب سيف اماما على البلاد ، وقد لجأ مرشد الى صحار ، واعتصم عند واليها يومئذ ، أحمد بن سلطان ، الذى رفض تسليم المدينة الى الفرس . وبذلك أصبحت صحار نقطة تجمع لكل العمانيين والمناهضين للاحتلال الفارسى . وفى عام ١٧٤٣ قام أحمد بن سعيد بشن هجوم ضد الغزاة الايرانيين وتمكن من تحرير منطقة الباطنة وارغام الغزاة على التراجع والتحصن وراء أسوار مدينة مسقط ، وبعد عام من هذا التاريخ استسلمت هذه الحاميات للقائد الجديد . وقد توفى الامام سيف كمدا بسبب البلاء الذى انزله بالبلاد والاهالى كما يقول ينبهور^(١) كما قتل سلطان ابن مرشد اثناء معارك الدفاع عن صحارى .

ان حرب الخمسة والعشرين عاما التى خاضها العمانيون بجانب الاحتلال الايرانى قد أنهكت القبائل وأثارت الآلام فى نفسها حتى أصيبت بحالة من اليأس مما جعلها تتفق أخيراً فى عام ١٧٤٩ على انتخاب أحمد بن سعيد اماما عليها^(٢) ،

(١) نفس المصدر .

(٢) يختلف سجل الأحداث من عام ١٧٣٧ حتى ١٧٤٩ من مرجع الى آخر . ففى كتاب بادجر «أئمة وسلاطين عمان» ص ١٧ - ٣٠ وحتى ٩٩ - ١٦٩ يحدد تولى الامام سلطان بن مرشد الامامة عام ١٧٣٨ وطرد الفرس وانتخاب أحمد اماما عام ١٧٤١ أما ينبهور فيحدد فى كتابه (وصف للجزيرة العربية) ص ٢٥٨ - ٦٣ هذه الفترة فى عام ١٧٤٩ . وعن المرحلة الفاصلة بين طرد الفرس وانتخاب أحمد يقول هذا المؤلف أنها ترجع الى عودة الامامة واستئنافها من قبل بلعرب بن حمير قبل اخراج الايرانيين من البلاد ، والاحتفاظ بها لفترة من الوقت ، كما يذكر أن بلعرب كان فردا فى عائلة سلطان بن مرشد . ويجمع بادجر ولوريمر (الجريدة الرسمية للخليج) ان بلعرب توفى مذبوحا من جانب أحمد بعد هزيمة الفرس فى عمان . كما يؤيد هذا الراى الكاتبن جولين فى (وثائق من تاريخ وجغرافية وتجارة افريقيا الشرقية) المجلد الثالث ٥٤٠ - =

وبانتخاب الامام أحمد بن سعيد يبدأ حكم أسرة آل بوسعيد لعمان ، وهو الحكم الذى استمر بغير انقطاع حتى وقتنا الحاضر . كما أن انتقال السلطة الى هذه الأسرة قد أحدث تغييرات عميقة فى طبيعة الحكم لم تظهر آثارها حتى بداية الجبل الثالث من حكم هذه العائلة . وعلى الرغم من أن قبيلة آل بوسعيد موطنها الأصلي أدم، الواقعة على أطراف المرتفعات الوسطى فى عمان ، فإن أفراد هذه القبيلة كانوا تجارا وكانوا يزاولون التجارة والملاحة على الشاطئ الشرقى لعمان ، كذلك فقد وجه اليعاربة قسما كبيرا من نشاطهم للتجارة والنشاط الملاحى عبر البحار ، الا أنهم على عكس آل بوسعيد كان اهتمامهم مركزا على تكريس سيادتهم الإقليمية على البلاد . وكان الامام أحمد فى المقام الاول تاجرا وأحد ملاكى السفن ، وبالتالي أصبحت القوة التجارية والبحرية فى عهده أساس السيادة فى عمان . ولكن هذا المظهر للسلطة لم يكن كافيا مما تسبب فى ظهور القلاقل والثورات العديدة التى قامت ضده فى الظاهرة والمنطقة الشمالية من البلاد ، فلقد اضطر الى تجنيد جيش من المرتزقة ، البلوش والعبيد الأفريقيين ، وهى عادة حذا خلفاؤه حذوه فيها ، غير أن جيشا بهذا التركيب لم يكن يستطيع الاحتفاظ بسلطان الحكم على البلاد ، فقد كان أحمد

= ٤٢ ولكنه يضيف الى ذلك بأن أحمد انتخب فعلا اماما لعمان قبل قيامه بذبح بلعرب وان كلا الحادتين وقعا فى عام ١٧٤٤ ، ولا يشير مايلز فى كتابه « بلدان الخليج وقبائلها » ص ٢٣٨ - ٦٤ الى التاريخ الذى تم فيه اجلاء الفرس عن عمان وانتخاب أحمد ولو أنه يعتبر عام ١٧٤٤ تاريخا لكلا الحادتين ثم فى وصفه لقبائل عمان فى المجلد الثانى ص ٤٣٥ يقول أن أحمد تولى الامامة على اثر وفاة بلعرب اليعربى سنة ١٧٤٩ بعد الميلاد. وجاء فى المجلة الملكية بقلم س. ان. بلجنهام تحت عنوان « حكم أحمد بن سعيد امام عمان » أن ثمة مخطوطة تاريخية مجهولة عن عمان فى المتحف البريطانى تشير الى أن سلطان بن مرشد تولى الامامة سنة ١٧٤٢ وتوفى سنة ١٧٤٣ بينما تشير المخطوطة الى أن انتخاب أحمد قد تم عام ١٧٤٩ وهنا يتفق مع ماجاء فى كتاب ينهور الذى الفه فى سنة ١٧٦٥ بأن أحمد قد حكم البلاد ستة عشر عاما .

فى الواقع ، كما يلاحظ ينبهور ، واحدا من رؤساء عديدين يسيطرون على الحكم فى عمان ، وان كان هو أهمهم جميعا . ولقد كانت نقطة الضعف الأخرى فى حكمه هى سلوك أنجاله نظرا لأن أحمد كان يعين أنجاله محافظين على المدن الهامة كصحار ، ومسقط ونزوى ، خلال أيام حكمه ، (وهى عادة انتقلت اليه من الأئمة اليعاربة) فان أنجاله هؤلاء أخذوا يتحينون كل فرصة للانقضاض عليه ، والاستيلاء على المدن التى يعينون عليها ، ويعلنون استقلالها عن سلطة أبيهم ، مما اضطره الى تكريس كثير من جهوده لاعادتهم الى الطاعة .

توفى أحمد عام ١٧٨٣ تاركا وراءه خمسة أبناء ، هم هلال ، وسعيد ، وقيس ، وسيف ، وسلطان ، وقد رشح شيوخ عمان الابن الأكبر ، وهو هلال ، خلفا لوالده ، غير أنه كان ضعيف البصر ، الأمر الذى أعجزه عن ادارة الحكم ، وتوفى بعد ذلك بوقت قصير ، وهو فى طريقه الى الهند طلبا للعلاج . وقد اختير سعيد الابن الثانى لخلافة أخيه ، لكنه اثار نقمة الأمة عليه بسبب ضعفه وتراخيه وجشعه ، لدرجة أن بعضهم قام بمحاولة لخلع سعيد وتنصيب شقيقه قيس ، ولكن المحاولة فشلت ثم تكررت ففشلت ايضا ، غير ان هذا الاضطراب مهد الطريق لمحمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بالاستيلاء على سلطة والده ، وبفضل سلسلة من المناورات والتكتيكات استطاع ان يسيطر على مسقط ، التى بزت الرستاق والعاصمة القديمة فى الأهمية ، مما اضطر والده الى التنازل له فى النهاية عن كل السلطات (١) ولم يتم حمد بأى محاولة للحصول على لقب الامام لنفسه ، لأنه لو فعل ذلك لتعين عليه أن يخلع والده رسميا ، ويرشح نفسه للانتخاب كامام على الطريق التى شرحناها ، لذلك فلقد لقب نفسه بالسيد ، وهو لقب بدأ استعماله عند تولى أحمد بن سعيد ، كأسلوب لتمييز أسرة البيت الحاكم فى عمان عن

(١) يحدد مايلز عام ١٧٦٨ تاريخا لهذه الواقعة (بلدان وقبائل الخليج

مجلد ٢ ص ٤٣) .

رعاياهم(١) وقد ظل سعيد مقيما في الرستاق يتمتع بالمركز دون الصلاحيات طبعاً . فلقد كانت الرستاق هي البلدة الوحيدة اذا استثنينا نزوى وصحار التي يجوز فيها اقامة صلاة الجمعة ، وكنتيجة لذلك أصبحت العاصمة الطبيعية لعمان ، وأختيرت لتكون مقراً لحكومة البلاد . ولقد تميز حكم حمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بانفجار صراعات ضد أعمامه قيس ، وسيف ، وسلطان ، وهم الانجال الرئيسيون الباقون لأحمد بن سعيد ، وكان قيس والى أو محافظ صحار ، يحظى بتأييد واسع في الأوساط القبلية ، وبالتالي استطاع بسهولة أن يتحدى حمد ولكنه أحرز انتصارا اكبر فى صراعه ضد أخويه الآخرين سيف وسلطان ، فقد نجح فى طرد الأول من البلاد الى أفريقيا الشرقية حيث بقى هناك الى أن وافاه الأجل ، بينما هرب الأخ الآخر الى جواذر على ساحل مكران من حيث ظل يواصل صراعه ضد ابن أخيه ، وعند وفاة أحمد عام ١٧٩٢م بمرض الجدرى ، استولى سلطان على مسقط ، واحتفظ بالسلطات لنفسه ، ولم تفلح محاولات أخيه قيس لخلعه .

بعد عام من هذا التاريخ وقع الاخوة الثلاثة أبناء أحمد بن سعيد الراحل اتفاقا في بلدة بركا ، يقضى باقتسام عمان على أساس أن يستمر سعيد فى الرستاق كامام ، وأن يحتفظ قيس بصحار ، بينما يظل سلطان حاكما على مسقط . وكان هذا الاتفاق مظهرا واضحا للتغيرات التى أثرت على جيلين من أجيال حكم أسرة آل بوسعيد . وهكذا تم اقتسام السلطة فى عمان .

بعد أن انحل نظام الامامة فى البلاد كرس سلطان انشط افراد الأسرة الحاكمة جهوده كلها للنشاط التجارى والملاحى ، وكان طبيعيا والحالة هذه أن تتأزم العلاقة بين أسرة بوسعيد والقبائل العمانية فى داخل البلاد وأن تزداد سوءا مع مرور الوقت فلقد كان اهم ماتفتقر اليه عمان خلال القرن.

(١) راجع ملحق كتاب بارجر : يعتبر لقب السلطان اصطلاحا جديداً ادخل على العظام فقد كان الهدف منه تميز أفراد البيت الحاكم عن غيرهم من سكان البلاد واضفاء الوجاهة ورفع الشان على جمهور الرؤساء والأعيان المحليين . وهكذا غدت أسرة السلاطين فى عمان كنظائرها من البيوت والأسر الحاكمة فى أوروبا أسرة معترفا بها وتمتع بحق توارث الحكم أباً عن جد .

التاسع عشر وجود زعامة قوية ، تدعمها قوة عسكرية غير أن البلاد أصبحت
فى ظل حكومات ضعيفة من أسرة كل هم أفرادها ومواهبهم ومواردهم كانت
معبأة على سبيل التجارة والملاحة البحرية . كما أن الارتباط بالبحر قد
تمخض عن نقل العاصمة من المنطقة الداخلية فى المنطقة الساحلية ، كذلك
حدث تغيير فى طبيعة السلطة السياسية فى البلاد ، فتخلت أسرة آل بوسعيد
عن الامامة كنظام للحكم ، وتم الأخذ بنظام السلطنة ولم يحاول أحمد بن سعيد
أو سلطان بن حمد أو خلفاؤه المباثرون من بعده العودة بالحكم الى نظام
الامامة ، وان كانوا قد ظلوا يمارسون كل صلاحياتها .

وخلال حياة سعيد بن أحمد لم يكن يستطيع أى شخص وفقا للمذهب
الاباضى أن يلقب نفسه اماما على البلاد الا اذا تمكن من خلع الامام الحاكم عن
السلطة ، اذ انه من الوجهة الشرعية لا يجوز أن يكون هناك أكثر من امام
واحد . غير أن هذا التشريع لم يعمل به بسبب الصراع الدائم خلال القرن
التاسع عشر للفوز بالامامة ، مما أساء ضمينا الى المبدأ الذى يقوم عليه هذا
التشريع ، وكانت النتيجة بالنسبة لأحمد بن سعيد أن ارتباطه بلقب الامامة
كان يخوله ماله من مركز دينى ، فأصبح الحكم فى وضع غير مستقر لان
السلطة والصلاحيات الفعلية للحكم كانت فى واقع الأمر فى أيدي اخوته وغيرهم
من الأقارب ، وعند وفاته فيما بين ١٨١١ ، ١٨٢١ تقريباً تلاشى نظام
الامامة فى عمان ولم تبذل أية محاولات لاعادتها الا لفترة قصيرة خلال أواخر
القرن التاسع عشر والنصف الثانى من القرن العشرين . وكان سلاطين
آل بوسعيد يلقبون أنفسهم بالسادة ، وهو اللقب الذى بقى فى الاستعمال
حتى اليوم ، أما الأوروبيون فقد ظلوا حتى النصف الثانى من القرن التاسع
عشر يلقبون حكام عمان بالائمة الى أن حل لقب السلطان محل لقب الامام (٧)

(١) من المحتمل أن تكون الوفاة فى العام التالى تقريباً (راجع بادجر ،
ائمة وسلاطين عمان) ص ٢١٣ - ٣٤٢ والملاحظات عليها .

(٢) من المحتمل أن يكون أول من استعمل لفظة «السيد» الشيخ منصور
فى مؤلفه تاريخ السيد سعيد سلطان مسقط الصادر فى لندن ١٨١٩ حيث ذكر
فى ص ١ « لقد أطلقت لقب السلطان » على حاكم وهو اللقب الذى يطلقه عليه =

يوم تولى السيد سلطان بن أحمد مقاليد الحكم وكان في الأربعين من عمره . وكان التأييد لحكمه يرتكز فيما بين قبائل الغافرية وعلى الأخص بنى جابر سكان منطقة الحجر الغربى . وفيما بين قبائل الغافرية ، وعلى الأخص بنى جابر سكان منطقة الحجر الغربى . وقد نشأ سلطان أيام طفولته بين أوساط قبيلة بنى جابر ، وكانت أمه على صلة قريى وثيقة بمحمد بن ناصر شيخ بنى جابر ، واقوى الزعماء العمانيين فى ذلك الوقت . ومنذ البداية أقنع سلطان نفسه بأن سلطته لن تصل الى المستوى الذى وصلت اليه سلطة والده والتي كانت حدودها كما يقال ، تمتد من منطقة جعلان حتى منطقة التوام فى

= أهله بصفة عامة وأن لقب «الامامة» لم يعد يستعمل منذ عهد جد السيد سعيد غير أن بادجر يقدم تقريبا لهذا اللقب أدق من تعريف الشيخ منصور فيقول . . « على الرغم من أن لقب السلطان كان معروفا فى البلاد الا انه قل أن يستعمل بين الأوساط الحاكمة ، وكان الحكام سابقا يلقبون بلقب « الائمة » بينما هم يلقبون بمجرد « السادة » بصرف النظر عما كان يلقبهم به الأجانب : وقد ورد لقب « السلطان » للمرة الاولى فى المعاهدة المعقودة بين مسقط وانجلترا فى شهر يوليو من عام ١٨٣٩ (انظر ص ٣٧ أدناه) وكان ذلك بناء على اقتراح (بالمرستون) وبسؤال الكابتن روبرت كوجان من ضباط الاسطول الهندى الذى كان همزة الوصل بين حاكم مسقط وحكومة بريطانيا عن مدى صحة اللقب قال فى رده عى وزير الخارجية البريطانية بأن اللقب الصحيح هو (السلطان سعيد بن سلطان « امام عمان ») راجع المراسلات السرية والعلمية لمجلس الهند مجلد ٩ - كما ورد هذا اللقب فى رسالة دبليو فوكس ستيرنجوى وكيل وزارة الخارجية البريطانية الى أرجوردون (بمجلس الهند) بتاريخ ١٨٣٨/٨/٢ وفى رسالة كوجان الى كنبل بمجلس الهند بتاريخ ١٨٣٨/٩/٥ وللإطلاع على المرة الاولى التى استعمل فيها لقب « سلطان مسقط وعمان » انظر ص ٥٥ أدناه .

البريمي^(١) . وعلى أى حال فما كاد القرن ينتهى ، حتى مد سلطان نفوذه الى ماوراء مناطق الحجر ، حيث قمع تمرد النعيم في الظاهرة، ووضع حدا لغارات القبائل الشمالية على عمان . على أن السلطان كان يوجه معظم نشاطه الى خارج عمان . فبعد تسلمه السلطة مباشرة بادر الى ارسال قوة عسكرية الى مكران ، للاستيلاء على ميناء جواذر ، الذى حصل عليه من أميركالات ، أثناء فترة نفيه الى تلك المنطقة ، كما ضم الى سلطته المنطقة الساحلية من شهباز ، ومن ناحية أخرى قاد سلطان حملة للاستيلاء على جزيرتى هرمز والقشم داخل الخليج ، وكانت تحت حكم عرب « بنى معين » الذين كانوا يسيطرون ايضا على ميناء بندر عباس وملحقاته ، التى كانوا قد استأجروها من حاكم فارس ، وقد وقعت كلها فى يد سلطان الذى اصدر فى عام ١٧٩٤ مرسوما يخوله حق استئجار للميناء المذكور^(٢) .

لقد كانت مسقط بمثابة القلب للأمبراطورية التى أسسها السيد سلطان وتقع مسقط على الساحل الشرقى لعمان ، حيث تلتقى سلاسل جبال الحجر التى تمتد من الجانب الشرقى للحجر عند البحر ، والى الشمال يمتد سهل الباطنة ، بينما يمتد الى الجنوب الصخرى ساحل تتناثر عليه مجموعة من الجبال الصخرية ، أما مسقط نفسها فتحيط بها سلسلة من الجبال البركانية تعمل كسياج دفاعى لها من أى هجوم من الداخل .

أما الخور الصغير الذى تكون بوجود سلسلة الجبال التى تلتف حول المنطقة الجنوبية من الساحل فلايزيد طوله عن ميل واحد من بداية الشاطئ حتى حافة البحر بينما لا يزيد عرضه عن ربع ميل ، وترتفع على جانبى الخور الشرقى والغربى قلعتان كبيرتان شيدهما البرتغاليون فى الفترة الواقعة بين عام ١٥٨٧ ، ١٥٨٨ ، وكان اسم القلعتين سابقا كابيتان وسان جوا ، ولكنهما

(١) بادجر فى كتابه « سلاطين وأئمة عمان » ص ١٦٦ وجاء فيها « كانت مملكته تمتد من نهاية منطقة جعلان جنوبا الى البريمي فى الظاهرة شمالا بما فيها الجزء الواقع الى الشرق من ذلك الاقليم حتى ساحل البحر .
(٢) للاطلاع على صورة مفصلة لما تضمنته المعاهدة راجع ص ١٨١ - ٨٥ من الكتاب .

سميتا فيما بعد بقلعتى المبرانى والجلالى . وكانت المبانى الهامة الوحيدة فى مسقط هى تلك التى تخلفت عن الاحتلال البرتغالى للبلاد .

وكان السيد سلطان نفسه يقيم فى كنيسة كبيرة بناها البرتغاليون ، وظل هناك الى أن بنى لنفسه قصرا خاصا يطل على ساحل البحر ، وكان يحيط بالبلدة سور يتخلله عدد من الحصون ، وتحيط به حفرة كانت تستخدم كخندق حربى فيما مضى ، أما خارج منطقة السور فتوجد بيوت السعف ، وهى عبارة عن أكواخ مبنية من الخشب وسعف النخيل ، حيث كانت تسكن فيه الطبقات الفقيرة من أبناء الشعب . وكان عدد سكان مسقط فى ذلك الوقت يتراوح بين ١٠ آلاف و ١٢ ألف نسمة ، يؤلف الأجانب قسما كبيرا منهم ، معظمهم من التجار وعائلاتهم ، وكان من بينهم نحو ١٠٠٠ أو ١٢٠٠ اليهود (١) .

بينما يؤلف العمانيون وغيرهم من العرب ومجموعة الأفريقيين والأجباش والبلوش أغلبية السكان ، وكان معظم الزوار الأوروبيين لمسقط فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر يعودون بانطباعات جميلة من أخلاقيات أهل البلد والنظرة المتحررة لأفراد أسرة آل بوسعيد الحاكمة ، الذين فتحوا البلاد للتجار من كل بلد فى العالم دون أن يتعرضوا لمهانة أو قيود مما كان يفرضها معظم الدول على الأجانب . ولقد كتب ينهور فى هذا الصدد يقول :

وعلى حين يرغم الهندوس فى اليمن على دفن موتاهم فانهم هنا يستطيعون أن يحرقوا موتاهم بكل حرية دون تدخل

(١) رحلات الى اشور وفارس (طبعة ثانية) المجلد الثانى طبعة لندن ١٨٣٠ الجزء الثانى ص ٣٩٥ وكتاب « انطباعات رحلة الى خراسان سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٢٢ » (طبعة لندن سنة ١٨٢٥) ص ٦ ورحلة الى الجزيرة العربية الجزء الثانى وكتاب ينهور « رحلة الى العربية » الجزء الثانى ص ٧٨ . ان الرقم ٦٠٠٠٠ يشمل أيضا ٤٠٠٠ هندوكى وفقا لتقدير فنسنزو سوريزى . فى كتابه تاريخ السيد/سعيد ص ٢٣ ولكنه رقم فيه كثير من المبالغة .

من السلطة الحاكمة ، وبينما يتعين على اليهود أن يرددوا زيا مميزا عن الأجناس في الأقطار الإسلامية الأخرى فانه مسموح لهم هنا بأن يرددوا نفس الأزياء التي يرتديها السكان العرب دون تميز ، وبينما تفرض الأقطار التي تتبع المذهب السنن على اليهودى أو المسيحي أو الهندوكى بأن لا يعاشر امرأة مسلمة الا اذا اعتنق الاسلام ، وفي حالة مخالفته لهذا القانون يدفع غرامة مالية كبيرة ، فان حكومة مسقط لا تهتم اطلاقا بمثل هذه الأشياء بشرط ان لا يعاشر هؤلاء غير المومسات اللاتي يتعاطين البغاء مع العرب (١) .

وقد كتب الرحالة البحار والكاتب ص. اس. بكنجهام يصف رحلته الى مسقط فى عام ١٨١٦ يقول : ان سلوكهم على جانب كبير من الاهمية كما انهم يتحلون بقدر كبير من الجدية وقلة الكلام ، ومع ذلك فانهم مرحون وراضون عن أحوالهم ، أضف الى ذلك دماثة طباعهم التى لولاها لكنت برودة مزاجهم منفرة للغير . ان أهالى مسقط كما يبدو لى هم أنظف وأحسن هنداما وأرق معاملة من جميع العرب الذين التقيت بهم حتى الآن ، وأن الانسان ليشعر من أول وهلة يلتقى بهم بشعور الثقة والألفة وحسن النية من جانبهم (٢) . كذلك فان الأوربيين معجبون بما يكتنه أهالى مسقط من الاحترام لممتلكات الآخرين ، ونستشهد على ذلك بما جاء على لسان أحد وكلاء شركة ليفتانت الانجليزية الذى أعرب عن دهشته فى عام ١٧٥٥ من أهالى مسقط حيث قال : ان هناك فى الوقت الحاضر كميات هائلة من السلع والبضائع مكدسة على الطرق من غير رقابة أو حراسة عليها اذ لا توجد مستودعات لخزنها ، ومع ذلك لم نسمع عن حادث سرقة أو سطو على هذه السلع أيا كان (٣) .

(١) رحلة الى الجزيرة العربية جزء ٢ ص ٦٧ .

(٢) رحلة الى آشوريا جزء ٢ ص ٤١١ ، ٤١٣ .

(٣) فى « كتاب » رحلات الى آسيا وأفريقيا تأليف إبراهيم يارسونر طبعة لندن ١٨٠٨ ص ٢٠٧ لقد أشار ينيهور الى نفس الظاهرة قبل عشر سنوات كما لاحظ بأن من عادة السكان فى الليل اذا خرجوا للشوارع ان يحملوا فى أيديهم قناديل للهِوية (رحلة الى الجزيرة جزء ٢ ص ٦٨) ولايزال هذا القانون ساريا حتى الآن .

لقد كانت هناك مبررات وجيهة تجعل سلاطين آل بوسعيد يحسنون معاملة التجار الأجانب المقيمين في بلادهم . ذلك لأن موقع مسقط على مفترق طرق التجارة بين البحر الأحمر والخليج العربى الى الهند وأفريقيا . ولكونها الميناء الصالح الوحيد فى جنوب شرقى آسيا أصبحت المستودع الطبيعى لتجارة الجزيرة والخليج ، وفى نهاية القرن الثامن عشر كانت الرسوم الجمركية تشكل المورد الرئيسى لدخل حكام مسقط ، وخلال حكم أحمد كانت فئات الرسوم الجمركية تختلف باختلاف الطوائف فالتعريفة الجمركية كانت فى صالح الأوربيين أكثر ، فقد كانوا يدفعون ٥٪ بينما كان المسلمون يدفعون ٦٪ والهندوك اليهود يدفعون ٩٪ ، وقد عدل عن هذا التنظيم فى سنة ١٧٩٠ وحل محله قانون ضريبى موحد لجميع التجار على أساس ٢٪ فقط بينما فرض ٥٪ من الرسوم على غير المسلمين من التجار . وهذا يكشف عن أن قسما كبيرا من تجارة مسقط قد تحول بعد ذلك الى أيدي الأجانب الذين كانت أغلبيتهم من الهندوك وفى عهد سلطان بن أحمد كان الجزء الأكبر من تجارة البلاد لايزال فى أيدي العرب والمسلمين ويقدر جون مالكولم مجموع تجارة بلدان الخليج فى سنة ١٨٠٠ بمبلغ مليون وستمائة ألف جنيه ، كانت حصة مسقط منها نحو مليون من الجنيهات او خمسة أثمان المجموع . وكان معظم البضائع الموجهة الى مسقط يعاد تصديره الى الخارج بعد استيفاء الرسوم الجمركية عليها بنسبة تقل ٢٪ من القيمة الأصلية . ولا تساعد هذه الأرقام على تحديد حصة السيد سلطان من هذه الرسوم ، لأنه شخصيا كان التاجر الرئيسى فى البلاد ولم يكن يدفع أى رسوم على السلع التى ترد باسمه . وبالإضافة الى ذلك فقد كانت الجمارك مؤجرة بالمقولة لأحد التجار الهندوك (البانيان) مقابل مبلغ سنوى . ولا توجد أى سجلات تحدد المبلغ الإجمالى لتلك الرسوم فى عهد السيد سلطان . ويقدر ينهور دخل أحمد بن سعيد من هذا المصدر بمبلغ مائة ألف روبية سنويا فى عام ١٧٦٥ ، أى مايعادل عشرة آلاف جنيه استرلىنى . أما سعيد نجل سلطان فقد كان يتقاضى ١٨٠ ألف دولار أسبائى (أى ٣٦٠٠٠ ج استرلىنى) سنويا من دخول الجمارك كما جاء على لسان فنسنزوموريزى المفامر الايطالى الذى كان يعمل طبيا خاصا للسلطان المذكور خلال الفترة الأولى من حكمه ، ويقدر مصدر آخر دخل السيد سعيد من الجمارك فى سنة ١٨٢١

- ٣٠ -

بنحو ٩٠.٠٠٠ - ١٢٠.٠٠٠ ريال نمسوى أو مايعادل ١٨.٠٠٠ - ٢٤.٠٠٠ جنيه استرليني^(١) . فاذا ما اعتبرت هذه الأرقام بحال من الأحوال أرقاما صحيحة فلا بد أن يكون دخل السيد سلطان من نفس المورد أعلى بكثير ، نظرا لارتفاع المعدل التجارى لمسقط خلال الحقبة الأخيرة من القرن الثامن عشر منه قبل ذلك بعشرين عاما وبالتالي كانت الضرائب أعلى هي الأخرى^(٢) .

وكان ثمة مورد آخر للدخل من المحاصيل الزراعية في الباطنة ، وكان يدر نحو مائة ألف روبية (أى ١٠.٠٠٠ جنيه استرليني) في العام^(٣) الى جانب ضريبة الريال الواحد التى كانت مفروضة على كل عبد يباع في مسقط وسوف نتطرق الى تجارة الرقيق في مكان آخر من الكتاب ، غير أنه يمكن القول أن دخل السيد سلطان من هذا المورد لم يكن يزيد على دخل نجله سعيد فيما بعد ، وربما كانت أعلى نسبة في دخل السلطان هي التى كانت ترد اليه من نشاطه التجارى الخاص . فقد كان يمتلك بعض السفن التجارية المسلحة التى كان يمتد نشاطها الملاحى المنتظم الى المحيط الهندى وأفريقيا وعراق الأتراك ، فقد كان لمسقط مجموعة من سفن الملاحه خلال هذه الفترة مكونة من ١٥ سفينة ، حمولتها من ٤٠٠ - ٧٠٠ طن ، وثلاث وخمسين

(١) سك ريال ماريا تريز الأول مرة سنة ١٧٥١ وكان يشكل وحدة العملة الرئيسية في الخليج والجزيرة العربية ، والبحر الأحمر والحبشة وأفريقية الشرقية في نهاية القرن .

(٢) كان لنهبور وصف للجزيرة ص ٢٦٤ (وزارة الهند) سلسلة تتناول الأوضاع التجارية في الجزيرة العربية وايران مؤرخ ١٨/١٢/١٧٩٠ ومقتطفات من السجلات الرسمية لحكومة بومباي عن العلاقة بين شركة الهند الشرقية والخليج العربى ١٦٠٠ - ١٨٠٠ وقد جاء في صورة خطاب ملحق موجه من جون مالسكولم الى اللورد مورنتجتون (الحاكم العام) لبوشهر بتاريخ ٢٦/٢/١٨٠٠ وكتاب رحلات الى اشور تأليف بكنجهام جزء ٢ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ وكتاب موريزى (الشيخ منصور) .

(٣) بكنجهام .

مركبا شرايعا كبيرا ، وخمسين مركبا صغيرا . وبالإضافة الى هذه المجموعة كان تجار مسقط يستأجرون كل عام عددا من السفن من موانئ الخليج الأخرى تقوم برحلات الى الهند ، والارخبيل الشرقى ، وأفريقيا ، والبحر الأحمر . كما كانت عمان نفسها تنتج السمك وأنواعا من الفاكهة التى كانت تصدر الى الخليج الى جانب العقاقير واللؤلؤ والنحاس والملح والزرنخ التى كانت تنتجها الجزيرة العربية ، وايران كانت تصدر هى الأخرى . وبالمقابل كان الأسطول الملاحي العماني يعود من رحلاته محملا بالتوابل والأرز والسكر والصنوبر وأعواد الصندل ، والصينى ، والمنسوجات ، والمعادن وأنواع من المنتجات الأوربية ، وفى كل عام كان جحفل من السفن يبحر من عمان الى البحر الأحمر وعليه شحنات من البن والتوابل والأدوية وبعدد من العبيد والاحباش . وكان أسطول آخر من السفن يبحر فى فصل الرياح الموسمية التى تبدأ من شهر نوفمبر وصاعدا الى زنجبار وغيرها من أقطار أفريقيا الشرقية ليعود فى فصل الربيع بالعاج والعبيد وتراب الذهب .

ولم تكن عمان لتستوعب من كل تلك الواردات الا جزءا يسيرا ، وكان الباقي يعاد تصديره الى الخارج ، ولقد كان المركز الذى تحتله مسقط فى مضمار تجارة الخليج من الأهمية بحيث اقتضى الأمر ان تستحصل السفن العربية المبحرة الى الخليج على أجازة من السيد سلطان تضمن سلامتها خلال الرحلة وكان على هذه السفن أن تبحر تحت حماية أسطول السفن العمانية التى كانت تحمل شحنات البن كل صيف الى ميناء البصرة وشط العرب لنقل محصول البلح العراقى منها(١) .

(١) ان أغلب المصادر المعتمد عليها فى هذا البحث عن مسقط وعمان فى نهاية القرن الثامن عشر قد سبق الإشارة إليها آنفا فى حواشى الكتاب . اما المراجع الأخرى فان أهمها مايلى : التقرير الإدارى للمقيم البريطانى فى الخليج ١٨٨٧ - ١٨٨٨ اللفتنانت كولونيل أس . بى . مايلز بعنوان : « ترجمة حياة السيد سلطان ابن الامام أحمد » ومقتطفات من سجلات حكومة بومباى سلسلة رقم ٢٤ بعنوان الخليج العربى طبعة بومباى سنة ١٨٥٦ ص ١ - ١٣ اعداد الكابتن اذبتلر ومقتطفات من مختصر ملاحظات عن المعلومات التاريخية وغيرها المتعلقة بمقاطعة عمان وصورة تاريخية عن قيام ونجاح حكومة مسقط ١٦٩٤ - ١٨١٩ بقلم اف واردين ص ١٦٧ - ٨٧ .

وتتحكم في مدخل الخليج مجموعة من ثلاث جزر ، يسمى الملاحون الأوربيون الجزيرتين الكبيرتين منها (القوين) وذلك لأوجه الشبه بينهما وبين الأساقبين التي كانت تستخدم لحمل المدافع على السفن الحربية . أما الملاحون العرب فيسمونها سلامة وبناتها . وكان من عادة رجال البحر العرب عند مرورهم بهذه الجزر في الطريق الى الهند أو أفريقيا أن يلقوا بالزهور والفواكه أو النقود الى البحر تفاؤلاً برحلة موفقة وعودة سالمة من رحلتهم (١) . وعلى بعد فرسخين أو ثلاثة الى جنوب مجموعة الجزر يقع رأس مسندم وهو قمة شبه الجزيرة الجبلية المعروفة برؤوس الجبال التي تفصل بين عمان ومنطقة الخليج الأم ، ومنطقة مسندم ورؤوس الجبال منطقة مخيفة عبارة عن كتلة مخرسة من الجبال تبدأ في الارتفاع من شاطئ البحر ثم تنشط في نتوءات بعد نتوءات من القمم المشقوقة والمتعرجة .

أما على الطرف الشمالي : فانها تنقسم الى سلسلة من الجزر الصخرية آخرها جزيرة مسندم، انها على حد ما جاء على لسان أحد رحالة القرن التاسع عشر، كما لو كانت قد شطرت من بعضها البعض بفعل قوة هائلة من الطبيعة التي مزقتها اربا الى كتل منفصلة من القارة التي كانت جزءا منها (٢) ، ويتخلل شبه الجزيرة هذه مجموعة من الخوران تمتد أميالا الى الداخل على جوانب المرتفات . وأهم هذه الخوران خور الشعم على الجانب الغربي . والقبة الغزيرة على الجانب الشرقي . وحتى عام ١٨٢٠ عند القيام بأول مسح بحري للمنطقة لم يكن الأوربيون قد اكتشفوا الجزيرة الأولى . وحسب تقدير المشرف على عملية المسح يبلغ طولها ٩ أميال تتخللها رؤوس يبلغ ارتفاعها من ٨٠٠ الى ١٥٠٠ قدم ، ويغطي المدخل الى الجزيرة كما يقول المشرف يمتد الى الأسفل تجاه البحر بحيث لا يمكن التأكد منه بسبب ضيق فتحة بينما لا يتجاوز عرض

(١) كان يتم في بعض الأحيان تسير سفن من جانب البحارة كتجربة . فاذا مالت هذه السفن الحربية تجاه البر فقد كان ذلك يعد فالأ حسنا للمحاولة (انظر رحلات من الهند الى إنجلترا) طبعة لندن ١٨٢٧ ص ٨٦ بقلم اللفتناننت جى . اى اليكسندر .

(٢) رحلة الى أشور - بكنجهام ص ٣٨٥ .

الرأس نصف ميل ، وصخوره عالية وشديدة السواد ، وعند فتحته مباشرة توجد جزيرة ترتفع كالبناء ، لون أحجارها أفتح قليلا عن لون بقية الصخور ، وهى انحدارية الشكل ، ويبلغ ارتفاعها نحو مائة قدم وعمق الماء فيها نحو ١٦ باعا(١) وتكاد لا توجد حياة فى رؤوس الجبال ، فعلى سفوحها حيث تمتد الوديان الى البحر يوجد عدد قليل من أشجار النخيل ، أما الى الداخل فلا يوجد شيء من المراعى يكفى حتى لاطعام بضع شياه ، ويقطن رؤوس الجبال قبيلة الشحوح ، وهم نوع من عزل من الناس ويتحدثون بلهجة عربية تختلف اختلافا بينا عن لهجة أهل الجنوب الشرقى ، ولم يخضع الشحوح خلال الفترة التى يشملها البحث لسلطان أى جهة . وكان للشحوح مستعمرات تقع فى خصب بالقرب من رأس الجزيرة وفى جزيرة شحم حتى الشاطئ . وعلى بعد بضعة أميال جنوب شحم فى رمس تنحرف الجبال مبتعدة عن شاطئ البحر فى اتجاه الجنوب حيث تكون منطقة الحجر الغربى ، ويعرف السهل الساحلى الواقع الى الجنوب من رمس « بساحل عمان » أو « ساحل الصلح » أما اسمه القديم فهو الشميلية أو « السر » . ويمتد على ساحل الخليج على مسافة تصل الى ١٣٠ ميلا من رمس فى الشمال الشرقى الى ما وراء أبو ظبى فى الجنوب الغربى . حيث ينحرف الساحل غربا باتجاه شبه جزيرة قطر . وحدوده الشرقية هى سفوح الحجر الغربى ، وجنوبا واحة البريمى . وتتناثر على شواطئه البحيرات والخلجان حيث تقطن القبائل البحرية التى تعيش على مستخرجات البحر . وتقع على الموانئ الغربية من البلاد المأهولة ، حيث تسمح وفرة بعض المياه بزراعة النخيل وبعض المزروعات الأخرى . أما ما يتبقى من هذه المنطقة فان الأرض مسطحة وقاحلة تكسوها كثبان الرمال والسهول الحجرية والسبخة .

ان التركيب القبلى للمنطقة الشمالية تركيب معقد على غرار الوضع فى عمان عموما ، وقد ظل محتفظا بهذا الطابع منذ نهاية القرن الثامن عشر ٤

(١) وزارة الهند : « مذكرات من عملية مسح للشاطئ الغربى للخليج ابتداء من رأس مسندم حتى دبا . اعداد القائد البحرى اللفتنانت جى . ان . جى . وقام باعداد الرسوم الرسام المرافق للعمية اللفتنانت ام . هرتون . (م ٣ - بريطانيا والخليج)

بوثة اتحادان قبليان (١) ، القواسم سكان الجزء الشمالى ، وبنو ياس سكان الجنوب ويتقاسمان السلطة السياسية فى المنطقة . ولايرتبط أى من هذين القسمين بالولاء لحكام آل بوسعيد فى عمان على الرغم من أن بنى ياس كانوا على علاقة ودية بحكام عمان ، وأنهم فيما يتصل بالسياسة العمانية ، كانوا مبالين أو متعاطفين مع بنى هناه . أما بالنسبة للقوة البحرية فقد كان القواسم الفئة الأقوى بلاشك . وكان مفهوم لفظة اقواسم يعنى تلك الجماعة التى تدين بالولاء لشيوخ القواسم فى الشارقة ورأس الخيمة ، وأن كان المدلول الأصح للكلمة يعنى الارتباط الأقوى بأسرة القبيلة المذكورة ، أما كم عدد القبائل الموالية لشيوخ القواسم وما مدى نفوذهم ونوعية توزيعهم فموضوع يتعذر الحكم فيه ، ففى رأس الخيمة أهم موانئ المنطقة وتنتمى أغلبية السكان فيها الى الخواطر ، وهم فرع قبيلة النعيم سكان المنطقة الجنوبية ، والتى يقيم معظم أفرادها فى منطقة الظاهرة (٢) ، أما فى الشارقة الميناء الثانى للقواسم فأغلبية السكان من بنى قتب ، وفى جزيرة الحمرا وأم القوين اللتين تقعان بين هذين الميناءين وتخضعان لسلطة شيوخ القواسم ، فتسكنهما قبيلتا الزعابية وبنى على . أما فى عجمان المرتبطة أيضا بالقواسم ، فقد كان زمام السلطة بيد آل بوخريان ، وهم فرع من النعيم . وفى رمس ، وهى ميناء تابع للشيوخ ، وتقع شمال إمارة رأس الخيمة وهى الأخرى متحالفة مع القواسم ، وإلى ماوراء المرتفعات يقيم الجوس والمخارية ، على أن السلطة التى يمارسها شيوخ القواسم على هذه القبائل سلطة محدودة ، ذلك أن موازين القوة فى سياسة الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية تتحكم فيه القبائل البدوية التى يتأرجح ولاؤها من رئيس الى آخر وفقا لسخاء الرئيس أو بخله ، على حين لا يتمتع شيوخ القبائل بالحرية المطلقة فى مزاولتهم للسلطة حتى لا يثيروا البدو عليهم . ان بنى قتب والخلافة

(١) مفرد القواسم « قاسمى » كما تنطق أيضا جاسمى وجواسم وجوكى وجوسم ، أما الفصيلة الشمالية من قبيلة النعيم فقد كانت تقطن قطر والاحساء .

(٢) أما الفصيلة الشمالية من قبيلة النعيم فقد كانت تقطن قطر والاحساء .

يشكلان الفصائل البدوية الرئيسية في اتحاد القواسم (١) . وينتمي القواسم إلى المذهب السني في الاسلام وبالتالي فان ولاهم السياسى الى جانب الفرع الغافرى من القبائل العمانية كذا لم تتوفر معلومات أكيدة عن الانتماءات الاصلية للقواسم ، فبعض المصادر يرد نسبهم الى قبيلة نزار ، وهى فصيلة من بنى غافر هاجرت الى عمان من نجد في أواسط الجزيرة العربية في نحو القرن السابع عشر (٢) ، بينما رجح مصدر آخر أن يكون موطنهم هو الميناء التجارى الفارسى القديم « السراف » الذى لم يعد له وجود الآن . وتقول رواية ان الفئات التى هاجرت بعد ذلك المكان توجه بعضها الى مسقط في عمان (حيث كان يسمون هناك بنى السرافى) كما استقر بعضهم في صور ، كما توجه قسم آخر منهم الى منطقة السرقى - رأس الخيمة (٣) . أما القواسم أنفسهم فيقولون أنهم نزحوا أصلا من فارس بينما يرجح البعض أنهم جاءوا من العراق عن طريق فارس « ويؤيد الكولونيل أس . بى . مايلز وهو الحجة البريطانى في شئون عمان الراى القائل بأن أصل القواسم من فارس » ويقرر بأنهم فرع من عرب الهويلة الذين استوطنوا الساحل الفارسى قديما ، ثم نزحوا منه الى الساحل العربى خلال القرن الثامن عشر (٤) . فاذا صح هذا الراى فانه يعنى بأن القواسم قد صعدوا الى السلطة بسرعة ملحوظة جدا ، وذلك في أعقاب الفوضى التى عمت فارس بعد وفاة نادر شاه ملك فارس عام ١٧٤٧ ، فاستولوا على لنجة الواقعة على الساحل الفارسى ، كما احتلوا جزيرة قشم القريبة من

-
- (١) احدى القبائل المستقرة من بنى قتب كانت تقيم بالظاهرة وذلك في مجموعة المستعمرات التى تحمل اسما جماعيا هو افلاج بنى قتب .
- (٢) مجموعة سجلات حكومة الهند ، المجلد ٢٩٦ مجموعة رقم ٥٦٤٦ اعداد الكابتن دى . ستون (المقيم البريطانى في مسقط) موجهة الى ص ، فكان حاكم بومباى بتاريخ ١٨٠٧/٧/٢ وأيضا المجلد ٢٤ من مقتطفات سجلات حكومة بومباى ص ٣٠٠ وكتاب (صور تاريخية لقبيلة القواسم العربية) من ١٧٤٧ حتى ١٨١٩ تأليف واردن وكتاب بادجر ص ١٠
- (٣) مجموعة سجلات حكومة الهند مجلد ١٩٢ المجموعة ٤١٥٥ بخطاب من سيفون الى دنكان بتاريخ ١٨٠٥/١٠/١٦ .
- (٤) بلدان الخليج وقبائلها ص ٦٨ .

لنجة » غير أنهم طردوا منها سنة ١٧٦٥ بعد تسلم كريم خان سلطة الحكم في فارس .

وبعد وفاة كريم خان ١٧٧٩ عادوا الى قشم بعد استيلائهم على لنجة من جديد .

وقد اشتهرت قبائل الساحل الجنوبي للخليج من قديم الزمان بممارسة القرصنة ، واذا عرفنا أن هذه القبائل كانت تعيش حياة البؤس والفاقة والتقصيف ، وهى ترى السفن التجارية المحملة بالثروات التجارية تمر من امامها عبر الخليج ، فاننا لن نستغرب ذلك ، لأنهم قوم بدائيون يعيشون في الصحراء وبالتالي فانهم يتصرفون وفق ماتمليه عليهم غريزتهم (١) .

وقد كتب أحد أعضاء بعثة المسح التى انتدبت للقيام بعملية المسح للساحل العربى ، يصف سكان هذه المنطقة بما يلى :

ان طباع سكان الساحل انما هى نتيجة طبيعية لنمط حياتهم وحرقتهم فهم يقومون بصيد الاسماك واللؤلؤ فى اوقات السلم . غير ان هذه الأعمال تقتصر على أشهر معدودة من السنة . أما فى الشتاء فان قسوة البحر على الشواطئ المفتوحة تحول بينهم وبين مزاوله هذه المهنة ، فيما عدا الخلجان والمناطق القريبة من مساكنهم ، بينما تنعدم الأعمال الزراعية فى هذه المواسم فيعانون من بطالة شاملة ، وهى التى تدفعهم الى القيام بأعمال السلب والنهب ضد بعضهم البعض . ولأنهم تذبذبوا على استعمال الأسلحة منذ نعومة أظافرهم ويحكم صلابتهم وتعودهم على الحرمان والمتاعب والأخطار ، فمن الطبيعى أن يشبوا شجعانا مغامرين (٢) .

-
- (١) « صور فارسية » طبعة لندن ١٨٤٥ ص ١٥ تأليف جون مالكولم .
 (٢) تحقيق عن العرب القاطنين الساحل الواقع بين رأس الخيمة وأبو ظبى على الخليج والمسمى عموما « بمساحل القراصنة » ترجمة الجمعية الجغرافية فى بومباي (١٨٣٦ - ٣٨) ص ٣٢ مأخوذة عن كتاب ولستد « رحلات الى بلاد الخلفاء عبر شواطئ الخليج والبحر المتوسط » المجلد ٢ طبعة لندن ١٨٤٠ الجزء الأول ص ١٠٨ - ١١٢ .

وبسبب مزاوله القواسم لهذه الأعمال ، أطلق الأوروبيون على الساحل الشمالي للخليج الممتد من رمس جنوبا ، اسم « ساحل القراصنة (١) » ، هذا على الرغم من أن شهرتهم بالشجاعة انما تعود في المقام الاول الى صراعهم الطويل ضد حكام آل بوسعيد على تعاقبهم .

وعلى اثر انتخاب أحمد بن سعيد اماما على عمان بادر الحاكم المذكور الى وضع الخطط لاختضاع الساحل الشمالي ، وعلى الاخص القواسم لسلطانه ، وقد تحقق له هذا الى حد بعيد في عام ١٧٦٣ ، ورغم ما أظهره القواسم من مقاومة طويلة وعنيفة وباستثناء رأس الخيمة فقد دان الساحل كله لسلطته . ان هزيمة القواسم هذه مضافا اليها اقصاؤهم من لنجة وقشم حملت القواسم على توجيه طاقاتهم الى نواحي أكثر سلعية على امتداد خمسة عشر عاما من ذلك التاريخ غير أنهم عادوا الى مناصبة آل بوسعيد العداء في أعقاب تدهور سلطة الامام أحمد وما رافقها من فوضى عمت عمان . وما ان استعادوا مافقدوه من نفوذ في الأجزاء الشمالية من ساحل القراصنة حتى شرعوا في توجيه غاراتهم عبر رأس جزيرة مسندم حتى منطقة الشمالية على خليج عمان . ومنذ أواخر الثمانينات للقرن السابع عشر حتى نهاية القرن خلوا في صراع مرير مع حاكم مسقط في محاولة للاستيلاء على مينائي دبا وخورفكان في الشمالية ، باعتبارهما أفضل موقعين لمهاجمة السفن العابرة من وإلى طريق مضائق هرمز .

لقد كان الشيخ صقر بن راشد بن مطر رئيسا لمشايخ القواسم في الفترة الأخيرة من الثامن عشر ، وكان والده هو المسئول عن توجيه نشاط

(١) التزاما بالدقة فقد أطلق هذا الاسم أول ما أطلق على المنطقة الساحلية الواقعة بين رمس ودبي ، من دون أن تشمل الميناء المذكور . انظر مقتطفات من أرشيف حكومة بومباي مجلد ٢٤ ص ٥٤٥ وكتاب الكابتن جي. بي. برنكس مذكرات وصفية للملاحة في الخليج وقد تكون دبي هي المنطقة التي ينتهي عندها ساحل القراصنة على الرغم من اعتقادي بأن القراصنة لم يقوموا بدور فعال فيه ثم أعيد إطلاق هذا الاصطلاح للدولة على كل الساحل من رمس الى أبو ظبي وشبه جزيرة قطر .

القواسم عبر ساحل الخليج ، كما كان يتزعم قبائل ساحل القراصنة في حروبها ضد أحمد بن سعيد ، كما كان الشيخ صقر نفسه مصمما على استرداد القواسم لنفوذهم بعد سنة ١٨٧٠ ، وكانت رأس الخيمة أو « جلفار » كما كان يطلق عليها الفرس هي قاعدة السلطة (١) .

وكانت رأس الخيمة تضم نحو ألف مسكن وتقع على رقعة من الأرض بين البحر والخور الذي يقوم مقام المرفأ أو الميناء ، ويبلغ طول البلدة نصف ميل تقريبا وعرضها نحو ربع ميل ، وكانت هناك قلاع تحميها من البحر ومن البر ضد أى هجوم محتمل . أما في القلب وعلى الجانب الشمالي الشرقي فقد كانت توجد قلاع كبيرة مسلحة بالمدفع . أما بقية البلدة (كما جاء في بحث أحد المعاصرين) يتألف من مبان عادية من الحجر غير المشذب ، ومن أكواخ من سعف النخيل وأوراقها مع ممرات ضيقة تتخللها ، ويقدر عدد السكان حاليا بنحو عشرة آلاف نسمة على الأقل ، منهم نحو ٣ آلاف من المذكور ممن يستطيعون استخدام السلاح ، على أن نصف هؤلاء على الأقل من الزوج الأفريقيين ، وعلى الجنوب الشرقي من الخور تبدو مجموعات كثيفة من غابات النخيل التي يعتبر ثمرها مادة الغذاء الأساسية للسكان ومواشيهم ، وفي نهاية هذا السهل المنبسط الذي يمتد على تعدد ملتوياته إلى مسافة تصل من عشرين ميلا إلى الخلف ترتفع سلسلة من الجبال (٢) .

أما الشارقة التي تقع على بعد بضعة أميال إلى الأسفل من الساحل فيحكمها أحد شيوخ القواسم ، كما أن الموانئ التي تتخلل المنطقة ونعني بها ميناء جزيرة الحمراء والم القوين ، والحميرية ومجمعات ، فتخضع هي الأخرى لسلطة القواسم . أما في دبي إلى ما وراء الشارقة فالأمر يختلف إذ تنتهي عند هذا الميناء سلطة القواسم ، وتبدأ سلطة بنى ياس وهي إحدى قبيلتي

(١) ان مؤسس دولة الجواسم شيخ يدعى جاسم وكان قد نصب خيمته لأول مرة في منطقة من الأرض مرتفعة قليلا من شاطئ البحر بحيث تبدو بارزة لجميع السفن العابرة ، مما دعا الملاحين إلى تسميتها برأس الخيمة . ويمضي الوقت تحول الاسم ليبدل على البلدة التي تأسست في المنطقة من كتاب « السيد سعيد » تأليف الشيخ منصور ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) رحلات عبر آشوريا ، تأليف بكنجهام جزء ٢ ص ٣٥٢ - ٤ .

الاتحاديين الرئيسيين لقبائل الساحل . ان بنى ياس ليسوا قبيلة متجانسة ، اذ انها تتألف من نحو عشرين تقسيما قريبا صغيرا وكبيرا ، وتنتشر على ضفاف المنطقة الممتدة من داخل قطر حتى جزيرة مسندم ، والأغلبية العظمى من القبيلة المذكورة تقطن أبو ظبي والمنطقة المحيطة بها ، وفي الظفرة الواقعة الى الغرب ، أما نفوذ الحكم فيمارسه آل بوفلاح ، وهم من أصغر الفصائل القبلية في المنطقة أما الفصائل الهامة فهي الحوامل ، والمحارقة وآل بوفلاسة وآل بومحير ، والقبيسات والرميثات والرواشد والمزاريع والمشاغين والفصيلتان الاخيرتان بدويتان كلياً (١) ، ودبي هي مركز الحكم لآل بنى ياس ، غير أن مصدر سلطة الحكم لهذه القبيلة ومصالحها تقوم على أسس اقليمية على عكس القواسم الذين يعتمدون في الحكم في المقام الأول على النشاط الملاحي ، وحتى منتصف القرن الثامن عشر كان آل بوفلاح وأغلبية بنى ياس تقيم في واحة «ليوا» وتقع في أعماق الظفرة ، أما في موسم الصيف فينتقل معظمها وبالأخص فصائل الرميثات والقبيسات الى الجزء الشمالي من الساحل بحثا عن الأسماك واللؤلؤ . ولا تعود الى مواطنها الا في فترة الحصاد (القيط) . ولم تحاول هذه المجموعات الاستقرار على الساحل لعدم وجود الماء ، ثم في سنة ١٧٦١ اكتشف الماء في جزيرة أبو ظبي على بعد مرمى حجر من المنطقة الرئيسية وهكذا بدأت الهجرة من واحة ليوا ، ولم ينته القرن حتى انتقل الى المكان فصائل عديدة من بنى ياس استقرت في الجزيرة . ولكن البلدة التي انشأوها كانت متواضعة ، كما جاء في بيان عنها كتب سنة ١٨٣١ .

ان هذه البلدة باستثناء مسكن الشيخ مبنية بيوتها من السعف لأن سياسة الحاكم الحالي تعارض اقامة مبان من الصخر اعتقادا منه أن ذلك يجعل رعاياه مستقلين عنه تماما ، كما أنها تجعله أكثر تعرضا لهجوم من

(١) أما ماهى العلاقة بين فصيلة المزاريع والفصائل التي تقيم في جزيرة مسندم وشرقى أفريقيا فمسألة مجهولة وقد أصبح آل بوفلاسة فيما بعد حكام دبي (انظر ص ٢٣٠) أما فيما يتعلق بالفصائل الأخرى من بنى ياس وتوزيعاتهم الراهنة فيمكن الرجوع الى كتاب « الجزيرة العربية وحدودها الشرقية » تأليف جى . بى . كيلي . طبعة لندن ١٩٦٤ ص ٣٦ - ٣٨ ولنفس المترجم .

البحر . ويقدر عدد السكان بنحو ١٨ ألف نسمة . وفى موسم صيد اللؤلؤ يتحرك أكثر من ٦٠٠ قارب صيد ، يحمل كل منها ما لا يقل عن سبعة الى خمسة عشر شخصا الى الخليجان . على ان التربة قاحلة ولا تنتج شيئا ، ثم ان الماء لا يوجد فى الجزيرة . وتعتمد أبو ظبى على مناطق أخرى لتزويدها بالمؤن ، ثم انها تتعرض للمتاعب كما لو كانت بلدة محاصرة حصارا قويا (١) .

ومعظم أفراد قبيلة بنى ياس بما فيهم رئيس مشايخ آل بوفلاح الشيخ دياب ابن عيسى يفضلون البقاء فى واحة ليوا ، حيث تتوفر زراعة البلح بكثرة وفى احدى زيارات الشيخ دياب لأبو ظبى اغتيل من ابن أخيه هزاع ابن سعيد . غير ان هذا الأخير مالبث أن طرد من أبو ظبى من جانب شخبوط ، وذبح جميع اتباعه الذين حضروا مقتل دياب . ومنذ ذلك الوقت شهدت أبو ظبى سلسلة من الاغتيالات والمذابح الاسرية على غرار ما كانت تشهده إيطاليا على يد أسرة لكريس بورجيا ومديسيس .

ان شخبوط بن دياب الذى خلف أباه على الحكم واستقر فى أبو ظبى كان الحاكم الوحيد خلال الستين عاما يموت موة طبيعية . ولقد امتد نفوذ بنى ياس شمالا عبر الساحل من أبو ظبى حتى دبی ، وشرقا حتى واحة البريمى ، التى تبعد نحو مائة ميل الى الداخل . وكان يحتل البريمى قبيلتان هما قبيلة النعيم وقبيلة الظواهر . والنعيم ، وهى القبيلة النافذة فى المنطقة تتألف من ثلاثة فروع قبلية : هى آل بوشاش ، وآل بوخريبان ، والخواطر ، وكما عرفنا فان بعض عناصر القبيلتين الآخرين يسكنان الساحل فى كل من عجمان ورأس الخيمة ، والنعيم قبيلة بعضها حضرى ، والبعض الآخر بدوى ، وموطنها القبلى يمتد عبر جناح سلسلة جبال الحجر من البريمى حتى ضنك ، وبما ان النعيم ينحدرون من أصل غافرى ، فقد فرضوا سلطانهم على ظواهر البريمى ، وهم قبيلة من أصل هناوى على الرغم

(١) مقتطفات من سجلات حكومة بومباى المجلد ٢٤ ص ٤٦٢ وصنوبر تاريخية لقبيلة بنى ياس العربية ، تأليف اللفتنانت هانيل .

من أن الظواهر ربما كانوا قد سبقوا غيرهم في الاستقرار بتلك المنطقة (١) وفي القرن السابع عشر خضع النعيم لسلطان الأئمة اليعاربة في عمان . وكان لهؤلاء الأئمة وال في البريمي (٢) . ولقد عدل الامام أحمد بن سعيد عن هذه القاعدة كما أن نجله سلطان صادف متاعب في السيطرة على هذه القبائل (٣) . وقد امتد نفوذ بني ياس حتى أطراف الظاهرة خلال الحقبة الثالثة من القرن الثامن عشر (٤) ، وبنهاية القرن بدا وكأنهم يحاولون الاستيلاء على واحة البريمي بالتحالف مع الظواهر ، كما أقاموا صداقات مع العوامر ، وهي قبيلة كانت قد بدات في تلك الفترة في ارتياد المنطقة . وبما أن العوامر يرجعون في الأصل الى حضرموت فقد أخذوا يجوبون الجانب الشرقي الى منحدرات عمان ، وذلك في نهاية القرن الثامن عشر . وقد استقرت فئة منهم فيما بعد بعمان الأم بالقرب من نزوى على ساحل الباطنة ، إلا أن الفئات البدوية منها استمرت في تجوالها غربا في اتجاه خطمة ملامة ، وهي المقاطعة الواقعة مباشرة الى الغرب من واحة البريمي ، وإلى المزيد من الجهة الغربية حيث الظاهرة . ولما كانت هذه القبيلة غير مستقرة وترتاد مناطق بعيدة فان تنقلاتها غير ثابتة ، وقد بمضمحل وتتلاشى من الوجود قبل مرور وقت طويل في مطاوى الربع الخالي . ولا يمكن الجزم بتعداد سكان القراصنة في تلك الفترة . فأحد التقديرات يضعهم في حدود ١١٠٠٠ - ١٢٠٠٠ نسمة (٥) ، بينما يشير تقدير آخر أعد

-
- (١) ان الاسم المفرد لهذه القبيلة وهو الظاهري يدل على أنهم أصلا من الظاهرة .
 (٢) أنظر « تاريخ عمان » بقلم روس في المجلة الجغرافية للبنغال ص ١٦٢ مجلد ١٣ .
 (٣) التقرير السنوى للمقيم البريطانى فى الخليج ١٨٨٧ - ٨ ص ٢٥ سيرة سلطان بن أحمد .
 (٤) مجلة الجمعية الجغرافية للبنغال ص ١٧٧ - ٨ مجلد ١٣ .
 (٥) بحث عن « غرب ساحل القراصنة » مترجم - مجلة الجمعية الجغرافية لبومباى ص ٣٢ مجلد ١

عام ١٨٢٠ بأن هذا الرقم يشمل الرجال فقط (١) ، أما المصدر الذي يمكن الاعتماد عليه أكثر فهو بيان بعثة المسح التي أوفدت الى الساحل العربى بعد عام ١٨٢٠ ، غير أن الرقم الذى يمكن استخلاصه من تقرير البعثة للتعداد الكلى للسكان ونعنى به من ١١٩٠٠ الى ١٢٧٥٠ نسمة قد لا يكون صحيحا اذا عرفنا أن التقرير قد أورد تعداد بعض المناطق بالكامل ، وبعضها لم يشر الا الى عدد السكان الذكور فقط (٢) . وهكذا ذكر التقرير أن سكان رأس الخيمة ٢٥٠٠ وسكان دبی ٧٠٠ - ٨٠٠ نسمة بينما حدد سكان عجمان والشارقة من ١٤٠٠ - ١٧٠٠ رجل ومن ٣٥٠٠ الى ٣٨٠٠ رجل لكل منهما ، بينما حدد سكان أبو ظبى بـ ١٢٠٠ نسمة ، مع أن تعداد الذكور من بنى ياس كان ٢٤٠٠ شخص ، وحلفاءهم المناصر وغيرهم ٥٠٠٠ شخص (٣) .

لقد كان صيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ المقومات الأساسية للحياة فى الساحل كذلك كان القواسم يساهمون فى عمليات نقل السلع فى الخليج كما كانوا يقومون برحلات تجارية الى الهند وأفريقيا ، وكانوا يستخدمون حصيلة هذا النشاط التجارى فى إبتیاع الأغذية وغيرها من متطلبات الحياة للمحافظة على مستواهم المعيشى المنخفض ، وكانوا يشترون البلح والخليل والحمير من البحرين والبصرة والبنادق والبارود والسيوف والسجاد والتبغ من ايران ، والمعادن والأرز والمنسوجات من بومباى ، والسمن والزيت من ساحل مكران ، والبلح

(١) من خطاب الكابتن دبليو. جى. كولبروك الى اف . واردن بتاريخ ١٨٢٠/٩/١ ضمن محادثات بومباى السياسية حلقة ٣٨٥ مجلد ٤ .
(٢) مقتطفات من سجلات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٥٤٠ - ٥٤٧ وكتاب « الملاحه فى الخليج » تأليف برکس .

(٣) نفس المصدر ويقدم كولبروك ثلاثة أرقام لتعداد سكان بنى ياس الذكور هى ٥٠٠٠ منها ٢٠٠٠ على الساحل ، ٣٠٠٠ يسكنون منطقة الظفرة ، ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ وكما سبقت الإشارة الى ذلك بنحو ١٢٠٠٠ فإذا أضيف الى هذه الأرقام ، أرقام برکس للسكان المناصر وبنى ياس معا فان المجموع يقترب من تقديرات كولبروك (فهو لا يقدم كتقديرات عن عدد المناصر وربما يكون قد ضمهم مع بنى ياس .

- ٤٣ -

من عمان ، والبن من اليمن ، والعبيد من زنجبار « في مقابل هذه الواردات ، وباستثناء اللؤلؤ لم يكن سكان الساحل يصدرون شيئاً ذا قيمة فيماعد الأسماك المجففة والجبن ، والجاكتات المنسوجة من صوف الماعز والخرفان .

كانت العلاقات في هذه الفترة بين بنى ياس والقواسم يشوبها التحفظ ولكن كان فيها شيء من الانسجام نسبياً ، اذ لم يكن قد طرأ أى خلاف بينهما حتى ذلك الوقت . وكلا الاتحادين القبليين كان ينتمى إلى المذهب السنى ، كما ان بنى ياس لم يساهموا بأى نصيب من التدخل في الصراع الهناوى - الغافرى ، فقد كانوا لا يزالون يقيمون في واحة ليوا عندما انفجر هذا الصراع بين الطرفين ، وبعد بداية القرن التاسع عشر ، بدأ آل بوفلاح في توثيق صلاتهم بحكام آل بوسعيد والتي توثقت أكثر بنهاية القرن . وحتى ذلك الوقت لم تكن المصالح الاقتصادية بين اتحادى بنى ياس والقواسم قد تعارضت . فقد اقتصر نشاط بنى ياس في مجموعه على الزراعة والرعى ، ولم تكن لديهم الامكانيات الملاحية التي تمكنهم من تحدى القواسم في البحر ، ولكن عندما ازدادت خبرتهم بالبحر عمدوا الى ممارسة صيد اللؤلؤ بشكل متزايد ، بحيث أخذوا يهددون القواسم في سيطرتهم على الخليجان . وعندما وصلت العلاقات الى هذا الحد من التوتر في الثلاثينات من القرن الثامن عشر انفجر العداء السياسى والدينى لكى يضاعف من حدة التنافس بين الطرفين ويحيله الى عداء مستحكم ، قدر له بأن يستمر حتى معظم فترة القرن ، وإلى ما وراء أبو ظبى تنتهى حدود مقاطعة الشمال مخلفة وراءها عمان ، وإلى الغرب من ذلك تمتد صحراء الظفرة التي تحدها من الشمال مياه الخليج ، ومن الجنوب صحراء الربع الخالى . وتتكون الظفرة في معظمها من سلسلة من كثبان الرمال ممتدة من شرقها الى غربها ، وممتدة في الاتجاه الجنوبى من الساحل حتى الربع الخالى . أما الساحل المنخفض المليء بالمستنقعات ، والذي تتناثر فوقه المناطق السبخية والنتوءات الجيرية ويمتد عمقه الى نحو ١٥ ميلا الى الداخل فيعرف بالطف . ومياه هذا الساحل ضحلة على الشاطئ كما انه غير مأمون بسبب ما يضمه من الصخور والجزر والمناطق الرخوة . وعلى الجانب الآخر من الطف توجد ثلاثة أحزمة من المناطق الرملية تتوفر فيها آبار من المياه العذبة

٤٤ :-

ومجموعات من أشجار النخيل في الفجوات الفاصلة من سلاسل الكثبان ، وتسمى هذه المناطق الثلاث من الشمال الى الجنوب الساروق والفقح ، والباطنة ويمكن تميز بعضها عن البعض عن طريق كثبان عالية . والى الجنوب من الباطنة على امتداد بشكل هلال يصل قطره من الجنوب الغربى الى الجنوب الشرقى من ٤٠ الى ٥٠ ميلا تقع واحة ليوا ، وفي هذه المنطقة تزداد الكثبان ارتفاعا حيث تتناثر فيها وعلى منحدراتها عدد من المستعمرات السكنية ، وعلى الرغم من ذلك فانه يوجد هناك نحو ٤٠ الى ٥٠ مستعمرة من هذه المستعمرات ، وحتى الآن يقيم سكانها في بعضها على مدار العام بينما لا يقيمون في القسم الاكبر منها الا في مواسم الحصاد . وتتوفر المياه العذبة وخمائل النخيل في المنحدرات الصخرية الواقعة بين الكثبان وبالرغم من أن الضباط البريطانيين العاملين في الخليج كانوا يعلمون عن وجود هذه الواحة منذ أواسط القرن التاسع عشر الا أنه لم يتج لاي أوروبى مشاهدة هذه الواحة قبل عام ١٩٤٨ عندما اجتازها الرحالة ولقزيرد فيسيجر من الجانب الغربى خلال عبوره الثانى لصحراء الربع الخالى (١) . وعلى الجانب الآخر من ليوا جنوبا تقوم كثبان الرمال البيضاء والذهبية اللون لمنطقتى البطين وجيدان ، وهما المقاطعتان الاخيرتان للظفرة عند ملتقى تلال الرمال الحمراء والتي تلتقى بالخطمة من الشمال والظاهرة في الشرق وهما منطقتا سهول رملية واسعة تقطعها مستنقعات الملح وبعض التلال وتتوفر فيها المياه والمراعى . أما الطف وهو الرقعة الساحلية التى تنتهى حدودها عند بيبخة مطى فهى بحيرة ملحية ضخمة يصل عرضها عند حافة البحر الى أكثر من ثلاثين ميلا ، وهى تمتد الى الداخل فى أشكال غير منظمة ، تتخللها كثبان من الرمال الى عمق يصل الى ٦٠ مير ، وتقع بالقرب من سبخة مطى والى الخلف من الطف مباشرة بينونة ، وهى آخر مقاطعات الظفرة غربا ، وبينونة منطقة

(١) لقد توجه اليها من الجنوب عام ١٩٤٦ بعد أول اجتياز قام به للربع الخالى وقد سلك فى سيره الجانب الشرقى بعد أن تنامى اليه أن هناك فريقا من السعوديين يعسكرون بالمنطقة (راجع بحثه عبر الربع الخالى) بالمجلة الجغرافية عدد ١ ص ١ - ٢١ « رحلة أخرى عبر الربع الخالى نفس المجلة عدد ١٣ ص ٢١ - ٤٦ »

تتخللها كثبان منخفضة ومتعرجة فيها بعض الآبار ذات المياه المالحة . أما من الغرب فيحد سبخة مطى من الغرب وادى مجعن ، وهو سهل حصباوى ينحدر فى رفق من الشرق الى الغرب ، وخلف هذا الوادى يمتد سهل رملى طويل به عدد من الآبار ويسمى عقال ، وينتهى عند أطراف شبه جزيرة قطر حيث ينقسم الى مجموعة من الوديان والرؤوس الصخرية ، وكانت كل منطقة مجعن وعقال فى الماضى عبارة عن مراعى شتوية تستخدمها القبيلتان الرئيسيتان لمنطقة الظفرة ونعنى بهما بنى ياس والمناسير . ومن المحتمل أن بعض العناصر البدوية من القبائل كبنى مرة والمناحيل والرواشد كانت تجوب المنطقة الشمالية من الربع الخالى فى بعض الأوقات لرعى قطعانها هناك . أما المناصير فقد كانت ترتاد الظفرة على امتدادها من الرملة الحمراء شرقا الى بينونة غربا ، بل ربما كانت تصل فى تجوالها الى شبه جزيرة قطر والاحساء ، وكانوا يمتلكون مزارع نخيل فى ليوا كما كانوا يزاولون صيد الأسماك واللؤلؤ بالاشتراك مع بنى ياس فى منطقة غير بعيدة عن الساحل الجنوبى للخليج ، وتتألف هذه القبيلة من ثلاث تقسيمات رئيسية وهى آل بومنذر ، وآل بورحمة ، وآل بوشعر بالإضافة الى فرعين صغيرين ، هما آل بوخيل وآل بوحمير ، ويبدو أن هذه القبيلة لم تكن تدين لزعيم من زعماء القبائل الكبار ، وانما كانت تمنح ولاءها للحاكم الذى يقيم فى منطقته ومنذ بداية القرن التاسع عشر ان لم يكن قبل هذا التاريخ ، كان المناصير متحالفين مع بنى ياس ، بينما كانوا يمنحون ولاءهم لآل بوفلاح مشايخ أبو ظبى . ويمكن تحديد متانة الصلة هذه من تقرير عن قبائل ساحل القراصنة أعده مساعد المعتمد البريطانى فى تركيا العربية عام ١٨١٨ جاء فيه :

« ان بنى ياس قبيلة رعوية من قبائل عمان وقيمون فى أقصى المقاطعة الشمالية التى تسمى السر ، وهى منطقة رملية قاحلة التربة ، وتنقسم هذه القبيلة الى ثلاثة فصائل ، احداها تسمى بنى ياس ، والثانية تسمى المناصير ، والثالثة تدعى العوامر ، أما الفئات التى كانت تقطن المنطقة الداخلية فتمتلك ابلا من أجود السلالات بينما الذين يقطنون المنطقة الساحلية فيمتلكون قوارب خفيفة يحمل كل منها أربعة أشخاص ، وهى صالحة لعمليات الصيد الذى يشحن محصوله الى بلدة الاحساء لتصريفه هناك . . . ولديهم بساتين صغيرة

- ٤٦ -

من أشجار النخيل موزعة على التلال الرملية ولا تعطى غير محصول شحيح من الفاكهة ، وفي الصيف يسكن أفراد هذه القبيلة وسط هذه البساتين وتبقى هناك الى أن تستهلك كل ما عندها من هذا المحصول . ولكن الماء مالح في هذا الموسم (١) ويتوجه الرعاة فى شهور الشتاء الى الاحساء وقطر بحثا عن المرعى .

ان قطر كما يقول العرب انفسهم عنها « انها البلد الذى نسيته الطبيعة » وشبه جزيرة قطر منطقة منبسطة جرداء وهى تمتد شمالا من الساحل العربى الى داخل مياه الخليج الى مسافة ثمانين ميلا تقريبا . ويبلغ عرض أوسع جزء منها نحو أربعين ميلا ، ولا يوجد فيها شئ مفيد سوى رتابة سهلها الممتد مع احتمال وجود بعض التلال المنخفضة هنا وهناك كجبل الدخان فى الجهة الغربية من شبه الجزيرة ، أما حدودها الجنوبية فيمكن تمييزها بسهولة . وتوجد سلسلة من المنخفضات لالتى تبدأ من رومه سلوى فى الغرب حتى حذر العديد فى الشرق ومن الواضح أن هذه المنطقة كانت تشكل فى وقت من الأوقات لسانا من البحر تفصل شبه الجزيرة عن الساحل الخلفى لها .

والمنطقة البحرية المحيطة بقطر تكثر فيها المناطق الضحلة ولا يوجد على الساحل منطقة تصلح كمرفأ حقيقى ، وتوجد هنا وهناك فى المنطقة الداخلية بعض الآبار وتظهر هذه الآبار بعد هطول أمطار الربيع عادة فى الأجزاء المنخفضة من شبه الجزيرة كما تظهر بعض المناطق المكسوة بالحشائش والأعشاب . فالزراعة تكاد أن تكون معدومة على الإطلاق ولا توجد الوديان فى أى مكان منها، ولم يكن هناك غير البحر يتزود منه سكان قطر القليلون بمقومات معيشتهم . أما من الناحية السياسية فقد كانت قطر فقيرة مثلما هى من الناحية الجغرافية، وباستثناء عدد قليل من المستعمرات على الساحل فان قطر لم تكن أكثر من منطقة ترعى فيها قبائل البدو ماشيتها ، وقد حل بها المناصير وربما بنو مرة

(١) مقتطفات من سجلات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ١٦ اعداد الكابتن آر . تيلور تحت عنوان « ملاحظات مختصرة عن عمان ومسقط والبحرين . . » ويمكن الرجوع الى ص ١٣٩ من الكتاب لمعرفة الظروف التى أعديسببها هذا التقرير .

ايضا ، ولكن الحجرين ، وهم اليوم القبيلة البدوية الرئيسية فى قطر ، لم يكونوا موجودين فى نهاية القرن الثامن عشر ، رغم أنهم قد نزحوا اليها بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ .

أما الذين وفدوا الى الجزيرة فيما بعد فانهم عناصر من قبيلة النعيم الكبرى ، وعلى طول الضفة الشرقية للساحل تقوم قرى الصيادين كالوكرة وبديه أو (الدوحة كما تسمى الآن) ربما اشتقاقا من لفظة (دوحة البدع) أما الهويلة والنويرات فيقطعنها عدد من القبائل المستقرة والمعايد ، وهم فرع من آل بنى على وانسابهم الى بوقورة ، فقد كانوا يسيطرون على النويرات ، بينما كان يسيطر آل مسلم وهم فرع من بنى خالد على الهويلات . أما الدوحة فكانت تتألف من عدة قبائل أهمها المعاديد، وآل بوعينين والسودان^(١) . وفى مناطق أخرى من شبه الجزيرة كانت تقيم مجموعات من آل بوعينين والدواسر، والهويلة والآخره منها نزحت الى المنطقة من سواحل ايران . وليس ثمة ما يؤيد احتمال أن يكون بنو خالد شيوخ الاحساء قد مارسوا نوعا من السيطرة على آل مسلم حتى منتصف القرن الثامن عشر . وعلى حين يبدو القسم الشرقى من الساحل مخيبا للآمال فان الشمال الغربى من الجزيرة يقدم صورة أكثر اشراقا لسبب رئيسى هو وجود قبيلة آل خليفة هناك . لقد هاجر آل خليفة ، وهم فرع من العتوب كانوا قد استوطنوا الكويت فى أوائل القرن الثامن عشر من تلك البلاد فى عام ١٧٦٦ طلبا لمستوى أفضل من المعيشة . ولقد اتخذوا زبارة فى الشمال موطننا

(١) قبيلة السودان تاتى أحيانا ضمن بنى ياس وكما يقال عنها انها نشأت أصلا على ساحل القراصنة وجاء فى تقرير أعد عام ١٨٢٠ أن قبيلة السودان التى تقطن أبو حيل القريبة من الشارقة قد نزحت من قطر عن طريق أبو ظبى على اثر قيام الوهابيين بطردهم منها « الشئون السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ مجلد ٤ تاريخ ٢٥ ابريل من كولدبروك الى وارادن ١٨٢٠/٩/١ »

لهم بعد أن انتزعوها بالقوة من آل مسلم ، ثم انضم في وقت لاحق فرع الجلاهمة من العتوب الذين تركوا الكويت لنفس الأسباب واستقروا في الرويس في الطرف الشمالي من قطر ، وقبل أن يهاجر آل خليفة بمعية فرع آخر من العتوب هم آل صباح سكان الكويت بوقت طويل كانوا قد اكتسبوا مكانا مرموقا في الخليج كتجار وملاحين ، وفي ظل سلطانهم نمت وتطورت زبارة كمركز للملاحة البحرية . ولقد ساعد على تطورها حصار الفرس للبصرة سنة ١٧٧٥ - ١٧٧٦ مما وجه قسما كبيرا من تجارة الخليج الى تلك المستعمرات الجديدة كما شجع كثيرا من التجار على الانتقال الى زبارة ، وثمة عامل آخر ساهم في ازدهار زبارة هو السيطرة التدريجية التي تطورت الى ما يشبه الاحتكار الكامل لمصايد اللؤلؤ في كل من شواطئ قطر والبحرين من قبل آل خليفة . ومع مضي الوقت تطورت زبارة الى بلدة ذات أهمية في المنطقة ، ولاتزال آثارها حتى اليوم تنطق عن هذا المركز ، وكانت تحتل مساحة من الأرض تضم بداخلها عددا من المساكن الكبيرة المبنية على النمط الفارسي . ويقدر عدد بيوت زبارة في العشرينات من القرن الثامن عشر بنحو ٤٠٠ ولكنها كانت شبه مهدمة في ذلك الوقت .

وفي أعقاب سلسلة من الغزوات التي شنّها على المنطقة الفرس الذين كانوا يسيطرون على جزر البحرين المجاورة حل التدهور بالبلاد ولقد كان حاكم بوشهر الذي كان يحكم البحرين في الوقت نفسه غير راض عما حققه آل خليفة من انجازات في زبارة ، وكانت تنشأ المنازعات كلما اجتاز آل خليفة البر الى البحرين كما كانت الخلافات الدينية عاملا آخر في اشعال نار الخصومات بين الطرفين ، اذ أن آل خليفة ينتمون الى المذهب السني بينما ينتمي أهل البحرين الى المذهب الشيعي . وفي عام ١٧٨٢ حدثت واقعة أدت الى مقتل أحد أفراد قبيلة آل خليفة في سترة على الساحل الشرقي للبحرين مما دفع حكام زبارة الى شن حملة عسكرية على المنامة عاصمة البحرين ، وقد استنجد البحرانيون الذين دب فيهم الفرع ، بحاكم المقاطعة الجنوبية لفارس ، وقد أصدر هذا الحاكم أوامره الى الشيخ ناصر حاكم بوشهر بتجهيز حملة لاحتلال زبارة ، وفي بداية عام ١٧٨٣ تحركت قوة مشتركة من الفرس والقواسم وانقضت على معقل آل خليفة في زبارة ولكن القوة اصطدمت بمقاومة من آل خليفة يعاونهم بعض افراد

قبائل قطر . وبعد بضعة أشهر قام آل صباح سكان الكويت وانساب آل خليفة يؤيدهم بعض عرب قطر بحملة على البلدة، وبعد حصار دام شهرين لقوات الفرس استسلمت حامية المنامة لهم . ومنذ ذلك الوقت غدت البحرين قاعدة لحكم آل خليفة على الرغم من أن الشيخ الحاكم ظل يقيم لعدة سنوات في زبارة ، ومن بين القبائل التي ساعدت آل خليفة على احتلال البحرين قبيلة الجلاهمة سكان الرويس ، والتي تمت الى آل خليفة بصلة القرى غير أن القبيلتين اختصمتا فيما بعد ، ربما على الفنائم ، مما دفع الجلاهمة الى الانسحاب الى قطر حيث استقر بهم في خور حسن شمال زبارة ، وكان يحكمهم ثلاثة شيوخ اخوة وأنجال شيخ المشايخ السابق جابر الذي قاد عمليات الهجرة الاولى من الكويت الى قطر . وخلال بضع سنوات ذاع صيت رحمة بن جابر بأنه من أعظم قراصنة الخليج في العصر الحديث . وفي ظل حكمه غدا خور العديد ملجأ وملقى لكل المناوئين لآل خليفة ومن يفضلون ممارسة الحياة بقوة السيف وحدها وأن حقه على آل خليفة ، وهو أمر كما يبدو له أسباب شخصية أكثر منها الخلاف الذي نشب على فتح البحرين فقد ظل لأكثر من أربعين عاما وحتى وفاته في معارك كان يقودها ضدهم وكان يخوض حرب استنزاف ضروسا ضد تجارة وملاحة البحرين . وكان معقل رحمة في خور حسن (وتسمى الآن الخوير) عبارة عن قرية متداعية متواضعة تتألف في أغلبها من اكواخ بدائية من السعف والخيش ، وكان يتصدرها قلعة مربعة الشكل مبنية من الطين والحجر المرجاني تقع على الساحل والمرقا الضحل وفي منطقة غير بعيدة من الشاطئ بعض الشعب المرجانية يمكن مشاهدتها وهي تمتد شمالا وجنوبا بمحاذاة الساحل بالإضافة الى قناة بعمق باع ونصف الى باعين يفصل بينهما في العرض سلك عازل من حيث تستطيع المراكب ان تبحر من رأس فكان الى زبارة أما القناة المتدة عبر الشعب بطول ميلين غرب الميناء فلا يمكن الإبحار فيها الا في فصل الربيع ، كما يمكن سدها بالأحجار في حالة وجود تهديد أو طوارئ (١) .

(١) الوثائق السياسية لحكومة بومباي حلقة ٣٨٣ مجلد ١٧ مشاورات ١٨١٠/٥/٢٩ رسالة من كابتن ان. وارن الى أن اتشه سميث (المقيم البريطاني في بوشهر) بتاريخ ١٧/٣/١٨١٠ أما بالنسبة لزيارة وارن لخور حسن راجع ص ١٢٣ من الكتاب .

(م ٤ - بريطانيا والخليج) .

«وكان لرحمة معقل آخر يمكنه التراجع اليه للاحتماء فيه ، وذلك في دوحة حسن ، حيث لا تزال توجد بقايا حصن حيث أقيم بالبناء المذكور ، ويسمى هذا الوكر بوكر الثعلب ، وهو اللقب الذى كان يشتهر به رحمة في ذروة أيامه .

يقع أرخبيل البحرين فيما بين شبه جزيرة قطر وساحل الاحساء . ويضم جزيرة كبيرة هى البحرين (وتسمى بأوال أيضا) وعددا آخر من صغار الجزر اكبرها المحرق على الطرف الشمالى ، وسترا على الطرف الشرقى ، والبحرين جزيرة مستطيلة الشكل ويصل عرضها في الوسط الى عشرة أميال . والجانب الشمالى من الجزيرة هو المنطقة الخصبة فقط ، أما الباقي فيما عدا بضعة نقط على الساحل الغربى فصحراء ، وفي الشمال في البلدة الرئيسية المنامة تتوفر الينابيع بكثرة كما توجد ينابيع تحت مياه البحر على الساحل ، والأرض في البحرين منخفضة وتكاد أن تكون منبسطة والمنطقة المميزة الوحيدة فيها كما هو الحال في قطر هو جبل الدخان القائم في قلب الجزيرة . وخور المنامة صالح للملاحة وهناك مراسى مأمونة بين المنامة والمحرق . وعلى بعد بضعة فراسخ الى الشمال في محرق تقع أحواض اللؤلؤ وتبدأ من رأس تنورة على الساحل العربى امتدادا الى الشمال الغربى بحث تلتف حول رأس قطر ثم تنحدر في اتجاه الساحل الشرقى قبل أن تتلاشى عبر أعماق البحر أوعية البحر « التى يطلق عليها العرب « بحر العذارى » بحث تنتهى أخيرا بالقرب من دبی على ساحل القراصنة ، وأكثر الأحواض وفرة بالآلئ هى المنطقة القريبة من البحرين ورأس ركن .

لقد ظل تاريخ البحرين على امتداد القرن الثامن عشر حافلا بالاضطرابات ، أما من الذى كان يحكم الجزيرة في مطلع القرن فغير معروف ، وربما كانت خاضعة للفرس الذين تمكنوا من طرد البرتغاليين منها سنة ١٦٠٢ ، أو ربما كان عرب الاحساء على الطرف المقابل من الأرض الام هم الحكام ، ومن عام ١٧١٨ استولى الامام العربى سلطان بن سيف الثانى على الجزيرة ، ولكنه لم يستمر فيها فقد عادت الى الفرس في عهد نادر شاه ، غير أن الحاكم الفارسى كان حكمه قصيرا وانتقلت السلطة في منتصف القرن الى عرب الهويلة التى كان زعيمها في ذلك الوقت شيخ منطقة اسالوا على الساحل الايرانى ، ثم انتهى

حكم هذا الشيخ عام ١٧٥٥ عندما هاجمتها قوة كبيرة خرجت من الموالي الشمالية لفارس ، وهى بوشهر وبندر رق بقيادة الشيخ ناصر شيخ بوشهر واخضعت الجزيرة لسلطانها . وقد ظل هذا الشيخ يحكم البحرين زهاء ثلاثين عاما باسم فارس حتى اقصى منها مرة والى الابد من جانب آل خليفة حكام زبارة ، وفى نهاية القرن الثامن عشر كانت البحرين تخضع لحاكمين من آل خليفة هما سلمان بن احمد وأخوه عبد الله ، وكان جدهما الشيخ خليفة بن محمد هو الذى قاد عملية النزوح من الكويت الى زبارة عام ١٧٦٦ ، وقد احتل الجزيرة والدهما الشيخ احمد بن خليفة فى غياب والده الشيخ خليفة الذى كان قد توجه الى مكة للحج وتوفى هناك . وقد ظل يقيم فى زبارة تاركا مقاليد الحكم فى البحرين لولديه ، وعلى اثر وفاته اتفق الأخوان على مشاطرة الحكم حيث يقيم سلمان فى منطقة الرقاع ويقيم الآخر فى المحرق .

ان سكان البحرين متعدّدو الأجناس ، ومما لاشك فيه أن السكان الأصليين البحارنة يشكلون اكبر مجموعة سكانية ، وهؤلاء يتكونون من خليط من الأصل العربى والفارسى ، ويتعاطون صيد الأسماك والفلاحة ، والمجموعة السكانية الكبرى الثانية هم الهويلة ، وهذه المجموعة مثلها مثل البحارنة ليست قبيلة وانما هى طبقة تتألف من العرب الأوائل الذين زحفوا على الساحل الفارسى فى فترات تاريخية سابقة . ولكن الهويلة سنيون على خلاف البحارنة الذين هم من الشيعة . واذا جمعنا الفئتين يمكن أن يصل تعدادهما فيما بين ١٠٠.٠٠٠ إلى ١٥٠.٠٠٠ نسمة، واذا التفتنا الى العناصر القبلية التى تؤلف بقية سكان الجزيرة فيمكن القول ، أن العتوب بما فيهم الأسرة الحاكمة من آل خليفة كانوا اكثر المجموعات نفوذا . أما العناصر الأخرى كآل بوكورة . والسلالة وآل مسلم ، والمعودة والجنبات فهم من أصل قطرى كان العتوب قد عبأوهم فى عملياتهم لاحتلال البحرين ، ثم اختاروا البقاء فى الجزيرة ، كما كان هناك نحو ٨٠٠ من بنى خالد الذين نزحوا الى البحرين من الاحساء . وفى أعقاب هؤلاء كلهم استقبلت البحرين مجموعة من قبائل الدواسر والنعيم الذين هاجروا اليها من المنطقة الام . ويقدر عدد العتوب وحلفائهم باستثناء بنى خالد فى ذلك الوقت بعشرة آلاف الى عشرين ألف نسمة، كما كا هناك نحو ٢٠٠ الى ٣٠٠

من الافريقيين الارقاء والاحرار فى خدمة آل خليفة . وفى غضون العشرين والثلاثين سنة من حكم آل خليفة حققت البحرين تقدما سريعا فى النواحي التجارية ، وكان مقدرا لها فى وقت من الاوقات أن تنتزع من مسقط أهميتها كمركز تجارى فى الخليج . فبحكم موقع الجزيرة فى منطقة تتوسط خليج هرمز وشط العرب فقد ساعدها هذا الوضع على احتكار تجارة المنطقة بصورة تامة ، ولئن كان تدهور الوضع فى البصرة ، كما أشرنا آنفا ، قد ساهم فى دفع التطور الاقتصادى للبحرين فان الفضل الأكبر فى ذلك يعود الى مهارة ونشاط حكام الجزيرة الجدد الذى برزت قدراتهم الى حد كبير فى الكويت أولا ، ثم فى زبارة كملاحين وكتجار فى نفس الوقت . وربما كان صيد اللآلىء أكبر موارد الدخل لآل خليفة . والتقديرىات للقيمة الاجمالية لهذا الدخل قليلة ولكنها تتراوح كثيرا ، ويذكر المؤرخ ينفهور فى سنة ١٧٥٦ ، أن حاكم بوشهر كان يتقاضى من هذا المورد نحو مائة ألف روبية (اى ١٠ آلاف جنيه استرلىنى) (١) ويقدر مصدر آخر هذا الرقم سنة ١٧٧٥ بستين ألف تومان عراقى ، اى مايعادل (١١٢٥٠٠ ج س) (٢) ويقدر مكتب تمثيل شركة الهند الشرقية فى البصرة فى سنة ١٧٩٠ أن قيمة صادرات اللؤلؤ من البحرين قد بلغت ٥٠٠.٠٠٠ روبية هندية (نحو ٥٠٠.٠٠٠ ج س) (٣) وقد ابلغ أحد الضباط السياسيين التابعين لهذه الشركة فى سنة ١٨٤٨ أن قيمة تجارة اللؤلؤ بلغت ١٠٠.٠٠٠ تومان عراقى لـ ١٨٧٠.٠٠٠ ج س) (٤) ، وتشير المعلومات التى استقاها ضباط الاسطول البريطانى العاملون فى عملية مسح الخليج سنة ١٨٢٤ أن قيمة هذه التجارة

(١) نفس المصدر .

(٢) رحلات الى آسيا ص ٢٠٢ تأليف ابراهيم بارسونز . ان بارسونز : وكان احد رجال شركة لفانت قد زار الخليج فى عام ١٧٧٥ وقد أشرنا الى انطباعاته عن مسقط آنفا .

(٣) فارس والخليج مجلد ٢١ من مانستى وجونز الى مجلس الحاكم بومباى فى ١٨/١٢/١٧٩٠ .

(٤) وثائق حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٢٢ « ملاحظات عن عمان »

اعداد تايلور .

قد ارتفعت في تقديراتهم الى ١٦٠٠.٠٠٠ نمسوى (اى مايساوى ٣٢٠.٠٠٠ ج س تقريبا) وفي مكان آخر انها بلغت نحو ٤٠٠.٠٠٠ روبية (اى ٤٠٠.٠٠٠ ج س) (١) تقريبا ، وبعد ذلك ببضع سنوات قدر المقيم السياسى البريطانى فى الخليج بمليون الى مليون ومائتى الف ريال نمسوى (اى ٢٠.٠٠٠ ج س و ٢٤٠.٠٠٠ ج س) (٢) ، وفي غضون العشرينات كان نحو ٢٥٠٠ سفينة تبحر كل صيف من البحرين الى مصايد اللؤلؤ ونحو ٧٠٠ اخرى من ساحل القراصنة . وكان يعمل على هذه السفن من ٢٧ الى ٣٠ ألف رجل ، ولكن هذا العدد انخفض سنة ١٨٤١ الى ٢٤٠٠ - ٢٥٠٠ ، وان كان عددا للأفراد العاملين بها قد ارتفع الى ٣٧٠٠٠ - ٣٨٠٠٠ وقد انخفضت حصة البحرين من هذه العمليات بسبب الاضطرابات الداخلية فيها وكانت اكبر مساهمة فردية من القوارب والبحارة هى مساهمة ابو ظبى التى قدرت بأكثر من ٧٠٠ سفينة ومن ٨٠٠ الى ٩٠٠ بحار . على أن الأرقام الصحيحة الأولى عن تجارة البحرين هى تلك التى تم وضعها خلال عمليات مسح الخليج ، وهى تشير الى أن القيمة الاجمالية السنوية للميزانية بلغت ٢٤٥٩.٠٠٠ ريال نمسوى . اى (٤٩٠.٠٠٠ ج س) مقسمة الى رقمين يمثل الاول رقم الصادرات فى حدود ١٦٥١.٠٠٠ (نحو ٣٣٠.٠٠٠ ج س) ، ويمثل الثانى فى حدود ٨٠٧.٣٠٠ ريال نمسوى (نحو ٣٣٠.٠٠٠ ج س) ، ويمثل الثانى فى حدود ٨٠٧.٣٠٠ ريال نمسوى (نحو ١٦٠.٠٠٠ ج س) الواردات . وكان اللؤلؤ فى المقام الأول من الصادرات اذ بلغ قيمة ما يصدر منه كما اشرنا آنفا نحو ٣٢٠.٠٠٠ ج س ، أما الواردات فكانت تأتى من الهند (السلع القطنية والأرز والسكر والبهارات

(١) نفيس المصدر ص ٥٦٨ « حول الملاحة فى الخليج » بقلم برکس وبحث عن عرب ساحل القراصنة بقلم وايتلوك ترجمة مجلد جمعية بومباى الجغرافية ، فصل ١ ص ٤٥/٤٤ .

(٢) مرفقات للمراسلات السرية لحكومة بومباى مجلد ٣٦ مرفق ٣٦ خطاب رقم ٧٩ مؤرخ ٣٠ سبتمبر ١٨٤١ من الكومودور جى . بى برکس الى الكابتن اس هانيل المقيم البريطانى فى الخليج ١٨٤١/٨/٢٥ .

والمعادن والواح الصنوبر والأدوية) . ومن فارس وعمان (الحبوب والفواكه المجففة) ومن البصرة البلح والبن من اليمن . وكان قسم كبير من هذه الواردات وبالأخص المنسوجات القطنية يعاد تصديرها الى داخل شبه الجزيرة العربية . وكانت السفن البحرانية هي التي تنقل هذه المواد وقد وصل عددها في العشرينات من القرن ٢٠ سفينة حمولتها تتراوح من ١٤٠ الى ٣٥٠ طنا ، وكانت تستخدم في التجارة مع الهند بالإضافة الى ١٠٠ سفينة صغيرة حمولتها من ٤٠ الى ١٢٠ طنا (١) .

لقد أثار ازدهار ونمو الثروة في البحرين حكام فارس الذين ضاقوا ذرعا بضياغ هذا البلد من أيديهم ، غير أن اضطراب الأحوال في إيران خلال المراحل الأخيرة من القرن الثامن عشر حال بينهم وبين القيام من جديد بغزو البحرين ، كما أن آل خليفة من جانبهم رأوا في بداية حكمهم أن من الحكمة ترضية الإيرانيين عن طريق دفع جزية سنوية لحكومة شيراز ، غير أنهم عدلوا عن هذه الفكرة بعد أن أيقنوا أن فارس لم تعد تشكل أي خطر عليهم (٢) . كما أنهم في نفس الوقت لم يحاولوا إنكار المطالب الفارسية لأن ذلك كان يمنع غير الفرس من التفكير في الاعتداء عليهم (٣) . وأن المنطقة الأم من شبه الجزيرة المواجهة للبحرين تعرف بالحساء أو باسم الجمع الاحساء . وإذا شئنا الدقة فإن هذا الاسم

(١) مختارات من وثائق حكومة بومباي مجلد ٢٤ ص ٥٦٨ « الملاحه ، في الخليج » بقلم برکس وقد استقيت هذه المعلومات من سمسار شركة الهند الشرقية في البحرين ومن وزير آل خليفة .

(٢) نفس المصدر ص ٢٩ « ملاحظات حول عمان » بقلم تايلور و ص ٥٦٥ . من « الملاحه في الخليج » .

(٣) ان المصادر الرئيسية للمعلومات الخاصة بقطر والبحرين خلاف تلك التي سبق الاشارة اليها هي التقرير الاداري « لمحّة قصيرة عن العتوب العرب » التي استقيت من بعض الأفراد اعداد وليم بروس . بوشهر في ١٨١٦/١٠/٢٦ ومرفق بخطاب اليراد ميرال السير ريتشارد كنج القائد العام للقوات البريطانية في الهند الشرقية الى جى . دبليو كروكر (سكرتير الامبرالية) . ورولاندرنكوماي في ١٨١٧/٣/٥ .

يطلق على الواحة العظيمة التي تمتد بضعة أميال الى الداخل ، وهى تمثل الميزة الجغرافية البارزة للمنطقة ، غير انه في العرف العام فالاسم يدل على الرقعة الساحلية والمنطقة الداخلية فيما بين قطر والكويت - انها ارض منبسطة وصحراوية تتناثر عليها التلال والأخاديد في بعض المناطق مع وجود آبار كثيرة وبعض المراعى . وعدد من الواحات الواسعة التي تختص بها منطقتا الاحساء والقطيف . أما القطيف . وهى ميناء مشهور على الساحل فقد كانت منطقة غير معروفة في أواخر القرن الثامن عشر ، اذ لم يكن بها سوى بضعة بيوت جميلة وبقايا أحد الحصون التي شيدها البرتغاليون ، وكان عدد سكانها نحو ٦٠٠ نسمة ، كما ان مقاطعة القطيف بما فيها ميناء السمات على بعد بضعة أميال على الساحل ، وكان يقدر عدد سكانها بثلاثة عشر ألف نسمة ، والهفوف هى البلدة الرئيسية فيها وتقع في قلب الواحة . وهى لم تكن أكثر من معسكر بيوتها مبنية من الطين ، والخيش ، يحيط بها سور يرتفع الى ٥٠ قدما من الأرض ، ويبلغ عدد المقيمين قيمة نحو ١٣٠٠٠ نفس . كما توجد قرية تابعة لهذا المعسكر تسمى مبارز على بعد ٦٠ الميل ويسكنها نحو ١٠ آلاف نفس . أما بقية القرى فهى مبعثرة على امتداد الواحة . وكان عدد سكانها حسب تقدير ذلك الوقت ٥٠ ألف نسمة تقريبا . لقد كانت الاحساء في وقت من الاوقات مقاطعة تابعة للإمبراطورية العثمانية . غير أن ماتبقى من كل هذه الامبراطورية في القرن الثامن عشر في هذه المنطقة لم يزد عن بعض عائلات من أصل عثمانى . وكانت السلطة في الاحساء بيد بنى خالد ، وهم احدى أكبر أربعة قبائل من قبائل المنطقة ، اما الباقر بنو هاجر وآل عجمان وآل مرة ، وكلها قبائل بدوية . وكان بنو خالد يقيمون في المنطقة الشمالية تقريبا وعجمان في المنطقة الوسطى . بينما كان يقيم بنو هاجر وبنو مرة في كل من الجنوب الشرقى والجنوب الغربى وكان شيخ مشايخ بنى خالد سنة ١٧٩٥ هو عربى بن سعدون بن الفوف ، وكان لأسلافه نفوذ هائل على منطقة تشمل الكويت وقطر والبحرين ، وفي السنوات الأخيرة من القرن بدأ نجم بنى خالد في الأفول بظهور الوهابية في نجد ، واكتساحهم لمناطق البحر الأحمر والخليج . وسوف يأتى الحديث عنهم باسهاب لاحقا . ولكن لابد هنا من القول انهم سبق أن احتلوا

الاحساء عام ١٧٩٢ وكانوا على وشك أن يعودوا للاستيلاء عليها سنة ١٧٩٥ ،
 واخضاع بنى خالد على طول ساحل الاحساء وبالأخص ميناء العقير والقطيف
 حيث تقيم أعداد كبيرة من المهاجرين العرب ، أغلبهم من البحارنة والهويلة .
 كذلك أقام البحارنة في واحة الاحساء وكانت معظم تجارة الاحساء في أيديهم .
 وكان معظم صادراتهم من المنتجات الزراعية والرعية والبلح (وهو أفضل
 أنواع البلح في الخليج) والعباءات وهي منسوجة من الصوف والحرير ، وهي
 من المصنوعات ، والجمال التي كان يرسل الآلاف منها الى سوريا والعراق
 وكذلك اللؤلؤ الذي كان يستخرج من أحواض قريبة من رأس تنورة ، وكان
 يصدر للخارج كما كان يزرع الشعير والأرز والحنطة بكميات محدودة في واحة
 الاحساء ، أما واردات الاحساء فكانت تتكون من البن والأطعمة والمنسوجات
 والمعادن وكان كل هذه المواد باستثناء البن يأتي بها التجار البحرانيون من
 الهند^(١) أما شمال الاحساء أي في الزاوية الشمالية الغربية للخليج فتقع بلدة
 الكويت ، ومينائها مركز حكم فرع أسرة الصباح التي تنتمي الى العرب العتوب
 وينحدر العتوب من قبيلة عنزة العربية ، وهي من كبرى قبائل العرب ، وذلك
 وفقا لرواية العتوب أنفسهم . والعتوب قبيلة نزلت الى المنطقة من شمال
 أواسط جزيرة العرب ، ومن المحتمل أن يكونوا قد نزحوا الى الخليج في أواخر
 القرن السابع عشر ، واستقروا بالقرب من شط العرب ، ربما في منطقة أم
 القصير حيث كانوا يعيشون على صيد الأسماك والقرصنة واغتصاب القوافل
 التي تعبر الصحراء في طريقها الى الغرب ، كما أخذوا يهاجمون قوافل السفن
 في شط العرب بعد بضعة أعوام من استقرارهم ، وبعد أن تفرسوا على أعمال
 بناء السفن والملاحة التي غدوا من أمهر صناعاتها فيما بعد ، ثم انتقلوا الى الكويت

(١) ص ٢٩٣ - ٢٩٤ تأليف ينهور « التقرير الإداري السنوي للمقيم
 البريطاني في الخليج » ١٨٧٩ - ١٨٨٠ ومذكرات حول نجد « بقلم اللفتنانت
 كولونيل إي . سروس ومذكرات رحلة الى الجزيرة العربية بقلم الكابتن جى .
 اف . سادلر بمباي ١٨٦٦ ص ٢٩ - ٥٣ أما عن المصادر التي استقى منها
 معلوماته . راجع أدناه ص ٥٠ ملاحظات رقم ١ وفي ذلك وصف لرحلة سادلر
 عبر الاحساء في ١٨١٩ ورد بالفصل الرابع من الكتاب .

في نحو عام ١٧١٦ . وتمتلك الكويت ، التي عرفها الأوروبيون حتى القرن التاسع عشر باسم القرين^(١) ميناء طبيعياً من أفضل الموانئ في الخليج بالإضافة إلى قربها من شط العرب ، كل ذلك مكن العتوب من الفوز على جميع منافسيهم على تجارة الخليج الأعلى . ويتركز السواد الأعظم من سكان الكويت في بلدة الكويت الواقعة على الساحل الجنوبي من جزر الكويت والعنصر الحاكم في الكويت هو آل صباح ، ليس بحكم عددهم وإنما بحكم قدرتهم على الحكم وبحكم ثقافتهم العسكرية . وكان الحاكم في أواخر القرن الثامن عشر هو الشيخ عبد الله الصباح . ويتألف سكان الكويت من قبائل بني خالد والدواسر وعجمان وعنزة بالإضافة إلى بعض البحارنة . أما المنطقة الداخلية من الكويت فكان يسكنها البدو من آل الرشيد والعوازم ، غير أن المنطقة كانت تستقبل بعض القادمين من القبائل العربية القاطنة أواسط وشرقي شبه الجزيرة ، وكان مجموع سكان الكويت في نهاية القرن الثامن عشر نحو ١٠.٠٠٠ نفس ، ولا يعرف على وجه التحديد كم كان عدد سكانها قبل عام ١٧٦٦ عندما نزحت فصيلة آل خليفة من العتوب إلى قطر ، لتتبعها فيما بعد عناصر من الجلاهمة ، غير أن القادمين إلى الكويت من شبه الجزيرة ومن بعض أجزاء الخليج في السنوات التي أعقبت ذلك قد عوض الكويت عن النقص في عدد السكان . وكانت تجارة الكويت كتجارة البحرين تقوم على أساس أنها منطقة حرة ، كما أن آل صباح كآل خليفة استفادوا من التدهور الذي ألم بتجارة البصرة وكانت الكويت تشرف على تجارة رابحة في تهريب السلع إلى المناطق التركية في الشمال . وكان عدد كبير من التجار يرسلون بضائعهم إلى بغداد وحلب عن طريق الكويت

(١) ربما اشتق الاسم من جزيرة القرين القريبة منها أي تصغير لكلمة قرين وهو شكل خور الكويت نفسه أما التسمية « الكويت فهي تصغير لكلمة كوت » قلعة » أما كيفية إطلاق هذا الاسم عليها فيبدو لغزاً إلا إذا كان هناك صلة بين الاسم والشكل المنبسط للمنطقة المحيطة بها . ولأن الشكل شيء له أهمية في ذلك الوقت حتى لو كان بيتاً من الطين وعلى حد رأي ينهور فان هذه القلعة بناها البرتغاليون في الأصل .

ليتفادوا دفع الرسوم عليها في البصرة . وكانت القافلة التجارية تقطع المسافة الى بغداد في ثلاثين يوما والى حلب في ثمانين يوما ، وخلال المراحل الأولى للرحلة فيكون آل صباح المسؤولين عن حماية القافلة كما أن مجموعات كبيرة من الخيول الأصيلة من شمال الجزيرة العربية كانت ترسل الى الهند كل عام عن طريق الكويت . ولم تكن الواردات الى الكويت تختلف عنها في الأقاليم الأخرى. من الخليج مثل المنتجات الهندية كالأقمشة والأرز والسكر والخشب والتوابل والبن من أقاليم البحر الأحمر والفاكهة والحبوب من فارس والبلخ من البصرة . أما صادرات الكويت فقد كانت اللآلئ التي كانت تستخرج من منطقة رأس تنورة . وكان لدى آل صباح عدد من السفن يتاجرون فيها الى الهند أو ينقلون فيها البضائع الى الخليج .

ومن المعروف انه كان لديهم في العشرينات من القرن ١٥ سفينة ملو عبّرات المحيط حمولاتها تتراوح من ١٠٠ - ٤٥٠ طنا وعشرين سفينة صغيرة حمولتها من ٥٠ الى ١٢٠ طنا . بالإضافة الى ١٥٠ سفينة أخرى تتراوح حمولتها من ١٥ الى ١٥٠ طنا .

ويحيط الغموض بعلاقة الكويت بالامبراطورية العثمانية ، فعندما كان الحكم التركي يمتد الى مشارف الساحل الشرقي للجزيرة العربية . لم تكن الكويت قد وجدت بعد . وهي لم تنشأ الا بعد ان زالت السيطرة التركية الفعلية من المنطقة ، غير ان السلطان العثماني ، أو على الأقل ممثله في بغداد كان يصر على اعتبار الكويت منطقة تابعة له . ولما كان الأتراك لا قبل لهم بغرض مطالبهم فرضا ، فقد كان موقف آل صباح منهم كموقف آل خليفة من المطالب الفارسية في البحرين : أي بتجاهل هذه المطالب تارة ورفضها كليا تارة أخرى ، أو بالسكوت عليه اذا تربص بهم خطر من جهة أخرى ، الا انه من الواضح ان الكويت لم تكن تعتبر داخلة ضمن السيادة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر ، لأن ممثلي شركة الهند الشرقية أثار خلاف وقع بينهم وبين السلطات التركية في البصرة انسحبوا الى الكويت حيث بقوا هناك لمدة عامين غير أن التهديد الوهابي في الأعوام القليلة التي أعقبت ذلك قد غير من نظرة آل صباح الى حد ما بحيث اضطروا الى الاعتراف بالسيادة العثمانية

عليهم ، وذلك في العشرينات من القرن الثامن عشر ، وكانوا يدفعون زكاة محدودة لحكام بغداد (١) كل عام . في قاعدة الخليج على دلتا نهري دجلة والفرات تقع أقصى القواعد الشرقية للإمبراطوية العثمانية ونعنى بها ولاية البصرة ، أما البصرة وهى المركز الإدارى للولاية التركية تقع على بعد ستين ميلا من البحر على شط العرب وهو ممر مائى دولى يمتد الى مسافة تربو على المائة ميل من ملتقى نهري دجلة والفرات من القرنة الى مصبه فى البحر . وعلى امتداد الجزء الأكبر منه فان شط العرب يجرى من خلال مجراه الذى تكون عبر القرون من الطين والطمى اللذين يجلبهما تيار هذين النهرين والى الأسفل من البصرة ينضم الى شط العرب نهر قارون الذى ينبع من جبال غربى فارس ومنطقة الدلتا منبسطة وخصبة وتنتشر على جانبيها أحراش من أشجار النخيل وتتخللها اعداد كثيرة من الخلجان والأنهار الصغيرة التى تشق طريقها الى شط العرب والى الغرب من الدلتا تصبح التربة جافة ، وتمتد الى سوريا وشبه الجزيرة العربية ، والى الشرق منها يقع سهل عربستان أو خورستان ويحده من الغرب مياه الخليج ، ومن الشمال والشرق جبال فارس ، ويتخلله من الشمال الى الجنوب نهر قارون وفروعه . كان العراق التركى او شبه الجزيرة العربية التركية كما كان يسميها البريطانيون فى أواخر القرن الثامن عشر ولاية من ولايات الامبراطورية العثمانية ، وكانت البصرة تابعة فى ادارتها لبغداد عاصمة الولاية ، ومنذ أواسط القرن الثامن عشر كان يحكم بغداد مجموعة من باشوات المماليك وقد أطلق عليهم هذا الاسم لكونهم عبيدا جىء بهم من جورجيا أو أنهم من سلالة أولئك العبيد .

ولما كان هؤلاء العبيد قد وصلوا الى أعلى المراكز اما بحكم كفاءاتهم أو عن

(١) مختارات من وثائق حكومة بومباى ، مجلد ٢٤ ، ص ٥٧٥ - ٥٧٦
 « الملاحه فى الخليج » بقلم برکس ، وفارس والخليج جزء (٢) من مانستى وجونز الى الحاكم العام . بومباى فى ١٨/١٢/١٧٩٠ وكتاب ينهور ص ٢٩ وجريدة الخليج الرسمية .

طريق التآمر أو بفضل اسيادهم فقد استطاعوا في النهاية لا أن يحصلوا على حريتهم فحسب بل أن يستولوا على السلطة في الولاية حتى ان السلطان العثماني قد عجز عن وقفهم عند حدهم ، بل واضطر الى الموافقة على تعيين ولاية وقادة عسكريين منهم في بغداد ، وأن يقبل منهم أى زكاة يدفعونها لحكام القسطنطينية . وفي نهاية القرن الثامن عشر كان الحاكم المملوكى لبغداد هو سليمان باشا ، وكان من أعظم الحكام الممالك وأطولهم حكما ، وقد تولى الحكم عام ١٧٨٠ وكان عمره اذ ذاك ستين عاما وقبل ذلك كان متصرفا أو حاكما على البصرة حيث أظهر مقدرة فائقة في الدفاع عن البلاد ضد هجمات الفرس ، وعلى أية حال فقد تدهور وضعه بعد ذلك على الرغم من أنه ظل مهيبا من جانب البلاد التي كان يحكمها . وفي ظل الأتراك فقدت بغداد كثيرا مما كانت تتمتع به من عظمة وبهاء على أيام الخلفاء العباسيين ، ونظرا لموقعها بين ملتقى طريق تجارى هام بين سوريا والبصرة وفارس فقد ظلت تزدهر تجاريا غير أن البلدة التي كانت تقع على الجانب الشمالى من نهر دجلة لم تكن تتمتع بأى ميزة . فقد كانت بيوتها مبنية من الطوب منسقة وأزقتها كثيرة الضوضاء ، وكان أهم مبنى فى البلدة هو قصر الحاكم (السراى) وكان به عدد كبير من المساجد التي لم يكن فى هندستها أى شئ من الجاذبية . وكان يحيط بها سور عظيم البناء يقوم على أعمدة داخلية تسندها دعائم كثيرة . وعلى المداخل الأربعة للسور قلاع محصنة تضم عددا من المدافع . وعلى جانب النهر لم تكن بغداد تحتفظ بأى نوع من وسائل الحماية ، غير أنه كان فى الامكان اخفاء المراكب التي كانت تعمل فى هذا النهر وقت الخطر .

ويقدر الرحالة الفرنسى غليوم أوليفر الذى زار هذه المنطقة خلال عام ١٧٩٦ - ١٧٩٧ عدد سكانها بثمانين ألف نسمة منهم خمسون ألفا من العرب . وخمسة وعشرون ألفا من الأتراك وما بقى منهم يهود وكلدانيون وأرمنيون ، وقيل له بأن العدد قد ارتفع خلال حكم سليمان الى ١٣٠.٠٠٠ أو ٤٠.٠٠٠ ، وكانت حامية بغداد تضم ٨.٠٠٠ عسكري بالإضافة الى ٦.٠٠٠ من حرس الباشا الخاص بينهم راكبو الخيل والمشاة . كما كان هناك نحو ٧.٠٠٠ عسكري موزعين على المنطقة كلها . غير أن هذه القوة لم تكن تتحرك الا بأمر من الحاكم فى القسطنطينية . وكان عدد الخيالة الأتراك النظاميين فى الولاية نحو ١٢٠٠ غير أنه كان فى الامكان تعبئة مايقرب من ١٢ ألفا الى ١٥ ألف خيال من قبائل الأكراد الى جانب مايقرب من ١٠

آلاف الى ١٢ ألفا من الخيالة العرب بمعنى أن الباشا سليمان كان في امكانه ان يدفع الى الميدان بأربعين الى خمسين ألف رجل ، وكان دخل البلدة يأتي من الرسوم الجمركية ومن الضرائب التي كانت مفروضة على القبائل والواردات التي تصل باسم الاقليات غير الاسلامية . وكان المبلغ الذي ينقل الى القسطنطينية من هذه الدخول لا يزيد على ثمن المبلغ الاجمالي ، بينما يتفق الباقي داخل الولاية . وكان مجمل الدخل في عام ١٧٩٦ - ١٧٩٧ على حد تقدير أوليفر ٢٠٠.٠٠٠ و٤ فرنك أى مايعادل - (٢٠٠.٠٠٠ ج س) غير أن تقديرا آخر وضعه المقيم البريطاني في بغداد عام ١٧٩٨ يشير الى أنه كان في حدود مليون ج . س . يذهب منه أقل من مائة ألف الى القسطنطينية ، وقد قدره القنصل الفرنسي في نفس الفترة بـ ٧ مليون قرش تركي ، أى مايعادل ٦٠٠.٠٠٠ الى ٩٠٠.٠٠٠ ج س وفقا لقيمة العملة التركية في ذلك الوقت .

ولم يكن الباشوات يتقاضون أى ضرائب من أغنى مدينتين من مدن الولاية، وهما النجف و كربلاء ، فالنجف وفيها ضريح الامام على تقع على بعد مائة ميل جنوب بغداد على الضفة اليمنى من الفرات . أما كربلاء حيث ضريح الامام الحسين بن على فهى على بعد خمسين ميلا من الجهة الشمالية من النجف ، وب نفس المسافة عن بغداد . وهما مدينتان مقدستان لدى الشيعة من المسلمين، واليهما يحج الآلاف منهم كل عام في أشهر رجب ورمضان ومحرم ، على أن العدد الأكبر من هؤلاء الحجاج هم الذين كانوا يأتون اليها من فارس ، ولهم بها مستعمرات كما أن نسبة ملحوظة من سكان العراق من الشيعة . وثروة هاتين البلدتين متجمعة من الهبات التي كان يفرضا علماء الشيعة على حجاج المنطقة ، وربما كان أهم مظاهر هذه الثروة هو الكسوة الذهبية التي تحيط بقية ضريح الامام على التي قدمها الامبراطور نادر شاه ، ويقال بأن القبة قد رصعت بالتومان الذهبى (وهى العملة الايرانية) بمعدل تومان واحد فوق كل ٨ بوصات مربعة ، وتعتبر الدور المصنر الذي يعتمد عليه حراس الضريح لتغطية نفقات الاشراف ، هؤلاء هم العلماء الذين يسمونهم بالمجتهدين وهم طائفة دينية تتمتع بنفوذ واسع في كلتا البلدتين . وقد اثرى تجار النجف و كربلاء ثراء فاحشا مما

كانت تدره تجارة الحج عليهم من ارباج ، وكان الضجيج المنبعث من أسواق البلدتين يطفئ على نواح الحجاج الذين يفترشون الأرض بالقرب من أسوار الضريح . وربما كان أكثر مصدر للدخل هو الوصايا التي يتركها المتطرفون من الشيعة ، ويوصون فيها بأن يدفنوا بجوار هذه الأضرحة . ومن المشاهد العادية أن ترى طوابير من العربات التي تحمل جثث الموتى عند مداخل هاتين المدينتين تنتظر دورها في الدفن ، وهى تجارة كانت تدر مالا على المشرفين من وراء بيع الأضرحة ومن عمليات الاشراف عليها . أما الكاظمية وهى ثالث المدن المقدسة فى العراق حيث ضريح الامام موسى ، فالاقبال عليها أقل من الاقبال على النجف وكربلاء ، كما انها أقرب الى سلطة حكم الباشوات لأنها تقع على نهر دجلة مباشرة من العاصمة ، وكان على الباشا أن يكون حذرا فى تصرفاته حتى فى هذه المنطقة حتى لا يثير المتطرفين من الشيعة .

أما البصرة على بعد ٣٠٠ ميل الى الجنوب الشرقى من بغداد فقد كانت خاضعة من الوجهة الرسمية للباشا . غير أن درجة هذا النفوذ كانت تعتمد الى حد كبير على ولاء المسئول الذى يعينه الباشا ، كما كان يعتمد أيضا على علاقة الباشا بالاتحاديين القبليين الرئيسيين اللذين يقطنان الناحية الشرقية والغربية من البصرة ، ونعنى بهما قبائل كعب والمنفك ، وكان كل من السلطان العثماني وشاه فارس يدعى السيادة على قبائل كعب وعلى الأراضى التى يقيمون فيها فى الطرف الشمالى من شط العرب . وغير أن القبائل نفسها لم تكن تعترف بسلطة أى منهما عليها . وعشيرة المنفك وهى قبيلة بدوية كبيرة كانت قليلة الولاء للسلطان كما أن الجزء الأكبر من العراق يخضع لسلطتهم فعلى الشرق يمتد سلطانهم حتى الضفة الشرقية من شط العرب ، بينما يسيطرون من الطرف الشمالى على المنطقة الواقعة على نهر الفرات من القرنة حتى الناصرية أما فى الجنوب والغرب فان حدود سلطاتهم أكثر من أن تحدد .

ولم تكن البصرة فى القرن الثامن عشر أكثر من بقايا باهتة لعصر السندباد ، فلقد وصفها كارستون ينهور فى عام ١٧٦٥ بأنها كانت أقدر بلدة شاهدها فى الشرق ، وكان عدد سكانها على حد تقديره لا يزيد عن ٥٠٠٠ نسمة تقريبا يتألفون من عرب الدلتا والصحراء وبعض الفرس والأرمن والهنود . غير أنه على الرغم من مظهرها السيئ فقد كانت البصرة كما

وصفها أحد الرحالة « سوقا هامة » لمنتجات الهند وفارس والقسطنطينية وحب ودمشق ، وبايجاز كانت المستودع الأكبر لمنتجات الشرق (١) .

فالقوافل القادمة من الشام كانت تحمل مسكوكات الذهب والفضة والنحاس وشيلان الصوف ومنسوجات حلب ، الحرير والساتان وخيوط الذهب والفضة والمجوهرات والأواني الزجاجية والتبغ ودود القز من فينسيا وماء الورد والتوابل والفواكه المجففة والنحاس والأفيون وغيره من العقاقير من فارس . ومن مسقط كانت تستواد العبيد والعاج الأفريقي ، ومن الهند المنسوجات القطنية والشالات والسكر والأرز والحديد والقصدير والرصاص والتيل . وكانت السلع التي ترد إليها من الشام يعاد تصديرها إلى فارس والجزيرة العربية ومسقط والهند ، بينما كانت المنتجات التي تصل إلى الخليج من تلك الأقطار تجد طريقها إلى بغداد وحلب . وكانت المنسوجات الهندية تشحن بكميات كبيرة من بغداد إلى سمرتا والقسطنطينية في كل عام إلى جانب المنتجات الأخرى كالادوية التي كانت أيضا تجد طريقا في النهاية إلى إنجلترا ومارسيليا والبندقية وليجورن وأمستردام عبر الاسكندرية وساحل الشام . وكان الأسطول العثماني هو الذي كان ينقل في شهر سبتمبر من كل عام شحنات البن ويعود محملا بمحاصيل البلح العراقي الذي كان يصل مجموع قيمته نحو مائة ألف جنيه استرليني ، وكانت مبالغ كبيرة من النقود تحول إلى الهند كما راجت تجارة الخيول التي كانت تصدر من العراق رغم القيود التي كان يفرضها الباب العالي على تصديرها .

وكانت الرسوم الجمركية المفروضة على السلع في البصرة ٣٪ على الأوروبيين وفقا لما كان ينص عليه قانون الامتيازات الأجنبية ، أما العرب والأرمن والفرس واليهود والهنود فقد كانوا يدفعون ٧ ١/٢٪ وكانت الضرائب الجمركية تشكل مصدرا هاما من مصادر الدخل لباشوات بغداد سيما وانها كانت تحصل على دفعتين ، أولا عند وصولها إلى البصرة ، ثم بعد

دخولها الى بغداد أو إعادة تصديرها منها للبصرة ، ثم الى حلب ، وكان التجار الأوربيون والهنود يدفعون ضرائب تصدير على السلع التي كانوا يصدرونها من العراق على أساس ٣٪ و ٥٪ لكل منهما . على أن الحد الأدنى لهذه الضرائب لم يكن يبدو مجزيا للتجار الأوربيين لأن ضريبة ٣٪ كانت تقدر على أساس سعر البيع الفعلي للسلع التي يتاجرون فيها . بينما تقدر ضريبة ٧٪ المفروضة على التجار المحليين على أساس تعريف مدونة في أحد السجلات ، وكان يتم تقديرها على أساس تصفية بحيث لا تمثل السعر الحقيقي للسلعة المذكورة . وكان ازدواج الضريبة يشكل عبئا على التجار ، مما دفع بأكثريهم الى ممارسة تهريب السلع عن طريق الكويت أو انزالها في مناطق من شط العرب ، ومنها تنقل الى الزبير جنوب غرب البصرة ، ثم من الزبير تقوم بنقلها القوافل الى حلب . ولا يمكن تكوين فكرة واقية عن مجموع قيمة تجارة البصرة أو اجمالي دخلها من الرسوم الجمركية من واقع الأرقام والمعلومات الضئيلة لتلك الفترة، فبينما يذكر ابراهام بارسونز أن قيمة محاصيل البصرة من البلح عن عام ١٧٧٤ هي ١٠٠.٠٠٠ - تومان أي مايعادل (١٨٧٥٠٠ ج س) فإن الرقم الاجمالي لقيمة صادرات البصرة كما أعلنها ممثلو شركة الهند الشرقية في المنطقة عام ١٧٩٠ هي مليون روبية هندية ، وكانت تستورد سلعا من الهند بما قيمته ثلاثة ملايين روبية هندية كل عام ، غير أن جي . اس . بكنجهام ذكر بعد بضع سنوات على ذلك أن ميزان المدفوعات للبصرة في عام ١٨٠٥ كان في صالح الهند بما قيمته (٥٠٠.٠٠٠ ج س) سنويا .

ويعود التدهور في تجارة البصرة الى حد كبير الى انتشار مرض الطاعون الذي اكتسح البلدة في عام ١٧٧٣^(١) بالإضافة الى احتلال القوات الفارسية للمدينة بعد حصار امتد من عام ١٧٧٦ حتى عام ١٧٧٩ . ومنذ ذلك الوقت

(١) يقول ابراهام بارسونز الذي زار الميناء في عام ١٧٧٤ أن ٢٥٠.٠٠٠ شخص قضوا نحبتهم من مجموع السكان البالغ عددهم ٣٠٠.٠٠٠ نسمة غير أن هذا الرقم مبالغ فيه .

بدأت البصرة تفقد أهميتها كمركز تجارى وتحول ذلك النشاط التجارى الى البحرين ومسقط ومما ساعدهما على ذلك وجود امكانيات ملاحية متفوقة .

ولم يكن فى عراق الأتراك بأسره شئ من الامكانيات البحرية سوى السفينة كاث باشه التى كانت موجودة فى البصرة وكانت مهمتها حراسة شواطئ الولاية والمحافظة على الأمن على طول النهرين من شط العرب حتى الحلة ، وكانت السفن التى تدخل شط العرب تدفع ضريبة معينة للتمتع بتلك الحماية، ولما لم تكن هناك قوة بحرية تحت التصرف فقد عجز المسئولون عن وضع حد لأعمال القرصنة التى كان يقوم بها عرب بنى كعب وقبائل الصحراء ضد السفن التجارية .

وبالمثل لم يكن باشا بغداد فى وضع يسمح له بممارسة ضغط سياسى على الخليج لأن نفوذ الامبراطورية العثمانية كان دائماً تحت رحمة الملاحين العرب رغم امكانياتهم^(١) المتواضعة . والى الشرق من شط العرب تمتد مملكة عرب بنى كعب ، وهم من الاتحادات القبلية القوية التى لا تعترف بأى سلطة للعثمانيين او الفرس عليهم .

(١) هذا القسم من المعلومات يعتمد فى الأساس على المصادر التالية :
 الوثائق الرسمية لحكومة بومباى : اول اتصال بين شركة الهند الشرقية والخليج ١٦٠٠ - ١٨٠٠ الخطابات السرية لبومباى جزء ٢٤ (حلقة ١) حول اتصال تجربة شركة الهند الشرقية مع تركيا العربية ١٦٤٦ - ١٨٤٦ وفارس والخليج مجلد ٢١ تقرير مانستى وجونز ١٨/١٢/١٧٩٠ « رحلة الى آسيا » بقلم بارسونز ص ١٥٤ - ١٦١ ورحلة الى الجزيرة العربية فصل ٢ ص ١٧٢ - ١٩٣ ، ٢٠٩ - ٢٢٠ « رحلة داخل الامبراطورية العثمانية » ٦ مجلدات باريس ١٨٠١ - ١٨٠٧ فصل ١٢ ، ١٣ تأليف : جان بابتش روسو طبعة باريس ١٨٠٩ ص ٤ - ١٢٤ « ورحلة من الهند الى انجلترا فى سنة ١٧٩٧ » طبعة لندن ١٧٩٩ ص ١٥ - ٤٣ ، ٩٠ - ١٠٤ « ورحلة الى اشوريا » فصل ٢ ص ١٦٩ - ١٨٦ « تأليف باكنجهام واربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » طبعة اكسفورد ١٩٢٥ ص ١٨٧ - ٢٥٦ تأليف اس . آج لونجرج .
 (م ٥ - بريطانيا والخليج)

ان حدود كل من الاراضى الفارسية والعثمانية لم تكن واضحة المعالم وكانت كلتا الحكومتين تدعى السيادة على الجزء الشرقى من دلتا شط العرب اما المنطقة الواقعة بين دلتا النهر وسلسلة الجبال الفارسية الوسطى فانها تشكل جزءا من مقاطعة خوزستان الفارسية أو عربستان وهى مقاطعة تمتد من الجنوب الى شواطىء الخليج ومن الشمال الى اقصى اطراف نهر قارون . وعلى كل فان السلطة الفارسية على هذه المنطقة لم تكن اكثر من سلطة اسمية . وتتألف المنطقة الجنوبية من خوزستان فى معظمها من سهول طموية أغلبها صحراوية فيما عدا بعض المناطق الكثيرة الخصوبة حيث تنمو الحنطة والشعير . وأهم ما فيها هو نهر قارون الذى يرتفع كثيرا عن سطح البحر عند جبال بختيارى لينساب فيها جنوبا وغربا الى شط العرب .

أما خوزستان الغربية الواقعة الى ماوراء الهوزرة فهى منطقة تكثر فيها المستنقعات التى تمتد حتى ضفاف نهر دجلة ، وعلى امتداد الاطراف السفلى لنهر قارون وعلى الضفة الشرقية لشط العرب ، تكسو المنطقة غابات من اشجار النخيل . اما بالقرب من شط العرب فان التربة منبسطة ومالحة . وقد هاجر عرب بنى كعب الى هذه المنطقة خلال القرن السابع عشر ، أما أسباب هجرتهم واصل موطنهم فغير معروف ، غير أن ثمة أدلة على أنهم كانوا خاضعين سابقا للسيادة العثمانية ، وبانتصاف القرن الثامن عشر استكملوا سيطرتهم على معظم البلاد الممتدة من شط العرب الى الأهواز على نهر قارون نزولا الى ساحل الخليج . وفى هذه الفترة بدأوا يلتفتون ناحية البحر حيث استولوا بعد ذلك بزمان قصير على معظم الجزر الواقعة على شط العرب وبنوا من السفن مايمكنهم من فرض سلطانهم على الممرات المائية . غير أن نجاحاتهم هذه أثارت حفيظة حاكم زند جنوب فارس السلطان كريم خان الذى سير حملتين ضدهم فى عام ١٧٥٧ ثم فى عام ١٧٥٦ بغرض اخضاع المنطقة الجنوبية من خوزستان لنفوذه . ولقد سقط فى الحملة الثانية أهم مركزين من مراكز تجمع بنى كعب هما قيعان والدراق مما أرغم الشيخ سليمان رئيس عشائر بنى كعب الى نقل عاصمته شمالا الى الفلاحية . كذلك قام الاتراك بمحاولات لاختضاع بنى كعب بفرض وضع حد لغاراتهم على مواصلات التجارة البحرية من جهة وحرمانهم

- ٦٧ -

من حقوق السيادة على القبائل من جهة أخرى ، وتمخضت هذه الحملات عن قيام نوع من الوفاق بينهم وبين الفرس ، لدرجة أنهم قدموا مساعدات من السفن والجند للقوات الفارسية خلال حصارها للبصرة في عام ١٧٧٥ - ١٧٧٦ إلا أنه قبل مرور وقت طويل عاد بنو كعب الى مواقعهم في المنطقة الفاصلة بين الدولتين .

وقد كانت مطالبة تركيا وفارس بالسيادة على أقاليم بنى كعب تقوم على أساس اتفاقية عام ١٦٣٩ بين السلطان العثماني وشاه صفوى والتي بمقتضاها ألحقت منطقة خوزستان لفارس والعراق العربى لتركيا. وقد حددت خوزستان على الخريطة بالمنطقة الممتدة على نهر قارون والتي تعتمد في ريها عليه بينما حدد العراق العربى بالأراضى التى تضم المنطقة التى تعتمد على نهري دجلة والفرات. وعلى أى حال فابتداء من عام ١٦٣٩ تغير مسار هذه الأنهار بشكل ملحوظ في بعض المناطق . ومن الواضح فان الضفة الشمالية لشط العرب قد اعتبرت أرضا تركية فكانت بالتالى تخضع للواء البصرة بينما لا نعرف شيئا عن الأراضى الواقعة وراء تلك المنطقة مباشرة ، وحتى وضع الضفة الشمالية من شط العرب كان يسودها الفموض بعد انشاء مدينة المحمرة كعاصمة لبنى كعب بعد سنة ١٨١٢ ، وقد قدر لمدينة المحمرة ان تتحول في السنوات التى أعقبت ذلك الى منطقة خلاف بين الحكومتين التركية والفارسية وكانت الحكومة التركية تدعى بحقوق السيادة على بنى كعب والناطقى التى يقيمون فيها على أساس أن هذه القبائل سبق أن خضعت لحكم الأتراك وعلى أساس اعترافهم بالسيادة العثمانية عليهم .

أما الفرس فينطلقون في دعواهم بحجة أن بنى كعب كانوا يستوطنون منذ زمن طويل المنطقة التى تعتبر حدودها الشرقية أرضا فارسية بلا نزاع . كما يستندون الى ماكان يدفعه بنو كعب من زكاة لكریم خان ، ثم الى الفاجار كتعبير عن خضوعهم للسيادة الفارسية ، غير أن تلك الزكاة لم تكن من ايجار سنوى يدفعه بنو كعب مقابل الجزء الفارسى من المنطقة التى يقيمون فيها . ولما لم يكن أى من الدولتين في وضع يسمح لها في ذلك الوقت باثبات سيادتها ظل بنو

كعب محتفظين باستقلالهم عن السلطتين العثمانية والفارسية (١) .

ويقع مجمل الساحل الشرقى للخليج تحت السيطرة الفارسية ، فعلى امتداد شواطئه ابتداء من مدخل الخليج حتى المحيط الهندى تطل سلاسل من الجبال على ساحل البحر ، وإلى الشمال من بوشهر يوجد سهل ساحلى يتراوح عرضه من ١٥ الى ٢٠ من الشمال ومن ٤٠ ميلا فأكثر من الجنوب . وتكسو الحشائش والأعشاب الجزء الأكبر مع وجود مناطق قابلة للزراعة فى بعض أجزائه كما أن هناك امتدادات صخرية تشقه فى بعض الأجزاء وبعض الترع التى تشق طريقها من المنحدرات الجبلية ، ويوصل القسم الجنوبى من السهل أحد الأنهار الهامة ، ويعرف باسم روض الحلة أوداخيستان الفارسية . وتزداد سلسلة الجبال الساحلية التى تطل على السهل ارتفاعا من الشمال الى الجنوب بحيث تصل فى بعض أجزائها الى ٦٠٠٠ قدم وراء مدينة بوشهر . وإلى الورا من هذه السلسلة تطل كتلة الجبال الفارسية الوسطى ، ويتابع السهل الساحلى امتداده جنوب بوشهر عبر مقاطعة تنجستان وداشتى بحيث لا يتجاوز عرضه بأى حال من الأحوال عن ٢٥ ميلا ، وتعرضه فى طريقه الى البحر سلسلتان من المرتفعات وعند كنجون تقترب سلسلة الجبال من البحر حيث تمتد بمحاذاة الشاطئ الى مسافة تصل الى ٢٠٠ ميل وقد يصل ارتفاعها فى بعض المناطق الى ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . وعند لنجة حيث يغير الخط الساحلى اتجاهه من الجنوب الشرقى الى الشمال الشرقى تتراجع سلسلة الجبال عن الشاطئ ، وتنحرف فى اتجاه الشرق لتكون جزءا من الكتلة الجبلية المعروفة باسم لارستان ، وإلى الخلف من لنجة وعلى امتداد الساحل الشمالى الى الشمال الشرقى توجد مستنقعات كثيفة . أما فى ميناء خامر فان السهل الساحلى يتسع الى نحو ٢٠ ميلا تقريبا حتى بندر عباس وابتداء منها يمتد عرضه لحد ٤٠ ميلا أو أكثر تقريبا الى أن يبدأ فى التقلص عند الجنوب بحيث يقل عرضه الى نحو ١٠ أميال عند خليج عمان . أما ارتفاع السلسلة الجبلية

(١) عن العلاقة العربية التركية (١٨٠ - ١٩٠٥) ملحق الف « ومذكرات حول عرب الشعب » واج. س. رولسنون يونيو ١٨٤٤ وكتاب ينهور ص ٢٧٦ « ورحلة خمسين شهر أمير ممرات خوزستان وفارس غير المطروقة » مجلدان طبعة لندن ١٨٣٤ - ص ٧٢ - ٩١ .

فى الشرق فلايزيد عن ١٠٠٠ قدم عند مدخل الخليج وتنتشر الخصوبة فى الوادى فى المنطقة المحيطة ببيئاب فيما عدا بعض مستنقعات الملح على حافة البحر . اما رقعة الأرض المعروفة باسم بيابان والتي تقع بين بيناب ومكران الفارسية فانها منطقة رملية طينية لا تصلح لغير رعى الأغنام والنعاج ، وكانت حدود السيادة الفارسية فى المنطقة الجنوبية من الامبراطورية فى تلك الفترة من التاريخ حدودا غامضة ، ويصل اقصى حدودها الفعلية على ساحل مكران الى مملكة خان كلات والمناطق التى استولى عليها سلطان مسقط .

كما أن جميع الجزر الواقعة على الساحل الايرانى من خاركو وخراك شمالا الى هرمز ولاراك جنوبا تعتبر اراضى فارسية رغم أن كثيرا منها تحت سيطرة القبائل العربية ، فلقد كان العرب يسيطرون على أغلب موانئ الساحل، وكانوا يعتمدون فى معيشتهم على صيد السمك واستخراج اللؤلؤ والتجارة وزراعة النخيل والحبوب . وكان كل ميناء يخضع لسلطة أحد المشايخ الذى يتم انتخابه من جانب القبيلة التى تعتبر مسئولة عن حمايته ، وبعض هذه القبائل كقواسم لنجة كانت تربطهم علاقة نسب مباشرة مع قبائل الساحل المواجه كما أن معظمهم سنيون ومعادون بشدة للشيعية الفرس . وكان كلما حاول الفرس اخضاعهم لسلطتهم انسحبوا فى مراكزهم الى بعض الجزر المطلّة على الساحل حيث يقعون هناك ريثما تسمح الظروف بعودتهم الى المناطق التى جلوا عنها . ولقد شبه المؤرخ ينفهور وضعهم بوضع المدن الاغريقية الحاكمة ، ولم يكن ينقصهم غير شعراء ومؤرخين ليمجدوا أعمال السلب والنهب التى كانوا يمارسونها . حتى ان فاتحا جبّارا كنادر شاه لم يفلح فى اخضاع الساحل العربى ، رغم الاسطول الذى انشأه لتحقيق ذلك الهدف . وفى أواخر ايام حكمه صمم على تهجير سكان الساحل الى شواطئ بحر قزوين واستبدالهم بقبائل من تلك المنطقة غير أن هذا المشروع لم ير النور بسبب وفاة الامبراطور ، ولقد حاول كريم خان مؤسس دولة الزند وإبرز حكام الفرس والمنطقة الجنوبية من فارس منذ عام ١٧٦٥ حتى عام ١٧٩٥ وضع حد للاستقلال الذاتى للأقاليم العربية . وعلى الرغم من نجاحه فى اخضاع بعض المقاطعات بما فيها بندر عباس

— ٧٠ —

وبوشهر لبعض الوقت الا أن نجاحه هذا لم يستمر لعدم وجود أسطول بحرى قوى يميز تلك المحاولات . وعند وفاته فى عام ١٧٧٩ انتفضت القبائل الساحلية على حكم شيراز وظلوا خلال العشرين عاما التى أعقبت ذلك يرفضون الاعتراف بسلطة أى حاكم عليهم فيما عدا شيوخهم القبليين .

خلال هذه الفترة تعرضت المناطق الداخلية من ايران (١) لصراع مرير على السلطة كالا يميزها بين أسرتى زندو وقاجار سكان مازندان الشمالية .

وكان القاجار قبيلة تركية استوطنت ايران منذ زمن بعيد . ولكن الشاه عباس الاول الذى ألقاه تصاعد قوتهم تمكن من بعثتهم فى مناطق مرو وكاراباغ وجورجان ، الا أنهم فى أوائل القرن الثامن عشر عادوا فتوحدوا تحت زعامة فرع جورجاني القبلى . ولما كان القاجار من مؤيدى أسرة صفوى فقد عانوا كثيرا من المتاعب عندما إطح نادر قولى خان (الذى عرف بنادر شاه فيما بعد) بحكم أسرة صفوى ، كما أنهم عانوا متاعب أشد فى ظل حكم أسرة زند . ولقد بلغ العداء الذى استمر بين القاجار ونادر شاه وكريم شاه حدا دفع بزعيم القاجار أغا محمد خان الى أن يقسم بأنه لن يألو جهدا حتى يقضى على كل من بقى من اتباع الحاكمين المذكورين . وعندما بلغ الخامسة أو السادسة من عمره أجريته له عملية خصى بأمر من عادل شاه ابن أخى وخليفة نادرشاه . وفى عام ١٧٥٨ قام أحد زعماء القاجار بذبحه بالتواطؤ مع كريم خان ، كما أنه سجن لعدة سنوات فى بلاط حاكم زند . وعندما تمكن فى النهاية من الإفلات من السجن بذل محاولات لاستعادة النفوذ الذى كان لوالده على جماعة القاجار ، وظل يتابع طموحه هذا باصرار عنيد وعزيمة لا تكل . الأمر الذى يعكس طبيعته الهوجاء والتأثيرات السلبية.

(١) تاريخ فارس جزء ٢ طبعة لندن سنة ١٨١٥ فصل ٢ مستقاة من كتاب « أغا محمد ونشوء قاجار بقلم ص. ار. جى. هامبلى فى مجلة الجمعية الجغرافية لآسيا الوسطى مجلد ١ جزء ٢ ص ١٧١ . ان أخلاقيات أغا محمد لتبدو منفرة أكثر من أى فاتح تحكم فى مسار تاريخ آسيا الوسطى حتى بداية القرن التاسع عشر بالرغم من الانجازات الإيجابية التى حققها .

التي تركتها في نفسه أخطاؤه السابقة ، على حد رأى السير جون مالكولم . غير أن آغا محمد لم يوقر حتى أخوته في عمليات تصفية منافسيه على السلطة أو الخلافة التي كان يريد لها لابن أخيه بابا خان أحد ابني أخيه الوحيد من الأم .

ولا يقل عدد الحكام الزند الذين تعاقبوا على الحكم في شيراز عن سبعة حكام خلال العقد الأول بعد وفاة كريم خان . ولعل الصراع على الخلافة بين أفراد هذه الأسرة الى جانب أحقاد آغا محمد خان هي التي تشكل الأسباب التي أسهمت في سقوط حكم هذه الأسرة . فعندما تولى آخر حكامهم لطف على خان عام ١٧٨٩ لم يكن قد بقي تحت حكم هذه الأسرة من المقاطعات سوى شيراز وبهبهان وشستار . أما يزدو وكروان وبوشهر فكان ولاؤها لا يظهر حتى يختفى مرة أخرى . ولقد خاض لطف على خان الصراع عدة سنوات دون جدوى لوقف تقدم القاجار من الشمال ولكن على الرغم من شجاعته فقد كانت له عيوب خطيرة ، كان على حد وصف أحد الكتاب المعاصرين قاسيا ومتعطرسا في سلوكه (١) وكان يرفض أى تفاهم مع خصومه وقد ضاعت منه شيراز في صيف عام ١٧٩١ بعد مؤامرة دبرها وزيره الذى استولى على المدينة وسلمها لآغا محمد خان في السنة التالية ، ومنذ ذلك التاريخ لم يكن لطف على خان أكثر من ظل فى بلاده . وجاءت نهايته فى سنة ١٧٩٥ عندما غرر به الحاكم القاجارى الذى أمر بتعذيبه وأوقعه فى يده وقام بفقء عينيه وخصيتيه ثم قتله ، وقد صنع من جميعته وجماعه رفاقه وجثثهم أهرامات فى المكان الذى أعدم فيه بمنطقة باثام . وعلى أى حال فإن حقد آغا محمد خان على خصومه لم يكن يقف عند حد فقد سحقت شيراز بسكانها وأبيحت كرمان لمدة ثلاثة أشهر كما سلم عشرون ألفا من النساء والأطفال الى جيش القاجار أو بيعوا كأرقاء . أما سكان كرمان فقد كان مصيرهم أشد هولاً ورعباً فلقد فقت عيونهم ولم يهدأ بال آغا محمد خان الا بعد أن جىء اليه بسبعة آلاف شخص منهم وسلموا رهينة اليه . وكان آخر عمل انتقامى قام به هو استخراج رفات نادر شاه وكريم خان من قبريهما وإعادة دفنهما عند مدخل قصره فى طهران لكى يدوس عليهما كلما مشى بقدميه . استغرقت عمليات آغا محمد خان لتوطيد سيادته المطلقة على فارس عشر

سنوات ، ولكنه لم يعيش بعدها أكثر من عامين ليتمتع بشجرة جهوده ، فقد توفي مقتولا على يد اثنين من خدمه الذين كان قد أمر باعدامهم . وقد خلفه بابا خان الذى حكم البلاد من بعده تحت اسم فتح على شاه ، وأنشأ أسرة كبيرة انطبقت على أرجاء فارس كما تطبق أسراب الجراد على النبات ، وكان لها تأثير كبير على فارس ولم يستطع توطيد حكمه على ساحل فارس الا بعد وقت طويل . ولم تظهر اى بادرة للاعتراف بسلطة الحكومة المركزية الا فى بوشهر فقط التى تعهدت بدفع الزكاة ، وحتى دفع الزكاة كان يتوقف دفعها على قدرة الحاكم الفارسى العام على ارغام الاهالى على دفعها ، فأبوشهر الميناء الرئيسى لساحل فارس تدين بالفضل فى أهميتها لنادر شاه الذى بذل جهودا فى تطويرها كمركز لبناء السفن وقاعدة للأسطول الذى كان ينوى انشاءه لتوسيع رقعة نفوذه فى منطقة الخليج . وعلى الرغم من أن حلمه هذا لم يعمر طويلا - لأن مواطنيه لم يكن لهم اهتمام بالبحر فحسب فان هذه المدينة قد حققت فى عهده ازدهارا ملحوظا ، ولعل ذلك يعود الى تدهور وضع بندر عباس التى كانت الميناء الرئيسى على الجانب الفارسى من الخليج فى ذلك الوقت ، وبسبب نقل مقر شركة الهند الشرقية الى بوشهر فى عام ١٧٦٣ .

وكانت قبيلة بنى ناصر هى التى تحكم المدينة وهى قبيلة نزحت أصلا من عمان فى اخريات القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (ولعلها كانت فرعا من قبيلة المطايش) وكانت هذه القبيلة كغيرها من القبائل الساحلية تستمد قوتها من البحر ومن أساطيلها التجارية التى كانت الى جانب أسطول مسقط تجوب البحار للتجارة . وكان الشيخ ناصر حاكم بوشهر ، وهو اسميا تابع لحكام زند ، أبرز شخصية فى القبيلة ، وظل كذلك حتى وفاته عام ١٧٨٩ .

(١) لقد الملح اللورد كرزى بأن القاجار كان يتميزون بنظرة الأبوة وكانوا على درجة كبيرة من الذكاء والدماثة كما كانوا يتمتعون بروح رياضية . كما كانوا معروفين بالتقتير « فارس والمسألة الفارسية » مجلد ٢ طبعة لندن عام ١٨٩٢ .

أما ابنه وخليفته ناصر الثانى فلم يكن يتمتع بنفوذ ومهارة والده ، وبالتالى لم يكن له أى نفوذ على سياسات الخليج .

وعلى الرغم من مزايا بوشهر من الناحية التجارية والسياسية إلا أنه لم تكن بلدا محظوظا . وفى تقرير بعث به أحد ضباط البحرية الهندسية عنها يقول : « لن ادهش على الاطلاق اذا صدم القادم من الهند بما يحمله من ذكريات عن نضارة وخصوبة الشواطئ الهندية من رتبة المظهر الذى ترتديه إيران ، وعلى أى حال فان هذا الاحساس لا يعد بداية سيئة للصدمة التى ستصيبه عند نزوله الى البلاد ، فما ان يدخل من بوابة قذرة حتى يجد على جانبيه ممراتها صعاليك نصف عراة وبجانهم بنادق قديمة وخراطيم المياه فى أفواههم ، ويلقى بنظرة الى كتلة المباني التى أمامه وعلى الأكواخ الفقيرة من جهة والأضرحة المتهدمة التى يسير عليها المشاة من جهة أخرى ، الى جانب القذارة والفجار والتعاسة التى تعكسها طرقاتها الضيقة فانه لا يملك الا أن يسأل بدهشة واستغراب ما اذا كانت هذه مدينة الثلاثين الف نسمة والميناء البحرى لإيران . (١)

تقع بوشهر على شبه جزيرة رملية مائلة الى الجانب الشمالى نحو البحر ، ويحيط بها من البر خور ضحل واسع لا يصلح لرسو السفن من أى حمولة ، كما انه يمتد من اطرافه الشمالية الى أرض من المستنقعات والرمال المتحركة . وعلى الناحية البحرية يتعرض الميناء لهبوب الرياح الشمالية الغربية ، وهو مرفأ ضحل ويترتب على السفن القادمة اليه أن ترسو على بعد أميال من الشاطئ ، وكان فى المدينة نحو ١٥٠٠ مسكن ، معظمها أشبه بزرائب الحيوانات كما أن ازقتها ضيقة وملئية بالقاذورات ، وهناك فى الجزيرة بقايا قلعة قديمة متهدمة وليس بها أى تحصينات ، أما وراء السور فالأرض منبسطة ورملية وقاحلة تتناثر فيها بعض الآبار المالحة التى تزود سكان المدينة بحاجاتهم من الماء . وكانت توجد صفوف كثيفة من أشجار النخيل تنتصب بألوانها الخضراء الداكنة فوق السهل الذهبى والتلال القرمزية ولم يكن عدد سكان بوشهر فى ذلك الوقت يزيد على ١٠٠٠٠ نسمة على الرغم من أن ابراهيم بارسونز وهو الرحالة المتفائل الذى جاب الشرق يقدر عددهم بعشرين ألفا فى عام ١٧٧٥ .

كما وصف ملامح سكانها بأنها كثيبة لا تختلف عن مظهر بيوتهم ، وأنهم خليط متنافر من العرب والفرس ، وأن كل مايعتبر من الخصال الحميدة في أى من الخليطين يعتبر ممقوتا وكرهيا عند الآخرين ، والعكس بالعكس، وهذه الاخلاقيات تشمل السكان جميعا بما في ذلك أزياءهم ولهجاتهم وسلوكهم ومظهرهم العام، وكل هذه الصفات انما تعكس النسل الهجين الذى يتكونون منه ، واما فيما يختص بشخصياتهم فلا هم أقزام ولا هم ضخام الأجسام مثل العرب الأصليين سكان الجانب الآخر من الساحل غير أنهم يشبونهم فى الدمامة والقذارة وفى الفقر الذى هو القاسم المشترك بينهم فضلا عن الشعور بالعزة وبكرم الضيافة الذى يتميز به العرب الا أنهم مع ذلك يحتفظون بتلك الخاصة (الندالة) فى المساومة وفى اقراراف اعمال السرقة والسلب والنهب (١) .

وتجارة بوشهر هى قسمة بين الفرس والأرمن . ولم يكن بها من التجار اليهود أو الهندوك الا قليلا . وكان الأرمن أهم تجار البلدة بحكم نشطاتهم ومهاراتهم وعلاقتهم المكثفة ، وكان جزء ضئيل من التجارة يتم عن طريق مكتب شركة الهند الشرقية . ولما كانت بوشهر المنفذ الجنوبي لتجارة ايران فى ذلك الوقت بعد أن بنت بندر عباس فى هذا المجال فان حركة التجارة فيها كانت تزدهر وتتدهور تبعا للجو السياسى الذى كان يسود شيراز واصفهان أهم سوقين فارسيتين فى تلك الفترة ، وفى غمار الفوضى التى عمت على اثر سقوط دولة زند تدهورت الحركة التجارية فيها هى الأخرى غير أنها عادت فانتعشت فى اواخر القرن، أما تجارة بوشهر الخارجية فقد كانت مع الهند فى المقام الأول، اما تجارتها مع البصرة فكانت محدودة بالرغم من أن بوشهر كانت منفذا لتهرب السلع الى العراق التركى . وبعد ضياع البحرين تضاءلت الاتصالات التجارية مع الجانب الآخر من الخليج . وكانت واردات الهند الى بوشهر بنفس المستوى الذى عليه مع موانئ الخليج الأخرى . وكان المعدل السنوى لهذه التجارة مليون

روبية هندية تقريبا (نحو ٢٠٠.٠٠٠ ج س) وكانت الصادرات من ايران تشمل العقاقير والخيول والنحاس والفواكه المجففة والسجاد وماء الورد والنبذ الشيرازى . وكان الأفيون هو أهم بند فى قائمة العقاقير وكان يزرع فى يزد وأصفهان .

هذا مع العلم أن أرقى انواع الأفيون كان يأتى من كزرون غربى شيراز . وكان شهر مايو أو يونيو هو موسم حصاد الأفيون الذى كان يشحن فيما بين شهرى سبتمبر ويناير . كذلك كانت فارس تصنع مواسير البنادق ونصل السيوف ورؤوس الرماح التى اشتهرت بها مدينة شيراز ، وكانت توزع فى كافة اقطار الخليج - أما اللآلىء فكانت تجلب من سواحل الخليج وعلى الأخص من منطقتى خرك وخاركو على الساحل الفارسى ، وبعضها كان يجد طريقه عبر الخليج من البحرين ، وكانت قيمة صادرات بوشهر تشكل ثلث وارداتها أى حوالى ٩٥٠.٠٠٠ روبية هندية (نحو ٩٥٠.٠٠٠ ج س) ، وكان يتم سد العجز عن طريق الصادرات بالنقد . ولم تكن الرسوم الجمركية باهظة فى بوشهر على الرغم من انها كانت أحيانا تقدر بطريقة تعسفية من جانب مدير جمارك الميناء حيث لم تكن تقدر وفقا لأثمان السلع وإنما على أساس نوعيتها وحجم الطرد الذى يحتوى البضاعة . أما الرسوم على الصادرات فقد كانت طفيفة وكانت تستوفى على الفواكه المجففة وماء الورد والعقاقير فقط (١) .

ولم يكن ثمة ميناء آخر على الخليج يضاهى ميناء بوشهر فموانئ كنجون واسالو ، ونخيلو وشيرو وشراك كانت تعتمد على الصيد واستخراج اللؤلؤ

(١) الرسوم الرئيسية على الواردات كانت ٥ ٪ على المنسوجات وعلى المعادن و ١٥ روبية على صندوق النيلة و ٦ روبيات على كل جوال من التوابل وروبيتين على كل جوال من البن فى تقرير مانستى المجلد ٢١ بتاريخ ١٧٩٠/١٢/١٨ وتقرير عن تجارة الهند وفارس وموضوعه أول علاقة لشركة الهند الشرقية بالخليج ١٦٠٠ - ١٨٠٠ اعداد مستر رفوسيت رئيس قسم المحاسبة فى بومباى مؤرخ ١٧٩٩/١٢/١٧ وتقرير عن تجارة الخليج اعداد مالكولم ومؤرخ ١٨٠٠/٢/٢٦ وكتاب باكنجهام « رحلات الى بلاد آشوريا » جزء ٢ (ص ١١١ - ١١٨) .

والمبادلات التجارية المحدودة من موانئ الخليج الأخرى . أما في لنجة فقد كان القواسم أكثر نشاطا ، فقد كانوا يدورون برحلات تجارية الى مسقط وبومباي ، وكانوا مثل اخوانهم في رأس الخيمة لا يتورعون عن ممارسة القرصنة اذا سنحت لهم الفرصة ، وكان قريتهم من طرق الملاحة التجارية في الخليج يسهل لهم القيام بتلك الأعمال . وكان بندر عباس الذي يقع على بعد ١٠ أميال من الشمال الشرقي للنجة الميناء الرئيسى في جنوب فارس ، ولكن مركزها قد انهار بسبب الغزو الافغانى والحروب الأهلية وتدهور الطريق التجارى القديم الى اصفهان وأخيرا نقل المراكز التجارية الأوربية من المنطقة .

وفي عهد سلاطين آل بوسعيد الذين كانوا يستأجرون الميناء منذ عام ١٧٨٤ حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، انتعش الميناء قليلا وان لم يستعد ازدهاره القديم ، وكانت ترد اليه السلع الأوربية والهندية ، ويصدر السجاد والتبغ والفواكه المجففة والصوف الكرمانى والملح . وكان الملح يستخرج من جزيرة هرمز ، وكان نجاح هذه السلعة يعتمد على موقف السلطات البريطانية فى الهند التى كانت تحتكر تجارة الملح فى المنطقة ، ويصل قيمة مااستورده بندر عباس فى العشرينات من القرن الثامن عشر ثلاثمائة ألف روبية (اى ٣٠٠.٠٠٠ ج س) كما يقال ان سلطان مسقط كان يجمع دخلا سنويا قدره ٨٦٠٠ - ١٠.٠٠٠ ريال نمسوى) ، اما عدد السكان فلم يكن يزيد على ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ نسمة ، وجاء فى وصف للمدينة كتب عام ١٨٢١ مايلى :

« انها مجرد مجموعة من الأكواخ المبنية من الطين والحجر ، وسوفها يكاد يكون خاويا ، وكذلك الحصن الذى رمم أكثر من مرة كان فى حالة ميؤوس منها هو الآخر ، وليس فيه غير بضعة مدافع ، وكانت عجلات المدافع غير صالحة للاستعمال كما أن المباني كلها كانت قديمة بالية . . . وربما(١) يرجع ذلك الى الأحوال الجوية للمنطقة التى كانت تؤثر على طبيعة

(١) رحلة الى خراسان ص ٤٢/٣ تأليف فريزر راجع ايضا كتاب وولستد « مدينة الخلفاء » ان المراجع الرئيسية التى استقيت منها هذه المعلومات هى تاريخ وثائق حكومة بومباي الرسمية خلال الاتصالات الأولى بين شركة الهند الشرقية بالخليج ١٦٠٠ - ١٨٠٠ و « وصف رحلة الى الجزيرة =

المباني ، وكان هناك قوتان كل منهما غريبة على الخليج ، وان كان مقدرا لهما أن يلعبا دورا مؤثرا في تاريخ المنطقة خلال القرن التاسع عشر : الوهابيون الذين قدر لهم أن يمارسوا نفوذا على بعض الأجزاء الغربية من الخليج على فترات متقطعة من التاريخ ، والحكومة البريطانية في الهند ، التي وان لم تحرز حقوقا اقليمية في المنطقة الا أنها كانت تمارس نفوذا كبيرا على شئون السياسة .

ان التوسع الوهابي يعتبر ظاهرة من الظواهر التي يتكرر وقوعها بين شعوب المناطق البدائية وعلى الأخص بين البدو ، ولا يختلف التوسع الوهابي في سماته عن التوسع العربي في صدر الاسلام قبل أحد عشر قرنا ، ان الوهابية التي بدأت كحركة اصلاحية دينية اكتسبت بعض الوقت طابعا سياسيا وعلمانيا حتى غدت في ذروة قوتها اشبه بموجة زحف بربرى تمليه غريزة السلب والنهب وتعززه الرغبة في العنف والتدمير ، اى كطاقة روحية ، فان الوهابية لم تجد لها صدى خارج موطنها في قلب الجزيرة العربية واذا كان لكل جانب دنيوى . الا ان هذا الجانب للحركة الوهابية قد ترك بصمات مؤلمة ودائمة لا تزال آثارها ماثلة في الأذهان حتى اليوم .

ان لهذه الحركة التي ولدت قبل قرن ونصف .. جانبين : جانب مخيف وجانب مضحك ... ولفظة الوهابية مشتق من اسم مؤسس الحركة « محمد ابن عبد الوهاب » غير أن الوهابيين لم يتقيدوا بهذه التسمية فهم يسمون انفسهم المسلمين أو الموحدين من حيث أن التوحيد هو جوهر العقيدة الوهابية وان المعلومات المتوفرة عن عبد الوهاب قليلة ، فقد ولد في العينية ، وهى منطقة تقع في قلب الجزيرة العربية ، والمعروف أنه ولد في عام ١٧٠٣ ، بينما تقول مصادر أخرى أنه من مواليد عام ١٦٩١ وأنه تلقى جزءا من دراسته في المدينة ، ومن هناك انتقل الى البصرة حيث أمضى خمسة أعوام أخرى ، وتزوج من سيدة

= العربية « تأليف ينهور ص ٢٦٩ - ٢٩٢ و « تاريخ فارس » تأليف مال كول مجلد ٢/ وتاريخ فارس طبعة لندن تأليف آر. جى. واتسون ص ٥١/٥٠ « ملاحظات جغرافية للإمبراطورية الفارسية » طبعة لندن ١٨١٣ ورحلات وجولات فارس مجلد ٢ طبعة لندن و « رحلة الى شيراز » تأليف اى. اس وارنج طبعة بومباي ١٨٠٤ ص ٦٣/٦١ .

غنية توفيت عنه تاركة له ثروة يعيش منها . وعلى أثر ذلك قام برحلة الى فارس حيث امضى هناك عدة سنوات يدرس في قم ، وهمدان ، واصفهان . وفيما بين عامي ١٧٤٢ ، ١٧٤٤ عاد الى موطنه في العينية . ولقد استنبط من رحلاته ودراساته بأن العقيدة الاسلامية وتعليمها قد باتت في امس الحاجة الى اصلاح شامل . فقد اقتنع بأن البساطة التي اتسم ونزل بها القرآن الكريم قد فسدت بفعل البدع والخرافات والرهينة التي زحفت عليها ، وبالتالي فان العودة الى روح الاسلام أصبحت أمرا لا بد منه اذا اريد للعقيدة الاسلامية البقاء والاستمرار وهكذا انكب على صياغة وشرح نظرياته التي ضمنها في مخطوطة بعنوان « كتاب التوحيد » .

وحتى نهاية القرن الثامن عشر لم تكن المصالح البريطانية في الخليج تتعدى النطاق التجاري^(١) فموجب مرسوم (فرمان) اصدره الشاه عباس الاول في عام ١٦١٦ منحت شركة الهند الشرقية الانجليزية حق التعامل التجاري مع فارس ، وفي شهر يناير من العام الذي يليه وصلت الى ميناء حاسك على ساحل مكران اول شحنة من السلع الانجليزية . وفي وقت لاحق من نفس العام انشئت ورشتان للشركة المذكورة في كل من شيراز واصفهان ، كما انشئت ورشة ثالثة في اصفهان في عام ١٦١٩ . وحتى ذلك الوقت كان البرتغاليون هم الفئة الأوروبية الوحيدة التي قامت بالتغلغل الى منطقة الخليج ، فقد احتلوا مسقط وصحار وهرمز والبحرين خلال القرن السابع كما ركزوا اقدامهم في عدد من النقاط على سواحل الخليج اهمها القطيف ورأس الخيمة .

وعند ظهور الانجليز على المسرح كان النفوذ البرتغالي يؤذن بالزوال . فقد صفى وجودهم في البحرين من جانب قوات الشاه عباس في نحو عام ١٦٠٢ وفي رأس الخيمة فيما بين عامي ١٦١٩ و ١٦٢٠ ، ولما استعصى على الشاه عباس اخراج البرتغاليين من هرمز بسبب افتقاره الى القوة البحرية اقترح على البريطانيين القيام بحملة مشتركة لتنفيذ هذه الخطة ، ولقد وافق مجلس ادارة

(١) لعل افضل مرجع عن نشاطات هذه الشركة في الخليج قبل سنة ١٨٠٠ كتاب لوريمر « التقويم الجغرافي للخليج » جزء ١ ص ١٠ - ١٦٨ .

- ٧٩ -

شركة الهند الشرقية ، ومركزه سورت ، على الاقتراح ، ونفذت خطة الهجوم البحرى فى شهر يناير عام ١٦٢١ ، وقام به الأسطول البريطانى ، بينما قامت قوات الشاه بمهاجمة التحصينات البرتغالية الضخمة . وبعد حصار دام شهرين ونصفا للمنطقة استسلمت هرمز وكان هذا نهاية للوجود البرتغالى فى الخليج .

وكان من المكاسب التى جنتها شركة الهند الشرقية بتعاونها مع الشاه عباس حصولها على حق انشاء مركز لها فى بندر عباس ومنذ ذلك اليوم اصبح هذا المركز المقر الرئيسى للنشاط التجارى مع فارس . الا انه بالنظر الى الصعوبات التى طرأت بين الشركة والفرس او بالأصح نتيجة معاكسات الهولانديين الذين كانوا قد أسسوا لهم مركزا مماثلا فى المنطقة ، لم تحرز الحركة التجارية مع فارس أى نجاح .

فى الربع الاخير من القرن السابع عشر ظهر الفرنسيون على المسرح فى الخليج بالتعاون مع الهولنديين واستولوا على قسم كبير من تجارة الحرير الخام . وبالرغم من كساد الأسواق استمرت شركة الهند الشرقية فى تعاملاتها التجارية مع فارس فى الوقت الذى أخذت تحصل على مراسيم جديدة لصالحها من ملوك فارس الذين تعاقبوا على الحكم الواحد تلو الآخر ، غير أن الهجوم الأفغانى فيما بين عامى ١٧٢٢ ، ١٧٢٩ كان بمثابة ضربة قاصمة أدت الى تدهور الأحوال الطبيعية فى جنوب فارس . وعادت الحياة الطبيعية الى المنطقة فى عهد الشاه نادر شاه غير أن الفوضى التى سادت أعقاب وفاته سنة ١٧٤٧ قضت قضاء مبرما على مركز الشركة فى بندر عباس . وفى ظل الاضطرابات السياسية التى نتجت عن الصراع بين القاجار والزند والبختياريين والأفغان تقلص النشاط التجارى الى حد كبير وعندما قام الأسطول الفرنسى بقصف المركز وتدمير مبانيه عام ١٧٥٩ خلال حرب السنوات السبع قرر أصحاب المركز الانسحاب . ولقد سبق أن أغلق كل من المركز الفرنسى والهولاندى الأول والثانى فى عام ١٧٥٩ وبإغلاق المركز البريطانى فى ٧ مارس عام ١٧٦٣ توقفت التجارة المباشرة بين الأوربيين وجنوب فارس فترة من الوقت . وانتقلت الوكالة التجارية البريطانية بعد انسحابها من بندر عباس الى البصرة حيث كان يوجد بالفعل نوع من التمثيل التجارى للشركة .

ويعود تاريخ العلاقات الانجليزية التجارية مع تركيا العربية الى عام ١٦٤٠ غير ان المركز لم يتأسس بشكل دائم في البصرة قبل عام ١٧٢٣ . وبإغلاق مركز الشركة في بندر عباس تحول التمثيل من البصرة الى درجة وكالة وأسند اليه الاشراف على نشاط الشركة التجارى في الخليج وبعد مضي عام على هذا أعلن الباب العالى اعترافه بالوكالة التى تحولت الى قنصلية ، ولم تقرر الشركة الانسحاب الكلى من الأسواق الفارسية عندما تم اغلاق مركزها هناك ، فقبل عامين من اغلاق المركز في بندر عباس بدأ البحث عن ميناء آخر على الساحل الفارسى يصلح لاقامة المركز فيه . وفي اوائل عام ١٧٦٢ اقترح الوكيل السياسى في بندر عباس اتخاذ المحمرة مقرا للمركز المذكور . وفي يوم ١٢ ابريل سنة ١٧٦٣ عقدت اتفاقية مع الشيخ ناصر حاكم المحمرة يسمح للشركة بموجبها انشاء مركز تجارى في ميناء المحمرة . وقد تم اعتماد هذا المركز كمركز تجارى قانونى بعد ثلاثة أشهر من ذلك تاريخ ، وذلك بموجب قانون الامتيازات الأجنبية الذى اصدره الشاه كريم خان الحاكم الجديد لفارس ، وبصدور هذا القانون اصبح للشركة الحق في اقامة المركز ، واى مباني أخرى تابعة له ، سواء في المحمرة او ميناء آخر من الموانى الفارسية ، كما أصبح لها الحق في انشاء التحصينات اللازمة لحماية هذه المراكز . وتضمن القانون اعفاء الشركة من الرسوم الجمركية على وارداتها الى البلاد بل وخففت هذه الى ٣٪ فقط ، الى جانب منح الشركة حق احتكار استيراد المنسوجات الصوفية الى فارس وتخويل حكام الاقاليم الفارسية سلطة مساعدة الشركة في استيفاء ديونها من الرعايا الفرس وحماية السفن والشحنات التجارية ، كما سمح للشركة بأن تتولى بنفسها محاكمة العاملين فيها عن اى مخالفات مدنية او جنائية يفترونها ، وفي مقابل هذه الامتيازات اشترط كريم خان بأن توافق الشركة على استيفاء ائتمان مبيعاتها أو بعض هذه الائتمان مقابل سلع فارسية وبأن لا تحول ائتمانها بالعملات النقدية فقط ، وبأن لا تقدم الشركة اى تأييد أو مساعدة للمتمردين على سلطة الشاه أو الى خصومه (١) .

(١) مجموعة المعاهدات والمستندات الخاصة بالهند الطبعة الثالثة اعداد س. يو . ايتشيسون المجلد الثالث طبعة كلكتا ١٨٩٢ - بالنسبة للمعاهدة المعقودة مع حاكم المحمرة راجع نفس المجلد ص ٣٢ - ٣٣ .

كان كريم خان وهو يقدم تلك التنازلات يحدوه الأمل في أن تعوضه الشركة بتقديم مساعدة بحرية اليه لتثبيت سلطته على طول الساحل الفارسي اعترافا له بالجميل . وفي وقت لاحق من العام تقدم الشاه بمقترحات مجددة الى حكومة الشركة في بومباي يطلب منها تخصيص سفينتين حريبتين ترابطان في مياه الخليج باستمرار لحماية الخطوط التجارية مع استعداده دفع . ٤ الف روبية سنويا كنفقات لهذه الحماية . ورغم أن حكومة بومباي لم تكن على استعداد للعمل بهذا الاقتراح الا أنها أوعزت الى المقيم البريطاني في المحمرة في شهر ديسمبر سنة ١٧٦٤ بأن يقدم الى الشاه كريم احدى سفن الشركة المسلحة ، اذ تبين له أن مثل هذا الاجراء سوف يسهم في دعم مركزها في البلاد، ومنذ ذلك الوقت تعددت المناسبات التي استخدمت فيها مثل هذه السفن المسلحة في حملات تستهدف تدعيم سلطة الحاكم الفارسي على القبائل الساحلية (١) . وفي عام ١٧٦٦ تعاونت الشركة مع متسلم لواء البصرة لخماد تمرد قامت به قبائل بنى كعب ، مما أثار حفيظة كريم خان والمقيم البريطاني في المحمرة وعلى اثر ذلك اضطرت الشركة الى اغلاق المركز في شهر فبراير سنة ١٧٦٩ ولم يستأنف المركز نشاطه قبل شهر ابريل ١٧٧٥ ولم يكن حظ النشاطات التجارية للشركة في البصرة بأفضل منها في المحمرة، يضاف اليها عمليات الابتزاز التي كان يقوم بها الموظفون المحليون والاضطرابات التي تسود البلاد الى جانب الهجمات التي كان يقوم بها القراصنة على السفن التجارية . وعندما انتشر الطاعون في البصرة عام ١٧٧٣ توقفت حركة التجارة وتم اغلاق المكتب بصورة مؤقتة ، وبعد بضع سنوات حلت بالبصرة كارثة أخرى بحصار الفرس لها مما جعل مستقبل الميناء كمركز للنشاط التجاري يبدو كئيبا بحيث اضطرت حكومة بومباي في عام ١٧٧٩ الى التخلي عن فكرة إعادة فتح الوكالة الا اذا انسحب الفرس في اقرب وقت ممكن، وحتى لو كان هناك تفكير لإعادة فتحه فان صلاحيته سوف تتقلص ولن تشمل المحمرة . غير أن سلطات بومباي ترددت

(١) خلال احدى هذه الحملات ضد المير مهنا شنيخ بندر رق عام ١٧٦٨

تعهد كريم خان بان يسلم الى الشركة جزيرة خرك في حالة نجاح العملية .

(م ٦ - بريطانيا والخليج)

في الاستجابة لطلب الشركة، فقد كانت الحرب مع فرنسا وشيكة، وكان الإبقاء على طرق المواصلات الى البحر المتوسط مفتوحا أمرا مرغوبا فيه . وعلى أى حال فقد سويت المشكلة بانسحاب الفرس من البصرة . ثم أعيد فتح المكتب مع تخفيض درجته التمثيلية ، وانحلت الصلة التي كانت تربطه بدار المقيم البريطاني في بوشهر ، وغدت أهميته منذ ذلك مرتبطة أساسا باعتباره مركزا متقدما لنقل بريد الشركة من الهند الى المملكة المتحدة .

وخلال حرب السنوات السبع استخدم طريق الصحراء الى حد كبير باعتباره الطريق المباشر بين سوريا والعراق في نقل البريد كما استمر استخدام هذا الطريق في نقل النسخ الاضافية من المكاتب بينما كانت النسخ الأصلية ترسل عن طريق الرأس . وكان البريد ينقل الى البصرة من بومباي على ظهر السفن المسلحة للشركة أو عن طريق السفن الأوربية وأحيانا بالسفن الهندية والعربية . وفي البصرة كانت السفن تسلم الرسائل الى الرسل من الفرسان التتار انذين كانوا يتسلمونها من محطة الزبير خارج البصرة ، ومنها يعبرون الصحراء الى حلب حيث يعاد ارسالها الى فينا ولندن عن طريق بيت فريز سمنز ، وكان الرسول يقطع المسافة الى حلب من ١٣ الى ٣٠ يوما على الرغم من أن معدل الرحلة لا يتجاوز ١٥ يوما . وفي نهاية القرن بعد أن تم انشاء دار للمقيم في بغداد أصبح البريد يرسل عن طريق بغداد رأسا الى القسطنطينية ، وكان معدل طول الرحلة ٢٤ يوما صيفا و ٢٧ يوما شتاء . وكانت الرحلة من بومباي الى لندن بمجملها لا تستغرق أكثر من ١٠ الى ١٢ أسبوعا . وكان البريد يرسل في بعض الأحيان عن طريق الكويت اذا شاب الحالة عدم استقرار بالمنطقة المحيطة بالبصرة .

وكانت العلاقة بين الأتراك ومركز الشركة في البصرة على غير مايرام باستمرار ، ويعود ذلك الى سلوك المسئول عن المركز ، فقد كان عدد كبير من المسئولين لا يقصرون نشاطهم على النواحي التجارية وحدها بل كانوا يتدخلون في السياسة في تعاملهم مع المسئولين الأتراك للحفاظ على المصالح البريطانية . وبصرف النظر عن هذه المزاغم فإن السياسة كانت تطفئ كثيرا على الجوانب الأخرى مما كان يرغم رؤساء مجلس الإدارة على التدخل في الأمر لوضع الأمور في نصابها . على أن حكومة بومباي الانجليزية كثيرا ماشارك مندوبوها

- ٨٣ -

فى التدخل فى السياسة . وكان معظم التدخل لرؤساء الشركة يعود الى خوف مبالغ فيه من التجار الأوربيين فى البصرة والفرنسين منهم على الأخص . وبانتهاء القرن خفت حدة التنافس فى كلا المجالين السياسى والتجارى بين الأوربيين فى البصرة . فالهولنديون الذين كانوا يتعاملون مع المنطقة العربية الخاضعة للأتراك منذ منتصف القرن السابع عشر والذين كانوا قد أنشأوا مركزا لهم فى البصرة . فى أوائل القرن الثامن عشر ، عادوا فأغلقوا مركزهم فى عام ١٧٥٢ بعد وقوع شقاق بينهم وبين المتسلم المحلى ، وبعد مضى عام على ذلك افتتح الهولنديون مركزا لهم فى جزيرة خرك غير أنه بعد سبع سنوات تم اغلاق المكتب بالقوة من جانب المير مهنا حاكم بندر رق . ولم يحاول الهولنديون العودة الى المنطقة مرة أخرى .

ولقد بدأت علاقات فرنسا بالمنطقة الخاضعة للحكم التركى بتعيين مطران بابلون اللاتينى فى عام ١٦٣٨ ، ومن ذلك التاريخ أصبح لفرنسا ممثل دينى فى البصرة يعمل كقنصل لها فى نفس الوقت ، وفى نحو عام ١٧٤٠ عين أسقف فرنسا قنصلا فى بغداد ومطران لاثينا ببابل ، بينما أسندت وظيفة قنصل بغداد الى رجل مدنى . غير أن التمثيل الفرنسى فى البصرة كان متقطعا . فقد أنشئت وكالة فرنسية هناك فى عام ١٧٥٥ ولكنها توقفت عن العمل عام ١٧٦٥ ، فباستثناء الزيارات المتقطعة التى كانت تقوم بها احدى السفن التى ترفع العلم الفرنسى فان التجارة مع البصرة تضاءلت حتى تلاشت فى أخريات ربع القرن .

ان تدخل المقيم البريطانى فى البصرة فى السياسة الداخلية للبلاد سار متوافقا مع النظرة الحسودة لموقفه . وكانت الحصيلة الرئيسية للانثنين والنتائج المؤسفة التى ترتبت عليها قد أخذت تنعكس على الظروف التى أحاطت بعملية سحب المركز من البصرة فى ربيع عام ١٧٩٣ . وفى شهر مارس من عام ١٧٩١ تقدمت الجالية اليهودية فى البصرة بشكوى الى المتسلم مضمونها أن أحد زملائهم قد أغتيل من جانب أحد المسيحيين . وعلى أثر هذه مضمونها أن أحد زملائهم قد أستيلى من جانب أحد المسيحيين . وعلى أثر هذه الشكوى القى المتسلم القبض على عدد من المسيحيين ، أربعة منهم لم يكونوا مشمولين بالحماية البريطانية .

وقد احتج المقيم البريطاني صمويل مانستى على اعتقالهم وتمكن من الافراج عنهم مع الآخرين غير المشمولين بالحماية البريطانية . وبعد ذلك بوقت قصير ابلغ المقيم من جانب المتسلم بأن أحد هؤلاء المفرج عنهم هو المتهم بالقتل وينبغى تسليمه لمحاكمته . ولقد قام مانستى بتسليم المتهم ، ولكنه طلب من الموظف المختص بأن تجرى له محاكمة عادلة .

وفي الوقت نفسه فان الجالية اليهودية التى اثارها تدخل مانستى قام افرادها بمظاهرة هددوا فيها المقيم . وقد طالب مانستى بتوقيع العقوبة على اليهود ، غير أن المتسلم لم يكن يرغب فى نكش الجروح القديمة ، ودعا مانستى الى تناسى الموضوع . غير أن هذا لم يكن آخر اجراء يفكر فيه المقيم ، ومن هنا قرر الاتصال بسليمان باشا مطالبا اياه بمعاقبة الجالية اليهودية وفرض غرامات جماعية عليهم ومطاردة زعمائهم ، ومضت الشهور دون أن يتحرك الباشا لتلبية طلب المقيم ، ولهذا قام مانستى فى فبراير عام ١٧٩٢ بتوجيه رسالة الى السفير البريطانى فى القسطنطينية ، يطالبه فيها باقناع الباب العالى بتوجيه خطاب الى سليمان باشا بارضاء مانستى . ورغم ارسال الباب العالى للخطاب فان سليمان باشا لم يفعل شيئا لتلبية مطالب مانستى ، وفى النهاية أنزل مانستى علمه عن المركز فى ٣٠ ابريل ١٧٩٣ وانسحب الى الكويت .

ولقد استغرق الأمر سنتين من المكاتبات بين مجلس الادارة وحكومة بومباى ومانستى حول هذا الموضوع حتى أمكن فى ابريل عام ١٧٩٥ الوصول الى قرار فى ذلك . ولقد كان تصرف مانستى فى رأيهم غير سليم وتقرر ازالته من منصبه واعادة انشاء دار الاعتماد فى البصرة بأسرع وقت ممكن . ولكن مانستى لم يهتم بقرار مجلس الادارة فلقد استطاع بعد وقت قصير الحصول على موافقة الباشا على شروطه للعودة ، وتمكن من استئناف اعماله فى البصرة فى سبتمبر عام ١٧٩٥ قبل وصول خلفه من بومباى بأربعة اشهر . وفى نفس الوقت تلقى مجلس الادارة صيغة أخرى للمشكلة من هارفورد جونز زميل مانستى عند عودته الى انجلترا عام ١٧٩٥ ، وفى نفس اليوم الذى وضع خلف مانستى قدمه فى البصرة لاستلام دار الاعتماد ، كتب أعضاء مجلس الادارة الى حاكم بومباى

ينقضون تعليماتهم السابقة ويعيدون تنصيب مانستى فى وظيفته السابقة ، وبما أن الظروف الخاصة قد استبقت مانستى فى البصرة حتى إبريل عام ١٧٩٦ - ولا نعرف كيف استطاع ذلك بما أن وصلت التعليمات حتى تمكن مانستى من استئناف عمله بكثير من الاستياء من قبل المقيم البريطانى الجديد (١) .

لم يكن الوضع فى دار الاعتماد البريطانى خلال العقدى الأخيرين من القرن الثامن عشر على شىء من الأهمية ، فجميع القلائل كانت تعزى الى الأوضاع غير المستقرة فى جنوب فارس خلال السنوات الأخيرة من حكم أسرة زند ، ولم تكن ترجع الى الاوهام والتصرفات الغريبة للمقيمين البريطانيين فى المنطقة . وقد ظلت حركة التجارة متدهورة خلال هذه الفترة ، ولم تبدل أى محاولات لانعاشها وبالنظر الى حالة التصدع التى أصابت مبنى دار الاعتماد فقد وصفها أحد المقيمين البريطانيين فى تقريره ، بأن المبنى قد ينهار عند سقوط أول رذاذ للمطر ، الأمر الذى أدى الى فقدان الأمل فى عودة التبادل التجارى مع بلاد فارس الى ماكان عليه . وكان من عادة المقيم البريطانى أن يمارس أعمالا تجارية محدودة لحسابه الخاص . ومع أن التجارة كانت محظورة على موظفى الشركة أيام حكم كلايف للبنغال إلا أن هذا الحظر لم يكن يشمل المقيمين البريطانيين فى البصرة وبوشهر لأن طابع عملهم لم يكن سياسيا بحتا ، كما أن قباطنة سفن الشركة المسلحة كانوا يقومون بنقل شحنات من التوابل لحساب التجار بين بومباى وموانئ الخليج دعما لظروفهم المعيشية . على أن ثراء موظفى الشركة لم يكن سببا كافيا على أى حال لابقاء هؤلاء الموظفين فى وظائفهم ويبقى السؤال:

(١) فارس والخليج « مجلد ١٨ فى تقرير من اعداد جونز ومانستى موجه الى اللجنة السرية بشركة الهند الشرقية بتاريخ ٥ يوليو ١٧٩١ والى السير روبرت اينسلى السفير البريطانى فى القسطنطينية ٧ فبراير و ٢٢ نوفمبر عام ١٧٩١ ومجلد ١٩ من اعداد جونز ومانستى الى اللجنة السرية . والمرافعات السياسية مجلد ٦ بتاريخ ٢٢ يناير و ٢٢ مارس و ١١ يونيو و ٧ يوليو والسجلات السرية لبومباى مجلد ٢٤ حول أول اتصالات شركة الهند الشرقية بتركيا .

ماهى الفوائد التى كانت تجنيها الشركة من الاحتفاظ بصلاتها التجارية مع المنطقة اذا كانت هناك اى فوائد ؟

لعل الفائدة الكبرى من تلك التجارة هى أنها كانت تساعد الرجال فى الشركة على تطبيق ذلك البند من الميثاق الذى ينص على أن يكون عشر السلع المصدرة الى المنطقة من صنع بريطانيا . وكانت الوسيلة لتنفيذ هذا المطلب تتمثل فى تصدير الأصواف والمعادن الانجليزية الصنع حيث كانت تلقى رواجاً فى بلاد فارس وفى المنطقة العربية الخاضعة للحكم التركى .

أما الميزة الأخرى التى كانت تتمتع بها الشركة من انجارتها مع موانئ البصرة فان ذلك كان يعفيها من دفع الرسم الاضافى وقدره ١٥ ٪ ، وهو الرسم الذى كانت تفرضه انجلترا على جميع واردات الشركة من المواد الخام ، فقد كانت انجلترا تستورد خام الحرير وخيوط الصوف من كرمان بفارس هذه ، وكانت السلع تلقى رواجاً فى أوروبا رغم أن أسعارها كانت عرضة للتقلبات . وكان الهولنديون المنافسين الرئيسيين للبريطانيين فى تجارة الحرير فى بندر عباس . وفى تجارة الأصواف التى كانوا يشترونها من تجار أرمينيا الذين كانوا يستوردونها ثم يشحنونها الى فارس عن طريق تركيا ، وفى عام ١٧٦٣ عندما تم سحب المركز من بندر عباس حلت هذه السلع محل خام الحرير كسلعة أساسية فى مشتريات الشركة . وبعد سحب المركز تركزت مبيعات الشركة من الأصواف على مدينة البصرة ، غير أن أسواق المنطقة العربية الخاضعة للأتراك لم تكن لتنافس الأسواق الفارسية ، وكانت هناك منافسة تجارية من جانب الهولنديين ثم الفرنسيين ومن التجار المحليين الذين كانوا يستوردون الأصواف الأوروبية عن طريق حلب ، على أن ارتفاع أسعار الأصواف البريطانية بالإضافة الى تغيير أسعار العملة فى تحويل النقد الى الهند ونظراً لندرة العملة النقدية فى تركيا قد ساهم ذلك فى زيادة تدهور هذه التجارة .

على أن الشركة لم تكن المسؤولة عن تدهور تجارتها مع الخليج فقد كان هناك تدهور عام على مستوى المنطقة خلال الأربعين عاماً الأخيرة من القرن لعدد

٨٧

من الاسباب ، منها تفشى أعمال القرصنة من جانب قبائل بنى كعب ثم القواسم ، وازالة المستوطنة الهولندية فى خرك وانتشار الوباء فى المنطقة العربية الخاضعة للأتراك فى عام ١٧٧٥ وحصار واحتلال البصرة وندرة العملة الفضية ، ثم أخيراً الحرب الأهلية التى اجتاحت بلاد فارس منذ عام ١٧٧٩ وصاعداً ، ومع ذلك فإن الشركة هى التى جنت على نفسها بنفسها عندما قررت الحد من مشترياتها من الحرير الخام وأصواف كرماني ، ولما لم تكن الشركة راغبة فى شراء خام الحرير من بلاد فارس فى مقابل السلع التى تعرضها فقد كان الروس راغبين فى ذلك وهكذا ، فبانتهاء القرن كانت الشركة قد خسرت سوق السلع الصوفية لصالح الروس الذين كانوا فى إمكانهم استيرادها بأسعار أقل ثم تصديرها إلى شمال بلاد فارس من موانئ بحر قزوين مما مكن البريطانيين من شرائها من بوشهر ، فضلاً عن أن الأصواف الروسية باعتراف أحد موظفى الشركة كانت أجود بكثير من تلك التى كانت تستوردها الشركة ، فقد كانت الأصناف الأخرى من الصوف من خيوط دقيقة ومن نسيج رقيق سرعان ما يتلف بعد استعماله بوقت قصير (١) ويمكن القول أن الروس كانوا يحصلون على أصوافهم من إنجلترا . وقبل نهاية القرن كانت تجارة الشركة مع إيران والمنطقة الفربية الخاضعة للأتراك قد تعرضت لخسائر كبيرة . وعلى سبيل المثال فإن الميزانية العامة لمركز البصرة عن العام ١٧٩٢ - ١٧٩٣ تتضمن خسارة لا تقل عن ٦٣٨٥٠ روبية هندية كان مبلغ ٥٩,٣٤٥ روبية منها نفقات مركز البصرة كما كان معدل الخسارة فى مبيعات الأصواف يصل إلى ٢٤ ٪ بالمقارنة إلى ١٩ ٪ للسنة : ١٧٨٩/١٧٩٠ ولولا الرسوم القنصلية لزادت الخسارة ٣٠,٠٠٠ روبية (٢) . وكانت هذه الرسوم تدفع من قبل التجار الذين كانوا يراولون أعمالهم التجارية فى العراق وفارس تحت حماية الشركة وبموجب مرسوم عام

-
- (١) « بلاد فارس والخليج » تأليف وليم بروس فى ١ ابريل سنة ١٨٥٩ .
- (٢) نفس المصدر المجلد ١٩ بعنوان حسابات وأرباح وخسائر مركز البصرة التجارى فى ١/٥/١٧٩٢ و ٣٠/٤/١٧٩٣ .

١٧٦٤ كان يحق للمقيم تحصيل الرسوم القنصلية بوصفه قنصلا أيضا ، وكان هذا يسرى على جميع القناصل فى الحصول على تلك الرسوم طبقا للبند رقم ٣٥ من قانون الامتيازات الأجنبية . ولتسهيل هذه العملية فقد قسمت الشركة الرسوم التى تتقاضاها تحت بندين هما : بند الرسوم الجمركية وبند الرسوم القنصلية ، محتفظة بالأولى لنفسها ، بينما كانت ترصد الرسوم الأخرى لحساب المقيم (١) والواقع أن الرسوم القنصلية كانت بمثابة عوائد الشركة من عمليات المراكز فى الخليج خلال الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر . وكان معدل مبيعات الأصواف فى بوشهر خلال الخمس سنوات من عام ١٧٨٥ حتى ١٧٩٠ الى ٢٤٠٠٠ روبية سنويا . أما الرسوم القنصلية التى كانت تستوفى مقابل السلع التى يستوردها التجار المشمولون بحماية الشركة عن نفس المدة فلم تزيد على ١٦٠٠٠ روبية .

والواقع أن دور الشركة فى تجارة الخليج كان يتحول من المشاركة الفعلية الى مجرد حماية لهذه التجارة التى أصبحت منذ ذلك الوقت تحت رحمة التجار الفرس والعرب والأمن والهنود وأصحاب السفن فى هذه البلاد ، وكانت الشركة توفر الحماية المسلحة لهؤلاء التجار ضد القراصنة وكان أسطول الشركة هو الذى يقوم بتلك الحماية .

ولم تصل للخليج أى سفينة حربية قبل عام ١٧٦٩ وذلك عندما طلبت حكومة بومباى مساعدة من قائد الأسطول فى الهند الشرقية فى مطاردة بعض قراصنة بنى كعب الذين كانوا يزاولون نشاطهم من سواحل الخليج ، ومنذ ذلك الوقت أخذت سفن الأسطول تبحر بين حين وآخر الى مياه الخليج غير أن عبء حماية التجارة كان يقع فى المقام الأول على بحرية بومباى حيث كان يوجد الفرع المسلح التابع للشركة .

(١) كانت الضريبة الجمركية المفروضة فى بوشهر هى ٣٪ حسب السعر والرسوم القنصلية ١٪ وفى عام ١٧٨٤ رفعت الضريبة الجمركية الى ٥٪ والقنصلية الى ٢٪ التى كان نصفها يذهب الى الشركة ونفس الاجراء كان يتخذ فى البصرة .

وقد تأسس هذا الأسطول عام ١٦١٣ وكان الغرض من انشائه في البداية حماية المراكز التجارية في مدينة « سورك » بالهند والتجارة المحلية على سواطىء ملبار ، ثم تطور في أواخر القرن الثامن عشر الى أسطول فى الهند وكانت صغيرة الحجم لا تتجاوز حمولتها ١٥٠ طنا ، ولم تكن تحمل من المدافع أكثر من ستة ، وكان يقودها متطوعون من السفن التجارية التابعة للشركة ، أما بحارة هذه السفن فكانوا من الهنود . وفى أواخر القرن السابع عشر نقل المقر العام لهذا الأسطول الى بومباى ، وأخضعت وحداته لسلطة حكومة الرئاسة ، وينمو هذا الأسطول حتى أصبح أكثر قوة وحجما مما جعله يلبي متطلبات الحرب مع فرنسا كما أعيد تنظيم هذا الأسطول على أسس أكثر تطورا وتنظيما ، وتم تشغيل مزيد من البحارة الأوربيين والضباط على غرار ماكان يتم بالنسبة لجيش الشركة ، وعندما تم وضع سورت فى عام ١٧٥٩ خول قائد البحرية بمقتضى مرسوم أصدره الإمبراطور المغولى سلطة أميرال الإمبراطورية بشرط أن ترفع مراكب هذا الأسطول العلم المغولى على مقدمة سفنها ، وشعار الشركة فى مؤخرتها طوال السبعين عاما التالية ، وفى عام ١٧٩٨ أعاد مجلس الإدارة تنظيم الأسطول على أساس أن يصبح نظاما صالحا للقتال على أفضل وجهه ، وقد حظر على رجال هذا الأسطول ممارسة أى أعمال تجارية كما منحوا حق الحصول على معاشات عند التقاعد، وقد عين لهذا الأسطول مراقب ومساعد مراقب وعميد بحرى وهؤلاء بالإضافة الى اثنين من الضباط الكبار الذين كانوا يشكلون هيئة بحرية وكانوا يشرفون على الشؤون المدنية للأسطول التى كانت تشمل مراقبة المرسى فى بومباى . . الخ ، أما الاشراف التنفيذى للأسطول فقد كان فى يد المراقب العام وقد حددت مهمة هذا الأسطول كما يلى :

حماية التجارة وبالأخص التجارة الريفية ومكافحة القرصنة على سواحل الهند والمياه القريبة منها ، بالإضافة الى القيام بنقل بريد الشركة ، وفى حالة نشوب حرب يتعين على هذا الأسطول القيام بأعمال حماية الممتلكات البريطانية فى الهند والاشراف على عمليات نقل الجنود وحراسة السفن التجارية ، وقد أعيد النظر فى هذه المهام خلال الحرب الثورية والناپوليونية بحيث تتركز فى

نقل البريد وحماية تجارة البلاد من القراصنة ولم يُفهد الى هذا الاسطول بالتصدي للفرنسيين اذ كانت تنقصه البواخر والأسلحة التي تمكنه من تنفيذ ذلك الا أن يوارج الاسطول كثيرا ما اشتبكت مع العدو وأحرزت تفوقا عليه ، وفي عام ١٨٠٢ وصلت قوة هذا الاسطول الى فرقاطتين ، هما لورن ، واليس ، وقد حولت الاثنتان فيما بعد الى الاسطول الملكي بالإضافة الى ثلاثة طرادات يحمل احدها ٢٢ مدفعا ، ولكل من الآخرين ١٦ مدفعا أخرى مزودة كل منهما بـ ١٤ مدفعا الى جانب ٧ سفن أخرى مزودة كل منها بـ ١٠ مدافع الى ١٨ مدفعا ، وسفينتين تحمل احدهما ١٤ مدفعا والاخرى ٨ مدافع ، وكان عدد العاملين في هذه القوة في عام ١٨٠٢ (١٣) قبطانا و ٢٣ ملازم أول و ٢١ ملازم ثان و ٢٧ من المتطوعين .

ولم يطرأ أى تغيير على قوة هذا الاسطول خلال فترة الحرب مع الفرنسيين وفي سنة ١٨١٠ كان عدد العاملين في هذا الاسطول ١٦ قبطانا و ٨ قادة و ٢٦ ملازم أول و ٢٤ ملازم ثان و ٤٨ من ضباط الصف (١) .

ولاشك أن اسطول بومباي بالمقارنة الى الاسطول الملكي كان ضعيفا كما لم يكن بحارته حتى القرن التاسع متساوين فى الرتب مع بحارة الاسطول الملكي ، وكان اصغر ملازم فى الاسطول الملكي يفوق أعلى ضابط فى البحرية الهندية ، وكان الضباط المليون ينظرون نظرة أدنى الى بحارة الشركة بل حتى قباطنة السفن الشراعية البريطانية كانوا يعتبرون أنفسهم أعلى درجة من بحارة الشركة ربما من حيث مركزهم ومستواهم المادى .

وكان المسئولون فى الهند وفى المنطقة الشرقية يوجهون اللوم بكثرة الى بحارة سفن الشركة على افتقارهم الى النظام ومستوى السفن التي يستعملونها وعلى اخلاقيات ضباطها وعناء بحارتها . والواقع أن تلك الانتقادات لم يكن لها ما يبررها ، فالبحرية الهندية قد سلمت الى الاسطول الملكي خلال الحروب الفرنسية كما كان النقص فى البحارة الاوربيين والانجليز يعود الى الاجراءات

(١) « تاريخ الاسطول الهندى » تاليف س. ار. لو. مجلدان طبعة

لندن عام ١٨٧٧ .

غير المشروعة لنقل رجال البحرية الهندية الى العمل في الأسطول الملكى منذ عام ١٧٩٨ فصاعدا . وقد اضطرت حكومة بومباى الى الاحتجاج لدى الهند البريطانية على تلك الاجراءات حتى أصدرت الادميرالية بعد ذلك مرسوما يحظر نقل تلك السفن .

وكانت مهمة الاسطول الهندى فى الخليج بشكل عام من أشق المهام الملقاة على عاتق البحرية الهندية ، وقد وصف أحد الضباط العاملين فى هذا الأسطول تلك المهمة على النحو التالى :

ان سواحل الخليج قاحلة جرداء والمناطق الرملية المحترقة تحيط بها من كل جانب ولكن هذه الحالة لا يمكن أن يتصورها الا من رآها أو عاش فيها . ولا اثر فيها لى نبتة خضراء تريح عين الناظر اليها اللهم الا حرارة الرمال ، فالفصل الحار الذى يستمر خمسة أشهر أمر لا يمكن أن يتحملة أى انسان ، وتصبح الحياة فيه شيئا لا يطاق لأن ارتفاع الحرارة ارتفاعا كبيرا يصعب على أى مخلوق احتمالها . حتى ان بعض الناس ماتوا من حرارة الجو والشمس كما يصاب البعض بالحمى الشوكية والمصاب بهذا المرض لا يمكن أن ينجو من الموت ، واذا نجا فانه يعيش ضعيف العقل ، ويقضى الضباط والبحارة أسهوا أيامهم خلال فصل الصيف لأنهم يتعرضون لمتاعب لا يمكن أن يصدقها عقل ولا يوجد أثر للحياة الاجتماعية الا بين الضباط . والمرأة لا وجود لها على الإطلاق كما انه من النادر أن تلمح العين امرأة عربية أو فارسية فهن جميعا محجبات بالكامل ومعزولات عن الرجال (١) .

يتراوح معدل درجات الحرارة فى الخليج ما بين ٩٢ فى منتصف فصل الصيف الى ٦٠ و ٨٠ درجة فى منتصف فصل الشتاء ، غير أن درجات الحرارة القصوى تتراوح فى البصرة حيث يصل معدلها الاقصى من ٢٤ الى ١٢٢ درجة ، وفى لنجة على الساحل الفارسى يتراوح معدلها من ٤١ الى ١٠٩ درجات ، وفى مسقط من ٤٩ الى ١١٦ ، كذلك فان نسبة الرطوبة عالية بحيث تجعل الحر أكثر قسوة ، ويكثر الضباب أحيانا وعلى الأخص فى الأطراف

(١) ملاحظة عملية مسح للشواطىء الشرقية للخليج : اللفتنانت جى . بى . كاميثورن .

السفلى للخليج وببدا الضباب يتجمع فى الصباح الباكر حتى يصير كثيفا جدا بحيث يغمر البواخر وهى فى الميناء ، اما العواصف الرملية فمألوفة جدا وتزداد حدتها فى اشهر الصيف . وفى الشمال تهب الرياح السائدة فى المنطقة من الشمال الغربى . اما فصل الشتاء فانه يأتى فجأة بعواصفه وأخطاره وعلى الاخص فى شهرى يناير وفبراير ، وفيهما تصبح الملاحه قرب الشواطىء الجنوبية للخليج خطيرة جدا . وتهب الرياح الشمالية الصيفية خفيفة وان كانت احيانا تهب قوية وتكتسح معها كميات من الاتربة والرمال . ولا تزال الملاريا من الامراض المستوطنة فى المنطقة وكذلك حمى التيفود منتشرة فى المناطق الساحلية . ومنذ قرن مضى كانت المنطقة تتعرض لموجات منتظمة من وباء الجدرى والطاعون والكوليرا .

كانت الملاحة فى الخليج قبل مائة وخمسين عاما عملا محفوفًا بالأخطار ، فعلى طول الشاطئ الممتد نحو ٥٠٠ ميل من شط العرب حتى مضيق هرمز توجد الجزر والمنخفضات والصخور والتيارات وحتى ذلك الوقت لم تكن توجد لهذه المنطقة خرائط صحيحة .

وتزداد التيارات السطحية حدة حتى انها تفوق على حركة المد والجزر ، فعلى مدخل الخليج يكون التيار قويا وفيما بين رأس مسندم والقوين توجد دوامات وتيارات . ولم تكن توجد خريطة معتمدة للخليج فى القرن الثامن عشر . وكانت الخريطة الوحيدة الموجودة هى التى قام باعدادها كارستون ينهور فى القرن الثامن عشر . وقد قامت البحرية التابعة لحكومة بومباى بأعمال مسح قليلة لشواطىء الخليج الواقعة شمال غربى الهند . كما تم مسح سواحل كتياورا والسند ومكران الفارسية فى عام ١٧٧٢ مع جزء من الساحل العماني امتدادا من مسقط حتى رأس الحد ، ولفترة امتدت خمسين عاما بقيت هذه البقعة الصغيرة هى المنطقة الوحيدة من الشاطئ العربى التى تم مسحها مسحا تاما . ولم يكن يعرف الاوربيون شيئا عن الجانب العربى من الخليج وكانت الملاحة فى الخليج تتجه عبر الخط الرئيسى للساحل الفارسى ولم تكن أى سفينة اوروبية تجرؤ على الدخول فى النصف الغربى من الخليج منذ خروج البرتغاليين منه . وكانت مسقط هى الميناء الوحيد على الجانب الغربى للخليج الذى كانت ترتاده السفن الاوروبية .

وفى عام ١٧٨٥ قام اللغتنانت جون مكور من البحرية الهندية بمسح للساحل الفارسى ولقد ركز عمله على تصحيح الجوانب التفصيلية لخريطة ينبهور حيث حدد مواقع الجزر والسواحل وأعد رسوما للموانى (١) وقد انتفع بهذه الخريطة فيما بعد جيمس هور سيرج أخصائى الخرائط المائية التابع لشركة الهند الشرقية فى كتابه « دليل الهند » غير أن جيمس حصر أعماله فى النواحى الملاحية للجانب الفارسى ولم يتناول الجانب العربى للخليج الا فى صفحة واحدة ، وأشار جيمس الى أن هذا الجانب من الخليج لم يكن يلقى الاهتمام من السفن الأوروبية لقلة المعلومات عنه ولأنه منطقة غير مأمونة (٢) وكان الإبحار الى الخليج من الهند خلال الرياح الموسمية الشمالية الشرقية والتي تستمر من اكتوبر حتى ابريل لا يستغرق أكثر من أسبوعين ، أما خلال الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من مايو حتى سبتمبر فقد كان يستغرق من أربعة الى ستة أسابيع ، وكان على كل سفينة أن تغير اتجاهها نحو الغرب بنحو ٥ الى ١٠ درجات جنوب خط الاستواء ثم تعود فتنجته شمالا ، ثم تبحر قبل حلول المونسون لتصل الى الشاطئ بالقرب من رأس الحد .

وهكذا أصبح وضع الشركة غامضا فى الخليج خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر بحيث بات من الصعب عليها أن تحدد على أى الأسس سوف تستمر علاقاتها التجارية بالمنطقة . وكان وضعها التجارى مضحكا كما لم تكن لها مصلحة سياسية فى المنطقة ، فالنشاط السياسى للمقيم البريطانى فى الخليج كان قد توقف بقرار من مجلس الإدارة رغم أن هذا الحظر لم يكن له ما يبرره خصوصا وأنه لم تكن هناك سلطة مركزية فى فارس للتعامل معها ، وربما كان لذلك الحظر ما يبرره حيث كان وجود النشاط السياسى للمقيم البريطانى مدعاة للحرج أكثر منه للمصلحة ، وإذا أخذنا فى الاعتبار انعدام أى مصلحة

(١) بحث عن الملاحة فيما بين الهند والخليج على مدار العام « طبعة لندن

١٧٨٦ » .

(٢) « اتجاه الملاحة من والى الهند الشرقية والصين وهولندا الجديدة

ورأس الرجاء الصالح » . الخ مجلدات طبعة لندن عام ١٨٠٩ .

للشركة فى الخليج خلال العقد الأخير من القرن فان انسحابها انسحابا كلياً من المسرح يعتبر أمراً معقولاً ، وذلك على غرار انسحابها فى السنوات السابقة من مناطق أخرى من الشرق عندما أصبح بقاؤها أكثر حذراً من انسحابها .

ومن المشكوك فيه على أى حال ما اذا كان فى مقدور الشركة فى ذلك الوقت الانسحاب بسبب المسؤولية التى كانت تتحملها بالنسبة لتجارة تلك المنطقة مع الهند . ان قلادة التكريم التى منحها الاميرال المغولى لقائد بحرية الشركة لم يكن يمنحها عبثاً لأنها مسئولية تتعلق بحماية تجارة الشركة وبالتالى تجارة البحرية الهندية التى كان القائد مسئولاً عنها ، كما كانت تلك الحماية تشمل سفناً أخرى غير السفن التى ترفع أعلام الشركة والتى تعمل فى الخليجان الفارسية والعربية قبل عام ١٧٥٩ ، وربما أصبحت تلك الحماية فيما بعد ذلك مسئولية قانونية تتحملها الشركة ، والواقع ان هذه المهمة كان لابد أن تدخل الى حيز التنفيذ قبل العقد الأول من القرن التالى عندما انطلقت ضد خطوط الملاحة فى الخليج ، كما جعلت الحرب مع فرنسا عام ١٧٩٣ ، ثم الحملة الفرنسية على مصر بعد ذلك بخمسة أعوام وانسحاب الشركة من الخليج أمراً يكاد يكون مستحيلاً .

الفصل الثاني

الحرب مع فرنسا والوفود الى فارس

١٧٩٨ - ١٨١٤

في يوليو ١٧٩٨ نزلت الى الاراضى المصرية قوة فرنسية بقيادة نابليون بونابرت ، وبعد ثلاثة اسابيع من وصول هذه القوة استطاعت أن تقضى على نفوذ الحكام المماليك في مصر في موقعة الهرم ، وبذلك مهدت لقائد الحملة الشاب طريق فتوحاته في الشرق ، غير أن احتلال نابليون لمصر لم يكن غاية في حد ذاته .

لقد كانت فرنسا في ذلك الوقت آخذة في التوسع والفتوحات . وكان تاليران الذي اختير وزيرا لخارجية فرنسا في شهر سبتمبر عام ١٧٩٧ يؤمن بحاجة فرنسا الى التوسع والاستعمار ، وكان الشرق هو الميدان الوحيد أمام فرنسا لتحقيق تلك الاطماع ، ورغم أن احتلال فرنسا لمصر كان هدفا مرغوبا فيه ، إلا أنه كان يخدم أهدافا أخرى أكثر طموحا . وعلى أساس الاحتلال الفرنسي أمكن تحويل التجارة من طريق رأس الرجاء الصالح الى خليج السويس ، الأمر الذي يتيح لفرنسا من خلاله الانقضاض على الوجود البريطاني في الهند والحصول على السفن اللازمة لهذه الخطة من البحر الأحمر وجزر موريشيوس الفرنسية ، وكان الدافع الرئيسى لسياسة تاليران هو العمل على اضعاف إنجلترا بتوجيه ضربة اليها في أقوى مواقعها ، أى تجارتها مع الشرق ومستعمراتها في الهند . وربما كان لتلك السياسة دوافع أخرى كالاحتفاظ بنوع من النظام الارستقراطى في أوروبا عن طريق تحويل اهتمام رجال الادارة الفرنسيين عن أوروبا الى مغامرات في الشرق لصرف انظارهم . وكان نابليون بونابرت يؤيد الحملة الفرنسية على مصر كل التأييد . وكان الاثنان يعدان العدة بالاشتراك مع رجال الادارة الفرنسيين (١) .

(١) ردود الفعل السياسية لحملة بونابرت الشرقية بقلم جى هولاند روس في المجلة التاريخية الانجليزية (١٩٢٩) ص ٤٨ - ٥٨ .

وكان صدى الحملة الفرنسية على مصر ملحوظا وبعيد المدى . فحتى ذلك الوقت كان الدفاع عن الممتلكات البريطانية في الهند ، يعتمد على القوة البحرية . وكانت المحاولات الفرنسية للتوسع في الشرق تنطلق سابقا من جزر موريشيوس الواقعة على السكريينز فلابور دونى وديلون وبوس الذين حاربوا والبحر من ورائهم . أما بونابرت فقد اختار مصر كنقطة انطلاق لفتوحاته ، وكان يعتمد على جيش لم يكن له مثيل في الشرق . ولأول مرة أثارت محاولاته قلق الحكومة البريطانية التي كانت ترى جيوشه وهى تقترب من حدود الهند والمداخل البحرية للخليج والبحر الأحمر والحدود الدولية لفارس وأفغانستان .

وكان من نتيجة ذلك أن اضطرت بريطانيا الى اقامة علاقات سياسية مستديمة مع الامبراطوريتين العثمانية والفارسية بهدف حماية المستعمرات البريطانية في الهند ضد عدوان الدولة الأوربية من الشمال الشرقى . وحتى قبل أن يبحر جيش بونابرت من ميناء طولون كان بصيص من أخباره قد وصل إلى لندن كما نعى الى علم مجلس الهند(١) أن تيبو سلطان حاكم ميسور ، وكان

(١) وقد تم انشاء مجلس المحافظين لادارة شئون الهند بموجب أحكام القانون الصادر ١٧٨٤ ووكلت الى هذا المجلس كل من الشئون السياسية والعسكرية لشركة الهند الشرقية وكان يتألف من ستة أعضاء متفرغين من مجلس الشورى بما في ذلك احد أعضاء مجلس الدولة ووزير الخزانة وخول هذا المجلس صلاحية الاشراف على اللجنة السياسية لمجلس ادارة الشركة ولكى ينقل القرارات التى تصدرها الشركة الى الهند فى كل المسائل التى تتعلق بالحرب والسلام او فى المفاوضات مع الدول خارج الاراضى التابعة للشركة أما مكتب رئيس مجلس الادارة او « مجلس الهند » كما كان يسمى فقد انشأه واندس عام ١٧٩٣ . بحيث اخرج من عضويته وزير الدولة ووزير الخزانة ولكن اضيف اليه اثنان من المحافظين ليسا من أعضاء مجلس الشورى . ويمضى الوقت وازدياد سيطرة المجلس على شئون الشركة ازدادت مسئوليات الرئيس حتى بلغت صلاحياته الى مستوى صلاحيات رئيس ادارة فى حكومة . وكان يعتبر عادة =

هو من ألد أعداء الشركة قد عقد حلفا مع حاكم جزر موريشيوس الفرنسي هنري داندس رئيس الوزراء وزير الحربية يومئذ ، يعتقد بأنه على الرغم من أن مصر هى الوجهة المباشرة للحملة الفرنسية الا أن الهدف النهائى منها هو الاطاحة بالنفوذ البريطانى فى الهند . وفى ١٣ يونيو فاتح دانداس اللورد جرينفيلد وزير الخارجية فى هذا الأمر وأشار فى المذكرة التى بعث بها اليه أن امام بونايرت أربعة اتجاهات للزحف منها على الهند بعد أن يكون قد وصل الى الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط : الأول من القسطنطينية عبر البحر الأسود جنوبا عبر طريق تركيا الشرقية ، والثانى من السويس نزولا الى البحر الأحمر ، والثالث من جدة عن طريق الحجاز واليمن عبر ساحل حضرموت ومسقط ومنه الى الشواطئ الهندية ، والرابع عن طريق الصحراء السورية الى بغداد ورأس الخليج ثم منه الى الهند ، وكان دانداس يعتقد بأن الأتراك والروس لن يسمحوا بمرور جيش نابليون عن طريق البحر الأسود كما أنه لن تتوفر لذلك الجيش سفن فى البحر الأحمر ، كما أن هناك صعوبات لو حاول هذا الجيش المرور عن طريق سوريا بينما يمكن بسهولة فرض حصار على البحر الأحمر والخليج من جانب الأسطول البريطانى . كل هذه الأسباب تقنعنى كما قال دانداس بأنه لو قدر لمغامرة نابليون أن تتم فانها على الأرجح سوف تتفادى طريق البحر باعتباره غير مأمون وبالتالي فسوف يحاول نابليون وبمعاونة أتباعه أن يزحف على الهند عن طريق حلب مرورا بالفرات ودجلة ثم منها الى الخليج ، ومن الخليج سوف ينقل عبر الساحل الى منطقة نهر الأندس (١) .

== أحد أعضاء مجلس الوزراء واعتبارا من عام ١٨٤١ فصاعدا كان هو العضو الوحيد المعين فى اللجنة الملكية وقد أضيفت أسماء عدد من الأعضاء السابقين ضمن الميثاق المعدل لسنة ١٨٣٣ ، ١٨٣٤ وفى عام ١٨٥٥ حل محل هذا المكتب مكتب وزير الدولة لشئون الهند كما حل محل مجلس إدارة الهند المجلس الأعلى للهند .

(١) رسائل ومحاضر وتقارير الماركويس ويلسلى مجلد ٥ الطبعة الثانية لندن ١٨٤٠ ملحق ١ - ح انظر أيضا نفس المجلد ص ٣٤٨ - ٣٥١ من داندس الى ويلسلى ١٧٩٨/٦/١٦ .

(م ٧ - بريطانيا والخليج)

غير أن جراينفيل لم يقتنع بمسببات داندس فعاد يقترح عليه الرجوع الى خريطة آسيا ، ولكنه ابدى استعدادا للاتصال بكل من تركيا وروسيا للاستعانة بهما ضد نابليون اذا حاول غزو مصر واحتلالها . ولقد قام داندس فعلا باعداد قوة من ٤ آلاف جندي وارسالها الى الهند لتعزيز القوات البريطانية المربطة هناك ، كما قامت الاميرالية ببناء على تعليمات باصدار امرها للابحار بثلاث قطع من الاسطول البريطانى الى منطقة البحر الاحمر عن طريق الراس للقيام بدوريات فيما بين منطقتى الخليج والبحر الاحمر . كما صدرت الاوامر الى الحكومة فى بمباى للاستيلاء على جزيرة بريم فى باب المندب ، واقامة تحصينات فيها لاجلاق طريق البحر فى وجه نابليون ، كذلك طلب الى الحكومة السامية فى كلكتا (٢) أن تقوم بسلسلة من الاتصالات بحكام الولايات الشمالية الغربية من الهند لاقناعهم بصد أى هجوم قد يقوم به الفرنسيون على الهند . وبالإضافة الى هذه الاتصالات تم الايعاز الى هارفورد جونز الوكيل التجارى المساعد للشركة فى البصرة والذى كان يومئذ يقضى اجازته فى انجلترا بقطع اجازته والعودة الى العراق فوراً لانشاء ممثلية بريطانية فى بغداد والعمل على كسب الوالى والعمل التركى سليمان باشا الى صف انجلترا .

وقد بدأت الشكوك تحوم حول النوايا الفرنسية قبل ذلك بسنتين ، أى عندما وصل اثنان من علماء التاريخ الطبيعى البارزين فى فرنسا ، وهما بروجى وأوليفر الى طهران ، وبقياً فيها ثلاثة أشهر لبحث الأوضاع السياسية

(١) لقد خولت حكومة البنغال صلاحيات مطلقة للإشراف على شئون الشركة فى الهند وعلى الأخص فى علاقاتها بالدول المجاورة وان كان الحاكم العام هو الذى يمارس تلك المسئولية كمسئولية مستقلة عن وظيفة رئيس مجلس الشركة فورت ويليام (فى البنغال) ويعتبر المجلس الأعلى للحكم كما أن حكومة البنغال والحكومة السامية هما من الناحية العملية سلطة واحدة وقد استمر العمل بهذا النظام حتى ١٨٣٤ عندما تحولت الحكومة السامية الى حكومة الهند .

في فارس واجراء محادثات مع وزراء الشاه (١) ولقد عاد المبعوثان الى بغداد في ديسمبر عام ١٧٩٦ ثم غادراها مرة أخرى الى القسطنطينية ، وذلك في شهر مايو من نفس العام . واعقب ذلك تعيين قنصل فرنسي في بغداد في شخص جان بابيثر روسو ابن عم المفكر الفرنسي المشهور جان جاك روسو (٢) .

ووصلت انباء الحملة الفرنسية على مصر الى الهند في شهر اغسطس ، ثم سرعان ماتبعها نبأ تحطيم الاسطول الفرنسي على يد نلسون في خليج أبو قير يوم اول اغسطس ، وبانقطاع خطوط مواصلات نابليون بونابرت مع فرنسا كان من المتوقع أن تتعثر تحركاته المقبلة ، وقد اثار هذا الوضع الارتياح في نفس الحاكم العام الجديد اللورد ويلسلي الذي كان في نفس الوقت مشغولا بقمع حركة تيبو سلطان في جنوب الهند ومواجهة الأفغانيين على الحدود الشمالية الغربية للهند وحصار الفرنسيين في جزر موريشيوس ، ولم تكن في منطقة الهند الشرقية أى سفينة يمكن أن تقوم بأعمال المراقبة لأى تحرك قد يقوم به نابليون من مصر ، وكان الاميرال بيتر رينز القائد العام للقوات البريطانية في الهند الشرقية يشرف على مراقبة تحركات تيبو سلطان على ساحل البنغال ، ولكي يحول بين تيبو سلطان والاتصال بالفرنسيين في جزيرة موريشيوس ، وكانت بقية قوات الاميرال رينز موزعة على امتداد السواحل الشرقية .

ولم يعلم رينز باحتلال نابليون لمصر قبل شهر نوفمبر وعندئذ فقد هرع مبحرا الى بومباي بأسرع مايسطيع وعند وصوله الى بومباي حاصرتة موجة من الاشاعات عن التحركات الفرنسية (من هذه الاشاعات أن نابليون كان

(١) من الموضوعات التى تناولتها مهمة المبعوثين كما جاء في التقرير موضوع اعادة فتح المراكز الفرنسية فى شيراز وأصفهان وبندر عباس وأنشاء مركز فرنسي فى جزيرة خرك الواقعة غير بعيد من بوشهر واحتمال عقد حلف تحت إشراف فرنسا بين تركيا وفارس ضد روسيا .

(٢) للاطلاع على تنقلات العالمين المذكورين فى العراق وفارس انظر : « فارس والخليج » ولقد عاد أوليفر بمفرده الى فرنسا عام ١٧٩٨ أما بروجي فقد توفى من الحمى وكان فى طريقه الى فرنسا .

موجودا في السويس على رأس جيش قوامه ٨٠ ألف رجل على أهبة الزحف ، ولكنه لم يأبه بتلك الاشاعات كثيرا فقد كان يعرف أن نابليون لم يكن يمتلك السفن الكافية للزحف عن طريق البحر الأحمر . كما أن زحفه عن طريق سوريا والعراق يبدو بعيد الاحتمال . وقد رفع هارفورد جونز من بغداد تقريرا على اثر وصوله في شهر سبتمبر جاء فيه ، أن سليمان باشا قد تعهد له بمقاومة أى هجوم يقوم به الفرنسيون في اتجاه الخليج ، وكدليل على حسن نية الوالى نحو بريطانيا فقد احتجزا عنده في منزله القنصل الفرنسي روسو (١) . ولهذه الاعتبارات لم تعد مراقبة التحركات الفرنسية في الخليج ضرورية على حد تصور رينز وان كان هذا القائد مستعدا للتمشى مع رغبة السلطات الحاكمة في بمباى ، فقد وعدها بأنه في حالة وصول السفن العاملة في بحر الصين فانه سوف يقوم بارسال بعضها للخليج لكي تقوم بأعمال الرقابة والدوريات بين مسقط والبصرة (٢) .

أما موقف حاكم مسقط سلطان بن أحمد من تلك التطورات فلم يكن واضحا . ومنذ انفجار الحرب الثورية في سنة ١٧٩٣ ظل آل بوسعيد بعيدين عن التورط في أكثر الأحوال كما أنهم رفضوا السماح للأوربيين بإنشاء مراكز تجارية لهم في مسقط ، كما أنهم لم يسمحوا بأن تصبح سواحلهم منطقة للصراع ولكنهم وافقوا لحكومة بمباى على تعيين سمسار هندي لها في مسقط للإشراف على التجارة البريطانية والبريد البريطانى ، وذلك فى مقابل تنازل حكومة البنغال لمسقط عن امتياز استخراج الملح بحيث تستطيع السفن العمانية الحصول على حاجاتها من الملح من كلكتا .

وفى عام ١٧٩٦ انتشرت الاشاعات عن أن حكومة مسقط تنوى التنازل عن حيادها فى الصراع بين انجلترا وفرنسا ، وكان السبب هو تسرب معلومات

(١) فهرس الخليج مجلد ٢٣ من خطاب من جونز الى دنتش من

بغداد في ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٨ .

(٢) من خطاب مرسل من رينز الى ايهان نبين « وزير البحرية » من

بومباى في ٢ ديسمبر سنة ١٧٩٨ .

- ١٠١ -

عن تحركات للسفن البريطانية تحمل تجارا من مسقط الى جزيرة موريشيوس ، وأن الفرنسيين كانوا يزورون مسقط وهم فى طريقهم الى فارس والشرق (١) ، ولم تتحسن الأحوال من وجهة النظر البريطانية باشتراك تجار مسقط فى نشاط تجارى ناجح عن طريق تصريف السلع البريطانية وبيع السفن المصادرة من جانب الفرنسيين ، كما أن مفعول الحصار البريطانى لجزر موريشيوس لم يؤد الغرض منه بسبب تزايد التبادل التجارى بين مسقط وجزيرة موريشيوس .

وبنهاية عام ١٧٩٦ أوفد حاكم بومباى جو ناثان دنكن أحد المسؤولين الى مسقط ليتأكد عما اذا كان هناك فرنسيون فى مسقط ، وليطلب من حاكم مسقط سلطان ابن أحمد ايضاح موقفه من كل من شركة الهند الشرقية والفرنسيين ، وقد كان رد حاكم مسقط على جانب كبير من الأهمية حيث ذكر فى رسالته (أنه منذ الزمن القديم فان أواصر الصداقة والمودة ظلت قائمة بين حكومتينا ، وانه بحول الله مادام هناك نفس فى الجسم ، فان جنة الحب والتفاهم سوف تبقى يانعة الثمار ، يرويهاماء المحبة والاخلاص ولهذه الأسباب فان أصدقاء الشركة الموقرة هم أصدقائى وأعداءها هم أعدائى (٢)) .

وقد بهرت دنكان فصاحة خطاب السلطان ، ولذلك قرر ألا يثير الموضوع مرة أخرى الى أن وصل نابليون الى مصر مما أضفى على مسألة موقف السلطان أهمية جديدة وخطيرة . وقد كانت مسقط بالنظر الى موقعها ووجود أنسب مرفأ فيها تشكل موقعا ملائما لبونابرت للانطلاق منه اذا ما فكر فى الزحف على الهند . وعلى هذا الأساس فقد أصدر دنكان تعليماته فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ الى مهدي على خان ، وهو المواطن الفارسى الذى كان يعمل فى شركة الهند الشرقية منذ زمن طويل والذى كان قد عين قبل ذلك بوقت قصير فى منصب المقيم البريطانى فى بوشهر ، بالتوجه الى مسقط فى طريقه لاستلام

-
- (١) للاطلاع على حقيقة العلاقات بين فرنسا ومسقط فى تلك الحقبة يراجع كتاب ايه أوزوس (١٩٠٩) من ص ٥١٨ - ٥٤٠ .
- (٢) وثائق حكومة بومباى حول أول اتصال بين شركة الهند الشرقية والخليج - مضمون خطاب من سلطان بن أحمد الى دنكان .

- ١٠٢ -

منصبه ، ولكي يتأكد من السلطان عما اذا كان على استعداد لإبعاد الفرنسيين والهولنديين من بلاده خلال فترة الحرب ، وما اذا كان يسمح لشركة الهند الشرقية بأن تقيم مركزا لها في مسقط . وقد سمع بأن السلطان قد عين طبيبا فرنسيا خاصا له فان صحت تلك الاشاعة فان عليه أن يطلب من السلطان فصل الطبيب الفرنسي من العمل ويعين طبيبا من بومباي ليحل محله (١) . وقد وصل مهدى على الى مسقط في الأسبوع الأول من أكتوبر ، وبعد مباحثات استغرقت بضعة أيام نجح في اقناع السلطان سلطان بن أحمد بالتوقيع على اتفاقية مكتوبة في يوم ١٢ أكتوبر ، تعهد السلطان في البند الثاني منها : أن كل صديق للسرکار (أى الحكومة البريطانية) هو صديق له والعكس بالعكس وبالمثل فان عدو السرکار هو بالتالى عدو للسلطان والعكس بالعكس (٢) وفي البند الثالث من الاتفاقية ، تعهد السلطان ألا يسمح للفرنسيين أو الهولنديين (٣) بإنشاء مركز تجارى لهم في أراضيه وألا يكون لهم موطىء قدم في أى جزء من دولته . غير أن هذا الحظر كما ورد في البند التالى من الاتفاقية لم يكن يسرى على السفن الفرنسية التى تزور مسقط ، اما في حالة نشوب قتال بين السفن الفرنسية والسفن البريطانية في مياه مسقط فقد تعهد السلطان بالوقوف الى جانب البريطانيين ، وعلى أى حال فانه لم يطلب من السلطان بأن يلتزم بالاشتراك الفعلى في القتال خارج المياه الاقليمية ولكن السلطان رفض أن يمنح حق اقامة مركز تجارى لبريطانيا في مسقط بحجة أن ذلك سيثير عداة الفرنسيين له كما سيؤدى الى الاضرار بمركز مسقط التجارى ، وانه قد يسمح بفتح مثل هذا المركز اذا تعهدت له الشركة بحماية اسطول مسقط التجارى من اعتداءات الفرنسيين .

ومن ناحية اخرى فقد أعرب السلطان عن رغبته في السماح للشركة باعادة

-
- (١) وثائق حكومة بومباي حول أول اتصال بين شركة الهند الشرقية والخليج مضمون خطاب من دنكان الى مهدى على خان .
 (٢) معاهدات اعداد اتشيسون .
 (٣) نفس المصدر .

فتح مركزها السابق في بندر عباس التي كانت حتى ذلك الوقت خاضعة له رغم انه قد رفض طلبا للفرنسيين والهولنديين^(١) ومقابل هذه التنازلات وضع السلطان سلطان بن أحمد شرطين ، أولهما أن على الشركة أن تتعهد بتوفير الخشب والماء مجانا لسفنه في موانئ بومباي وكلكتا بنفس الطريقة التي يوفرها السلطان لسفن الشركة في بلاده ، أما الشرط الثاني فهو زيادة كمية الملح التي تحصل عليها سفن السلطان بين كلكتا من ١٠٠٠ الى ٥٠٠٠ من^(٢) . ولم تحاول السلطات البريطانية في الهند مرة أخرى خلال الفترة الباقية من عام ١٧٩٨ م أن تعزز من وجودها في الخليج أو على اقطاره الساحلية وفضلت التريث لترى ما الذي سيفعله نابليون وفي نهاية ديسمبر زار نابليون السويس وأصدر أمرا للبدء في انشاء أسطول ، وكانت المساعدة التي يمكن أن تقدمها له الحامية الصغيرة في جوز موريشيوس ضئيلة جدا فقد كانت اثنتان من بوارج حاكم الجزيرة في المياه الشرقية ، والثالثة في خليج البنغال ، وهي السفينة التي تمت مصادرتها فيما بعد . وفي يناير سنة ١٧٩٩ وجه بونايرت خطابين الى سلطان بن أحمد وتيبو سلطان يبلغهما بأن أى سفن تصل الى السويس من بلديهما سوف تلقى كل تسهيل ومساعدة ، كما وعد لاخير بتقديم المساعدة اليه في صراعه ضد البريطانيين^(٣) ولكن عملاء الشركة تمكنوا من

(١) نفس المصدر والواقع ان الشركة كانت بالفعل تتمتع بهذا الحق وذلك بموجب سلسلة من الفرمانات التي صدرت عن ملوك فارس بالتعاقد على امتداد الـ ١٥٠ عاما السابقة بحيث تجيز للشركة أن تحتفظ بمركز لها في بندر عباس وبالتالي فقد كان من المشكوك فيه فيما اذا كان استيلاء مسقط على بندر عباس وما تبعه من استئجار للميناء من حكومة فارس قد أبطل ذلك الحق .

(٢) وثائق حكومة بومباي اول اتصال لشركة الهند الشرقية بالخليج مضمون خطاب من مهدي على خان الى دنكان في ١٤ أكتوبر ١٧٩٨ .

(٣) مضمون خطاب بونايرت الى سلطان بن أحمد وقد ورد في مؤلف السير رجلاند كوبلان وعنوانه « افريقيا الشرقية وغزواتها طبعة اكسفورد »

مصادرة الخطابين في موكا وأرسلوهما الى بومباي مما جدد الشكوك حول انتهاك سلطان بن أحمد للاتفاقية التي وقعها مع البريطانيين ، كما علم بأن السلطان لا يزال يستخدم الفرنسيين في بلاطه ، وانه كان يتبادل الرسائل مع تيبو سلطان عن طريق المعتمد السياسي لميسور في مسقط . كما كان ممثله في زنجبار يظهر موقفا معاديا من الكومندور جون بلانكت قائد الوحدة البحرية المرسل من إنجلترا في شهر يوليو سنة ١٧٩٨ أثناء زيارة القائد لزنجبار ، وفي شهر فبراير سنة ١٧٩٩ عندما كان في طريقه الى البحر الأحمر ، وفي ابريل اكتشفت مؤامرة في البنغال اشترك فيها صهر نابليون للاتاحة بالحكم البريطاني بمساندة من حاكم أفغانستان زمان شاه ، كما تبين أن عددا من الشخصيات البارزة في مسقط من بينهما والي نفسه كان لها ضلع في الرسائل المتبادلة والتي تم الاستيلاء عليها . وفي الشهر التالي وصل الى الهند خطاب من السيد سلطان يعرب فيه عن تمسكه بصداقته لبريطانيا . غير أن البريطانيين لم يأخذوا مضمون الخطاب مأخذ الجد وقرروا وضع رقابة دقيقة على مسقط وحاكمها في ذلك الوقت (١) ، على أن التهديد الذي كان يشكله الجيش الفرنسي بدا يتلاشى في اواخر ربيع سنة ١٧٩٩ ، وفي الثاني من يناير من نفس العام وقعت معاهدة تحالف بين بريطانيا والباب العالي تقوم على اساس اقضاء الفرنسيين من مصر ، وفي شهر مارس توقف زحف قوات نابليون على سوريا امام قلعة عكا حيث استطاعت القلعة مقاومة الهجوم طوال مدة الحصار الذي كان مفروضا عليها ، وفي ٢١ مايو اضطر نابليون الى رفع الحصار والتراجع والعودة الى مصر كما اخذ يتلاشى احتمال قيامه بزحف على الهند عن طريق العراق او البحر الأحمر ، فقد كان بلانكت يسيطر على البحر الأحمر بالسفن الخمسة التي كان يقودها سيطرة كاملة ، كما فرض حصارا محكما على السويس والقصر كما أغلق مضيق باب المندب في شهر مايو بعد احتلال جزيرة ويلسلي وأن يتخلص من تيبو سلطان عن طريق الاستيلاء على سوينجا باتام ، وقد قتل تيبو سلطان في هذه المعركة

(١) « فارس والخليج » مجلد ٢١ مضمون رسالة من دتكان الى

رينز في ٨ مايو سنة ١٧٩٩ .

وبالقضاء على تيبو سلطان وتحطم الهجوم الفرنسى على سوريا اصبح ويلسلى
فى موقف يسمح له بتوجيه اهتمامه للخطر الاهم وهو زمان شاه حاكم
افغانستان .

استطاع زمان شاه فيما بين سنة ١٧٩٢ ، ١٧٩٧ أن ينقض ثلاث مرات
على المنطقة الشمالية من الهند وخلال فترتين من تلك الحملات استطاع أن يعبر
نهر الاندس ويحتاح البنغال ، وفى خريف سنة ١٧٩٨ عاد يهدد البنغال من جديد
انطلاقا من قاعدته المتقدمة فى بشاور ، وكان مفتاح وضع حد لتهديدات زمان
شاه يوجد فى فارس ، فقد كان بابا خان أو فتح على شاه الذى اصبح فيما بعد
حاكما جديدا للقباجار تراوده الاطماع فى توسيع منطقة نفوذه نحو خراسان كما
كان يسعى الى أن يسترد من زمان شاه المناطق التى كانت فى حوزة الصفويين
سابقا ، وكان يبدو انه لو أمكن تقديم مساعدات مغرية اليه فان ذلك قد يؤدى
الى حدوث انشقاقات فى افغانستان الغربية مما يرغم زمان شاه على التخلص
من غزوه للهند . وكان رأى ويلسلى ، أن هذه المحاولة قد تسهم أيضا فى حمل
الشاه على مقاومة المحاولات التى كان يقوم بها الفرنسيون لكسب الفرس .
وبناء على تعليمات من ويلسلى أجرى مهدى على خان اتصالا بالشاه فى نهاية
١٧٩٨ غير أن عبارات التهجم على زمان شاه والأمر الذى أصدره شاه فارس
بالقبض على أى مواطن فرنسى يتواجد على الساحل الفارسى للخليج قد غيرت
تلك الاتصالات ولم تنم عن أى شىء .

وكنتيجة لوصول معلومات فى صيف ١٧٩٩ بأن زمان شاه ينوى القيام
بهجوم جديد على البنجاب اقتنع ويلسلى بأن ارسال وفد كامل الى بلاط فارس
اصبح أمرا ضروريا . وفى شهر أغسطس اختار ويلسلى الكابتن جون مالكولم
مساعد المقيم البريطانى فى حيدر اباد لهذه المهمة ، وكان مالكولم فى ذلك الوقت
فى الثلاثين من عمره ، وقد جاء الى الهند كجندى تحت التمرين فى جيش
الشركة ، وكان عمره اذ ذاك أربعة عشر عاما وقد شهد عمليات حربية فى ميسور
فى سنة ١٧٩٠ ، وفى عام ١٧٩٨ نقلت خدماته الى السلك السياسى حيث عين
فى حيدر اباد ، وحتى ذلك الوقت لم تظهر أى دلائل على نبوغه غير العادى ،

- ١٠٦ -

وكل ماكان معروفا عنه انه شجاع وعنيف وطموح مما جعله يحظى باهتمام الحاكم العام وتقديره ، وقد تلقى مالكولم التعليمات الخاصة بمهمته في ١٠ أكتوبر ١٧٩٩ ، وكان الهدف الرئيسى من مهمته هو أن يحول بين زمان شاه وغزو الهند أما الهدف الثانى لمهمته فهو الحصول على تعاون من فتح على شاه على مقاومة أى محاولات يقوم بها الفرنسيون للوصول الى الهند عن طريق فارس. او الخليج الفارسى(١) .

وقد فوض مالكولم بعقد اتفاقية مع حاكم فارس يتعهد فيها بهذين المطلبين فى مقابل أن تتعهد بريطانيا بدفع معونة مالية سنوية له فى حدود ٤٠٠.٠٠٠ روية (أى مايعادل ٤٠.٠٠٠ ج س) طوال سريان فترة المعاهدة ، وهى ثلاث سنوات مع احتمال تجديدها ، أما بالنسبة للفرنسيين فان ويلسلى لم يزود مالكولم بتعليمات محددة وانما ترك له حرية اختيار اسلوب اقناع الشاه بقطع علاقاته بالفرنسيين فيما اذا حاول الفرنسيون التوغل الى آسيا فسوف يقدم الأسطول. البريطانى مساندة للشاه . واذا ازاد الشاه الاشتراك فى القتال ضد فرنسا فان الحكومة البريطانية سوف تتعهد له بدفع معونة مالية شهرية مقابل ذلك . كما اوضح ويلسلى لمالكولم بأن يوجه نظر الشاه الى الفوائد التى سوف تتمخض عن قيام تبادل تجارى متحرر ومفتوح بين فارس والهند ، فاذا ماوافق الشاه على هذا الراى فيمكن لمالكولم ان يوقع على معاهدة تجارية دائمة مع فارس لا تنتهى الا بانتهاء المعاهدة السياسية كما كلف بزيارة مسقط وهو فى طريقه الى فارس ليحث السلطان على الالتزام باتفاقية سنة ١٧٩٨ ، كما عهد اليه بمحاولة انهاء خلافات السلطان مع سليمان باشا حاكم بغداد، لأن الخلاف المذكور كان يسبب احراجا لحكومة الهند البريطانية نظرا لوجود تحالف بين بريطانيا والباب العالى ، ونظرا لأن الخلاف كان قد نشأ كما يقول السلطان

(١) ان مدى الأهمية التى تظهر كان يعلقها ويلسلى على مهمة مبعوثكم من الحيز الذى افرد لكل من هذه التعليمات فالتعليمات الخاصة بزمان شاه استوفت نحو ثمانى صفحات بينما التعليمات الخاصة بالفرنسيين لم تزد عن صفحة واحدة .

عن امتناع الباشا من دفع المخصصات السنوية التي سبق أن دفعها من عشرين عاما نيابة عن السلطان العثماني للامام أحمد بن سعيد مقابل المساعدة التي قدمتها مسقط للأتراك أثناء حصار الفرس للبصرة ، أما سليمان باشا فكان يتهم السيد سلطان بن أحمد بأنه قد أساء الى التسهيلات الممنوحة له في البصرة ، وأيا كانت صحة هذه الاتهامات فقد طلب من مالکولم بأن يوجه نظر السلطان الى أن سلوكه هذا يتناقض مع روح الاتفاق الذي ينص بأن أصدقاء إحدى الدولتين هم أصدقاء الدولة الأخرى (١) .

وقد وصل مالکولم بومباي في نهاية العام ، وكان مدير الجمارك والمحاسب العام قد أعد له تقريراً عن الوضع التجاري ، واقترح فيه بأن تستمر تجارة الهند مع فارس كما كانت في أيدي رجال الأعمال من القطاع الخاص ، وفيما يختص بتجارة الشركة فان التقرير لم يطالب بامتيازات خاصة لها كما اقترح التقرير ان يتقدم مالکولم باقتراح الى الشاه، وهو الاقتراح الذي سبق أن تقدم به مهدي من قبل ، ومؤداه أن تطلب الشركة منحها إحدى الجزر القريبة من الساحل الفارسي لاقامة المركز التجاري عليها بحيث يمكن تحويل ذلك المركز في المستقبل الى منطقة تجارية حرة للخليج (٢) . وفي ٢٩ ديسمبر غادر مالکولم

(١) رسائل ويلسلي مجلد ٨٢ - ٩٠ اعداد الكولونيل ويليام كرك باتريك (سكرتير الحاكم العام) الى مالکولم وفورت ويليام ١٠ اكتوبر ١٧٩٩ اما بالنسبة للنزاع بين سلطان مسقط وسليمان باشا فيمكن الاطلاع على وثائق حكومة بومباي بشأن أول اتصال بين شركة الهند الشرقية والخليج مضمون خطاب موجه من مانستي المقيم البريطاني في بوشهر الى المجلس الوزاري في حكومة بومباي بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٧٩٨ و ١٠ اكتوبر و ٢٧ نوفمبر ١٨٩٩ وكذلك « فارس والخليج » مجلد ٢١ مضمون خطاب من مجلس وزراء بومباي الى مالکولم بتاريخ ٢ ديسمبر ١٧٩٩ والمجلد الثالث والعشرين مضمون رسالة من جونز الى مجلس وزراء حكومة بومباي والمرسل من بغداد بتاريخ ٢٣ ابريل ١٨٠٠ .

(٢) وثائق حكومة بومباي حول اتصال لشركة الهند الشرقية بالخليج مضمون خطاب مرسل من مستر فوسد الى دنكان بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٧٩٩ .

بومباى على الطراد انتربيد ، ووصل الى مسقط بعد عشرة ايام ، وكان السيد سلطان حاكم مسقط متغيبا عن البلاد فى جولة بحرية على احدى الفرقاطات لمطاردة بعض القراصنة فى مياه الخليج ، ولقد لحق به مالكولم ، وفى يوم ١٧ يناير التقى بالسلطان بالقرب من جزيرة هنجام ، وقد عقد مالكولم مباحثات طويلة مع السيد سلطان تركزت حول حجم القوات البريطانية فى الهند التى عززت بعد هزيمة سلطان ، وقد أعرب السلطان فى رده عن عميق مشاعر الصداقة نحو البريطانيين ، وقد قدم مالكولم الى السلطان الجراح ارشيلد بوجال من العاملين فى حكومة بومباى ، وطلب منه ان يوافق على تعيينه كوكيل للشركة فى مسقط ، وكان السلطان قد سبق أن عارض اقتراح جوناثان دى كان فى عام ١٧٩٨ بتزويده بجراح ، ولكنه وافق فى هذه المرة على تعيين بوجال كطبيب خاص له فى مسقط .

وقد تأكدت هذه الموافقة بعقد اتفاقية بين الطرفين وقع عليها فى ١٨ يناير ١٨٠٠م وكانت تعزيرا للاتفاق السابق المعقود فى سنة ١٧٩٨ (١) ، وقد اضطر مالكولم الى البقاء فى بوشهر أربعة أشهر فى انتظار مبعوث الشاه ليصحبه الى بلاط صاحب الجلالة الامبراطور ، وخلال هذه الفترة أجرى مالكولم بعض التحريات عن الأوضاع السياسية والاقتصادية فى فارس كانت نتيجةها اقتناع مالكولم بأنه لم تعد هناك جدوى من عقد اتفاقية جديدة بين الشركة وحكومة فارس ، وقد رأى مالكولم أنه من الأفضل أن يظل التبادل التجارى بين الشركة وفارس فى يد القطاع الخاص من التجار وأن يتم الحصول على احدى الجزر القريبة من فارس لإنشاء المركز التجارى للشركة ، وكان رأى مالكولم هذا يقوم على اعتبارات سياسية أكثر منها تجارية . وقد كشفت الحملة الفرنسية على مصر عن مواطن الضعف فى الامبراطورية العثمانية كما جعلت تحرك الفرنسيين الى الهند عن طريق الاقاليم العثمانية أمرا محتملا ، كما كان هناك احتمال تحرك

(١) « فارس والخليج » مجلد ٢٢ مضمون خطاب من مالكولم لويلسلى من بوشهر بتاريخ اول فبراير ١٨٠٠ وقد أعيد نشر هذه الاتفاقية فى « كتاب المعاهدات » اعداد ايشون مجلد ١١ ص ٥٥ - ٥٦ .

روسيا من حدودها الجنوبية من بحر قزوين ، وبالتالي فان حصول بريطانيا على جزيرة في فارس سوف يساعد الى حد ما على مواجهة الخطرين من الجهتين، كما يمكن أن تصبح هذه الجزيرة ملجأ للتجار الفرس والأتراك الذين يبحثون عن منطقة مأمونة يزاولون فيها أعمالهم التجارية، أما اذا تأزمت العلاقات بين الحكومة البريطانية والباب العالي فان ذلك سيؤدي الى خلع باشا بغداد ، وبالتالي سيكون وجود هذا الموقع الحصين في يد بريطانيا في صالح الخليج ، أما الجزر الأخرى الواقعة في الخليج فلم تكن تصلح في رأى مالكولم أن تكون قاعدة ، فجزيرة خرك التي كانت مركزا تجاريا للهولنديين سابقا لا تصلح لهذا الغرض ، لأن مرفأها غير حصين كما أنها ليست في موقع يسمح بالاشراف منه على التجارة بين الهند وفارس ، كما أنها لم تكن تصلح كممنطقة حرة لأنه لا توجد رحلات بينها وبين البصرة (١) ، وكان مالكولم يفضل جزيرة قشم الواقعة عند مدخل الخليج، فلو أمكن تطوير تلك المنطقة فانها قد تجتذب على حد رأيه نصف التجارة العابرة الى مسقط ، ويمكن أن يقوم بالاشراف عليها مقيم سياسى بشرط الا يسمح له بالاشتراك في التجارة وأن توضع تحت اشرافه قسوة مكونة من خمسمائة جندي وطرادين لحماية المنشآت التجارية في الجزيرة ، ويمكن توفير نفقات صيانة الجزيرة عن طريق فرض رسم قدره ٣٪ على جميع الواردات ، كما أن مالكولم لم يكن يتوقع أى صعوبة في الحصول على تلك الجزيرة من شاه فارس (٢) .

(١) وثائق حكومة بومباي حول اول اتصال لشركة الهند الشرقية بالخليج الفارسي مضمون رسالة من مالكولم لويلسلى من بوشهر بتاريخ ٢٦ فبراير ١٨٠٠ .

(٢) على الرغم من أن الامبراطور لا يمارس أى سلطة فعلية على أى من الجزر الواقعة في الخليج الا أن جميع الجزر الواقعة على الشاطئ الشمالى تعتبر جزءا من الامبراطورية وبالتالي فان تقديم طلب اليه لمنح بريطانيا هذه الجزر يعتبر الخطوة الأولى نحو تنفيذ هذه الخطة . . وكان يمكن الحصول على موافقة الشاه بسهولة لأن الجزر فى وضعها ذلك لم تكن ذات أهمية للحكومة . (نفس المصدر) راجع أيضا « فارس والخليج » مجلد ٢٢ مضمون رسالة من مالكولم لويلسلى « من بوشهر فى ٢٢ ابريل و ٥ مايو ١٨٠٠

ولم يتمكن مالكولم من مغادرة بوشهر قبل مايو أن يصل الى طهران قبل نوفمبر ، وكانت رحلته الى العاصمة الفارسية فريدة ، فالى جانب الحاشية التى أحاطت به والمكونة من الأوربيين الستة الرسميين فقد رافقه حرس مكون من مائة جندي وجمع من الخدم والاتباع وبعض المرافقين من الفرس ، وكان الموكب مهيبا ، ويتكون من الجياد والرجال ، ويضم مالا يقل عن ٥٠٠ شخص . وكان مالكولم مقتنعا بأن نجاحه فى تلك المهمة يعتمد على ماسيتركه من انطباع عن مركز وقوة الشركة وعن نفسه كممثل لها لدى الشاه ، وانطلاقا من هذا الاعتبار كان يوزع الهدايا بصورة لا نظير لها ، كما اصر على أن تقام له مراسم الاستقبال بما يتناسب مع مركزه لأنه كان يعتقد بأن البروتوكول وما يتبعه من احتفالات وحفاوة يشكل أهمية بالغة فى نظر الفرس، وكان أسلوب رحلته يورطه فى نزاعات طويلة مع السلطات المحلية وهو فى طريقه الى الشاه غير أنه كان يبرر تلك الحوادث وتجاوزاته فى الإنفاق ، على ماقرره له ويسلى من اعتمادات ، بالأهمية التى كان ينظر بها الشاه الى مهمته ، وقد قال مالكولم فى رسالة بعث بها الى الحاكم العام ، ان الأوامر التى أصدرها الشاه بحسن معاملتى لا تترك أى مجال للشك فى رغبته فى تدعيم عرى الصداقة مع الحكومة البريطانية كما قال « ان الشاه لم يكن موجها بالدوافع السياسية وحدها فى اعطاء ذلك المظهر وتلك الأهمية للزيارة ، فقد كان الشاه يعتقد بأن الزيارة والصورة التى تمت بها قد تمت فى فترة حساسة لا من حيث ولاء رعاياه له فحسب بل ومن حيث دعم هيئته بين خصومه» (١) وكان من المشكوك فيه أن يكون الشاه فعلا قد نظر الى زيارة مالكولم من تلك الزاوية فهو لم يكن يرغب فى مقابلته لأنه فى نظره لم يكن أكثر من مبعوث لشركة تجارية ، غير أن مالكولم ربما تأثر من جو الاستقبال الذى استقبل به فى أصفهان حيث اصطف نحو ١٠ آلاف فارس لتحيته ، وفى طهران حيث رافقه حرس مكون من ١٢٠٠ خيال من بلاط الشاه عند دخوله اليها، وفى يوم ١٦ نوفمبر استقبله الامبراطور الذى كان يتربع على

(١) « فارس والخليج » مجلد ٢٢ من مضمون رسالة من مالكولم

الى ويسلى من شيراز بتاريخ ٦ يونيه ١٨٠٠ .

عرش الطاوس وهو يرتدى حلة رسمية مطرزة بقطع الجواهر الثمينة التي قدر مالكولم قيمتها بحوالي مليون من الجنيهات الاسترلينية ، وفي مقابلته الثانية للامبراطور بعد أحد عشر يوما من المقابلة الأولى قدم مالكولم للامبراطور هدايا الحاكم العام للهند ، وكانت تتألف من ماسة كبيرة وساعات مرصعة بالأحجار وعلب فضية وزهنية ومرايا وشالات وبنادق ومسدسات كانت محلاة بالذهب والفضة .

وقد بدأ مالكولم مفاوضاته مع كبار الوزراء حاجي ابراهيم خان ومرزا شفيق بعد بضعة أيام من وصوله الى طهران ، وقد وقعت تغييرات هامة منذ أن غادر مالكولم الهند بحث انقضى المضمون السياسى لمهمته ، فلقد أخذ حكم سلطان زمان شاه يتدهور في أفغانستان، وأصبح من المتوقع أن يخلعه منافسوه عن الحكم في أية لحظة ، كما أصيب الفرنسيون في مصر بالضعف ، ثم سرعان ما تمكنت القوة البريطانية التي أرسلت الى مصر من تمزيق شمل ذلك الجيش، وبالنظر الى تلك التطورات فقد قرر مالكولم بأن يركز على الناحية التجارية من مهمته واستطاع بسهولة أن يستعيد للشركة امتيازاتها السابقة بالإضافة الى امتيازات أخرى ، ولكنه عندما طلب من الحكومة الفارسية التخلي عن جزيرتي قشم وهنجام وفق التعليمات الجديدة التي وصلته من ويلسلي اعترضته المشاكل ، فقد كان الوزراء الفرس يعارضون بشدة التخلي عن أية اراض فارسية على أساس أن التنازل عن إحدى الجزر للشركة سوف يتبعه تنازل عن اراض فارسية أخرى حتى يتم الاستيلاء على كل فارس ، وذلك وفقا لخطة التوسع البريطاني ، وقد فشل مالكولم في ازالة هذا الانطباع من ذهن الشاه ووزرائه رغم المحاولات التي بذلها لاقتناعهم ، وبالتالي صرف النظر عن هذا الموضوع وتحول النقاش الى موضوع ابرام المعاهدة السياسية مع فارس . وقد وجد مالكولم لدى الشاه ووزرائه استعدادا للتعاون ضد أطماع زمان شاه ، وبذلك تم الاتفاق على صيغة الاتفاقية التي تعهد الشاه بموجبها بالزحف على أفغانستان بقوات مدربة على حرب الجبال فيما لو حاول الحاكم الأفغانى شن هجوم على الهند البريطانية ، وبالمقابل تعهد مالكولم بالنيابة عن حكومته بتقديم

المساعدات العسكرية الى الشاه فيما لو تعرضت بلاده لغزو من افغانستان . ولم يرد فى تلك المعاهدة اى ذكر لتقديم معونة مالية بعد ان رأى مالكولم اثناء المفاوضات ان الظروف لم تعد تستدعى الاشارة الى الموضوع .
وأما فيما يختص بالفرنسيين فقد وضح مالكولم للشاه بأن مصلحته مرتبطة بمصلحة الملوك الآخرين فى مقاومة النظام الجمهورى والثورى للحكم الفرنسى ، وسواء اقتنع الشاه بذلك الرأى أو لم يقتنع فقد وافق على التعاون مع الاسطول البريطانى فى مقاومته الفرنسيين فيما لو حاولوا الهجوم على الخليج ، كما وافق على اصدار فرمان يحظر على الفرنسيين الدخول الى المنطقة الساحلية من الخليج بحجة أنهم قد يعرضون حياتهم للخطر ، وقد تعهدت الحكومة البريطانية من جانبها بتزويد الشاه بالمساعدات العسكرية فيما لوهاجم الفرنسيون بلاده . كذلك لم يشر مالكولم الى اى نوع من المساعدات المالية لحكومة الشاه (١) .

لقد تم التوقيع على المعاهدات السياسية والتجارية بتاريخ ٢٨ يناير ١٨٠١ وبعدها مباشرة سافر مالكولم، وقد خرج من بلاط الشاه بانطباع، هو أن الامبراطور الفارسى كان يخشى التهديدات الروسية على حدوده الشمالية أكثر من أكثر من اى شىء آخر ، فقد ضاعت منطقة جورجيا من فارس على اثر الغزو الروسى لها فى عام ١٧٩٦ ، وقد توقف الزحف الروسى فى الأراضى الفارسية بسبب وفاة الامبراطورة كاترين فى شهر نوفمبر من ذلك العام، الأمر الذى أدى الى ايقاف تقدم الحملة الروسية . ولم تؤد محاولات الشاه لاستعادة جورجيا الى اى نتيجة ، وظل فى خوف دائم من تكرار الحملات الروسية فى بلاده . وكان أكثر مازعج مالكولم هو خوفه من أن يؤدى التقدم الروسى فى آسيا الى تهديد الوجود البريطانى فى الهند فى يوم من الأيام (٢) .

(١) المعاهدات اعداد اتيشيسون مجلد ١٠ ص ٣٧ - ٤٥ بالنسبة لمفاوضات مالكولم فى طهران راجع تقريره فى « فارس والخليج الفارسى » المجلد الثانى والعشرين .

(٢) راجع « فارس والخليج » مجلد ٢٨ من رسالة من مالكولم الى ارنل أوف الجن (سفير بريطانيا) لدى القسطنطينية بتاريخ ٢٣ مارس ١٨٠١ .

وقد وصل مالكولم الى الهند في منتصف عام ١٨٠١م أى بعد ١٨ شهرا على خروجه من بومباى ، ولقد لقي الأسلوب الذى أدى مالكولم به مهمته تأييدا تاما من ويلسلى رغم أنه انحرف عن التعليمات التى أعطيت له ، وعلى الأخص بالنسبة للمعاهدة السياسية التى لم تحدد لها المدة التى اشترطها ويلسلى وهى ثلاث سنوات والموقف الشديد العداء الذى اتخذته مالكولم من فرنسا . وقد انتقد الحاكم العام النفقات الباهظة التى تكلفتها المهمة وإن كانت المكاسب التى حققها قد غطت على ذلك (١) . فقد أسفرت المهمة عن إقامة علاقة حميدة ووطيدة مع حكومة فارس ، كما حصلت بريطانيا على امتيازات لها أهميتها فى الاتفاقية التجارية التى تخول لها استخدامات غير محدودة للموانئ الفارسية والاشراف التام على الساحل الفارسى (٢) .

وعلى أى حال فلم يكن فى الامكان التفاوضى عن النتائج التى تمخضت عنها المهمة ، فبالنسبة للمعاهدة السياسية فإن المعاهدة جاءت متأخرة لأن زمان شاه لم يعد يشكل أى خطر على الوجود البريطانى فى الهند ، وأما عن التهديد الفرنسى للوجود البريطانى فإن ذلك التهديد قد زال منذ وقت طويل . ولعل مالكولم قد شعر بذلك اذ لم تتضمن الاتفاقية أى معونات مالية للشاه . وأما المعاهدة التجارية فإنها لم تأت بامتيازات لم تكن موجودة من قبل ، على أن مهمة مالكولم قد تركت سابقة فى الاسراف والتبذير ظلت ماثرة انتقادات لازمة لعدة سنوات ، ولعل أقسى حكم على تلك المعاهدة هو رأى هنرى رولنسون الذى قال فيما بعد « بأن المعاهدة لم تكن سليمة من حيث المضمون السياسى ، كما أنها لم

(١) أما النفقات والتكاليف التى تكبدتها الحكومة البريطانية فمن الصعب اعطاء تقدير لها وإن كان الرقم التقديرى المتداول لتلك المبالغ هو مليون روبية هندية أى مايعادل (مائة ألف جنيه استرلىنى) .

(٢) مختارات من الارشالية معاهدات وغيرها من الوثائق الخاصة بالمراكز ويلسلى اعداد اس . ح أوجن - اكسفورد ١٨٧٧ ص ٦٠٧ الى ٦١٠ من رسالة موجهة من ويلسلى الى سكرتارية اللجنة بتاريخ ١٨٠١/٩/٢٨ .
(م ٨ - بريطانيا والخليج)

تكن ضرورية وكانت حافلة بالعواقب الوخيمة لأنها بنيت على أساس خطر وهمي لا وجود له « كما أنها تتضمن حولا مبالغيا فيها أو على الأقل أسلوبا عنيفا لمعالجة المشكلات المطروحة كما كانت أسلوبا انتحاريا لتعريض امبراطوريتنا للخطر ، وبالتالي فإن المعاهدة على هذه الاعتبارات انما تشجع العدوان أكثر مما تمنعه ، ولقد كانت المعاهدة بادرة سيئة بالنسبة للتعامل مع حكومة فارس وبدأت علاقتنا السياسية معها بهذا الأسلوب ، كما كانت نذيرا لأن تصبح الامبراطورية الفارسية كبش الفداء للسياسة البريطانية (١) .

انتهى الاحتلال الفرنسي لمصر في يونيو سنة ١٨٠١ عندما احتلت القاهرة قوة عسكرية بريطانية تقدمت من الاسكندرية ، بينما استولت قوة أخرى وصلت من الهند على منطقة القصر والسويس ثم أخذت تتقدم على طول ضفة النيل . وفي مارس من ذلك العام وقعت معاهدة السلام بين إنجلترا وفرنسا في امينير ، ولكنه كان سلاما قصيرا ، فقد نشبت الحرب من جديد بينهما في شهر مايو ١٨٠٥ مما أرغم الحكومة البريطانية على أن تبحث مرة أخرى عن سبل لحماية ممتلكات شركتها في الهند ، وقد تركز اهتمام بريطانيا خلال السنوات القليلة التي تلت ذلك وبوجه عام كما كان الحال قبل عام ١٧٩٨ على المناطق التي تعتبر أخطر مواقع الصراع خلال الثورة والحروب النابليونية ونعني به المحيط الهندي والأرخبيل الشرقي . وكان احتمال وجود تهديد من الشمال الغربي

(١) إنجلترا وفرنسا في الشرق طبعة لندن ١٨٧٥ ص ١٠ كذلك انتقد رولنسون بشدة الأوامر المتشددة التي أصدرها الشاه الى حكام الولايات في فارس وخوزستان والتي تنص على « انه اذا حاول أحد الفرنسيين المروء بموانيكم وحدودكم أو أراد الإقامة على الشواطئ الفارسية أو حدودها فينبغي عليكم اتخاذ الاجراءات اللازمة لابعاده أو اعدامه وبأن لا تتركوا لأى فرنسى مجالا للتواجد في أى منطقة في مملكتنا وانكم مفوضون تفويضا كاملا لاذلالهم والقضاء عليهم (كتاب المعاهدات) اعداد ايتشيسون المجلد العاشر ص ٣٧ ترجمة للفرمان الذي أصدره فتح على شاه بتاريخ ١٢ شعبان ١٢١٥ . وعلى أية حال فلا بد من التسليم لميول الفرس الى المغالة والشطط .

عن طريق فارس والخليج احتمالا ضئيلا وبالتالي لم تبذل أى محاولة للحفاظ على العلاقات التى أنشأها مالكولم مع فارس ، بل ان حكومة البنغال لم تفكر قط فى التصديق على المعاهدات التى عقدها مالكولم مع الشاه . وقد وضعت نهاية مفاجئة لبعثة الشاه فى عام ١٨٠٢ التى حضرت للتصديق على المعاهدات ، وذلك بسبب مقتل السفير على اثر مشاجرة بين خدمه وحرس الحكومة فى بومباي (١) . ولقد وجه الحاكم العام فى سنة ١٨٠٤ خطاب اعتذار الى حكومة طهرن حمله صمويل مانستى المقيم البريطانى للشركة فى البصرة الذى بذل مجهودا ليضفى على مهمته طابعا سياسيا ، ولكن الحاكم العام سرعان ما استدعاه للعودة بسبب ذلك (٢) . ولم يتم تبادل المراسلات مع الشاه بعد ذلك لفترة من الوقت . وكان من الممكن ان ينصرف البريطانيون عن شئون الخليج لولا أن الفرنسيين جددوا من نشاطهم فى مسقط خلال النصف الأخير من عام ١٨٠٣ ، ففى مستهل ذلك العام أبحر أسطول مكون من سبع قطع ، تحمل ٢٠ لاف جندي من ميناء بوست متوجها الى جزر موريشيوس بقيادة الجنرال دنكان الحاكم الجديد للجزيرة والقائد العام الفرنسى فى الشرق .

-
- (١) لقد أنهى هذا الحادث خدمة مهدي على خان لدى شركة الهند الشرقية فقد قام المذكور بعد علمه بموت السفير بتوجيه رسالة الى بلاط الامبراطور تتضمن نصا غير صحيح عن الحادث ولهذا فقد فصل من عمله كمقيم فى بوشهر ثم اعتكف فى شهر ابريل ١٨٠٣ . وبعد عام واحد وافته المنية ولكن موته اثار أسف دنكان وغيره من رجال حكومة بومباي الذين قاموا بالترتيبات لدفنه فى النجف . وكان مهدي على خان يطارده سوء الطالع حتى آخر لحظة من حياته فالسفينة التى كانت تحمل جثمانه استولت عليها سفينة القرصنة الفرنسية لافورتشيون وذلك فى شهر سبتمبر عام ١٨٠٤ وقد علم دنكان فيما بعد ان قبطان المركب الفرنسى المسلح قد وارى جثمانه فى البحر رسميا .
- (٢) للاطلاع على تقرير مانسى عن مهمته (راجع) « فارس والخليج » مجلد ٢٤ وعلى الاخص خطاباته فى ٢١ فبراير ، ٣ ، ٣١ مارس ، ٢٨ ابريل ، ١٢ يونيو و ٦ ، ١٨ ، ٣١ يوليو ، ٨ نوفمبر ، ١٨٠٤ .

وقد زود دنكان بتعليمات للقيام بمحاولات جادة لدعم السيطرة الفرنسية في المياه الشرقية ، وكانت مسقط إحدى النقاط الرئيسية التي شملت مهمته . وبعد شهر من وصوله الى جزر موريشيوس اى في اغسطس ١٨٥٣ أوفد وكيلاً له يدعى دى كافيناك الى مسقط مزوداً بالأوامر اللازمة لاقناع سلطان بن أحمد بقبوله ممثلاً لفرنسا وكمبعوث مقيم فيها ، وقد وصل دى كافيناك الى مسقط في شهر أكتوبر ليجد السلطان خارج العاصمة في جولة داخلية ، كما كان الكابتن ديفيد سيتون الممثل المقيم لشركة الهند الشرقية - الذي تولى الوكالة بعد وفاة بوجل في عام ١٨٠١ في جولة بحرية في منطقة الخليج هو الآخر . وقد لمس كافيناك أن أغلبية وجهاء البلاد كانوا يرغبون في تجديد الصلات مع فرنسا غير أن السيد سلطان بعد رجوعه من الداخلية رفض قبوله كممثل مقيم لفرنسا على أساس أن ذلك سيشكل انتهاكاً لاتفاقية عام ١٧٩٨ مع بريطانيا (١) .

وعلى الرغم من أن موقف سلطان بن أحمد كان ودياً تجاه بريطانيا إلا أنه لم يتخذ ذلك الموقف بدافع الحرص على صداقته مع بريطانيا فقط ، فقد كانت هناك اعتبارات أخرى ، فقد أخذ الوهابيون يشنون هجمات على حدوده من المنطقة الوسطى للجزيرة العربية في الوقت الذي كان يحارب القراصنة القواسم وعتوب البحرين في البحر ، وكانت القوة الوحيدة التي يمكن أن تقدم له المساعدة ضد خصومه هي حكومة الهند البريطانية ، ولهذا لم يكن مستعداً للتضحية بالمساعدات البريطانية لقاء التودد للفرنسيين كما كانت تجارة مسقط مرتبطة بالهند . خصوصاً وأن دنكان كان قد هدده في نفس ذلك الشهر بأنه فيما لو سمح للفرنسيين بموطئ قدم في مسقط وتحت أية شروط وبأي أسلوب فسوف يتم قطع العلاقات معه .

على أن فشل مهمة دى كافيناك لم يمنع الفرنسيين من استخدام مسقط

(١) ملخص للمخابرات المتداولة حول شئون الخليج (١٨٠ - ١٨٥٣ ص ٢٩ من مضمون رسالة من دنكان الى سلطان بن أحمد بتاريخ ١٨٠٣/١٠/٢١ .

كمحطة لتموين أعمال القرصنة التي كانوا يقومون بها والمقاصة لفنائم الحرب فقد كانت السفينة الحربية لافوريتون (٢١ مدفا) تجوب مياه الخليج من سبتمبر الى نوفمبر قبل أن تدمرها مدفعية البارجة البريطانية كونكورد في نهاية شهر نوفمبر (١) وفي أوائل السنة الجديدة اشتبك الطراد تيموث في معركة غير متكافئة مع إحدى سفن القرصنة الفرنسية مجهولة الاسم عند مدخل الخليج، وعلى الرغم من أن استخدام الفرنسيين لمسقط كان يضايق حكومة بومباي إلا أن اتفاقية ١٧٩٨ لم تكن تتضمن أى حظر على السفن الفرنسية من ارتياد مياهاها للتموين . وكان سلطان بن أحمد قد ألح إلى ذلك في شهر مايو ١٨٠٠ عندما كان يزوره أحد المسؤولين من حكومة بومباي ، كما أضاف إلى أنه لم يكن يفسر البند الثاني من الاتفاقية، والتي تنص على أن أعداء الدولتين المتعاقبتين هم الأعداء الأخرى، على أنها تربط الطرفين بحلف هجومي ودفاعي ، وقال أنه طالما لم يكن يسمح للفرنسيين بالإقامة فإنه يعتبر حراً في ممارسته الشؤون التجارية العادية معهم (٢) ولقد رأت حكومة بومباي أن توافق سلطان على موقفه هذا على أساس أن أعمال القرصنة التي تمارسها فرنسا في مياه الخليج لا تشكل خطورة كبيرة . كما أنه وبشكل أهم فإن التقيد بحرفية الاتفاقية قد يجر

(١) ارشيف وزارة الهند مجلد ٣ (١) من الحاكم إلى اللجنة الوزارية ١٨٠٤/١١/٩ أما قبل هذا الحادث فلم تفرق سفينة واحدة من سفن القرصنة في مياه الخليج وفي شهر أكتوبر ١٧٩٩ دارت معركة حامية بالقرب من منطقة أم القوين بين الطراد البريطاني ترنكوماي وسفينة القرصنة المسلحة الفرنسية (١٨ مدفا) وتسمى لى أنيجيني والتي أدت إلى غرق السفينتين بعد أن انفجرت عيون البارود في الطراد البريطاني .

(٢) من مضمون رسالة من جى . أ ج لوفيت إلى دنكان بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٠٠ من مسقط أعرب لوفيت عن موافقته لتفسير السلطان للبند الثاني من الاتفاقية «على الرغم من أن النصوص تحمل المعاهدة الدفاعية فإنها تصوراتها تدخل ضمن اعتبار ماورد فيها كمجرد طلب » لاعتبار عمان جزءاً من الممتلكات البريطانية وبريطانيا العظمى كجزء من عمان .

البريطانيين الى الدفاع عن مسقط ضد الفرنسيين أو الى ما هو ادهى الى الاصطدام مع الوهابيين (١) . وقد تمسك البريطانيون بهذه السياسة الى مابعد وفاة سلطان بن أحمد في نوفمبر سنة ١٨٠٤ وكان كل ماتطلبه بريطانيا من خلفه بدر بن سيف هو الالتزام بنصوص الاتفاقية ، ولم تجد بريطانيا نفسها في مواجهة مع الفرنسيين بالنسبة لعلاقتهم بمسقط الا بعد مقتل بدر بن سيف في صيف عام ١٨٠٦ . وخلف بدر ابن عمه الشاب سعيد بن سلطان وكان عمره يومئذ ستة عشر عاما ، وكان ابنا لسلطان بن أحمد الذي اعتلى عرش الحكم بعد اغتياله لبدر (٢) ، وكان وضع سعيد بن سلطان في بداية توليه الحكم دقيقا للغاية ، فلم يكن سعيد يتمتع بتأييده معظم القبائل ، كما كان الوهابيون يعيشون فسادا على حدوده الغربية والقواسم يهاجمونه من الشمال . وكانت السلطات البريطانية في الهند تنظر بغير ارتياح الى الطريقة التي تولى بها الحكم وظلوا غير معترفين به زهاء عام واحد . ومنذ وفاة سلطان بن أحمد ظلت علاقة مسقط بفرنسا فاترة ، ونظرا لحاجته الى حليف يدعم حكمه في الداخل وبعده عنه خصومه في الخارج ، فلم يكن سعيد في وضع يسمح له بمعاداة الخصمين الكبيرين في الصراع الذي كان ناشبا بينهما في المياه الشرقية . وكما كان مقدرا عليه فقد وجد نفسه بعد مضي شهر من توليه الحكم أمام خصمين هما فرنسا وانجلترا .

وفي منتصف يوليو ١٨٠٦ وصلت سفينة القرصنة الفرنسية لافيلانت الى مسقط للاصلاح والتموين قبل ابحارها الى الخليج ، ولم يمض على وجود السفينة داخل مرفأ مسقط الا قليل حتى وصلت الفرقاطة البريطانية كونكورد وقد ظهر لقبطان الفرقاطة البريطانية أن سعيد بن سلطان لم يكن يكتفى بتزويد الطراد الفرنسي بالماء والطعام والمال فقط وانما قدم له طاقما من العمال لاجراء الاصلاحات اللازمة للسفينة الفرنسية ، وبما أن قبطان الفرقاطة

(١) انظر مايلى فصل (٣) .

(٢) للاطلاع على تفاصيل عهد بدر والظروف التي أدت الى موته انظر

البريطانية قد وجد في عمل سعيد ما يتعارض مع الاتفاقية المعقودة معه فقد طلب اليه بأن يأمر الطراد الفرنسي بمغادرة المياه الإقليمية المسقطية خلال ٢٤ ساعة، وقد استجاب سعيد بتردد لطلب القبطان البريطاني وأخذت الفرقاطة تبحر غير بعيد عن الميناء . وما أن غادرت السفينة الفرنسية الميناء خلال ساعات حتى استولت عليها الفرقاطة البريطانية من غير اشتباك ، وعلى مسافة تقع بنحو ٩ أميال من مسقط . وبسبب تخوف سعيد مما قد يترتب عن الاستيلاء على السفينة الفرنسية من ردود فعل فقد بادر الى الكتابة الى دنكان في بومباي يحتج على سلوك قبطان الكونكورد ويطلب الافراج عن السفينة ، ولقد تعاطف دنكان مع موقف سعيد من القبطان ، فقد فسر الاتفاقية تفسيراً اعتباطياً لا مبرر له ، ولهذا أبلغ دنكان قاضي المحكمة البحرية في بومباي حيث كانت توجد السفينة الفرنسية ، بأن موقف الحكومة سوف يكون حرجاً اذا ما صدر الحكم بمصادرة السفينة ، وقد رفضت المحكمة أن تنقيد بالاعتبارات السياسية في نظر القضية ومن هنا اعتبرت لافيونت من غنائم الحرب .

كانت النتيجة بالنسبة لسعيد بن سلطان غير سارة . ففي خريف تلك السنة قامت الفرقاطة الفرنسية «لابومونتيه» بإيقاف سبع سفن تابعة لمسقط ومصادرة حمولاتها . وقد أبلغ قبطانها ربانة السفن العمانية أنه قد تصرف بوحى من أوامر صادرة اليه من الجنرال دنكان انتقاماً لاستيلاء البريطانيين على السفينة الفرنسية لافيولانت . وبدافع الانزعاج والخوف أوفد مبعوثاً خاصاً برسالة الى دنكان في جزيرة موريشيوس يناشده فيها إعادة السلع المصادرة . كما أوفد في الوقت نفسه مبعوثاً آخر برسالة الى دنكان في بومباي ليعاتبه فيها على ذلك التصرف ومما قاله : (وهذا هو دائماً عمل رجالكم الذين دأبوا على ايدائي والنيل من كرامتي وانتهاك حرمة أراضينا رغم ما يلقاه رجالكم من حسن المعاملة) وقد ضمن سعيد رسالته طلباً بالحماية البحرية أو إعادة السفينة الفرنسية المصادرة (١) والواقع أن سعيد كان يريد في قرارة نفسه أن يستمر

(١) مجموعة المجلس مجلد ٢٥٧ مجموعة ٥٦٥٠ من مضمون رسالة من

سعيد الى دنكان بتاريخ ٥ ذي القعدة ١٢٢١ - ١٥ يناير ١٨٠٧ .

كسمسار لتصريف الغنائم والسلع التي كانت تستولى عليها سفن القرصنة الفرنسية ، كما كان يسعى في نفس الوقت الى انشاء علاقات مع الهند البريطانية تمكنه كما كان يأمل من الحصول على مساعداتها ضد خصومه الوهابيين في شبه الجزيرة والخليج ، وكان سعيد يدرك موقفه الضعيف حين تقدم بذلك الطلب خصوصا وأنه لم يمض غير وقت قصير منذ أن انتقل الى بلده قرصان خطير هو سيد محمد عقيل الذي كان يمارس أعمال القرصنة من صلالة على الساحل الجنوبي . كما كان يقوم خلال عام ١٨٠٦ بتموين سفن القرصنة الفرنسية التي ترناد مياه البحر الأحمر . وقد علم في أوائل سنة ١٨٠٦ أن محمد عقيل كان يتفاوض مع حاكم لنجة لشراء جزيرة كمران على الساحل اليمني ، وذلك بعد أن قدم المساعدة الى ثلاثة من الضباط الفرنسيين للقيام بمسح الحديدية وكمران وقنفذة على ساحل الحجاز . ونظرا لأن حكومة بومباي قد فهمت من ذلك بأن الفرنسيين يسعون الى تحويل كمران الى قاعدة للقرصنة فقد أرسلت طرادين الى البحر الأحمر في نهاية شهر يوليو تحت امره القبطان سيستون الذي كان يعمل كضابط سياسى وذلك لتعقب عقيل واحباط خطته (١) ، ولكن عقيل هرب فيل وصول الطرادين وسافر الى مسقط . وقد وصل سيستون الى لنجة واستطاع ان يحصل على تعهد من حاكمها بعدم السماح للفرنسيين بالدخول الى الموانئ الأخرى الخاضعة له (٢) .

(١) سجلات سكرتير حكومة بومباي مجلد ٣ فقرة (١) من رسالة موجهة من مجلس الحاكم العام الى سكرتير اللجنة بتاريخ ١٠ مايو و ١١ يوليو و ١٢ أغسطس ١٨٠٦ (وكان عقيل قد استولى على سفينة أمريكية اسمها اسكى أوف سالم وذلك بغير بعيد عن جزيرة كمران وذلك في شهر فبراير وذبح جميع بحارتها) راجع المرفقات برسائل سكرتير حكومة بومباي مجلد (١) مرفق بخطاب السكرتير المؤرخ ١٠ يوليو ١٨٠٦ من سى شيران هوجى (سمسار الشركة في موكا) الى الحاكم في ١٥ يونيو ١٨٠٦ والمرفقات بخطاب السكرتير المؤرخ ١٢ أغسطس ١٨٠٦ من شارلز فوردس الى دنكان (بمباي) ١٩ يوليو سنة ١٨٠٦ .

(٢) مذكرات للخطابات السياسية لحكومة بومباي مجلد ٢ من الحاكم العام الى المحكمة ٢٥ فبراير ١٨٠٧ .

ولم يكن تصرف سعيد بن سلطان بايوائه محمد عقيل هو الذى اثار شكوك
بريطانيا بقدر ماكان عزوفها عن التورط فى شئون مسقط . وأثناء تولى السير
جورج بارلو منصب الحاكم العام مؤقتا كانت الحكومة ملتزمة التزاما تاما
بالسياسة التى كان قد وضعها مجلس ادارة شركة الهند الشرقية باستدعاء
وليسلى . وكانت بنود هذه السياسة تقوم على أساس :
١ - ضغط المصروفات .

٢ - عدم الاستحواز على أراضى الغير وعدم التورط مع الحكومات
الأخرى خارج نطاق حكومة الهند البريطانية ، وكانت حكومة بارلو قد حددت
صلاحيات ممثلى الشركة فى الخليج ضمن أطر محدودة وتجارية .

وقد تم ابلاغ حاكم بومباى فى يونيو سنة ١٨٠٦ بأن المقيم البريطانى فى
بوشهر وفق الصلاحيات المحدودة لوظيفته ، وهى صلاحيات ليست ذات طابع
سياسى ، فان مجال تدخله فى الشئون السياسية يبقى مجالا محدودا ووفق
ضرورات خاصة تبرر ذلك التدخل (١) ، وبعد شهرين من ذلك التاريخ وضع كل
من المقيم البريطانى فى بغداد والبصرة ، شأنه شأن المقيم فى بوشهر ، تحت اشراف
حكومة بومباى مباشرة . ولم يسمح للمقيمين بالتخابر مباشرة مع الحاكم
العام (٢) . وظل مكتب المقيم البريطانى فى مسقط فى بداية ١٨٠٦ شاغرا
عندما غادره المقيم فى اجازة مرضية ، وظل كذلك مما قلل من احتمال التورط
البريطانى فى مسألة الدفاع عن مسقط وغيرها من الدول الآسيوية .

فى ابريل سنة ١٨٠٧ ردت الحكومة السامية على طلب سعيد ، وقد جاء
فى الرد ، بأن الطريقة المثلى للحفاظ على مصالح مسقط هى فى اتخاذ موقف

(١) مرفقات لخطاب السكرتارية فى بومباى مجلد (١) خاص بخطاب
السكرتارية مؤرخ ١٢ أغسطس ١٨٠٦ من رسالة موجهة من ان . بى . ادمون
بيتون (سكرتير الحاكم العام) الى اف . واردن سكرتير حكومة بومباى بتاريخ
١٨٠٦/٦/١٦ .

(٢) مجموعة المذكرات السرية مجلد ٩ مجموعة (١) من رسالة موجهة من
الحاكم العام الى سكرتير اللجنة فورت ويليام بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٨٠٦ .

محاييد ، وبدلاً من أن ينحاز سعيد لبريطانيا عليه أن يسعى الى عودة علاقات الصداقة مع فرنسا . وتشجيعاً له على ذلك فقد وعدت الحكومة البريطانية بإعادة السفينة الفرنسية لافيلانت اليه^(١) ولكن هذا الرد لم يكن مرضياً لسعيد من حيث أنه يضعف علاقاته ببريطانيا، وعلى أي حال فقد كانت النتيجة أن الرد وضع نهاية لتورط مسقط في الحرب ، وفي يونيو سنة ١٨٠٧ عقد سعيد معاهدة تجارية مع دنكان ، ولم يمض وقت طويل حتى تم تعيين وكيل لفرنسا في مسقط دون أن يثير ذلك ردود فعل مضادة من جانب حكومة الهند .

على أن رغبة دنكان في استئناف علاقات الصداقة مع مسقط لم تكن بدافع الرغبة في تسوية الخلافات مع السيد سعيد أو تجار جزر موريشيوس فحسب وإنما كان هناك دافع آخر وهو رغبة فرنسا في ١٨٠٦ - ١٨٠٧ استرجاع ماضع من نفوذها في الشرق . فنانليون لم يتخل عن أحلامه في إقامة إمبراطورية شرقية ولم ينس الدروس التي تلقاها في مصر ، وبالتالي فإن أحراز أي نجاح في الشرق قد يدعم مركزه السياسي في أوروبا وكانت محاولات فرنسا استعادة نشاطها الدبلوماسي في آسيا موجهة في المقام الأول إلى تحييد روسيا في أوروبا عن طريق تحالف ثلاثي يعقد بين فرنسا وتركيا وفارس ضد الروس في آسيا ، وبأن تكون الخطوة التالية كما تصور نانليون هي الزحف على الهند بالاشتراك مع روسيا والتواطؤ مع فارس ، وكان نانليون ينظر نظرة عملية إلى أي سياسة شرقية فرنسية وما قد تنطوي عليه مثل تلك السياسة من مكاسب. وفي خطابه إلى إمبراطور فارس في شهر فبراير سنة ١٨٠٧ أشار إلى أن فارس لم تكن تشكل تهديداً عسكرياً على الهند البريطانية ، ولكنها تستطيع أن تضغط على البريطانيين بطرد التجار الإنجليز من فارس وبوقف جميع المعاملات التجارية مع الهند .

وقد كون تاليران هذا الرأي على أساس علاقته بعملاء فرنسا الذين زاروا

(١) مجموعة المجلس مجلد ٢٥٧ ومجموعة ٥٦٥ من الحاكم العام إلى مجلس حاكم بومباي فورت ويليام بتاريخ ١٨٠٧/٤/٢٣ . جميع المخابرات الخاصة بحادث السفينة لافيلانت واردة في هذه المجموعة .

فارس خلال العامين السابقين . كما قام الفرنسيون أيضا بإجراء اتصالات مع حكومة الشاه عن طريق عملائهم في سوريا ، وذلك في نهاية ١٨٠٤ لوضع خطة عمل مشتركة بين الفرنسيين والفرس ضد روسيا التي أصبحت مرة أخرى في حالة حرب مع فارس ، ولكن تلك الاتصالات لم تنجح ، ربما لأنها لم تقم على أسس واضحة ، وعندما اندلعت الحرب بين فرنسا وروسيا في العام التالي أوفد نابليون الكولونيل الكسندر روميه الى طهران ليقتراح على الشاه بأن يلغى معاهدة ١٨٠١ مع بريطانيا ويعقد حلغا مع فرنسا ضد الروس مقابل تخصيص معونة مالية له من فرنسا ، وقد يحصل على مساعدة عسكرية ، ولما كان الشاه قد سبق أن أوفد قبل ذلك مبعوثه محمد نبي خان الى الهند ليطلب مساعدة من الحكومة البريطانية في صراعه ضد روسيا فانه رفض اقتراحات روسية قبل أن يعرف رد بريطانيا على طلبه. وتشاء المصادفات أن يموت روميه بعد وصوله الى طهران في شهر أكتوبر ١٨٠٥ ، وحل محله بعد ذلك في شهر مايو اميدى جوبير الذى وجد الشاه عند وصوله أكثر استعدادا للاستماع الى مقترحاته ودراستها .

ويكمن السبب في موقف الشاه الى التقارير غير المشجعة التى وصلته من محمد نبي مبعوثه الى الهند . وكان المبعوث قد وصل الى بومباي في شهر أكتوبر ١٨٠٥ ، ووصل الى كلكتا في نهاية العام ، وهناك وعند وصوله وجد بارلو الحاكم بالنيابة غير مهتم بمشاكل فارس كما لم يكن على استعداد لاجابة مطالب الشاه والتي كانت تشمل دفع مليونى روبية كهدية عن مقتل صهره المبعوث السابق (١) وبقي محمد نبي يتلصق فى كلكتا عاما واحدا دون أن يحقق أى شيء. وفي

(١) هناك من الأسباب مايدعو الى الشك فى أن محمد نبي قد اتصل بالسفارة البريطانية بدافع الاثراء على حساب الشركة حيث أن الرحلة التى قام بها مالكولم الى فارس والطريقة البذخية التى أنفق بها هى التى دفعته الى ذلك وفى بومباي تقدم المذكور بطلبات غير معقولة فيما يتعلق بمعاملته ومن تلك الطلبات أن تصنع لخيوله أحذية من الذهب والفضة ولكن بطريقة تجعل تلك الأحذية تتساقط أثناء السير لكى تغرى المارة بتلك المظاهر .

نهاية ١٨٠٦ تلقى رسالة من الشاه محررة في مايو ، وهو نفس الشهر الذي وصل فيه جوبير الى طهران يقول له فيها : انه لن يعقد أى اتفاق مع فرنسا قبل أن يعود محمدنبى ومعه الرد النهائى من الحكومة البريطانية(١)، وقد عرض المبعوث الخطاب على بارلو الذى لم يبد أى اهتمام به ، وكان بارلو قد تلقى تقارير عن النشاط الذى كان يقوم به روميه وجوبير ، وكان يعتقد بأن تلك التقارير مبالغ فيه كثيرا(٢) ، فضلا عن ذلك فقد أصبحت روسيا الآن حليفا لانجلترا ، ولم يكن يستطيع بارلو أن يؤيد فارس ضد روسيا مالم يتلقى تعليمات واضحة من الحكومة البريطانية فى انجلترا . وقد أبلغ مضمون هذه الفكرة لمحمد نبى فى يناير ١٨٠٧ ، وذكر له بأن معاهدة ١٨٠١ كانت موجهة ضد فرنسا وليست ضد روسيا . وأن البنود التى وردت فى المعاهدة فيما يتعلق بتقديم المساعدة فى حالة نشوب الحرب كانت تنطبق على أفغانستان فقط ، ولا تنطبق على فرنسا الا فى حالة اشتراك دولة أوربية . كما لم تكن تنطبق على روسيا ، كما أوضح بارلو لمبعوث الشاه بأن فارس لاتزال ملتزمة بتلك المعاهدة والوقوف مع بريطانيا ضد فرنسا ، ولكى يضفى أهمية على هذه النقطة فقد قام بارلو بالتصديق على المعاهدات السياسية والتجارية المعقودة مع فارس ولكن هذا الاجراء لم تعد له أهمية(٣) .

ولم ينتظر الشاه عودة محمد نبى من مهمته قبل أن يتفق مع الفرنسيين

(١) من رسالة موجهة من فتح على شاه الى محمد نبى بتاريخ أول ربيع الأول ١٢٢١ مايو ١٨٠٦ .

(٢) من ارشيف لسكرتارية حكومة البنغال مجلد ٩ فقرة (١) من مضمون رسالة موجهة للحاكم العام الى سكرتير اللجنة فورت ويليام بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٨٠٦ وقد أنحى بارلو باللائمة فى المبالغات التى تضمنتها التقارير الى مرسلها وهما هارفورد جونز ببغداد وصمويل مانستى بالبصرة .

(٣) خطاب مؤرخ ١٠ يناير ١٨٠٧ من ادمون ستون الى محمد نبى . ان وولنسون وكروزن ولورمان من بين الذين أخطأوا فى القول بأن المعاهدات لم يصدق عليها .

- ١٢٥ -

وحتى قبل وصول جوبير كان الشاه قد بعث برسول الى القسطنطينية ليجس نبض السفير الفرنسى هناك حول عقد معاهدة دفاعية بين الدولتين ضد روسيا . وفى مقابل ذلك فقد كان الشاه مستعدا لأن يشارك فى أى لحظة للهجوم على الهند مع الفرنسيين الى حد أنه أبدى استعدادا للزحف بجيش على الهند عن طريق قندهار وكابل ، وأن يسمح للفرنسيين بإنشاء قاعدة لهم فى الخليج ، وقد تلقى الشاه ردا مناسبا عن طريق جوبير ، وفى نهاية عام ١٨٠٦ غادرمبعوث من الشاه متوجها الى فرنسا بصحبة جوبير للتفاوض على عقد حلف بين الدولتين .

وقد ظل كل من مجلس ادارة الشركة ومجلس الحاكم فى الهند على اطلاع مستمر بتطور العلاقات بين فرنسا وفارس ، وكان هارفورد جونز المقيم البريطانى فى بغداد هو الذى يقوم بإبلاغ السلطات البريطانية بتلك المعلومات ، ولكن السلطات فى الهند لم تهتم بالموضوع الى أن عاد جونز الى إنجلترا فى نهاية ١٨٠٦ .

وفى الأسبوع الاول من يناير ١٨٠٧ رفع جونز مذكرة الى الحاكم فى الهند يوضح فيها الأخطار التى تنجم عن الاتصالات التى كان يجريها الشاه مع فرنسا وقال فى مذكرته ، بأن فارس لن تجنى اية فائدة من تحالفها مع فرنسا لأن نابليون لا يستطيع الضغط على روسيا بالتخلي عن أطماعها فى المنطقة الشمالية من فارس ، وعلى أى حال فان حصول فرنسا على موقع فى فارس سوف يشكل من ناحية خطرا على الوضع البريطانى فى الشرق ، ولابد من بذل جهود للحيلولة دون حدوث ذلك ، وبالتالي فلا بد من إيفاد مبعوث بريطانى بسرعة الى فارس على أن يسافر عن طريق بطرسبرج بهدف اقناع قيصر روسيا بحل خلافاته مع فارس فى وجه الخطر الأكبر الذى تمثله فرنسا ، كما يتعين على المبعوث أن يتكلم باسم الإمبراطور وليس باسم الشركة كى يضيف الى مهمته ذلك ثقلا ، وسوف تتركز

(١) تعليمات المبعوث الفارسى وقد قام بترجمتها جون هاين المقيم المساعد

البريطانى فى بغداد .

- ١٢٦ -

مهمته على العمل باعادة العلاقات الودية بين انجلترا وفارس واعتبار اى اتفاقيات يكون الشاه قد عقدها مع فرنسا ملغاة (١) .

على أن مقترحات جونز لم تتضمن شيئاً لم يكن الحاكم على اطلاع به (كان جونز يحثهم على ذلك منذ أن تسلم عمله في بغداد في عام ١٧٩٨) وكان من المحتمل أن يتجاهل المجلس مذكرته لولا الاتجاهات المعاكسة التي اتخذتها الحرب مع فرنسا خلال النصف الأول من عام ١٨٠٧ ، وعلى امتداد عام ١٨٠٦ كانت الامبراطورية العثمانية تتجه نحو المعسكر الفرنسي ، وفي بداية العام الجديد تازمت العلاقات مع فرنسا بصورة واضحة . ولما كان الاتراك قد انحازوا الى جانب الروس فقد اصبحت روسيا هي الحليف الوحيد لانجلترا في الشرق ، وهكذا كانت العلاقات مع روسيا تميل الى الفتور ، وما أن حلت بداية الصيف حتى وجد البريطانيون أنفسهم أمام حلف مشترك بين الامبراطورية العثمانية والفارسية ومنحاز الى جانب روسيا التي قررت الانسحاب التدريجي لتتخذ من الصراع سياسة الحياد، وهذا مادعا جورج كاننج وزير الخارجية البريطانية الجديد الى تبني اقتراح جونز في شهر مايو بايفاد بعثة الى فارس لهذا الغرض ، وقد رشح جون مالكولم لمنصب السفير عن طريق الارل أوف منتو ، وهو الحاكم العام المرشح ، غير أن هذا الاقتراح لم يلق صدها بين مجلس الادارة لشركة الهند الشرقية الذي كان قد وافق بالفعل على أن تتحمل الشركة نفقات تلك البعثة ، والتي كانت لاتزال تتذكر في كثير من المرات حادثة البذخ التي رافقت بعثة مالكولم الى طهران ، ولهذا رشح شخص آخر من المعتدلين ، ومنح لقب بارون ، لدعم منصب السفير لدى حكومة طهران ، وفي شهر يونيو قام كاننج بوضع الصيغة المبدئية للعمليات الخاصة بالبعثة ، كما تم ابلاغ الحكومة البريطانية بقرار تعيين جونز في منصب السفير .

وبغير علم كاننج عقد نابليون معاهدة سرية مع مبعوث الشاه ميرزا محمد رضا وذلك في منطقة فننكن اشتين يوم ٤ مايو ، وفي تلك الاتفاقية ضمن

(١) « فارس والخليج » مجلد ٢٧ من مضمون مذكرة قدمها

جونز الى الحكومة البريطانية في لندن بتاريخ ٧ يناير ١٨٠٧ .

الامبراطور سيادة فلرس ، واعتبرت منطقة جورجيا جزءا من فارس ، وعمل كل مافي وسعه ليحمل روسيا على اخلاء منطقة جورجيا ، وعقد معاهدة سلام بينهما ، كما اتفق على انشاء سفارة فرنسية لدى الشاه بصفة دائمة ، وايفاد خبراء عسكريين الى فارس للمساعدة في اعادة تنظيم الجيش الفارسي على النمط الاوربي ، وفي مقابل هذه الامتيازات تعهد الشاه بحل اتفاقياته السياسية والتجارية مع بريطانيا وعلان الحرب عليها والبدء في تنفيذ الأعمال العسكرية بأسرع وقت ممكن ، كما تضمنت الاتفاقية بندا باجلاء جميع الرسميين والتجار البريطانيين المقيمين في فارس وقطع جميع العلاقات بين فارس وممتلكاتها .

وقد تضمنت المعاهدة أيضا أنه في حالة ظهور أى من الاسطول الفرنسى في مياه الخليج فعلى حكومة فارس أن تقدم له كل مساعدة يحتاج اليها ، كما كان على الشاه أن يجرى اتصالات بالولاية الافغانية لاقتناعها بالاشتراك مع فارس في تجهيز حملة عسكرية لغزو الهند كما كان عليه ان يقدم كل مساعدة ممكنة الى اى حملة فرنسية ترسلها الحكومة الفرنسية ضد البريطانيين في الهند (١) .

وقد افاض نابليون في تعليماته للجنرال كلود جاردان السفير الذى اختاره للتوجه الى فارس حول النقطة الأخيرة من الاتفاقية .

وكان المطلوب من جاردان أن يجرى تحريرات واسعة حول امكانية القيام يرحف على الهند عن طريق فارس والخليج ، وأنه اذا ماقرر ايفاد مثل هذه الحملة فانه يتعين عليها أن تنزل في الاسكندرية وتعبّر الى فارس عن طريق سوريا ، أو تبحر عن طريق رأس الرجاء وتنزل بالقرب من مدخل الخليج، وكان على جاردان أن يحدد الموانئ الفارسية التى تصلح لرسو سفن الحملة المكونة من اسطول كبير يحمل مالا يقل عن ٢٠ ألف مقاتل لتزويد القوات بحاجتها بماء فيها الماء والمؤن (٢) .

(١) مجموعة المعاهدات الفرنسية مجلد ٢٣ اعداد الاكسندر جى اتشه دى

كلرك باريس ١٨٦٤ - ١٩١٧ .

(٢) مهمة الجنرال جاردان ص ٨١ - ٩٤ من مضمون رسالة من نابليون

لجاردان بتاريخ ١٠ مايو ١٨٠٧ .

ولم يكد يمضى شهران على ارسال تلك التعليمات حتى كان نابليون قد
توصل الى اتفاهه المشهور مع القيصر (الاسكندر الاول) الذى وقع فى تلسيت ،
ر هذا الحادث وحده يكفى لالقاء ظلال من الشك على جدية نوايانابليون فى عقد معاهدة
فنكنشتين ، وربما كان الغرض منها كسب الوقت حتى يستطيع نابليون
انهاء مفاوضاته مع الاسكندر (١) . وكانت معاهدة السلم فى تلسيت هى أسوأ
نكسة سياسية تعرضت لها بريطانيا خلال الحرب ، الأمر الذى أضفى على مهمة
جونز مزيدا من الأهمية ، وذلك لأن أى محاولة بريطانية لابعاد الفرنسيين عن
فارس قد أفلتت الى الأبد بعد تحالف فرنسا مع روسيا . وكان لابد من تحقيق
هدف أكثر صعوبة ، ألا وهو الحيلولة دون قيام حلف ثلاثى بين فرنسا وروسيا
وفارس يستهدف الهند ، وكان يتعين على جونز أن يثير مع الشاه كل
حساسياته ضد روسيا وأن يوضح له بأن الصداقة الفرنسية الروسية الجديدة
سوف تعرض فارس لخطر أشد . وفى يوم ٢٨ أغسطس أصدر كاننج تعليماته
النهائية لجونز ، ومؤداها ، أن يحصل جونز على تعهد من الشاه بالالتزام
بمعاهدات عام ١٨٠١ وإذا تعذر ذلك فعليه أن يقنعه بالوقوف على الحياد فى
الصراع القائم بين فرنسا وانجلترا ، فإذا ما أظهر الشاه رغبة فى قطع صلاته
بفرنسا - وكان كاننج حتى ذلك الوقت يجهل أمر معاهدة فنكنشتين ، فقد
فوض جونز بأن يتعهد للشاه بمدته بالسلاح والمال والخبراء العسكريين بالإضافة
الى دعم الأسطول البريطانى له فى الخليج مقابل « اتفاقيات مفتوحة » وعلى أن
يتعهد بالوقوف الى جانب بريطانيا فى حالة تعرض الهند البريطانية لغزو من
أى دولة أوربية - فرنسا أو روسيا - ولما كانت الحرب فى ذلك الوقت قد
نشبت بين انجلترا والامبراطورية العثمانية فقد كان يتعين على جونز أن يجس
باشا بغداد حول استعداداه لعقد حلف مع بريطانيا مقابل التعهد له بمساعدته

(١) تضمنت التعليمات التى أرسلت الى جاردان مايشير الى أن عقد
تحالف رسمى بين تركيا وفارس ضد فرنسا لم يعد أمرا مرغوبا فيه وكل ماكان
مطلوبا هو القيام بعمل مركز ضد روسيا فقط (نفس المصدر) وكان تاليران هو
أحد المعارضين لتلك الاتفاقية على طول الخط وقد أوضح تلك النقطة لجاردان .

ضد أى هجوم يقع عليه سواء جاء هذا الهجوم من جانب الأقطاعيين الفرس أو من الفرنسيين أو من الفرس أنفسهم . أما إذا لم يظهر الشاه استعداداً لتعقد مثل هذا التحالف فلا بد من استخدام الضغط عليه باثارة القبائل ضده داخل البلاد، كذلك إذا رفض باشا بغداد التعاون فيمكن التجوز الاتصال بأمر الوهابيين سعود بن عبد العزيز الذى كان فى ذلك الوقت سيد الموقف فى شبه الجزيرة العربية للحصول على تعاون منه ضد أى هجوم تقوم به فرنسا عن طريق البحر الأبيض المتوسط (١) .

وقد وصلت المعلومات السرية عن اتفاقية السلام الموقعة فى تلسيت الى الهند فى نهاية سبتمبر . وفيما كان يبدو تراجعاً عن السياسة الخارجية السابقة منذ استدعاء ويلسلى فقد بعثت اللجنة السرية لمجلس ادارة الشركة بتعليمات الى الحاكم العام للتخابر مع الأقطار الواقعة بين الهند وفارس لتوجيه نظرهم الى الخطر الذى أصبحوا يتعرضون له والسعى الى اقامة تعاون معهم لصد أى هجوم فرنسى أو فرنسى روسى مشترك ضد الهند . كما أبلغ المقيم بأن التعزيزات الحربية ستكون على استعداد لارسالها الى الهند والشرق الأدنى إذا لاح خطر هجوم يدبر ضد الهند . كذلك تضمنت الخطة اثارة القبائل الجنوبية ضد الشاه كما تضمنت أيضاً توجيه تحذير الى حكومة الشاه بأن العلاقات سوف تتدهور حتى ولو لم يقع الهجوم ، وتحذير آخر عن نية بريطانيا فى تحريض الوهابيين الذين كانوا على عدااء مع الأتراك والفرس على السواء .

(١) رسالة من كاننج الى جونز بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٨٠٧ راجع أيضاً رسالة اردندس الى جونز بمجلس الشركة بتاريخ ١٨٠٧/٩/٨ (وقد خلف روبرت دندس أبا كرئيس لمجلس الحاكم فى الوزارة الجديدة) وكان كاننج سبق أن رفض مشروعاً كان قد تقدم به جونز بخلع الشاه عن العرش وتنصيب أمير من أسرة الزندالسابقة، راجع أيضاً رسالة كاننج لجونز بتاريخ ٢ يونيو ورسالة أخرى بتاريخ ٢١ أغسطس ١٨٠٧ (رقم ١ و ٢) وأيضاً رسالة دندس لكاننج بتاريخ ١٨٠٧/٨/٢٠ كذلك راجع مسودات المجلس السرية مجلد (٣) وهى صيغة رسالة أعدت للحاكم العام بتاريخ ١ يونيو ١٨٠٧ تحت رقم ٢٨ .

(م ٩ : بريطانيا والخليج)

ولقد تلقت السلطات في الهند معلومات من فارس عن احتمال وقوع بعض الاضطرابات فيها ، وقد ظل المقيم البريطاني في بوشهر يزود الحكومة بتقارير منظمة عن نية الشاه في تسليم ميناء بندر عباس الى الفرنسيين الذين سيحولونه الى قاعدة فرنسية لترسل اليها الامدادات جزر موريشيوس الفرنسية . وبمجرد وصول ذلك التقرير قام جوناثان دنكان غلى الفور باصدار أوامره للقائد العام للأسطول في الهند الشرقية الفيلد أدميرال سيراوارد بيلو بارسال بارجة الى الخليج . ولكن بيلو رد عليه يقول : بأنه لا يستطيع ارسال البارجة وأن الخطة الفرنسية كانت في نظره مجرد محاولة (لاثارة المشاكل) ، وقد وصله طلب مماثل من الحاكم العام الجديد للهند مينتو بعد وصوله الى الهند مباشرة ، وكان مينتو قلقا من بعض التقارير التي كانت قد وصلت اليه من المقيم البريطاني في بوشهر بأن الشاه ينوى تسليم جزيرتي خرك وهرمز الى الفرنسيين بالإضافة الى بندر عباس ، وفي منتصف أكتوبر وافق بيلو على تغيير الفرقاطة فوكس بفرقاطة أخرى ، اسمها بت ، وبأن يجهز الطراد البيون (٧٤) مدفعا للسفر الى بومباي مزودا بتعليمات الى قائدها بادخال الفرقاطات الثلاث التي تحت امرته الى حوض بناء السفن لاجراء بعض الاصلاحات عليها حتى تكون مستعدة للعمل اذا ما استدعت الظروف (١) .

وعلى الرغم من الحلف المعقود بين فرنسا وتركيا فقد وجد القلق في الاوساط المسئولة في كلكتا حول احتمال قيام الفرنسيين بنشاط في الجزيرة العربية ، وقد رأى والى بغداد على باشا بأن لا يشجع اتباعه بالانضمام الى المعسكر الفرنسى . وانما على العكس فقد أبدى كثيرا من الاستعداد ل اظهار صداقته نحو البريطانيين فطلب الى كل من المقيم البريطاني في البصرة وبغداد بالبقاء بمنصبهما ، وقد رأت حكومة الهند بأنه طالما بقى على باشا على موقفه هذا تجاه بريطانيا ان تتجنب أى خطوة من شأنها ان تدفع بالعراق الى منطقة الصراع .

(١) من سجلات الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلد (٢) خطاب الحاكم بتاريخ ١٨٠٧/٨/٣١ وخطاب رقم ١٧٩/١ من بيلو الى ويليام مرسدن سكرتير الاميرالية البحرية وكلودن ومدراس بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٨٠٧ بالمرفقات .

وعلى أى حال فإن ظهر تغيير فى موقف الشاه من هذا الموضوع فسوف تنظر الحكومة البريطانية فيما اذا كانت نفقات تجهيز حملة عسكرية لارغام الشاه على تغيير موقفه توازى الفوائد التى سوف تجنيها بريطانيا من وراء تلك اللعبة ، ولما كانت سلطة الباب العالى على الحكم فى العراق أصبحت ضعيفة فإن أى هجوم تقوم به بريطانيا على العراق لن يؤثر على الباب العالى، وبالتالى فإنه من مصلحة بريطانيا أن يبقى العراق كما هو ممرا لنقل البريد وغيره من البضائع (١) .

هذه هى الاستنتاجات التى توصلت اليها الحكومة قبيل وصول منو الى الهند ، وعلى أى حال فإن هذه الاستنتاجات تختلف عن مقترحات جون مالكولم التى حاول فرضها على الحاكم العام بعد وصوله الى الهند مباشرة . وعلى الرغم من أن الحرب بين الباب العالى وانجلترا لم تكن قد نشبت حتى ذلك الوقت ، كما كان الاعتقاد سائدا فى الهند ، فلقد كان مالكولم يعتقد بأن الحرب لابد أن تنشب ، الأمر الذى يستدعى حصول بريطانيا على موطئ قدم فى العراق يمكنها من احباط أى محاولة للهجوم على الهند من جانب أى دولة فى اوربا ، وقد جاء فى خطاب مالكولم الى سكرتير الحاكم العام ، بأن فارس وتركيا مازالتا تعتبران منطقتين فاصلتين بين الهند والدول العربية ، وأن القضاء على استقلال أى منهما من قبل أى دولة معادية سيعرض الهند للخطر من جانب تلك الدولة ، ومن هنا فإن سياسة الحكومة البريطانية فى مساعدة تلك الدولتين وتأييدهما لها وخلق دول أخرى مؤيدة لسياسة بريطانيا ودعمهما يعتبر جزءا من هذه السياسة (٢) ، وكان مالكولم يرى بأنه من الممكن فصل العراق عن تركيا وانشاء دولة مستقلة منها بشرط أن تضمن الحكومة البريطانية استقلال تلك الدولة من أى عدوان خارجي، كما تضمنت رسالة مالكولم نقطة استراتيجية

-
- (١) من سجلات سكرتارية حكومة البنغال مجلد ١٠ من مضمون رسالة من مجلس الحاكم العام الى سكرتير اللجنة فورت ويليام بتاريخ ١٢/٦/١٨٠٧ .
- (٢) مذكرات متفرقة للحكومة البريطانية مجلد ٧٢٧ من مضمون رسالة من مالكولم الى آدمون ستون ميسور ١٢/٨/١٨٠٧ .

هامية بالنسبة للعراق ، فقد اقترح فيها أن تقوم الحكومة البريطانية بتحويل منطقة القرنة الواقعة على دلتا النهرين الى قاعدة بريطانية ومراقبة قوة عسكرية فيها بصفة دائمة . وحذر مالكولم من أن ضياع العراق من الامبراطورية العثمانية سوف يعجل بسقوطها ، الأمر الذي ستفيد منه روسيا ، وأن روسيا ، وليس فرنسا ، هي التي تشكل الخطر الأكبر على الحكم البريطانى فى الهند ، غير أن مالكولم عاد وأكد أنه لم يكن فى وسع بريطانيا أن تعمل أى شىء لانقاذ الامبراطورية العثمانية من الانهيار (١) ، وفى الوقت الذى كان مالكولم يعرب عن آرائه كانت الأحداث فى العراق تضيف وزنا جديدا على مقترحاته ، فقد أقتيل على باشا فى أغسطس ١٨٠٧ ، وفى الصراع الذى أعقب مقتله بدا أن السلطة سوف تنتقل الى شخصية موالية لتركيا . وفى نهاية العام تقريبا ظهر سليمان باشا الصغير ، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع أن يقيم علاقات ودية مع السلطات البريطانية فى الهند . وبعد أن هدا القلق لدى الحاكم العام منتو بالنسبة لتركيا العربية ، ان لم يكن قد زال ، فقد وجد نفسه فى وضع يسمح له بالتركيز على الأمور الأكثر أهمية داخل فارس .

اما الجنرال جاردان فقد وصل طهران يوم ٤ ديسمبر ١٨٠٧ ، وكانت المهمة الموكولة اليه هى حمل الشاه على الالتزام بتنفيذ معاهدة فرنكشتين ، ولكن هذه المهمة لم تكن سهلة بعد توقيع معاهدة السلم فى تليسييت ، ولكن ربما انه اعتمد فى اقناع الشاه على احتمال استرجاعه لمقاطعة جوريا عن طريق الوساطة الفرنسية بدلا من الأسلحة الفرنسية ، وكان نابليون يتصور أن معاهدة السلم التى عقدت مع روسيا قد خلقت ظروفا ملائمة للمضى فى خططه الخاصة بالتوسع فى الشرق بدلا من سياسة الالتزام لفارس بمساعيدها دبلوماسيا وعسكريا ضد الروس ، واذا ما قدر للمفاوضات التى سيجريها جاردان مع الشاه أن تنجح فان قيام عمل مشترك بين فارس وفرنسا وروسيا للهجوم على الهند سوف يغدو بعيد الاحتمال .

وبعد وصوله بقليل غادر الجنرال جاردان فارس ممتعضا من الشكوك التى

(١) نفس المصدر .

— ٢٣٣ —

أبداهما الشاه حول اصدار بيان يقول فيه ، انه الى ان يتم تطبيق البند الرابع من المعاهدة التى تلزم نابليون أن يبذل أقصى الجهود لاستعادة المقاطعة الفرنسية وعقد معاهدة سلام تضع حدا للقتال الدائر فى شمال فارس فان الشاه سوف يكون غير ملزم بالشروط المتعلقة بالحرب ضد البريطانيين فى الهند (١) .

لقد تم وضع صيغة اتفاقية تسمح باقامة مراكز تجارية فرنسية فى بندر عباس وتسليم جزيرتى خرك وهرمز للفرنسيين ، وتم تفويض رجال الجنرال جاردان للقيام بمعاينة الجزر للتأكد من تحصيناتها (٢) .

ولقد تسربت أخبار هذه الصفقة عن طريق بوشهر فى الأسابيع الأولى من عام ١٨٠٨ كما بعث المقيم البريطانى بتقارير عنها (٣) . وقد عم الذعر فى الأوساط السياسية فى بومباى فى يناير ١٨٠٨ عندما أشيع بأن وحدات من الجيش الفرنسى المرابطة فى هولندا بقيادة الجنرال منون قد سحبت ، وقد فوض منون بالسفر الى حمص واللاذقية عن طريق تركيا ومنها الى فارس . والأدهى وصول تقرير عن تحرك قطع بحرية من الأسطول الفرنسى مكونة من سفينتى امداد ونحو أربع الى ست فرقاطات تحمل مئات من الجنود من الأروشفورت متجهة الى الشرق ، وذلك فى شهر يونيو ، وأن القرصان الدائع الصيت روبرت سركوف قد غادر هو الآخر على سفينة القرصنة فى طريقه الى الهند الشرقية ، وقيل يومئذ بأن وجهة الأسطول الفرنسى هى الخليج حيث سيتولى الاشراف على الجزر التى حصل عليها الجنرال جاردان .

وقد تسبب هذا الخبر فى سرعة تجهيز ثلاث فرقاطات كانت فى أحواض

(١) للاطلاع على نص البيان المشار اليه راجع فارس والخليج مجلد ٢٦ من مضمون رسالة من اتشو جونز الى آر. دندس من طهران بتاريخ مارس ١٨٠٩ (رقم ٣) ومرفق معه تصريح جاردان المؤرخ ١٧ ديسمبر ١٨٠٧ .
(٢) فارس والخليج مجلد ٢٩ مضمون رسالة من مالكولم الى منون شهر يونيه ١٨٠٨ .

(٣) معظم هذه المعلومات وصلت الى الهند عن طريق نجل الشاه حسين على ميرزا الأمير والحاكم فى فارس والذي كان يكنى العداء للفرنسيين .

بناء السفن في بومباي ، وبنهاية يناير كانت تلك الفرقاطات جاهزة للإبحار ، وفي يوم ٤ فبراير أبحرت من بومباي الى الخليج وحدة من الاسطول تحت قيادة الكابتن جوفريز، وكانت تتألف من الطراد البيون ، والفرقاطات فيتون ، ودي ودنتيس ، والطراد رويال جورج (٥٠ مدفعا) والطرادين مورننج تون ، وترنيت وعلى ظهر هذه القطع الفا رجل من الفرقة الخامسة والستين ، وستون من رجال المدفعية ، بالإضافة الى الكابتن دافيد ستون المقيم البريطاني السابق في مسقط ، الذي زود بتعليمات لاعادة فتح الوكالة، وقد عزز فريز هذه الاجراءات باصدار أوامر للطراد « رسل » والطراد « سانت فيورنزو » اللذين كان يتوقع وصولهما الى بومباي بعد قليل لكي يلحقا بالكابتن ستون مافي (١) ، وكان منتو يعتقد أن الاجراءات البحرية وحدها لم تكن تكفي لوقف نشاطات جاردان في طهران ، كما رأى أنه لابد من ايفاد بعثات الى افغانستان والسند والبنجاب ، وذلك قبل أن يتسلم التعليقات التي صدرت اليه من مجلس الادارة في الهند بتاريخ سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، وكان يعتقد أيضا أن الوضع في فارس كما تقرر في شهر يناير سنة ١٨٠٨ لا يحتمل الانتظار حتى وصول هارفرد جونز ، وأنه لابد من اتخاذ اجراء فوري . وكان مالكولم يحث منتو على اتخاذ مثل ذلك الاجراء على مدى الشهرين السابقين ، وكان يصر على أن توضح الحكومة البريطانية للشاه ، بأنها لن تصبر أكثر مما صبرت على استمرار المؤامرات الفرنسية في فارس ، وإذا كان ثمن الحصول على موافقة الشاه لابعاد الجنرال جاردان من فارس هو انحيال بريطانيا الى جانب فارس فانه ثمن لابد من دفعه، كما لا ينبغي أن يؤثر مثل هذا القرار ، كما اشار مالكولم، على الاعتقاد باحتمال

(١) من سجلات الوثائق السياسية بومباي مجلد/٢ من مضمون رسالة من الحاكم العام الى مجلس ادارة الشركة بتاريخ ٢٠ فبراير ١٨٠٨ ومجموعة وثائق مجلس الادارة مجلد ٢٥٨ مجموعة ٥٦٥٥ من مضمون رسالة من ويليام نيوهام (سكرتير الدولة) الى فريز بتاريخ ٢٥ يناير ١٨٠٨ ورسالة من فريز الى دنكان بتاريخ ٢٦ يناير ١٨٠٨ . ومنذ مغادرته مسقط كان ستون مشغولا بمهامه السياسية في كتش والبحر الاحمر .

تحول روسيا الى الخصم الاكبر لانجلترا في آسيا ، فاذا مارفض الشاه قطع صلاته بالفرنسيين فلا بد من عملية استعراض للقوة ، كما يتعين على بريطانيا أن تغلق مركزها في بوشهر ، وأن تقوم بإنشاء قاعدة لها في الخليج وأن توقف جميع المعاملات التجارية مع فارس (١) . . .

وقد أيد منتو هذا الرأي وقام بإيفاد بعثة الى الخليج للاتصال بحكومات فارس وتركيا العربية ، وذلك بواجهة دبلوماسية تخفى وراءها زناد البنادق البريطانية (٢) . واختار مالكولم قائدا لتلك الحملة رماه الى رتبة برجينير جنرال ، ويوم ٣٠ يناير ١٨٠٨ صدرت اليه التعليمات وزود بصلاحيات تخوله التصرف في الشؤون السياسية وغيرها من المصالح البريطانية في منطقتي فارس والجزيرة العربية ، وعلى أن الصلاحيات الممنوحة للمراكز البريطانية في بغداد والبصرة وبوشهر بالنسبة للشؤون السياسية ووضعها تحت سلطته المباشرة (٣) . كما أعطيت له صلاحية الإشراف على طرادات بحرية بومباي العاملة في الخليج ، وكان ينبغي على مالكولم بموجب تلك الصلاحيات أن يضع حدا للتغلغل الفرنسي نحو الهند ، وأن يعمل على قطع علاقات فرنسا والغلاء أحلافها بجميع دول المنطقة وأن يقدم من الاقتراحات ما يراه مناسباً بما يمكن بريطانيا من اتخاذ الخطوات السلمية أو العسكرية لتحقيق الأهداف البريطانية في تلك المنطقة (٤) . بعد بضعة أسابيع على سفر مالكولم كلفه منتو ضمن تعليمات جديدة أرسلها اليه بالتحري عن تطور علاقات فرنسا بفارس ،

-
- (١) حياة ورسائل السير جون مالكولم وأعداد السير جى. دبليو. كيه مجلد ٢ طبعة لندن ١٨٥٦ من مضمون رسالة من مالكولم الى منتو من ميسور بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٨٠٧ .
- (٢) نفس المصدر .
- (٣) فارس والخليج مجلد ٢٨ من مضمون رسالة من منتو الى مالكولم بتاريخ ٣٠ يناير ١٨٠٨ .
- (٤) نفس المصدر كما أيضا راجع الرسالة الخاصة من منتو الى مالكولم بتاريخ ٣١ يناير كما وردت في كتاب كيه .

وفي ظروف الحرب بين فرنسا وبريطانيا وميل إلى ما حققته المحاولات الفرنسية في تحقيق اطماعها في الهند . فان تبين له بأن موقف الفرس من الفرنسيين قد اصاب بالفقر يبادر منتو الى ارسال حملة الى الخليج لتتعاون مع الفرس ضد الفرنسيين . اما اذا تبين أن الفرس يميلون الى اتخاذ موقف الحياد فان الحملة سوف تخدم غرضا مزدوجا من حيث أنها ستؤدي الى تأكيد الوجود البريطاني في منطقة الخليج . وكان يتعين على مالكولم بأن يقدم رأيه عن حجم قوة تلك الحملة وتكوينها . غير أن منتولفت نظر مالكولم الى نقطة هامة ، وهى أن يقوم بجمع معلومات أكيدة عن هذه المسألة، كما طلب منه ألا يتخذ أى إجراء قبل وصول تعليمات واضحة اليه من حكومة الهند ، التى قال منتو بأنها لن توافق على مثل هذه الاجراءات الا فى حالة قيام ظروف استثنائية كموضوع الدفاع عن الممتلكات البريطانية أو فى حالة لجوء الحكومة الفارسية الى انتهاك صريح للاتفاقيات المبرمة بينها وبين الحكومة البريطانية (١) وخلال المباحثات التى عهد الى مالكولم باجرائها مع الشاه عهد اليه بأن يلتزم بنصوص معاهدات ١٨٠١ التى كانت لاتزال سارية المفعول وملزمة للحكومة الفارسية . ولانجاح مهمة مالكولم أوضح منتو بأنه سوف يضى على مهمته فى فارس طابع القوة والحزم (٢) .

غادر مالكولم مدراس عن طريق البحر متجها الى بومباى يوم ١٧ فبراير، وعند وصوله اليها فى الاسبوع الاول من ابريل وجد أن القوة البحرية المعقود لوائها للكابتن فريير قد غادرت الخليج قبل ايام قليلة من وصوله بعد أن قضت شهرا هناك حيث كانت تقوم بدوريات فى مياه الخليج بين بندر عباس ومسقط، ولكنها لم تكتشف أى اثر للنشاط الفرنسى، وان كان قد قيل لفرييرو هو فى بندر عباس ، أن اثنين من الضباط الفرنسيين قد زارا الميناء فى بداية فبراير (٣) .

- (١) فارس والخليج مجلد ٢٨ من مضمون رسالة من آدمون ستون الى مالكولم وفوربت ويليام بتاريخ ٧ مارس ١٨٠٨ .
- (٢) نفس المصدر .
- (٣) وثائق حكومة بومباى السياسية الحلقة ٣٨٠ مجلد ٣، وتتضمن استشارات مؤرخة ٨ ابريل ١٨٠٨ ومضمون رسالة من الكابتن فريير الى دنكان بتاريخ ٣ ابريل ١٨٠٨ .

وقد تعرض مالكولم لتأخير دَامَ أسبوعين بينما كانت القوة المرافقة له المؤلف من ٣٠٠ جندي من الفرقة الرابعة والثمانين و ١٠٠ خيال وخمسين عسكري وقوة مدفعية قد تجمعت . وكان مالكولم يحتاج الى هذه القوة لمواجهة أى قوة فرنسية يلتقى بها فى مياه الخليج (١) . وقد حامت الشكوك على أى حال فى جدية الاسباب التى ابداهها مالكولم ، وذلك بسبب اسرعه فى مغادرة الهند يوم ١٧ ابريل الى الخليج دون أن يصحب معه القوة بكاملها ، وكان سبب اسرعه بالمغادرة ، هو علمه بأن الفرقاطة التى كانت تحت قيادة هارفرد جونز بانجلترا قد ابحرت من رأس الرجاء يوم ٢٦ يناير ، وكان متوقعا وصولها فى أى يوم .

وقد توقع منتو بأن يصل جون الى الخليج فى نفس الوقت الذى يصل فيه مالكولم ، كما ابلغ مالكولم بأنه اذا رأى بأن مهمته تتعارض مع وجود جونز فان عليه ان يتخلى عن مهمته ، وأن يقرر فيما اذا كان ينوى البقاء فى الخليج كمتعمد سياسى للحاكم العام أم لا (٢) ، وقد أسير منتو الى مالكولم بأن هدف جونز هو افساد الخطة التى وضعها (٣) . وأنه سيكون سعيدا لو تأكد بأن ابحاره الى الخليج مثل جونز كان بدافع المصلحة العامة (٤) .

وصل جونز الى بومباي يوم ٢٦ ابريل وهناك علم لأول مرة بمهمة مالكولم ، فقرر ان ينتظر عما تسفر عنه تلك المهمة قبل ان يتوجه الى فارس كما اوضح ذلك لروبرت دانتس رئيس المجلس حتى يتفادى حدوث تضارب فى السلطة امام الفرس وقال : « فاذا كان الجنرال مالكولم لم ير من المناسب ان ينتظر

(١) انظر كتاب كيه الفصل الاول ص ٤٠٩ الى ٤١١ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٢٨ من مضمون رسالة من آدمون

ستون الى مالكولم بتاريخ ٧ مارس ١٨٠٨ .

(٣) من كتاب كى مضمون رسالة من منتو الى مالكولم ٩ مارس ١٨٠٨

٤ ما فيما يتعلق بشعور مالكولم نحو مهمة جونز فيمكن الرجوع الى نفس المصدر

ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٤) فارس والخليج مجلد ٢٨ مضمون رسالة من آدمون ستون

الى مالكولم وفورت ويليام ٢١ ابريل ١٨٠٨ .

وصولى الى بومباى وهو الذى كان متوقعا فى اى لحظة فليس من المحتمل أن ينازل الى مالكولم عن أى شىء من اختصاصاته وحتى لو توجهت أنا الى فارس (١) .

كان مالكولم فى ذلك الوقت فى طريقه الى مسقط بأقصى سرعة ، وكان السيد سعيد قد سئل عن رايه فى الخطوة التى قام بها الفرس للتنازل عن بندر عباس وهرمز للفرنسيين ، وكان رده ، أنه طالما أن الميناءين تحت سلطته فانه لن يسمح للفرنسيين أو للفرس لاستعمالهما كقاعدتين ، وعند تلقى هذا الرد من السيد سعيد عهد منتو الى جوناثان دنكان بأن يستفسر من السيد سعيد عما اذا كان سيقبل مساعدة من البريطانيين لابعاد الفرنسيين عن بندر عباس ، وقد كلف دنكان مالكولم بتسليم تلك الرسالة الى السيد سعيد ، وقبل أن يفادر مالكولم بومباى أصدر منتو تعليمات محددة اليه طلب منه فيها مقابلة السيد سعيد لكى يوضح له الأسباب التى استدعت اتخاذ تلك الاحتياطات فى منطقة الخليج (٢) . وقد رست سفينة مالكولم فى خليج مسقط يوم ٣٠ ابريل ، وحضر وزير السلطان الى السفينة لمقابلة مالكولم ، وعندما قابل مالكولم السلطان سعيد أبلغه أنه على الرغم من أن الحكومة البريطانية قد سمحت له بالاحتفاظ بعلاقاته مع الفرنسيين فلا ينبغى له أن يفسر ذلك التساهل بما يرقى الى تقديم المساعدات الى الفرنسيين أو التواطؤ معهم على حساب المصالح البريطانية ، وقد أبدى الوزير دهشته من حديث مالكولم خصوصا وأن حكومة الهند قد قررت أخيرا أن تعتبر مسقط من الدول المحايدة فى الصراع الفرنسى البريطانى . غير أن مالكولم لم يقتنع بهذا الراى وقال للوزير : ربما يكون ذلك مقبولا لو أن الفرنسيين لم يصلوا الى أبواب الهند وشواطئها أو كانوا فى مناطق بعيدة عن مسقط بحيث لا يستطيع السيد سعيد مساعدتهم ، فاذا تبين أن السيد سعيد

(١) فارس والخليج مجلد ٢٥ مضمون رسالة من جونز لداندى صادرة من بومباى بتاريخ ٢٨ ابريل ١٨٠٨ كذلك راجع خطابه لمنتو بنفس التاريخ ونفس المجلد .
(٢) مجموعة وثائق حكومة البنغال مجلد ١٠ فصل واحد خطاب من الحاكم العام الى سكرتير اللجنة فورث ويليام بتاريخ ١٨٠٨/٣/٣١ .

كان متعاوناً مع الفرنسيين فان الحكومة البريطانية سوف تعتبره من الحكام المعادين لها (١) وقد اقترح وزير السيد سعيد على مالكولم بأن ينتظر حتى يصله رد السيد سعيد النهائي ، غير أن مالكولم لم يوافق على الاقتراح ، وقرر مواصلة السفر الى بوشهر . وعند هذا الحد لا يمكن اعتبار مهمة مالكولم قد انتهت أو أنه قام بتنفيذها وفقاً للتعليمات الصادرة اليه من دنكان (٢) .

وإذا كان الحاكم العام للهند يرى أن مقابلة مالكولم للسيد سعيد اجراء مرغوب فيه فقد كان ذلك جزءاً من مهمته، وكان تعليق منتو على الأسلوب الذي تصرف به مالكولم في مسقط بأنه لا يبدو أن يكون استمراراً لمواقفه السابقة من هذه القضية .

وقبل مغادرة مالكولم الهند كان منتو قد شرح له تفاصيل مهمته ، وفي يوم ١٥ ابريل تلقى منتو رسالة من مالكولم يقول فيها :

اننى مصمم على تأجيل سفرى الى فارس ريثما اتأكد من نجاح مهمتى فى الحصول على المطالب التى تقدمنا بها الى حكومة فارس (٣) .

وصل مالكولم الى بوشهر يوم ١٠ مايو ، وفي نفس اليوم نزل الى المدينة برفاقه قوة من خمسين جندياً من الفرقة الرابعة والثمانين الملكية ، وقد اثار وجود هذه القوة سكان البلاد الذين لم يسبق لهم أن رأوا جنوداً أوروبيين من قبل ، وبعد أن وصل مالكولم الى مبنى الوكالة البريطانية فى بوشهر وجه انذاراً الى مجلس وزراء الشاه ، وأرسله مع الكابتن شارلس بازلى أحد الضباط المرافقين له ، وقد اتهم مالكولم الشاه فى هذا الانذار بانتهاك معاهدة عام ١٨٠١ باستقباله بعثة فرنسية فى طهران وحذره من أنه مالم يأمر على الفور بإبعاد

(١) رسائل الخليج ١٨٠١ - ١٨٥٣ رسالة من مالكولم لمنتو مسقط

١٨٠٨/٥/١ .

(٢) الكنتس منتو اللورد منتو فى الهند/حياته ورسائله طبعة لندن ١٨٨٠

ص ١١٥ رسالة من منتو الى آدمون ستون (١٨٠٨) .

(٣) من مالكولم الى منتو بومباى فى ١٥ ابريل ١٨٠٨ تأليف كيه .

— ١٤٠ —

الجنرال جاردان وحاشيته من فارس فانه لن يحضر الى طهران ، وان الشاه مسئول عن النتائج التى سوف تترتب على ذلك ، وسوف تقطع الهند جميع علاقاتها التجارية بفارس ، وستقوم حملة بريطانية باحتلال احدى الجزر الفارسية فى الخليج ، ولم يخامر مالکولم أى شك فى ان انذاره للشاه سوف يؤدى الى الغرض المنشود ، وقد ذكر لبازلى مرة بأن ملك فارس ووزراءه سوف يرحبون بمقدمه ، ولذلك فقد أجل زيارته لبلاط الشاه حتى يستجيب لمطالبه، التى كان يعتقد بأنها مطالب تمس كرامة ومصلحة بريطانيا (١) أما بازلى فبقى فى شیراز ، وهناك عرف بأن عليه أو على مالکولم أن يقوم بالاتصال بالامير حسين على ميرزا حاكم فارس ، الذى كلفه الشاه بالفعل بالاشراف على علاقات فارس بشركة الهند الشرقية . وعندما علم مالکولم بتلك ثارت ثائرتة ، وأبلغ بازلى يوم ٩ يونيو بأن يطلب من الامير بأن يسمح لبازلى بالتوجه الى طهران خلال شهر واحد فاذا رفض فان مالکولم سينسحب من أراضي فارس ويعود، وقال لبازلى ان عودتك وخروجى الفورى الى خرك او البصرة سوف يرد هؤلاء الى صوابهم وينبههم الى الاخطار التى ينطوى عليها تصرفهم (٢)، وللمرة الثانية اخطأ مالکولم فى تقديراته فان على ميرزا لم يكثر بتهديدات بازلى الذى لم يجد مفرا من أن يفادر شیراز فى نهاية شهر يونيه ، وفى يوم ١٢ يونيه أبحر مالکولم على الفرقاطة البريطانية لوريس عالنا الى الهند . ويبدو انه لم يخطر على بال مالکولم أن فشله فى مهمته انما يعود الى الأسلوب الذى عالج به تلك المهمة . وكان منتو قد اقترح على مالکولم ألا يتعدى حديثه مع الشاه العتاب الودى وتقديم النصيح، ولو أن مالکولم تقيد بالتعليمات التى أصدرها اليه الحاكم العام لربما أسفرت مهمته عن نتائج أفضل ، وكان اصراره على الشاه بالالتزام بمعاهدة ١٨٠١ خطأ

(١) فارس والخليج المجلد ٢٥ من مالکولم لمنتو يومبىاى ١٨٠٨/٥/١٨ ومنفق معه الانذار الموجه الى مجلس وزراء الشاه ويقع الانذار فى نحو عشرين صفحة متراصة السطور من الورق الغولسكاب .
(٢) فارس والخليج مجلد ٢٥ من مالکولم الى بادلى ٩ يونيو ١٨٠٨ .

بيننا ، وقد أوضح منتو هذه الحقيقة: لما لكولم اثناء مناقشته لمهمته (ان فابريس كحكومة مستقلة لها الحق في استقبال السفراء المعتمدين من أى دولة وأن تعقد معهم أى مفاوضات تراها ضرورية لمصلحتها) .

وقد لا يمنع توقيع الشاه على المعاهدات السابقة مع بريطانيا من الاشتراك في توقيع معاهدات واتفاقات جديدة وبالتالي فلا يصح أن يعتبر استقبال الشاه للمبعوث الفرنسي ومرافقته انتهاكا لتلك المعاهدات (١) . ويرى الحاكم العام بأن مالكولم قد أخطأ حين اعتبر ابعاد جاردان ومجموعته من فارس اساسا لأى شرط للمفاوضات بدلا من التركيز على الهدف الاساسى للمهمة « فلو أن مالكولم أستطاع تحقيق هذا الهدف من خلال اقامته الطويلة في فارس واحسن استغلال ما كان يتمتع به من مواهب كان قد حقق نجاحا باهرا في مهمته بيد أن مهمته قد اهتزت من خلال الطريقة التى تناول بها الموضوع والاسلوب المقوت الذى استخدمه مع سلطان فارس (٢) ، وكان الاولى بمالكولم اذا كان يهدف الى صرف الشاه عن الفرنسيين على حد رأى منتو أن يضرب على وتر المخاوف الفارسية من الروس وتذكير الشاه بالتحالف القوى بين على وتر المخاوف الفارسية بين الروس وتذكير الشاه بالتحالف القوى بين روسيا وفرنسا مما يجعله يفقد الثقة في فرنسا من ناحية وفي روسيا وفرنسا من ناحية أخرى . وكان المفروض أن لا يتوقع مالكولم من الشاه الذى كان في ذلك الوقت متورطا في قتال مع الروس في الشمال بأن يكثر تهديدات في الجنوب ، وكان منتو يود أن يعرفه عما اذا كان مالكولم قد فكر في التهديدات التى وجهها الى حكومة الشاه قبل أن يقدم على ذلك (٣) .

(١) « فارس والخليج » المجلد ٢٥ من منتو الى مالكولم وفورت ويليام ١٢ أغسطس ١٨٠٨ والواقع أن فارس قد نقضت اتفاقية ١٨٠١ بعقدها لمعاهدة فنكشتين ولكن بما أن منتو ومالكولم لم يكونا في ذلك الوقت على علم بتلك المعاهدة فان سلوك مالكولم بإشارته الى تلك المعاهدة لا يمكن أن يغتفر .
(٢) اللورد منتو في الهند ص ١١١ من رسالة من منتو الى اللفتنانة جنرال هوبت ١٨٠٨/٧/٣ .

(٣) فارس والخليج مجلد ٢٥ من منتو الى مالكولم ١٢ أغسطس ١٨٠٨ :

وعندما كان مالكولم يغادر الخليج كانت تشغل باله وتراوده كثير من الأفكار ، فقد قرر بأن يتجه مباشرة الى كلكتا دون أن يفكر فى الاحراج الذى سوف يتعرض له عندما يقابل هارفورد جونز ويعرف منه الفشل الذى لقيته مهمته ، وكما ذكر بنفسه أن سبب توجهه الى كلكتا يعود الى رغبته فى عرض اقتراحاته المعتادة لموقف حكومة فارس ، وكان على رأس تلك الاقتراحات تجهيز حملة عسكرية للاستيلاء على جزيرة خرك وتدعيم تجارة الهند مع فارس ، مع 'ن مالكولم قد سبق أن رفض اتخاذ خرك كموقع لاقامة مركز سياسى وتجارى فيها ، بينما هو يقترح الاستيلاء عليها لانشاء القاعدة البريطانية فيها ، كما اقترح اغلاق الوكالتين فى كل من البصرة والخليج ، وأن يحل محلها مؤسسة سياسية وتجارية كبيرة ، ويمكن الاتفاق على هذه المؤسسة من ايرادات الجمارك، لأن مالكولم كان يعتقد بأن جزيرة خرك لابد وأن تصبح مركزا تجاريا كبيرا فى الخليج وأنه هو الذى سوف يشرف على هذه الأعمال بتلك المؤسسة (١) .

عند وصول مالكولم الى كلكتا يوم ١٢ أغسطس عرض مشروعه على الحاكم العام ، ولم يكتف منتو بقبول المشروع من أول وهلة فحسب بل تراجع أيضا عن كثير من الانتقادات والمآخذ التى سبق أن وجهها الى مالكولم فى البداية بشأن الأسلوب الذى انتهجه فى بوشهر ، وفى هذا الصدد كتب منتو الى اللجنة السرية يقول : اننا مقتنعون بأن الاطار العالم للاجراءات التى اتخذها مالكولم انما تتفق مع مركز وكرامة الحكومة البريطانية، وأن أى قرار بانسحابنا من أراضى فارس كنتيجة لرفض استقبال المبعوث البريطانى من قبل الشاه قد يترك انطباعات توازى الانطباعات التى قد يتركها أى حدث يمس الشرف القومى لبريطانيا (٢) . أما كيف استطاع مالكولم أن يغير من موقف منتو فانه لأمر يدعو

-
- (١) نفس الحلقة مجلد ٢٩ من مالكولم الى منتو بتاريخ ١٥/٨/١٨٠٨
وفىما يتعلق بتصورات مالكولم الأخرى حول جزيرة خرك انظر كتاب كيه للجزء الأول ص ٤٢٥ وقد اقتبس فيه من جريدة مالكولم عدد بتاريخ ٨/٧/١٨٠٨ .
- (٢) ارشيف حكومة البنغال مجلد ١٠ من مجلس الحاكم العام الى اللجنة السرية وقدرة ويليام بتاريخ ٣٧/٩/١٨٠٨١ .

إلى الغرابة . فقد كان دفاعه عن تصرفاته دفاعا ضعيفا ، كما أن القصة التي اخترعها من أن الفرس كانوا يتآمرون على اعتقاله مع مرافقيه لم تتأكد (١) . ومع ذلك فبعد مضي يومين من وصول مالكولم إلى كلكتا صدرت الأوامر إلى بومباي لتجهيز حملة بقيادته بينما طلب إلى هارفرد جونز ، الذي كان منتو قد رفع الحجر الدبلوماسي عنه بعد أن بلغه خبر فشل مهمة مالكولم ، بأن يؤجل سفره ويبقى في بومباي ، لكن قبل أن تصله التعليمات كان جونز قد أبحر ولم تصله تلك التعليمات إلا بعد أن وصل بالفعل إلى بوشهر وأصبح تنفيذ تلك التعليمات غير ممكن على الإطلاق (٢) .

وعندما علم منتو بسفر جونز أخذ يعيد النظر في الأمر وكتب إلى مالكولم يطلب منه إلغاء الحملة والتوجه إلى الخليج بصفته الدبلوماسي فقط ، وذلك لإنجاز مهمته الأصلية التي تعذر عليه إنجازها مع التأكيد على المشاعر الودية لباشا بغداد . غير أن مالكولم لم يكن على استعداد لتقبل ذلك والتقليل من حجم مهمته ، وكتب إلى منتو يحتج على القرار ويتهجم على هارفرد جونز على تواطئه في الخروج من بومباي قبل وصول التعليمات التي تطلب إليه البقاء هناك .

وقد لاقى احتجاجه النجاح ، ففي يوم ٣١ أكتوبر بعث منتو بتعليماته إلى جونز يطلب منه الانسحاب من فارس ، وفي نفس الوقت فوض مالكولم للمضي في الحملة . وفي التعليمات التي أرسلت إلى مالكولم في الشهر التالي طلب إليه ألا يستخدم قواته إلا في حالة الدفاع عن النفس فقط . وأن يبذل أقصى ما في وسعه ليوضح للسلطات الفارسية في بوشهر بأن الغرض من الحملة هو ضمان سلامة وحماية الهند . فان رأى تغييرا في موقف الشاه من الفرنسيين فقد فوض بشأن يعرض على الشاه تقديم قوة عسكرية صغيرة من نحو ٥٠٠٠ جندي لتساعد انفرس في مقاومة أي غزو فرنسي روسي مشترك من الروس والفرنسيين إلى أراضيهم ، فقد طلب من مالكولم أن يعرض تقديم تلك القوة إلى أمير شيراز كما كان يتعين عليه أن يتبع نفس الأسلوب مع السلطات التركية في العراق ، كما فوض

(١) انظر فارس والخليج مجلد ٢٥ من جونز إلى منتو بوشهر

١٨٠٨/١١/٦

- ١٤٤ -

باجراء اتصالات مع الوهابيين فى شبه الجزيرة العربيه (١) ان هو رأى مصلحة فى ذلك .

ووصل مالكولم الى بومباى يوم ٣٠ نوفمبر حيث كانت الاستعدادات لتجهيز الحملة قد قطعت شوطا كبيرا ، فقد تم تعبئة قوة مؤلفة من الفئ رجل من المشاة الأوربيين والجنود والخيالة والمدفعية والطلائع، كما قيل له بأنه فى الامكان تزويده ب ٤٠٠٠ جندي اضافى من دائر الوكالة اذا احتاج اليهم ، غير ان مالكولم اضطر الى تأجيل سفره الى الخليج فى انتظار وصول الأوامر اليه من كلكتا ، وبينما كان فى انتظار تلك الأوامر أوفد مساعده الكابتن ان - تى جرانت ليقوم بمسح ساحل مكران ابتداء من جواذر حتى بندر عباس وذلك لاختبار هذه المنطقة فيما اذا كانت تصلح لزحف يقوم به الجيش الفرنسى من جنوب فارس الى مشارف نهر الأندس (٢) .

ومن المشكوك فيه ما اذا كان مالكولم قد فكر بالفعل، أنه فى أماكن الفرنسيين القيام بمحاولة لارسال قوة عبر ذلك الطريق، ولعله كان يهدف من ذلك الإبقاء على فكرة وجود خطر يهدد الهند ، وحتى لا يغير منتو رأيه بشأن الحملة . أما دنكان فى بومباى فقد كان يعارض على طول الخط مشروع مالكولم ، وكان يحثه هـ.ر.فرد جونز بالاسراع فى انجاز المهمة التى كلف بها ، وقد كتب اليه رسالة بهذا المعنى : (ان هدفى من وضع كل هذه المسئولية عليك انما يعود الى اعتقادى

(١) من ارشيف حكومة البنغال مجلد ١٠ رسالة من الحاكم العام الى اللجنة السرية لفورت ويليام ١٥/١٢/١٨٠٨ .

(٢) من ارشيف الوثائق السرية لحكومة بومباى مجموعة ٣٨٣ مجلد ٣ بتاريخ ٢٩/٤/١٨٠٩ من مالكولم الى جرانت ١٣/١/١٨٠٩ . ان رحلة جرانت فى الشهور الأولى من ١٨٠٩ تعتبر على جانب من الاهمية باعتبارها اول رحلة فى سلسلة من الرحلات البارزة التى كان سيقوم بها المسئولون البريطانيون عن طريق الاقطار الواقعة الى الشمال الغربى من الهند على امتداد ٣٠ سنة التالية ولم تدع الحكومة مضمون تقريره قبل ١٨٣٩ (انظر انطباعات رحلة عن طريق الاجزاء العربية من مكران) فى المجلة الملكية للجمعية الآسيوية غنذد (٥) (١٨٣٩) ، ٤٢/٢٨ .

بانك ستعمل لمصلحة الملك لما تتمتع به من همة ونشاط وامكانيات ، ونأمل أن نسمع أنك قد وصلت الى فارس قبل أن تصل اليها الحملة الأخرى التي أرسلت الى الخليج بطريقة عشوائية، اذ لو وصلت تلك الحملة هناك فسوف تكلف الشركة ملايين الروبيات وستتمخض عن نتائج سيئة (١) وبالغة السوء .

في نفس الشهر وصلت تقارير الى بومباي من بوشهر تفيد بأن هارفرد جونز قد استقبل استقبالا يليق به وأنه من المتوقع أن يتوجه الى طهران في اقرب وقت ، وعندما علم مالكولم بذلك علق قائلا في غضب (اننى مصمم على المضي في مهمتى وبالتالي فاننا سوف نخلق فوضى عجيبة في الخليج ، فهل سيريح هذا التصرف الموقرين في لندن ، وما هم فيه من رعونة وطيش للتدخل في شئون الحكومة المحلية (٢)) . حقا انه لكلام جرىء، ولكن حتى مالكولم لم يكن يستطيع أن يخفى القلق الذي أخذ يساوره مما تنطوى عليه تلك الخطوة من خطورة ، وفي يوم ٨ يناير ١٨٠٩ كتب الى منتو يقول « بأن التقارير التي وصلته عن نجاح مهمة جونز » جعلتني اتصور أنه من واجبي أن أرجىء مهمتى بدلا من المجازفة والتسرع في أمر قد يؤدي الى الاضرار بالمصلحة العامة (٣)، وقد اضطر منتو الى موافقته على ذلك بعد أن تلقى اشارة من الحكومة في انجلترا تفيد بأن الصراع في اسبانيا قد يقيد نابليون من توجيه نشاطه للقيام بمغامرات عسكرية في الشرق لبعض الوقت ، وبالتالي كتب الى مالكولم بتاريخ ٢٧ يناير يحذره بأنه قد تم صرف النظر عن الحملة الى أجل غير مسمى ، وعلى اية حال فقد قال له مواسيا ، بأن الخطط الفعلية بدعم مراكز الشركة في جزيرة خرك سوف

(١) بيان عن بعثة صاحب الجلالة الى بلاط شاه فارس مجلد ٢ تأليف افنشن جون برجز طبعة لندن ١٨٣٤ جزء ١ صفحة ١٧٠ ويتضمن خطاب دكان .
(٢) موضوعات متفرقة للحكومة البريطانية مجلد ٧٣٧ من مالكولم الى جورج بوشاف بومباي ١٨٠٨/١٢/٢٤ .

(٣) نفس المصدر من مالكولم الى منتو بومباي ١٨٠٩/١/٨ .

(م ١٠ - بريطانيا والخليج)

تستمر وان كانت ستبقى في نطاق ضيق مما كان يتصوره مالكولم، وانهم يفضلون المفاوضات للحصول على الجزيرة بدلا من الغزو والاحتلال .

في يوم ١٤ فبراير ١٨٠٩ وصل هارفورد جونز ، وبعد أربعة أسابيع من وصوله استطاع اقناع الشاه بالموافقة على إبرام اتفاقية صداقة وتحالف مع الحكومة البريطانية ، ويبدو أن نجاح جونز فيما فشل فيه مالكولم يعود الى ما يتمتع به من موهبة او الى قصر نظر مالكولم أكثر مما يعود الى تغيير في موقف الشاه من الفرنسيين . كما يعود أيضا الى ما استجد من أحداث في أوروبا وعلى الحدود الفارسية الروسية . وخلال وجود مالكولم في بوشهر تمكن جاردان من أن يحقق هدنة لمدة سنة بين الروس والفرس ، كما تمكن من أن يتعهد للشاه بالعمل على عقد معاهدة سلام بين فارس وروسيا ، تجري المفاوضات بشأنها في باريس حسب مقترحات جاردان تمتنع بموجبها روسيا من القيام بأي عمل عدائي ضد فارس . وربما لسوء حظ جاردان أن حكومة روسيا لم تأخذ اقتراحاته أو اقتراحات الشاه مأخذ الجد ، وطالبت في انذار وجهته الى الشاه باعتبار خطوط نهر ارس ، وكر واريشاي حدودا دولية بين فارس وروسيا . وقد أخذ الشاه يستعد للحرب بينما بادر جاردان الى ارسال احد مساعديه الى القائد الروسي في القوقاز يطلب منه الامتناع عن القيام بأي أعمال عسكرية، ولكن المبعوث وصل متأخرا . واندلعت الحرب وأخذ الروس يتقدمون لحصار منطقة اديفان . وفي يوم ٢٣ نوفمبر ، وفي جلسة عامة انتقد الشاه جاردان انتقادا مريرا حول اخلاص نابليون ، وأعطى المبعوث الفرنسي مهلة شهرين لكي يقدم دليلا على حسن نية الامبراطور ، وقد كتب أحد المراقبين لجاردان حول هذا الموضوع بعد أن انفض الاجتماع يقول : « ان فارس في موقف يائس فهي تتعرض للهجوم من الشمال من دولة كبيرة وتعرض لتهديد من الجنوب من الانجليز الذين يلوحون لها بالصداقة تارة وبالحرب تارة أخرى ، كما تخلت عنها خليفتها وحاميها فرنسا ، وبالتالي لم يعد هناك من يقف الى جانبها... وعلى حين كانت فارس تنتظر رد فرنسا أعطى الشاه مهلة شهرين لوصول الرد ، بينما كان

- ١٤٧ -

يعمل جاهدا لكبح جماح التدخل البريطاني في شئون بلاده (١) . وبنهاية شهر يناير ١٨٠٩ لم يكن قد وصل أى معلومات من فرنسا ، وبالتالي أبلغ الشاه جاردان انه سيضطر الى استقبال المبعوث البريطاني جونز ، وفي يوم ١٢ فبراير ودع جاردان الشاه ، وفي يوم ١٣ فبراير توجه الشاه الى تبريز ، وفي اليوم التالى من وصوله وصل هارفورد جونز الى طهران قادما من أصفهان .

وصفت المعاهدة التى عقدت بين جونز ومجلس وزراء الشاه فى الثانى عشر من مارس ١٨٠٩ بأنها (معاهدة تمهيدية) وقد ألزمت هذه المعاهدة الشاه بإلغاء جميع المعاهدات السابقة التى كان قد عقدها مع الدول الأوربية وبأن يمنع مرور أى جيش أوربى الى الهند عبر أراضيه . وفى مقابل هذا البند تمهدت الحكومة البريطانية بأن تساعد فارس بقوة عسكرية وبأسلحة والمعونة المالية اذا تعرضت لغزو من جانب أى دولة أوربية . أما اذا كانت الدول المعتدية مرتبطة بمعاهدات صداقة مع بريطانيا فان الحكومة البريطانية ستقوم بعرض وساطتها فى النزاع ، وفى حالة فشل الوساطة يطبق البند الخاص بالتزام بريطانيا ، أما بالنسبة للعلاقات الأفغانية الفارسية فقد نصت المعاهدة انه فى حالة نشوب صراع مسلح بين الدولتين فان الحكومة البريطانية سوف تمتنع من التدخل الا اذا طلب الطرفان وساطتها (٢) .

(١) نفس المصدر .

(٢) وقع جونز هذه المعاهدة وهو لا يعلم أن مونستورت الفنستون وهو الرجل الذى أوفده منتو فى مهمة الى عاصمة أفغانستان قد ألزم الحكومة البريطانية من خلال الاتفاق الذى عقده مع الأفغان بتدخل بريطانيا الى جانبهم فى حالة تعرض أفغانستان لهجوم من فارس . وقد تحول هذا الاتفاق الى معاهدة تم التوقيع عليها فى كلكتا بتاريخ ١٧/٦/١٨٠٩ (انظر كتاب المعاهدات اعداد اتيشون الجزء التاسع ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

وقد افرد فى المعاهدة بند خاص بحملة مالكولم التى كانت قد نزلت الى جزيرة خرك ، وبمقتضى ذلك فقد أضيف بندان الى المعاهدة ينصان على ترتيب استقبال ودى للحملة ، وفى مقابل ذلك تعهد جونز فى المعاهدة بأن احتلال البريطانيين لآى ميناء أو جزيرة فالرسية لا يعتبر حقا من حقوق الاحتلال (١) ، وبعد مضى شهر على توقيع المعاهدة لمس جونز مآثرته المعاهدة من أثر فى نفس حكومة منتو ، ولهذا فقد حاول الحصول على جزيرة أخرى من الشاه ، وكانت قشم فى رأيه هى أفضل موقع للحامية . كما اقترح جونز احتمال زيادة حجم الدعم المالى المنصوص عليه فى المعاهدة ، غير أن الشاه رفض الاقتراح المذكور (٢) ، ويوم تلقى منتو اخبار المعاهدة التمهيدية التى وقعها جونز فى منتصف ١٨٠٩ وافق عليها وعلى الشروط التى تضمنتها بشأن تقديم المساعدات الى فارس . ولكنه لم يوافق للسماح لجونز بالتصرف فى موضوع تقديم الأسلحة والدعم المالى ، أو على تعيينه ممثلا للحكومة البريطانية فى فارس وكان يعتقد

(١) كتاب المعاهدات اعداد اتيشسون فصل ١٠ ص ٤٥ - ٤٨ .

(٢) « فارس والخليج » مجلد ٢٦ من جونز الى دندس بتاريخ ١٨٠٩/٣/٣١ (الحلقة الثالثة) .

(٣) وثائق حكومة البنغال مجلد/٢ خطاب الحاكم العام الى اللجنة السرية بتاريخ ١٠ ، و ٢٠ و ٣ ابريل و ٣١ أغسطس ١٨٠٩ . ان الأسباب التى ابداهها منتو للتديد بجونز لم تكن تجيز له تشويه سمعته فى التقارير التى كان يبعث بها الى رؤساء مجلس الادارة فتقريره المؤرخ فى ٣ ابريل على سبيل المثال يقع فى ٨٠ صفحة من الحجم الكبير (يكاد يصل الى ٢٢ الف كلمة) والتقرير هذا برمته ملئ بالتشنيع على جونز كما لم يكن هناك ما يبرر تهديده بالاحتجاج على نفقات جونز اذا لم يغادر فارس واتهامه جونز بأن نجاحه فى فارس انما كان يعود الى مؤامرات تافهة ودنيئة مع وكلاء الشاه وعملائه الصغار بالاضافة الى اسرافه وتبذيره فى الانفاق (انظر فارس والخليج) مجلد ٢٦ من منتو الى جونز بتاريخ ١٨٠٩/١/٣٠ .

أن جونز قد تجاوز عن عمد نطاق الصلاحيات والسلطات المخولة لحكومة الشركة في الهند خلال المفاوضات التي أجراها مع وزراء الشاه كما كان يعتقد أن إيفاد مالكولم مرة أخرى إلى فارس هو الطريقة الوحيدة لتصحيح الأخطاء التي ارتكبها جونز ، كما كان يعتقد أيضاً، كما أبلغ اللجنة السرية، بأن الممثل البريطاني الدائم المعين في فارس هو الشخص الذي يملك صلاحية التفاوض على تقديم الدعم ، وأن تعيين مثل هذا الممثل هو مسؤولية حكومة الهند وليس مسؤولية حكومة إنجلترا ، غير أن اللجنة السياسية لم توافق على مقترحات جونز وأن كان الشاه قد طلب بالفعل من جونز بأن يبقى كمبعوث بريطاني حتى يصل من خلفه من إنجلترا ، وجاء في رسالة الشركة المؤرخة في مارس ١٨١٠ (بأن إيفاد بعثة أخرى من الهند قد يؤدي إلى مزيد من الإحراج والبلبل في علاقتنا بفارس) (١) غير أن اعتراضات اللجنة وصلت متأخرة حيث كان مالكولم قد أبحر من بمباي يوم ١٠ يناير ١٨١٠ ترافقه حاشية تحوطها كل مظاهر الأبهة والفخفة . ومهما قيل عن تصرفات مالكولم في الجوانب الأخرى من مهمته فلقد كان يعرف كيف يختار الرجال الذين يعملون معه ، ومن بين الذين رافقوه في رحلته الثالثة : هنري أليس وجون مكدونالد وهنري بوتنجر وهنري لنس والذين أصبحوا من الشخصيات المشهورة كما وافقه آخرون ممن أخذت الأضواء تسلط عليهم ، وهم كريستي الذي اكتشف بالاشتراك مع بوتنجر منطقتي بلوشتان، وسيبستان وجرانت الذي قام بمسح ساحل مكران ، ولكن كريستي لقي مصرعه بعد ذلك بوقت قصير إبان القتال مع الروس ، بينما أفتيل جرانت من قبل بعض قطاع الطرق العرب في بغداد .

(١) الرسائل السرية للجنة مجلد ٣ صيغة خطاب الحاكم العام بتاريخ

١ مارس ١٨١٠ (الحلقة ٦١) .

أما فيما يختص بالجزء الأخير من مهمته فمن الواضح أنها لم تكن ضرورية
لمالكولم ولم تؤد إلى نتائج ايجابية باستثناء الأبحاث التي أجراها بعض أعضاء
البعثة حول الأوضاع في فارس . كما أن الرحلة قد كلفت الحكومة نفقات باهظة
وتخللتها خلافات مشينة بين مالكولم وجونز بالنسبة لوضع كل منهما لدى بلاط
الشاه . وقد انتهت مهمة مالكولم في شهر يوليو ١٨١٠ عندما استأذن في مغادرة
معسكر السلطانية ، أما جونز فقد غادرها إلى إنجلترا عن طريق القسطنطينية
وكان ذلك في نهاية العام .

وقد أصدر مجلس الإدارة في الهند واللجنة السرية قرارهم المشترك في
شهر مايو ١٨١٠ وكان القرار يمس السياسة التي كان ينتهجها منتو منذ شتاء
١٨٠٧ - ١٨٠٨ (١) .

أما فيما يتصل بالتعليمات الأصلية التي أرسلها منتو إلى مالكولم في شهر
يناير ١٨٠٨ فإن اللجنة لم تجد فيها ما يدعو إلى الاعتراض وإنما اعترضها على
الكيفية التي نفذ بها مالكولم تلك التعليمات، ومن ناحية أخرى فقد نددت اللجنة بقرار
إرسال حملة إلى الخليج ورأت فيه إجراء لا مبرر له على الإطلاق، وربما كان سيؤدي
إلى الدخول في صراعات مع فارس لا تعرف نتائجها وقد تكلف بريطانيا ثمنا
باهظاً (٢) ، وأما فيما يختص بما وقع من خلافات بين منتو وهارفورد جونز فقد

(١) يرجع السبب جزئياً في تأخر صدور ذلك القرار إلى أن منتو لم يكن
يطلع رؤسائه في إنجلترا بالتطورات الخاصة بالسياسة التي كان ينتهجها في
فارس والخليج أولاً بأول والأجراءات التي اتخذها باستثناء موضوع أو موضوعين
وفي شهر مارس ١٨١٠ اضطرت اللجنة السرية إلى معاتبته بالنسبة للتقارير
التي كان يرسلها وتصل إليهم متأخرة في بعض الأحيان بما لا يقل عن ١٢ شهراً
من تاريخ إرسالها .

(٢) مسودة القرارات وإرسالية اللجنة السرية مجلد ٣ مسودة خطاب
إلى الحاكم بتاريخ ١٨١٠/٥/٦ (حلقة ٦٣) .

أعرب مجلس الإدارة عن أسفه لما حدث . وكان مالکولم منذ البداية قد قضى على كل أمل فى التنسيق بين الأطراف المعنية أولاً بسبب تسرع مالکولم فى السفر من بومباى فى شهر إبريل ١٨٠٨ ، وثانياً لمفادرة هارفورد جونز لبومباى فى شهر سبتمبر قبل أن يستمع منتو لآراء مالکولم بعد عودته مما قضى على كل أمل فى احياء الفكرة . كما كان قرار منتو فيما بعد باحتلال جزيرة خرك فى الوقت الذى طلب الى جونز مغادرة فارس كان قراراً غير سليم فى نظر مجلس الإدارة ، ليس لأنه عرض هارفورد جونز وغيره من المسؤولين للفشل على أحسن الافتراضات ، أو لفقد حياتهم على أسوأ الافتراضات فحسب ، وإنما لأن عملية الاستيلاء بالقوة العسكرية على الجزيرة كان سيؤدى الى اتهام حكومتنا بالخيانة ونكث العهد (١) ، كما رأى مجلس الإدارة بأن تكليف منتو لمالکولم للمرة الثالثة لم يكن وارداً ، وبالتالي فقد رفض المجلس قبول عذر مالکولم فى أن مهمته كانت تهدف الى اصلاح الأخطاء التى ارتكبها جونز والتى أساءت الى حكومة الهند ، وقال بأن هذا العذر موضع تكهن أكثر مما هو موضع اهتمام عملي (٢) .

وانتهت العمليات الفرنسية فى الشرق تماماً فى ديسمبر ١٨١٠ عندما تمكنت الحملة البريطانية من الاستيلاء على جزيرة موريشيوس (التى أطلق عليها فيما بعد جزر موريشيوس) ، وبذلك حرم الفرنسيون من قاعدة رئيسية لهم كانوا يوجهون منها عملياتهم العسكرية فى المياه الشرقية ، وبعد زوال التهديد الفرنسى تضاءلت المصالح البريطانية فى منطقة الجزر الواقعة الى شمال

(١) نفس المصدر .

(٢) وقد أخطر مجلس الإدارة فيما بعد بأن احتجاجاته العنيفة على الانتقادات التى وجهتها اللجنة الى سياسته فى فارس هى أنه من الطبيعى أن يحظى مبعوث التاج على احترام وحفاوة أكبر مما يحظى به مبعوث الحاكم العام . كما أن الايضاحات التى اضطر جونز الى تقديمها لحكومة فارس حول تبعية حكومة الهند للحكومة الام فى انجلترا هى بسبب تجريح بازلى له أمام أمير شیراز فى شهر يونيو ١٨٥٨ .

غربي الهند ، ولكن ذلك لم يتم بالسرعة المتوقعة . ومن ناحية أخرى اتسع نطاق المصالح البريطانية في فارس ، وذلك في المقام الأول نتيجة الخوف من التسلل الأفغانى الى الهند ثم نتيجة الرغبة فى تنشيط تجارة الشركة مع تلك البلاد ، واخيرا نتيجة القلق الذى اثاره احتلال فرنسا لمصر . وقد بدأت المرحلة الثانية لتلك التطورات فى ربيع صيف ١٨٠٧ وكانت اسبابها تعود الى مخاوف البريطانيين من زحف على الهند اكثر مما تعود الى اسباب أخرى ، اما المرحلة الثالثة فقد بدأت فى اواخر ١٨٠٨ عندما احست بريطانيا بالتغلغل الروسى فى فارس ، مما دفعها الى الاعتقاد بأن الخطر الحقيقى للمصالح البريطانية فى آسيا ناتج عن الاطماع التوسعية للروس وبالتالي فلا يمكن الانسحاب من فارس فورا لمجرد ان الفرنسيين قد انسحبوا من المنطقة مالم تنجح فى اقناع فارس بأنها خط الدفاع الأول عن الهند .

ان الترتيبات التى اتخذت لتحويل معاهدة سنة ١٨٠٩ الى اتفاقية دائمة يمكن تلخيصها فيما يلى :

عينت الحكومة البريطانية السير جوراوسلى خلفا للسير هارفرد جونز وكلفته بالتفاوض لعقد معاهدة مع الشاه . وقد وصل المذكور الى فارس فى اواخر ١٨١١ ، وفى يوم ١٤ مارس ١٨١٢ عقد معاهدة مع امبراطور فارس يتعهد فيها بمنع عبور أى جيش اوروبى عن طريق بلاده الى الهند ، وفى مقابل ذلك تعهد اوسلى للشاه بالدعم المالى والمساعدة العسكرية فى حالة تعرض فارس لهجوم من قبل أى دولة اوروبية (١) كما يمكن اوسلى من عقد هدنة بين الروس وفارس واقناع الدولتين بعقد معاهدة سلام فى بلوشتان يوم ١٢/١٠/١٨١٣ غير أن كلا الطرفين لم يكن راضيا عن تلك المعاهدة فقد رأى الشاه بأن المعاهدة

(١) كتاب المعاهدات الجزء العاشر من ص ٤٨ - ٥٢ اعداد ايشسون .

تتضمن شروطا مهينة له وبالتالي فلم تكن تلك المعاهدة تعالج تسوية المشكلات بين البلدين (١) .

كما أن لندن هي الأخرى لم توافق على المعاهدة التي عقدها أوصلى مع - الشاه ، وبصورة خاصة على البند الخاص بالدعم المالى وبالتالي فقد أوفدت الحكومة البريطانية في عام ١٨١٤ كلا من هنرى اليس وجيمس مورييه الى طهران لحمل الشاه على ادخال تغييرات على المعاهدة . وفي ٢٥ نوفمبر ١٨١٤ وقعت معاهدة جديدة بالتعديلات المطلوبة ، فقد أضيفت فقرة الى البند الرابع من المعاهدة تنص على صرف البند الخاص بتقديم الدعم المالى الى فارس في حالة نشوب حرب بين فارس وأحدى الدول الأوروبية تكون فارس هي البادئة بالحرب، كما تعهد الشاه من جانبه بأنه فى حالة قيام الأفغان باعلان الحرب على الهند البريطانية بأن يشترك مع البريطانيين فى القتال ضد الأفغان على أن تتحمل الحكومة البريطانية نفقات الجيش الفارسى ، كما نصت على أن لا يطلب من بريطانيا التدخل فى حرب تقع بين فارس وأفغانستان مالم تطلب الدولتان منها ذلك . كذلك سبق للحكومة البريطانية فى المعاهدة السابقة ان وافقت بتقديم المساعدات العسكرية البحرية والبرية الى الشاه فى الخليج اذا ما احتاج الى مثل تلك المساعدات ، وكانت بريطانيا فى حالة تسمح لها بتقديمها اليه ، على أن تتحمل حكومة فارس نفقات تلك القوة ، كما لا يحق للسفن البريطانية أن تستخدم موانئ غير الموانئ التى تحددها السلطات الفارسية (٢) وعلى أية حال فان المعاهدة التى تصف ديباجتها العلاقة بين فارس وبريطانيا بأنها اشبه بباقة من الورد قطفت من شجرة لا أشواك فيها قد تحولت فى الواقع الى قراص فى يد ضانعيها وعلى الأخص بسبب هذه البنود التى تضمنتها .

(١) للاطلاع على ترجمة معاهدة بلوشتان راجع كتاب المعاهدات جزء ١٠

مرفق (٥) اعداد اتيشسون .

(٢) « كتاب المعاهدات » الجزء العاشر من ٥٣ - ٥٦ اعداد اتيشسون .

ب ١٥٤ ب

لقد كان من الآثار المباشرة لمعاهدة طهران أنها قللت من الأهمية الاستراتيجية للخليج في نظر البريطانيين، وقد اتضح ذلك أثناء قيام هارفرد جونز بمهمته في فارس . وحتى سنة ١٧٩٨ كانت علاقة بريطانيا بفارس علاقة تجارية بحتة ، وكان الخليج هو القناة التي كانت تمر عبرها تلك العلاقات ، وحتى بعد عام ١٧٩٨ عندما اكتسبت العلاقات البريطانية مع فارس طابعا سياسيا أوضح ظل الخليج محورا للمصالح البريطانية ، وبالتالي فإن الشعارات التي دعا إليها ويلسلي ، أي منذ كان ويلسلي يعتقد بأن أي جيش أوربي يريد غزو الهند من الشمال الغربي لابد له من عبور الخليج باعتباره الطريق البحري الوحيد بدلا من التعرض لأخطار الطريق البري الوعر أفغانستان ، غير أن هارفرد جونز بالمعاهدة التمهيدية التي عقدها مع حكومة فارس قد صرف الاهتمام عن الخليج وركزته على فارس . وسبب ذلك واضح ، ففي عام ١٨٠٨ أصبحت روسيا ، وليس فرنسا، هي الدولة التي يمكن أن تفكر في غزو الهند، وعلى حين كان من المحتمل أن يقوم الفرنسيون بمثل ذلك الهجوم من البحر على الأقل فإن روسيا لم يكن أمامها غير الطريق البري، وكانت حدودها متصلة مع حدود فارس، وأمرأه الخليج الآسيويين وبالتالي فقد كان عبور جيش روسي إلى الهند لابد وأن يمر من شمال فارس ، ولم يكن من المتوقع بأي حال أن يسلك الروس الطرق الساحلية من فارس لأنهم بذلك سيعرضون قواتهم لتكون هدفا للأسطول البريطاني الذي سيتمكن من صد الزحف .

فقد كان على مالكولم والحالة هذه أن يصر بقوة على اعتبار الخليج الطريق الوحيد لأي غزو في الوقت الذي كان يعرف، مثل جونز وربما أكثر منه، احتمال استخدام الروس للطريق الشمالي عبر فارس وأفغانستان .
وان الرد على هذا السؤال يكمن في طموحات مالكولم الشخصية كما يكمن في الفرصة التي سنحت له خلال الفترة الحرجة من عامي ١٨٠٧ - ١٨٠٨ والتي تصور أن في امكانه تحقيق تلك الطموحات .

« كان مالكولم يعتبر نفسه سيد الخليج الفارسي وسيد تلك الجزيرة المحصنة (خرك) والحاكم بأمره في مقدرات ومصير فارس وشبه الجزيرة العربية (١) وهكذا وصفه هنري رولنسون في كتابه (سيرة مالكولم الذاتية) كما سخر رولنسون من تصورات مالكولم وعلى الأخص من الخطط التي وضعها لنحويل جزيرة قشم وخرك الى قاعدتين بريطانيتين وقال في هذا الشأن (ان هاتين القاعدتين سوف تكونان من الوجهة العسكرية بمثابة (جسر) بالنسبة الى بومباي، فمن الناحية التجارية كان الغرض من القاعدة هواحياء ماضي سيراى وهرمز الغابر . وأما من الناحية السياسية فقد كان الهدف من القاعدة هو اعادة الثقة الى سكان آسيا ، وأما بالنسبة لأوربا فان القاعدة ستكون خط الدفاع الأول من امبراطورية الهند (٢) وعلى أى حال فلا يمكن أن نتهم مالكولم بالقصور في تلك التصرفات لأن وجود مثل تلك القاعدة في يد البريطانيين في مطلع القرن التاسع عشر قد مكن الحكومة البريطانية من مكافحة أعمال القرصنة في الخليج .

(١) كيه جزء ١ صفحة ٤٢٢ .

(٢) « انجلترا وروسيا في الشرق ص ١٢

الفصل الثالث

القرصنة والوهابيون ١٨٠٨ - ١٨١٨

ان احتلال الوهابيين لمنطقة الاحساء في سنة ١٧٩٥ كان لاستكمال سيطرتهم على المناطق الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة العربية . وعلى مدى السنوات الخمسة عشر التي تلت ذلك كانت القوة الوهابية في طريقها الى التوسع والفتوحات خارج حدود نجد . وقد اتخذ هذا التوسع اتجاهات ثلاثة : غربا الى الحجاز والأماكن المقدسة ، وشمالا الى العراق وسوريا ، وجنوبا الى الامارات الساحلية على الخليج الفارسي . وكانت الاطماع الإقليمية والحماس الديني وشهوة السلب والنهب هي الدوافع الأساسية وراء ذلك التوسع ، الذي كان لابد وأن يرافقه وبصورة حتمية أعمال السلب والنهب وقيام المجازر .

واخيرا جاء الرد من الغرب فقد اثار احتلال الوهابيين للحجاز السلطان العثماني الذي كلف واليه في مصر، بأن يتولى مهمة القضاء على النفوذ الوهابي، اما في الشرق فقد دفعت اعمال القرصنة الحكومة البريطانية في الهند الى التحرك لوضع حد الى تلك الأعمال التي تلقى الدعم والتأييد من الدولة الوهابية على الساحل العربي . ولما كانت الدولة الوهابية الناشئة تفتقر الى التماسك الداخلي ، والى الوحدة والقوة في تركيبها فانها لم تتمكن من مواجهة العمليات التي بدأت ضدها ، وما ان حل عام ١٨١٨ حتى كانت جميع انتصارات الوهابيين قد تحولت الى حكام وراهم : بعد أن مزقتهم جيوش والى مصر ، وفي الخليج اخذت هذه الأعمال التي كان الوهابيون وراءها تقض مضاجع الحكومة البريطانية تماما كتهديدات نابليون ، وبالتالي فان القلق على امن الهند قد أرغم البريطانيين على دخول المعترك السياسي في الخليج .

تعرض العراق التركي فيما بين ١٧٩٥ - ١٧٩٨ الى حملات عسكرية عديدة من الوهابيين . ولم يكن فى مقدور سليمان باشا الذى كان يعانى من المرض ان يعمل شيئاً لوقف غارات الوهابيين على العراق حتى خريف ١٧٩٨ ، عندما اضطر بأمر من الباب العالى وضغط أعيان البلاد الى تجهيز حملة عسكرية الى الاحساء ، وكان على رأس الحملة رئيس ديوانه ، على باشا، الذى زود بالأوامر للتوغل الى الدرعية وتدمير المناطق الوهابية ، وفى شهر سبتمبر ١٧٩٨ غادرت قوة من الجنود الأتراك بغداد ، وفى البصرة انضمت اليها بعض وحدات من القبائل ، يقدر عددها بعشرة آلاف مقاتل ، من مناطق المنتفك والشمار والظافر ، وقد تحركت هذه القوة الى الاحساء مع مطلع العام الجديد ، وقد قامت اولاً بغرض الحصار على قلعة الهفوف فى الاحساء، ولكن الحامية صمدت ضد المحاصرين، وبعد مضى شهرين اضطر على باشا الى رفع الحصار عن الحامية والعودة الى البصرة ، وخلال تراجعه من شمال الاحساء التقى عند منطقة آبار التاج شمال الاحساء بقوات من الوهابيين يقودها سعود بن عبد العزيز، النجل الأكبر للأمير الوهابى . وبعد مواجهة استمرت بضعة أيام تخللها تبادل الحوار بين الطرفين تم الاتفاق بين الأمير سعود وعلى باشا على هدنة مدتها ست سنوات ، وقد اصطحب على باشا فى عودته الى بغداد مندوباً عن الوهابيين كلف بالتصديق على المعاهدة .

وبعد عام واحد من إبرام تلك المعاهدة استأنف الوهابيون غاراتهم على العراق ، وبنهاية عام ١٨٠٠ نقضوا تلك المعاهدة نقضاً تاماً . وقد تضاعفت غاراتهم خلال شتاء سنة ١٨٠٠ - ١٨٠١ وانتهت بمجزرة رهيبة وأعمال السلب والنهب فى كربلاء ، وكان ذلك فى ربيع ١٨٠١ ، وفى صباح يوم ٢٠/٤ ظهرت فجأة قوة من الوهابيين تقدر بـ ١٢ ألف رجل أمام المدينة، وقد صادف ان كان معظم السكان خارج المدينة فى النجف لتأدية الحج ، وقد انقض الوهابيون على المدينة من المدخل الغربى واندفعوا الى ضريح الامام الحسين

١٥٨ -

حيث عاثوا فيه سلبا ونهباً وتدميراً ، كما دمرت نصف القبة الذهبية لضريح الحسين (رضى الله عنه) ، ثم انتقل الغزاة الى الأحياء الأخرى من المدينة وعملوا فيها سلباً ونهباً وقتلاً ، وكانوا يقتلون كل من يصادفونه ويدمرون كل شئ أمامهم ، وفى الساعة التاسعة من ذلك اليوم انسحب الوهابيون حاملين معهم الكثير من الغنائم التى استولوا عليها الى جانب الأسرى تاركين المدينة وراءهم حطاما وأنقاضا تضم تحتها ما لا يقل عن ٥ آلاف قتيل .

وعلى الفور اجتاحت العالم الشيعى موجة من الذعر بعد وصول أنباء تلك المجزرة ، فقد طالب شاه فارس الذى كان مواطنوه أكثر الضحايا بانزال العقاب الشديد بالوهابيين واستعادة الغنائم والأسلحة التى استولوا عليها . أما سليمان باشا فقد أصيب بالذهول لدرجة أنه عجز عن اتخاذ أى إجراء ، وعرض الموضوع على هارفورد جونز المقيم البريطانى فى بغداد ليتوسط لدى الوهابيين للإفراج عن الأسرى والتفاهم على طريقة دفع الفدية ، وفى نهاية العام أصدر سليمان باشا أوامره بأعداد قوة كبيرة من قبائل المنتفك والظافر والمشمار للتحرك الى الأحساء تحت قيادة ثوينى السعدون أكبر مشايخ المنتفك ، ولكن الحملة لقيت نهاية فاجعة ، فقد اغتيل قائدها ثوينى من قبل أحد العبيد الزنوج عندما كانت القوة تعسكر فى منطقة آبار الشيعية الواقعة على بعد ٣٠ كيلو جنوب الكويت ، أما القوة نفسها فقد لاذت بالفرار أمام القوة الوهابية التى كان يقودها سعود بن عبد العزيز ، وبعد بضعة أشهر وفى يوم ٧ أغسطس ١٨٠٢ توفى سليمان باشا ، ويقال انه قد صرح قبل موته (بأنه لا يجوز أن أبقى حيا بعد مذبحه كربلاء) .

كانت الحجاز هى الهدف الثانى للوهابيين، وقد كانت الحجاز من الناحية الاسمية تعتبر ولاية من الولايات العثمانية ، ويحكمها كبير أشراف مكة وأسرّة

الشريف هي من سلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان يقدر غدها في ذلك الوقت بنحو ٢١ فردا يسكن معظمهم في الحجاز ، وعلى الأخص في مكة والمناطق المجاورة لها . غير أن الصراع على السلطة والحكم بين أفراد تلك الأسرة وعلى الأخص على الخلافة حولت الحياة السياسية في الحجاز الى مجتمع يسوده الغوضى والعنف .

وكان يحدث أن ينجح أحد هؤلاء الأشراف أحيانا في فرض النظام غير أن هذا النوع من الحكام كان نادرا جدا . وكان دخل الحجاز يأتى من الرسوم التى تفرض على الحجاج في موسم الحج ، ومن المنح والمعاشات المخصصة للأمراء من السلاطين العثمانيين ، ومن أموال الحرمين او الأماكن المقدسة ، كما كان يأتى من الرسوم الجمركية في جدة . وبهذه الأموال كان شريف مكة ينفق على أفراد الأسرة وعلى غيرهم من سكان مكة والمدينة ، كما كان يدفع اعانات الى شيوخ القبائل ذوى النفوذ .

وقد تنبأ الشريف غالب بن مساعد ، الذى تولى الحكم فى أواخر القرن الثامن عشر ومن خلال استقراءه للأحداث فى المنطقة ، بنهاية حكم أشراف الحجاز واضمحلال سلطانهم على الأماكن المقدسة . وابتداء من عام ١٧٩٠ قام الشريف بحملات متلاحقة على الوهابيين على امتداد المنطقة الغربية لنجد لتطويقهم وتصفية نفوذهم . كما أخذ فى نفس الوقت يندد بهم أمام مسلمى العالم ، ويتهمهم بالهرطقة وبالعمل على تقويض الاسلام . غير أن محاولاته كلها ذهبت أدراج الرياح ، حتى اضطر فى نهاية القرن الى اتخاذ موقف الدفاع منهم ، وفى عام ١٧٩٩ أرغمت الظروف شريف مكة على أن يشهد دخول سعود دخول الفاتحين ليؤدى فريضة الحج ، وكانت ترافقه حاشيته العسكرية ، وفى أواخر عام ١٨٠٢ استولى الوهابيون على الطائف . ثم فى مطلع العام الثانى احتل سعود مكة نفسها ، مما اضطر غالب الى مغادرة المدينة والانسحاب الى حدة ، وفى ٢٧ إبريل تمكن سعود من دخول مكة دون أن يلقى أى مقاومة .

وعلى نقيض سلوكهم في كربلاء التزم الوهابيون الاعتدال في الأماكن المقدسة ، ولكنهم قاموا بنزع الكسوة الثمينة عنها ولكنهم لم يمسوا الكعبة بسوء . كما قاموا بإزالة القباب والشواهد من على أضرحة الأولياء بما في ذلك ضريح السيدة خديجة زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما أغلقوا المقاهى ومنعوا تدخين النارجيلة والحشيش ، كما أضرمو النار في بيوت الدعارة وفرضوا عقوبات مشددة على المدخنين والمعاقرين للخمر ، كما قاموا بالقضاء على كل مظاهر الترف والفساد والشهوات ، وقد أخذ الأمير سعود واتباعه في الاتصال برجال الدين والعلماء والمشايخ بهدف اقناعهم بصحة تفسير الوهابيين للإسلام . وقد تجاوب معهم كثيرون ، وجاء على لسان المشتركين في الاجتماع الذي دعا إليه زعماء الوهابيين (بأن العلماء ورجال الدين يقرون مبدأ العقيدة الوهابية) ولم يعترض أى منهم على الأحكام التي أصدرها بأعدام بعض المواطنين ، وإنما اعتبروها أحكاما صحيحة تتفق تماما مع جوهر العقيدة الإسلامية (١) ، وقد بعث سعود برسالة إلى السلطان العثماني في القسطنطينية يحذره فيها من إرسال المحمل « إلى الكعبة أو دخول موكب الطبول والزمور » (لأن الدين الاسلامي يحرم هذه البدع) (٢) ، وبعد وفاة الأمير عبد العزيز وما أعقب ذلك من انسحاب الوهابيين من مكة توقف صدور تلك القوانين .

(١) ترجمة لنشرة أصدرها عبد الله حفيد عبد الوهاب بقلم اوه . كنبلى . مجلة الجمعية الآسيوية في البنغال .

(٢) رحلات إلى الهند وسيلان والبحر الأحمر والحبشة ومصر خلال سنوات ١٨٠٢ - ١٨٠٣ المجلد الثالث طبعة لندن ١٨٠٩ ص ٢٨٩ الفصل الثاني تأليف الفياكونت فلنشيا كان فلنشيا وقتها يمر بمنطقة البحر الأحمر . وقد كتب يعلق على تلك الأحداث بقوله : (ان تعاليم محمد تلزم اتباعه من المسلمين بزيارة مكة ولو مرة واحدة في حياتهم غير أن تطبيق هذه الفريضة أصبح متعذرا ، فمكة الآن تعج بقرقة السلاح وتخضع لحكام ينكرون على المسلمين هذه الفريضة التي ظلوا متمسكين به طوال اثني عشر قرنا . ان حكم آل البيت قد انتهى الآن - على الرغم من أن القرآن سوف يبقى محاطا بالتقديس لفترة طويلة من الزمن وفي أجزاء كبيرة من قارة آسيا وخاصة بعد أن دخل السعوديون إلى مكة في ٢٧ فبراير سنة ١٨٠٣ .

في الوقت الذي كان الوهابيون يكتفون هجماتهم على العراق كانوا في نفس الوقت يشنون الغارات على شبه جزيرة قطر . وعلى المنطقة الجنوبية (عمان) وساحل القرصنة ، ففي مطلع عام ١٨٠٠ تحركت قوة من الوهابيين يقدر عددها بسبعمائة رجل بين خيال وراكب جمل ، وكانت وجهتها الظفرة بقيادة سالم الحارق الذي كان من القواد البارزين في جيش الأمير سعود . وكان الحارق عبدا من أصل نوبى ، وفي أوائل فبراير وصلت القوة الوهابية الى واحة البريمي ، أقصى خط دفاعى لعمان من الجهة الشمالية ، وعند وصول الحارق الى تلك المنطقة وجه رسالة الى السيد سلطان بن أحمد فى مسقط ، بدعوه فيها الى اعتناق مذهب محمد بن عبد الوهاب ، ونبد المذهب الاباضى والاعتراف بالسلطة الزمنية والروحية للأمير عبد العزيز ، غير أن السيد سلطان قد رد على رسالة الحارق بشن حملة على سالم الحارق من طريق وادى الجزى ، وقد اشترك فى الحملة مع سلطان أخوه قيس والى صحار ، وقد النقى الجيشان فى البريمي ، ولكن القائد الوهابى عاد أدراجه بسرعة من الواحة واتجه الى رأس الخيمة فى الطريق الشمالى لساحل القرصنة لطلب النجدة من القواسم ، وقد وجد الحارق أن القواسم على استعداد للاشتراك معه فى شن هجوم على آل بوسعيد ، وقد تحرك الحارق والقواسم عبر وادى القور عن طريق ساحل الشميلية غير أنه حوصر من قبل سلطان وقيس اللذين كرا عليه بالهجوم من واحة البريمي ، وقد ارتبك جيش الحارق واضطر الى التراجع الى الواحة عن طريق الساحل ، بينما عقد أنصاره القواسم معاهدة سلام مع السلطان . ولما كان حاكم مسقط مصمما على طرد الحارق من اراضى عمان نهائيا فقد قرر ملاحقتهم ، غير أن جيشه أصيب بنكسة على يد الخيالة انوهابية مما اضطره الى التخلي عن المطاردة ، وقد توصل أخيرا حاكم عمان الى اتفاق مع القائد الوهابى بالتنازل له عن واحة البريمي . ولكن تلك المعاهدة (١١ - بريطانيا والخليج)

كانت أفدح خطأ ارتكبه السيد سلطان في حياته لأن مواطنيه اضطروا لدفع الثمن غاليا عن تلك المعاهدة في السنوات المقبلة (١) .

كان الحارق يعلم أن البريمي هي مفتاح الطريق البري الى عمان ، كما انها المنطقة الوحيدة التي توجد فيها موارد للمياه وسط مئات الأميال من الصحراء القاحلة التي تفصلها عن الأحساء ، بالإضافة الى موقعها على مفترق الطرق بين عمان وساحل القراصنة ، فعلى مسافة ١٢ ميلا الى الشرق تقع سلسلة جبال الحجر الغربى التي يخترقها وادى الجزى الذى يمتد الى الساحل العماني للخليج ، كما أنه يمتد من الشمال والى الغرب الى حدود الشارقة ورأس الخيمة وأبو ظبي ، ومن الجنوب الى طريق ضنك وعبرى والى ماوراءها حتى نزوى وجبرين وأزكى التى هي قلب عمان ، وتبدو البريمي فريدة بموقعها ، فمساحتها نحو ٦ أميال عرضا وهي أقرب ما تكون دائرية فى شكلها . والى الجنوب مباشرة منها يقع جبل حفيت ، وهو مجموعة من الكتل الصخرية الضخمة التى تطل مباشرة على الساحل المحيط بها ، ومن هذه المنطقة ومن السفوح القريبة لجبال الحجر يحصل سكان البريمي على حاجتهم من المياه التى تصلهم عن طريق قنوات جوفية تسمى بالافلاج (١) ، وتوجد فى هذه الواحة بعض القرى التى تحيط بها قلاع بنيت من الاحجار والطين ، اكبرها قصر الخندق الذى يقع من الناحية الجنوبية من قرية البريمي ، ومنه تستمد القرى اسمها ولا يعرف الآن عدد المستعمرات التى كانت فى

(١) متفرقات من أرشيف حكومة بريطانيا مجلد ٤٧١ اعداد من اتمسه .
 بوجل (المقيم البريطانى فى مسقط) الى جوناثان دنكان ١٢ مارس ١٨٠٠ ومجلد ٤٧٢ من بوجل الى دنكان ١٨٠٠/٤/٢ انظر كذلك السادة والائمة فى عمان وتقرير المقيم البريطانى فى الخليج ١٨٨٧ - ١٨٨٨ وسيرة السيد سلطان بن الامام أحمد .

(١) الافلاج (مفردھا فليج) ١٥١

١٦٣ -

الواحة عام ١٨٠٠ غير أن ثلاثة من القرى الموجودة حاليا وهي سعرة وحماسة والعين كانت موجودة بصورة مؤكدة في ذلك الوقت (٢) ، وتضفى خمائل النخيل القريبة من القرى منظرا جميلا على الواحة . وإلى جانب ثمار البلح تنتج البريمي الفواكه بكثرة بالإضافة الى القمح والبن الذي يزرع على منحدرات جبل حفيت، كما تربي فيها المواشي، وتعتبر الواحة المنتج الطبيعي لقبائل البدو في المنطقة الذين يذهبون لمقايضة محاصيلهم أو بيع مواشيهم . وقد قام الحارق ببناء قلعة سماها قصر الصبارة جنوب قصر الخندق، وذلك لتدعيم مركزه في الواحة ، ثم استدار لاختضاع قبائل الظاهرة وساحل القراصنة أو لكسب ولائها ، ومما ساعد الحارق على ذلك هو أن أكثرية قبائل المنطقة الشمالية سنية المذهب ، وتنتمي الى القطاع السياسي الغافري ، ونظرا لأن المذهب السني أكثر بساطة من المذهب الإباضي فقد اعتنقت هذه القبائل المذهب الواهبي بسهولة وأبدوا استعدادهم للاشتراك في أي عمليات للقرصنة ضد الهناوية الذين يقطنون المنطقة الداخلية في عمان .

أما قبيلة النعيم وهي أكبر قبائل البريمي وقبيلة الظاهرة فقد انحازت الى الحارق واشتركت القبيلتان ليس في اخضاع قبيلة الظواهر التي رغم كونها سنية المذهب إلا أنها تنتمي سياسيا الى الهناوية وتدين بالولاء لآل بوسعيد فحسب ، وإنما في اخضاع قبائل الغافرية الأخرى كبنى قتب والشوامس الذين يحتلون الاطراف الغربية لوادي الجزي (١) . أما على ساحل القرصنة فقد واصل الحارق انتصاراته على الغافرية التابعين لاتحاد القواسم الذين وجدوا في المذهب الجديد فرصة أخرى للانغماس في عمليات السلب والنهب والأعمال العدوانية ، على الرغم من أن صقر بن راشد شيخ مشايخ

(٢) أما القرى الأخرى الموجودة حاليا فهي جيمي ، حلى ، والقطارة ، والمطيرد ، والمويقي .

(١) أئمة وسلاطين عمان ص ٢٢٨ - ٣٣٠ ترجمة بادجر .

- ١٦٤ -

القواسم كان يقاوم التسلط الوهابي على المنطقة (٢) وكان الحارق يقبض الزكاة من جميع القبائل الموالية للوهابيين وكانت الضريبة تدفع رسميا للأمير الوهابي .

أما قبائل بني ياس فلم يكن نجاح الحارق معهم كبيرا ، ولكن الوهابيين كانوا يحكمون قبضتهم على عمان الشمالية في الوقت الذي كان سلطان بن أحمد يستنزف طاقاته في محاولات لاحتلال البحرين ، غير أن محاولاته لاحتلال الجزيرة في عام ١٧٩٩ منيت بالفشل ، أما في المحاولة الثانية سنة ١٨٠٠ فقد نجح في إرغام آل خليفة على دفع الزكاة . ولكنهم سرعان ما نقضوا التزامهم هذا مما اضطره إلى شن حملة أخرى عليهم ، وقد اشترك معه في الحملة الأخيرة شيخ بوشهر ، أما شيوخ آل خليفة فقد فروا إلى زبارة في قطر أو إلى الكويت عند أبناء عموماتهم ١٠

وقد أقام السلطان حامية عمانية في جزيرة المحرق وولى عليها نجله الأصغر سالم البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما آنذاك .

وقد استنجد شيوخ البحرين بالأمير السعودي عبد العزيز لاسترجاع البحرين ، وقد وافق على مدّهم بالمساعدة شريطة أن يعترفوا بسلطته ويدفعوا له الزكاة .

وفي عام ١٨٤٠ طرد العمانيون من البحرين وتخلّى سلطان بن أحمد نهائيا عن فكرة الهجوم على البحرين مرة أخرى خوفا من اصطدامه بالوهابيين الذين أصبحت لهم اليد الطولى في سياسة الجزيرة العربية . وقد قرر أن يتوجه

(٢) من التقارير السنوية للمقيمين البريطانيين في الخليج ١٨٨٧ -

١٨٨٨ اعداد مايلز « سيرة حياة سلطان بن أحمد » .

الى الحجاز في شهر يناير سنة ١٨٠٣ لاداء فريضة الحج (١) .

ما كاد سلطان يغادر البلاد حتى انبرى ابن اخيه بدر بن سيف للاستيلاء على السلطة . ولكن محاولته فشلت وفر من البلاد الى عجمان ، على ساحل القراصنة ومنها الى الدرعية عاصمة الوهابيين . وعند وصوله كانت مكة على وشك أن تسقط في أيدي الوهابيين فاستنجد به الشريف غالب ، وعند عودته الى عمان بعث الى الشريف ببعض المال والمقاتلين غير أنهم وصلوا متأخرين جدا بحيث لم يكن من وجودهم أى فائدة . ولكن تلك المبادرة من جانب حاكم مسقط اثار تائرة الأمير عبد العزيز ، فأصدر امره في سنة ١٨٠٣ الى قلته سالم

(١) ان بعض الالتباس يكتنف بتسلسل الأحداث في البحرين فيما بين عام ١٨٠٠ - ١٨٠٢ فلوريمر في (دليل الخليج) ص ٨٤١ - ٨٤٢ يذكران الاحتلال العماني للمحرق امتد من عام ١٨٠٠ - ١٨٠١ غير أن مايلز في كتابه (سيرة السيد سلطان) وفي التقرير السنوى للإدارة البريطانية في الخليج ١٨٨٧ - ١٨٨٨ ص ٢٦ ، ص ٢٧ وروث (في مذكرات حول نجد التقرير السنوى للإدارة البريطانية في الخليج ١٨٧٩ - ١٨٨٠ ص ٣٩ يذكران الاحتلال المذكور قد امتد من عام ١٨٠١ الى عام ١٨٠١ الى عام ١٨٠٢ وعلى أى حال فإن روث يشير في موضع آخر (لمحة عن تاريخ عمان من ١٧٢٨ الى ١٨٨٣ ص ٢٤) بأن الاحتلال العماني للبحرين وقع في عام ١٧٩٩ عندما عين سالم حاكما عليها وان الاحتلال الثانى الذى تم في عام ١٨٠١ لم يدم الا فترة قصيرة . أما فرانسزواردن فيحدد ذلك التاريخ بعام ١٨٠٠ في كتابه (لمحة عن العتوب) وفي عام ١٨٠١ في كتابه (لمحة عن الوهابيين) مجموعة وثائق حكومة بومباي المجلد الرابع والعشرين ٣١٦ ، ٤٢٩) وهو يحدد عامى ١٨٠١ ، ١٨٠٢ كتاريخ لاستعادة آل خليفة للبحرين ويتحدث الكابتن دافيد ستون المقيم البريطانى فى مسقط يومئذ فى رسالة تاريخها ٢٠ يوليو ١٨٠١ عن احتلال متوقع للبحرين ووثائق متفرقة لحكومة بريطانيا مجلد ٤٧٧ وربما كان يشير بذلك الى الحملة الموفقة التى أرسلها السلطان فى ذلك العام

- ١٦٦ -

بأن يشن هجوما شاملا على عمان ، وأن يشجع الوهابيين على القيام بحملات قرصنة ضد سفن مسقط ، كما أرسل أوامر مماثلة الى كل من آل خليفة في البحرين وآل الصباح في الكويت . وفي منتصف الصيف نجح الحارق في اختراق سلسلة جبال الحجر الغربى ، وبعدها اجتاحت الباطنة وارتكب جنوده أعمال سلب ونهب وقتل فى المناطق التى استولوا عليها .

وبنهاية الصيف اضطر السلطان الى طلب السلم ، الأمر الذى تمخض عن عقد هدنة مدتها ثلاث سنوات بين الطرفين ، اشترط فيها أن يدفع السلطان الزكاة سنويا بواقع ١٢ ألف ريال للأمير الوهابى ، وأن يسمح للوهابيين بالدعوة الى مذهبهم حتى يتسنى تحقيق الإصلاحات فى البلاد، ولكن تلك الاتفاقية كانت مجرد خطة لكسب الوقت ريثما تصل امدادات جديدة من نجد .

وبفضل الامدادات الجديدة التى وصلت الى الحارق وبمن انضم اليه من قبائل الظاهرة انقض القائد السعودى على الباطنة مرة اخرى ، وقد التقى بسلطان فى مدينة السوق حيث منيت قوات السلطان بهزيمة اخرى ، ولذلك واصلت قوات الحارق زحفها صوب مدينة صحار وفرضت الحصار عليها . وفى أثناء ذلك وصلت اخبار الى عمان تفيد بأن عبد العزيز قد اغتيل أثناء تأديته الصلاة فى مسجد الدرعية يوم ٤ اكتوبر ، وكان القاتل من الشيعة الفرس ممن ذبح الوهابيون أطفالهم فى كربلاء ، وقد أدى ذلك الى انتشار الفوضى فى صفوف قوات الحارق، وبالتالي رفع الحصار عن صحار ، وتراجع الوهابيون الى البريمى ، وقد انتهز القواسم بزعامة شيخ مشايخهم سلطان بن صقر تلك الفرصة فعقدوا صلحا مع السيد سلطان على الرغم من أنهم لم يكن لهم أى دور فى القتال ، وقد فعلوا ذلك خشية أن يفقدوا مصائد اللؤلؤ التابعة لهم وحذا حذوهم آل خليفة بينما استجاب الكويتيون الى مطالب الوهابيين .

جاءت وفاة عبد العزيز خاتمة لمرحلة من مراحل التوسع الوهابى ، فقد امضى الوهابيون السنوات الاولى من حكمهم فى استغلال المكاسب التى تحققت

لهم في مستهل حركتهم وفي تصفية جيوب المقاومة على الحدود الشرقية والغربية لشبه الجزيرة . وقد تسلم سعود بن عبد العزيز زمام الأمور في أوائل عام ١٨٠٤ فأنجز عملية إخضاع بقية الحجاز لسلطانه . فتقدمت قوة من الوهابيين لفرض الحصار على المدينة والاستيلاء على ينبع الواقعة على البحر الأحمر . وقد استسلمت المدينة للسعوديين في شهر إبريل ، وتم تعيين حاكم وهابي عليها ، كما بدىء في تطبيق التعاليم الوهابية بمنتهى الصرامة ، غير أن الوهابيين لم يمسوا ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم بسوء، وقد تمكن شريف مكة من استعادة سيطرته على هذه المدينة في غمرة الفوضى التي سادتها بعد مقتل عبد العزيز، بعد أن سمح له الوهابيون بالبقاء في الحكم بشرط تطبيق المفهوم الوهابي للإسلام^(١) . وخلال الاضطرابات توقفت مراسم الحج تماما وامتنعت قوافل الحج من فارس من السفر للحجاز، كما تعذر على قوافل الحج من فارس السفر للحجاز ، وتعذر على قوافل الحج السورية أن تصل المدينة في عام ١٨٠٣ . وعلى الرغم من الغضب الذي استولى على الأمة الإسلامية كنتيجة لتلك الأحداث إلا أن المسلمين لم يتحركوا . فقد كان السلطان سليم الثالث مشغولا بالصراعات السياسية في أوروبا والقسطنطينية ، بينما ظهرت بادرآت للرد والانتقام من الوهابيين ، ففي عام ١٨٠٤ دعا سليم باشا الثالث كلا من عامليه في سوريا وبغداد لاعداد حملة عسكرية مكثفة ضد الوهابيين كما بادر سلطان بن أحمد بعد أن علم بأمر تلك الحملة الى التحرك الى البصرة على رأس قوة من الأسطول العمانى للمشاركة فيها ، ولكنه فوجئ عند وصوله بأن باشا بغداد لم يتخذ الاستعدادات الكافية لاعداد الحملة ، ثم تبين بأن

(١) لم يتوقف الشريف غالب في جهوده لاستعادة الحكم في شهر يونيو ١٨٠٤ ووجه نداء الى قائد البارجة فوكس وكانت في ذلك الوقت في البحر الأحمر لمساعدته في طرد الوهابيين من ينبع (وثائق حكومة بريطانيا مجلد ٤٧٩ رسالة من السكاكبتن جى. جى. فاشرن الى جوناثان دنكان بتاريخ ١٨٠٤/٧/١٣ .

الحملة لن تخرج الى حيز الوجود على الاطلاق . وقد عاد السيد سلطان الى مسقط في غاية الاستياء من الاوضاع ، وعند وصول سلطان الى منطقة قريبة من باسيدو ، وعلى الطرف الغربى لجزيرة قشم انتقل من الفرقاطة جنجاوا الى سفينة صغيرة لكي يعبر بها الى الشاطئ ولكنه فوجئ بوجود ثلاث سفن لم تكن في مرمى الفرقاطة راسية بالقرب من الجزيرة ، فانقضت السفن الثلاث على سفينته وأصيب اصابة قاتلة ، ولم يتضح ما اذا كانت تلك السفن الثلاث التى اعترضت سفينة سلطان تابعة لقبيلة الشيوخ التى تقيم في شبه جزيرة مسندم أم لا ، وانها كانت تكمن في تلك المنطقة للسطو على السفن التى تمر بها أو ربما تكون - وهذا أقرب الاحتمالات - سفن القواسم التى كانت موجودة لنفس الغرض ، على أننا لا نستطيع الجزم بأن الهجوم على سفن حاكم مسقط كان خطة مدبرة . وأعقب وفاة سلطان نشوب اضطرابات مسلحة في الخليج ، فقد تحرك القواسم في محاولة لتهديد الملاحة التابعة لسلطنة مسقط ، فتمكنوا بالاشتراك مع أبناء عموماتهم ، سكان لنجة على الساحل الفارسى للخليج وبنى معين سكان قشم وهرمز، من الاستيلاء على هذه الجزر في شهر فبراير ١٨٠٥ ، كما تمكنوا فيما بعد من الاستيلاء على بندر عباس وفرض حصار على ميناء، التى لا تبعد أكثر من بضعة أميال من بندر عباس ، وما أن تمت لهم السيطرة على مضائق هرمز حتى أصبحوا فى وضع يمكنهم من تهديد ومهاجمة أى سفينة قادمة الى الخليج أو ذاهبة منه، وفي أواخر عام ١٨٠٤ استولى القواسم على مركبين أوربيتين هما شنون ورثرمر تابعين لصمويل مانستى ممثل شركة الهند الشرقية في البصرة ، وفي شهر يناير ١٨٠٥ هاجم أسطول من ٤٠ سفينة شراعية تابعة للقواسم طراد الشركة مورنجتون المسلح بـ (٢٤ مدفع) الذى كان وقتها بالقرب من جزيرة بوليور (١) غير أن مدفعية الطراد أرغمتهم على الفرار .

(١) الوثائق السياسية لحكومة بومباي مجلد واحد ، خطاب من الحاكم

العام الى مجلس ادارة الشركة بتاريخ ٢٦ فبراير ١٨٠٥ .

لم تكن هذه الاعتداءات هي الاولى من نوعها التى يقوم بها القواسم على السفن التى ترفع العلم البريطانى، فقد سبق أن اضطرت إحدى سفن الشركة، وكانت تحمل البريد، الى خوض معركة استمرت ثلاثة أيام ضد ستة سفن للقواسم قبل أن يتمكن القواسم من الاستيلاء عليها ويطالبوا بفدية قدرها ٤٠٠٠ روبية ، وفى يناير سنة ١٧٧٩ - كانت السفينة سكركتش فى طريقها من مسقط الى البصرة، وفى الطريق اعترضتها ثمانية أو عشرة سفن تابعة للقواسم، ولكنها تغلبت عليهما جميعا ، وبعد شهر من هذا الحادث تغلبت السفينة على هجوم قام به القواسم عليها أثناء سيرها فى الخليج . وفى عام ١٧٩٠ بينما كانت السفينة باجلرب فى طريقها من البنغال الى بوشهر استولى القواسم عليها بالقرب من مسندم ، وفى يوم ١٨ مايو ١٧٩٧ بينما كانت السفينة باسيم تحمل بريد الشركة هاجمتها نحو ٢٠ سفينة للقواسم بالقرب من جزيرة قيس واستولت عليها وسحبته الى رأس الخيمة ولكن القواسم عادوا وأفرجوا عنها بعد بضعة أيام ، وفى أكتوبر من نفس العام بينما كان طراد الشركة فايبر راسيا فى ميناء بوشهر هاجمته بعض سفن القواسم فى محاولة للاستيلاء على بارود الباخرة والأسلحة التى كانت تحملها ، ولما كان قبطان الطراد وأغلبية البحارة على الشاطئ فقد أصبح الأمل ضئيلا فى إمكان التغلب على القواسم ، غير أن البحارة عرفوا كيف يتصرفون ، فقد قاموا بقطع حبال الطراد ، وبذلك نجحوا فى إحباط محاولة القراصنة ، ثم قاموا بعد ذلك بإطلاق النار على سفنهم لاغراقها .

وقد تم إرسال احتجاج الى الشيخ صقر بن راشد شيخ القواسم الذى رد على الشركة بأن السفن المهاجمة ليست تابعة له وإنما هى لأهل لنجة (١) .

(١) وثائق حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٠٢ ، لمحة تاريخية عن القواسم ، (تأليف اف. و اردن) (والأسطول الهندى) تأليف لؤ الجزء الاول ص ٣١٣ (بلدان وقبائل الخليج) تأليف مايلز فصل اثنين ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ص ٢٨٨ .

- ١٧٠ -

وتختلف اعتداءات القراصنة سنة ١٨٠٤ عن الاعتداءات السابقة لهم ، إذ أن الأخيرة اصطفت بالصيغة الدينية وإن كان من المشكوك فيه أن يكون أمراء نجدهم المحرضين لتلك الاعتداءات (١) . كما أننا لا نتصور أن يكون اعتناق القواسم للمذهب الوهابي هو الذي أثار فيهم نزعة القتال ، كما اعتنق قواسم لنجة المذهب الوهابي ، غير أنه لم يتضح حتى ذلك الوقت أن قواسم لنجة وقواسم رأس الخيمة قد أصبحوا خاضعين للوهابيين ، صحيح أنهم كانوا يدفعون الزكاة الوهابيين إلا أنهم لم يكونوا يسلمون خمس ما يستولون عليه من غنائم إلى السلطات الوهابية في الدرعية ، وهي الزكاة التي اعتاد الوهابيون أن يفرضوها على أتباعهم (٢) .

ولم تظهر الأوساط المسئولة في بومباي اغتباطها لوفاة سلطان وظهور القواسم على المسرح .

وبعد إغلاق دار الاعتماد البريطاني في مسقط في نهاية عام ١٨٠٣ تقلص الاهتمام بهذه البلاد ، ولما توفي أحد المعتمدين البريطانيين هناك ومرض آخر

(١) لا أتصور أن التصرف الأخير للعرب بالقواسم في الاستيلاء على السفينتين تريمر وشانون والهجوم على مورنجتون هي نتيجة لرغبات أو أوامر شيخ الوهابيين (من وثائق مجلس إدارة شركة الهند مجلد ١٩٢ من مانستى الى جرانت (سكرتير حكومة بومباي) بتاريخ ١٩/٤/١٨٠٥) .

(٢) يعتبر الشيخ غديف في لنجة الواقعة على الجانب الفارسي من الخليج قاسميا بالولادة فهو عم سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة على الجانب الغربي من الخليج ولكنه كان وهابيا بالمذهب وكان يدفع الزكاة الى سعود الزعيم الجديد للوهابيين ولأنه كان يقيم على الساحل الفارسي فقد كان يعتبر نفسه مواطنا فارسيا كيفما اتفق رغم أنه لم يكن ياتمر بأوامر شاه فارس الا فيما كان ينفق ومصلحته (وثائق مجلس إدارة شركة الهند مجموعة ٤١٥٥ مجلد ١٩٢ من سبتون الى دنكان مسقط ١٤/٨/١٨٠٥) .

١٧١. ب -

بالحمى لشدة حرارة الطقس اكتفت حكومة بومباي بأن توكل أمر الحفاظ على مصالح البحرية الى السيد سلطان نفسه اعتقادا منها بأن له بوض النفوذ في الخليج ، وان كان ذلك الاعتقاد لم يكن يتفق مع سلوكه السياسي . وقد تبين فيما بعد انه لو أريد لمسقط أن تستمر في القيام بذلك الدور فلا بد من مساندتها والتأييد والمساعدة لها ، وعلى ضوء هذا الاعتقاد طلب الكابتن سيتون في مارس ١٨٠٥ بأن يعود الى مسقط لفتح دار الاعتماد ليقدم مساعدته لاحد المرشحين من أئجال سلطان لتولى الحكم . وقد نصحه جورج بارلو الحاكم العام للهندا في ذلك الوقت بمنح تأييده للمرشح الذي يتعهد باقامة الحكم العادل، ويشترط أن يتم تقديم تلك المساعدة على أسس لا تورط الحكومة البريطانية في حشر ضد مسقط (١) .

وضع الطراد البريطاني مورنجتون تحت تصرف سيتون لتدعيم موقفه في أى قرار قد يتخذه وبشرط أن لا يتعارض مع سياسة السلطان الجديد وفي العمل على استعادة السفن والبضائع التي استولى عليها القواسم ، وقد نيدت حرية سيتون في التصرف الى حد كبير ، وجاء في التعليمات التي صدرت اليه ، انه فيما يتعلق بأى اجراءات قد تتخذ ضد القواسم فينبغى بأن تلتزم منتهى الاعتدال معهم ، وأن تسقى الى تهدئة الأوضاع بالمفاوضات وبأن لا تلجأ الى العنف تحت أية ظروف . . كما ينبغى أن يتجنب أى صدام مع الوهابيين أو أى من الحكومتين التركية والفارسية (٢) وقد سبق أن صدرت نفس التعليمات الى قائد طرادات الشركة (٣) .

- (١) حول مراسلات لخليج ١٨٠١ - ١٨٥٣ ص ٣٤ الحاكم العام للهند الى مجلس حاكم بومباي فورت ولیم ١٨٠٥/١/١٠ .
- (٢) مجموعة من وثائق مجلس ادارة الشركة الحلقة ١٥٥ مجلد ١٩٢ من دنكان الى سيتون ١٨٠٥/٣/٣ ،
- (٣) المراسلات السياسية لحكومة بومباي مجلد واحد من الحاكم العام الى مجلس ادارة الشركة ١٨٠٥/٢/٢٦ ،

لكنه قبل أن يغادر سيتون بومباي كان النزاع على السلطة في مسقط قد انتهى .
فقد عاد السيد بدر بن سيف ابن أخ سلطان من مثقاه بعد زيارته لقطر حال
سماعه بوفاة عمه . وعند وصوله وجد كلا من سعيد وسالم نجلي سلطان
محاصرين من جانب عمهما السيد قيسر بن أحمد والى صحار . فاضطر بدر
الى ان يطلب النجدة من الحاكم الوهابي في الدرعية الذي استجاب لطلبه
بمنتهى السرعة .

تحركت قوة من جنود الحامية الوهابية في البريمي الى منطقة وادي
الجزى وحاصرت صحار ، كما أبحر أسطول من ١٥ سفينة تحمل ١٥٠٠ مقاتل
من البحرين الى مسقط بأمر من الأمير سعود ، وقد أثار وصول الوهابي استياء
عميقا في اوساط العاصمة العمانية خصوصا وأن السفن كانت ترفع أعلاما من
أقمشة الستائر التي نهبها من ضريح سيدنا الامام الحسين بن على في كربلاء ،
وقد اضطر قيس الى الانسحاب من مسقط لمواجهة الوهابيين في صحار ، وبعد
ذلك بوقت قصير عقد صلحا مع بدر بن سيف (١) .

عند وصول سيتون الى مسقط في شهر مايو ١٨٠٥ كان بدر يستعد
لاسترجاع بندر عباس من بنى معين خلفاء القواسم ، وقرر سيتون أن يشترك
مع بدر في الهجوم ، وفي يوم ٧ يونيو غادر الأسطول مسقط ومعهم
الطراد مورنتيجون بندر عباس وبعد قصف استمر طوال اليوم استسلمت
الحامية ، وأعقب ذلك فرض حصار على بنى معين في جزيرة قشم . وفي بداية
يوليو حاول أسطول من رأس الخيمة قوامه ٣٠ سفينة فك الحصار عن البلد
غير أنه وجد نفسه محاصرا في ميناء قشم . ولم يسمح للقواسم بمغادرة الميناء

(١) المراسلات السياسية لحكومة بومباي مجلد واحد مرفق لرسالة
سياسية بتاريخ ٢٢/٤/١٨٠٤ من سيتون الى دنكان مسقط في ٢٣/٥/١٨٠٥
وكتاب « سلاطين وأئمة عمان » ترجمة بادجر ص ١٣ و ١٩ و ص ٢٦٢ - ٢٦٩

— ١٧٣ —

الا بعد أن وقعوا هدنة مدتها سبعون يوما ، وهى فترة كانت تكفى لوصول امدادات الى بدر من أسطول الجيش العمانى الذى كان يومئذ فى طريقه من البحر الاحمر الى البصرة ، كما يتعهد القواسم بتسليم السفينة « تريمر » التابعة لمانستى خلال خمسة وعشرين يوما وحمولتها أو مايعادل الحمولة نقداً .

وأعيدت السفينة لأصحابها فى الخريف . وفى مطلع عام ١٨٠٦ بدأ سيتون يتعامل مع القواسم للوصول الى صيغة اتفاق يتعهدون فيه بعدم التعرض للسفن التى ترفع العلم البريطانى . وفى يوم ٦ فبراير عقد هذا الاتفاق فى بندر عباس مع ممثل الشيخ سلطان بن صقر شيخ مشايخ القواسم ، تعهدوا فيه باحترام ممتلكات شركة الهند الشرقية ورعاياها ، وفى حالة عدم امتثالهم لشروط الاتفاق تفرض عليهم غرامة مالية قدرها ٣٠٠٠٠ نمسوى . أما اذا أرغموا على نقض الاتفاق بأمر الوهابيين فيتعين عليهم اخطار شركة الهند الشرقية فى مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر ، وفى مقابل ذلك تنازل سيتون عن قيمة حمولة السلع التى كانت تنقلها السفينة تريمر وسمح للقواسم بالدخول الى موانئ الهند التى كان محظورا عليهم دخولها منذ الهجوم على السفينتين (٢) .

وفى صيف ١٨٠٥ نشب القتال من جديد بين بدر وقيس ابنى احمد ، وعاد بدر مرة أخرى يستنجد بالوهابيين فى البريمى غير أنه لم يدرك خطورة اعتماده على الوهابية ، ففى أكتوبر ١٨٠٥ كتب الى دنكان فى بومباى بطلب من

(١) مجموعة وثائق مجلس ادارة الشركة مجلد ١٩٢ حلقة ٤١٥٥ من سيتون الى دنكان ٢٥ يوليو ١٨٠٥ .

(٢) مجموعة وثائق مجلس ادارة الشركة مجلد ٢٦٥ حلقة ٥٦٤٦ ملخص للمحادثات السياسية بتاريخ ١٨٠٥/١١/١ ومضمون رسالة من سيتون الى دنكان مسقط فى ٤ مارس ١٨٠٦ ويمكن الاطلاع على الاتفاق المذكور فى كتاب « المعاهدات » اعداد اشيسون فصل ١٠ ص ١٢١ - ١٢٢ .

البريطانيين مساعدته للتخلص من الوهابيين ، وقام سيتون بتزكية طلب بدر وحذر مرة اخرى من انه لو قدر للوهابيين ان يسيطروا على عمان فان هذه البلاد سوف تصبح وكرا للقرصنة ، وسوف تهدد سفنها تجارة الهند الغربية، وتأييدا لهذا الاقتراح اقترح سيتون على بدر بأن يبعث الى دنكان بنسخة من الخطاب الذي تلقاه بدر من الأمير السعودي ، الذي يقول فيه بالحرف الواحد: انك من غير شك سوف تبادر الى دخول الحرب المقدسة معنا ضد الهند فانت في هذه الحرب لا تقاتل من أجلى أنا ولكنه جهاد في سبيل الله (١) . غير أن سيتون كان يبالغ في تقديراته، وإذا كان من المؤكد أن هناك نحو ٤٠٠ خيال من الوهابيين يرابطون باستمرار في بركا على ساحل الباطنة وأن الدعاة الوهابيين يجولون طرقات مسقط يبشرون بالمذهب الجديد ، ويهربون السكان الا أن موجة من الاستياء أخذت تعم الأوساط القبلية ضدهم ، وتحولت الى عدااء سافر شمل قبيلة الظواهر الذين كانوا من أوائل المعتنقين للمذهب الوهابي . وقد أخذ كفاح قيس ضد بدر والوهابيين يتخذ طابعا وطنيا أكثر منه صراعا من أجل السلطة ، وكان هناك شعور عميق بالمهانة في أوساط أسرة آل بوسعيد لاضطرارهم الى دفع الزكاة للوهابيين والاعتماد على حرابهم ، وكان سعيد اصغر انجال سلطان بن احمد شابا في السادسة عشرة وكان يكره بدر ويعتقد بأنه قد اغتصب منه الحكم . وكان سعيد يعتبر في الأوساط القبلية المعارضة للنفوذ الوهابي في عمان البديل الطبيعي لبدر . وكان على رأس تلك الفئة محمد بن ناصر شيخ بنى جابر الذي كان من أكثر المناصرين لوالد السيد سعيد أثناء حياته . وفي صيف عام ١٨٠٦ صمم كل من محمد بن ناصر وسعيد على وضع

(١) نفس المصدر مجلد ١٩٢ حلقة ٤١٥٥ من بدر الى دنكان بتاريخ ٢٢ شعبان ١٢٠٠/٢١ أكتوبر ١٨٠٥ ومرفق به رسالة سعود لبدر ورسالة سيتون الى دنكان بتاريخ ١٨٠٥/١١/١٦ مسقط . انظر ايضا كتاب « لمحة تاريخية عن الوهابيين » تأليف وarden مجموعة وثائق حكومة بومباي فصل ٢٤ ص ٤٣٠/٤٣١ .

— ١٧٥ —

خطة للتخلص من بدر . فاستدرجوه الى بركا التي كان سعيد واليا عليها وهناك طعنوه بخنجر طعنة أودت بحياته ، وقام بعملية الاغتيال أحد العبيد النوبيين يوم ٩ يوليو (١) واستطاع الثلاثة بعد ذلك أن يضلوا الوهابيين المربطين في البلدة ويصلوا الى مسقط حيث قاموا بتنصيب سعيد حاكما على البلاد خلفا لبدر . وقد بادر قيس بن أحمد الى تقديم التهنئة الى ابن أخيه على توليه الحكم وأعرب له عن تأييده له ، وتبعاً لذلك اضطرت القوة الوهابية المربطة في بركا الى الانسحاب منها للبريمي ، وقد كتب سعيد الى جوناثان دنكان ، يعلنه بوفاة بدر وتسلمه السلطة في البلاد (٢) . غير أن السلطات البريطانية في الهند لم ترض عن الطريقة التي تولى بها سعيد حكم البلاد وبالتالي حجت اعترافها به حتى ربيع ١٨٠٧ وحتى عندما اعترفت به بعد ذلك فانها قد أوضحت له بأنها سوف تعتبر عمان دولة محايدة في الصراع القائم بينها وبين فرنسا (٣)، ولفترة من الوقت ظلت الاتصالات البريطانية بحاكم مسقط محدودة . وكانت دار الوكالة مغلقة منذ العام السابق وتقرر تركها مغلقة كاجراء تقشفي من جهة ، وللحد من التورط البريطاني في شئون عمان من جهة أخرى ، وعلى أي حال فإن التطورات التي وقعت فيما بعد أرغمت السلطات البريطانية في الهند الى تغيير موقفها اثر تطور الصراع مع فرنسا

(١) أشار الى هذا الحادث الشيخ منصور في كتابه (السيد سعيد) ج ٤ - ١٤ كما ورد ذكره أيضا في كتاب أئمة وسلاطين عمان ص ١٩ - ٢٠ ، ص ٢٨٩ - ٢٩١ .

(٢) وثائق مجلس الوزراء مجلد ٢٥٧ حلقة ٥٦٥ من سعيد الى دنكان ١٤ جمادى الأول ١٢٢١ الموافق ٣١ يوليو ١٨٠٦ وقد حدد الكتاب الفترة التي تولى فيها السيد سعيد الحكم بين ١٨٠٤ ، ١٨٠٨ وتوضح الرسالة بأن سعيد تولى الحكم في سنة ١٨٠٦ وأن التاريخ الذي أفتيل فيه بدر هو ٩ يوليو ١٨٠٦ . انظر أيضا المراسلات السياسية لحكومة بمباي مجلد ٣ جزء ١ من الحاكم العام الى اللجنة السرية في ١٢/٨/١٨٠٦ .

(٣) انظر اعلاه ص ٧٨ .

وكنيجة لانحياز روسيا وتركيا الى جانب نابليون (١) ، وفى يناير ١٨٠٨ صدرت الأوامر الى سيتون بالعودة الى مسقط لفتح دار المثلثة البريطانية هناك، وقيل له بأن مهمته وان كانت تنحصر فى مراقبة أى تحركات للفرنسيين ومحاولاتهم لإنشاء قاعدة لهم فى الخليج الا أن عليه أن يهتم بالأوضاع فى عمان ، وبعد وصول سيتون بعث بتقرير غير مطمئن الى رؤسائه جاء فيه « أن الحكومة الحالية غير مستقرة ولا يؤيدها الشعب . وأن السلطان بحكم صغره وقلة خبرته قد فقد النفوذ الذى كان لوالده فى الخليج . ولأنه لم يظهر الاهتمام اللائق بشيوخ القبائل الذين وفدوا انفض عنه حتى أصدقاؤه، كما أن سلطته لا تتجاوز الجزء الساحلى من عمان : أما المنطقة الداخلية فانها تدفع الزكاة للوهابيين ، ولولا خضوعه المشين للوهابيين لما ترددوا عن الزحف على ساحل عمان واحتلاله ، وتم استدعاء سيتون لسوء الحظ بعد بضعة أسابيع وكلف بنهمة أخرى فى السند مما حرم حكومة بومباى من مصدر موثوق للمعلومات عن التطورات المزعجة فى الجزء الشمالى من عمان وعلى امتداد ساحل القرصنة طوال بقية العام ، وفى سنة ١٨٠٧ توفى السيد قيس أثناء محاولة كان يقوم بها لطرد القواسم من خورفكان على ساحل الشمالية وكانوا قد احتلوا ذلك المرفأ فى أعقاب الفوضى التى أعقبت وفاة بدر .

بعد وفاة بدر بادر السيد سعيد الذى اشترك فى الحملة التى قام بها فيس على الوهابيين الى تعيين وال من أنصاره فى صحار ، وبذلك قطع الطريق على عزان نجل قيس لتولى ولاية المنطقة وبهذا الاجراء خلق لنفسه خصما جديدا فى شخص عزان . وفى خريف العام اختلف سعيد مع محمد بن ناصر شيخ بنى جابر وأكبر المؤيدين له ، فغادر الأخير مسقط مستاء وبدأ يرأسل الأمير السعودى . ومن السرعة التى استجاب بها الأمير السعودى لمحمد بن ناصر يتضح كيف أن الوهابيين كانوا يتحينون الفرصة لاستكمال سيطرتهم

- ١٧٧ -

على المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة ، ففي خريف سنة ١٨٠٧ أرسل العاهل السعودي قوة كبيرة الى البريمي بقيادة مطلق المطيري، وكان من أقدار القواد الوهابية وعند وصول مطلق الى البريمي بدأ فى بناء قلعة ضخمة وكان يرمى من وراء ذلك الى مد سيطرته ليس على واحة البريمي وحدها. وإنما على منطقة الظاهرة كلها .

كذلك تحالف المطيري مع أقوى زعماء قبائل المنطقة الشمالية من عمان امثال أحمد بن ناصر شيخ بنى غافر ، ومحمد بن ناصر شيخ بنى جابر، وعزان بن قيس والى صحار . وعين كل واحد من هؤلاء مسئولاً على منطقته وتابعاً للدرعية فى صلاحياته ، كما شملت سياسة مطلق اجراء بعض التعديلات فى ساحل القرصنة ، فقد أعفى سلطان بن صقر من مشيخته للقواسم فى خريف سنة ١٨٠٨ لأنه لم يظهر تحمسا لقضية الوهابيين . وفى نهاية العام قبض على صقر ثم نقل سجيناً الى الدرعية . وقد عين مكان سلطان حسين بن على شيخ رمس كنائب للأمير الوهابى وشيخاً على القواسم وارتفعت قيمة الزكاة السنوية التى كانت تدفع لحكام مكة من ٤٠٠٠ ريال نمسوى الى ١٢٠٠٠ ريال نمسوى. وصدرت الأوامر الى حسين بن على بأن يلقي الى البحر بكل سفينة لديه لتعمل باسم الوهابيين ضد الهراطقة والمرتدين والكفار على السواء ، وأن يرسل بخمس الغنائم التى يستولى عليها الى الدرعية(١) .

(١) أنظر الوثائق السياسية والسرية لحكومة بومباى حلقة ٤٨٣ مجلد (٢) مجموعة ٢٤ مارس ١٨٠٩ من سيتون الى مالكولم مسقط ٦ ، ٩ ، ٢٠ ، ٢٢ فبراير ١٨٠٩ ويقدم فرانسز واردن صورة مختلفة بعض الشيء عن أحداث المنطقة الشمالية من عمان خلال فترة ١٨٠٧ ، ١٨٠٨ فى كتابه «لمحة» (مجموعة وثائق حكومة بومباى المجد ٢٤) ويرجع سبب هذا الاختلاف فى الأساس الى سوء فهم واردن عندما ألف كتابه فى عام ١٨١٩ ، أما وجهة نظر سيتون فتتفق مع رأى المؤرخ العماني ابن رزيق فى كتابه « أئمة وسلاطين عمان » ترجمة بادجر ص ٢٩٤ الى ٢٩٨ رغم أن الغموض الذى يحيط بالتاريخ الذى أشار اليه ابن رزيق .

(١٢ - بريطانيا والخليج)

وفي يوم ٢ مايو ١٨٠٨ هاجمت سفينتان تحملان نحو ٥٠٠ رجل ، طراد الشركة « فيوري » الذي كان في طريقه من البصرة الى بومباي . وقد وقع الهجوم بعد الظهر في منطقة تقع على بعد بضعة فراسخ الى الشرق من مسقط ، وبعد مطاردة دامت عدة ساعات تمكنت مدفعية الطراد من ابعاد بحارة السفينتين عن الطراد (١) ثم بعد اسابيع ثلاثة التقت السفينة منيرفا التابعة لمانستي بأسطول من سفن القواسم يقدر بنحو ٥٠ قطعة بحرية بالقرب من رأس مسندم ، وكان ذلك يوم ٢٣ مايو . وقد ظلت السفينتان تدافعان لمدة يومين الى ان استولى عليها القراصنة ، وقد قتل معظم بحارة السفينة وركابها ، ومن الذين نجوا من الذبح السيدة روبرت تايلور حرم اللفتنانت تايلور أحد العاملين بمكتب المقيم البريطاني في البصرة ، وكذلك طفلها الرضيع ، وقد نقلت السفينة الى رأس الخيمة وتم تفريغ حمولتها من السلع ومن التركيبات الاخرى ، ثم اعيدت الى البحر لتعمل ضد السفن الاخرى . وقد تم الافراج عن معظم الاسرى فيما بعد ومن بينهم السيدة تايلور التي باعها أحد شيوخ القواسم الى أحد المواطنين العرب في البحرين بمبلغ ٦٧٠ ريال نمسويا وقد دفع المقيم البريطاني فدية ١٠٠٠ ريال نمسوي (٢) لقاء الافراج عنها .

منذ ذلك الوقت بدأ القواسم يخرجون الى البحر في مجموعات تتألف من ١٥ الى ٢٠ سفينة كل منها بقيادة نائب يتبع حسين بن علي نائب الأمير

(١) الوثائق السياسية والسرية لحكومة بومباي حلقة ٣٨٣ مجلد ٤٥ المحادثات السياسية بتاريخ ١٠/٥/١٨٠٨ من اللفتنانت جوان قائد (الطراد فيوري) الى وليام مونى (رئيس البحرية) ١٠/٥/١٨٠٨ «والأسطول الهندي» تأليف لو ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر حلقة ٣٨٣ محادثات ٨/٩/١٨٠٩ من بوراه على منجى (أحد ركاب منزنا) الى سيتون يوليو ١٨٠٩ نفس الحلقة مجلد ٢ محادثات ٦/١٢/١٨٠٩ . من وليام بروس (المقيم البريطاني في بوشهر) الى فرانسيز واردن سكرتير الحكومة ١٧/١٠/١٨٠٩ .

١٧٩ -

الوهابي . ونظرا لضعف تسليح هذه السفن من حيث الأسلحة التقليدية فقد كانت تتبع طريقة خاصة ، وهي أطباق سفن القراصنة على السفن التي يريدون اقتحامها . والواقع أن كل من يحاول مقاومتهم أو حتى من لا يحاول مقاومتهم يذبحونه ذبح النعاج . وقد وصف أحد ضباط الأسطول التابع لحكومة بومباي أسلوب القواسم بقوله :

« فيما يتعلق بالقواسم فأننى لا أستطيع أن أتصور كيف أن هؤلاء الناس الدين ليست القسوة من طبيعتهم ان يتخذوا من الوحشية والعنف سبيلا للتخلص من أسراهم . فهم يقتربون هذه الجرائم ببرود رهيب مما يضاف على العملية لونا دنيئا يتخذ أسوأ أنواع القسوة والوحشية ، هذا على الرغم من أن عقيدتهم الدينية لا تبيح لهم تلك الأساليب الوحشية ، ومن عادة هؤلاء أنهم بعد أن يستولوا على إحدى السفن يقومون بغسلها بالماء ورشها بماء العطور ثم يقودون بحارتها واحدا تلو الآخر ويعلقون رأسه على فوهة المدفع ثم يبترون رأسه وهم يرددون عبارة الله أكبر » (١) .

وقد قدرت عدد وحدات أسطول القواسم في ذلك الوقت بـ ٦٣ سفينة من الحجم الكبير و ٨١٠ من الحجم الصغير ، يديرها ما لا يقل عن ١٨٠٠٠ الى ٢٥٠٠٠ مقاتل (٢) وكان أغلب السفن يأتى من الشارقة ورمس وإن كان البعض منها يأتى من لنجة ونخيلو وغيرها من الموانئ الفارسية . وكان القسم الأكبر من بحارة هذه السفن يعملون في الغوص وصيد الأسماك ، وبالتالي فإن أسطول القتال القاسمى لم يكن فى الواقع يزيد على ٧٠ الى ٨٠ سفينة (٣) .

(١) « مدينة الخلفاء » فصل واحد ص ١٠١ تأليف ويستد .

(٢) الوثائق السياسية لحكومة بومباي حلقة ٣٨٣ مجلد ١٣ محادثات

٦ يناير ١٨١٠ مذكورة من جوناثان دنكن (يناير ١٨١٠) .

(٣) راجع الوثائق السياسية والسرية لحكومة بومباي حلقة ٣٨٣

محادثات ١٨٠٩/٨/٢٥ من مانستى الى دنكان ، البصرة فى ١٨٠٩/٧/٨ .

أما في البر فقد كان القواسم يرمون بثقلهم الى جانب مطلق المطيري
ليتمكن من تشديد قبضته على عمان على الرغم من أن قسوته وصلاحيته كانت
تدفع بقبائل الظاهرة الى التخلي عنه ، فقد كان حمد بن ناصر يرفض أن يعمل
معه في بناء القلاع والحصون لاقامة رجال الحامية الوهابية ، ولهذا الغرض
عرض سرا على السيد سعيد بأن ينضم اليه ، غير أن السيد سعيد رفض
عرضه لعدم ثقته فيه . أما محمد بن ناصر الذي ضاق ذرعا بمعاملة مطلق
القاسية فقد استغاث بالسيد سعيد ، ولكن سعيد زج به في السجن ثم أفرج
عنه أخيرا .. وكذلك عزان فقد تخلى عنه الوهابيون وانضم الى السيد سعيد
بعد أن أقسم لسعيد بأنه كان يفضل الموت بدلا من أن يبقى تحت رحمة مطلق .
غير أن كل هذه الانشقاقات لم تضعف مطلق بأي حال من الأحوال . فقد
استطاع بتأييد القواسم من احتلال مدينة شناص الساحلية الواقعة شمال
مدينة صحر وطرذ عزان منها . وفي أواخر عام ١٨٠٨ كانت معظم مرافئ
الساحل الشمالي بما فيها خورفكان والفجيرة ودبا وخور كلية تحت
سيطرة مطلق ، ومن هذه الخلجان كان من السهل على القواسم الانقضاض على
المراكب التجارية التي ترتاد خليج عمان . وكان ساحل الباطنة هدفا لغارات
متواصلة من مطلق وأتباعه . وكانت غاراتهم تتسم بالهمجية والقسوة بحيث
أن فظاعتهم السابقة تبدو ضئيلة الى جانبها ، وفي الوقت الذي كانت عمان
تتألم وتدمى تحت ضربات مطلق المطيري تقدم السيد سعيد بطلب الصلح (١)
مع الوهابيين سنة ١٨٠٨ .

(١) وثائق حكومة بومباي السياسية والسرية حلقة ٣٨٢ مجلد ٥٥
محادثات ١٠ ديسمبر ١٨٠٥٨ من كيش داس « سمسار الشركة في مسقط »
الى دانكن ١٧ رمضان ١٢٢٣ الموافق ٧ نوفمبر ١٨٠٨ والحلقة ٣٨٣ مجلد ٢
محادثات ٢٤ مارس ١٨٠٩ من سيتون الى مالكولم مسقط ٦ ، ١٩ ، ٢٠ فبراير
١٨٠٩ .

١٨١ -

استأنف القواسم نشاطهم القرصنى فى خريف ١٨٠٨ على اثر انتهاء موسم اللؤلؤ ، وقد استهلوا ذلك النشاط بهجوم وحشى وجريء على الطراد سيلف المسلح بثمانية مدافع والتابع لوحدات اسطول بومباى .

وقد وقع الهجوم عند مدخل الخليج يوم ٢٠ اكتوبر حيث كان الطراد سيلف احدى قطع الاسطول التى رافقت هارفورد جونز فى رحلته الى بوشهر فى طريق العودة الى بومباى برفقة الفرقاطة نيريد (٣٦ مدفعا) . وفى نحو الظهر يوم ٢٠ اكتوبر بينما كانت السفينتان بالقرب من رأس مسندم ظهرت فجأة سفينتان كبيرتان قريبا منهما وكانتا خارجتين من الخليج . ولما كان الطراد سيلف أسرع من الفرقاطة فقد كان أقرب الى السفينتين من الفرقاطة ، واستدارت السفينتان الكبيرتان وأطبقتا عليه وقد أبطل قبطان الطراد اللفتنانت وليم فى اطلاق النار على السفينتين حتى ضاعت الفرصة من يده، فتمكن بحارة احدى السفن من مهاجمة الطراد وصغوث بحارتهما على سطحه ، ولما كان البحارة أكثر عددا من رجال الطراد فقد تغلبوا عليه ، وقد ذكر القبطان جراهام بعد ذلك بأنه لم يتمكن من اطلاق مدافعه على المهاجمين بعد أن داهموا الطراد وذلك بسبب هياج البحر والريح ، كما أن رجال الطراد لم يتمكنوا من تصويب المدافع على السفينتين لابلادة بحارتهما ، لأن القبطان أصدر أمره الى رجاله باستخدام الأسلحة الصغيرة لمنع بحارة السفينتين من الصعود الى سطح الطراد ، وقد نجحوا فى ذلك غير أن سطح الطراد لم يتسع لرجال الطراد والقراصنة الذين احتلوا الجزء الأكبر منه ، وبذلك تغلبوا علينا، وقطروا السفن (١) الى قواعدهم ، أما السفينة « نيريد » التى حاولت طوال العملية مساعدة الطراد « سيلف » فقد انطلقت تطارد سفن القرصنة ، وفى نحو الساعة الرابعة أصبحت نيريد فى تمكنا من اطلاق مدافعها على القواسم

(١) الوثائق السياسية والسرية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٢ مجلد ٥٣

مخادثات ١٨٠٨/١١/١١ . من جراهام الى وليم مونى بومباى ١٨٠٨/١٠/٢٨

وقد أرسل « نيريد » الى القائد العام لاسطول الهند الشرقية بالتقرير التالي عن هذه العملية .

« ففى الساعة الخامسة عندما كنا على مقربة منهم بعد أن التحمنا بهم عدة مرات انزلت أشعة المقدمة ، أما الأقرب الى المؤجرة فقد أخذ يسير بالقرب منهم لانتشال من نجا من البحارة ، وبينما كنا فى هذا الوضع كنا نبتعد بضعة امتار ، ولكن ياصاحب السعادة قد لا تصدقون أنه مع ذلك وعلى الرغم من أننا اخذنا نحبيهم بالعربية فقد ردوا علينا بتهديدات وحشية من التحدى ، وامطرونا بالرصاص وأخذت احدى السفن التى تركها بحارتها تميل الى الفرق بينما أقلعت الأخرى شرايعها وانطلقت وسط الريح العنيفة فى الوقت الذى كان اصحابها يصيحون ويطلقون النار من فتحات السفينة . لقد أصبحنا تحت الدعامة السفلى للسفينة . لقد كان الوقت ليلا ولكنى استطعت أن اعرف أن السفينة قد مالت الى الفرق وسمعناهم ينزحون الماء منها ، وعندما اقتربنا لصعود المركب ونحن نطلق النار اكتشفت بأنه بعد أن تغلب القواسم على البحارة بمنتهى السهولة بترؤوس جميع بحارتها وهم الضابط المساعد وستة وعشرين جنديا اقلبهم من الهنود . أما القبطان فقد نجا من الموت بادخاله الى قبو السفينة تحت صخرة ضخمة بعد أن أصيب بعدة طعنات وجروح .

وعلى أى حال فقد كان فى الامكان تجنب كارثة الطراد سيلف لو أن قائده تمكن من اطلاق النار على القواسم فى وقت مبكر من العملية ، ولكنه كما ذكر فيما بعد فى تقريره . . . لقد كنت مصمما على ألا أبدا بالهجوم حرصا منى على الالتزام بتعليمات حكومتى فى هذا الشأن (١) . فبعد حادث الطراد « فيورى »

(١) على أن هذه السياسة قد تعرضت فيها بعد الى نقد لاذع ومركز من جانب مؤرخ الاسطول الهندى : « ان الحكومة بارسالها سفنا صغيرة ومهلهلة الى مياه الخليج كالطراد سيلف حمولة ٨ طن أى اقل من ثلث حمولة أى سفينة حربية للقواسم التى اعتادت أن تبحر فى مجموعات تحمل المئات

- ١٨٣ -

فى شهر مايو من العام السابق أخطرت الحكومة جميع قباطنة الطرادات بأن يتجنبوا استفزاز القواسم أو إطلاق النار عليهم إلا إذا بدأوا هم بالهجوم على الطرادات ، وعلى أى حال فلم يكن سلوك قائد الطراد « سيلف » ينم عن الجبن . فحتى ذلك الوقت لم تكن السلطات المسئولة فى الهند تعرف شيئا عن مدى العلاقة بين القواسم والوهابيين ، وبالنظر الى ما كانت تتعرض له امكانيات الشركة من استنزاف بسبب الحرب الفرنسية والصراعات داخل الهند فقد كان احتمال الدخول فى مواجهة أخرى مع الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية أمرا غير وارد فى سياسة الشركة فى تلك المرحلة ، كما لم تكن بريطانيا تفكر ، بعد أن عاد نابليون الى استئناف نشاطه فى الهند الشرقية ، فى أن تفتح بريطانيا جبهة أخرى ضد الأمير السعودى ، وتأسيسا على ذلك فقد طلب الى هارفارد جونز بأن يجرى اذا ما فيشلت مهمته فى فارس بعض الاتصالات مع الأمير السعودى ، كما أصدر مبنو تعليمات مماثلة الى مالكولم فى أواخر عام ١٨٠٨ .

كما صدرت أوامر مشابهة من منتو الى مالكولم فى أواخر ١٨٠٨ (١) وبصرف النظر عن الاعتبارات السياسية كانت حكومة الهند تنقصها الامكانيات اللازمة لشن حملة فعالة ضد القواسم . فلم تكن بحرية بومباى تملك أكثر من ١٢ سفينة فى سنة ١٨٠٨ لتباشر مهامها المختلفة فى المناطق البحرية الواقعة بين كلكتا والسويس وحتى لو كان فى وسع الشركة أن توفر مثل تلك القوة

== من الرجال على سطوحها انما كانت فى الواقع تعتمد التضحية بسفنها والأدهى فلى من ذلك هو التضحية بتجارة تلك السفن وفى الوقت الذى كانت الحكومة تخسر هيبتها وسمعتها فقط كان البحارة يدفعون الثمن من أرواحهم .
(١) انظر اعلاه ص ٨٣ - ٩٢ وقد تم فعلا إعداد خطة قبمها فلانيشية الى مجلس الهند فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠٨ بعد رجوعه من البحر الاحمر وذلك لعقد جلف مع سعود الذى كان وقتها فى خصام مع امام اليمن وذلك لتأمين تجارة الصادرات مع تلك البلاد (راجع مذكرة فلانيشيا ١٨٠٨/١٣/١٨٠٨)

١٨٠٨ ت

العسكرية للهجوم على معاقل القراصنة في الخليج قد ضاعت تلك الفرصة بسبب مشروع حملة مالكولم في اواخر عام ١٨٠٨ لاحتلال جزيرة خرك والتي كانت سببا في نفاد الاحتياطي من الرجال .

ورغم ذلك فلم يكن دكان على استعداد لان يتفاضى عما وقع للطراد سيلف دون انتقام ، ففي ١١ نوفمبر اصدر امره للطرادتين ماوث (١٦ مدفعا) بالابحار الى الخليج للقيام بدوريات متواصلة في المنطقة الواقعة بين مسقط وبوشهر وبلاستيلاء على اى سفن للقواسم وتدميرها كي يثوب زعيمهم الى رشده ويدرك فظاعة الاعتداءات التي يقوم بها اتباعه والعمل على وقف تلك الأعمال رغبة في تحقيق الامن في المنطقة لمصلحة الطرفين (١) . غير ان الطرادتين ماوث لم يتحرك اطلاقا فقد بقى في مكانه توقعا لان يحتاج اليه مالكولم بعد عودته من كلكتا . وفي شهر نوفمبر ظهرت قطع اسطول القواسم في مياه الهند للمرة الاولى ، فقد هاجمت اربعون سفينة من سفن نقل البضائع في اقليم كنتس ، وفي يوم ٢٦ نوفمبر خاض الطراد لفيلى معركة ضد اربع سفن للقواسم على ساحل كجرات (٢) . كما اغترض

(١) الوثائق السرية والسياسية لحكومة بومباي حلقة ٣٨٢ مجلد ٥٣ محادثات ١٨٠٨/١١/١١ قرار المجلس بنفس التاريخ انظر ايضا نفس الحلقة مجلد ٥٤ محادثات ١١/٢٦ محاضر دكن ١٨٠٨/١١/٢٤ .

(٢) بعد ثلاثة ايام على هذا الحادث تسببت السفن الى مرافئ سورت حيث حاولت ان تختفى وسط غيرها من السفن البراسية هناك ولكن وجود جرحى في السفينة كشف عنهم ووضعت السفن وبخارتها تحت الحجز بأمر الكيودور المسئول عن البحرية في سورت ومن هناك ارسلت السفن الى بومباي حيث احتجزت لبعض الوقت حيث أفرج عنها بعد ان تلقت كفايتها من العقاب . الوثائق السياسية والسرية لحكومة بومباي حلقة ٣٨٢ مجلد ٥٥ محادثات ١٨٠٨/١٢/١٧ من السكايتن ار. رذن الى وليام مونى صورة ١٨٠٨/١٢/٤ « الاسطول الهندى » تأليف ليو فضل واتخذ ض ٣١٩ .

١٨٥ -

القواسم مجموعة من عشرين سفينة تجارية في شهر نوفمبر ، وفي أوائل ديسمبر تقدم حوالى ثلاثين من اكابر التجار الفرس بعريضة الى الحاكم يطالبون باتخاذ اجراءات ضد القراصنة ويعلمون فيها أنهم سوف يضطرون الى وقف تجارتهم اذا استمر القواسم فى الاعتداء عليهم .

وقد أصدر دنكان تعليماته الى قائد بحرية بومباى لاعداد قوة على الفور لتطهير منطقة الساحل الشمالية من القراصنة والاستيلاء على أكبر عدد من سفنهم أو حرقها أو تدميرها (١) .

وكان من رأى دنكان أنه لا يصح اتخاذ اجراءات أشد حتى يعود مالقولم الذى كان قد كلف بالاشراف على المصالح البريطانية فى الخليج . غير أن اهتمام مالقولم كان منصبا على موضوع جزيرة خرك ، وأول شيء طلبه بعد عودته الى بومباى هو تقرير عن القوة التى أعدت بمزيد من المعدات ، أما فيما يختص بالشئون العربية فقد كان الاقتراح الوحيد الذى عرضه مالقولم هو عودة الكابتن سيتون الى مسقط كمقيم بريطانى (٢) .

وصل سيتون الى مسقط فى مستهل شهر يناير ١٨٠٩ حيث اكتشف ان القواسم قد أصبحوا يشكلون خطرا على خطوط الملاحة الرئيسية ، وأن حسين بن على نائب الحاكم الوهابى قد طلب من حكومة بومباى أن تدفع له زكاة مقابل سماحه للسفن البريطانية بالمرور فى الخليج كما عرف سيتون هناك لأول مرة بما كان يجرى فى شمال عمان ولس بنفسه قوة الخطر الوهابى على تلك المنطقة . ففى مسقط كان الدعاة الوهابيون يبشرون علنا بمذهبهم ، وكان الأهالى يعيشون فى خوف منهم . وكان السيد سعيد قد طلب من الحاكم

(١) نفس المصدر مجلد ٥٥ محادثات ١٨٠٨/١٢/٣ قرار مجلس الهند

بنفس التاريخ .

(٢) نفس المصدر محادثات ١٨٠٨/١٢/١٠ من مالقولم الى دنكان

بتاريخ ١٨٠٨/١٢/٩ .

السعودى بأن يعيد اليه بلدة شناس وغيرها من المناطق الواقعة على السباجلة الشمالى من عمان والتى استولى عليها مطلق المطيرى والقواسم ، ورد عليه الحاكم الوهابى بأن عودة الاراضى الى سعيد مشروطة بموافقته على الاشتراك مع القواسم فى الهجوم على البصرة ونهب السفن الهندية (١) .

وقد نجح سيتون فى اقناع مالكولم الذى وجد بعد ذلك وقتا لديه يخصصه لشئون الخليج بعد صرف النظر عن مشروع جزيرة خرك فلقد أصبح التدخل البريطانى امرا مفروغا منه اذا اريد لعمان أن تتحرر من الخضوع للوهابيين كمشيخات القواسم .

وقد هدد الأمير الوهابى أنه اذا رفض السيد سعيد اقتراحه بالاشتراك مع القواسم فى مهاجمة البصرة وفى غيرها من أعمال القرصنة فانه ينوى أن يصل بنفسه الى عمان فى الربيع بعد الانتهاء من أداء فريضة الحج . وبالتالي فقد أصبح يتعين على سعيد أن يقوم بتعزيز قواته ودفاعاته لصد أى هجوم قد يشنه عليه الوهابيون . ولكى يتحقق له ذلك فقد كان لابد من استعادة سيطرته على شناس وساحل الشمالية . غير أن ذلك لم يكن يتحقق بغير دعم بحرى وعسكرى من حكومة الهند . وعلى ضوء تلك الاعتبارات دعا مالكولم الحاكم العام فى الهند الى الموافقة على اعداد حملة عسكرية لوضع حد لنشاط القواسم ومساعدة عمان للاحتفاظ باستقلالها ضد تهديد الوهابيين (٢) .

(١) انظر اعلاه ص ١١٠ - ١١٢ من تقارير سيتون شهر فبراير

١٨٠٩ .

(٢) وثائق حكومة بومباى السياسية والسرية حلقة ٣٨٣ مجلد ٢

محادثات ١٨٠٩/٣/٢٤ من سيتون الى مالكولم ١٩ ، ٢٠ فبراير ١٨٠٩ مجلد ثلاثة محادثات مايو ١٨٠٩ من مالكولم الى ان. بى ادمون سيتون ٩ مارس

١٨٠٩ .

وبعد تردد وافق منتو على مقترحات مالكولم ، ويتاريخ ٤/٣ أوعز إلى
 دنكان بإعداد قوة من الأسطول للعمل ضد القواسم ، فقد اقتنع منتو بأن
 القواسم هم مفاح المواقف في عمان والخليج حتى ذلك الوقت ، وإلى أن يبدأ
 الأمير السعودي في توجيه اهتمامه بجنوب شرقي الجزيرة . ولم تكن لطلق
 الصلاحيات الكافية لتحدي نفوذ السيد سعيد في الوقت الذي كان القواسم
 من ناحية أخرى وتحت قيادة حسين بن علي سادة الموقف في البر والبحر ،
 فإذا أمكن توجيه ضربة قاصمة للقواسم في البحر وطردهم من منطقة الشيميلية
 فإن ذلك سوف يخدم هدفا مزدوجا ، فهو من جهة واحدة سيمنح حكومة الهند
 من الانتقام للاعتداءات التي يشنونها على السفن البريطانية والحد من هذا
 الخطر في المستقبل ، أما من الجهة الأخرى فإنه سوف يسمح لسعيد بتقوية
 وسائل دفاعه . وعلى أي حال فقد حذر منتو دنكان بأن عليه أن يلتزم بأهداف
 الحملة وأن لا يتعداها بأي حال من الأحوال .

* * *

وكان من رأينا أن يقتصر نشاط الحملة على البحر وأن يكون الهدف
 منها تدمير سفن القرصنة وبأنه لا يجوز استخدام هذه القوة وجنودها بأن
 ينسحبوا على البر مع أي قوة برية عاملة في الجيش العماني، كما ينبغي العلم بأن
 الهدف من العمليات التي ستقوم بها الحملة هو استعادة الموانئ البحرية
 التابعة للسيد سعيد والتي هي حاليا تحت سيطرة القواسم ، كما أننا لا نعتقد
 أن هذه العمليات ستحد من حرية هذه القوة في إطار المسؤولية المحددة لها
 غير أنه لابد والحالة هذه من توضيح نقطة على جانب كبير من الأهمية ، سواء
 بالقول أو بالفعل ، وهي أن الحملة ليست موجهة بصورة عامة ضد الوهابيين
 ولكنها وإنما بصورة خاصة ضد العناصر التي تمارس القرصنة والتي ما تزال
 تهدد الملاحة في الهند والخليج (١) حتى الآن .

(١) نفس المصدر مجلد ٣ محادثات ٦ مايو ١٨٠٩ من الحاكم العام

إلى مجلس حكومة بومباي فورت وليام ١٨٠٩/٤/٣ .

وكان رأى دنكان ان تغادر الحملة على الفور غير أن مالكولم رأى تأجيلها حتى أغسطس أو سبتمبر . فقد كان فصل الرياح الموسمية على وشك أن يبدأ في المنطقة الغربية في المحيط الهندي ، وكان هذا يعنى أن السفن المتجهة إلى الخليج يتعين عليها أن تسلك الطرف الجنوبي الأطول بحيث يستغرق وصولها إلى الخليج شهراً على الأقل . وكان من رأى مالكولم أن هذه فترة يجب أن تستغل في جمع المعلومات عن المعازل الرئيسية للقراصنة وقن قوتهم البحرية والعسكرية كما طلب بأن يظل موضوع الحملة سرا حتى يكون لعنصر المفاجأة أثرها في فاعلية الحملة . كما أمر بمنع تصدير الأخشاب من ساحل « ملابار » إلى الخليج حتى يحرم القواسم من المواد الخام اللازمة لبناء مزيد من السفن (١) أما سيتون شأنه شأن دنكان فقد كان يعارض تأخير الحملة بحجة أنه إذا أريد للحملة أن تنجح في مهمتها فعليها أن تفاجئ سفن القواسم وهي في مرافئها في فصل الصيف .

وقد وجد مالكولم مؤيدا قويا في شخص الكابتن جى . وين . رايت (من البحرية الملكية) الذي كان عين قائدا للقوات البحرية مما اضطر دنكان إلى الموافقة على تأخير الحملة إلى فصل الخريف (٢) .

وفي الأسبوع الأول من سبتمبر كانت الحملة قد استكملت استعداداتها وأصبحت جاهزة للتحرك ، وكانت القوة تتألف من القرافطة لاشيفون (٣٦ مدفعا) وكارولين (٣٦ مدفعا) وكانت الطرادات الخاصة بالشركة تتألف من الطراد مورنج تون (٢٢ مدفعا) وتين موش (١٦ مدفعا) وترويت (١٦ مدفعا) وتوتلس (١٤ مدفعا) وأوروره (١٤ مدفعا) وفيستال (١٠ مدافع) وأريال (١٠ مدافع) وفيري (١٠ مدافع) وسفينة القذائف ستروم بولي ، أما بالنسبة للوحدة العسكرية فقد كانت مكونة من فصائل من الفرقة السابعة والأربعين

-
- (١) نفس المصدر من مالكولم إلى دنكان ١٨٠٩/٥/١ .
 (٢) نفس المصدر محادثات ٢٤ يونيو ١٨٠٩ محاضر دنكان نفس التاريخ
 ومن وين رايت إلى دنكان ١٨٠٩/٦/٢٠ .

والخامسة والستين ، ومن مدفعية بومباي ومن الوحدة الثانية ومن الفرقة الثانية ومن مشاة الهنود في بومباي ومن وحدة بومباي البحرية ومن بين مجموعة الضباط الأربعة والخمسين ونحو ١٣٠٤ فرداً، فقد كان أكثر من نصفها من الأوربيين . أما كارولين وأربعة طرادات أخرى وعليها فصيلة من ٨٠ جندياً أوربياً فقد كانت في الخليج بالفعل ، وكان الغرض من وجودها هناك هو تقديم مساعدتها لحكومة مسقط والدفاع عنها إذا احتاج الأمر (١) ولم يبق إلا الاتفاق على حجم العمليات وإصدار التعليمات اللازمة إلى كل من واين رايت والكولونيل ليونيل سميث قائد الفرقة الخامسة والستين والقواد المساعدين .

على أن نقص المعلومات عن الوضع على ساحل القرصنة أو بالأحرى على امتداد الساحل الغربي للخليج قد عاق دنكان من تحديد حجم التعليمات فلم يلق البحارة الأوربيين الذين زاروا تلك المناطق ، كما أن المعلومات التي تم الحصول عليها من المخبرين العرب ضئيلة جداً لدرجة أن المواقع الفعلية لموانئ القراصنة لم تكن معروفة (٢) في التعليمات التي أرسلت إلى واين رايت وسميث ، وبتاريخ ٩/٧ اعتبرت رأس الخيمة الهدف الرئيسي للهجوم، ونصت التعليمات على تدمير أسطول القراصنة بما في ذلك المراكب الراسية في أي ميناء من موانئ رأس الخيمة أو في الناحية الجنوبية ، كما كانت تقضى بطرد القواسم

(١) نفس المصدر مجلد ٩ محادثات ١٨٠٩/٩/٨ عودة الفصيلة بتاريخ

١٨٠٩/٩/٧ .

(٢) بعد خروج الحملة بوقت قصير أجرى دنكان بعض التجريبات بين التجار والفرس والهنود في بومباي ممن لهم معرفة سابقة بالخليج وعلى أساس تلك المعلومات وضع دنكان تقريراً عن القوة العسكرية لتلك الموانئ ، ثم أجال ذلك التقرير وإن كان في وقت متأخر جداً إلى كل من سميث وواين رايت ورائق بومباي السياسية والسرية حلقة ٣٨٣ مجلد ١٣/١٣ محادثات ١٨١٠/١/٦ مذكورة من دنكان (يناير ١٨١٠) .

- ١٩٠ -

من شخاص ومن غيرها من سواحل الشمالية على الرغم مع أخذ الحيطة بأن لا يقع أى من تلك المناطق في يد الوهابيين . وكان على وين رايت وسميث أن يلتزما بتعليمات منتو الصادرة اليهما في ٣ ابريل، كما كان عليهما الا يظهرأ تجاه الوهابيين أى مظاهر عدائية ، كما كانت العمليات تشمل منطقة لنجة وغيرها من موانئ القواسم على الساحل الفارسي امتددا الى لفت ، معقل القواسم في جزيرة قشم .

كما كان يتعين ابلاغ أمير اقليم فارس بخطة الهجوم على القواسم، فاذا لم يعترض عليها حتى خروج قطع الأسطول الى مياه الخليج يمكن المضي في خطة الهجوم على معاقل القواسم على الموانئ الفارسية ، وكان يتعين على وين رايت وسميث بعد الانتهاء من العمليات أن يحملوا القواسم على إبرام معاهدة سلام ، يتعهدون فيها ، بالامتناع عن القيام بمثل تلك الأعمال في المستقبل ، وبأن لا يرد في المفاوضات التي ستجرى بشأن المعاهدة أى اشارة الى الأمير الوهابي أو سيطرة الوهابيين باعتبار القواسم فئة مستقلة. كما طلب الى قادة الأسطول ابداء رأيهم في انسب جزيرة بالقرب من موانئ القواسم تصلح كقاعدة بحرية أو موقع لانشاء مركز للمقيم البريطاني ، بحيث يمكن مراقبة تحركات القواسم منها ، كما طلب اليهم تقديم مقترحاتهم حول أفضل الوسائل للدفاع عن الجزيرة ليس ضد القوى المحلية فحسب وانما ضد أى دولة أوربية قد تظهر في المنطقة (١) .

وإبحرت الحملة يوم ١٤ سبتمبر ومنذ اللحظة الأولى لخروجها كان سوء الحظ يلاحقها ، فقبل أن تتحرك القافلة وصل نبأ وفاة الكابتن سيتون في مسقط ، وبذلك حرم الاثنان وين رايت وسميث من خبرته بشئون الخليج .

(١) نفس المصدر محادثات ١٨٠٩/٩/٨ من الحاكم الى وين رايت
١٨٠٩/٩/٧ .

- ١٩١ -

ولم يكذب يومان على خروج الحملة حتى توفي اثنان من ضباط سفينة القذائف كنتس و ١٤ نفرا من بحارتها . كما أدى سوء الاحوال الجوية الى بطء سير القافلة على الاخص السفن الثقيلة المحمولة . ويوم ٣ أكتوبر أرسل وين رايت ثلاثة من رجال الطراد الى الساحل واثنين الى مسقط مزودين بتعليمات الى البارجة « كارولين » لانتظار اسطول الحملة عند رأس الخيمة . للقيام بشن الهجوم عليها دون توجيه اذار سابق . وبعد انقضاء أسبوعين كانت الحملة لانزال على بعد خمسين فرسخا شرقى مسقط ، وكانت تشق طريقها في معاناة شديدة ، وقد أخذ احتياطها من الماء يتناقص لأن قباطنة السفن لم يتزودوا بكفايتهم من الماء من بومباي ، وفي يوم ٢٠ أكتوبر تحدث وين رايت الى خمس من السفن الشراعية كانت خارجة لتوها من مسقط ، وعرف من ربابنتها أن البارجة كارولين لم تصل حتى تلك اللحظة للخليج كما أنها لم تشاهد من الطرادات أثناء سيرهم على الجهة الشرقية . ولم يكن أمام وين رايت الا أن يتخلى عن فكرة السرية ويتجه الى مسقط . وفي مسقط عرف المبعوثان سميت ووين رايت أن السيد سعيد لم يكن يؤيد الحملة ، وكان يشك في نجاحها ، وكان من رأيه أن الاستيلاء على رأس الخيمة يحتاج الى ما لا يقل عن ١٠ آلاف جندي كما لم تكن هناك أى فائدة من استخدام مدافع الفرقاطة في تدمير تحصينات القراصنة لأن المياه في مدخل الميناء ضحلة ولا تصلح لرسو الطراد (١) .

أبحر الأسطول من مسقط في بداية شهر نوفمبر وكانت (كارولين) قد وصلت فعلا من الخليج وعلى مقربة من رأس مسندم انضمت اليها الطرادات التي سبق أن انفصلت عنها وفي ١١ نوفمبر تحركت المجموعة كلها الى رأس الخيمة .

(١) التقرير الادارى لدار المقيم البريطانى رقم ١٨/١ من واين رايت الى الرمياد اميرال وليام دوورى والقائد العام للأسطول البريطانى فى الهند الشرقية (مسقط » لاشيفون بتاريخ ١٨٠٩/١٠/٣١ .

- ١٩٢ -

وربما كان السيد سعيد على حق في بعض تصوراتيه، فإن الفرقاطات لم تتمكن من التقدم نحو البلدة الى أكثر من أربعة أميال كما لم تتمكن بقية الطرادات وسفن النقل من التقدم الى أكثر من ميلين . وقد بدأ وين رايت في قصف البلدة في يوم ١٢ نوفمبر وقد أحدث بعض الدمار بدفاعات البلدة وعلى الرغم من ذلك فإن معظم القذائف لم تصل الى أهدافها .

وفي فجر اليوم الثالث عشر تقدم اثنان من القوارب المسلحة الى الخليج الذي كان يفصل شبه الجزيرة عن بقية البلاد، وبعد نصف ساعة قام الجنود من الفرقتين ٤٧، ٦٥ وفصائل الأسطول بهجوم على شبه الجزيرة ، غير أن التيار في هذه المنطقة أعاق حركة الجنود ، وقد تعين عليهم أن يسيروا عبر منطقة رملية للوصول الى تحصينات القواسم ولكنهم استطاعوا التغلب على تلك العوائق في النهاية ، وأخذ القواسم يتراجعون الى داخل البلدة، وقد دارت معركة عنيفة بين الطرفين ، فقد كان القواسم قد حولوا كل بيت الى مركز دفاع ولم ينسحبوا من مراكزهم الا بعد أن أضرم البريطانيون النار في منازل البلدة، وفي نحو الساعة العاشرة صباحا كانت رأس الخيمة قد خلت من اكثرية سكانها الذين انسحبوا عبر الخليج الى داخل البلاد ، وكانت الاصابات بين الجانب البريطاني قتيلا واحدا من الضباط وثمانية من الجنود وضابطان جرحى ، بينما قتل ثلاثة من البحارة وجرح تسعة ، أما الخسائر بين القواسم فتعذر تقديرها بصورة دقيقة فقد سقط منهم سبعون الى ثمانين قتيلا اثناء المعركة ومن المحتمل أن يكون قد قتل أكثر من هذا العدد عن طريق القصف (١) .

وقد أحرقت كل السفن التي وجدت في الخليج كما دمرت معدات السفن وأطلق سراح بعض السجناء الهنود . وقد علم في مساء ذلك اليوم أن قوة

(١) نفس المصدر الطراد ليشافون رأس الخيمة ١٤/١١/١٨٠٠ راجع أيضا « الاسطول الهندي » تأليف لو فصل واحد ص ٣٢٦ - ٣٣٠ .

- ١٩٣ -

كبيرة من الوهابيين قد تحركت من البريمي في طريقها الى الساحل وربما كانت قد وصلت بالفعل الى « حنييد » على بعد بضعة أميال من الجزيرة في مساء ذلك اليوم ظل الجنود في انتظار الهجوم المضاد ولكنه لم يقع وفي صباح يوم ١١/١٤ بعد أن أتمت الحملة تدمير سفن القواسم وتحصيناتهم عاد الجنود الى سفنهم ثم بعد ذلك بقليل تحرك الاسطول متجها الى الشمال .

في يوم ١١/١٧ هوجمت منطقة لنجة ودمرت نحو عشرين سفينة . وقد انفصلت كارولين وغيرها من سفن النقل الثقيلة واتجهت الى ساحل الباطنة حيث كان قد تم الاتفاق على ملاقاته السيد سعيد يوم ١٢/٦ لشن هجوم مشترك على شناس وخور وكلبه وفكان ، أما وين رايت وما بقى معه من الاسطول فقد أبحر شرقا الى جزيرة قشم لشن هجوم على منطقة « لفت » التي كانت في يد القواسم وحلفائهم بنى معين في ذلك الوقت ، وعند وصوله هناك حاول واين رايت بأن يقنع شيخ بنى معين بأن يستسلم ولكنه رفض ، وفي اليوم الثانى أصدر وين رايت وسميت أمرا الى جنوده بالنزول الى البلدة ومهاجمتها ، ولكن بنى معين انسحبوا من داخل التحصينات الى قلعة تقع على صخرة كبيرة عند شاطئ البحر وكان بالقرب من القلعة احدى عشر سفينة من سفن القراصنة راسية هناك وقد تم اشعال النار فيها من جانب بحارة الطرادات على الرغم من القصف الذى كانوا يتعرضون له من اصحاب القلعة ثم بدأ الطراد « فيورى » بالاقتراب من الشاطئ وقصف أسوار القلعة بالمدفعية وعند الغروب وافق الملاحون على الاستسلام . وفي يوم ١١/٢٨ سلمت القلعة والبلدة الى وين رايت الذى قام بدوره بتسليمها الى شيخ آخر من بنى معين

(١) التقرير الادارى رقم ١٨٢/١ من وين رايت الى دوورى الطراد لاشيفون ميناء برقة ١٨٠٩/١٢/٧ ووثائق حكومة بومباي السياسية والسرية =

(١٣ م - بريطانيا والخليج)

موال للسيد سعيد ، وكانت الاصابات في معركة لفت كبيرة بلغت نحو من ٧٠ الى ٩٠ قتيلًا وجريحًا من القواسم وسبعة قتلى من البريطانيين و ٣١ جريحًا كما قتل اثنان من بحارة الاسطول ونحو ٢٥ بحارا من السفن الأخرى .

وفي يوم ١١/٩ غادر وين رايت لفت الى مسقط حيث وصلها يوم ١١/٧ وكان السيد سعيد سعيدا بنتائج الحملة واثقا من نجاح العمليات المزمع القيام بها على ساحل الشميلية . وقد أمر وين رايت احدى سفن النقل وطرادين بالابحار الى بومباي ومعها فصيلة المشاة ورجال الفرقة السابعة والاربعين اذ لم يعد فى حاجة اليها .

وقد ابحرت بقية القوة من مسقط عشية عيد الميلاد عام ١٨٠٩ بينما تحرك السيد سعيد نحو الشمال عبر ساحل الباطنة على رأس جيشه .

كانت المهمة التى تنتظره فى شناصر جسيمة فقد كان فى شناصر قلعة هائلة تطل على الخور وقد عرف بأن امدادات قوية قد أرسلت الى تلك الحامية الكى تتمكن من مواجهة أى حصار يفرض عليها ، غير أن وين رايت وسميث لم يكونا يعفیان مطلق المطيرى من انه هو الذى قام بارسال تلك الامدادات الى الحامية بعد الهجوم الذى وقع على رأس الخيمة مباشرة ، وفى يوم اول يناير طلب وين رايت من الحامية أن تستسلم ، ولكنها رفضت ، وأخذت السفن تقصفها بالمدفعية وعلى أى حال فان الحامية لم تكن فى متناول المدفعية ، وفى يوم ٢ يناير أنزل وين رايت وسميث الجنود والمدفعية بعد أن فشلت مدافع المورتز فى ذلك أسوار الحامية وقد اضطر المهاجمون أخيرا الى استخدام مدافع

= حلقة ٣٨٣ مجلد ١٣ محادثات ١٨١٨/١/٣ من سميث الحاكم

١٨٠٩/١٢/١٦.

عيار ٢٤ وعيار ١٢ لقصفها. وفي فجر يوم ٣ يناير بدأ قصف القلعة ، وفي نحو الساعة العاشرة صباحا استطاع القصف أن يحدث فجوة فيها ، ثم بعد قليل هوى أحد أبراجها وبقيت الأبراج الأخرى صامدة ثم انضح للمهاجمين بأنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على الحامية إلا بالزحف عليها .

بدأ الزحف على الحامية في الساعة الثانية بعد الظهر بقوات مسقطية وبريطانية مشتركة ، وقد تبع ذلك قتال شرس يدا بيد ، واستخدمت في المعركة جميع أنواع الأسلحة ، وكانت أقسى المعارك التي خاضتها الحملة منذ بدأت هجومها ، وفي الساعة الخامسة مساء كان الجزء الأكبر من الحامية في يد البريطانيين غير أن الصراع لم ينته عند ذلك الحد وقد كتب سميث وصفه للمرحلة الأخيرة لتلك المعركة جاء فيه : من المحال أن نتصور مقاومة أشد عنادا وتحديا من المقاومة التي أبدتها العدو في هذا الموقع ، فقد كانت دفاعاته قد دمرت وتحولت الى أنقاض ، كما كان الجزء الأكبر من حاميته قد تحولت الى أكوام الى جانبه ، وعلى الرغم من ذلك الوضع اليأس واحتلال البريطانيين والعمانيين للقلعة ظل القواسم يطلقون النار من التحصينات التي لم يتم تدميرها تماما، الى أن استطعنا التغلب عليه ، وقد كان من العيب أن نحاول سحق المقاومة ، وكان الوصول الى مداخل دفاعات العدو المحصنة تحصينا قويا أمرا بالغ الصعوبة ، وكان المساء قد بدأ يقترب ، وكانت الاعتبارات الانسانية وغيرها تقضى بوقف هذه المجزرة المخيفة . ولهذا فقد دعا من بقى من القواسم الاحياء بالاستسلام اتقاذا لأرواحهم ، غير أنهم اجابوا بأنهم يفضلون الموت على الاستسلام في هذا الوقت بالذات ، وكنت قد أحضرت الى الشاطئ بطارية مؤلفة من بعض المدافع وأخذت فى إطلاق النار بشكل مكثف من مكان قريب جدا من القلعة فى محاولة لتسويتها بالأرض ولكن العدو ظل يرد النار بالمثل ، وكما يبدو فانهم كانوا مصممين على أن يدفنوا فيها احياء .

- ١٩٦ -

ولقد عمدنا الى استخدام القنابل الكروية والبدوية ، ولكن العدو أعاد هذه القنابل البنا قبل أن تنفجر مؤكداً بذلك تصميمه على مواصلة القتال في الوقت الذي كانت القلاع تتساقط في أبدينا وكان كل من فيها قد قتل ، وقد توقفت مرة أخرى عن اطلاق النار في محاولة جديدة لانقاذ أرواح الموجودين في القلعة ، ومن حسن الحسـن خرج أخيراً أحد الرجال وتقدم البنا وبعد أن أمنه العمانيون على حياته تمكنا من انقاذ حياة ٧١٠ شخص أخذوا كأسرى ولكنه كان من الصعب علينا أن نمنع حلفاءنا من ذبحهم (١) .

ومن الصعب تحديد الخسائر التي منى بها الوهابيون والقواسم في الأرواح ، أما من الجانب البريطاني فقد كانت الخسائر طفيفة جداً خصوصاً اذا ادخلنا في الاعتبار حدة القتال : اذ لم تزد الخسائر عن قتل وجريحين من الضباط وتسعة من الرجال جميعهم من الفرقة الخامسة والستين من الفصيلة البحرية ، أما خسائر العمانيين فقد كانت أكثر بكثير وكان يتعين على وين رايت وسميث أن يقرروا اذا ما كان من الأفضل لهما مواصلة لعمليات العسكرية بحيث تشمل خور كلبة أو خور فكان أم لا ؟ إلا أن السيد سعيد رفض الاشتراك في عمليات عسكرية ضد المنطقتين بحجة أن مثل ذلك الهجوم سوف يواجه نفس المقاومة المستميتة التي واجهت الهجوم على شناس . وفي هذه الأثناء تلقى البريطانيون معلومات تفيد بأن مطلق المطيرى قد وصل الى منطقة قريبة من المنطقة التي يرابطون فيها على رأس قوة كبيرة ، ولهذا ظلت الحملة لثلاثة أيام في حالة ترقب وأمل ، وعندما لم يقع شيء قرر وين رايت

(١) وثائق بومباي السياسية والسرية حلقة ٣٨٣ مجلد ١٤ محادثات ٢٧

يناير ١٨١٠ من سميث الى الحاكم من الطراد لاشيفون في البحر بتاريخ

١٨١٠/١/١٨ .

وسميث بأن يعود الجنود الى سلفتهم ، كما طلب من السيد سعيد سحب قواته عن طريق البحر، ولكن السيد سعيد تجاهل اقتراح القائدين البريطانيين، ولم يكن من الحكمة أن يفعل ، اذ ما ان غاورت القوة البريطانية المنطقة حتى انقض مطلق المطيري على قوات السيد سعيد فمزقها اربا وارغمها على الانسحاب الى مسقط (١) .

مضى الأسطول بقية شهر يناير من عام ١٨١٠ يوجب ساحل القرصنة بحثا عن أى سفن تابعة لهم لتدميرها ولم يكن موضوع ابرام معاهدة مع القواسم واردا حتى ذلك الوقت : فقد كانوا يخضعون لنفوذ الامير السعودي وكان لابد من الحصول على موافقة الوهابيين على ذلك وهو ما كان دكان يحاول أن يتفاداه . وفي نهاية الشهر أبحر القسم الأكبر من الحملة الى بومباي بينما قام القائدان بمعاينة الجزر الواقعة عند مدخل الخليج بحثا عن موقع يصلح

(١) نفس المصدر مجلد ١٤ محادثات ١٧/٢/١٨١٠ من سميث الى الحاكم بومباي من الطراد ترثيت فى البحر بتاريخ ٢/٢/١٨١٠ ويروى الكابتن غولين قصة عن هذا الحادث فى مؤلفه (وثائق تاريخية عن أفريقيا الشرقية » فصل ٢ ص ١٦٣ - ١٦٧ » فيقول أن سميث وقع معاهدة مع مطلق فى نهاية القتال فى شناصر تعهد القائد الوهابى بموجبها بالا يقوم بهجمات أخرى على الملاحه البريطانية كما تعهد سميث من ناحيته فى المقابل بالا يتدخل فى أى حروب تنشب بين مسقط والوهابيين . غير أنه لا يوجد أى أثر لهذا الاتفاق فى سجلات حكومة بومباي كما لا يوجد اقل دليل فى التقارير التى كان يبعث بها سميث بأنه يفكر فى مثل هذه المعاهدة أو أنه قد تفاوض بشأنها ويبدو احتمال مثل هذا الاتفاق أكثر بعدا اذا رجعنا الى صيغة التعليمات التى كانت لدى سميث .

لانشاء قاعدة . وفي يوم ٣٠ يناير جرى اتصال بينهما بالقرب من جزيرة هنجام وبين الطراد « سيش » الذى كان يقل جون مالكولم الى فارس . وكانت لديه تعليمات جديدة لابلغها الى قائد الحملة وتكليفها بتعقب رحمه بن جابر شيخ خور حسن على الشمال الغربى من قطر وكان من اكبر زعماء عصابات النهب والقرصنة .

وقد دأب الشيخ رحمه ورجال قبيلته « الجلاهمة » على شن حروب انتقامية ضد آل خليفة شيوخ البحرين وآل صباح شيوخ الكويت ، وذلك منذ أن حررت البحرين من الفرس وقد نشب بينه وبين فرعين من قبيلة العتوب نزاع على اقتسام الغنائم وعلى الرغم من أنه قد أصبح هرمًا وكسيحًا الا أن نفوذه كان لا يزال قويا وذلك حسب ما روى من أحد الرحالة الأوربيين الذى التقى به (كان رحمه بن جابر ضئيل القامة ، على جسمه آثار ندوب من طعنات الخناجر والرماح ومن طلقات الرصاص التى كانت آثارها تغطى أنحاء جسده ويزيد عددها على عشرين ندبا أما وجهة فقد كان ينطق بالشراسة والدمامة المتناهية وقد زاده قبحا وجود تلك الندب كما فقد احدى عينيه(١) ، ويضيف المصدر بأن شراسة رحمة لم يكن لها مثيل على الإطلاق ويستشهد بحادثة على هذا القول فيقول : انه جمع بحارته عندما حاولوا التمرد عليه فى قزان ماء السفينة وأغلقها عليهم فمات جميع البحارة مختنقين ثم قذف

(١) رحلة الى آشوريا فصل ٢ ص ١٢٤ ١٢٥ تأليف بكنجهام وقد اشار بكنجهام أيضا الى أن المعارك التى خاضها رحمة قد تركت آثارا وعلامات على ساحله .

بالقزان الى الماء بما فيه من جثث (٢)، انحاز رحمه وأتباعه الى الوهابيين في سنة ١٨٠٩ طمعا في ممارسة أعمالهم الارهابية ضد آل خليفة وآل صباح وكان السيد سعيد شانه في شأن شيوخ آل خليفة وآل صباح فقد تلقى اندارا من الأمير السعودي بالانضمام الى القواسم في شن هجمات على السفن ، وعلى ميناء البصرة غير أنهم رفضوا طلبه ، وفي اواخر سنة ١٨٠٩ صمم الأمير السعودي بأن يخضعهم لسيطرته فقام بتعيين عبد الله بن عفيصان مأموره الوهابي واليا على قطر والبحرين والقطيف كما أرسل قوة عسكرية لاحتلال زبارة ، ثم انضم الى عفيصان رحمه بن جابر وخرج الاثنان على رأس أسطول مكون من ٤ سفينة واستطاع الاثنان أن يخضعا آل خليفة لسلطان الوهابيين وكان ذلك في شهر فبراير ١٨١٠ (٢) .

ولما كانت الحكومة في بومباي تهدف الى محو القرصنة في مياه الخليج واحلال الأمن في ربوعه فقد كان عليها أن تقوم بالقضاء على نفوذ وارهاب رحمة بن جابر الذي كان يقترب أعمال القرصنة ضد اغلب اقطار الخليج وبشراسة غير معهودة وكان اسمه يثير الرعب على طول المنطقة الممتدة من عمان حتى ميناء البصرة وفي الايام الاخيرة من سنة ١٨٠٩ اقترب هذا الرجل أبشع الأعمال الارهابية عندما استولى عنوة على عشرين سفينة كويتية كانت في طريقها من مسقط الى الخليج وقتل بحارها عن آخر رجل فيهم بما فيهم نجل

(١) نفس المصدر فصل ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) تعود السيطرة المباشرة للوهابيين على قطر الى النصف الأخير من عام ١٨١٠ وهناك رأى آخر يعزوه الى ما قبل ذلك التاريخ نقلا عن رواية اثنين من رجال الطرادات الهندية التي خرجت من قطر في مارس ١٨١٠ (كان عبدالله ابن عفيصان وقتها يقيم في منطقة قريبة من ذلك المكان) .

الشيخ عبد الله آل صباح شيخ الكويت . وكنتيجة لذلك تقدم الشيخ عبد الله يطلب الاشتراك في الحملة البريطانية للهجوم على مواقع رحمة في خـور حسن (١) . وعلى أى حال فان رحمة لم يكن يهاجم سفينة ترفع العلم البريطاني، وبالتالي فلم تجد حكومة بومباي من المبررات مايدفعها للدخول في نزاع معه، كما كان الحال مع القواسم ، ومن ناحية أخرى فقد كانت هناك عدة سفن للقواسم قد أفلتت خلال الهجوم على وأس الخيمة ولجأت الى خور حسن ، وفي بداية يناير ١٨١٠ قرر مجلس الحاكم بأن يكلف وين رأيت وسميث بالاتصال برحمه واستكتبه تعهدا بعدم تقديم أى مساعدة أو حماية للقواسم واذا رفض اعطاء مثل ذلك التعهد ففي تلك الحالة يمكن مهاجمة سفنه ومعداته في خور حسن مثلما حدث للقواسم (٢) . هذه هي التعليمات التي حملها مالكولم معه لسميث ووين رأيت ، ولكنه بعد اجتماعه بهما على ظهر الطراد «شيس» يوم ٣٠ يناير وافقهما على وجوب شن هجوم على منطقة خور حسن ووصف وين وايت مثل ذلك الهجوم بأنه عملية صعبة خصوصا عند هبوب الرياح الشمالية التي يتعذر معها على السفن الكبيرة الاقتراب من الميناء . وكان من وأيه بأن التعهد الذي طلبه دنكان من رحمة يمكن أن يحصل عليه منه المقيم البريطاني في بوشهر (٣) .

الا ان المقيم نوكلاس هنكى سميث وهو اخ الكولونيل ليونيل سميث

-
- (١) الوثائق السياسية حلقة ٣٨٣ محادثات ١٨١٠/٢٩ من أن اتشه سميث الى وarden بتاريخ ١٣/٤/١٨١٠ .
- (٢) نفس المصدر مجلد ١٣ محادثات ٦ يناير ١٨١٠ من الحاكم الى وين رأيت وسميث بنفس التاريخ .
- (٣) مجلد ١٤ محادثات ١٧ فبراير ١٨١٠ من سميث الى الحاكم ١٨١٠/٢/٢ .

الذى حضر الاجتماع عارض هذا الراى وقابل بأن عدم اتخاذ أى اجراء ضد رحمة سوف يشوه النتائج المشجعة التى أسفرت عنها الحملة ولما كان رحمة حليفا للوهابيين فقد كان هؤلاء يسعون الى تنصيبه زعيما جديدا للقراصنة . وعندما علم دنكان بوجهة نظر مالكولم وغيره أبدى موافقته على آرائهم على الرغم من انه كان يتعاطف مع موقف هنكى سمث وكان دنكان يتصور بأن أى هجوم قد يقوم به البريطانيون على رحمة دون أن يكون رحمة قد اعتدى على أى من السفن البريطانية أو الرعايا البريطانيين انما اجراء يتعارض مع المبدأ الذى قامت عليه فكرة العمليات العسكرية فى الخليج . كما لابد من الأخذ بعين الاعتبار ماقد تسببه سياسة التحرش بالوهابيين من عواقب ، غير أن سمويل ريتشارد رد على هذا الراى بقوله : أنه لا يمكن رسم خط فاصل بين الوهابيين وبين القراصنة وأن أى محاولة من هذا النوع تعد ضربا من الوهم وأضاف : « بأن الأمير الوهابى قد أعلن وصايته على القراصنة الذين يضمون فى معسكرهم كافة القبائل التى تدين بالولاء للأمير الوهابى ، ولا يمكن أن تعصى له أمرا . كما أن رحمة نفسه من اصل وهابى ومن اتباع الوهابيين . ومن ثم فليس ثمة تعارض بين رحمة وبين القواسم بل ربما كان رحمة أكثرهم تطرفا وبالتالي فإن وحمدة يقف فى الصف المعادى لبريطانيا . وهذه الاعتبارات التى جانب متطلبات العدالة انما تفرض على الحكومة البريطانية أن تضع حدا لنشاط هذه الرجل وبالا تقف موقف اللامبالاة والتخاذل على سبيل معاملة الأمير سعود بن عبد العزيز (٢) . وفى هذه الاثناء ونزولا على رغبة مالكولم تراجع هنكى

-
- (١) نفس المصدر من أن اتشه سميث الى وازدن بتاريخ ٣ ، ٥ فبراير ١٨١٠ . ومن أن سميث الى الحاكم فى ١٨١٠/٢/٥ .
- (٢) نفس المصدر محاضر اجتماع دنكان وريتشارد بنفس التاريخ محادثات ٢/٢٣ ومحاضر ريتشارد بتاريخ ١٨ فبراير ودنكان مجلد ١٥ محادثات مارس ومختلف محاضر دنكان وريتشارد .

سميث عن قراره بشن هجوم على رحمة وبدأ يستعد للسفر الى طهران ، كما بحث في الوقت نفسه بخطاب ودى الى الامير سعود يناشده فيه كبح جماح رحمة بن جابر واتباعه وقد ارسل هذا الخطاب من خور حسن في شهر مارس وحمله الى الامير السعودى الكابتن واردن من الفرقة الخامسة والستين الذى توجه مع الطرادين فيتال رزيال عند وصول واردن الى خور حسن قام بفحص المعتقل ، وابرق الى رئيسه هنكى سميث يقول ان موقع المعتقل ومنافته الطبيعية تجعل اى هجوم عليه في منتهى الصعوبة ، وقد وافقه سميث على ذلك بتردد لانه سبق ان تلقى تعليمات من مالكولم تكلفه بأن يطلب من الامير السعودى الضغط على رحمة كما قال لرؤسائه فى بومباي « بأن لم تعد لديه ثقة فى القراصنة (١) » .

. واذا شئنا الحكم على نتائج حملة ١٨٠٩ - ١٨١٠ فاننا نستطيع القول بانها لم تكن ناجحة ، صحيح ان عددا من سفن القواسم قد دمر فى موانئهم الرئيسية غير ان الجزء الأكبر من تلك السفن قد افلت ، فقبل مجيء الحملة يمكن القواسم من اخفاء عدد كبير من سفنهم فى الخلجان الصغيرة على الجانب الغربى من شبه جزيرة مسندم والتي لم يكن قواد الحملة يعرفون شيئا عنها كما كانت بعض السفن فى رحلات تجارية او فى عمليات قرصنية فى البحر الأحمر وافريقيا الشرقية ومن ناحية أخرى لم يحقق السلطان ولم يجن اى فائدة ملموسة من هجومه على شناص التى كان يستهدف تأديب القواسم وقد ظلت خورفكان وغيرها من المرافئ على ساحل الشمالية فى أيديهم ، واستمر السيد سعيد يفتقر السيادة على تلك المناطق امام تصاعد نفوذ الوهابيين مما

(١) نفس المصدر مجلد ١٧ محادثات ٢٩/٥/١٨١٠ من سميث الى واردن ٢٤/٣ ، ١٣/١٤/١٨١٠ ومرفق معه خطاب وارن الى سميث المؤرخ ١٧/٣/١٨١٠ .

ادى الى أن ترك لهم المنطقة الشمالية من عمان والمنطقة الغربية من الباطنة ، والواقع أن موقف السيد سعيد أصبح في منتهى الضعف والتفكك كما تدهورت موارده العسكرية الى حد كبير ، كما ضعف سلطانه على القبائل ، ولم يكن هناك أى أمل في تصحيح هذا الوضع الا بتدخل بريطاني واسع، غير أن الحفاظ على استقلال مسقط أو بقاء أسرة آل بوسعيد في الحكم لم يكن يعنى شيئاً بالنسبة للسلطات البريطانية في الهند لتبرير مثل ذلك التدخل ، وكان هذا الاعتقاد هو سبب تردد البريطانيين في التدخل الى جانب عمان كما كان هو السبب في الأسلوب الحذر الذي انتهجه منتو تجاه الوهابيين وان كان قد ابرز ذلك الحذر لوجود الخطر الفرنسي في الشرق حتى بعد أن أصبح هذا التهديد في خبر كان وحتى بعد أن تفاقمت السيطرة الوهابية على القواسم وتواطؤهم معهم في أعمال القرصنة فقد ظل يصر على أن هناك فرقا بين دوافع الوهابيين ودوافع اتباعهم على سواحل القرصنة .

اما الأمير السعودي من جانبه فقد كان ينظر الى الحملة من زاوية أخرى؛ وقد كتب الى هنكى سميث رسالة ردا على رسالة منه يقول فيها : « لا تفرح باستعمال النار في بعض السفن » لأن ذلك في نظري لا أهمية له سواء بالنسبة لأصحاب السفن او بالنسبة للتدخل في مسائل ليست من شئوننا ولكنه مع ذلك أعرب عن استعداده للتسامح عما حدث كما قال « بما أنكم جنحتم الى السلم فأننى استنتج من ذلك أنكم أصبحتم تدركون سوء العمل الذى قمتم به وأصبحتم اضحوكة بين الناس بتحريض رجل لا يملك أى قوة ذاتية كما أنكم لم تفكروا في نتائج عملكم وبناء على ذلك فأنى أرى لزاما على بأن أبلغكم بأننا لن نقترّب من موانئكم كما أمرت اتباع العقيدة المحمدية وما يملكون من سفن بعدم الاعتداء على سفنكم (١) . كما رحب بالتجار البريطانيين في موانيه

(١) محادثات البنغال السياسية حلقة ١٩ مجلد ٨ ومحادثات ٧ يوليو.

١٨١٠ من سعود بن عبد العزيز الى هنكى سميث (دار المقيم البريطانى في بوشهر

١٨١٠/٤/١٥

وطالب في مقابل ذلك بأن تقدم بريطانيا نفس التسهيلات لرعاياه في الموانئ الهندسية كما أعرب عن أمله في أن تمتنع بريطانيا عن القيام بأى أعمال عدوانية على السواحل الخاضعة له أو التدخل في نزاعاته مع جيرانه « ان الحرب في المقام الأول هي أشبه بفتاة في عنفوان شبابها تثير فتاها حتى تلتهب المشاعر نعود فتنسحب كامرأة عجوز عانس(١) .

وقد أعرب منتو عن ارتياحه لرسالة الأمير السعودي واعتبرها خطوة مشجعة كما رحب بقرار الأمير بمنع أتباعه من التعرض للملاحة البريطانية وأبلغه بأن الحكومة البريطانية لا تهمها خلافاته مع غيره من المسلمين وإنما تهمها علاقته بالقراصنة(٢) .

والواقع أن منتو كان على حق في رفضه التدخل ضد النفوذ الوهابي في الخليج إذ لم يكن في ذلك أى مصلحة لبريطانيا وأن المغامرة الوحيدة التي قام بها للتدخل قد كشفت له عن العواقب غير المحمودة لأي تدخل أو انحياز في الصراع العربي الاسلامي ، وبالتالي فان تلك التجربة قد أثرت خبرته السياسية، وهكذا صرف النظر عن انشاء قاعدة بريطانية في الخليج واستعاض عنها بالاجراء الوقائي الوحيد الذي أمكن اتخاذه ضد القواسم وهو فرض حظر على تصدير الأخشاب من الهند(٣) الى ساحل الخليج . ومن ناحية أخرى قرر منتو بأن لا يسمح لنفسه بأن يستدرج مرة أخرى في مشاكل مسقط كما أرجأ قرار اعادة فتح دار المقيم البريطاني في مسقط . بعد أن أودت قسوة المناخ بحياة

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المحادثات من ادمون ستون الى وarden ٧ يوليو ١٨١٠ .

(٣) الأسطول الهندي فصل ١ ص ٣٢٦ تأليف لو . ولكنه كان مخطئا في

رأيه لان الحظر على تصدير الأخشاب لم يطبق راجع رسائل بومباي السرية مجلد

٤ جزء ٢ من الحاكم الى اللجنة السرية بتاريخ ٤/٤/١٨١١ .

أربعة من المقيمين البريطانيين هناك منذ عام ١٨٠٠ ، الأمر الذي اعتبر مبرراً كافياً لتركها مغلقة ، ومن هنا فعندما طلب السيد سعيد من دكان مساعدته في صد هجوم جديد عليه من مطلق المطيرى تلقى منه رفضاً باتاً. أما سعيد فقد أخذ يتذمر من أن تعاونه مع الحملة البريطانية الأخيرة على القراصنة قد ورطته في حروب مستمرة مع الوهابيين الذين كانت علاقته بهم في السابق علاقة ود وسلام (١) ولولا صداقته للحكومة البريطانية لكان قد وافق على عروض السلام التي تقدم بها الوهابيون إليه ، ولكن منتو انتهز تلك الفرصة فكلّف دكان في أغسطس ١٨١٠ بأن يبلغ السيد سعيد بأن الحكومة البريطانية لم تعد لها مصلحة في الصراع الدائر بينه وبين الوهابيين وأن كل ما يهمها هو مصلحة وخير ورفاهية السلطان سعيد بن سلطان وانطلاقاً من هذا الاعتبار وما قد تسفر عنه ظروف السلم من استقرار وخير للمنطقة فإن دكان يقترح على السيد سعيد بقبول عروض السلم التي تقدم بها الوهابيون إليه إذا لم يكن بها مساس بكرامة عمان وأمنها واستقلالها (٢) .

وإزاء فشل السيد سعيد مع الحكومة البريطانية في الهند اتجه إلى حكومة فارس فقام أخوه سالم بزيارة لأمير منطقة فارس بمركزه في شيراز

(١) « المحادثات السياسية لحكومة بومباي » الحلقة ٣٨٣ مجلد ١٦ : محادثات ١٨١٠/٥/٢٩ من هنكي سميث إلى وarden مسقط ١٨١٠/٤/١٤ في الوقت الذي كان فيه السيد سعيد يشكو أوضاعه للحكومة البريطانية كان مشغولاً بالاستعداد لاعداد حملة لغزو البحرين بينما كان الوهابيون يعيشون فساداً في داخلية البلاد على بعد بضعة أميال من مسقط .

(٢) « محادثات حكومة البنغال السياسية » حلقة ٣١٩ مجلد ١٠ محادثات ١٨١٠/٨/١١ من ادمون ستون إلى وarden وفورت وليام بنفس التاريخ .

— ٢٠٦ —

يطلب العون منه وعاد الى مسقط ومعه ١٥٠٠ مرتزق بينهم من ٤٠ الى ٥٠ من أسرى الحرب الروسية . ولقد وصل هؤلاء المرتزقة الى داخلية عمان في النصف الثاني من عام ١٨١٠ للقيام بمحاولة لاسترداد قلعة سمايل التي كان قد احتلها محمد بن ناصر شيخ بنى جابر بعد أن تحالف للمرة الثانية مع الوهابيين ، وقد سقطت سمايل وفر محمد بن ناصر الى البريمي في حماية مطلق المطيري ، وعند وصوله الى البريمي عرف أن مطلق قد غادرها الى نجد قبل وصوله بثلاثة أيام ، فقرر أن يلحق به عن طريق تقديم بعض الرشاوى الى مطلق واقنعه بالعودة الى البريمي للاشتراك معه في حملة لاسترداد سمايل وعودته الى الحكم ، وقد تحرك مطلق بسرعة وبعد أن جمع قوة مقاتلة من قبائل النعيم والظواهر وبنى قتب زحف على أزكى وهناك انضم اليه فئات من قبيلتي الدروع والجنبه ، ولكن سالم بجيشه المؤلف من الفرس والحرث والحبوس شن هجوما عشوائيا على مطلق غير أنه منى بهزيمة نكراء (١) ومن ناحية أخرى فإن قيام حكومة فارس لمسد سعيد بقوات عسكرية قد حملت عبد العزيز الى ايفاد مبعوث خاص الى شيراز في بداية عام ١٨١١ للاحتجاج على تقديم العون الى مسقط وكان الأمير سعود في ذلك الوقت قلقا من اشاعات

(١) « ائمة وسلاطين عمان » ترجمة بادجر ص ٢٣ ، ص ٢٤ وأيضا ٣٠٥ - ٣١٧ من سجلات حكومة بومباي السياسية مجلد ٤ من الحاكم العام إلى مجلس الادارة ١٨١١/٤/١٥ ورقم (١) ويعزو بادجر وقوع هذه الأحداث إلى عام ١٨٠٩ غير أن لوريما (في دليل الخليج) جزء ١ ص ٤٤ يعزوها الى عام ١٨١٢ ولكنه اتضح من شهادات أربعة من الروس الذين تمكنوا من الفرار الى بومباي الى ان الأحداث وقعت في أواخر ١٨١٠ أوائل ١٨١١ راجع ادناه ص ١٢٨ .

كانت تنطلق من مصر ، بأن محمد على باشا يعد العدة لشن حرب عليه في الحجاز ، وبالتالي فقد كان يريد أن يتأكد من أن الأمير الفارسي لن يستغل تلك الفرصة لشن حرب عليه من الجانب الشرقي لشبه الجزيرة العربية ولهذا أخذ الأمير السعودي في اتخاذ الاحتياطات ودعا زعماء آل خليفة في البحرين إلى الدرعية واحتجزهم هناك وكان السيد سعيد قد هاجم البحرين في صيف العام السابق وقام باحراق زبارة وارغام أفراد الحامية الوهابية على الفرار (١) .

وقد قام العاهل السعودي بتعزيز الحاميتين في قطر والبحرين كما أصدر أوامره إلى وكيله عبد الله بن عفيصان بأن ينقل مركزه من داخلية البلاد إلى الجزيرة . وقد نجحت زيارة المبعوث الوهابي إلى شيراز إذ حصل على التعهدات المطلوبة من الأمير ، وفي طريق عودة المبعوث إبراهيم عبد الكريم توقف في بوشهر وذلك للاجتماع بالمقيم البريطاني هناك وللإستفسار عما إذا كان هناك نية في ارسال حملة عسكرية بريطانية في الخليج ، وقد أبلغ المبعوث المقيم بأن سعود قد فوضه في إبرام معاهدة تجارية مع البريطانيين ، وذلك وفق الصيغة الواردة في كتاب الأمير إلى هنكي سميث في العام السابق ، وقد أحيل الطلب إلى الحكومة في الهند فرئى رفضه وتجنب أي علاقة رسمية مع الوهابيين ولكن قبل أن يتم إبلاغه بهذا القرار قد اقتنع بأنه ليس هناك مايدعوه إلى التخوف من البريطانيين في المستقبل القريب (٢) .

-
- (١) محادثات حكومة بومباي السياسية حلقة ١١٩ مجلد ١٠ بتاريخ ١٨١٠/٨/١٩ من سعيد إلى دنكان ١٨١٠/٧/٣ .
- (٢) مختارات حكومة بومباي مجلد ٢٤ ص ٤٣٤ - ٤٣٥ « لمحة تاريخية الوهابية » بقلم وarden عام ١٧٩٥ - ١٨١٨ .

وفى أواخر عام ١٨١١ انتهز السيد سعيد فرصة تخفيض حجم القوات الوهابية فى البحرين فشن هجوما عليها بمشاركة بعض العناصر المنشقة من العتوب ، وقد نجح الهجوم واستسلمت الحامية وأخذ عبد الله بن عفيصان أسيرا (١) غير أن سعود لم يتخذ أى إجراء انتقامى ضد السيد سعيد وذلك بانشغاله بالخطر القادم من الغرب وبدلا من ذلك فقد أفرج عن شيوخ آل خليفة وأعادهم الى البحرين بعد أن تعهدوا له بدفع الزكاة كما أن سعيدا من جهته لم يعارض على عودتهم الى البحرين واشترط عليهم الاعتراف بسيادته عليهم ودفع الزكاة . وقد وافقه أمير البحرين الشيخ سليمان وعبدالله بن أحمد بنفس الطريقة التى تعهدا بها للأمير سعود على أمل أن تتبدل الأمور يوما ما ويعود اليهما استقلالهما ، وكان من نتيجة ذلك أن تدهور موقف رحمة بن جابر فى قطر ، ولهذا فقد غادر خور حسن ولجأ الى الدمام على ساحل الأحساء (٢) .

وقد عارض أنجال (٣) سعود موقف والدهم من احتلال السيد سعيد للبحرين فقرروا العمل بمفردهم ، وهكذا خرج اثنان او ثلاثة منهم من الأحساء بطريقه

(١) يذكر لورمار فى دليل الخليج فصل واحد ٨٤٣ « أن الاستيلاء على البحرين واجتياح زبارة قد وقع فى عام واحد وهو عام ١٨١١ غير أن خطاب سعيد الى دنكان بتاريخ ١٨١٠/٧/٣ والذى اشرنا اليه آنفا يوضح تماما : انهجوم قد وقع فى العام السابق .

(٢) لورمار .

(٣) يذكر ابن رزيق « أئمة وسلاطين عمان » ص ٣١٨ أن الأنجال اللذين اشتركوا فى تلك العملية هم تركى وفصيل غير أن عثمان بن بشر المؤرخ بالأسرة السعودية الذى عاش فى القرن التاسع عشر يذكر فى مؤلفه « عنوان المجد فى تاريخ نجد » بأنهم كانوا ثلاثة هم : تركى وناصر وسعد فصل ١ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

— ٢٠٩ —

البحر ، وكان ذلك في بداية عام ١٨١٢ وكان والدهم في ذلك الوقت يؤدي فريضة الحج . وقد نزلوا في عجمان على الساحل وكان يرافقهم بعض اتباعهم ، وفي عمان انضم اليهم شيخ المنطقة ونحو مائة شخص من اتباعه وسار الجميع الى البريمي . وفي البريمي نشبت معركة بينهم وبين القبائل اضطروا معها الى الانسحاب بعد سقوط عدد من اتباعهم ، وعندما علم مطلق بذلك خف لنجدتهم ، وبلاشتراك مع انجال الامير والشيخ محمد بن ناصر زعيم بني جابر شنوا هجوما كاسحا على ساحل الباطنة ومنطقة الشرقية كما هاجموا بركة ومطرح وقتلوا عددا كبيرا من سكانها ومن هناك عبرت القوة الى الحجر الشرقي وهي تدمر وتقتل حتى وصلت رأس الحد حسب ماورد في احوال لوريما ، وعندما بلغ سعود الامر بالغزوة التي قام بها انجاله والتي لم يصرح لهم بها غضب وجهز قوة لاحتلال القلعة الرئيسية في البريمي ومنع انجاله من دخولها كما استدعاهم هم ومطلق المطيري الحضور الى نجد ، وقد اوفد بدلا من مطلق « عبد العزيز بن غروقه » حاكم الاحساء للاشراف على القوات الوهابية هناك غير أن ابن غروقه ورفاقه قتلوا في الطريق خلال كمين اعد لهم في بني ياس. حلفائهم في منطقة الظاهرة .

وقد صدرت الأوامر لمطلق المطيري مرة اخرى في عام ١٨١٣ بالعودة الى عمان والعمل لاستعادة مركز الوهابيين هناك غير أن أيامه في هذه المرة كانت معدودة، فعند عودته الى الورييمي اكتشف بأن أغلبية العرب كانوا ضده، ويعود السبب في ذلك أساسا الى المطالب الكثيرة التي كان يفرضها على السكان وارغامهم على شن الحروب والغارات على جيرانهم ، وبالتالي ولهذا

- ٢١٠ -

كان أثرياء عمان يتصنعون الفقر وشجعانهم يتصفون بالجبن ولكن مطلق استمر في محاولاته معهم الى أن رضخوا لمطالبه فيما عدا بنى كلبان ، أما بقية قبائل الظاهرة فقد أبدته ، وكان الهدف فرض الاتاوة على القبائل، إذ أن مطلق كان ينوى القيام بهجوم على السيد سعيد انتقاما منه على طرد الحاكم الوهابي من رأس الخيمة في أوائل العام وهكذا خرج مطلق على رأس جيش من ٤٠ ألف مقاتل لمهاجمة مدينة صحار العمانية ولنجة ومنها الى مسقط . ولما كانت امكانيات السيد سعيد العسكرية لا تسمح له بصد مثل ذلك الجيش فقد دفع لمطلق المطيري جزية مقدارها ٤٠ ألف ريال نمسوى . لكن تلك الحملة العسكرية كانت آخر عملية يقوم بهامطلق المطيري، ففي نهاية عام ١٨١٣ وبينما كان يقوم بالاغارة على احدى مناطق الشرقية في عمان وقع في كمين نصب له بالقرب من قرية بديه « وقد قتل في وادي البطحا وقد قتل القائد في هذا الكمين الذي نصبه بعض الحجرين .

وقد خلفه في منصبه قائد جديد هو عبد الله المزروعى وبعد وصول القائد الجديد الى البريمي بأيام قليلة جهز حملة للهجوم على « بديه » والانتقام لمصرع مطلق . ولكنه لم يتمكن من الوصول الى أبعد من بهلاء، وهناك قرر عدم مواصلة الغزو بعد أن نعى اليه بأن السيد سعيد قد أثار قبائل الشرقية عليه وكان ينظره في نزوى(١) وبعد وقت قصير وصل الى مسقط مبعوث خاص من الدرعية يطلب التفاهم مع السيد سعيد لأن الأمير السعودي لم يعد لديه من

(١) ابن رزيق ص ٣٢٦ - ٣٢٨ ، (رحلات الى الجزيرة العربية) بقلم جى .

نار . ولستد مجلد ٢ فصل واحد ص ٩٦ طبعة لندن ١٨٣٨ .

الوقت مايولييه لشئون عمان بعد أن عبأ إمكانياته كلها لمواجهة الهجوم الذي شنّه عليه محمد علي باشا والى مصر (١) .

(١) ان تاريخ وتسلسل الأحداث في هذه الفترة من وجهة نظر السلطات تنسبها الغموض وان هذا البيان ان هو محاولة لوضع تلك الأحداث في اطارها الصحيح ان بادجر شأنه شأن ابن رزيق يؤرخ أبناء سعود لعمان بالفترة الواقعة بين هذا التاريخ والهجوم البريطاني على رأس الخيمة عام ١٨٠٩ والتي تبدو وانها وقعت في وقت مبكر جدا « أئمة وسلاطين عمان » أما ابن بشر « تاريخ نجد » فصل واحد ص ١٥٢ فيقول أن أبناء سعود خرجوا الى عمان من الدرعية في شهر ذي الحجة ١٢٢٥ الموافق ديسمبر ١٨١٠ - يناير ١٨١١ وهو تاريخ يبدو مبكرا على ما يبدو لانه يحدد تاريخ الغارة في نفس التاريخ الذي منى فيه مطلق بالهزيمة على يد سالم والفرس في بلدة أزكى في مستهل عام ١٨١١ . ومرة أخرى يذكر بادجر وهو على صواب بأن الغارة جاءت في أعقاب تلك الهزيمة « أئمة وسلاطين عمان » ونرى أن ابن بشر يؤرخ لها قبل هذا التاريخ كما يحدد تاريخ الهزيمة في الفترة الواقعة بعد شهر ذي الحجة عام ١٢٢٦ الموافق ديسمبر ١٨١١ يناير ١٨١٢ « تاريخ نجد فصل ١ ص ١٥٣ - ١٥٤ » وهذا يتطابق مع التاريخ الذي حدده لوريماز « دليل الخليج فصل واحد ص ١٤٤ » غير أن هذا يتناقض مع ما اشرنا اليه أما لوريماز فإنه يؤرخ لغارة أبناء سعود بعام ١٨١٢ أو ١٨١٣ « نفس المصدر » ولكن بما أنه قد مر عام أو عام ونصف على الغارة وغزو مطلق للباطنة فمن المؤكد أنه وقع في النصف الأول من عام ١٨١٣ فان ١٨١٢ وهو التاريخ المحتمل ، أن لوريماز شأنه في ذلك شأن ابن بشر يؤرخ لمصرع ابن غروقه بعد الغارة المذكورة ولكن بينما يعزوها ابن بشر إلى شهر جمادى الأول ١٢٢٦ الموافق مايو - يونيه ١٨١١ فان لوريماز يحددها بعام ١٨١٢ وأخيراً على حين يقول وليستدان مصرع مطلق =

ولفترة تزيد على عقد من الزمن ظل الباب العالي يقف موقف الخنوع والضعف في وجه الخطر الوهابي وكانت هناك عوامل كثيرة ساهمت في ذلك الوضع منها الثورة داخل الامبراطورية ثم ضياع الاراضى والاستنزاف البطيء لامكانيات العثمانيين لمواجهة التصعد الذى اصاب البنية السياسية للباب العالي بسبب وجود المرتزقة واخيرا العجز المزمن في الامكانيات المالية .

وفي عام ١٨١٠ دخل الوهابيون المدينة المنورة فقاموا بنهب قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونهب الحرم النبوى . غير ان هذه الجريمة اثارت السلطان العثمانى محمد الثانى وقرر القيام بعمل ضد الوهابيين . ولما كان وضع السلطان لا يسمح له بتنفيذ تلك المهمة فقد كلف واليه فى مصر محمد على باشا بالتحرك الى الحجاز . وعلى الرغم من ان شن هجوم على الوهابيين فى الحجاز لم يكن عملا سهلا بالنسبة لمحمد على الا انه رأى فى ذلك فرصة للتخلص من المتاعب التى كان يعانى منها فى مصر ، اذ ان المماليك كانوا لا يزالون يهددون مركزه فى مصر كما كانت الأوضاع المالية فى منتهى السوء بينما كان الجيش الذى يتكون معظمه من الباشوات تسوده روح التدمير والثورة على الأوضاع .

وقد اعتقد محمد على باشا بأنه لو استطاع اخضاع الوهابيين فان ذلك قد يؤدى الى دعم وضعه المالى عن طريق حصوله على قرض من الباب العالي

== وقع في عام ١٨١١ - ١٨٨٢ ص ٢٨ «ملاحظات حول القبائل العمانية») وانه قتل في شهر نوفمبر ١٨١٣ (بلدان و قبائل الخليج فصل ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠) وهذا يبدو اكثر انطباقا مع تسلسل الاحداث كما أن غولين يحدد نفس التاريخ فيروى انه على الرغم من رأس وأطراف مطلقاً قد ارسلت للسيد سعيد تأكيداً لفتله الا ان السيد سعيد لم يصدق بأن خصمه اللدود قد قتل بالفعل .

والى اعفائه من دفع الزكاة السنوية فضلا عن الغنائم التى سوف يحصل عليها من الحجاز . كما أن الحرب فى الصحراء كانت فى نظره فرصة لتدريب جنوده على تلك الحرب . كذلك فلو قدر له أن ينتصر على الوهابيين فإن ذلك سوف يعزز مركزه فى العالم الاسلامى كمحرر للأماكن المقدسة ، كما قد يفيد فى دعم مركزه فى سوريا على الرغم من أنه ظل يذكر البلب العالى بأن السلطان لم يفعل شيئا حتى ذلك الوقت لوقف الوهابيين عند حدهم لاسيما وأن امكانيات سوريا كانت اكبر من امكانيات مصر . ولعل محمد على باشا رأى بأن الحملة تتيح الفرصة له للقضاء على نفوذ المماليك فى مصر . وقد حقق محمد على هذا الهدف بطريقة شرسة ، فقد دعا الى القلعة فى يوم ١ مارس ١٨١١ أربعمائة وستين من زعماء المماليك وذبحهم عن آخرهم كما ذبح نحو ٥٠٠ مملوك آخر فى مختلف انحاء مصر عن طريق ولاته . وفى نفس الوقت أبلغ السلطان بأنه لم يكن فى وسعه أن يجازف ببقاء المماليك فى مصر لأنهم قد يغتصبون السلطة منه بينما يكون جيشه يحارب خارج البلاد (١) . وفى نهاية شهر أغسطس ١٨١١ خرج الجيش المصرى الى الحجاز بقيادة طوسون نجل محمد على ، وفى شهر اكتوبر استولى الجيش على ميناء ينبع وبعده بدأ الزحف نحو المدينة فى اوائل العام الجديد ، غير أن طوسون منى بهزيمة نكراء على يد الوهابيين وحلفائهم من قبائل حرب . وكان الجيش بقيادة عبد الله وفيصل نجلى سعود ، فاضطر محمد على الى الانسحاب الى ساحل البحر الاحمر ، وفى خريف ١٨١٢ جدد الهجوم على الوهابيين ، وفى شهر نوفمبر دخل المدينة وفى اواخر العام قام

(١) « تاريخ مصر » فصل واحد ٣٤٩ تأليف منجم و ١٨١١ -

١٨٤٩ طبعة باريس ١٩٣٠ ص ٣٥ - ٤٠ ، « مؤسس مصر الحديثة » تأليف اتشى اتشى دودوال طبعة كامبردج ١٩٣١ ص ٤١ - ٤٣ التقرير الادارى للمقيم البريطانى فى الخليج « ١٨٧٩ - ١٨٨٠ ، ومذكرات حول نجد « تأليف روث » .

عبد الله ابن سعود الذى كان يقود القوة الوهابية فى الحجاز باخلاء مكة ودخلها،
المصريون منتصرين فى يناير ١٨١٣ (١) ، وفى شهر أغسطس من العام التالى
وصل محمد على باشا بنفسه الى الحجاز ليقود الحملة وفى نهاية العام قام
الامير السعودى باتصالات جديدة بالسلطات البريطانية فى الهند لاجراء
مباحثات معهم .
و

وقد أجرى الاتصال نفس المبعوث الذى كلف أيضا بزيارة السيد سعيد
فى مسقط كما توجه مبعوث آخر الى بوشهر لنفس الغرض وقد أدى ذلك
بالقواسم الى استئناف عمليات القرصنة وبخاصة أنهم قد عوضوا خسائرهم
فى السفن ببناء سفن جديدة بالأخشاب التى وصلتهم من « ترافنكور » وغيرها
من المناطق خارج السيطرة البريطانية ، وفى الشهور الأخيرة من عام ١٨١٢ عاد
القواسم الى نشاطهم بنفس القوة . وقد أمضت الفرقاطة البريطانية « هسبر »
بناء على تكليف من السلطات فى بومباى الفترة الواقعة من نوفمبر ١٨١٢ حتى
فبراير ١٨١٣ فى دوريات مستمرة بحثا عن القواسم، ولكن على الرغم من أنها
جابت المنطقة من مضائق هرمز حتى شط العرب والعكس بالعكس فانها لم
تصادف ولا سفينة واحدة للقراصنة (٢). وفى أوائل عام ١٨١٣ أبلغ السيد سعيد
الحكومة فى بومباى بأنه قد قرر مهاجمة رأس الخيمة بهدف إعادة الشيخ
سلطان بن صقر الزعيم السابق الى السلطة . وكان الوهابيون قد أقصوه عن

(١) « منجم » فصل واحد ص ٣٨٢ - ٣٨٤ «ملاحظات عن البدو» ص.
٣٤٥ - ٣٥٦ تأليف برخارد ودودوال ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) التقرير السنوى رقم ١٨٤٠/١ من الكابتن جوزيف بريور الى الفايص
اميرال السير صمويل هود الطراد هسبر مسقط ١٨١٢/١٢/١٥ ومن هود الى
ويليام كروكر « سكرتير الاميرالية » ١٨١٣/٤/١٣ انظر أيضا الرسائل السياسية
لحكومة بومباى مجلد ٤ الحاكم الى الحكومة البريطانية ١٨٤٣/١/١٦ .

السلطة من خمسة أعوام ، وبأنه يخطط لعقد اتفاقية مع صقر يتعهد فيها بعدم قيام القواسم بأى غزو أو هجوم على عمان . وقد اقترح السيد سعيد أن يصحبه فى تلك العملية اللفتنانة وليام بروس المقيم البريطانى بالوكالة فى بوشهر ولكى يشهد على توقيع المعاهدة ويقدم ما يمكن من المساعدة البحرية وقد رأى بروس فى ذلك فرصة للحصول على اتفاقية مكتوبة مع القواسم يتعهدون فيها باحترام السفن البريطانية وعلى هذا الأساس صدرت الأوامر لروس بمرافقة السيد سعيد فى الطراد ولكن الحملة فشلت على الرغم من أن سلطان بن صقر قد نجح فى الاستيلاء على الشارقة وهى الميناء الثانى الهام للقواسم (١) . وفى خريف عام ١٨١٣ بدأت سفن القواسم تظهر من جديد على السواحل الشمالية للهند وفى مستهل عام ١٨١٤ استولوا على عدد من السفن كانت تسير بالقرب من كاثيا وار . وقد صدرت الأوامر الى ثلاث من الطرادات للبحث عن القواسم وتحذيرهم من نتائج بقائهم فى المياه الهندية ، وفى هذه الاثناء تلقت حكومة بومباى طلب الأمير السعودى للوصول الى اتفاق مع الحكومة البريطانية واحيل الطلب الى كلكتا حيث قرر الحاكم العام وهو الأول أوف مويرا الذى لم يوافق على إبرام أى اتفاقات رسمية مع الحاكم الوهابى لكنه اقترح على سلطات حكومة بومباى بالاحتفاظ بالعلاقات الودية مع الحاكم الوهابى والسعى بمختلف الوسائل للاعراب عن تقديرها لمواقف لامبر لوهابى الودية تجاه الحكومة البريطانية (٢) وبعبارة أوضح كان

(١) مخنارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٠٨ « لمحة تاريخية من القواسم » تأليف و اردن .

(٢) رسائل بومباى السياسية نفس المجلد من الحاكم الى الحكومة البريطانية ١٨١٤/٤/١٦ .

— ٢١٦ —

مويرا يرى أن نشاط القواسم ضد الملاحة في الخليج لاعلاقة له بالوهابيين وذلك
كى تتفادى الحكومة البريطانية أى خلافات قد تسبب احراجا معهم غير أن مويرا
اكتشف فيما بعد خطأ هذا الرأى .

في أول مايو ١٨١٤ توفى الأمير سعود وخلفه نجله عبد الله وكانت أغلبية
أراضى الحجاز في يد محمد على باشا وكانت الخطوة التالية في خطة محمد على
باشا هى نقل الحرب الى المعسكر الوهابى . وفي يناير ١٨١٥ وفى منطقة تقع بين
الطائف وتربه قضى على جيش الوهابيين وقوامه ٣٠ ألف رجل قضاء تاما ،
وكان الجيش بقيادة فيصل بن سعود شقيق عبد الله . وقد فشلت خطة محمد
على للتقدم نحو نجد بعد وصول أنباء عن احتمال قيام الباب العالى بخلمه عن
الحكم خلال غيابه عن مصر ، وقد أقتنع محمد على من المعلومات التى كانت تصل
اليه ومن التطورات التى كانت تشهدها أوربا بعد هرب نابليون بوجوب العودة
الى مصر فورا ، وهكذا غادر الحجاز في مايو ١٨١٥ بعد أن سلم القيادة الى
طوسون . ولم يمض وقت طويل حتى عقد طوسون معاهدة مع الأمير عبد الله
تعهد فيها الأخير بالتنازل عن مطالبه في الحجاز والأماكن المقدسة وإعلان ولاءه
للسلطان العثمانى بينما تعهد طوسون من جانبه بفتح أبواب الحجاز للوهابيين
للأغراض التجارية والدينية كما اعترف بسلطة عبد الله على نجد وعلى جزء
من القاسم وهى المقاطعة الواقعة بين نجد والحجاز (١) .

وقد أعلن عبد الله بن سعود بعد توليه السلطة بأنه سوف ينهج منهج والده
بالنسبة للخليج ، وعلى أثر تسلم حسن بن رحمة تحذير المقيم البريطانى
في شهر مايو من سنة ١٨١٤ وكان قد خلف حسين بن على كحاكم لرأس الخيمة

(١) كيه فصل ٢ من ص ١ - ٤٨ - وبرخارد من ص ٣٦٠ - ٤١٣ وصبرى
ص ٤٣ ودودوال من ص ٤٤ - ٤٦ .

يووقف نشاطه على حدود الهند وقد استدعاه الأمير عبد الله الى الدرعية وحذره من استفزاز البريطانيين ، غير أن عبد الله أبلغ المقيم البريطاني في رسالة بعث بها اليه في شهر أكتوبر سنة ١٨١٤ بأن هجمات القواسم على السفن غير البريطانية سوف تستمر وقد ذكر له في تلك الرسالة بأننا نرجو أن تشعروننا من هم رعاياكم وما هي العلامة المميزة لهم لأن سفن المسلمين تجوب البحار باستمرار «(١) وقد اخبر حامل هذه الرسالة وكان قاسميا من رأس الخيمة المقيم البريطاني بأن حسن بن رحمه قد أصبح مستعدا للتوقيع على تعهد كتابي بعدم التعرض للسفن البريطانية على الرغم من أن المقيم بروس كان في قرارة نفسه يشك في قيمة ذلك التعهد الا انه رأى من المناسب ان يقبله منه وقد اقرت الحكومة في بومباي الاجراءات التي اتخذها بروس بهذا الشأن(٢) .

بعد تحسن الأحوال الجوية في شهر أكتوبر ١٨١٤ ظهرت سفن القواسم مرة اخرى وبأعداد كبيرة على السواحل الشمالية للهند وعندما تقدم أمراء مقاطعة السند الى حكومة بومباي بطلب حماية الاسطول لهم ضد نشاط القواسم رفض طلبهم على أساس أن الهجمات القرصنية على السفن البريطانية موضوع ليس من اختصاص الشركة ، وعلى أي حال وفي الوقت نفسه أعرب السير إيفان نبيين الذي خلف دنكان في بومباي أعرب للحاكم العام عن مخاوفه مما قد يتعرض له تجارة لهند من أضرار وخسائر فيما لو سمح للقواسم بممارسة نشاطهم دون رقيب بالقرب من سواحل السندوكتش، وقد أيداه الحاكم العام في ذلك الرأي

(١) من أرشيف الرسائل المتعلقة بالخليج ١٨٠١ - ١٨٥٣ ص ٥٦ من عبد الله ابن سعود الى اللفتنانة وليم بروس (سجلات بوشهر ١٠/١٨١٤) .
(٢) رسائل بومباي السياسية مجلد ٥ من الحاكم الى الحكومة البريطانية

ولوانه كان يعتقد بأن قبول نبين لتعهد ابن رحمة قد يفيد ذكرفى خطابه «بأن الممارسة المنظمة والدستورية لأعمال القرصنة من جانب القواسم قد تعتبر أساسا سليما لآى حكومة متحضرة لمكافحةهم والقضاء عليهم انطلاقا من مبدأ الدفاع عن النفس وهو المبدأ المعترف به دوليا . . . أما ما اذا كان رأيا صحيحا أو غير صحيح من وجهة النظر العامة فان الحكومة البريطانية ليست لديها المبررات للعمل بمقتضاه لأنها بعد ان عقدت اتفاقا مع القواسم باحترام السفن البريطانية فانها اعترفت بهم ضمينا كقوة لها حق الاحتفاظ بعلاقات دولية - ادية مع الدول الأخرى (١) .

والذى يمكن أن نستنتجه من ذلك هو أن حكومة بومباى قد اشترت سلامة مصالحها باعترافها الضمنى بحق القواسم فى العبث والنهب والسلب بسفن الدول الأخرى . ويؤيد هذا الرأى ما أوضحه الأمير عبد الله فى عام ١٨١٥ عندما أتم رحمة بن جابر الذى كان لا يزال يتمتع بالاعتداء على احدى السفن التركية وكانت تحمل تصريحاً من المقيم البريطانى فى البصرة . وقد كتب عبد الله بعد ذلك الى بروس فى بوشهر يحتج بمنتهى القوة على اصدار تصريح لسفن غير بريطانية، وقال فى احتجاجه أما هؤلاء الكلاب الأتراك فانهم خصومى وهم يسعون الى بلز بدور الشقاق فيما بيننا ، أما الذين يمتنون اليكم بصلة فأننا لن نسمح لرعايانا بالاعتداء عليهم بأى شكل من الأشكال ، ولكن لا ينبغي أن تخلطوا بين ائمتنا ورعاياكم أو أن تصدروا لهم أذونا أو تصاريح (٢) وقد كان رد الفعل من

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤١ بتاريخ ٢١ ، ٢٩ يوليو ١٨١٩ من مؤرخ إلى نبين بتاريخ ٢٠ / ١ / ١٨١٥ .

(٢) رسائل حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ بتاريخ ٢١ ، ٢٩ يوليو ١٨١٩ من مؤرخ إلى نبين بتاريخ ٢٠ / ١ / ١٨١٥ وقد أرفق به صورة من خطا عبد الله .

جانب نبين أن أعرب عن أسفه من أن رحمة بن جابر لم يلحق الدرس الكافي سنة ١٨٠٩ - ١٨١٠ . وأنه كما قال نبين لو ظل بغير عقاب لمجرد عدم هجومه على السفن البريطانية فإن ذلك لن يكون مثلاً سيئاً للقبائل البحرية فحسب وإنما سيضر بالمصالح البريطانية بشكل واسع . « أن أقل درجة من التسامح تجاه هذا الزعيم المؤيد من قبل الوهابيين سوف يشجعه على القيام بنشاط ضار جداً ليس ضد مصالحنا في مصر فحسب ، وإنما أيضاً في العراق ولدى البلاط العثماني .

في أوائل عام ١٨١٦ بدأ القواسم هجماتهم على السفن الأوربية ، فأطلقوا النار على السفينة مكولاى وعلى السفينة الأمريكية فارس وطاردها ، كما اقتحموا سفينة فرنسية قادمة من جزر موريشيس ، وعاثوا فيها نهباً وسلباً ، وقالوا لقبطانها ، أنه لو كان هو وبحارته من البريطانيين لقطعوا رؤوسهم ، ولعل أخطر عمل قام به القواسم هو استيلاؤهم على السفن المحملة بالسلع الثمينة التى كانت متجهة من سورت وترفع العلم البريطانى وقد وقع الهجوم على السفينة في منطقة البحر الأحمر من جانب بعض سفن أسطول القراصنة وكان يقودها أخ حسن بن رحمه وقد ذبح كل من كان في الاثنتين من السفن الثلاثة ، بينما قتلوا من السفينة الثالثة نحو ٥٠ الى ٦٠ شخصاً ، وكانت القيمة الاجمالية للسلع التى كانت تحملها تلك السفن تتراوح بين مليون الى مليون و٢٠٠ روية^(١) غير أن صيحات التجار فى سورت أرغمت نبين الى اتخاذ الاجراءات اللازمة

(١) فارس والحليج مجلد ٣٢ من احكام الى الحكومة البريطانية ١٨١٦/١٢/١٨ مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٣١٠-٣١٢ ولاحقة عن تاريخ القواسم تأليف واردن « والاسطول الهندي » فصل واحد ٣٣٩ - ٣٤٢ تأليف لو .

ب - ٢٢٠ -

« فقد طلب الى القبطان « أن اتشه براجرز » قائد الطراد شلنجر (١٨ مدفع) بأمر يتحرك الى الخليج بصحبة الطرادين ماركرى وفستال لمساعدة المقيم البريطاني في بوشهر لاستعادة البضائع والسلع المنهوبة من القواسم ومعاقبة المسؤولين عن مجزرة البحارة . وقال له بأنه اذا رفض حسن بن رحمة الاذعان للطلب فعليه أن يوضح له بأن الحكومة البريطانية ستكون مستاءة جدا منه وانها سوف تتخذ الاجراءات الضرورية ضده وقد حذر براجرز بالايحاول القيام بأى عمل بحرى ضد القواسم الذين كانوا يملكون أسطولا حريبا يقدر ب ٤٠ - ٥٠ سفينة كما قيل له أيضا بأنه « لن يكون من الحكمة أن يلجأ الى أى اجراء ضد رأس الخيمة أو أى منطقة أخرى على الساحل دون أن تكون هناك تحت تصرفه قوة عسكرية كافية (١) » .

قبل صدور هذه الأوامر كان بروس قد وجه احتجاجا الى حسن بن رحمة حول انتهاكه الاتفاق الذى عقد في أكتوبر ١٨١٤ ورد حسن بن رحمة على بروس بأن الاتفاق لم يكن يشمل الهنود وانما ينطبق على الانجليز من ديانة المسيح أو الذين يحملون معهم التصاريح البريطانية ويرفعون الاعلام البريطانية الخاصة فقط (٢) غير أن الفصل بين الجنسين عمل يتضح بروح الانتقام ، ولهذا كان على بروس أن يوضح لرعيم القواسم بأن العلم البريطانى يشمل السفن البريطانية والسفن الهندية على السواء . وقد وصلت قطع الاسطول الى بوشهر يوم ١٨ نوفمبر الى رأس الخيمة يوم ١١/٢٦ بعد

(١) التقرير الادارى للمقيم البريطانى ١٨٩/١ من وارد الى برادجر ١٨١٦/٩/٨ ومرفقات لخطاب اليريداميرال السيراركن « القائد العام للهند الشرقية » الى كروركر سكرتير الاميرالية ، ترنكر مالى ١٨١٦/١٠/٢٠ .
(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم العام الى الحكومة البريطانية بومباى ١٨١٩/١٠/٩ .

الظهر ، وفي صباح اليوم التالى نزل منه رسول يحمل خطابا الى زعيم القواسم ، ينضمن طلبا بارجاع السلع المنهوبة وتسليم المتهم اخ حسن بن رحمة بالاضافة الى تسليم اثنين من ابناءه كضمان لاعادة السلع ، وقد نزل الكابتن براجرز في وقت متأخر من النهار واكتشف بأن القواسم قد قاموا بتعزيز حامياتهم الى حد كبير منذ حملة سنة ١٨٠٩ ، كما شاهد اربعة سفن كبيرة كاملة التسليح بأطقمها ترسو خارج الميناء ، وعلى الشاطئ في مواجهة الخليج كانت هناك صفوف من السفن كان يجرى تجهيزها للابحار بينما رأى سفنا أخرى راسية في الخليج ، وقد جرى الترحيب بالكابتن براجرز ومرافقيه ومن بينهم جى. اس. بكنجر المؤلف والرحالة الذي كان يعمل ربانا لأحدى السفن التجارية وأعد لهم لقاء مع حسن بن رحمة وقد كتب بكنجر يصف زعيم القواسم بقوله : « كان رجلا صغير الحجم فى نحو الأربعين من العمر ولكن ملامح المكر كانت واضحة على محياه » كما كانت ابتسامته تحوى الكثير من الدهاء ، وكان هناك أثر جرح باحدى عينيه غير أن تقاطيعه الأخرى كانت جميلة وكانت أسنانه ناصعة ابيضاض ومتناسفة وبشرته سمراء اللون جدا ولحيته صغيرة تكاد تلتصق بمحيط الدقن (١) .

وقد سأل براجرز حسن بن رحمه عما اذا كان قد قرأ المطالب البريطانية ، فرد حسن بالاجاب ، ووعد بأن يرد عليه وقت الظهر غير أن الرد الذى جاء بعد الظهر لم يكن مقنعا فقد زعم حسن بن رحمه فى رده بأنه لم يقصد أى انتهاك للتعهد المعقود قبل عامين وأنه تبعه لذلك لم يهاجم أى سفينة بريطانية ولكنه استدرك بقول بأنه لا يستطيع اعتبار الهنود رعايا بريطانيين لأنه لو وافقهم على ذلك فانه سوف يأتى يوم يكون فيه الانجليز قد احتلوا الهند كلها ، وهذا يعنى أنه لن يبقى لهم أحد يذهبونه، وأما بالنسبة للسلع فقد أكد حسن بأنه لا يمكن اعادتها لأنها قد وزعت على مستحقيها ،

٢٢٢ -

وأخيرا رفض حسن رفضا باتا تسليم أخيه أو اثنين من ابنائه كرهائن (١) .
وبينما كان روس وبراجرز يناقشون زعيم القواسم هبت ريح من الشمال الغربى دفعت بقطع الاسطول الى خارج الشاطئ ، وعند حلول نهار يوم ١١/٢٨ وصلت السفن الى جزيرة قشم ، ولم تتمكن من العودة قبل اليوم الثلاثين وقد عاد المبعوثان فكررا طلبهما الى حسن بن رحمه بدفع التعويض عن الجريمة التى اقترفها أخوه ، ولكنه عاد فرفض الطلب ، غير أن بروس لم يكن يريد مغادرة المنطقة قبل أن يترك طابعا قويا عن استياء حكومته من الحادث ، وقد وافقه براجرز على رأيه ولهذا تجاهل الاثنان تحذيرات الحكومة وسارا بالأسطول الى منطقة قريبة من الساحل وأخذوا يطلقان النار على بعض السفن انتراسية هناك ، لكن الغدائف لم تصب الأهداف ، ورد القواسم النار بالمثل وأصابوا أحد الطرادين . وعندئذ تجمهر الأهالى على الساحل وأخذوا يصيحون صيحات الفرح والامتداح ويطلقون النار فى الهواء ولم يكن أمام براجرز ما يفعله سوى وقف العمليات والتحرك الى خارج ميناء (٢) .

لقد كانت عملية رأس الخيمة عملية فاشلة بل انها شجعت القواسم أكثر على تحدى القوات البريطانية نتيجة التساهل البريطانى تجاههم . فقد عززوا أسطولهم بسفن حربية جديدة ، وأصبح لديهم أكثر من مائة سفينة وتم تجميع سفن هذا الأسطول فى الموانئ الواقعة بين رمس والشارقة وقد سلحت هذه السفن بـ ٤٠٠ مدفع و ٨٠٠٠ مقاتل كما انضم الى القواسم سكان لنجة وخرک وغيرها من الموانئ الواقعة على الساحل الفارسى ،

(١) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم الى مجلس الادارة اشوريا « فصل / ٢ ص ٣٥٨ الى ص ٣٦٠ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم الى الحكومة بمبای ١٨١٩/١٠/٩ وكنجاهم فصل ٢ ص ٣٧٣ - ٣٧٦ .

- ٢٢٣ -

بالإضافة الى سكان لفت وجزيرة قشم اللتين استعادهما القواسم ، وكان كل هذا الاسطول يخضع لاشراف الوهابيين وكان جميع سكان هذه المناطق يتكون الاحتقار لبريطانيا ، وهذا ما اكتشفه بروس عندما توجه الى رأس الخيمة فى محاولة لاسترجاع السلع التى استولى عليها القواسم من السفن التابعة لسورت وحولوها الى سفن عاملة فى اسطولهم ، وكل الذى استطاع ان يحصل عليه بروس من زعماء المناطق (١) التى توجه اليها هو الإنكار القاطع لمعرفتهم بأى شئ عن تلك السلع .

فى شهر ديسمبر ١٨١٦ داهمت سفن القواسم المياه القريبة من ساحل كتش واستولوا على ١٢ سفينة . وفى فبراير ١٨١٧ داهمت سفن القواسم احدى السفن المسلحة التابعة لحكومة بومباى بالقرب من بوربندر وذبخوا ١٧ من بحارتها وأخذوا الباقين أسرى الى رأس الخيمة ، وقد أخذ القلق يساور ايفان نبين على السفن التجارية المتجهة البحر الاحمر وبخاصة خلال الموسم فطلب الى القائد العام لاسطول الهند الشرقية تقديم ما فى استطاعته من الحماية المسلحة لتلك السفن ، وبناء عليه صدرت الأوامر الى الطرادين باخوس وتوفى بالابحار شمالا للقيام بحماية قوافل السفن المتجهة الى البحر الاحمر والخليج . ولما كان القواسم فى ذلك الوقت قد رفضوا ان يميزوا بين السفن الاوربية فقد اضطر القائد الى اصدار أوامره الى الطرادات بان تهاجم وتستولى على أى سفينة تابعة للقواسم وتدميرها سواء كانت فى الخليج أو فى مياه البحر الاحمر .

وعلى أى حال فقد كان من الواضح انه لا يمكن القضاء على قوة القواسم البحرية الا باعداد حملة عسكرية أخرى ضدهم ، وقد كتب نبين الى الحاكم

(٢) التقرير الادارى للمقيم البريطانى ١٨٩/١ من براجز الى الحاكم فى بومباى ديسمبر ١٨١٦ مرفقات لخطاب كنج الى كروكر رقم ٦ بتاريخ ١٨١٧/٣/٥ .

للعام في شهر ديسمبر ١٨١٦ في هذا الشأن وتقلي موافقة مويرا عليه وكلفه في شهر فبراير ١٨١٧ بإجراء تحريات عن حجم وتوزيع القوة اللازمة لتنفيذ هذه العملية بالرغم من أنه أشار إلى أن مثل تلك الحملة موضوع لم يكن واردا في تلك الظروف على الأقل بسبب قلة الإمكانيات ، كما كان هناك أمل ضئيل في توفير العدد الكافي من الجنود الهند وكان من الأفضل أرجاؤها ريثما تنتهى الحرب الدائرة في الهند ضد ولايتي مهرتا وبندارى (١) . كما كان هناك اعتبار آخر وهو أن أعداد حملة أخرى ضد القواسم قد تؤدي إلى التورط في صراع مع الوهابيين ، فقد كان الأمير عبد الله بن سعود مستاء أشد الاستياء من عملية قصف رأس الخيمة وأعرب عن استيائه هذا في رسالة بتاريخ فبراير ١٨١٧ إلى بروس ، وبعد أن كرر تعهده بعدم التعرض لـ «لسفن الأوروبية التي ترفع العلم البريطاني عاد فجدد تحذيره إلى بروس» من أن عمليات القرصنة سوف تستمر « وبالنسبة إلى السفن التابعة لغير الإنجليز فأننى حر من أى قيد فى ذلك ، اذ كيف تتصورون اننا نعيد لكم الغنائم التي استولينا عليها من أعدائنا... غير أننى اعتبر نفسى المسئول عن سلوك جميع المسلمين تجاه الرعايا الانجليز وعلى أى حال فان أهالى مصر واليمن والشحروالمكلا ومسقط والعراقيين والفرس الخاضعين لسعيد بن سلطان كلهم أعدائى واننا بحول الله سوف نقوم بقتلهم والاستيلاء على ممتلكاتهم فى أى مكان نجدهم فيه ، وفى ذلك تنفيذ لأوامر الله الذى نحمده ونشكره ... » (٢) .

أما لماذا اختار محمد على باشا أن ينقض الاتفاق الذى وقعه طوسون في

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤١ محادثات رقم ٢٩ بتاريخ ١٨١٩/٧/٣١ من جى ادم (سكرتير الحكومة) الى واردن وفورت ويليام ١٨١٧/٢/٢٢ .

(١) نفس المصدر من عبد الله بن سعود الى بروس (سجلات بوشهر ١٨١٧/٢/٢٥) .

عام ١١٨٥ فغير وأضح (١) . وعند وصول المبعوثين الوهابيين الى القاهرة فى اغسطس من ذلك العام للحصول على التصديق على معاهدة طوسون رفض محمد على باشا طلبهم ، وقد يكون ذلك راجعا الى أسباب دينية نظرا لما كان معروفا عن سلوكه وطموحاته كما قيل أيضا بأنه كان على خلاف مع علماء الأزهر الذين أظهروا تشددا كبيرا بالنسبة للموقف الدينى من الوهابيين وثمة تفسير آخر وهو أن عبد الله بن سعود كان يحاول تأكيد سلطته على منطقة القاسم وبالتالي فان محمد على باشا قرر معاقبته على تهوره وعلى ترده حتى ذلك الوقت فى تقديم الولاء للسلطان العثمانى (٢) . وحتى اذا افترضنا أن تصرفات عبد الله هى التى أملت على محمد على باشا بشن الحرب عليه مرة أخرى الا أن ذلك لا يعتبر سببا وجيها لشن حملة عسكرية جديدة على شبه الجزيرة العربية وعلى الأخص بسبب ما تتطلبه الحرب من نفقات وما تنطوى عليه من مخاطر ، ولعل أقرب الأسباب الى الصحة اذا ادخلنا فى الاعتبار نشاط محمد على فى اعوامه الاخيرة كما جاء فى اقوال الرحالة والمستشرق جى . ال برخارد الذى رافق طوسون فى حملته على الحجاز وكان فى القاهرة فى ذلك الوقت : أن محمد على كتب الى عبد الله

(١) توفى طوسون بعد عودته من الجزيرة وذلك بسبب الحماس الذى استولى عليه كما يقول دادويل من مشهد الافراح والاستقبالات التى وجدها فى مصر بعد عودته من الحجاز (مؤسس مصر لحديثة ص ٤٦) وعلى أى حال فهناك رواية ربما تكون اكثر صحة وردت على لسان برخارد الذى قال : « بان طوسون توفى بعد اصابته بوباء الكوليرا عندما كان فى روزيترا فى سبتمبر ١٨١٦ (ملاحظات عن البدو ص ٤١٨) وقد أعرب برخارد عن إعجابه بطوسون الذى وصفه بالشجاعة .

(٢) راجع « تاريخ مصر » فصل / ٢ ص ٥٥ - ٥٧ وكتاب « صبرى » الامبراطورية المصرية تحت محمد على ص ٤٨ ودودوال نفس المصدر وكتاب « الجزيرة العربية » تاليف فلبى ٩٧ .

(١٥ - بريطانيا والخليج)

يبدى استعداداه للتصديق على المعاهدة التى وقعها نجله بشرط أن يتخلى الوهابيون له عن مقاطعة الاحساء وهى أخصب وأهم المقاطعات فى شبه الجزيرة العربية وتقع على ساحل الخليج الفارسى ، ويبدو أن عبد الله رفض طلب محمد على باشا أو أنه لم يرد عليه اطلاقا ، وفى أوائل عام ١٨١٦ علم فى القاهرة أن بعض القبائل فى الحجاز قد أعلنت التمرد على سلطة الحاكم المصرى بتحريض من الوهابيين فقام محمد على بحشد جيش كبير فى فصل الصيف وعهد قيادته الى أحد أنجاله هو إبراهيم باشا (١) .

وقد وصل إبراهيم باشا الى الحجاز فى شهر سبتمبر ١٨١٦ وأقام معسكراته بالمدينة كما أقام قاعدة متقدمة فى الحماقية على بعد ٦٠ ميلا الى الشمال الشرقى أو على الطرف الغربى للسفلى الأوسط لشبه الجزيرة ، وقد سبق ذلك استعداد فى أوائل عام ١٨١٧ للزحف على منطقة القاسم ، بينما كانت المفاوضات تعززها الرشاوى والتهديدات مستمرة مع القبائل الرئيسية والمنطقة الغربية من الجزيرة فى محاولة لكسبهم الى المعسكر

(١) لدى دبليو . جى بلجريف قصة يرويها عن محمد على فيقول انه اراد ان يختبر قواده العسكريين قبل القيام بالحملة فوضع تفاحة فى وسط سجادة كبيرة وطلب الى كل منهم ان يصل الى التفاحة دون ان يضع قدمه على السجادة ، وكان يقصد من ذلك ان - التفاحة هى الدرعية والسجادة هى الصحراء المحيطة بها وقد اخذ القواد واحدا تلو الاخر يحاولون ذلك الا انهم فشلوا وفى النهاية طلب إبراهيم الاذن له بالوصول الى التفاحة ويتقدم إبراهيم واخذ يطوى السجادة من احد اطرافها الى ان وصل الى التفاحة وأمسك بها . وعلى نفس الفرار قتال إبراهيم لوالده ان قبائل المنطقة الغربية للجزيرة لعربية يجب طيهم بهذا الشكل اذا أريد للجيش المصرى ان يصل باى حال من الاحوال الى الدرعية (رحلة عبر المناطق الوسطى والشرقية للجزيرة العربية) تاليف بلجريف مجلد ٢ / طبعة لندن فصل ٢ ص ٤٧ - ٤٨ .

المصرى . وبدأ الزحف على القاسم فى شهر يونيه وقد وقع عبء القتال المبذئ على كاهل الخيالة البدو والفرسان ، وكان عددهم نحو ٦ آلاف جندى جمعهم ابراهيم باشا من الحجاز ليكونوا طليعة قواته ، وقد بدأ هؤلاء يضيّقون ذرعا بالدور المكلفين به ، وسرعان ما أخذ ابراهيم باشا يواجه مشكلة فرار الجنود من الجيش بشكل واسع ، غير أن هذا النقص فى القوات، تم تعويضه عن طريق عروض التأييد التى بدأت تنهال عليه من شيوخ عنزه وشيوخ مطير الذين كانوا مستائين من سيطرة الوهابيين عليهم ، وفى جبل معاوية فى شهر يوليو نشبت أول معركة بين قوات محمد على والوهابيين ، وذلك عندما أرغم ابراهيم باشا جيشا من الوهابيين يقدر بنحو ١٠ آلاف من راكبي الجمال بقيادة عبد الله بن سعود نفسه (١) على أن يولوا الادبار .

ولعل معركة جبل معاوية كانت المعركة الحاسمة بين الطرفين ، فقد انسحب عبد الله الى معقله بين أسوار الدرعية ولم يعد يغامر بشن حرب أخرى ، أما ابراهيم فقد أخذ يضغط فى زحفه نحو القاسم ونهاية عام ١٨١٦ كان معظم هذه المنطقة قد سقطت فى يده أو فتحت أبوابها له ، وبعد أن تلقى مجموعة أخرى من الجنود من مصر استأنف زحفه نحو الشرق ، وذلك فى بداية العام الجديد . وقد تعطل الزحف أكثر من مرة لتأخر وصول المؤن والامدادات التى كانت تشق طريقها بصعوبة فى الحجاز. ولم يتمكن جيش ابراهيم باشا المؤلف من نحو الفين من الخيالة المصريين والألبانيين والمغاربة والبدو ٥٦٠٠ رجل من لشاه و ٢٥٧٤ منهم من المصريين و ١٧٢٥ من الألبانيين ومائة من المغاربة والبقية من المحاربين البدو غير النظامين بالاضافة الى قوات المدفعية والمهندسين والطلّاع لم يتمكنوا من الزحف على الحجاز قبل فبراير عام ١٨١٨ .

(١) كان عدد الوهابيين الذين ذبحوا فى هذه المعركة كبيرا جدا بحيث ان ابراهيم باشا اضطر الى أن يتوقف عن ارسال رؤوس الجنود الوهابيين لعرضها فى القاهرة وأخذ يرسل الأذان بدلا من الرؤوس .

وخلال تقدم ابراهيم باشا عبر وادى حنيغة لم يواجه مقاومة تذكر حتى انه فى اوائل ابريل كان قد وصل الى مشارف الدرعية ولم ينته الحصار الذى فرض على المدينة واستمر خمسة أشهر الا بعد ان كلف الطرفين خسائر جسيمة (١) ومن الغريب أن اندجار الوهابيين فى أواسط الجزيرة العربية لم يترك أثارا خطيرة على سواحل الخليج . لقد كان القواسم أصبحوا اقوياء حتى انهم لم يكتروا بفقد حماية الوهابيين لهم كما ان نار العقيدة قد خبت فيهم وهكذا لم يعد للمذهب محمد بن عبد الوهاب أى دور سوى تغطية أعمال القرصنة بستار من التقوى . كما أن البحرين التى خلعت هى الأخرى رداء الخضوع للدرعية تحولت الى المركز الرئيسى لنشاط القواسم ، وكانت تزودهم بالأغذية وغيرها من المواد بينما أخذت أعداد من العتوب تسافر الى رأس الخيمة لتنضم الى القواسم ، (٢) وخلال

(١) منجم فصل ٢ ص ٧٧ - ١١٩ وسدler ص ١١٣ - ١٢٠ وصبرى ص ٤٨ - ٥٦ ودودوال ص ٤٦ - ٤٨ وقلبي من ص ٩٧ - ٩٩ .

(٢) ان تواطؤ البحرين فى عمليات القواسم قد يكون سببا فى عدم تاجر حجم التجارة بين الهند والخليج بحملات القرصنة وكانت القيمة الإجمالية لتجارة الحكومات الثلاث التى هى بومباى والبنغال وكلكتا مع موانئ الخليج والجزيرة العربية فى عام ١٨٠٢ لا تزيد على ١٢ مليون روبية وفى عام ١٨١٣ - ١٨١٤ حافظت على نفس المستوى تقريبا لكنها فى عام ١٨١٧ - ١٨١٨ ارتفعت الى ٤٢ مليون روبية (التقرير الثالث للجنة التجارية الخارجية ، تقارير اللجان (١٨٢١) وثيقة ٧٤٦ مجلد ٦ ص ١٩١ ملحق اتشى) ويمكن ان تعزى تلك الزيادة الى التحسن الذى طرأ فى التجارة مع فارس فى أعقاب توقف الحرب بينها وبين روسيا ١٨١٣ كما يمكن ان يعزى الى ارتخاء قبضة الوهابيين على البحرين وعمان بعد ذلك الوقت . ومن ناحية أخرى فان عمليات السلب والنهب التى كان يمارسها القواسم قد ازدادت حدة فيما بين عامى ١٨١٤ - ١٨١٨ واذا كانت التجارة قد ازدهرت خلال هذه السنوات فمعنى ذلك ان السلع والبضائع كانت تصل فى النهاية الى وجهتها ويمكن القول ان القرصنة لم تؤد الى وقف التجارة بقدر ما ادت الى تاخير وصول السلع الى موانئها فقط .

١٨١٧ - ١٨١٨ تفاقم خطر نشاط القواسم لدرجة أن حكومة بومباي ادخلت نظام الفوالم الذي اتخذت مسقط قاعدة له لحماية السفن المتجهة الى الخليج ، وكانت هرمز هي منطقة نشاط القراصنة ، وكان بالتالى على السفن أن تواجه هذه المشكلة . فقد كان القراصنة ينطلقون من قواعدهم في قشم وخور فكان وغيرهما من الخلجان الصغيرة القريبة من شبه جزيرة مسندم ، وقد اقترح على السيد سعيد بأن يتعاون مع حكومة الهند لرسم سياسة ناجحة للخليج كما قبلت عروض للمساعدة من رحمة بن جابر الذي اشقى بعد ذلك عن الوهابيين وعن القواسم الذين تحولوا بعد ذلك الى جنب آل خليفة الممقوتين . أما فى المناطق القريبة من السواحل الشمالية للهند فقد كان القواسم يتحركون بكل حرية ويهددون التجارة الساحلية فى المنطقة . مما ارغم ايفان نيبين الى ارسال تقرير شديد الى مجلس ادارة الشركة فى اواخر عام ١٨١٧ - ١٨١٨ وقال فى تقريره ، بأن القراصنة أصبحوا يدهمون السفن العاملة فى هذه المنطقة بجراة متناهية (١) . وفى الفترة الواقعة من اكتوبر ١٨١٨ ويناير ١٨١٩ التقى الطرادان فتيش وسيش بالقواسم ما يقرب من ١٧ مرة وكانوا يبحثون فى مجموعات تتراوح ما بين اثنين وعشر سفن ، وعلى الرغم من محاولة الطرادان اعتراض سفن القواسم الا أن الفشل كان حليهما فى كل مرة ، فقد كانت سفنهم قد تمكنت من الاغلات بسهولة بل كان القواسم على الدوام على اتم استعداد لمواجهة الطرادات لانهم كانوا دائما يتخذون مواقع بعيدة عن مرمى النيران حتى اذا حل الليل يتسللون فى الظلام عائدين الى المناطق الساحلية فى انتظار طلوع النهار والعثور على ضحايا جديدة .

فى خريف ١٨١٨ عزز الطرادان بسفينتين أخريين هما الفرقاطة ايلن والطراد كنوى من قاعدة ترنكومالى غير أن الأسطول لم يحدث أن استولى على أى سفينة للقواسم داخل المياه الهندية ولذلك كان القراصنة يسرحون

(١) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحائكم الى مجلس الادارة

١٥. ١٨١٩/١٠/٩.

ويمرحون بالقرب من ساحل بومباي ، غير أن الطراد ابدن كان احسن حظا
ففى الأسبوع الأخير من ديسمبر التقى بمجموعة من سفن القواسم وعددها
نحو ثمانية بالقرب من أم القوين واستطاع أن يفرق ثلاثة منها قبل أن تتمكن
الباقية من الفرار (١) .

كان نشاط القراصنة والقواسم فى ذروته فى ذلك الوقت ولكن
النهاية كانت وشيكة فى البحر ، وكان القواسم يتحدون أعداءهم بكل
وفاحة . غير أن المراحل الأولى لنهايتهم جاءت على مشارف الدرعية وقد
تأخر استيلاء ابراهيم باشا على عاصمة الوهابيين بسبب وقوع انفجار فى
القطار الذى كان يحمل الامدادات الى جيشه ، وكان ذلك فى شهر يوليو
وعلى امتداد شهرين بينما كان ابراهيم ينتظر وصول الامدادات المطلوبة
اضطر الى توزيع قواته على مختلف المناطق التى كان يسيطر عليها وذلك
لفرض النظام عليها ، وقد شن هجومه الأخير على الدرعية فى بداية سبتمبر
وبعد أن استطاع اكساح التحصينات الخاصة بالوهابيين وطلب منه الامير
عبد الله أن يتقدم اليه بشروط استسلام ولكن ابراهيم باشا رفض اقتراح
عبد الله وأصر على الاستسلام بدون شرط أو قيد كما طلب الى الامير
عبد الله بأن يسلم نفسه ، وقد وافق عبد الله ، وفى يوم ٩/٤ سلم نفسه
وعددا من أفراد عائلته الى القائد المصرى ، وقد دمرت الدرعية تدميرا تاما
بحيث تحولت الى أنقاض وأرسل عبد الله أسيرا الى القاهرة ومنها الى
القسطنطينية حيث جرى فى نهاية العام اعدامهم جميعا فى مكان عام
بميدان سانت صوفيا (١) وشهدت الشهور الاخيرة من سنة ١٨١٨ نهاية
للحروب التى كانت تشنها الولايات الهنديتان مہراتا وبندارى على البريطانيين.
وأتاح هذا ولأول مرة منذ سنوات للحكومة البريطانية الفرصة لتوفير القوات
اللازمة للعمل خارج الهند دفاعا عن مصالحها ومصالح رعاياها الهنود .

(١) التقرير الادارى للمقيم البريطانى ١٩٠/١ من الكابتن اف - لوك
الى كنج ١٨١٨/١٢/٢٧ و ٢ يناير ١٨١٩ ومرفقات لخطاب كنج لكروك من
الطراد مندن ١٨١٩/٢/١٥ (رقم ٧٣) .
(١) منجم فصل ٢ ص ١١٩ - ١٣٤ وصبرى سدلز ص ١٢٠ - ١٢١
وقلبى ص ٩٩ - ١٠٢ .

الفصل الرابع

العمليات العسكرية ضد موانئ القراصنة

١٨١٩ - ١٨٢٠

بدأت حكومة بومباي استعدادها لشن هجوم على معاقل القراصنة في الخليج خلال صيف ١٨١٨ ، وذلك بعد أن وضع الكابتن روبرت تايلور الوكيل البريطاني السياسي المساعد في تركيا العربية تقريراً عن مواقع وموارد الموانئ الرئيسية للقراصنة ، وعن حجم قوتهم القتالية والبحرية ، وخلافاتهم السياسية (١) . وقد تم وضع ذلك التقرير بناء على طلب نبين ، وحسب رأي تايلور فإن الموانئ الرئيسية الواقعة في ساحل الخليج التي تنطلق منها أعمال القراصنة هي رأس الخيمة ، الجزيرة الحمراء أم القوين ، عجمان ، الشارقة ، دبي ، وإلى الشمال زبارة وخور حسن والقطيف والعقير ، كما أن أبوظبي وهو الميناء الرئيسي عند بنياس وموانئ لنجه وخرق على الجانب الفارسي للخليج والتابعة للقواسم تعتبر داخلة ضمن ذلك النشاط (٢) . كذلك فإن الضباط التابعين لبحرية بومباي قد زدوا نبين بمعلومات إضافية عن امكانيات القراصنة البحرية ، وقد جاء بتلك المعلومات بما يفيد انه في وسع القبايل البحرية أن تقذف الى البحر ٨٩ سفينة حربية كبيرة ، و ١٦١ سفينة أصغر ، ويبلغ عدد رجال هذه السفن أكثر من ١٠٠٠٠ مقاتل ، كما أن البريجدير جنرال ليونيل سميث الذي قاد حملة

(١) اعيد طبع هذا التقرير (مختارات حكومة بومباي مجلد ٢٤ ص ١ - ٤) وقد صدر بعنوان مقتطفات من ملاحظات تتعلق من الناحية التاريخية او بغيره من المعلومات المتعلقة بعمان ، مسقط ، البحرين وهرمز وقشم وخرق وغيرها من الموانئ والمناطق في الخليج الفارسي) .

(٢) مختارات حكومة بومباي مجلد ٢٤ ، ص ١٤ - ١٨ وايضا ٣٧ يضيف تايلور ان بنياس لم يكونوا يمارسون القرصنة في اعالي البحار .

١٨٠٩ ، ابلغ نبين بأن عملية القضاء على القواسم ومعاقلهم قضاء مبرما تتطلب ما لا يقل عن ٣٠٠٠ رجل تعززهم قوات من الدفعية (١) .

حول نبين كل هذه المعلومات الى الحاكم مويرا (الذى أصبح فى ذلك الوقت الماركيز أوف هستنجز) وذلك فى شهر سبتمبر ١٨١٨ ، وقد عززها باقتراح لاعداد حملة وارسالها على وجه السرعة الى الخليج ، كما طلب نبين أن يعرف وجهة نظر الحاكم العام حول عدد من النقاط المتصلة بالاهداف السياسية والعسكرية للحرب ، وعما اذا كان الحاكم العام ينوى توطيد السلطة البريطانية فى الخليج منعا لعودة نشاط القراصنة فى المستقبل والى أى حد سيكون من المتوافق مع سياسة الحكومة أن تضع الساحل الجنوبى للخليج ساحل القرصنة - وجزيرة البحرين تحت سلطة السيد سعيد ؟ .

وهل نتجه النية الى الاستعانة برحمة بن جابر زعيم القراصنة فى خور حسن للعمل ضد خصومه القواسم (٢) ؟ وقد رد هستنجز فى شهر نوفمبر على نبين يقول : أنه من خلال دراسته للمعلومات التى زوده بها يرى انه لابد من اعداد حملة اكبر مما اقترحه الجنوال سميت ، اذا أريد سحق القواسم سحقاً تاماً ، وان أى محاولة لا تصل الى حد ضرب قوة القواسم فى الصميم ، فانها ستكون بدون جدوى ، وستضطرننا بعد مضى فترة من الوقت الى أن نعاود الهجوم عليهم فى الوقت الذى ستكون فيه استعداداتهم قد قويت (٣) . ان العملية سوف تحتاج الى ٥٠٠٠ رجل على الأقل فى رأى هستنجز ، وأن قوة بذلك الحجم لا يمكن توفيرها من الهند قبل أن ينتهى موسم العمليات القادمة فى الخليج ، أى من نوفمبر الى مارس ، وبالتالي فان الحملة ينبغي

(١) فارس والخليج الفارسى مجلد ٣٤ من الحاكم الى مجلس الادارة

١٨٢٠/٨/٩

(٢) نفس المصدر مجلد ٣٨ .

(٣) محادثات بومباى السرية مجلد ٣٨ محادثات رقم ٥ بتاريخ

١٨١٩/١/٥ من الحاكم العام الى مجلس الحاكم فى بومباى ١٨١٨/١١/٧ .

- ٢٣٣ -

تأجيلها لمدة عام واحد على الأقل ، وذكر هستنجز بأن مثل ذلك التأخير سوف يكون لمصلحتهم ، وقد كانت الاخبار التي ترد من الجزيرة العربية تشير الى ان ابراهيم باشا سوف يتمكن فى نهاية العام من التغلب على الوهابيين ، وأن احتلال نجد والاحساء من قبل المصريين سوف يحرم القواسم من الحصول على المساعدات التي كانوا يحصلون عليها من الوهابيين ، وقد يكون من الملائم ايضا دعوة ابراهيم باشا للاشتراك فى عمليات مشتركة ضد رأس الخيمة ، على أن يهاجم البريطانيون من البحر ويغطى جيش ابراهيم باشا الهجوم من البر . كما يمكن لجيش ابراهيم باشا أن يربط فى المنطقة لحمايتها . اما المسائل الاخرى التي اثارها نبين فى خطابه ، فقد رأى هستنجز أنه من الأفضل ارجاء أى قرار بشأنها ريثما يقترب موعد الهجوم .

بعد مرور بضعة اسابيع على رسالة هستنجز ، ابلغ المقيم البريطانى فى بوشهر فى تقرير له ، عن سقوط الدرعية ووصول الجيوش التركية والمصرية على شواطئ الخليج وفى يوم ٢ يناير كتب هستنجز الى ابراهيم باشا يهنئه على انتصاره ، ويوجه نظره الى المعلومات والخبار التي كانت رائجة عن أن ابراهيم باشا ينوى اخضاع حلفاء الوهابيين وعلى الاخص القواسم . ولما كان القواسم هم اعداء للحكومة البريطانية أشار هستنجز بأنه سيكون من المصلحة القيام بعمل مشترك ضدهم ، فان كان ابراهيم باشا يقر هذا الرأى فعليه أن يتخبر مع نبين فى بومباي (١) . غير أن نبين نفسه لم يكن مقتنعا بوجهة نظر الحاكم العام وفى الوقت الذى كان يوجب بأى مساعدة يمكن أن يقدمها ابراهيم باشا لضرب القواسم فانه لم يكن يعتقد كما كان يتصور هستنجز أن مستقبل الاستقرار والهدوء يعتمد على فرض السيطرة المصرية التركية على سواحل الخليج وبالأخص أن مجلس ادارة

(١) محادثات بومباي السرية مجلد ٤ ، محادثة رقم ١٧ بتاريخ

١٨١٩/٤/١٧ من هستنجز الى ابراهيم باشا ١٨١٩/١/٢ .

الشركة سبق له فى يناير السابق أن وضع خطة لسياسة التهدئة والمرونة وأن الاستمرار فى تلك السياسة سيكون فى مصلحة حكومة الشركة فى الهند فى السنوات المقبلة (١) . وذلك يعنى أنه لا مجال هناك للاطلاع بأعباء جديدة خارج حدود المناطق الخاضعة للشركة . وعلى أساس هذه الاعتبارات ، تقدم نبين الى المجلس فى بداية ١٨١٩ بخطة تقوم على نسوية سياسة فى الخليج بعد أن يتم التغلب على القواسم ، تهدف الى تأمين الأمن والتجارة والملاحة الهندية فى مياه الخليج دون توريط الحكومة البريطانية بأى التزامات ليست من مصلحتها .

وكان العنصر الاساسى للخطة أن السلام فى الخليج يمكن أن يتحقق بشكل أفضل عن طريق دعم وتوسيع نفوذ حاكم مسقط السيد سعيد ، بإنشاء قاعدة بريطانية فى موقع استراتيجى بالقرب من مضيق هرمز ، وعلى حين يرى نبين بأنه يمكن أن يعهد بحماية الساحل العربى من رأس الخيمة غربا حتى الكويت الى السلطة المصرية التركية المشتركة فان المنطقة الممتدة من شمال رأس الخيمة وشبه جزيرة مسندم يجب أن توضع على الفور تحت السيطرة المباشرة للسيد سعيد ، كما ينبغى وضع البحرين ايضا تحت سيطرة السيد سعيد ، ليس ذلك انتقاما على تواطئها مع القواسم ، وانما لدعم موارد السيد سعيد فى مواجهة المهمة التى ستلقى على عاتقه ، وفى المساهمة فى نفقات انشاء القاعدة البريطانية والاحتفاظ بها . وكان من رأى نبين أن أفضل موقع للقاعدة هو جزيرة قشم ، التى لا تبعد الا مسيرة

(١) مسودات مجلس الادارة من مضمون تقرير سرى مجلد ٥ صيغة خطاب الى الحاكم العام بتاريخ ١٨١٨/١/٥ وقد ورد هذا الخطاب من (شركة الهند الشرقية) ١٧٨٤ - ١٨٣٤ بقلم س اتشه فيلبس ص ٣١٩ طبعة مانسستر ١٩٤٠ :٥

- ٢٣٥ -

سلطات من ساحل جزيرة القرصنة ، والتي كانت خاضعة ، كما يعلم ،
لسلطة السيد سعيد (١) .

على أن الخطأ كانت تنطوي على ثغرات كثيرة ، ربما لم ينتبه اليها نبين
عند وضع ذلك الاقتراح فقد بذل جهدا شاقا لكي يبرر رأيه باخضاع البحرين
عن طريق القوة عقابا لها على تواطؤ آل خليفة مع القواسم

وجاء في تقريره ، بأنه لا مجال للشك في أن الحماية التي قدمها شيوخ
آل خليفة للقواسم كانت تبرر في تصورنا اتخاذ الإجراءات التي قد تساهم
في تجريدهم من السلطات التي يمارسونها كما أشار في التقرير إلى الاحتلال
السابق للجزيرة من جانب العثمانيين وإلى الاتفاق الذي قيل أنه قد تم بين
فتح على شاه والسيد سعيد بتنازل الأول عن سيلائه على البحرين مقابل
زكاة يدفعها سعيد للشاه بعد استيلائه على الجزيرة . غير أن ما لم يلحظه
نبين ، أو ربما يتجاهله ، هو أن إخضاع البحرين وجزء من ساحل القرصنة
لمسقط سوف يؤدي إلى ظهور القرصنة من جديد ، لأن آل خليفة والقواسم
سوف يتحدون في هذه الحالة لتحرير أنفسهم من سيطرة العمانيين ،
وكأن من المشكوك فيه ما إذا كان في مقدور السيد سعيد إخضاع تلك القبائل
على الإطلاق ، خصوصا وأن القواسم استطاعوا أكثر من مرة اجتياح منطقة
الشميلية من عمان بالإضافة إلى الطرف الشمالي من ساحل الباطنة ، كما
استطاع آل خليفة أن يصدوا بسهولة الهجمات التي شنتها عليهم مسقط .
ولقد لفت فرانتز واوردن الأمين الأول للحكومة والعضو المؤقت للمجلس
نظر نبين إلى هذه الحقائق في اجتماع عقده معه يوم ٣ إبريل ، فاستهل

(١) محادثات حكومة بومباي السرية مجلد ٤٠ رقم ١٧ ،
١٨١٩/٤/١٤ مسودة خطاب من نبين إلى الحاكم العام .

واردن بيانه بالهجوم على نبين على الدور الذى حاول أن يتقلده كمحكم فى نزاعات الخليج وهو دور ، حسب اعتقاد واردن ، يشكل خطرا ولا لزوم له ، وقال بأنه لا يهم الحكومة البريطانية فى شيء أن تخضع بلدان الخليج لى دولة من الدول ، طالما أن الهدف الرئيسى الوحيد من سياستنا هو القضاء على القرصنة (١) . فاذا كان نبين يصر على مبدأ التدخل فى سياسة الخليج فان عليه أن يحترم حقوق ومطالب مختلف الحكومات والامارات الواقعة على سواحله ، فحقوق حكومة فارس وحكومة تركيا ، بالإضافة الى حقوق القبائل العربية التى استطاعت ان تحافظ على استقلالها عن طريق اخطاء تلك الدول ، الأمر الذى يجب وضعه فى الاعتبار قبل أن نضع الخطط والاقتراحات لانقسام الخليج ، هذا ما قاله واردن . وقد انصب اعتراض واردن على الخطة على الاقتراح الخاص بتوسيع سلطات السيد سعيد ، واخضاع البحرين لحكمه بما أن تساعد نشاط القراصنة فى منطقة الخليج انما يعود الى حد كبير الى السياسة غير الحكيمة التى ينتهجها السيد سعيد تجاه بعض القبائل المستقلة التى استطاعت فى بعض الاوقات ان تهز كيان دولته فينبغى عليه أن يظهر قدرا اكبر من المرونة السياسية تجاه تلك القبائل فى المستقبل . فاذا شاءت الحكومة البريطانية أن تجامل كل من يدعى السيادة على البحرين ، فان الاولى بها كما قال واردن ، أن تجامل الشاه بالضغط على آل خليفه بدفع الزكاة السنوية للشاه ، وكان واردن يتصور أنه من الأفضل على أى حال السماح لتلك الدويلات بالاحتفاظ باستقلالها ، وبأن تؤكد لها بأنها طالما امتنعت عن أعمال القرصنة فان الحكومة البريطانية ستظل معترفة باستقلالها ، بل وستقوم بتأييد ذلك الاستقلال . وعلى أية حال ، كما يرى واردن ، فإنه لم يكن من الحكمة اتخاذ أية قرارات سياسية فى الموضوع قبل أن تتضح نوايا ابراهيم

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٠ رقم ١٧ بتاريخ ١٤/٤/١٨١٧

بيان وارد ٣/٤/١٨١٧ .

باشا وأنه فى امكان المبعوث البريطانى الذى سيقوم بتسليم رسالة هستنجزا المؤرخة ٢ يناير والسيف التقليدى المرسل هدية اليه من الحاكم العام أن يتناول هذا الموضوع .

كما سيتعين عليه أن يتحقق بصورة خاصة ، عما اذا كان ابراهيم باشا يرمع القيام بفتوحات أخرى على سواحل الخليج ، فان وجد لديه هذا الاتجاه فينبغى عليه بأن يوضح له بأنه فى الوقت الذى تعتبر بريطانيا أن تصفية القرصنة هو هدفها الوحيد الا أنها فى نفس الوقت تشاركه فى ضمان حقوق مختلف الدول الواقعة على سواحل الخليج كما أن عليه بأن يؤكد على نقطة أخرى وهى ان أية مساعدة قد تقدمها اليه بريطانيا فى حربه ضد حلفاء الوهابيين تقوم على شرط موافقته على احترام حقوق تلك الدول . (١) .

وعلى أى فقد كان الغموض يحيط بوجهة النظر التى تقدم بها وarden ولهذا فان نبين لم يعر تلك المقترحات أى أهمية غير أن اثنين من أعضاء المجلس الآخرين وهما جى برنדרجاست والكسندريل رآيا أن فيها من النقاط ما يستحق الاهتمام . ونظرا لهذا الانقسام فى الراى فقد رأى نبين أن يرجىء اتخاذ أى قرار حول هذه السياسة الى أن تتضح خطط ابراهيم باشا ، وان كان قد وافق على اقتراح وarden بأن يتم ابلاغ موافقة بريطانيا على السماح لقوات ابراهيم باشا بالمرباطة فى رأس الخيمة عند الاستيلاء عليها شفويا وليس كتابيا ، أى عن طريق المبعوث المكلف بتسليم رسالة الحاكم العام ، والسيف (٢) . المهدي اليه وقد اختير لهذه المهمة الكاتب جورج فوستر سادلز من الفرقة السابعة والأربعين ، وصدرت له التعليمات

(١) راجع بيان وarden بتاريخ ١٨١٩/٤/١١ خلال نفس المحادثات .

(٢) محادثات بومباى السرية رقم ١٧ مجلد ٤٠ - ١٨١٩/٤/١٤ بيان نبين ، انظر ايضا نفس المحادثات ، وبيان برنדר جاست ١٨١٩/٤/١٠ وبيان الكسندر بل .

— ٢٣٨ —

يوم ١٣/٤ ، وكان عليه أن يتوجه الى القطيف أو العقير على ساحل الأحساء ، ومن هناك يواصل رحلته الى الدرعية فى الداخل حيث كان إبراهيم باشا يربط هناك ، وعند وصوله الى الدرعية يقوم بتسليم الرسائل الى إبراهيم باشا وكانت هذه التعليمات تتضمن ما يلى :

بأنه خلال اقامتك فى المعسكر التركى عليك ان تحاول بما اوتيت من براعة وبمنتهى اللباقة المتاحة التعرف على طبيعة موقف إبراهيم باشا بالنسبة الى قيامه بفتوحات أخرى على السواحل العربية والخليج دون أن تظهر بأن لك أى مصلحة مادية فى هذا الأمر (١) وانما من خلال المباحثات التى ستجريها من غير أن يشير الى أى شىء قد يؤدى الى توريث الحكومة البريطانية فى الاعتراف بفتوحات جديدة لإبراهيم باشا فى شرقى الجزيرة العربية ودون ان تشير فى تلك المباحثات الى موضوع الهند ، كما كلف المبعوث بأن يتوقف فى مسقط للتأكد مما اذا كان السيد سعيد لديه الرغبة فى التعاون مع المصريين فى الحملة المقترحة على ساحل القرصنة .

أبحر سادلر من بومباى فى ١٥/٤/١٨١٩ وقد حال سوء الاحوال الجوية من نزوله فى مسقط قبل منتصف مايو ، وعند مقابلته للسيد سعيد تبين له بأن السلطان يعارض بشدة فكرة التعاون مع إبراهيم باشا وقد أكد السيد سعيد لسادلر بأنه لن يشترك فى الحملة اذا اشترك المصريون فيها الا اذا أمكن نقل القوات التى سيساهم بها عن طريق البحر ، وعدم اختلاطهم بالمصريين . ولم يقدم السيد سعيد تفسيراً لطلبه هذا أكثر من انه أشار الى أن حكمه قد يتعرض للخطر لو قبل التعاون مع المصريين (٢) . وقد

-
- (٣) محادثات بومباى السرية نفس المجلد والرقم والتاريخ ، والتعليمات المعدلة لسادلر . انظر ايضا التعليمات الاضافية ١٤/٤/١٨١٩ .
- (١) نفس المصدر مجلد ٤١، محادثات رقم ٢٩ بتاريخ ٢١/٧/١٨١٩ من سادلر الى الحاكم فى ١٥/٥/١٨١٩ .

كانت معارضة السيد للاشتراك فى الحملة مفاجأة تامة لسادلر لتناقضها مع موقفه السابق عند ما زار الكابتن تايلور فى شهر يناير ليسلمه رسالة خاصة من نبين تتضمن قرار هستنجز بدعوة ابراهيم باشا للتعاون ضد القواسم . وقد أكد له نبين فى الرسالة المذكورة بأنه ليس هناك ما يمكن أن يخشاه سعيد من وجود المصريين فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، لأن ابراهيم باشا كان يعلم حق العلم روابط الصداقة القائمة بين مسقط والحكومة البريطانية (١) .

وفى رد السيد سعيد على رسالة نبين أعرب عن سروره بنجاح ابراهيم باشا فى معاركه ضد الوهابيين وقال بأنه على استعداد لتزويد ابراهيم باشا بالسفن اللازمة لنقل الجنود اذا قرر الأخير العمل ضد القواسم . (٢) .

فما الذى جد بعد ذلك مما دعا السيد سعيد الى تغيير موقفه ؟ يبدو من الوهلة الاولى ان محادثاته مع الكابتن تايلور كانت ذات طابع اكايدى . فى ذلك الوقت كان ابراهيم باشا على بعد ١٠٠٠ ميل من حدود الخليج ولم يكن فى الحسبان أن يتحرك ابراهيم باشا نحو الجنوب الشرقى . ولعل دعوة هستنجز لابراهيم باشا للاشتراك فى احتلال راس الخيمة هى التى شجعتة على المضى فى فتوحاته . وعلى أى حال فان ظهور قائد مصرى على المسرح فى المنطقة لم يكن يستسيغها السيد سعيد . وبعد سقوط الدرعية فى أيدي المصريين لجأ عدد كبير من مؤيدى آل سعود الى الحامية الوهابية فى البريمى ، وكانوا يروون القصص المفجعة عن فظائع ابراهيم باشا بعد استيلائه على عاصمة الوهابيين وبينما كان سادلر فى مسقط وصل اليها مطلق المطيرى قائد الحامية الوهابية فى البريمى وشقيق مطلق المطيرى ، لتقديم ولائه

(١) نفس الحلقات مجلد ٣٨ محادثات رقم ٥ - ١٨١٩/١/٢٠ من نبين الى السيد سعيد يناير ١٨١٩ .

(٢) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٠ رقم ١٧ بتاريخ ١٤/٤/١٨١٩ من تايلور الى الحاكم مسقط ١٨١٩/١/٢٩ .

للسيد سعيد (١) . وقد عرف السيد سعيد عن انتصارات ابراهيم باشا في نجد من سادلر ولهذا كانت انباء تلك الانتصارات راسخة في ذهنه خلال محادثاته مع سادلر . وربما كان السبب الاساسى الذى دعا سعيد الى تحديد موقفه تجاه القائد المصرى هو خوفه من أن يكون القائد المذكور ينوى احتلال البحرين ايضا ، خصوصا وان سعيدا قد بدأ يتفاوض مع فتح على شاه للقيام بحملة مشتركة من العثمانيين والفرس ضد البحرين ، وفى كل رسائل سعيد الى الشاه كان يذكره باستمرار باحتمال استيلاء ابراهيم باشا للبحرين ، وكان يطالب الشاه بايفاد مبعوث خاص الى القاهرة لتحذير محمد على باشا من القيام بمثل هذه الخطوة غير أن فتح على شاه لم يتحمس للموضوع ، خصوصا وان الحجاج الفرس عند زيارتهم لمكة عوملوا معاملة حسنة من قبل السلطات المصرية ولكن من ناحية اخرى لم يكن الشاه يقبل بوجود جار قوى كباشا مصر فى الخليج ، ولهذا قرر الشاه فى شهر ابريل سنة ١٨١٩ ان يوافق على طلب سعيد فى ارسال مبعوث الى القاهرة (٢) . غير ان هذه الفكرة لم تتبلور اطلاقا كما أن فتح على شاه قد شغلته الاحداث الداخلية وارتيابه فى نجاح خطة القيام بهجوم مشترك على البحرين . ولذلك لم يول مقترحات سعيد اى اهتمام ولعل موضع السرية فى هذه الخطة هو ان سعيد لم يكن يعلم شيئا حتى ذلك الوقت عن موقف نبيى بالنسبة لمستقبل البحرين ، والا اتخذ موقفا اكثر مرونة من اشتراك ابراهيم باشا فى الحملة ضد القواسم .

(١) يروى سادلر ان بطل المطيرى بعد ان تعرض موقفه للخطر يؤس من القواسم حلفاء لسابقين والذين كانوا يسعون الى الاستيلاء على حصن البريمى لانفسهم فقد اختار بطل المطيرى الطريق الاسلام وسلم نفسه الى السيد سعيد (انظر الى محادثات بومباى السرية مجلد ٤١ فى ١٨١٩/٧/٢١ من سادلر .

(٢) انظر محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ رقم ٢٨ ١٨١٩/٧/١٤ ، من هنرى ولك القائم بالاعمال البريطانى فى طهران الى الحاكم العام ١٨١٩/٤/١٩ .

- ٢٤١ -

غادر سادلر مسقط يوم ١٨/٥/١٨١٩ وبعد اقامة طويلة فى بوشهر وصل القطيف يوم ٦/٢١ ، وهناك فوجئ بأن الاجزاء الداخلية من البلاد قد تمردت ضد المصريين وأصبح انسحابهم من نجد والاحساء بين ليلة وضحاها . وقد أعاد ابراهيم باشا تنصيب عائلة ابن غرير ، وهم فصيلة من شيوخ بنى خالد فى الاحساء باعتبارهم صنائع المصريين غير انه يبدو ان المشايخ الرئيسيين محمد وماجد ابني غرير كانا غير راضيين عن قمع ثورة القبائل ، وقد علم سادلر من قائد الحامية المصرية فى القطيف بأن الوحدات المصرية التى تم توزيعها على مختلف مناطق البلاد قد تلقت اوامر بالتراجع بأسرع ما يمكن فى اتجاه معسكر الباشا الواقع على بضعة أيام من الشمال الغربى للدرعية ، وقد غادر سادلر القطيف يوم ٢٨ يونيه تحت حراسة أحد شيوخ ابن غرير ، وبعد أسبوعين وصل الى الهفوف فى واحة الاحساء حيث أبلغه الحاكم المصرى أنه على وشك تسليم المقاطعة الى ابن غرير ، ومن هنا أصبح تعاون المصريين فى عملية اخضاع قبائل الساحل غير ذى موضوع . وفى يوم ١٧ يوليو كتب سادلر من الهفوف رسالة الى نبين يقول فيها .

« من الواضح انه سوف يتمخض عن احتلال الاحساء وميناء القطيف واحتمال الوصول الى العقير الفوائد التى قد تتحقق من ضم رأس الخيمة . فاذا اضطر الباشا الى التخلي عن هذه المناطق فليس من المحتمل ان يتمكن من المشاركة فى اى عمليات تهدف الى ضم اراضى جديدة لا يستطيع الاحتفاظ بها والتى قد تزيد نفقات الاحتفاظ بها على عوائدها . (١) »

(١) نفس الحلققات محسداثات رقم ٣٠ ١٨١٩/٧/٢٨ من ولك الى الحاكم العام ١٨١٩/٥/٢٤ .

(١٦ - بريطانيا والخليج)

وعلى الرغم من ذلك فقد كان سادلر يرى أنه لابد من تقديم مقترحاته فى هذا الشأن لحكومته ، وفى يوم ٧/٢٢ بعد حصوله على تعهدات من شيوخ ابن غرير غادر سادلر الهفوف عن طريق الاحساء بمعية القوات المصرية المنسحبة وقبل ان يتسلم نبيى خطاب سادلر كان قد توصل من خلال التقارير التى كانت تصله من دار المقيم البريطانى فى بوشهر ، بأن احتمال قيام تعاون مع ابراهيم باشا لاجضاع موانئ القراصنة ينبغى ان يستبعد تماما كما لا يمكن ان تقوم الحكومة التركية بممارسة نفوذها على القبائل الساحلية من الكويت جنوبا وبالتالى اصبح يتعين على نبيى ان يضع خطة بديلة لتحقيق الاستقرار على الشواطىء العربية بعد انتهاء الحملة وفى يوم ٧/٢١ وضع نبيى خطته الجديدة وقدمها للمجلس ولم تكن تختلف كثيرا ولم يكتف نبيى فى خطته بوضع الساحل غربا تحت سلطة السيد سعيد ، لكنه ايضا ادخل البحرين ضمن ذلك النفوذ ، حتى يتمكن من الاتفاق على القاعدة البريطانية فى جزيرة قشم من عوائد البحرين (١) . وللمرة الثانية وجد نبيى ان المجلس منقسم على نفسه حول مقترحاته فقد كان براندرجاست يعارض فكرة انشاء قاعدة بريطانية فى الخليج وذكر بأن السيد سعيد لم يكن له سلطة على جزيرة قشم ، عدا انه يشرف عليها بمقتضى اتفاق عقده مع الشاه . وفى الوقت الذى كان واردن وبيل يتفق مع نبيى على ضرورة انشاء مثل تلك القاعدة الا انه كان يعترض على فكرة اجضاع البحرين لسلطة السيد سعيد (٢) .

(١) مذكرات سادلر ص ٢٤ - ٥٤ وفارس والخليج مجلد ٣٢٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٠/٨/٩ .

(٢) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ رقم ٢٩ بتاريخ ١٨١٩/٧/٢١ مسودة خطاب من نبيى الى الحاكم العام بنفس التاريخ .

- ٢٤٣ -

ولدعم هذا الرأي أبرز واردن رسالة حول هذا الموضوع تاريخها عام ١٨١٦ غير أن موضوع هذه الرسالة لم يرد في المحادثات التي أجراها مع السيد سعيد على الإطلاق ، وفي صيف ذلك العام تواطأ السيد سعيد مع أمير فارس على شن هجوم مشترك على البحرين ، ولكي يوحى السيد سعيد الى آل خليفة ، بأن الحكومة البريطانية كانت تؤازره على ذلك الاجراء اطلق تلك الاشاعة كوسيلة لتهديد آل خليفة . وكان فحوى الاشاعة أن الحكومة البريطانية كانت تفكر في اغلاق موانئ الهند في وجه سفن العتوب، وبالفعل قد اثارت تلك الاشاعة المخاوف في اوساط شيوخ البحرين ، مما دعاهم الى الاستفسار عن هذا الموضوع من المقيم البريطاني في بوشهر اللفتنانت بروس. وقد رد بروس على رسالة شيوخ البحرين بزيارة قام بها لهم في شهر يوليو ١٨١٦ واكد لهم شخصيا بأن الاشاعة ليس لها أساس من الصحة ، وعقد معهم معاهدة صداقة تعهد فيها بفتح الموانئ الهندية أمام سفنهم التجارية ، وعند رفع هذا الأمر الى الحكومة في بومباي أشار بروس الى أن حكام البحرين (قوم مسالمون ويفضلون الأعمال التجارية على عمليات القرصنة) . وان علاقتهم الاخيرة بالقواسم تعود الى الهجوم الذي شنه السيد سعيد على بلادهم في النصف الأخير من عام ١٨١٦ وخلال اشارة واردن الى التقرير الذي بعث به بروس الى نبيين أعاد الى ذاكرة الحاكم ما سبق أن أشار اليه في شهر يناير ١٨١٦ من وجوب معاملة آل خليفة بطريقة تتسم بالتسامح بصرف النظر عن علاقاتهم السابقة بالقواسم ، كما أشار الى أنه بعد أن يتم التغلب على القواسم سوف تفقد البحرين أهميتها كمركز للقرصنة غير أن نبيين لم يقنع بهذا الرأي كما لم يقنع بأن سبب تعاون العتوب مع القواسم في عمليات القرصنة يعود الى خوفهم من السيد سعيد أو أن الاتفاقية التي لم تتم الموافقة عليها كانت السبب في الحد من التعامل مع حكومة البحرين، وبما أن الظروف لم تتيح للمجلس الاتفاق على تحديد مصير

الجزيرة فقد ترك أمر ذلك الى الحاكم العام لاتخاذ قراره فيه . (١) .

وقد أدى عدم اكتراث الحاكم بأراء زملائه ، الى أن يقوم واردن باعداد تقرير مستفيض حول السياسة البريطانية برمتها فى الخليج ، وهو التقرير الذى قدمه الى نبين وضمنه مجموعة من المقتطفات التاريخية عن الخليج حصل عليها من سجلات الحكومة (٢) . وزعم واردن فى تقريره بأن المحادثات التى دارت عن الخليج فى المجلس حتى الآن كانت تقوم على أسس سطحية ومعرفة غير تفصيلية بشئون الخليج ، وقال بأنه لابد أولا من الحصول على معلومات دقيقة عن الاسس التى تقوم عليه ادعاءات مختلف القبائل فيما يتعلق باستقلالها ، وهى الاسس التى يمكن بموجبها تحديد علاقاتنا معها على أساس مبادئ ، وهو ما يتفق مع حق الفرقاء فى وضع الاسس التى تزيد عليها لمصالحهم جميعا ، الا وهو القضاء على القرصنة واستئصالها (٣) وبالتالى فان مبدأ العدالة ودافع الخير سوف يفقدان معناهما لو عمل باقتراح نبين بوضع ساحل القرصنة تحت سلطة السيد سعيد . اما أن قبائل القرصنة ينبغى أن تلقى جزاءها فهذا امر لاختلاف عليه ، ولكن تجريدنا من استقلالها واخضاعها لسلطة حاكم تمقته امر لا مبرر له .

ولعل ما اثار شكوك واردن فى خطة نبين هو محاولته التخلّى عن مسئولية الاشراف على امن الخليج بعد ان تؤدى الحملة مهمتها ، وذلك بوضعها تحت سلطة السيد سعيد وبالتالى فان السياسة البريطانية فى الخليج كما كان واردن يعتقد بأن العوامل التى أدت الى انتشار الفوضى والعنف فى

(١) محادثات بومباى السرية مجلد رقم ٢٩ ٢١/٧/١٨١٩ من نبين الى الحاكم العام بنفس التاريخ .

(٢) اعيد طبع هذه المقتطفات من مجموعة بومباى مجلد ٢٤ .

(٣) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ رقم ٣٧ - ٢٠/٩/١٨١٩ بيان واردن فى ١٣/٨/١٨١٩ .

— ٢٤٥ —

منطقة الخليج ، هي أطماع السيد سعيد غير المحدودة واطماع والده سلطان بن أحمد مع أن هذا هو الحاكم الذى يقترح نبين اسناد القيادة السياسية لدول الخليج اليه وقد جاء فى بيانه : —

« هل بسبب محاولات السيد سعيد الياسة أو هل بسبب فشله الدريع فى عملية البحرين أو هل بسبب وضعه المتردى تعد العدة الآن لتنصيبه الزعيم الانسب لتحقيق سياستنا الرامية الى تحقيق الاستقرار فى الخليج ؟ ان المرء لا يحتاج الى كثير من الذكاء السياسى ليفهم بأن تأييدنا لسلطان مسقط فى تحقيق أحلامه فى البحرين سوف يؤدى الى نشر الفوضى والحروب فى المنطقة وتمهيد الطريق الى تجدد اعمال السلب والنهب والقرصنة » .

ولو اننا طبقنا سياسة نبين فى الخليج فانها سوف تؤلب علينا اعداءنا فى الوقت الذى يمكننا ان نكسبهم الى صلفنا خصوصا وأن هؤلاء الأعداء قد اثبتوا انهم اقوى نفوذا من الامام الذى هو حسب معلوماتى اقل الزعماء العرب شعبية فى الخليج .

فإذا كان لابد من وجود حليف لبريطانيا فى منطقة الخليج فهناك شيخ ابوظبى وشيخ الكويت ، فان هذين الزعيمين لم يشتركا فى اى نشاط للقرصنة فى الخليج ، أما بالنسبة لعتوب البحرين فان واردين لم يطلب لهم بأكثر من معاملة عادلة وبأن اشتراكهم فى اعمال القرصنة مع القواسم انما كان لسبب حبهم للتجارة أكثر من كونه طبعاً متأصلاً من طباعهم ، وبالتالي فلا يجوز اخذهم بجريمة غيرهم . واختتم واردين تقريره بالتحذير من اضاءة النتائج المحققة للحملة باتخاذ قرارات متسرعة وغير حكيمة .

ومن الأفضل لنا ان نتفادى مثل تلك القرارات وذلك بتكوين فكرة دقيقة وشاملة عن حقيقية المصالح المختلفة المتضاربة لتلك الدول وللثورات

- ٢٤٦ -

الكثيرة التى شهدتها الخليج . ولقد حاولت جهدى أن أجمع وأقدم مثل هذا التقرير وهذه المعلومات وغيرها من الآراء التى يمكننا على ضوءها أن نتخذ قرارا سديدا فى هذه المسألة ، فالأذا لم تخضع عملية تدخلنا لاحترام حقوق مختلف الدول التى تعيش على سواحل الخليج وإذا عمدنا الى اخضاع دولة لأخرى بطريقة عشوائية وعنيفة فاننا سوف نساعد على انتشار المزيد من أعمال القرصنة بدلا من أن نزيل ما هو قائم بينها . اننا ينبغي أن نكسب ثقة العرب ورضاهم من خلال التصرف بالحكمة والعدالة . وأخيرا فإن انتهاج خط سياسى مخالف لهذا الخط سوف يجلب علينا عداوة العرب فى منطقة الخليج (١)

غير أن نبين لم يول هذا التقرير الاهتمام الذى يستحقه فقد اعتبر تقارير أمينه الأول من النوع الذى قد يفيد بعض قواد الحملة ، وبالتالي فقد أبلغ المجلس أنه متمسك بآرائه التى يؤيده فيها ، كما قال، أكثرية الضباط فى الأسطول وفى القوات المسلحة ممن قاموا بزيارات كثيرة لموانئ الخليج (٢) ولكنه على أى حال أبدى استعدادا لإرسال بياناته وتقديره الى الحاكم العام رغم أنه كان واثقا من أن الحكومة السابقة فى بومباى كانت على اطلاع مستمر بشئون الخليج . غير أن هستنجز لم يكن يشاركه ذلك الموقف ، ففي ٢٨ أغسطس كتب يقول : أنه لا يستطيع اتخاذ أى قرار فى المسائل التى أحييت اليه فى شهر يوليو من نبين وعلى الأخص فيما يتعلق بموضوع البحرين قبل استكمال المعلومات فى ذلك الشأن اما اذا كان الموضوع يتطلب سرعة البت فان ذلك من شأن نبين وحده . وعلى أى حال فقد أصر الحاكم العام على نقطتين ، أولهما أن اقامة قاعدة دائمة فى الخليج

(١) محادثات حكومة بومباى رقم ٣٧ مجلد ٤١ - ١٨١٩/٩/٢٠ بيان

واردن فى ١٨١٩/٨/١٢ .

(٢) نفس الحلقة من بيان نبين ١٨١٩/٩/٦ .

أمر غير مرغوب فيه إلا إذا تكفل سلطان مسقط بدفع نفقات تلك القاعدة أو تم تدبير تلك النفقات من مصادر أخرى كعائدات الجمارك مثلا ، وقال بأنه مهما كانت التدابير السياسية التي يرى نبين اتخاذها بالنسبة لدول القرصنة فإنه لابد وأن يتجنب كل أنواع التدخل في شئون الدول العربية فيما عدا ما يتصل بتنفيذ الخطط الخاصة بمكافحة القرصنة . (١)

وهكذا جاء الرد على غير ما يهوى نبين، وبخاصة بعد أن انتقلت موضوعات رسم السياسة الى الحاكم العام ، فبالنسبة للبند الوحيد الذي اتفقت حوله آراء كل من نبين وأعضاء المجلس وهو انشاء قاعدة دائمة ومرابطة قوة عسكرية في الخليج ، فقد عارضه هستنجز معارضة تامة . أما بالنسبة للنقطة الأخرى فلم يعط هستنجز رأيه فيها اطلاقا ، وكان يجري بسرعة وكانت الحملة التي كان يجري اعدادها في بومباي خلال صيف ذلك العام قد اوشكت على الانتهاء ، وكان قائدها في انتظار التعليمات الخاصة بتوزيع قواته بعد أن تكون القوة قد فرغت من مهمتها ، والواقع أن نبين لم يكن على خلاف مع أعضاء مجلسه فحسب بل أن مدة خدمته كانت على وشك الانتهاء أيضا . فقد أخذت صحته تسوء كما كانت أكثرية القرارات الخاطئة التي اتخذها يعود سببها الى تدهور صحته ، وحتى عندما أبلغه المAJOR جنرال السير وليم جرانت كبير قواد الحملة في شهر أكتوبر أنه يستعد للإبحار كان نبين لا يزال مترددا في موقفه ، ولم يكن أمامه مفر من صرف النظر عن الخطوط الرئيسية للسياسة . وأبلغ القائد كبير بأنه سوف يتلقى التعليمات الخاصة بالاهداف السياسية للحملة فيما بعد أما منه شخصا أو من الحاكم الذي سيخلفه . وفي يوم ٢٨/٢٧ أكتوبر صدرت التعليمات العاجلة الى كير بالاقلع الى زاس الخيمة والاستيلاء عليها وتدمير اسطول القواسم

(١) نفس الحلقة مجلد ٤٢ رقم ٣٨ - ١٨١٩/٩/٢٩ من الحاكم العام

الى مجلس الحاكم في بومباي - ١٨١٩/٨/٢٨ .

الحربى وجميع مستودعات الذخيرة والمخازن الحربية كما ابلغ بأن يتوجه بعد ذلك الى الشارقة فالجزيرة الحمراء فعجمان وغيرها من سواحل المنطقة ممن لها علاقة بالقرصنة وتدمير المعدات والسفن التابعة لتلك المشيخات ، كما ابلغ كير بأنه قد يحصل على مساعدة من السيد سعيد حاكم مسقط بعد ان أصبح اشتراك ابراهيم باشا فى العملية أمرا مستبعدا . وقد تم ارسال خطاب الى أمير اقليم فارس يتضمن شرحا لاهداف الحملة ودعوة الى الأمير للمشاركة فى العمليات التى سوف تتخذ ضد موانئ القرصنة الواقعة على الساحل الفارسى من الخليج مع التأكيد على احترام حقوق السيادة لفارس ، كما كلف القائم بالاعمال البريطانى فى طهران ببذل أقصى جهد فى وسعه لتطمين حكام فارس من وجود الاسطول البريطانى فى المياه الفارسية بأعداد كبيرة ، وقد حذر كير فى الأوامر التى اعطيت اليه من محاولة استخدام قواته على أى منطقة من الساحل تتعدى المسافة اللازمة لاطلاق نيران مدفعيته على تجمعات سفن القواسم ، وقيل لكير انه بعد أن يقوم بالاستيلاء على رأس الخيمة أن يضع فيها قوة بريطانية ترابط فيها ، وربما تصل معلومات من سادلر عن مدى استجابة ابراهيم باشا لمقترحات الحاكم العام بشأن الاحتلال المشترك للمشيجة ، كما طلب الى كير بأن يقترح موقعا فى الخليج يصلح لاقامة قاعدة بريطانية دائمة (١) .

لم يصل من سادلر أى خبر منذ أن بعث برسائلته من الهفوف والتى ذكر فيها بأنه يعتزم مرافقة القوات المصرية فى طريق انسحابها من الاحساء

(١) محادثات حكومة بومباي السرية مجلد ٤٢ ، رقم ٤٥ - ١٨١٩/١٠/١٧ من واردين الى كير ١٨١٩/١٠/٢٧ ومجلد رقم ٤٦ - ١٨١٩/١١/١ من واردين الى كير ١٨١٩/١٠/٢٨ لقد تقاعد واردين وتسلم منصبه كامين اول عند وصول القائد العام الجديد لجيش بومباي للفتنات السير شارلس كوفيل والذى كان يشغل منصبه مؤقتا .

وقد بقى أحد الطرادات البريطانية عدة أسابيع على ساحل الخليج فى انتظار أخبار من سادلر الا أنه لم تصل أخبار من داخله البلاد (١) وقد غادر سادلر الهفوف يوم ٢٢ يوليو فى صحبة الفيلق المصرى الذى خرج يشق طريقه ببطء، بينما كانت الجمال تنفق والبدو يتدمرون والترك يسبون ويشتمون ، وقد علم فى المنطقة الواقعة على بعد عشرة أميال جنوب شرق الدرعية بأن حامية السلامة الواقعة الى الجنوب والتي كان من المفروض ان تنضم الى الفيلق الرئيسى قد حوصرت من قبائل محمات مما اضطر نصف افراد الفيلق الى الانفصال والتوجه الى الحامية لفك الحصار عنها وبالتالي فان الفيلق لم يتمكن من الوصول الى الدرعية قبل ٨/١٣ وقد صدم سادلر من الوحشية التى استعملها ابراهيم باشا فى تدمير البلدة فقد سوى تحصيناتها بالأرض وأحرق كل ما كان فيها من مزروعات وحدائق وقال بأننى لم التقي خلال تجوالى فى انقاض تلك البلدة بأثر لآى انسان (٢) .

كان ابراهيم باشا قد غادر المعسكر الى الحجاز ولكن كان من الممكن ان يلحق به سادلر ولذلك فقد قرر ان يمضى اليه ، ولقد ظل الفيلق يسير لعدة أيام فى المناطق الغربية والشمالية من الدرعية خلال منطقة مقفرة ووسط انقاض البيوت والحدائق دون ان يكون هناك وجود لآى انسان ،

(١) ربما كان وجود الطراد سببا لانطلاق تلك الاشاعة التى رواها منجى فى مؤلفه تاريخ مصر فصل ٢ ص ١٦٠ - ١٦٢ وهى ان البريطانيين قد قاموا بهجوم فرعى على القطيف لدعم ابراهيم باشا واعادة التجارة البريطانية ويروى قلبى فى كتابه (العربية السعودية) (طبعة لندن ١٩٥٥ ص ١٤٨ - ١٤٩) قصة يبدو انها انتشرت داخل البلد عن انزال بريطانى على الساحل والذى ربما كان قد بدأ فى نفس الوقت او خلال زيارة الكابتن واردن لخون حستن فى - مارس ١٨١٠ .

(٢) المذكرات ص ٥٥ .

وعند وصول الفيلق الى الشقرة هرب نصف قبائل بنى خالد بما فى ذلك حرس سادلر بعد أن شاهدوا المصريين يقتربون أعمالا بربرية ضد بعض البدو ، وبعد ذلك ببضعة أيام قام القائد المصرى بطرد بقية أفراد هذه القبيلة واستبقى جمالهم معه، وبعد أن رحل هؤلاء لم يعد هناك أمل لسادلر فى العودة الى الخليج فبدون جمال ومرافقين وبدون حرس ومع اضطراب الحالة فى المنطقة الواقعة لم يكن أمام سادلر الا مواصلة السير مع الفيلق وفى يوم ٢٤ أغسطس وصل الفيلق الى عنزه التى «تعتبر من الوجهة الجغرافية والسياسية والتجارية قلب الجزيرة العربية (١) وبعد مضى يومين وصل الفيلق «الرجس» وهناك علم سادلر أن ابراهيم باشا قد غادر المنطقة الى المدينة فى نفس اليوم الذى وصل فيه سادلر الى عنزه، وقد قرر سادلر عندئذ أن يقطع مهمته ويطلب حرسا لمرافقته الى البصرة ، غير أن نائب الباشا أو السكرتير الاول . . الذى عهد اليه بالاشراف على عملية الانسحاب فى منطقة الرص رفض طلب سادلر بحجة ان الرحلة ستكون شاقة جدا وان كان كما علق سادلر بأن القائد المذكور لم يكن يعرف أى شىء عن جغرافية البلد التى ظل سيده يحارب فيها لمدة ثلاث سنوات ، وكان كالطفل الذى لم يغادر أسوار مدينة القاهرة (٢) . ولاضطرار سادلر البقاء مع الفيلق فقد ظل يسير معه حتى ساءت صحته وانتابته الحمى وتعرض لاهلآت المصريين كما هاجمه البدو وسرقوا ما معه من متاع ونقود ، وأخيرا فى الأسبوع الاول من سبتمبر وصل الفيلق الى مشارف المدينة المنورة وكان فى استقباله أحد رجال الباشا الذى صحبه الى معسكر الباشا فى مدينة بئر بالقرب من المدينة .

وفى يوم ٩/٨ كانت اول مقابلة مع الباشا وفى مقابلته الثانية فى اليوم التالى قدم سادلر سيف وخطاب الحاكم العام، وقد أعرب ابراهيم باشا عن

(١) المذكرات ص ٦٦ .

(٢) المذكرات ص ٧٢ .

أسفه بأنه لم يعلم بالخطبة البريطانية مبكرا أو قبل ذلك وخاصة أنه كان قد أبدى اتصالا مع السيد سعيد بعد سقوط الدرعية مباشرة ، وأنه قد تلقى منه عرضا بالتعاون معه ضد القواسم غير أنه لم يصله أى شئ من مسقط بعد ذلك الخطاب ، كما قال بأنه لا يستطيع أن يرد ردا قاطعا على مقترحات الحاكم العام قبل احالة الموضوع الى والده محمد على باشا ، ولذلك طلب من سادلر أن يتوجه الى جدة لينتظره هناك حتى وصول محمد على باشا للحج ، وبقي سادلر ينتظر مدة شهر وفى جدة تعرض هناك لاصابة شديدة من الحمى ، فلم يتمكن من مقابلة ابراهيم باشا قبل ٢٩ اكتوبر ، وقد وجد الباشا مترددا ولم يقل سببا حاسما عن موضوع اتصاله بالقاهرة أو أن يرتبط باعطائه رد كتابى على مقترحات الحاكم العام ، كما قال بأنه يرغب فى ارسال جواد ومهر كهدية للحاكم العام ولكنه لم يسمح لسادلر بفحصهما ، ثم مرت خمسة عشر يوما دون أن يكون هناك اثر للهدايا أو رد رسمى ، وفى ١١/١٢ طرق الباب على سادلر أحد خدم الباشا ومعه جوادان هزيلان وقال بأنهما هدية من ابراهيم باشا للحاكم العام غير أن سادلر اعادهما الى الباشا وقال بأنهما لا يصلحان كهدية لشخص كالحاكم العام . وقد تصور سادلر أن تقديم الجوادين المذكورين كان المقصود منه اهانة الحاكم العام وقد تأكد له هذا عندما أعرب ابراهيم باشا عن استيائه من اعادة الهدية ، وأمر سادلر بمغادرة المعسكر بعد أن انذره بأنه سوف يبعث برسالة احتجاج الى الحاكم العام بعد رجوعه الى القاهرة ويعيد اليه السيف ، وقد غادر الباشا بعد ذلك بوقت قصير الى مصر وترك سادلر يبحث بنفسه عن وسيلة للخروج . ولمدة شهرين ظل سادلر يعيش عيشة الكفاف فى جدة كرجل مسيحي واوربى وسط شعب مسلم معاد له ، وظل على هذه الحال حتى ٢٣ يناير سنة ١٨٢٠ وعندما وصل الطراد برنس اوف ويلز ورسا على شاطئ جدة كانت نهاية لمتاعب سادلر . وعلى الرغم من ان المراحل الاخيرة لمهمة سادلر كانت حرجة نتيجة لفرور باشا مصر فاننا لا نستطيع ان نقلل من المكانة المرموقة التى اكتسبها لشجاعته وحكمته بوصفه الاوربى الوحيد الذى

اجتياز شبه الجزيرة العربية من الشرق الى الغرب . (١)

فى الوقت الذى كان سادلر يسعى للحصول على رد من ابراهيم باشا كانت الحملة تشق طريقها الى مياه الخليج بقيادة السير وليم جرانت كير ولقد اقلعت الوحدة الاولى من الاسطول من بومباى يوم ١٨١٩/١١/٣ والتي سبق لها الاشتراك فى الحملة الاولى ضد القواسم. قبل عشر سنوات ، وكانت تتألف من الفرقة ٤٧ والفرقة ٦ والفصيلة الاولى والفرقة الثانية من مشاة بومباى ، وفصيلة بومباى البحرية والفصيلة الاولى والفرقة الثانية وسرية الجناح ٢٤ ووحدة من مدفعية بومباى ونصف عدد احدى فصائل الاستطلاع وكان مجموع القوة كلها ١٠٤٥٣ اوروبى و ٢٠٩٤ كرى هندي (٢) اما سفن الحراسة فكانت تتألف من الطراد ليفربول (٥٠ مدفعا بقيادة الكابتن كولير) والطراد كرلر (١٨ مدفعا بقيادة الكابتن واليول) وطراد الشركة الموقرة اورورا ١٤ مدفعا ، اما الطرادات التى كانت موجودة بالفعل فى مياه الخليج ففى الطراد ايدن (٢٥ مدفعا بقيادة الكابتن دوك) وتبين مادت (١٦ مدفعا) ونوتيلوس (١٤ مدفعا) وترنيت (١٤ مدفعا) وسيش (١٢ مدفعا) وابريل (١٠ مدافع) وفستال (١٠ مدافع) وعند وصول الحملة الى خليج عامن ، انشق عنها الطراد ليفربول الذى ابحر الى مسقط يحمل على ظهره قائد

(١) لقد كتب سادلر بنفسه وصفا عن هذه المهمة فى كتابه مذكرات حول رحلة عبر شبه الجزيرة العربية . اما عن سيرته وحياته فى بدايتها او اخرها فيمكن الرجوع الى كتاب « جورج فورستر سادلر » تأليف اف . ام . ادواردز طبعة عام ١٩٥٧ ص ٣٨ - ٤٩ وقد اعتزل العمل من الجيش فى عام ١٨٣٧ واصبح عمدة لبلدته كوك وفى نحو عام ١٨٥٥ هاجر الى نيوزيلندا حيث توفى فى ازلاند يوم ١٨٥٩/١٢/٢ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم العام الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٠/٨/٩ .

— ٢٥٣ —

الحملة السير جرانت كير الذى كلف بمقابلة السيد سعيد . ولقد سبق لنبيين ان اوفد فى شهر اكتوبر السير جون اندرو جيركس من جيش بومباى ليستفسر من السيد سعيد عما اذا كان يوافق على رسو الحملة فى جزيرة قشم وتزويدها بالمؤونة وبالزوارق اللازمة لانزال المعدات والمدفعية ، كما كلف جيركس ايضا باطلاع سعيد بحجم العمليات المنوى القيام بها ، ومعرفة ما اذا كان سيوافق على الاشتراك فيها خصوصا وان اشتراك ابراهيم باشا فى الحملة قد أصبح مستبعدا الان ، ولقد وجد جيركس السيد سعيد على اتم استعداد للتعاون وقال بأنه قد أصدر الأمر بتجميع الخرفان والمجول وغيرها من المستلزمات فى بندر عباس ، بالإضافة الى تجهيز ٧٠ زورقا لانزال الجنود والمعدات كما أبدى استعداده بتسيير ٤٠٠٠ من رجال القبائل الى رأس الخيمة للمساهمة فى الهجوم على البلدة ، كما وعد بأنه سوف يخرج بنفسه على رأس ثلاث سفن حربية و ٦٠٠ الى ٨٠٠ جندي للاشتراك فى الهجوم البحرى على رأس الخيمة وعندما وصل كير الى مسقط فى الاسبوع الثالث من نوفمبر كرر سعيد تلك الوجود للمبعوث .

غادر كير مسقط يوم ١٨ نوفمبر ولحق ببقية الاسطول بعد ثلاثة ايام فى مكان ما من الساحل الفارسى وقد وجد أن بعض السفن لم تصل من بومباى بعد ، ولكنه ابحر الى ساحل القرصنة على الطراد ليفربول تاركا بقية قطع الاسطول تتزود بالماء من جزيرة قشم وكان يرافقه الطراد والسفينة بنارس التى قامت بمسح لمداخل رأس الخيمة ، وكان فصل الرياح الشمالية يقترب بسرعة وكان واضحا ان اى تأخير فى انزال القوات سوف يقضى على نجاح الحملة ولذلك تم ارسال السفينة بنارس الى جزيرة قشم لتستعجل وصول قوارب النقل اللازمة للهجوم ، وفى يوم ٢ ديسمبر كان الاسطول يشق طريقه الى رأس الخيمة للاشتراك مع فرقاطتين من مسقط مع السيد سعيد ونحو ٦٠٠ مقاتل من رجال القبائل .

- ٢٥٤ -

منذ الحملة الفاشلة على رأس الخيمة فى نوفمبر ١٨١٦ قام القواسم بتعزيز وسائل الدفاع عن البلدة بصورة مكثفة حيث اقيم حولها سور ارتفاعه نحو (٩) أقدام وعرضه قدمين ، كما بنى سور آخر اقيمت عليه بعض البروج بارتفاع قدره ٢٠ قدما حول البلدة والى الناحية الجنوبية مباشرة أنشئت قلعة مربعة بالاضافة الى عدد من البروج الأخرى التى تحيط بالنصف الاسفل من شبه جزيرة رأس الخيمة وكان بعضها يختفى وراء مزارع النخيل ، وقدر عدد المقاتلين فى البلدة فى حدود ٤٠٠٠ الى ٧٠٠٠ رجل وقد وقع الانزال البريطانى التمهيدى يوم ٣ ديسمبر وكان هدفه المنطقة الرئيسية من البلدة كما أحاط الجنود بالمنطقة من البحر وقد انقضى بقية اليوم فى انزال المدافع والمؤن وفى حفر الخنادق ، وفى صباح ٤ ديسمبر بدأ الجنود من الشرقتين ٤٧ ، ٦٥ - تحرشاتهم بالعدو والتوغل الى خطوطه الامامية . وبحلول الظلام كانت القوات البريطانية توغلت الى مسافة ٣٠٠ ياردة من القلعة الرئيسية وبدأت فى قصف القلعة يومه وقد اقترب الطراد ليفربول لقصف المنطقة غير أن القواسم تمكنوا من صد الهجمات بمدافعهم ، وكانوا احيانا يخرجون من خلف تحصيناتهم لمواجهة القصف البريطانى الذى كانت قذائفه تتساقط بعيدا عن الأهداف ، وقد تم انزال مدافع أخرى من الاسطول يوم ٦ ديسمبر لتشديد القصف وفى تلك الليلة قامت مجموعة من القواسم بقيادة ابراهيم بن رحمة أخى شيخ رأس الخيمة بالهجوم على إحدى وحدات المدفعية واستطاعت أن تسحب أحد المدافع الهاوتزر ، ولكن مجموعة من الفرقة ٦٤ خفت لنجدة الوحدة بعد نشوب معركة بالسلاح الأبيض قتل خلالها مالا يقل عن ٩٠ من القواسم بما فيهم ابراهيم بن رحمة ، ثم قام القواسم بهجوم آخر قبل الفجر امكن صدّه .

وفى يوم ٧ تم انزال المزيد من المدافع من الاسطول بما فى ذلك فيها مدفعان عيار ٢٤ من الطراد ليفربول . وفى الصباح التالى فتحت المدفعية البريطانية كل نيرانها على الحصن واستمر القصف طوال الليل . وما ان

أشرف اليوم الثاى على الانتهاء حتى كانت أسوار القلعة قد تهشمت وقد زحف الجنود على القلعة ولكنهم لم يجدوا فيها أحدا كما كانت البلدة نفسها خالية تقريبا من السكان الذين تمكنوا من الإفلات ، ويقال أن القواسم خسروا نحو الف رجل بين قتيل وجريح ، خلال القتال الذى استمر خمسة أيام.

اما الجانب البريطانى فكانت خسائره فى الأرواح ضابطا وخمسة جنود ونحو ثلاثة ضباط ، و٩٠ جندي أصيبوا بجراح ، وكان من الممكن أن تكون خسائر القواسم أكثر لو أن الجنود العمانيين الذين أرسلهم سعيد عن طريق البر قد وصلوا فى الوقت المناسب ، ولكنهم وصلوا رأس الخيمة بعد يومين من سقوط البلدة . أما الذين رافقوا السلطان فى رحلة البحر فقد قدموا مساعدة قيمة فى عملية انزال المدافع والمعدات والمؤن من السفن وقد تقدم جسن بن رحمة لتسليم نفسه بعد ظهر يوم ٩ وجاء معه معظم من بقى من رجاله على قيد الحياة . (١) .

لم يكن القتال على ساحل القراصنة قد انتهى بعد ، وفى الوقت الذى كانت الوحدات الرئيسية تقوم بعملها كان اثنان من الطرادات يحاصيران

(١) فيما يتعلق بعملية رأس الخيمة انظر الرسا٢ مجلد (٥) من نبين الى جى - دارت (سكرتير مجلس ادارة الشركة) لندن فى ٢٢/٤/١٨٢٠ ومرفق به خطاب كبير الى الادجوتانت جنرال جيش بومباى ورأس الخيمة فى ٩/١٢/١٨١٩ وخطاب كبير الى وarden ١٠/١٢/١٨١٩ والتقرير الادارى للمقيم البريطانى فى الخليج رقم ١/١٩٠ من الكابتن اف.اى كولير الى لاميرال كنسج ، ليفربول رأس الخيمة ١١/٢١ ديسمبر ١٨١٩ (ومرفق بخطاب كروكر ٧/١/١٨٢٠ رقم (١٠٥) راجع أيضا «الاسطول الهندي» تأليف لوففصل ١ ص ٣٥١ الى ٣٦٠ وينقل لو عن احد الضباط الذين اشتركوا فى القتال الذى قال بأن السيد سعيد ذكر بأن الجنود وصلوا من من البر قبل نشوب المعركة غير ان هذا يتعارض مع تقرير كبير .

— ٢٥٦ —

بلدة رمس ، الواقعة على الساحل ، وهى مركز حسين بن على الشهير ونائب الحاكم الوهابى السابق فى ساحل القرصنة . ولهذا تم ارسال الفرقة ٦٥ مع سريات الجناح التابعة للفصيلة الاولى والفرقة الثانية ووحددة داعمة من المدفعية الى رمس لشن هجوم على الشيخ ولكن عند وصول تلك القوات الى البلدة وجدتها خالية من السكان فقد انسحب حسين بن على واتبعه الى قرية العينة على احد المرتفعات على بعد ميلين وهناك تحصنوا فى احدى القلاع القديمة وكانت مشهورة بقوة تحصينها وقد ثبت ذلك فيما بعد ، فعندما وصل القائد كير الى الضيعة اكتشف بأنه لا يمكن اقتحام القلعة الا بعد قتال عنيف ولذلك عاد يطلب امدادات من الفرقة ٤٧. والفصيلة الاولى والثالثة وتم انزال مدفعين كبيرين من الطراد ليفربول وبصعوبة كبيرة امكن نقل تلك المعدات الى نقطة قريبة من المرتفع ، وقام بذلك بحارة الطراد كولو ، وفى يوم ٢٢ ديسمبر كانت وحدة المدفعية قد وصلت الى موقع يمكن منه قصف القلعة وبعد قصف استمر ساعتين امكن فتح فجوة فى القلعة وبعدها استعد الجنود لاقتحامها ولكنهم شاهدوا علما أبيض يرفرف فوق قممها . ثم بعد ذلك خرج حسين بن على ورجاله وكان تعدادهم ١٦٩ شخصا . وقد تم نقلهم اسرى الى السفن . وقد قتل من البريطانيين ضابط وثلاثة جنود وجرح ١٦ وتوفى احدهم فيما بعد (١) .

لم تنته مهمة الحملة عند ذلك الحد فقد بقيت هناك أعمال أخرى يتحتم انجازها كتدمير جميع تحصينات رأس الخيمة تدميرا تاما وتفتيش جميع الموانئ الى جنوبها بحثا عن السفن التى تكون مخبئة فيها كما تعين على القائد كير أن يتخذ قرارا بشأن مصير الاسرى الذين كان اكثرهم بما فيهم حسين بن رحمة وحسين بن على مرضى أو جرحى . وربما كان الأهم

(١) محادثات حكومة بومباى السرية رقم ٤ مجلد ٤٥ - ١٨٢٠/١/٢٦
من كير الى واردين ١٨٢٠/١/٦ انظر كذلك « الاسطول الهندى » تأليف
لوففصل ١ ص ٣٦٠ - ٣٦٦ .

من ذلك كله هو الوصول الى تسوية سياسية تضمن أن لا يعود القواسم الى ممارسة ارهابهم للمياه الواقعة بين البصرة وبومباي ، ولم يتلق كير اى تعليمات حتى ذلك الوقت ، وكان الوقت يجرى بسرعة ، وكان لابد للأسطول من مغادرة المنطقة قبل ان تسوء الأحوال الجوية .

وفى أوائل يناير كان اكابر الشيوخ للمنطقة قد حضروا الى مقر كير لاعلان خضوعهم والاعراب عن صداقتهم ، وكان بينهم سلطان بن صقر شيخ الشارقة وشخبوط بن دياب والد طنحون بن شخبوط شيخ آل بوفلاح فى ابوظبى ، ومحمد بن حزه شيخ دبی وكان لايزال صبيا وقد جاء بصحبة عمه الاكبر بالاضافة الى شيوخ عجمان وأم القوين والجزيرة الحمراء ولكي يكسب الوقت الذى يستطيع خلاله تلقى الاوامر من الهند وليؤكد للشيوخ انهم لن يفلتوا ، وكان كير قد وجه الدعوة الى هؤلاء الشيوخ للحضور والتوقيع على اتفاقيات يسلمون بموجبها جميع السفن التابعة لهم باستثناء سفن الصيد وتسليم اى أسير هندي قد يكون لديهم (١) . وتطبيقا لهذه الاتفاقيات امر كير بعض القوات بتفتيش جميع الموانئ ابتداء من رأس الخيمة حتى دبی . وتم تدمير جميع التحصينات والسفن التى وجدت فى هذه الموانئ وتقدر قيمتها الاجمالية بـ ٨٣٠٢ (اى ما يزيد على ٣٠٠٠٠ جنيه استرليني) (٢) ولما لم تصل الاوامر حتى الاسبوع الثانى من يناير ١٨٢٠ قرر كير أن يفرج عن السجناء بعد أن اخذ سكان رأس الخيمة يتذمرون من احتجاز

(١) يمكن الرجوع لنصوص هذه الاتفاقيات الى اتشيمون (المعاهدات).

جزء ١٠ ص ١٢٢ - ١٢٧ .

(٢) محادثات حكومة بومباي السرية رقم ٨ مجلد (٤٥) ١٨٢٠/٣/١ من كير الى واردين ١٨٢٠/٢/٧ ووثائق بومباي السرية مجلد ٨ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٢/٧/٣١ (رقم ٣ - الدائرة السياسية) وقد تم توزيع جزء من هذا المبلغ كمكافأة على البحارة والجنود .
(١٧ - بريطانيا والخليج)

- ٢٥٨ -

شيوخهم خصوصا وانهم فهموا من شروط المعاهدة التمهيدية أنه سيفرج
من شيوخهم خلال بضعة ايام سيما وأن احتجاز الرجال القادرين كان يسبب
متاعب لاسرهم .

يوم ٨ يناير استدعى كبير حسن بن رحمة وأبلغه بأن قرار احتجازه
يقوم على اساس انه الشيخ المستول فى رأس الخيمة ثم قدم له مسودة
معاهدة للسلام كان كبير قد أعدها بالاشتراك مع معاونيه وتنص ديباجة
المعاهدة على ما يلى :

(بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله الذى جعل السلام بركة على
الناس ، وانه بناء على ذلك يتفق الطرفان على توطيد السلم بين الحكومة
البريطانية والقبائل العربية الموقعة على هذا العقد وذلك على الشروط
الآتية) (٣) .

الشرط الاول (المادة ١) تفرا كما يلى (يجب الامتناع عن جميع اعمال
النهب والقرصنة على البر وفى البحر من جانب العرب الموقعين على هذا
الاتفاق الى الابد ، وتوضح (المادة ٢) من الاتفاق «مفهوم النهب والقرصنة»
بانها : أى عمل من أعمال العنف التى تقترب فى أوقات السلم من جانب
أى دولة وأن كل من يرتكب عملا كهذا قد أهدر حياته وحقوقه . وتضمن
البند الثالث الى السادس توضيحا للإجراءات التى يرى القائد كبير ، انها
سوف تضع حدا لأعمال القرصنة ، وكان قد طلب الى كبير فى التعليمات
التي ارسلت اليه بأن يقرر ما اذا كان من المناسب وضع انظمة للملاحاة تلتزم
بها القبائل البحرية ويمكن بموجبها للأسطول البريطانى تحديد هوية السفن
العاملة وتحديد تسليحها وتفتيش موانئها وقد اقترح كبير أن ترفع سفن
القرصنة علما أبيض عليه خط احمر كعلامة مميزة لها سواء كانت مبحرة
او راسية فى الميناء ، وكان كبير يرمى من وراء اقتراحه هذا أن يكون العلم

انظر معاهدات جزء ١٠ ص ١٢٧ .

هو رمزاً للعلاقات السلمية القائمة بين القبائل من ناحية وبين الانجليز من ناحية اخرى ، كما تنص المعاهدة على أن تحمل كل سفينة سجلاً وتصريحا بالسفر (اذن خروج) يوقع عليه شيخ المنطقة ويبين فيه حمولة السفينة ونوع تسليحها ومنشأتها ووحدها ، وعلى ربانها هذه السفن ابراز هذا التصريح للطرادات البريطانية عندما تقوم بتفتيشها على أن يجدد هذا تصريح سنوياً ويصدق عليه ممثل من قبل الحكومة البريطانية .

وقد تناولت بقية الاتفاقية فى بنودها الخمسة موضوع التزام قبائل ساحل الخليج بمبادئ السلوك الانسانى فى تعاملها مع بعضها البعض، فنصت الفقرة الثانية التى كتبت (ولذكريات فطائع القواسم لاتزال حية فى الأذهان) على حظر اعدام الأسرى ، كما نصت على القيام بعمل مشترك بين القبائل والحكومة البريطانية ضد كل انتهاك لهذا الالتزام ، كذلك اشتملت الاتفاقية على نص مشابه فى حالة ارتكاب أعمال القرصنة العادية بموجب المادة السابعة . أما المادة التاسعة فقد نصت على حظر نقل العبيد من افريقية بقصد الاتجار ، وقد اختتمت الاتفاقية بنودها ببند ينص على استخدام موانئ الهند لسفن القبائل البحرية للأغراض التجارية وموانئ الدول الحليفة للحكومة البريطانية أمام السفن (١) .

وفى يوم ٨ من يناير وقع حسن بن رحمة وشيخ الجزيرة الحمراء على معاهدة السلام العادية كما سميت فيما بعد ، أما الشيخ شخبوط بن دياب حاكم ابوظبى فقد وقعها بالنيابة عنه ابنه طحنون فى اليوم الثالث من ابرامها ، كما وقع عليها شيخ رمس حسين بن على وعم شيخ دى بتاريخ ٢٨ من يناير . وفى نفس اليوم تلقى كير التعليمات التى كان ينتظرها وقد

(١) المعاهدات « تأليف اثشيسون » جزء (٢) ب ص ١٢٧ - ١٢٩ .

صدرت من بونشتورت الفينستون الذى خلف نيين كحاكم على بومباى بعد وقت قصير على خروج الحملة ، وقد تضمنت التعليمات التى ارسلت الى كير توصيات الفينستون التى تضمنها خطابه الى الحاكم العام بتاريخ ١٨١٩/١٢/١٥ حول السياسة التى يتعين على القائد كير اتباعها فى الخليج ، وهى لم تضن تختلف اختلافا كبيرا عن تعليمات سلقه . وتضمنت التعليمات رأى الفينستون فى أن السبيل الوحيد لتصفية القرصنة فى الخليج هى فى اخضاع السفن للتفتيش بشكل منظم من قبل الاسطول البريطانى ، وفى تدمير معاقل القراصنة تدميرا تاما وتعيين مندوب بريطانى محلى فى رأس الخيمة ليقوم بالتأكد من السفن المعاملة ، وفى تشجيع الروح التجارية بين القواسم وربطهم بالمؤثرات الحضارية الحديثة عن طريق حثهم وتشجيعهم على القيام بزيارات الى شواطئ الهند للأغراض التجارية وقد اقترح الفينستون عزل حسن بن رحمة من المشيخة وتنصيب خليفة له يكون على استعداد للعمل بموجب هذه القرارات . اما اذا لم يكن هناك شيخ يرضى بالعمل على اساس هذه التوصيات ، فيعهد الى سلطان مسقط بالاشرف على بلدان الساحل وقيام أسطوله بحراسة سواحل المنطقة ومداخلها .

(١) ولد الفينستون عام ١٧٧٩ وهو الابن الرابع لعمدة اسكوتلندى ، وقد التحق بالعمل فى الشركة ككاتب فى مكاتب الشركة بالبنغال وكان عمره اذ ذاك ١٥ عاما ووصل الى الهند فى فبراير ١٧٩٦ وقد تبناه وليسلى وبعد ذلك بوقت قصير عين مساعدا للمقيم فى بونا عام ١٨٠١ ثم فى ناجبور عام ١٨٠٤ وفى عام ١٨٠٨ اختاره منستو لرياسة البعثة البريطانية الى كابل ومنذ عام ١٨٢٧ عمل مقيما فى بونا وفى نهاية الحرب الثالثة للمهرات عين محافظا للمقاطعة دكنى وكان تعيينه فى بومباى خيبة أمل كبيرة لجون مالكولم الذى يأمل ان يحتل المنصب .

(٢) محادثات حكومة بومباى السرية حلقة ٥٣ مجلد ٤٣ بتاريخ ١٨٣٩/٤٢/٣٥ من الحاكم الى الحاكم العام بنفس التاريخ .

عند استلام كير لهذه التعليمات التى وصلته متأخرة جدا لم ير فيها
 اى شىء ذى أهمية ، وفى رده على الفينستون توخى ان تحظى التسوية
 التى توصل اليها على موافقته غير ان الفينستون لم يوافق عليها ، وكان
 كير قد توقع تلك النتيجة منذ مغادرة السيد سعيد للمنطقة قبل التوقيع
 على المعاهدة بأسبوعين نتيجة سياسة الليونة التى اظهرها كير تجاه
 القواسم كما ان معارضة الفينستون للاتفاقية ، وان كانت قد صيغت
 بصيغة مقبولة فقد لقيت معارضة عنيفة، وفى الوقت الذى أشاد الفينستون
 بالاعتبارات الانسانية التى أملت على كير اطلاق سراح الأسرى وشيخى
 القراصنة حسن بن رحمة وحسين بن على ، الا أنه كان يعتقد بأن الزعيمين
 لم ينالا من العقاب ما يتناسب مع حجم الفظائع التى ارتكباها ، وكان يرى
 بأن نقاط الضعف فى الاتفاقية هى القوانين التى فرضها كير لتنظيم حركة
 الملاحة لأنها لم تتضمن قدرا كافيا من الضمان عن سلوك القراصنة فى
 المستقبل ، فالسجلات والتصاريح التى نصت عليها الاتفاقية ليست
 ضمانات كافية بالنسبة للنشاط الملاحى غير المشروع ولعل الميزة الوحيدة
 لهذا البند هى أنه تحدد الميناء الذى خرجت منه السفن وقال الفينستون
 حثهما بان الخطر لا يأتى من الموانى التى تغادر منها السفن التى ظلت تهددنا
 طيلة هذه المدة (١) ولما كانت السفن التى تمارس القرصنة تزود عادة
 ببعض الاوراق الا ان المعاهدة لا تنص على فرض عقوبة على السفن التى
 تزور الاوراق او التى لاتحمل شيئا من التصاريح وكان الاجدى بالقائد كير
 ان يحصل على موافقة شيوخ المنطقة على تجديد حجم السفن كما جاء فى
 التعليمات الاصلية الصادرة فى اكتوبر ١٨٠٩ . ولو انه حصل على التعهد
 لتمكن الاسطول البريطانى من التغلب على هذه المشكلة وكان يجب ان
 تتضمن الاتفاقية نصا أكثر تحديدا من النصوص التى وردت فى المادة

(١) محادثات بومباى السرية رقم ٦ مجلد ٤٥ - ١٨٢٠/٢/١٦ من

واردن الى كير بنفس التاريخ .

الخامسة والتي تقول انه اذا التقت بعض السفن البريطانية او غيرها من السفن بسفن القراصنة فينبغى على الاخيرة ان تبرز دفتر السجل وتصریح السفر كما انه من حق الطرادات البريطانية أن تستولى على جميع السفن التي تزيد حمولتها على الحد المتفق عليه فى المعاهدة وبدون حق النص على هذا الحق فان بنود الاتفاقية التي كانت تبدو مكاسب فعلية كالتعهد بالامتناع عن ممارسة القرصنة وتجارة الرقيق لم يجد الفينستون فى نصوص الاتفاقى اى فائدة حقيقية وكان المفروض فى كير أن يمنع بناء السفن المسلحة اثناء رأس الخيمة ، كما كان مفروضا من الفينستون بأن يصدر قرارا يحظر الاخشاب من الهند الى ساحل القراصنة غير ان الوقت كان قد انتهى ، وهذا ما صرح به كير وبالتالي لم يكن امامه فرصة لتغيير الاتفاقية كما لم يكن امامه الا أن يطلب من الحاكم العام للهند التصديق عليها .

وسبب انتقادات الفينستون للمعاهدة العامة يرجع الى حد ما الى الرسالة الخاصة التي تلقاها من الكابتن طومسون ، المترجم العربى للحملة والذي أبدى شكوكه فى فعالية القوانين البحرية التي وضعها كير ، وعلى الرغم من أن طومسون كان قد وافق على أن تصاريح السفر قد تساعد على مراقبة سفن القراصنة الا انه لم يكن يعتقد بأن تلك القوانين ستكون قوانين فعالة ، الا اذا عهد للمعتمدين البريطانيين المقيمين فى تلك الموانى بتفتيش السفن والاوراق التي تحملها . وعلى اى حال فانه يبدو أن الفينستون قد فاته أو انه تجاهل بعض النقاط ، ولكن طومسون كان يؤيد فرض القيود التي فرضت على تسليح السفن او على حمولاتها مما كان الفينستون يرغب فى فرضها ولكن لم ترد فى التعليمات التي وصلت الى كير فى البداية كما انها كانت قيودا غير واقعية ، سيما أن القرصنة كانت تمارس بكل الوسائل وبكل انواع السفن ، والاسلحة التي تحملها سفن القرصنة عادة لا تتعدى مدفعا واحدا صغيرا ، اما فيما يختص بالتسليح الشخصي فان العرب عادة يتسلحون سواء فى البر أو البحر وسوف يستمرون على ذلك مهما كان

موقف الحكومة البريطانية . كما قال طومسون بأنه ليس هناك حل لهذه المشكلة اذا تعذر التمييز بين السفن التى تمارس القرصنة والسفن العادية ، فالسفن جميعها سواء تلك التى تمارس القرصنة وأعمال السلب والنهب هى سفن مسلحة . فاذا كان الهدف من تشجيع البريطانيين للقبائل العربية الساحلية على تعطى التجارة هو القضاء على القرصنة فان طومسون يتساءل ، كيف يمكنهم ذلك اذا ما فرضت قيود على تسليح السفن ، ان هناك قطاعا برمائيا من الافراد متورطون فى أعمال القرصنة وبالتالي فان تدمير سفن هؤلاء الافراد لن يكون اجراء تعسفيا فحسب وإنما سوف يؤدي الى القضاء على القدرة الطيبة التى يمثلها هؤلاء الناس . (١) لم يتسلم كبير تعليمات الفينستون الا بعد ان انتهت الحملة وكان فى طريق العودة الى بومباي وعند وصول كبير الى بومباي دافع بحرارة عن طريقته فى ادارة الحملة ، وعن المعاهدة التى عقدها مع شيوخ المنطقة ، وقال بأن المادة الثانية من الاتفاقية تتضمن أقصى حد للعقوبة ، وهى اهدار حياة الشخص واهدار ممتلكاته ، اما بالنسبة لفرض قيود على حجم وتسليح السفن فان ذلك سوف يرغم الحكومة البريطانية على الدفاع عن القبائل التى وقعت على المعاهدة ضد أى عدوان عليهم من الدول التى لا تخضع سفنها لتلك القيود، أما بالنسبة لحظر تصدير الأخشاب اللازمة لبناء السفن فان هذا الموضوع يخص السلطات البريطانية فى الهند ، ولم يكن ثمة داع لاضافته فى الاتفاقية ، اما فيما يتعلق بمعاملة زعماء القرصنة فقد ذكر كبير للحاكم بأن

(١) لقد اتار الحاكم هستنجز هذه النقطة بالذات عند تصديقه على المعاهدة فى بداية ابريل (انظر محادثات بومباي السرية رقم ١٣ مجلد ٤٦ تاريخ ١٨٢٠/٥/٣ ، س س . اف متكاف (سكرتير الحاكم العام) الى واردين بتاريخ ١٨٢٠/٤/٣ .

جميع الزعماء فيما عدا حسين بن علي قد حضروا اليه برغبتهم وأعلنوا ولاءهم له غير أنهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك لو أنهم علموا مسبقاً بالقيود البحرية المشددة التي فرضها الفينستون ، كما ذكر بأنهم لو لم يتقدموا إليه سلمياً لأضطر إلى أن يخوض حرباً طويلة معهم ، وقد تؤدي إلى الحرب في الداخل ، كما أن التعليمات التي تلقاها لم تكن تسمح له بذلك كما قال كبير بأنه لو حاول استبدال بعض هؤلاء الشيوخ بآخرين فإن ذلك سوف يلزم بريطانيا بتأييدهم وبالتالي مزيد من التدخل في المنطقة . (١)

وعندما علم الفينستون بالتسوية التي توصل إليها كبير مع شيوخ القرصنة قرر القيام ببعض الخطوات لانقاذ ما يمكن انقاذه من خطة كبير ، فطلب من سلطان بن صقر بأن يوافق على اضافة القيود إلى البند الخاص بحمولات السفن ونوعية تسليحها (٢) مقابل تنصيبه شيخاً على رأس الخيمة ، وقد ارسلت هذه التعليمات غير أنها وصلت متأخرة إليه بحيث تعذر عليه أن يقوم بتنفيذها ، وقد أشار كبير فيما بعد بأن القضاء على القرصنة في الخليج لم يكن يعتمد على كثرة القيود والقوانين والموانع أكثر مما كان يعتمد على يقظة الاسطول والقوة العسكرية المتوافرة لدى حكومة بمباي ، للحفاظ على أمن الخليج (٣) .

وإذا نظرنا إلى التسوية بأثر رجعي فإنها تعتبر تسوية سليمة وتتسم بالروح الانسانية والاريفية ويعود الفضل في ذلك إلى كبير وانطلاقاً من نظرة كبير إلى أوضاع القواسم وحياة البؤس والشقاء التي كانوا يعيشونها وشحة المورد ، ونظرة العداء التي كان ينظر بها جيرانهم اليهم ، كل هذه

(١) دليل الخليج جزء ١ ص ٦٧٣ - ٦٧٤ تأليف لورمار .

(٢) نفس الحلقات محدثة رقم ٦/ مجلد ٤٥ - ١٦/٢/ ١٨٢٠ من وarden

إلى كبير بنفس التاريخ .

(٣) دليل الخليج جزء ١ ص ٦٧٣ - ٦٧٤ تأليف لورمار .

الاعتبارات اثارته فيه شعور العطف والتسامح نحوهم ، وكان كير يعتقد بان
معاملة القواسم بطريقة انسانية كريمة بعد الحملة التأديبية سوف تساهم
الى حد كبير في تغيير موقفهم تجاه الحكومة البريطانية التي كانت قد صممت
على محو كل اثر للقرصنة بدلا من اتباع سياسة القوة والبطش والانتقام
ضدهم وقد اثبتت الايام صحة موقفه .

فى الاسبوع الاول من عام ١٨٢٠ كانت مهمة كير فى ساحل القرصنة قد
انتهت تماما وامكنه توجيه اهتمامه للساحل الفارسى . وبالنسبة لهذا
الموضوع فان المشكلة الرئيسية لم تكن معارضة الدول البحرية التى تمارس
القرصنة وانما معارضة حكومة فارس الشديدة لاي عمليات على ساحل
فارس ، غير أن التعليمات كانت واضحة وصريحة بمهاجمة جميع الموانئ
التي تنطلق منها اعمال القرصنة مهما كان موقف حكومة فارس من الموضوع،
وقد طلب الى الكاتب هنرى ويلوك الاتصال بالشاه حول هذه المسألة والوصول
الى اتفاق معه حولها .

تناول ويلوك الموضوع مع وزراء الشاه فى اجتماعه بهم يوم
١٨١٩/١٢/٢٢ وبعد أن أطلعهم على الخطوات التى كانت تنوى حكومة
بومباى اتخاذها لردع القراصنة أينما وجدوا فى الخليج طلب من حكومة
فارس بالالتدع العاشرين بالأمن أن يفلتوا من العقاب لمجرد كونهم يقيمون أو
يقطنون على أرض فارسية غير أن الحكومة الفارسية اعتبرت ذلك تدخلا
يجرح كبرياءها وكان رد الشاه بأنه لا يعلم عن أى اعمال للقرصنة يقترفها
رعاياه وانهم حتى لو حدث وهاجموا بعض السفن التى ترفع العلم البريطانى
فان الاجراء السليم امام الحكومة البريطانية ، هى ان تطلب من الشاه تعويضا
عن ذلك ، لا أن تلجأ الى اتخاذ عمليات معادية ضد حرمة اراضيه ، غير ان
ويلوك ذكر وزراء الشاه بأنه سبق للحكومة البريطانية أن تقدمت بعدد من
الشكاوى الى أمير اقليم فارس عن اعتداءات قام بها الرعايا الفرس ضد
السفن البريطانية غير أنها لم تحصل على أى فائدة، لان أمير فارس لم يكن

— ٢٦٦ —

يمارس اى نفوذ على قبائل الساحل (١) وبعد ذلك بأسبوع تلقى ويلوك تبليغا من حكومة فارس بأن الشاه قد بعث بأوامره الى نجله أمير شيراز لتقديم كل مساعدة ممكنة للحملة غير أن ويلوك قد راودته الشكوك فى جدوى مثل تلك الأوامر لأن الشاه كان يهتم مركزه أكثر مما يهتم شىء آخر ، وأنه سوف يتخوف من الحملة فلا يقدم اى مساعدة فعالة لهم (٢) .

وكانت شكوك ويلوك فى محلها ، فعلى الرغم من أن حسين على ميرزا قد بعث برسالة الى القائد كير عند وصول الحملة الى الخليج يرحب فيها بالاجراءات التى اتخذت لردع القراصنة ، ويعرض استعداداه لتقديم المؤن ، فإن الرسالة التى وصلت كير فيما بعد ، اى بعد احتلال رأس الخيمة ، كانت فاترة فى عباراتها الى حد كبير (٣) . وفى رسالة ثالثة كتبها الأمير الى ويلوك ، كانت اللهجة عنيفة ، وجاء فيها بالنسبة لقواسم لنجة مايلى ... ان ميناء لنجة تابع لمقاطعة فارس ، وأن سكانها هم رعايا اوفياء للشاه....

(١) محادثات حكومة بومباى السرية رقم ١٠ مجلد ٤٦ تاريخ ١٨٢٠/٤/٥ من ويلوك الى حاكم بومباى ١٨٢٠/١/١ وقد ارفق به محاضر اجتماع هنرى ويلوك وقد اظهر ويلوك تعاطفه مع الشاه ووزرائه الذين لم يسبق لهم ان واجهوا مثل هذا الموقف وكانت الاشارة التى تضمنها خطاب كير فى حقهم اشارة لم يسبق لاي مسئول ان ذكرها فى حقهم طوال مدة خدمة كير فى فارس .

(٢) محادثات بومباى السرية مجلد ٨ تاريخ ١٨٢٠/٣/١ من ويلوك الى كير ١٨١٩/١٢/٢٩ ومرفق لخطاب كير الى واردين ١٨٢٠/٢/٧ .
(٣) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٥ رقم ٨ - ١٨٢٠/٣/١ من ويلوك الى كير ١٨١٩/١٢/٢٩ .

وعليه يتعين عليكم طالما تقيمون فى الخليج بأن تصدروا أوامركم بعدم (٣) التعرض لآى من سكان الموانى البحرية فى فارس ولنجة ، وعلى الرغم من ان كير لم يكترث بهذا التحذير فقد قرر أن يقوم فى الأسبوع الاول من فبراير بعمليات استطلاع فى الساحل الفارسى قبل بدء عملياته . غير انه قبل ان يغادر رأس الخيمة وصلت أخبار تذكر بأن بعض وحدات الاسطول قد بدأت بالفعل عملياتها على الساحل الفارسى . ولقد صدرت الأوامر الى الكابتن ويلوك ، قائد الطراد ايدن ، بالتوجه الى البحرين يوم ٣ يناير ، برفقة الطراد كارلو والسفينة نوتلس ، لمطاردة أى سمن للقواسم توجد فى ميناء ذلك البلد ، وخلال عودة ويلوك بلغه أن عددا من سفن القرصنة قد لجأت الى ميناء أمالى على الجانب الفارسى للخليج ، وعلى ذلك الأساس قرر أن يتأكد من هذا الموضوع . وبالبحث وجدت ثلاثة سفن راسية فى أمالى اثنتان منهما جاءت من ميناء خرك والثالثة من دى ، ومن طريقة تسليح تلك السفن شك ويلوك ، بأنها سفن للقرصنة . ولذلك أمر بحرق السفينتين وقطر السفينة التى جاءت من دى ، كما التقى بسفينتين أخريين مسلحتين فى ساحل كانجون ، وقد جاءتا من لنجة ، وأمر بحرقهما أيضا ، لشكه فى انهما من سفن القرصنة . وقد احتجت حكومة فارس على اجراء ويلوك ، واعتقد كير أن ويلوك لم يتأكد تماما من نوعية السفن التى أمر بتدميرها ، وعلى هذا الأساس رأى كير أنه قبل اتخاذ أى اجراء ضد الموانى الفارسية لابد من دراسة الموضوع دراسة شاملة للتأكد من بطلان الاتهامات التى توجه اليهم فى هذا الشأن، ولقد أحال كير الموضوع الى القومندان بروسى ، المقيم البريطانى فى بوشهر ، بينما أبحر هو

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من حسين على ميرزا الى القائد كير شيراز ٩ ربيع الاول ١٢٣٥ الموافق يناير ١٨٢٩ وقد ارفقت نسخة من هذه الرسالة فى خطاب كير الى وarden بتاريخ ١٠/٢/١٨٢٠ .

للقيام بعملية استطلاع للساحل الفارسي وفقا للخطة التي وضعها ، بعد أن أعطى التعليمات الخاصة بعمليات نقل القوات التي أمر بأن تلحق به بأسرع ما يمكن .

وقد وجد بروسى أن هناك حالتين فقط ارتكبتهما قبائل الساحل الفارسي ضد السفن البريطانية ، احدهما هي قيام سكان خرك بنهب سفينة تحطمت بالقرب من جزيرة قيس فى عام ١٨١٤ ، والاخرى قام بها بعض العرب من سكان لنجة فى عام ١٨١٥ ، وفى كلتا الحالتين كانت هناك ظروف استثنائية لأن شيخ جزيرة خرك قد ساعد فى انقاذ حمولة السفينة الاولى واما فى الحالة الثانية التى قام بها سكان لنجة فقد كان الميناء فى ذلك الوقت تحت سيطرة سلطان بن صقر ولم يكن تحت سلطة شيخها الحالى محمد بن قضيب . وقد أنهى بروس خطابيه بقوله « لقد ظلت الموانئ الفارسية تقاوم محاولات القراصنة لضمهم الى صفوفهم غير اننى أشك فى انهم كانوا سيتعاونون مع القراصنة لو انهم وجدوا مساندة حقيقية من رؤسائهم فى حكومة شيراز (١) . وبالتالي فلم يكن أمام كير الا ان يصرف النظر نهائيا عن مهاجمة الموانئ الفارسية وكان هذا يعنى ان الدور التاديبى للحملة قد انتهى ، ولهذا امر كير سفن النقل التى كانت تقل الجنود الاوربيين ، وكانت راسية فى ميناء قيس ، بأن تبحر الى بومباى وكان ذلك فى الاسبوع الاخير من فبراير ، اما كير نفسه فقد أبحر الى ساحل القرصنة بمن بقى معه من افراد الحملة لكى يشرف على العمليات النهائية هناك .

وقد نتساءل هنا ما الذى دعا كير الى شن الهجوم على الموانئ الفارسية فى الوقت الذى لم يكن متأكد من اشتراكها فى عمليات القرصنة ، والجواب

(١) محادثات حكومة بومباى السرية. مجلد ٤٥ رقم ٩ - ١٨٢٠/٣/٨ من بروس الى كير ١٨٢٠/٢/٢٠ وقد ارفق نسخة من هذه الرسالة فى خطاب كير الى وarden بتاريخ ١٨٢٠/٢/٢٤ .

هذا السؤال نجده في اجابة ايفان نيبين الذى كان يعتقد بأن أغلبية القبائل البحرية للخليج هم قراصنة ، وذلك يعود الى قلة المعلومات التى كانت في حوزته وحوزة حكومته عن الوضع فى الخليج ، وقد جاء فى التقرير الذى رفعه الكابتن تايلور عام ١٨١٨ ، وكان وقتها يشغل منصب المقيم البريطانى فى البصرة بأن عددا من الموانى الواقعة على الجانب الفارسى للخليج كان سكانها يتعاونون مع القواسم ، ولكن يبدو ان هذا الرأى كان مبنيًا على الافتراض فقط وهو رأى كان يؤيده فى نفس الوقت ايفان نيبين ، وهو على أساس أن سكان الموانى الفارسية من اصل عربى عموما ، ومنهم كثير من القواسم ، ولما كان بعضهم واقعا تحت سيطرة النفوذ الوهابى فانهم لابد وأن يمارسوا عمليات القرصنة مثل غيرهم من العرب من أبناء بلدتهم ، وقد ايد الفنستون فكرة الهجوم على الموانى الفارسية ، كما ايدها نيبين غير انه عندما علم برد فعل الحكومة الفارسية عن العمليات المقترحة أعاد النظر فى موقفه وفعل كبير مثله فهو لم يؤيد موقف كبير تأييدا مطلقا فحسب وانما اصدر امرا باتخاذ الخطوات الفورية لتعويض أهالى فارس الذين دمرت سفنهم خلال تلك الأحداث (١) .

ولم تتضمن التعليمات التى أرسلت الى كير فى شهر اكتوبر ١٨١٩ أى اشارة الى عمليات ضد البحرين ، لأن نيبين وبقية اعضاء المجلس لم يتفقوا على السياسة الواجب اتباعها تجاه تلك الامارة وقد تناول الفنستون الموضوع فى شهر ديسمبر ١٨١٩ ، وأدرك بسرعة أن خطة نيبين لاختضاع البحرين لنفوذ سلطان مسقط لم تكن سياسة حكيمة ، وبالتالي فإن سياسة الحياد التى ينأدى بها كبير الامناء و اردن كانت هى الاصول ، وقد أوضح الفنستون هذا الرأى بقوله : ... اننا يجب أن نعارض أى خطوة لاحتلال البحرين،

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٦ رقم ١٠ بتاريخ

١٨٢٠/٢/٥ محضر من اعداد الفنستون ١٨٢٠/٤٣/١٥ .

وذلك بأن نوضح لحاكمها أنه طالما استطاع أن يمنع رجاله من ممارسة أعمال العدوان والسلب في البحار واستمروا في ممارسة نشاطاتهم التجارية المشروعة التي اعتادوا عليها فإن موانئ الهند سوف تبقى مفتوحة أمام سفنهم ، كما يمكنه أن يتوقع من الحكومة البريطانية كل تشجيع ومعاملة ودية ، وعلى العكس من ذلك إذا ظهرت أي ميول عدوانية من جانب رعاياه فإننا سوف نضطر إلى اتخاذ الإجراءات الردمية (١) ضدهم .

ورغم وضوح هذه التصريحات ، إلا أنها لم تكن تعكس موقف الفنسنتون الكامل من الموضوع ففي نفس التاريخ الذي قدم فيها الفنسنتون مقترحاته إلى الحاكم العام كتب إلى ويلوك في طهران يقترح عليه محاولة كسب ود الشاه عن طريق التلميح له بأن الحملة على القرصنة قد تسفر عن استعادته لبعض الموانئ والجزر التي انفصلت عن فارس إبان المد الوهابي في الخليج ، وبأن بريطانيا قد تتوسط له في الحصول على اعتراف من شيوخ آل خليفة بسيادته على جزر البحرين بشرط أن لا يكون للبريطانيين دور في المفاوضات التي ستجرى بهذا الشأن وبشرط أن يبقى آل خليفة حكاما للبحرين ، وكان الفنسنتون على يقين من أن السيد سعيد سوف يتقبل بروح ودية رفض مطالبه بشأن البحرين ، وجاء في رسالة الفنسنتون للحاكم العام « اننا نأمل ألا نلاقى أدنى صعوبة في اقناع السيد سعيد بأنه من الأفضل له العمل على تدعيم وتقوية موارده وممتلكاته الراهنة بدلا من إضعافها عن طريق سياسة التوسع والضم (٢) .

-
- (١) محادثات حكومة بومباي السرية مجلد ٤٣ حلقة ٥٣ -
 ١٨١٩/١٢/١٥ من مجلس الحاكم إلى الحاكم العام بنفس التاريخ .
 (١) محادثات حكومة بومباي السرية سلسلة رقم ٥٣ مجلد ٤٣ -
 ١٨١٩/١٢/١٥ من الحاكم إلى مجلس الحاكم العام بنفس التاريخ .

ان سبب تردد الفنستون يعود الى اقتناعه بأن وجود قاعدة بريطانية دائمة فى الخليج شرط أساسى للقضاء على أعمال القرصنة . فاذا أمكن كسب ود الشاه عن طريق الحصول على اعتراف من شيوخ آل خليفة بسيادة فارس على الجزيرة من غير أن يمس ذلك الاعتراف استقلال الشيوخ فان ذلك سوف يشجع الشاه على التنازل لهم عن احدى الجزر التابعة له على الساحل الفارسى ، والأفضل ان تكون تلك الجزيرة هى جزيرة قشم حتى يتسنى استعمالها كقاعدة للأسطول البريطانى ، غير ان الأمور سارت على غير ما توقع الفنستون . . .

وقبيل مغادرة السيد سعيد رأس الخيمة سأل كير عما اذا كان ينوى الالتوجه الى البحرين فأجابه كير بأنه لم يتلق أى تعليمات بهذا الخصوص . وعندئذ عاد السيد سعيد يسأل عما اذا كان لدى حكومة بريطانيا أى اعتراض على قيامه بضم البحرين اليه ، فرد كير بأن السيد سعيد حاكم مستقل ومن حقه أن يتصرف كما يشاء ، فغير أن ذلك الرد لم يصادف هوى السيد سعيد فقد كان يتوقع أن يعرض كير مساعدته فى احتلال البحرين . وبذلك لم يعد أمامه غير العودة الى التفاوض مع امير اقليم شيراز للقيام بحملة مشتركة لاختضاع البحرين .

وقد زار مبعوث للشاه السيد سعيد فى رأس الخيمة يوم ٢٥ ديسمبر كما زاره مبعوث آخر فى مسقط بعد عودته مباشرة فى الأسبوع الثانى من يناير .

ويبدو أن الامير هو الآخر متلهفا لحياء فكرة الحملة المشتركة، وعلى الأخص أنه لم يكن يعرف حقيقة نوايا كير بالنسبة للبحرين (١) . وقد أعرب حسين ميرزا فى رسالة بعث بها الفنستون أثناء وجوده فى رأس الخيمة عن قلقه ازاء خطط كير بالنسبة للجزيرة ، وتحدث عن وجود جيش

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من كير الى ويلوك يناير ١٨٢٠ .

قوى مزود بكافة أسلحة الحرب تم حشده للاستيلاء على البحرين ، وأن الجيش أصبح على أهبة الاستعداد للزحف الى منطقة الساحل (١) ثم وردت رسالة أخرى منه فى بداية يناير يقول فيها انه سوف يصل كنجون فى منتصف الشهر ليتحرك منها الى البحرين ، وقد اقترح الأمير فى رسالته انه بالنظر الى تقارب الآراء والتفاهم القائم بينهما فانه ، أى كير ، قد يحتاج الى مهلة ليعود بسفنه لتقوم بنقل قوات الشاه (٢) ولكن كير تجاهل الرسالة ، الأمر الذى اثار امتعاض الأمير الفارسى فعاد فارسلى خطابا آخر الى كير فى أواخر شهر يناير يذكر فيه : «... أن البحرين تعتبر بشكل قاطع إحدى توابع حكومة فارس » .

وتنفذا لأوامر صاحب الجلالة الفارسية ، سوف نستولى عليها هذا العام ، وبناء على ذلك فأنى أرجو ألا تكون لديكم تصورات خاطئة حول هذا الموضوع بما يتعارض مع الصداقة الثابتة بين دولتنا وأنكم ... سوف تتصرفون وفقا لما بيناه فى رسالتنا هذه « (٣) » .

ولكن كير كان أبعد من أن يفكر « افكارا خاطئة » بشأن البحرين ، وإنما كان فى ذلك الوقت مشغولا بخطاب الغنستون المؤرخ ١٨١٩/١٢/١٥ . الى الحاكم العام وبوصول القائم بالأعمال البريطانى فى طهران ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له بالتفكير فى موضوع التدخل فى مشكلة البحرين وفى

-
- (١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من حسين ميرزا الى حاكم بومباى وقد وصلت الرسالة الى رأس الخيمة فى ١٨١٩/١٢/٢٥ وقد ارفق نسخة منها فى خطاب ويلوك الى اللجنة السرية فى ١٨٢٠/٣/٦ .
- (٢) من حسين على ميرزا الى كير (وقد وصلت الرسالة الى رأس الخيمة فى ١٨٢٠/١/٩ وقد ارفق نسخة منها فى خطاب ويلوك مؤرخ ١٨٢٠/٣/٦ المشار اليه آنفا .
- (٣) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٥ حلقة ٩ - ١٨٢٠/٣/٨ من حسين على ميرزا الى كير فى ربيع ١ - ١٢٣٤ يناير ١٨٢٠ ومرفق فى خطاب كير الى وarden ١٨٢٠/٢/١٢ .

المحاولات التي كانت تبذل لاحتلالها ، او فى موضوع التوسط للحصول على اعتراف من شيوخ البحرين بالسيادة الفارسية على الجزيرة وعلى أى حال فقد اهتدى الفستون فى نفس الوقت الى فكرة اخرى، فقد علم لتوه بوصول خطاب من حسين على ميرزا الى كير يطلب فيه مده ببعض سفن النقل وباستئناف المفاوضات بين الأمير والسيد سعيد للقيام بغزو مشترك للبحرين، فوجد فى ذلك الخطاب قرصة مناسبة لمحاولة الوصول الى حل لمشكلة البحرين بطريقة ترضى جميع الأطراف المعنية ما عدا آل خليفة ، وفى يوم ٢٦ يناير صدرت تعليمات الى كير منا ، وهى أنه فى حالة اضطراره الى القيام باجراء ضد آل خليفة فيتعين عليه بعد استيلائه على البحرين ان يسلمها الى سلطان مسقط نظير دفع زكاة سنوية الى حكومة فارس اما اذا اعترض امير شيراز على ذلك الاجراء فانه يتعين على كير ان يسلم الجزيرة الى اى مسئول يعينه الامير لحكمها وبأن يستغل تلك الفرصة للحصول على موافقة الحكومة الفارسية على اقامة قاعدة بريطانية فى جزيرة قشم .

غير ان ذلك لم ينفذ اطلاقا ، وفى الاسبوع الاخير من يناير وصل مبعوث من شيوخ آل خليفة الى معسكر كير فى رأس الخيمة برسالة من شيخي البحرين وهما سلمان وعبد الله ابنا أحمد وكانا متخوفين من نوايا كير ، وقد ازدادت مخاوفهم هذه بعد وصول وحدة جديدة من الاسطول بقيادة ويلوك الى المنامة يوم ١٧ يناير للبحث عن بعض السفن التى كان يظن أنها قد لجأت الى البحرين ، وقد قام الشيوخ بتسليم جميع السفن الموجودة فى الميناء ، وعددها عشر الى ويلوك الذى أمر باحراقها . بعد أن تعهدوا له بعدم التعاون مع القراصنة أو السماح لهم باستعمال موانئ البحرين (١) .

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من ويلوك الى كاتبين كولبير ١٨٢٠/١/٢٣ .
وقد ارفقت صورة منه الى خطاب ويلوك الى اللجنة السرية طهران فى

١٨٢٠/٣/١٣ .

- ٢٧٤ -

كما أوفدوا مبعوثاً آخر الى كير يعرضون الانضمام الى معاهدة السلم العامة، وبالتالي وبناء على التعليمات التي كان قد تلقاها كير من الفنستون المؤرخة ١٨١٩/١٢/١٥ بمعاملة آل خليفة معاملة خاصة طالما أنهم لا يشتركون في أعمال القرصنة فقد وافق كير على طلبهم ، وقد حصل كير من المبعوث على تعهد خطي لاطلاق سراح أى أسير هندي يوجد في البحرين وبالامتناع عن التعاون مع القراصنة أو الاتجار في السلع المنهوبة ، وعلى هذا الاساس سمح كير للمبعوث بالتوقيع على الاتفاق بالنيابة عن حكام البحرين ، وكان ذلك يوم ٥ فبراير . وفي وقت متأخر من ذلك الشهر صدق سليمان وعبد الله على المعاهدة شخصياً في البحرين .

من هناك اتجه مبعوث آل خليفة الى مسقط للتفاهم مع حاكمه على بعض نقاط الالتقاء وقد امر كير بالمساعدة غير المباشرة في مهمته مع السيد سعيد ، وكان كير قد سبق له ان كتب الى السيد سعيد ، يحذره من ان الحكومة البريطانية في الهند ان تنظر نظرة ارتياح الى وقوع أى معارك في الخليج تؤدي الى بعث الفوضى فيه من جديد ، كما يبلغه نصيحة الفنستون، إنه من الأفضل له ان يوجه طاقاته نحو معالجة التدهور الاقتصادى في بلاده كنتيجة لاعتداءات الوهابيين على عمان ، بدلا من القيام بمغامرات خاصة ، ولكن السيد سعيد لم يرحب بتلك النصيحة ، وفي منتصف فبراير كتب الى كير يقول له ، بأنه من المستحيل عليه ان ينسى المتاعب التي قاستها عمان على يد آل خليفة (١) . وبعد ذلك بوقت قصير عاد السيد سعيد فكتب الى كير رسالة يقول فيها ، بأنه قد توصل الى اتفاق مع المبعوث البحرينى وبذلك لم تعد هناك ضرورة للقيام بهجومه على البحرين فقد اعترف له آل

(١) محادثات بومباي السرية مجلد ٤٥ حلقة - ٩ - ١٨٢٠/٣/٨

السيد سعيد الى كير ٣ جمادى الاولى ١٢٣٥ الموافق ١٨٢٠/٢/١٧ .

خليفة بالسيادة ، كما وافقوا بأن يدفعوا له زكاة سنوية قدرها ٣٠٠٠ ر.ريال نمسوى (١) .

وبانضمام البحرين الى المعاهدة العامة وقيام الصلح بين السيد سعيد وآل خليفة أفسدت خطة الفنستون لاستخدام الجزيرة كأداة للحصول على امتيازات من الشاه . وعلى الرغم من أن الشاه قد رفض في البداية اعتبار موضوع انضمام آل خليفة الى المعاهدة بأنه اعتراف ضمنى من حكومته للوضع المستقل للبحرين ، إلا أنه عاد في النهاية وخاصة بعد محاولات واردين معه فوافق على أن تتعهد الحكومة البريطانية بعدم تأييد سعيد لاختصاص البحرين واشعاو الشاه بأن أى محاولة من جانب السيد سعيد بفرض مطالبه بالقوة على البحرين قد يؤدي الى تعكير حالة السلم والاستقرار في الخليج وبأن حكومة الهند سوف تنظر باستياء الى مثل هذه الامور (٢) .

وانتهت الحملة على سواحل القراصنة في مارس ١٨٢٠ وكان معظم سفن نقل الحملة قد عادت الى بومباي ، عندما قام كير بزيارة اخيرة الى الساحل الغربى في الاسبوع الثانى من مارس ، وبالقرب من فليحة يوم ١٥/٣/١٨٢٠ استقبل كير شيوخ عجمان وأم القوين على ظهر الطراد ليفربول، قبل اشتراكهم في معاهدة الصلح . وكان كير قد وافق سابقا على اشتراك سلطان بن صقر شيخ الشارقة في التوقيع على المعاهدة ، وقد ادعى سلطان بأن راشد بن أحمد شيخ عجمان وعبد الله بن راشد شيخ أم القوين خاضعان له وأن توقيعه على المعاهدة يشمل هذين الشيخين غير أن كير لم يعلق على ذلك الموضوع ، ولكنه بعد أن فكر قليلا فى الموضوع قرر بأنه لابد من وضع

(١) محادثات حكومة بومباي السرية مجلد ٦٦ حلقة ١٠ - ١٨٢٠/٤/٥

من كير الى واردين ١٨٢٠/٤/١ .

(٢) محادثات حكومة بومباي السرية مجلد ٦٦ حلقة ١٠ بتاريخ

١٨٢٠/٤/٥ محضر الفنستون برودا مارس ١٨٢٠ .

— ٢٧٦ —

حد لادعاءات القواسم بالسلطة عن طريق الاعتراف بالشيخين المذكورين كحاكمين مستقلين . وعلى ذلك الأساس تم ضمهم الى المعاهدة يوم ١٥/٣ .

ولنفس الاسباب عندما قام كير بزيارته الاخيرة لرأس الخيمة لم يعهد بمسئولية الحكم الى سلطان بن صقر وإنما أجل البت في هذا الموضوع ، وكانت التعليمات التي تلقاها من كير تنص على مرابطة قوة عسكرية في الخليج تقوم بمراقبة تحركات القواسم ، ولكن بشرط أن لا ترابط تلك القوة داخل البلد ، حتى لا يثير وجودها التوتر في الأوساط القبلية ويعطيها الانطباع بأن للحكومة البريطانية اطماعا أكثر تتعدى القضاء على القرصنة وحتى ذلك التاريخ لم يتحقق شيء في موضوع الحصول على جزيرة لإنشاء قاعدة بها ولم يبق أمام كير الا أن يترك القوة العسكرية لترابط في رأس الخيمة وتتألف من فصيلة من الجنود وسريتين من المشاة الأوربيين وبطارية مدفعية ، وعين على رأس تلك القوة الكابتن طومسون ، وفي يوم ١٦/٣/١٨٢٠ أبحر كير من منطقة الساحل للمرة الاخيرة وتوجه الى بومباي .

الفصل الخامس

البحث عن قاعدة في الخليج

والحملة على قبيلة بنى بوعلی

١٨٢٠ - ١٨٢٣

في المناقشات التي دارت في بومباي خلال عام ١٨١٩ حول مستقبل السياسة البريطانية في الخليج كان هناك اجماع تام على ضرورة الحصول على قاعدة دائمة لبريطانيا في الخليج ، وذلك للحيلولة دون ظهور نشاط جديد للقراصنة بعد انتهاء الحملة ضدهم ، وكان الرأي يتجه الى انشاء القاعدة في موقع يشرف على خليج هرمز على مسافة غير بعيدة من مناطق القرصنة ، فلو توفرت قوة عسكرية بهذا المستوى فانها بالاضافة الى عمليات الدوريات البحرية للأسطول سوف تنجح في منع القبائل البحرية من استئناف نشاطاتهم العدوانية وكان العاملون في مراكز الشركة في كل من البصرة وبوشهر قد سبق أن طالبوا أكثر من مرة بنقل تلك المراكز الى إحدى الجزر ، غير أن اقتراحاتهم لم تثبت ، ربما لأن فشل المركز الهولندي في شرك سابقا كان قد دفعهم الى ذلك ، ولعل رجال الشركة لم يروا أي فائدة من مثل تلك الخطوة بحيث توازي ما يصرف عليها من نفقات .

وقد دعا مالكولم الى احياء تلك الفكرة بين عام ١٨٠٠ ، ١٨٠١ عندما حاول ولم ينجح في اقناع الشاه بالتنازل عن جزيرتي قشم و هنجام أو تأجيرهما . وفي عام ١٨٠٨ ، وجه مالكولم اهتمامه الى جزيرة خرك ، ودعا الى الاستيلاء عليها ولو بالقوة اذا اقتضى الأمر . وبعد مضي عام على ذلك كلف قواد الحملة ضد القواسم بأن يبحثوا عن الجزر والمواقع التي تصلح أن تكون قواعد عسكرية بحيث يمكن منها مكافحة أعمال القرصنة ومراقبة النشاط الذي يقوم به الفرنسيون في كل من فارس وتركيا العربية ، وقد

اقترح هؤلاء جزيرة هنجام ، غير ان حكومة بومباى لم تكن فى وضع يسمح لها بالحصول على تلك الجزيرة ، او تملك القوة العسكرية لاقامة القاعدة المقترحة ، وفى عام ١٨١٧ اقترح هنرى ويلوك ، القائم بالأعمال فى طهران على وزير الخارجية الفايكونت كاستلريج الحصول على قاعدة فى الخليج وقال ، بأن ذلك سوف يساعد على وقف القرصنة وتدعيم النفوذ البريطانى فى فارس الذى أصبح من المحتمل أن يتقلص أمام محاولات روسيا لتوطيد أقدامها فى فارس (١) . غير أنه لم تتوفر دلائل على الأخذ بذلك الاقتراح .

عندما أصدر نابين تعليماته الى كير فى شهر اكتوبر ١٨١٩ طلب اليه ان يتحرى عما اذا كانت جزيرة قشم تصلح كقاعدة عسكرية وكان نابين يعتقد بأن قشم تخضع لسلطة السيد سعيد حاكم مسقط خضوعا كاملا ، وذلك على أساس المعلومات التى كان سادلر قد نقلها عن السيد سعيد خلال اجتماعه به فى مسقط فى شهر مايو من ذلك العام ، وكان السيد سعيد قد أبلغ سادلر فى ذلك اللقاء بأنه قد ورث ملكية جزيرة قشم عن والده سلطان ابن احمد الذى كان يسيطر عليها بحكم الاحتلال ، ولم يكن يدفع الى فارس أى زكاة عنها ، فضلا عن ذلك فإنه لم ترد فى المرسوم (الفرمان) الذى تلقاه كير من الشاه فى موضوع تأجير بندر عباس وتوابعها ما يشير الى وضع جزيرة قشم (٢) . غير أن موضوع السيادة على قشم لم يكن بالسهولة التى صورها السيد سعيد للمبعوث البريطانى ، ففى تقرير للكابتن تايلور عن موانئ القرصنة أعده فى عام ١٨١٨ ذكر بأن السيد سعيد كان يحكم

(١) فارس والخليج مجلد ٣٣ من ويلوك الى كاستلريج ، طهران

١٨١٧/٤/١٦ .

(٢) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ رقم ٢٦ - ١٨١٩/٧/٢١ .

من سادلر الى الحاكم العام مسقط فى ١٧/٥/١٨١٩ .

جزيرة قشم بطريق الالتزام من الشاه (١) كما ذكر ذلك فرانميرز و اردن في العام التالي .

وعلى اساس التصريحات التي كان قد ادلى بها قبل سنوات كل من الحاكم جوناثان دنكان والكابتن سيتون المقيم البريطانى السابق فى مسقط فانه لم يكن للسيد سعيد اى حق فى الجزيرة ، وان اى محاولة لوضع قوات عسكرية فيها دون موافقة الشاه سيعد انتهاكا لسيادة الشاه على حد اعتقاد و اردن (٢) . وعلى الرغم من ان مونستوت الفنستون كان اقرب الى آراء نين فيما يتعلق بموضوع السيادة على جزيرة قشم منه الى آراء و اردن، الا انه كان يفضل استطلاع رأى الشاه اولا قبل القيام بأى خطوة لاحتلال الجزيرة ولهذا كلف ويلوك فى التعليمات التى ارسلها اليه بتاريخ ديسمبر ١٨١٩ . بأن يتحرى الموضوع فان وجد أن الشاه قد تخلى عن مطالبه فى الجزيرة ، وبأن السيد سعيد هو صاحب السيادة الحقيقية عليها فيتعين عليه أن يقرر ما اذا كان من الضرورى الحصول على موافقة الشاه او الاكتفاء باشعاره بعزم بريطانيا على احتلال الجزيرة . ولم يمض وقت طويل على ارسال خطاب الفنستون الى ويلوك حتى عرف الفنستون من الطبيب الجراح اندرو جيوكس ، الذى زار مسقط فى شهر نوفمبر ١٨١٩ فى بداية الحملة، بأن قشم لم تكن تتبع فارس منذ أيام نادر شاه ، وأن السيد سعيد هو الذى كان يعين ولاية الجزيرة . وقد اكدت المعلومات على سيادة السيد سعيد على قشم ، وعلى هذا الاساس اصدر الفنستون فى شهر يناير ١٨٢٠ أوامره الى كير بأن ترابط القوة العسكرية التى ستتخلف فى المنطقة بعد الحملة على جزيرة قشم بصرف النظر عن ردود فعل الحكومة الفارسية حول هذا الموضوع .

(١) محادثات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٣ .

(٢) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ رقم ٣٧ - ١٨١٩/٩/٢٠ .

محضر من اعداد و اردن ١٨١٩/٨/١٢ .

عنه ويصل هذه التعليمات الى كير، كان كير قد زار قشم ووجد هافير صالحة لتكون قاعدة لان طقسها غائم باستمرار ومعرضة لتيارات الهواء ولا يوجد بها ماء صالح للشرب ، وتعتمد فى الحصول على المواد الغذائية من داخل البلاد ، كما أخبره الكابتن كولير قائد الحملة بأنه لا يوجد فى الجزيرة منطقة صالحة لرسو السفن ، وأن موقعها يقع فى الاتجاه المعاكس لهبوب الريح اكثر ايام السنة كما أن صغر مساحتها يجعل الدفاع عنها صعبا كذلك فان عدم وجود ميناء صالح يجعلها غير صالحة كمركز للتجارة وعلى العكس من ذلك كانت جزيرة قيس الواقعة الى شمال هذه الجزيرة تضم بضعة مراسى ممتازة ، وبها مياه صالحة للشرب كما تتميز بوفرة المواد الغذائية فضلا عن انها تقع على خط المواصلات الملاحي الرئيسى وقريبة من الموانىء الفارسية التى يسيطر عليها القواسم . وعلى أساس هذه الاعتبارات قرر كير أن يتجاهل أوامر الفنستون وتحذيراته السابقة من مرابطة الجنود فى المناطق الداخلية ، كما قرر أن يعين الكابتن توماس قائدا للفصيلة التى ستبقى بمنطقة رأس الخيمة ريثما تعرف نتيجة المحاولات الجارية لاقناع فارس بالتنازل عن الجزيرة المذكورة ، وقد تناول ويلوك موضوع جزيرة قشم مع وزراء الشاه فى الاسبوع الثانى من شهر مارس ١٨٢٠ أى قبل أن يعلم بما جد من تطورات . وقد أجرى محادثاته معهم على أساس خطاب الفنستون المؤرخ ١٨١٩/١٢/١٥ . الذى توخى فيه آراء كير وويلوك بالإضافة الى التعليمات الخاصة بقشم بإبلاغ حكومة فارس عن استعداد الحكومة البريطانية للتوسط مع شيوخ البحرين للحصول على اعتراف منهم بسيادة فارس على البحرين مقابل موافقة الشاه على انشاء قاعدة عسكرية بريطانية دائمة فى الخليج .

وبعد أن شرح ويلوك لوزراء الشاه رأى حكومة بومباى فى انه لا يمكن القضاء على القرصنة بصورة نهائية الا بوجود موقع تدار منه العمليات الخاصة بهذه المهمة ، كما إبلغهم بأن النية كانت تتجه الى مرابطة قوة عسكرية

- ٢٨١ -

بفي جزيرة قشم بعد انتهاء جيلة كير ، أما اذا ظهر أن قشم التي تعتبر في
جوزة سلطان مسقط لا تصلح كقاعدة فانه مفوض بأن يطلب من حكومة فارس
التنازل عن منطقة اخرى او تأجيرها بشرط أن تكون صالحة لهذا الغرض
وأن وجود مثل هذه القاعدة كما قال ويلوك لن يساهم في تأكيد سلطة حكومة
فارس على موانئها فحسب وانما سينفتح الطريق الى أن تصبح الجزر
المستقلة الآن عن فارس خاضعة لسلطة الحكومة الفارسية ، سواء بالترغيب
او التهيب (١) .

وكان رد الحاج حسين الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) على طلب
ويلوك بأن اقامة قاعدة عسكرية بريطانية بالقرب من سواحل فارس أمر لن
يوافق عليه الشاه ، كما اضاف بأن الشاه في الوقت الذي يقدر كل التقدير
المكاسب التي سوف تعود عليه من تحالفه مع البريطانيين الا أنه لا يرغب
أن يحدث ما يعكر صفو هذه العلاقات ، وقد سبق للشاه أن تلقى طلبا
للتنازل عن إحدى الجزر ، ولكنه رفض ذلك ، كما ذكر رئيس الوزراء ،
بأن الدول التي تفصل بين حدود بعضها البعض مسافات شاسعة هي أكثر
نفعاً من الدول المتاخمة لبعضها البعض وأضاف الصدر الأعظم بأن أمام
مسقط يحتل قشم بموافقة حكومة فارس وذلك على غرار اشرافه على
شئون بندر عباس .

وقد رد ويلوك على هذه الحجة فأشار الى المكاسب التي قد تترتب من
التحالف البريطاني الفارسي ، وعلى الأخص في ميدان التبادل التجاري بين
فارس والهند والذي لا يمكن أن يزدهر مالم يتحقق الأمن والاستقرار في
الخليج ، والذي لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق الوجود البريطاني العسكري
في المنطقة . ولو كان في نية الحكومة البريطانية شن هجوم على أي جزء

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من ويلوك الى كير ١٨٢٠/٣/١٠ ومرفق

بخطاب ويلوك الى اللجنة السرية ١٨٢٠/٣/١٧ .

من ايراضى فارس فقد كان فى استطاعتها شن مثل هذا الهجوم بسهولة من القاعدة البريطانية فى رأس الخيمة بدلا من بعض الجزر البعيدة عن الساحل الفارسى ، وأضلاف ويلوك بلهجة تحذيرية ، بأنه فى حالة استمرار الشاه فى رفضه لاقامة قاعدة بريطانية ، فإن من المحتمل أن يخسر الشاه حق السيادة على كافة الجزر الواقعة فى الخليج ، كما أنه لو حدث أن تعرضت البحرين لغزو ما ، ولم ينجح الغزو ورفضت الوساطة البريطانية فلن يكون فى وضع يسمح له بأن يؤكد بأن الحكومة البريطانية لن تتوسط فى موضوع احتلال البحرين (١) . غير أن كل تلك الحجج لم ينجح فى تبديد مخاوف الشاه ووزرائه . وجاء فى تقرير ويلوك أن اعتزاز الفرس ببلدهم قد جعلهم يعتبرونها أحسن بلاد العالم قاطبة ، وأن بلادهم قد أصبحت هدفا للأطماع ومحطا لانظار جميع الدول المجاورة .

لم يرد أى ذكر لموضوع القاعدة مرة أخرى من جانب الشاه لمدة شهرين ، ويعود السبب فى ذلك حسب معلومات ويلوك الى تعقد الشاه من هذا الموضوع غير أنه فى يوم ٥ مايو أبلغ الصدر الأعظم ويلوك ، بأن الشاه لا يزال متمسكا بموقفه فى عدم التنازل عن أى جزيرة للحكومة البريطانية وأن هذا يشمل أيضا جزيرة قشم التى كان السيد سعيد يهيمن عليها باعتبارها منطقة تابعة لبندر عباس ، وأضاف الصدر الأعظم فى حديثه بأنه لن يسمح للطرادات البريطانية بتفتيش الموانئ الفارسية وسفنها أو لتعقب نشاط القراصنة كما يحدث فى الموانئ الواقعة على ساحل القرصنة ، وقد كلف الشاه أمير شيراز بأعداد القوانين الملاحية لتطبيقها على الموانئ والسفن الفارسية ، التى سيتعين عليها اعتبارا من ذلك التاريخ بأن ترفع أعلامها المميزة ، وبعث ويلوك بهذه المعلومات الى السلطات المسئولة فى بومباى دون التعليق عليها غير أن القنستون لم يحملها محمل الجد . فقد كان يشك فى

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من ويلوك الى كير ١٨٢٠/٣/١٠ . ومرفق

لخطاب ويلوك الى اللجنة السرية ١٨٢٠/٣/١٧ .

ما اذا كان أمير شيراز سوف يصدر بالفعل تلك الانظمة والاعلام المميزة ، وكان يعتقد بأن الشاه سوف يقتنع فى النهاية بالفوائد التى سيجنيها من الوجود العسكرى البريطانى فى جزيرة قشم ، وعلى الرغم من ان الفنستون قد سبق ان طلب من ويلوك فى بداية ابريل ، اى بعد ان تلقى تقرير كبير عن جزيرة قيس الاتصال بالشاه والحصول على موافقته على احتلال جزيرة قيس بدلا من جزيرة قشم الا أنه قد اتضح الآن من خلال تقرير ويلوك الموقف العدائى لطهران ، بأن يصرف النظر عن اى شىء وعلى هذا الأساس فعندما كتب ويلوك فى يوليو يقول انه بالنظر الى الملابس التى تحيط بالعلاقات الفارسية البريطانية فى الوقت الحاضر ، فليس من الصواب ان نطلب من الشاه التنازل عن جزيرة قيس ، وبالتالي اقترح بعدم اثاره موضوع القاعدة كليا ، وكل ما كان عليه ان ينقل للحكومة فى بومباى أى مطلب يتقدم بها الشاه بالنسبة لجزيرة قشم ، وقد تم نقل الوحدة العسكرية التى عينها كبير فى رأس الخيمة الى جزيرة قشم فى شهر يوليو ، خصوصا وان كبير قد أكد على وجوب نقل القوة بأسرع ما يمكن لأن المناخ فى رأس الخيمة لم يكن صحيا ، وكانت البلدة تعاني من نقص فى مياه الشرب ، وذكر انه كلما طال بقاء القوة هناك كلما كان تورطنا فى نزاعات مع اصحاب البلاد اكثر احتمالا ، وفى منتصف ابريل وصلت تعليمات من بومباى الى الكابتن طومسون قائد الفصيلة بنقل القوة الى جزيرة قشم بمجرد موافقة السيد سعيد موافقة رسمية على مرابطة القوة فى الجزيرة ، وقد كلف قائد الفصيلة بأن يدمر كل التحصينات فى رأس الخيمة عند اخلائه المنطقة وان يحرق أو يسلم الى سلطان مسقط جميع السفن التى تم الاستيلاء عليها من القراصنة ولم تعد فى حاجة اليها ، وبأن يسلم مهام الحكم فى رأس الخيمة الى سلطان بن صقر أو اى شخص آخر يراه صالحا لذلك المنصب (١) .

(١) محادثات بومباى العربية مجلد ٤٦ رقم ١٢ فى ١٩/٤/١٨٢٠ من

واردن الى طومسون ١٧/٤/١٨٢٠ .

بدأ طومسون عملية إجلاء القوات فى أوائل يوليو ، وقبل ان ينتهى من هذه العملية بدأت محاولة للحصول من سلطان بن صقر على تعهد يلتزم فيه بالشروط التى تحدد حجم وتسليح سفن القواسم وغيرها من الاجراءات الخاصة بتفتيش الموانى ، كما وردت فى التعليمات الاصلية الصادرة من الفنستون ، فى مقابل تسليم الحكم الى سلطان بن صقر ، غير أن سلطان طالب بالمقابل بالابقاء على التحصينات فى رأس الخيمة كما هى. وبالرغم من أن طومسون كان يعلم تمام العلم ، انه بمجرد أن تفادر القوة العسكرية سيجد القواسم انفسهم احرارا مرة أخرى فى إعادة بناء تحصيناتهم بالطريقة التى تلائمهم ، الا أن التعليمات التى لديه كانت صريحة ، ولذلك قام بتدمير جميع التحصينات قبل إبحاره الى جزيرة قشم يوم ١٨٢٠/٧/١٨ ، ولكنه ما كاد ينزل فى منطقة ديرستان على الناحية الجنوبية من جزيرة قشم المواجهة لجزيرة هنجام ، حتى صدر الأمر اليه بالتوجه للتحقيق فى حوادث القرصنة التى كانت قد وقعت فى أوائل شهر مايو بالقرب من سواحل عمان الجنوبية ، وكان ذلك أول حادث يقع بعد الحملة ، وكاد أن يؤدى الى سلسلة من الحوادث تجعل من موضوع الاحتفاظ بقوة عسكرية فى الخليج اهم الموضوعات .

وقد ذكر الكابتن بروس المقيم البريطانى فى بوشهر عند وصوله الى بومباى فى اجازة خلال الاسبوع الاول من يونيو ، بأنه قد علم عند توقفه فى مسقط فى شهر مايو بأن بعض أفراد قبيلة بنى بوعلى قد هاجموا احدى سفن كراتشى وقتلوا معظم بحارتها ، وقد وقع الحادث فى بداية الشهر ، وذكر بروس بأن بنى بوعلى هى احدى القبائل العمانية التى تقطن مقاطعة جعلان ويبلغ عددها ٤٠٠٠ شخص ، وهى تقيم فى الغالب فى منطقة الأشخرة على الساحل ، وفى بلاد بنى بوعلى بنداخية عمان حيث تملك بعض مزارع النخيل وخلال الفزو الوهابى للمنطقة اعتنق أفراد هذه القبيلة المذهب الوهابى ، كما انهم فى عام ١٨١٨ ثاروا على السلطان السيد سعيد ، ومنذ

ذلك الوقت اخذوا يمارسون القرصنة ، فهاجموا سفينة تابعة لكراثشى وسفينتين (١) وعند وصول هذا التقرير الى الفنستون اصدر تعليماته الى طومسون باجراء تحقيق فى ذلك الحادث ، فان صحت المعلومات التى وردت فى تقرير بروس فيتعين عليه ان يوجه خطابا الى شيوخ قبيلة بنى على يشرح لهم فيه السياسة البريطانية المعلنة بالنسبة لأعمال القرصنة ، وينصحهم بالكف عن هذه الأعمال ، وفى شهر اغسطس وجه طومسون خطابا بهذا المعنى الى مشايخ بنى بوعلى حمله الطراد كرلو ، وقد توقف الطراد وهو فى طريقه الى الأشخرة فى مسقط حيث أخذ معه شيخ رأس الحد ليتولى عملية ارشاد الطراد على المنطقة . وفى يوم ٢٠ سبتمبر وصل الطراد الى الأشخرة ، ولما كان البحر هائجا فى ذلك اليوم فقد استحال على الزورق الوصول الى الشاطئ ، وهنا تطوع شيخ رأس الحد بأن يذهب الى الشاطئ سباحة حاملا رسالة طومسون ، وبمجرد أن وطأت قدمه الشاطئ فوجيء بمجموعة من قبيلة بنى بوعلى تهاجمه بالسكاكين والرماح فتصرعه ، ولم يتمكن بحارة الطراد من انقاذ حياته ، على الرغم من انهم اطلقوا النار على المهاجمين وقتلوا ثلاثة منهم .

لم يعلم طومسون بالحادث قبل نهاية سبتمبر ، وقد تأكد له انه لا بد من القيام باجراءات انتقامية فورية ، فقرر أن ينقل جزءا من القوات المربطة فى ديرستان على الطراد كرلو ، الذى كان وقتها فى مكان ما من الخليج ، وطرادين من البحرية وأقلع بهم الى مسقط يوم أول اكتوبر . وقد كان السيد سعيد أبلغ مساعد طومسون انه ينوى أن يعيد تثبيت سلطته على قبائل بنى بوعلى وانه كان يزمع الخروج اليهم فى نهاية سبتمبر ، وهو الوقت الذى يتجمعون فيه لجنى المحصول . وذكر السيد سعيد انه لما كان طومسون قد قرر اتخاذ اجراء ضد بنى بوعلى جزاء اعتدائهم على سفينة كراثشى ، فانه

(١) فارس والخليج مجلد ٣٢ من بروس الى وarden ١٨٢٠/٧/٣ .

- ٢٨٦ -

يقترح التنسيق بين الجانبين . . وامتقادا من طومسون بأن التعليمات التي وصلتته من حكومة بومباي تخوله اتخاذ مثل تلك الخطوة ، وقد تم الاتفاق على ان تتحرك قوات السيد سعيد برا الى جعلان ، وان يتحرك طومسون باسطوله عن طريق البحر وأن تتقابل القوتان فى صور .

وقد وافق الفنستون على الخطة بعد الاطلاع عليها واشترط أن يلتزم طومسون بعدم التعرض اطلاقا للمناطق الداخلية من البلاد . غير أن هذه الأوامر التي ارسلت فى أواخر اكتوبر لم تصل فى وقتها ، وقد التقت قوات طومسون بقوات سلطان مسقط فى صور يوم ٢٦ اكتوبر وفى أول نوفمبر بدأت الحملة المشتركة زحفها الى المنطقة الداخلية وكنت القوات العمانية تتألف من ألف مقاتل و ٦٠٠ من راكبي الجمال . أما القوات البريطانية فكانت تتألف من ٦ سرايات من الجند من الفصيلتين الأولى والثانية ، ومن الفرقة الثانية ، ومن مشاة بومباي ، ومن الفصيلة الأولى والفرقة الحادية عشرة وبطارية مدفعية مكونة من ٦ مدافع وسرية استطلاع . وفى يوم ٨ نوفمبر وصل الجيش الى بلاد بنى بو حسن وهى قرية تبعد نحو ثلاثة أميال من بلد بنى بوعلى . وكانت القبيلة فى هذه القرية من القبائل الموالية للسيد سعيد . وقد وصلت معلومات مفادها أن بنى بوعلى قد ركزوا قواتهم المقاتلة والبالغ عددها ٩٠٠ رجل فى بلدتهم ، وداخل مزارعهم وأنهم احرقوا بلدة الأشخرة وأخلوها بعد أن علموا بوصول القوات البريطانية العمانية المشتركة .

وفى يوم ٨ نوفمبر بعث السيد سعيد الى مشايخ بنى بو على يطلب منهم تسليم قتلة شيخ رأس الحد ، وإخلاء حصونهم وتسليم أسلحتهم فأجابوا بأنهم مستعدون لتنفيذ المطلبين الاولين ، فيما عدا المطلب الثالث الخاص بتسليم سلاحهم . ولما كان طومسون لم يحضر الى المنطقة لمساومة بنى بوعلى فقد قرر مهاجمتهم ، وفى صباح يوم ٩ نوفمبر زحفت القوات المشتركة على بلاد بنى بوعلى مع القوات القبلية التى كان يزيد عدد أفرادها على ٢٠٠٠ رجل ، وكانت هذه القوات فى المقدمة بينما كان التجنود الهنود

وبعددهم نحو ٣٨٠ رجل في المؤخرة ، وكانت خطة طومسون تقوم على محاصرة البلدة ، وتدمير حصونها بالمدفعية ثم الزحف لاحتلالها بعد ذلك ، وبينما كان الفيلق لا يزال يواصل تحركه نحو هدفه قام رجال بنى بو على الذين اتخذوا مواقع الدفاع على ربوة خازج البلدة حيث أخذوا يطلقون النيران ، وقد أمر طومسون الوحدة الهندية التي كانت نيران بنى بو على مواجهة اليهم بأن يزحفوا ، ولكنهم رفضوا ، ثم أمرهم بالبذء فى اطلاق النار الا انه لم تنطلق الا طلقات متقطعة قليلة من بنادقهم . وفى تلك اللحظة كان السيد سعيد قد نقل بعض رجاله الى خطوط العساكر الهنود لدعم موقفهم . وعندما وصل رجال بنى بو على الى نقطة لا تبعد بأكثر من عشرين ياردة من قوات طومسون عاد طومسون فأصدر أوامره الى جنوده بالزحف ، وبدلا من اطاعة الجنود لأوامر طومسون تفرقوا ، ولأدوا بالفرار شاقين طريقهم الى وسط قوات السيد سعيد التي كانت ترابط خلفهم ، وعندما شاهد رجال المدفعية الذين كانوا يرابطون على الجانبين الايمن واليسر من المعسكر هذا المشهد لأدوا هم ايضا بالفرار ، تاركين مدافعهم وراءهم ، وقد حاول طومسون اعادة الجنود الى مواقعهم ، ولكنهم كانوا قد احتلظوا بقوات السيد سعيد ، وعندئذ قامت البقية من رجال بنى بو على الذين كانوا على الربوة تشن هجوما على هذا الجيش وهكذا اضطرب الوضع ، واضطر كل من الجنود العمانيين والهنود الى الفرار فى ذعر . . . وعندما رأى رجال بنى بو على الذين لم يستخدموا سلاحهم حتى ذلك الوقت الحال الذى عليه الجيش ، أخذوا يطلقون النار على جموع الجيش المتقهقر ويطعنونهم بالسيوف والخنجر .

وقد اصيب السيد سعيد بطعنة سيف عندما كان يحاول انقاذ أحد الضباط البريطانيين ، وكاد يفقد حياته هو الآخر ، لولا وجود بطل المطيري القائد الوهابى السابق للبريمى وغيره من حرس السلطان الوهابيين الذين حموه وفتحوا له طريقا للنجاة عبر صفوف بنى بو على . ولقد حاول

- ٢٨٨ -

طومسون تعطية الانسحاب عن طريق احضار وحدات الحرس المكلفة بحراسة معسكر بلاد بنى بو حسن ، ولكن بالرغم من انه استطاع صد هجوم بنى بو على بعض الوقت ، الا انهم التفتوا حول قواته واضطر الى التراجع الى بلاد بنى بو حسن . وعلى امتداد السهل الذى يفصل المنطقتين كانت جثث القتلى من الجنود العمانيين وثمانية من الضباط البريطانيين ونحو ٤٠٠ عسكرى ملقاة على الأرض (١) .

فى ليل ذلك اليوم قام افراد بنى بو على بالهجوم على المعسكر فى بلاد بنى بو حسن . ولكنهم صدوا على اعتابهم . وفى صباح اليوم الثانى اكتشفه طومسون بأن اثنين من ضباطه، ومن بقى من طاقم المدفعية قد تسلموا من معسكرهم الى صور تحت جناح الظلام - كذلك أخذ رجال السيد سعيد يغادرون المعسكر غير عابئين بوجود السيد سعيد . وأصبح الانسحاب هو الحل الوحيد لمانتهم ، وبعد ان قام طومسون بتستجير المدافع (أى بسد فتحاتها لتعطيل مفعولها) والقاء مخزونه من البارود فى احدى الآبار واتلاف المؤن ، غادر مع السيد سعيد المعسكر الى مسقط ، متغاديا المرور بمدينة صور ، خوفا من أن يكون افراد قبيلة بنى بو على قد سدوا مداخلها .

وبمجرد وصولهما الى مسقط يوم ١٧/١١/١٧٢٠ وجه طومسون نداء الى قائد اقرب وحدات الجيش فى السندوكتش يطلب امداده ببعض الجنود والمدافع بأقصى سرعة ممكنة ، كما أكد طومسون للسيد سعيد بأن امكانيات الحكومة البريطانية ستكون فى كل مكان تحت تصرفه اذا ما أراد ، ومن مسقط توجه طومسون الى جزيرة قشم لاعداد بقية القوات البريطانية المرابطة هناك للقيام بحملة اخرى على قبائل بنى بو على .

(١) فارس والخليج مجلد ٣٢ من طومسون الى قائد القوات البريطانية فى السندوكتش ١٦/١١/١٨٢٠ . ومن خطاب طومسون الى وarden ١٨٢٠/١١/١٨ .

ومن الغريب حقا ان يتجاهل طومسون انه كان الشخص المسئول عن الكارثة التى لحقت بالحملة على بنى بوعلى ، وعلى الرغم من ان تحذيرات الفنستون لطومسون بعدم التوغل الى داخلية البلاد قد صدرت بعد خروج الحملة ، الا ان طومسون كان ملما بها كما ان كير قد سبق ان نبه اليها فى العام السابق عندما عينه قائدا للوحدة المرابطة فى رأس الخيمة . وحتى اذا افترضنا جدلا بأن الظروف التى احاطت بالحملة كانت تبرر له خرق تلك التعليمات ، وعلى الأخص الفقرة التى تنص على انه لا يمكن التعلب على بنى بوعلى الا بمقتلتهم داخل اراضيهم - فقد كان يتعين عليه حصر العمليات ضمن اهدافها المشروعة - اى الحصول على التعويض عن مقتل شيخ رأس الحد وسفينة كراتشى ، ومن هنا فان موضوع تأكيد سلطة السيد سعيد على قبائل بنى بوعلى او عدم تأكيدها موضوع خارج عن اختصاص طومسون ، كما ان اشراك طومسون للسيد سعيد فى الحملة اجراء لم يكن توافق عليه السلطات الحاكمة فى بومباى ، مهما كانت الرغبة قوية فى وضع حد لتلك الأعمال ... ومع ذلك فان التقاء طومسون مع رغبة السيد سعيد فى ان يكون القائد للحملة وتجنب إعطاء انطباع عن وجود قوتين وقيادتين اثما يترك انطباعا من ان الهدف من الحملة هو تأكيد سلطة السيد سعيد على قبائل بنى بوعلى . ومما زاد هذا الانطباع تأكيدا ، هو رفض طومسون طلبا للسيد سعيد بتوجيه طلب مشترك الى قبيلة بنى بوعلى لتسليم الحصون والأسلحة وقتلة شيخ رأس الحد . وعلى حين اننا لا يمكن ان نلوم السيد سعيد على محاولته الظهور امام خصومه بمظهر من له حلفاء اقوياء ، فان رفض طومسون الاشتراك فى اصدار البيان مهما بدا ذلك سليما من الناحية النظرية ، بحكم ان قبائل بنى بوعلى هم رعايا السيد سعيد فان ذلك قد قلل الى حد كبير من مبررات الحملة ، بل انحدر بطومسون وبجنوده الى مستوى المرتزقة ، كما ان اية مبررات اخرى لاجراءاته قد تبددت برفضه الرد

- ٢٩٠ -

المعقول الذى تلقاه من شيوخ بنى بوعلى لتسليم تحصيناتهم وقتلة شيخ
رأس الحد دون تسليم أسلحتهم . وإن قوله بأنه لم يكن يريد أن يظهر
بمظهر القائد المتهافت على التفاهم حجة مرفوضة .

لقد كان طومسون يعزف أنه يتعامل مع وهابيين مهووسين كما كان
فى استطاعته لو أنه فكر قليلا ، أن يدرك بأن الحاح قبائل بنى بوعلى
لاحتفاظهم بأسلحتهم إنما كان بدافع الخوف ، وهو نفس ما حدث فى
شناص قبل بضع سنوات عندما قاتل الوهابيون قتالا مستميتا ضد القوات
العمانية البريطانية المشتركة كما أنهم كانوا يتوقعون لو أنهم سلموا أسلحتهم
أن يبادوا من بكرة أبيهم ، وكان فى إمكان طومسون أن يتجنب الكارثة لو
أنه تصرف كما تصرف ليونيل سميث فى عام ١٨١٠ فاعطاهم الضمان على
أرواحهم غير أنه لا يبدو أن هذا الاحتمال قد خطر على طومسون ، والواقع
أن طومسون على ما يبدو ، قد أساء التصرف فى قراره بالهجوم على قبائل
بنى بوعلى لأن طومسون كان قائدا ذكيا وعنيذا ولكنه كان مجبا للمغامرة
وكان رجلا يعتقد بأن له رسالة فى الحياة وقد تلقى طومسون دراسته فى
جامعة كامبردج ، وكان ترتيبه السابع فى الرياضيات ، وبعد تخرجه التحق
بالأسطول الملكى عام ١٨٠٩ ، وكان اذ ذاك فى التاسعة عشرة من عمره برتبة
ضابط صف ، ولكن حياة الأسطول لم ترق له فتحول عنها الى الجيش
الذى عين فيه ملازم اول فى فيلق الرماة ، وقد اشترك فى الحملة على بوينس
أيرس عام ١٨٠٦ ووقع هناك فى الأسر . وعند بلوغه الخامسة والعشرين من
العمر عين حاكما على سيراليون ، ولكن لم يمض عامان على وجوده فى هذا
المنصب حتى ثار فيه الحماس لقضية تحزير الزواج مما أدى الى اصطدامه
بالمستوطنين البيض هناك فاستدعى من هناك ، وبعد عودته الى الجيش
اشترك فى القتال الذى نشب فى الجنوب الفرنسى عام ١٨١٤ ، ثم بعد ذلك
رافق فرقته السابعة عشرة الى بومباي .

ولما كان طومسون يجيد اللغة العربية التي تعلمها خلال الفترة التي التي اعتبرت عودته فقد عين مترجما للجنرال كير في سنة ١٨١٩ بدلا من الكاتب سادلر ، والى طومسون يرجع الفضل في إضافة المادة التاسعة الى معاهدة الصلح العامة التي تنص على أن الاتجار في الرقيق يعتبر عملا من أعمال القرصنة . كان طومسون يومئذ يمتلىء بالحيوية والشجاعة والعزم ، وهي الصفات التي كان يمازجها قدر من الغرور والزهو . وكان قد تعود على تحمل المسؤولية ووجد في تعيينه كمعتمد بريطاني في المنطقة السفلى من الخليج فرصة لاستغلال مواهبه وكان يثق بنفسه ثقة عمياء ويؤمن بالمثل الانسانية . وإذا أخذنا هذه الجوانب من شخصيته في الاعتبار فأننا نجد صعوبة في فهم الدوافع التي أملت عليه بأن يتغير من موقفه الذي كان يهدف الى الحصول على تعويض من قبائل بني بوعلی عن الأعمال الاجرامية التي اقترفوها والى القيام بأعمال انتقامية ضدهم واخضاعهم لسلطة حاكم مسقط كخطوة لأدخالهم الى الحضارة .

وأيا كانت الاسباب التي دعت طومسون الى اتخاذ تلك الاجراءات فانه مما لا شك فيه أن هزيمته النكراء قد قضت على الهيبة التي اكتسبتها العسكرية البريطانية من خلال الحملة الأخيرة على القواسم ، وكان من الطبيعي أن لا تسمح الحكومة البريطانية بالهزيمة التي لحقتها على يد بني بوعلی بأن تستمر ، ولذلك بادرت بعد أيام من وصول أخبار الهزيمة الى جميع قوة عسكرية أخرى في بومباي لمقاتلة قبائل بني بوعلی ، وقد عقد لواء هذه القوة الى اللفتنانت كولونيل إن. بي واردين من الفرقة الخامسة والستين . وقد أبحر من بومباي في منتصف ديسمبر قبل أن تتحرك قوته ، وكلف بالاتصال بالسيد سعيد لمعرفة ما اذا كان في استطاعته الاشتراك في هجوم آخر على قبائل بني بوعلی ، فان وافق فقد كان ينبغي على وارن أن يطلب منه الخروج الى جعلان بأسرع ما يمكن وأن يربط على خطوط

— ٢٩٢ —

الدفاعات الواقعة بين الساحل وبلاد بنى بو حسن ، أما فيما يختص بالتوغل فى داخلية المنطقة ، فقد طلب الى وارن أن يربط فى صور ، وان لا يسمح بحال أن تختلط قواته بقوات سعيد فى ميدان المعركة ، اما طومسون فقد صدرت الأوامر اليه بأن يضع نفسه تحت تصرف وارن ، واما بالنسبة لجنود طومسون التابعين للفصيلة الأولى والفرقة الثانية فكان لابد من رد الاعتبار اليهم (١) .

وصل وارن الى مسقط يوم ١٨٢٠/١٢/٢٨ وكان السيد سعيد قد شفى من جروحه وكان متلهفا للعودة الى القتال ضد قبائل بنى بوعلى مرة اخرى كما انه لم تقع أى مضاعفات عن هزيمة طومسون كما كانت تخشى حكومة بومباى ، فلم تتمرد أى قبيلة أخرى على سلطة السيد سعيد ، كما ان بنى بوعلى أنفسهم لم يحاولوا استغلال الانتصار الذى تم لهم ضد القوات المشتركة .

وفى الوقت الذى كانت حكومة بومباى تقوم باستعداداتها للحملة وتعكف على دراسة تقرير طومسون الذى استنتجت منه انه لابد من مضاعفة قوات الحملة لتفادى هزيمة مشينة أخرى ، ولهذا زيد عدد الجنود الى أكثر من ٣٠٠٠ نفر ، واسندت قيادته الى الكولونيل سميث الذى رقى الى رتبة لواء ليحل محل وارن ، وأبلغ بهذا التغيير فى شهر يناير ١٨٢١ وأمر بالتوجه بقواته التى كانت متجمعة فى جزيرة قشم لمقابلة سميث والاشرف على الامدادات التى أرسلت الى صور من بومباى . وقد وصل عدد رجال الحملة الى ٦٢٦٣ جنديا اوربيا و ١٦٨٦ جنديا (سيوى) هنديا ، وكانت القوات تتألف من الفرقة السابعة وجناح الفصيلة الأولى ومن الفرقة الثالثة

(١) مقارن والخليج مجلد ٣٢ من واردين الى وارن ١٨٢٠/١٢/٢٢ .
والى طومسون ايضا بنفس التاريخ .

والفصيلة الاولى والفرقة الرابعة ومن الفصيلة الثانية والفرقة التاسعة ومجموعة من فصائل المدفعية والخيالة والمهندسين وفصائل الاستطلاع.

غادرت الحملة ميناء بومباي بقيادة الجنرال سميث يوم ١٠/١١/١٨٢١ وبعد ثمانية عشر يوما من خروجها التقت بقوات وارن فى صور ، وكان من اهداف الحملة كما اوضحها سميث هو اعتقال قتلة شيخ راس الحد واعدامهم ، وتسليم سلطة المنطقة الحرة الى السيد سعيد ، واطلاق سراح الاسرى وتسليم الأسلحة التى وقعت خلال الحملة السابقة فى يد قبائل بنى بوعلى ، واخيرا استكتاب القبائل تعهدا بالكف عن مزاولة القرصنة ، فاذا تبين لسميث ان السيد سعيد لا يستطيع فرض سلطته بشكل فعال على القبائل يتعين على سميث أن يطلب من شيوخ بنى بوعلى التوقيع على تعهد بالامتناع عن بناء سفن مسلحة فى موانئهم بالإضافة الى فرض قيود اخرى على حجم تلك السفن واعطاء الحق للأسطول البريطانى بتفتيش تلك السفن ومصادرتها اذا لزم الأمر ، فاذا نجح سميث فى عقد لهذه الاتفاقية فينبغى ان تشمل نصوص اتفاقية الصلح العامة المعقودة عام ١٨٢٠، الا فيما يتعلق بالاحتفاظ بالسجلات واذون السفر ، فاذا وافق شيوخ بنى بوعلى على هذه الشروط فعلى سميث ان يبلغهم بأن الهجوم الذى شنه طومسون على جعلان كان اجراء مخالفا لسياسة الحكومة البريطانية التى لم تخوله بذلك ، كما طلب اليه بأن يبلغ السيد سعيد ايضا ، بأن يتعهد طومسون له بوضع امكانيات الحكومة البريطانية تحت تصرفه ثم يغير موافقة حكومة بومباي ، وان الالتزامات التى تضمنها ذلك التعهد كانت تتعارض مع السياسة البريطانية فى الخليج . وكان الفنستون مهتما بصفة خاصة بمعرفة الأسباب التى دعت طومسون الى التعاون مع السيد سعيد ولذلك طلب الى سميث ، بأن يتأكد ما اذا كان قد تم بناء على طلب من السيد

سعيد ، أو أنه كان بمبادرة من طومسون لدعم موقف السيد سعيد ضد القبائل (١) .

بعد يومين من وصول سميث الى صور ، وصل اليها السيد سعيد بمجموعة محدودة من القبائل ، وعند وصوله علم من السيد سعيد بأن القوات الرئيسية من القبائل سوف تصل خلال ١٠ او ١٢ يوما . وقد شعر سميث أنه بالنظر الى مشاكل النقل والتموين فإنه سيكون من الصعب عليه تطبيق التعليمات التي صدرت اليه من وارن بعدم دمج قوات السيد سعيد ، وبالتالي فقد قرر الانتظار حتى تصل بقية قوات السيد سعيد قبل زحفه على داخلية البلاد (٢) . وفي ليلة ١٠ فبراير ١٨٢١ ، شن رجال بنى بوعلى هجوما مفاجئا على المعسكر البريطانى بعد أن التفوا على التلال المحيطة بالمعسكر عن طريق ملتو ، لكى يتفادوا رجال الحراسة وقد انقبض ٤٠٠ من هؤلاء على مؤخرة فرقة بومباى الاوربية وقتلوا عددا منهم قبل استيقاظ افراد المعسكر وتبع ذلك التحام رهيب بين الطرفين حيث كان يجرى القتال وسط الظلام الدامس وصيحات رجال الجيش المذمورين وصهيل الخيل التي هبت مذبذورة من الحادث ولم يخل الحادث من لحظات المرح ، كما ذكر فيما بعد أحد افراد فرقة بومباى الذى قال « كان هناك عدد من الضباط التابعين لسلخ النقل وكانوا يقضون بضعة أيام على الشاطئ مع بعض أصدقائهم من افراد الجيش ، وقد شوهدوا يندفعون وهم عراة الاجسام من مخيماتهم فى اتجاه المعسكر . وكان بينهم جندى شاب حديث الالتحاق بالجيش ، كان يجرى للنجاة بحياته وكان يلاحقه عربى قوى البنية

(١) محادثات حكومة بومباى السرية رقم ٢٠ مجلد ٤٩ ، ١٠/١/١٨٢١ - من واردين الى سميث بنفس التاريخ .
(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من سميث الى واردين ١٨٢١/٢/١ .

يوجه اليه طعنات من رمح الخاد (١) ، غير أن القوات تمكنت في النهاية من ارغام قبيلة بنى بوعلى على الانسحاب مخلفين وراءهم اثني عشر قتيلًا بينما قتل من الجانب البريطانى ضابط و ١٦ جنديًا وجرح ثلاثة ضباط وأربعون جنديًا (٢) .

اما قوات السلطان فقد وصلت فى الأسبوع الأخير من فبراير ، وفى يوم ١٤ منه بدأت القوات المشتركة تقدمها الى داخلية المنطقة يوم ٢ مارس ، فوصلت الى مشارف بلاد بنى بوعلى . وفى المساء شن سميث هجومه على البلدة ونشبت قتال دموى حاد ، خصوصاً على الجناح الايمن للقوات البريطانية ، حيث ركز رجال بنى بوعلى هجومهم ، شاقين طريقهم وسط الفرقة الخامسة والستين والفصيلة الاولى ثم الفرقة السابعة حتى آخر القوات . وكانت حدة القتال فى هذا القطاع فى منتهى الشدة ، حيث استردت الفرق التى قاتلت فى الحملة السابقة مكائنها وهيبتها بجدارة اذهلت أحد الضباط الذى شهد بنفسه البسالة التى ابدائها مقاتلونا فى تلك المعركة .

وقد كتب فى ذلك يقول ،

« كانت المذبحة رهيبة على الجانبين : وان قوات العدو التى كانت فى المؤخرة اضطرت الى شق طريقها وسط لوائنا فى محاولة لاستعادة مزارعها ، وكل الذين شاهدوا ذلك الهجوم الفريد ، قالوا بأنهم لم يشهدوا

(١) رحلة شتوية عبر روسيا وجبال القوقاز وجورجيا مجلد ٢ طبعة لندن ١٨٣٩ جزء ٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٥ تأليف الكابتن آرمجنان .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من سميث الى الادجوتانت جنرال للجيش ١٨٢١/٢/١١ . علم سميث فيما بعد ان بنى بوعلى قد اصيب منهم ٢٠ رجلاً بجروح بما فيهم شيخ القبيلة نفسه .

في حياتهم جيشا قاتل بتلك البسالة التي لا نظير لها ، ولم نستطع إيقاف تقدمهم رغم قصصنا المتكرر لواقعهم والذي كان يسببهم باعداد غفيرة متحدين الجراب المصوبة اليهم (١) . وهكذا ابدوا صمودا في القتال وكانوا ينقضون على سياراتنا وينتزعون بنادقنا من ايدينا في محاولة لشق صفوفنا وابداننا حتى بعد أن كانت حرائبنا قد انغrust في اجسادهم » .

قبل حلول الظلام سقط اكثر من ٢٠٠ قتيل من رجال بنى بوعلی وجرح نحو ٣٠٠ شخص ، كانت جراح ٩٦ منهم خطيرة . كما سقطت بلاد بنى بوعلی بعد التهديد بقصفها ، كما استسلم لقواتنا ٢٣٦ مقاتلا مع عائلاتهم . وكانت خسائر البريطانيين في القتال هي ٢٨ قتيل و ١٦٩ بالاضافة الى خمسة ضباط جرحى (٢) .

وان المشكلة التي واجهت سميت في أعقاب القتال هي كيفية التصرف بالأسرى وعائلاتهم ، وقد رفض السيد سعيد الذي لم يغادر بلاد بنى بوحسن طوال القتال ، ان يتولى أمرهم وطلب الي سميت بأن ينقل غير المصابين الى بومباي ، وبعد أخذ ورد ، وافق سميت على نقل ١٥٠ معه الى بومباي بما فيهم زعيما القبيلة اللذان اصيبا بجراح خطيرة ، بالاضافة الى خمسين صبيا يزيد عمرهم على عشر سنوات ، اما من بقي من النساء والرضع وكبار السن فقد قدمت لهم الاسعافات في بلاد بنى بوحسن ، اما بقية الأسرى وعددهم ١٨٢ رجلا بينهم ٦٣ جراحهم خطيرة و ٣٣ من الشيوخ ، ٢٤ صبيا نقل اعمارهم عن العاشرة سلموا الى السيد سعيد ، وبما ان السيد سعيد قد رفض الاشراف على اراضي بنى بوعلی فقد امر القائد سميت بذلك القلاع والتحصينات وتسويتها بالأرض . كما سمح لرجال السيد سعيد باتلاف المزارع وتغيير مجاري المياه كما اشعلت النار في مساكن القبيلة في الأشخرة

(١) رحلة شبتوية فصل ٢ ص ٢٦٧ تأليف نجلان .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من سميت الي وarden ١٨٢١٣/٤ .

الواقعة الى الجنوب يوم ٢ مارس ، وقد قام بهذه العملية مجموعة من بحارة الطراد سيش الذين استولوا ايضا على ثلاثة من قوارب بنى بوعلى كانت تبحر غير بعيدة من الشاطئ ، وفى نهاية الاسبوع الاول من مارس تحرك سميث بالقوات والمعدات التى تركها طومسون الى الشاطئ للابحار الى بومباى مصطحبا معه الأسرى (١) .

ومنذ البداية حتى النهاية كانت الحملة على رجال بنى بوعلى مخزية ومؤلة ، وقد ذهب ضحيتها من الرجال اكثر مما ذهب فى معركتى ١٨٠٩ ، ١٨١٩ . معا ، وأسفرت عن نتائج لا قيمة لها وقد يكون طومسون مسئولا الى حد كبير عما حدث لمخالفته للتعليمات الصريحة بشأن العمليات العسكرية داخل المنطقة العربية ، وتحول الحملة التأديبية الى حرب سافرة كل هدفها هو استعادة سلطة السيد سعيد على قبائل جعلان . وقد دفع طومسون ثمنا غاليا على تلك الأخطاء ، فقد فصل من منصبه كعمد سياسى بريطانى فى الخليج فى نفس اليوم الذى ابحر فيه سميث الى بومباى ، كما جوكم محاكمة عسكرية بعد عودته الى مقر عمله فى بوشهر ، وكانت التهم الموجهة اليه هى عصيانه للأوامر بالتوغل الى بلاد بنى بوعلى والاهمال والتقصير فى عدم اتخاذه الاحتياطات اللازمة قبل المعركة ، وانه كان مقصرا فى جهوده الدائية ، وانه قد تصرف بطريقة مخزية لا تليق بضابط مثله حين القى مسئولية الهزيمة الى الضباط والجنود العاملين معه ، وقد جاء فى حكم

(١) كان الاشتباك مع رجال بنى بوعلى هو آخر عملية عسكرية تقوم بها الفرقة الخامسة والستون بتكليف من حكومة الرئاسة . وقد ظلت هذه الفرقة فى عمليات عسكرية متتالية منذ وصولها الى الهند فى شهر مايو ١٨٠٣ ، وكانت بعض تلك العمليات موجهة ضد الامراء الهنود فى ولايات كتش وكيثاود ، وفى الهجوم على جزر موريشيس وفى كل الاشتباكات الثلاثة فى الخليج ، وبعد ان استمرت هذه الفرقة فى العمل الى مايقرب عشرين عاما فى الهند ، ابحرت الى انجلترا يوم ١٨٢٢/٨/١٩ .

المحكمة بأن طومسون مسئول عن جزء من التهمة الأولى وبريء من التهمتين الأخرين ، كما ادين عن التهمة الأخيرة وبريء من تهمة اساءة التصرف ، وقضت المحكمة ببطلان التهم التي وجهها طومسون الى ضباطه وجنوده كنتيجة لاستنتاجاته الخاطئة ، وقد صدر الحكم ، بتوجيه اللوم العلنى اليه .

واذا نحينا الجانب العسكرى من سلوك طومسون ، فان ادانة الحكومة له كانت فى محلها . فبعد ان كلفته الحكومة بالتعاون مع السيد سعيد ضد قبائل بنى بوعلى ، عادت فوجت اللوم اليه على اعطائه انطباعات بان الاسلحة البريطانية كانت تستخدم لمصلحة السيد سعيد لاختضاع القبائل المتمردة عليه ، ومن الصعب ان نتصور كيف كان الناس فى الخليج ينظرون الى ذلك التعاون خصوصا بعد ارسال الحملة الثانية التى كان الهدف منها هو رد الاعتبار للقائد طومسون . ومهما اصررت حكومة بومباى على ان الهدف الاساسى من الحملة الثانية هو معاقبة قبائل بنى بوعلى على اعمال القرصنة ومصرع شيخ رأس الحد ، فان الحملة يمكن اعتبارها ايضا وبنفس القدر على انها لم تكن تهدف الى الانتقام لهزيمة طومسون فحسب ، بل وعن هزيمة السيد سعيد ايضا كذلك فان تصرف سميث مع رجال بنى بوعلى بعد الهزيمة ، وعلى الأخص طريقته فى معاملة الأسرى ، انما تؤكد ذلك الانطباع .

واذا كان ثمة طرف له الحق فى ان يفخر بنتيجة الحملة فهو قبائل بنى بوعلى أنفسهم لدفاعهم الباسل عن اراضيهم ومواطنهم ، وهذا هو ما اعترف به اعضاء مجلس الادارة لشركة الهند الشرقية عندما اجتمعوا لتقييم نتائج الحملة ، فقد اعترفوا بانه لم تتخذ الاجراءات اللازمة منذ البداية عن طبيعة اعمال القرصنة التى كان متبها فيها قبائل بنى بوعلى ، وان حكومة بومباى قد اكتفت برأى السيد سعيد فى هذا الموضوع وان اعضاء مجلس الادارة لم يقتنعوا بهذا الراى . كما اقر مجلس الادارة على ان تصرف طومسون تصرف لا يفتقر ، وانه لابد من توجيه اللوم له وان امر تكليفه

بالتعاون في الحملة مع السيد سعيد كان اجراء خاطئا . أما معاملة سميث للأسرى فقد تبين لرجال الشركة بأنها معاملة ليس لها ما يبررها ، فقد انتقدوا بشدة قرار سميث بتكليف رجال السيد سعيد باتلاف وحرق مزارع القبيلة وتحويل قنوات المياه واعتبروا ذلك الاجراء تصرفا في منتهى القسوة لم يكن له ما يبرره على الاطلاق (١) ، أما نقل الأسرى الى بومباي حيث توفي أحد الشيوخ وعدد من رجال القبيلة فيما بعد فقد كان تصرفا أحق ، وقد تلقى أعضاء مجلس الادارة تظلما من الشيخ الوحيد الذي بقى على قيد الحياة وهو محمد بن على ، الأمر الذي جعلهم يشعرون بالخجل من ذلك .

كما ان تسليم بقية الأسرى الى سعيد والتصرف بهم في عمان ، فيعتبر اكثر الأعمال خزيا ، وأن الأسباب التي أبداهها سميث لتصرفه هذا كانت أسبابا مرفوضة كما أن الخطر على السيد سعيد كما تصوره سميث ممن بقى من رجال القبائل المتمردة ، فيبدو أنه تصور خاطيء ، وقد اختتم أعضاء مجلس الادارة مداولاتهم بالاعتراف بوجوب تقديم المساعدات والإسعافات الى قبائل بني بوعلی ، ولذلك فقد اصدروا أوامرههم الى الفنستون باطلاق سراح الأسرى ، وإعادة توطينهم في أراضيهم وتقديم كل المساعدات الممكنة لاعادة الحياة الطبيعية اليهم .

في شهر أكتوبر سنة ١٨٢١ . افرج الفنستون عن الأسرى وأجرى الترتيبات اللازمة لهم للعودة الى جملان قبل وصول الأوامر بعام واحد ، أما بالنسبة للأسرى الذين سلموا الى السيد سعيد فلم يكن في مقدور الفنستون أن يعمل شيئا ، فقد أودع هؤلاء سجن الجلالى في مسقط حيث توفي ثمانية منهم جوعا (٢) أما الذين عادوا من بومباي الى بلاد بني بوعلی فقد حصلوا على مساعدات كبيرة من السلطات في بومباي استمرت لبضعة

(١) التقارير السياسية الى حكومة بومباي . مجلد ٣ من مجلس ادارة

الشركة الى مجلس الحاكم ١٨٢٢/٨/٧ رقم ٣٨٣ .

(٢) ابن رزيق ائمة وسلاطين عمان (ص ٣٤٤) .

— ٣٤٠ —

سنوات ، وبعد وقت قصير بدأت هذه القبيلة الى ممارسة اعمالها السابقة حتى انها اشتركت فى بعض عمليات القرصنة وفى سنة ١٨٢٧ قام كبير شيوخ هذه القبيلة محمد بن على برحلة الى بومباى لتقديم الشكر الى الحاكم شخصيا على المساعدات التى قدمها اليه .

على أن ما كان يثير القلق فى نفس الفنستون من مفامرة طومسون الأخيرة هو ما سوف تتركه من انطباع فى أوساط القبائل الخليجية عن السياسة البريطانية ، ان تلك السياسة ، كما ذكر الفنستون فى تقريره الأول عن تصرف طومسون كانت تنطلق من مبدأ القضاء على القرصنة اينما وجدت ، وعدم الاشتراك فى الخلافات التى تنشأ بين دول الخليج حتى ولو كانت فى مناطق تعتبر فى متناول قواتنا البحرية ، الا اذا كان ذلك بقصد مكافحة أعمال القرصنة ومن ناحية أخرى فان تعاون طومسون مع السيد سعيد سلطان عمان انما يوحى بأنه محاولة منا للتدخل فى الشؤون الداخلية للمنطقة بهدف حماية مصالحنا من الأخطار التى تهددها فى مياه الخليج (١) .

وللحيلولة دون انتشار مثل هذا الانطباع عن سياستنا فقد كلف الفنستون الجنرال سميث بزيارة ساحل الخليج فى محاولة لازالة اى انطباع عن السياسة البريطانية لديهم . وعلى الاخص بالنسبة لعلاقة بريطانيا بحكومة مسقط . كما طلب الفنستون الى سميث بأن يعيد البحث فى امكانية مرابطة قوة عسكرية فى منطقة الخليج وبإبداء رأيه فى تكوين هذه

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٩ رقم ١ - ١٨٤١/١/٣ .

من جى.بى. سمسون (سكرتير الحكومة) الى وarden معسكر كرينا
١٨٢٠/١٢/٢٧ .

القوة ، وفيما اذا كانت جزيرة قشم تصلح كمقر لها (١) وان الهزيمة التي منى بها طومسون في جعلان جعلت الغنبتون يتساءل ما اذا كان الاحتفاظ بحامية في قشم قد يضر بمصالح الحكومة البريطانية اكثر مما ينفعها . لأن الخطر من تورط هذه القوة في حروب اخرى كحرب بنى بوعلى سيشكل خطرا مستديما على المصالح البريطانية الى جانب الاعتبارات الاخرى لحالة المناخ الصخى للجزيرة الذى كان يودى بحياة عدد كبير من افراد الحامية . بالإضافة الى كل هذا فان هناك احتمالا آخر وهو ان يودى الاحتلال اليائهم للجزيرة الى خلافات مع حكومة فارس .

وقد برز هذا الاحتمال بشكل قاطع فى ختام سنة ١٨٢٠ ، عندما قطعت حكومة فارس صمتها حول هذا الموضوع منذ شهر مايو . ففى ٩ من ديسمبر سلم رئيس وزرائها هنرى ويلوك طلبا رسميا بجلاء الحامية البريطانية من قشم ، وقد استند فى طلبه هذا الذى عجلت به اخبار هزيمة طومسون ، على أن سلطان مسقط لم يكن له الحق فى السماح للقوات البريطانية بالمرابطة فى الجزيرة ، وان مسقط كما جاء فى خطاب الصدر الأعظم ، هى الاخرى تابعة لفارس ، وأن الامام لا يملك حق السماح للقوات البريطانية بالبقاء فى مسقط ، فكيف والحالة هذه يملك السلطان حق السماح للقوات البريطانية بالمرابطة فى قشم وهنجام وهما جزيرتان تابعتان لبندر عباس الفارسية . كما رفض الصدر الأعظم الحجة القائلة بأن وجود القوة العسكرية البريطانية فى الخليج أمر ضرورى لتحقيق الاستقرار فيه . فاذا كان من الضرورى اتخاذ خطوات اخرى للقضاء على القرصنة فى الخليج الفارسى فان امير فارس فى مقدوره اتخاذ مثل هذه الاجراءات الفعالة دون الحاجة الى عون خارجى ، واثاف الصدر الأعظم بأن الشاه يزمع ايفاد مبعوثين الى قشم والهند للمطالبة باخلاء الحامية من البريطانيين،

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ ، رقم ٢ - ١٨٢١/١/١٠ .

من وarden الى سميث بنفس التاريخ .

وسحب الكاتب بروس. المقيم البريطاني في بوشهر بوصفه المسئول. عن تدمير السفينتين الفارسييتين اسالو ، وكاندون في شهر يناير من عام ١٨٢٠ وفي التواطؤ الذي تم بين شيوخ آل خليفة في البحرين والسيد سعيد ، وهو عمل فيه افتراء على حقوق فارس في البحرين . (١) .

لم يكذ يمشى اسبوعان على تقديم الصدر الأعظم مطالبه إلى ويلوك، حتى بعث رئيس الوزراء بملذكرة إلى وزير الخارجية الفايكونت. كستكر تتضمن احتجاج الشاه على حكومة الشركة في الهند واستهلالها بتحليل للاحداث الأخيرة في الخليج .

« عندما كانت السلطة في السابق في يد الوهابيين كان القواسم يقتربون ما شاءوا من الأعمال المنافية للقانون ، غير أن أمير فارس لم يول تلك الأعمال اى أهمية . غير أنه رغبة من الحكومة البريطانية في تحقيق الاستقرار في البحار قررت اتخاذ اجراءات ضد المخلين بالأمن فأرسلت حملة إلى المنطقة ، وقام القائم بأعمال صاحب الجلالة بإطلاع حكومة فارس بقرار الحكومة البريطانية ، وتقديراً من حكومة فارس لقرار الحكومة البريطانية في الهند فقد رحبت به اعتقاداً منها بأن مكافحة القرصنة أصبحت مسألة ملحة وأنها سوف تعود بالفائدة على الدولتين ولهذا فقد وافقت حكومة فارس على مشروع الحملة » (٢) .

(١) محادثات حكومة بومباي السرية مجلد ٤٩ رقم ٧ في ٢٨/٢/١٨٢١ . من ويلوك إلى هسبنجز ٢٠/١٢/١٨٢٠ رقم ٢ وقد ارفق معه الوسائل المتبادلة مع الوزراء الفرس .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٤ من الحاج محمد حسين خان إلى كستلر ربي وقد ارفق نسخة منه في خطاب ويلوك إلى اللجنة السرية بتاريخ ٢٦/١٢/١٨٢٠ .

- ٣٠٣ -

كانت بصفة عامة الرسالة منطقية، وكانت تعبر عن قلق حقيقي عن إجراءات واهداف السياسة البريطانية تجاه فارس ، ومنذ شهر نوفمبر من عام ١٨١٥ بقيت السياسة البريطانية في طهران في يد القائم بالاعمال ، وهو اجراء رأت فيه حكومة مفرورة كحكومة طهران. انتقاصا لها ، على احسن الفروض ، ويتسم بالخبط على اسوئها ، فمنذ انتهاء الحروب الفرنسية كان اهتمام الحكومة البريطانية بعلاقاتها بحكومة فارس قد قل وأخذ تبادل الرسائل بين بريطانيا وحكومة فارس يتسم بالطابع الروتيني ، وفي الوقت الذي كان ويلوك قد يبلغ وزراء الشاه بأمر الحملة فقد شكوا هؤلاء الوزراء من أن مشروع هذه الحملة كانت تنقصه روح المجاملة والإحترام من جانب الحكومة البريطانية تجاه حكومة فارس ، وقد وافقهم ويلوك على هذا الرأي (١) . وكان لمخاوف الشاه ما يبررها من قلة اهتمام بريطانيا بفارس ، وفي اعتراضه على اقامة قاعدة بريطانية في جزيرة قشم كل هذه المسائل تضمنها في رسالة الصدر الأعظم الى كستلرربي . وبعد أن أشار الصدر الأعظم الى أن احتلال قشم قد لا يكون سببا لخلافات بين فارس وبريطانيا ، أضاف بأنه سيكون أمرا مؤسفا لو عرفت به « الدول الاجنبية » وبعبارة أخرى فإن روسيا قد تستغل ذلك كدريعة للحصول على امتيازات مماثلة في منطقة قزوین غير انه لم يكن في وسع ويلوك أن يعمل شيئا ليثنى الصدر الأعظم عن موقفه بالنسبة لانشاء قاعدة في جزيرة قشم ، ولكنه على كل حال نجح في اقناع الصدر الأعظم بتأجيل ايفاد مبعوثيه الى الهند وقشم ، ريثما يتلقى ويلوك ردا على رسالته الى الحاكم العام حول هذا الموضوع (٢) .

(١) محادثات حكومة بومباي السرية مجلد ٤٥ رقم ٨ في ١٨٢١/٣/١ من ويلوك الى كبير ومرفق بخطاب كبير الى واردين ١٨٢١/٢/٧ . راجع ايضا ص ١٦٠ اعلاه .

(٢) فيما يتعلق بالرسائل المتبادلة بين ويلوك والصدر الأعظم راجع فارس والخليج مجلد ٣٤ من ويلوك الى اللجنة السرية ١٨٢٠/١٢/٢٦ ومرفقات لرسائل سكرتير حكومة بومباي مجلد ٧ ومرفق بخطاب السكرتير رقم ١ في ١٨٢٠/٥/٢٥ .

وعندما علم الفنتستون برسالة الصدر الأعظم الى كستلرربى تأثر كثيرا بما تضمنته الرسالة من اشارة الى مخاوف الشاه من احتلال جزيرة قشم ، لدرجة أنه أبدى استعدادا للتخلي عن الفكرة نهائيا ، هذا على الرغم من انه لم يكن موافقا على اعتبار الجزيرة تابعة لفارس ، فلم يكن يستطيع تجاهل آراء الضباط البريطانيين الذين خدموا فى الخليج من انه لا يمكن القضاء على القرصنة قضاء تاما بدون وجود قاعدة . فأذا تغذر الحصول على موقع آخر للقاعدة ولم تلق معارضة قوية كمعارضة الحكومة الفارسية ، فان على الفنتستون أن يختار بين الجلاء عن قشم وما سوف يستتبعه من عودة القرصنة او الاحتفاظ بالجزيرة وما يعقبه من استياء من جانب حكومة فارس ، ولكن الفنتستون لم يكن فى وضع يسمح له بالاختيار بين الاثنين ، ولذلك فقد قام فى شهر مارس ١٨٢١ بالحالة الموضوع الى الحاكم العام ، كما كتب الى الجنرال سميث فى الخليج ، يستشير فى الحصول على موقع مناسب على الساحل الغربى يصلح أن يكون كمحطة بحرية عسكرية .

وقد اجاب سميث على سؤال الفنتستون عند عودته الى دار المقيم فى اواخر ابريل وكان رايه ، انه لابد من وجود قوة عسكرية لمواجهة القرصنة ، واقترح ان تكون قوة صغيرة متحركة ومسلحة تسليحا جيدا ، واقترح ان تتألف مثل هذه القوة من ٢٠٠ أوربى مشاه و ٤٠٠ مدفعا وفصيلة بحرية من ٣٠٠ افريقى ، وكان سميث يحبذ الافريقيين على الهنود لان العرب يحترمون الجنود الاوربيين والافريقيين وليس الهنود ، وكان سميث يحبذ ايضا شأنه شأن كبير ، ان ترابط القوة فى جزيرة قيس او هنجام ، فالذا تعدر هذان الموقعان فلتكن جزيرة قشم بدلا عنهما ، لان ذيرستان ، على اى حال ، مناخها غير صحى ، وانه قد سبق له ان أمر بنقل الفصيلة الى الجانب الشرقى من الجزيرة بالقرب من بلدة قشم ، كما قال سميث انه لا توجد منطقة اخرى بديلة تصلح ان تكون قاعدة . وقد انبستنتج الفنتستون من تقرير سميث حول هذا الموضوع بأنه يتعين بذل محاولة اخيرة للبحث عن نقطة التقاء بين بريطانيا وحكومة فارس حول الاحتفاظ بالخامية ، فى جزيرة

قشم ، لأن مخاوف لشاه من نوايا بريطانيا لاحتلال الجزيرة انما ترجع
فى معظمها الى التقارير التى كان يوافيه بها نجله حسين على ميرزا ، امير اقليم
فارس ، فقد سبق لميرزا ان اوفد فى شهر مارس مبعوثا الى جزيرة قشم.
يطلب سحب الجنود البريطانيين منها ، كما قيل انه دعا الزعماء القبليين
للاقليم لحشد قواتهم للقيام بهجوم على الجزيرة . ولهذا رأى الغنستون انه
لكى يتم اقناع الشاه بالموافقة على احتلال جزيرة قشم ، فانه يتعين عليه
ان يسعى الى تبديد مخاوف امير شيراز من وجود مثل هذه القاعدة .
وبحكم مركز ويلوك فانه لم يكن فى استطاعته الاتصال بميرزا مباشرة وانما
عن طريق حكومة فارس . وكان بروس المقيم البريطانى فى بوشهر يعتبر
شخصا غير مرغوب فيه فى شيراز . وبالتالي لم يبق امام الغنستون طريق
اخر سوى ارسال مبعوث خاص ، وقد اختار لتلك المهمة الجراح اندرو
جيوكس الذى سبق ان عمل مع مالكولم فى فارس والذى يرجع الفضل
اليه فى تعاون السيد سعيد مع حملة كين فى شهر نوفمبر ١٨١٩ .

تلقى جيوكس الامر بالتوجه الى فارس يوم ١٠ مايو من سنة ١٨٢١ .
وكلف بان يتوجه اولا الى مسقط ليحاول التأكد من حقوق كل من السيد
سعيد وفتح على شاه فى جزيرة قشم . وكان الوزير المسئول للسيد سعيد
قد ابلغ الكابتن طومسون فى شهر اكتوبر من العام السابق ، بأن مبعوثين
من فارس قد زارا مسقط فى مستهل ذلك الشهر لجمع الهدايا ، وتحصيل
ايجارات قشم وبندر عباس (١) . كما تساءل الغنستون عما اذا كان الطلب
الذى تقدم به مالكولم لحكومة فارس للتنازل عن قشم قبل خمسة وعشرين
عاما قد لا يفسر على انه اعتراف ضمنى بتبعية قشم للشاه ، وبالتالي يصعب

(١) فارس والخليج مجلد ٣٥ من طومسون الى ويلوك مسقط
١٨٢١/١٠/١٣ ومرفق بخطاب ويلوك الى جوزيف وارث (شركة الهند
الشرفية) ، ١٨٢١/٢/٨ . والتأكيدات واردة فى الاصل .

هو قف هذه الحكومة فى معالجتها للقضية: (١) . ومن جهة اخرى فقد كانت قشم تعتبر من ممتلكات مسقط قبل استيلاء السيد سلطان بن احمد على بندر عياس الذى اخذ يدفع عنها وعن توابعها ايجالا سنويا لحكومة فارس ، وعلى النقيض من ذلك لم تكن فارس تتمتع بملكية الجزيرة وحتى استيلاء البرتغاليين على هرمز فى سنة ١٥١٤ ، كانت قشم تابعة لهرمز . وبقيت تحت الحكم البرتغالى حتى عام ١٦٢٢ ، عندما اجلى البرتغاليون من هرمز وعندئذ ولأول مرة فى تاريخها خضعت لحكم فارس ، وبعد مضي ربع قرن احتلها الهولنديون لفترة قصيرة ، ثم انتقلت منهم الى الامام العربى فى عمان فى بداية القرن الثامن عشر ، وبقيت تحت حكم اليعاربة حتى الفترة الواقعة فيما بين ١٧٣٥ و ١٧٤٣ ، عندما استولى عليها وعلى الجزر الاخرى على الساحل الفارسى نادر شاه . وكان يحكمها بالنيابة عنه زعيم ، ولكن هذا الزعيم رفض بعد وفاة نادر شاه سنة ١٧٤٧ ان يعترف بخلاف نادر شاه بالسلطة . وعندما كان الرحالة كروستين ينهبور فى الخليج سنة ١٧٦٤ وكانت قشم فى يد راشد بن مطر القاسمى شيخ رأس الخيمة ، الذى كان حتى ذلك الوقت تابعا لامام عمان احمد بن سعيد ، وقد طرد القواسم من قشم فى نحو عام ١٧٧٠ ، وقاد الحملة عليهم احد زعماء القبائل الذى كان يسمى «عبد الله بن معين» ، وقد ظل يدفع الزكاة للحكومة فارس لفترة من الوقت ، وبعد وفاته عاد القواسم الى احتلال الجزيرة ؛ ولكن آل بو سعيد كانوا ينزعونه على حكمها . وقد نشب صراع طويل للسيطرة عليها انتهى لصالح آل بو سعيد ، وقاد الحملة ضدهم السيد سلطان بن احمد عام ١٧٩٤ - ١٧٩٥ ، منذ ذلك الوقت ظلت قشم اسميا على الاقل تابعة لمسقط ، ويبدو من كل ذلك ، كما تصور الفنستون ، ان ادعاء فارس بسيادتها على قشم انما كان يقوم على اساس ان جميع الجزر فى الخليج كانت فى

(١) محادثات حكومة بومباي السرية مجلد ٤٩ رقم ٩-٢١/٣/١٨٢١ .

من سمسون الى واردين ٤/٣/١٨٢١ .

١٧٤٤-١٧٤٥

وقته من الاوقات تابعة لفارس وان هذا الوضع لا يزال مستمرا بصرف النظر عما جد من احداث ، وبالتالي فقد كان الفنستون يعتقد بأن تلك الدعوى لم تكن منطقية مثل دعاوى الشاه بتبعية عمان له على اساس الاحتلال الفارسي لها فيما بين ١٧٣٧ و ١٧٤٤ (١) .

بعد ذلك وافق السيد سلطان على دفع ايجار سنوى عن بندر عباس وماحفاتها ، ولكن ليس عن جزيرة قشم ، على الرغم من ان جيوكس لم يتمكن من الاطلاع على المرسوم الاصلى المتضمن هذا الاتفاق ، الا انه كان واثقا من ان السيد سعيند كانت له الاحقية فى جزيرة قشم ، وعلى الاخص فيما سمعه من الوزير السلطانى وهو يعكس ما ذكره لطومسون بأن قشم لم تكن مدرجة فى قائمة ايصالات الايجار التى كان الشاه يحضرها عن بندر عباس (٢) . وعند مغادرة جيوكس لمسقط متوجها الى قشم لم يتلق اخبارا

(١) سجلات الرسائل لبومباى مجلد ٥ (١) من الحاكم الى اللجنة السرية ١٨٢١/٥/٢٥ (رقم ١ سرى الادابة السرية) انظر ايضا ص ١٩٠ ادناه .
(٢) فارس والخليج مجلد ٣٥ من جيوكس الى وارذن (يوليو ١٨٢١) وقد ارفق نسخة منه لخطاب ويلوك الى اللجنة السرية بتاريخ ١٨٢٢/١/٢٥ . وكان ويلوك من الناحية الاخرى يعتقد بأن قشم كانت تابعة لبندر عباس ، كما كان يعتقد ان سلطان بن احمد قد فقد حقه بالاحتلال للجزيرة بعد موافقته على دفع ايجار مقابل احتلال السلطان لها (انظر فارس والخليج مجلد ٣٥ من ويلوك الى الفنستون ١٨٢٢/١/٢٢ ومرفق بخطاب ويلوك الى اللجنة السرية ١٨٢٢/١/٢٥) غير ان قشم على ما يبدو لم تضم رسميا الى ملجقات بندر عباس حتى عقب المعاهدة العمانية الفارسية لسنة ١٨٥٦ وان كلا من كرزن وسكايز يحددان توابع بندر عباس ضمن ميناب وغيرها من المناطق الواقعة على الارض الرئيسية من فارس . (انظر فارس والمسألة الفارسية فصل ٢ ص ٤٢٣ ، وكتاب تاريخ فارس « تاليف السير برسى سكايز المجلد الثانى الفصل الثانى ص ٤٥٦ ص ٤٥٧ طبعة لندن ١٩١٥) .

٣٠٨ -

جديدة عن هجوم متوقع على الجزيرة . وقد وصل شيراز يوم ٦ أكتوبر ،
وبدلاً من أن يجد فيها استعدادات للحرب وجد المدينة في هلع وفزع فقد
اجتاح الكوليرا شيراز وأخذت تمتد لتشمل إقليم فارس كله ، وكان
الكل يحاول الفرار من المدينة للنجاة بنفسه من الوباء ، وقد مر أسبوعان قبل
أن يتمكن جيوكس من مقابلة الأمير وتسليمه الرسالة التي حملها إليه .
وقد كان على ميرزا في غاية الود ، وأصغى باهتمام بالغ لشرح جيوكس عن
حقيقة الوجود البريطاني في جزيرة قشم ، وأعرب في النهاية عن موافقته
لوجهة نظر جيوكس ، هذا بالرغم من أنه قداكد لجيوكس تبعية الجزيرة لفارس ،
وأنه لم يكن من حق سلطان مسقط أن يسمح بمرابطة القوة البريطانية في جزيرة
قشم ، وفي نهاية المقابلة ذكر الأمير بأنه سوف يوصي في خطابه إلى والده بالسماح
ببقاء الحامية البريطانية في الجزيرة ، غير أن جيوكس ساوره الشك في
أقوال الأمير ، وبالتالي، قرر التوجه إلى طهران ، وأثناء سيره مرض
بالكوليرا وتوفي في أصفهان يوم ١٠ نوفمبر . وقد حل محله اللفنتانت فريزر
الذي حمل الوثائق وسلمها إلى ويلوك في طهران (١) .

بذل القائم بالأعمال محاولات أخيرة خلال الأسابيع القليلة التالية
لإقناع الشاه بالطبيعة السلمية للسياسة البريطانية في الخليج ، غير أن
ذلك لم يؤد إلى نتيجة ، ولذلك تعين على ويلوك أن يبعث إلى الغنستون
بتقرير في يناير سنة ١٨٢٢ ذكر فيه ، أنه ليس هناك أمل في زحزحة
الشاه عن الموقف الذي اتخذته بالنسبة لاحتلال جزيرة قشم ، وجاء في هذا
التقرير :

« بأن جلالتة لا يخفى مخاوفه من الوجود البريطاني في المناطق القريبة
من فارس ، ولما كانت سياسته تقوم منذ البداية على مقاومة أي نفوذ أجنبي
في أراضيه فإنه لن يسمح بمثل هذا الاجراء الذي يعد في رأيه مصدراً

(١) فارس والخليج مجلد ٣٥ من ويلوك إلى اللجنة السرية طهران
١٨٢٢/١/٢٥ ومرفق خطاب جيوكس لواردن شيراز ١٨٢١/١٠/٢٣ انظر
ايضا كتاب فريزر « رحلة إلى خراسان » فصل ٦ .

لخطر يهدده فى المستقبل . كذلك فانه لا فائدة من محاولة اقتناعه بالمكاسب التجارية التى ستعود عليه من الوجود البريطانى فى الجزيرة ، وان نتقدم اليه بمقترحات تبرر الحماية البريطانية بما يؤثر على الحكام الآخرين . ان دخل فارس دخل مقطوع ، وسواء ازدهرت التجارة او تدهورت فان هذا الدخل لا يتغير على الاطلاق ، ولذلك فانى اعتقد بحق ان صاحب الجلالة لن يتردد عن التنازل عن جميع المصالح التجارية مع الهند بدلا من ان يبقى فى قلق دائم من وجودنا المباشر فى مناطق تعتبر ضمن سيادته (١) .

وحتى قبل ان يتسلم الفنسستون هذا التقرير كان قد قرر انهاء احتلال قشم ، وكان قراره السابق بالاحتفاظ بقوة عسكرية فى الخليج قد تبدد بنتائج الحملة على بنى بوعلى وبمعدل الوفيات بين جنود الحماية بسبب رداءة الطقس ، وفيما بين يوليو ١٨٢٠ و فبراير ١٨٢٢ نقلت الحامية معداتها واخذت تبحث عن منطقة صالحة للاقامة فى الجزيرة . وعندما زار المنطقة كل من جيوكس وفريزر فى شهر اغسطس ١٨٢١ صدموا من الحالة المزرية للجنود (. . . اننا لم نر قط حالات تشير الرعب والاشمئزاز من حالة الجنود المرضى والناقهين فى جزيرة قشم) هذا ماجاء فى تقرير فريزر (٢) فان الجنود الاوربيون يعانون من مرض الحمى بينما كان الجنود الهنود يعانون من مرض خطير آخر ، فالقوة التى ارسلت الى الجزيرة لكى تضرب بشدة على أى نشاط للقراصنة لم يبق منها أكثر من ٣٠٠ جندي هندي وثلاثة ضباط أوروبيين صالحين للخدمة ، كما ان الحماية كانت تعاني من نقص فى المواد الغذائية والأدوية بشكل خطير ، كما كان الماء غير صالح للاستعمال ، ولم يكن بالجزيرة بناية واحدة نظيفة فى المعسكر ، أما المنطقة المحيطة بالمعسكر فقد كانت عبارة عن أراضى رملية ومناطق صخرية ، ومعرضة لهبوب الرياح الشمالية الجافة والشديدة الحرارة طوال

(١) فارس والخليج مجلد ٣٥ من ويلوك الى الفنسستون ١/٢٢/١٨٢٢ .

(٢) رحلة الى خراسان ص ٢٩ .

أشهر الصيف (١) . وجاء في تقريرهما بأنه لتفادي خسائر جديدة في الأرواح والجنود ، فإنه ينبغي الانسحاب من الحامية قبل حلول صيف عام ١٨٢٢ ، وكان الفنستون على وشك أن يصدر الأوامر بإخلاء الجزيرة في أوائل شهر مايو ، عندما وصله خبر عن أن ويلوك قد طلب جواز سفره وترك طهران وأصبح الصدام مع فارس قضية حتمية ، ومع ذلك فقد قرر الفنستون عودة الحامية إلى قشم ، وبدلاً من الانسحاب أمر بإرسال تعزيزات إلى الجزيرة ، خوفاً من أن يركب أمير فارس رأسه فيشن هجوماً عليها ، ومرت أسابيع دون أن يقع الهجوم ثم علم الفنستون بأن سفر ويلوك المفاجيء كان بسبب الخلاف على دفع جزء من المعونة المالية البريطانية لفارس بموجب معاهدة ١٨١٤ ، وبالتالي قام الفنستون بإلغاء الأمر الخاص بإرسال التعزيزات إلى الحامية ، وأرجأ موضوع الانسحاب منها ريثما تتطور العلاقات البريطانية الفارسية نحو الأحسن . (٢) .

(١) راجع كتاب فريزر « رحلة إلى خراسان » والواقع أن الفنستون طلب من ويلوك في أوائل ١٨٢٢ بأن يطلب من حكومة فارس بأن تسمح بنقل الحامية من جزيرة قشم إلى جزيرة قيس ، غير أنه من المحتمل أن يكون ويلوك قد غادر طهران قبل وصول خطاب الفنستون من بومباي أو أنه لم يجد الوقت مناسباً لعرض الاقتراح على الشاه . إذ لم يرد ذكر لهذا الخطاب بعد ذلك .

(٢) راجع سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلد ٨ من مجلس الحاكم إلى مجلس إدارة الشركة ١٨٢٢/٣/٢ رقم ١ - الإدارة السياسية - .

في أكتوبر سنة ١٨٢٢ قدم اللفتنانت جى . آتش جرب من ضباط البحرية والكابتن تى . ديمون من سلاح المهندسين تقريراً إلى حكومة بومباي بخصوص جزيرة قيس ، وكان الاثنان قد قاما بجولة استطلاعية للجزيرة للبحث عن ضلالتها كقاعدة (انظر مختارات بومباي مجلد ٢٤ ، ٤٨) .

(٢) الرسائل السرية لحكومة بومباي مجلد ٥ جزء (١) من الحاكم إلى اللجنة السرية ١٨٢٢/٦/٢٠ (رقم ٢ الإدارة السياسية) كان موضوع المعونة المالية لفارس والذي كان يعكس الحد الأدنى للعلاقات البريطانية =

ولو ان الفنستون تمسك بموقفه وظل ينتظر تحسن العلاقات الفارسية البريطانية قبل الانسحاب من جزيرة قشم لبقيت الحامية هناك الى أجل غير مسمى ، غير انه اضطر في أواخر صيف ١٨٢٢ وكنتيجة لاجراءات غير قانونية قام بها المقيم البريطاني في بوشهر الكابتن وليم بروس الى اتخاذ تلك الخطوة . وكان بروس متغيبا عن عمله في النصف الأخير من عام ١٨٢١ بسبب مرافقته للحملة البريطانية الى مخا بوصفه المترجم العربي للحملة ، ولم يعد للخليج قبل ربيع عام ١٨٢٢ ، وفي شهر يونيه وصلت رسالة الى بوشهر من حسين علي ميرزا يدعو فيها بروس للحضور الى شيراز لبحث المسائل التي تهم البلدين ، وشعر بروس انه بالنظر الى العلاقات التي تربط فارس وبريطانيا فمن الافضل تلبية الدعوة التي وجهت اليه . وبمجرد وصول الخبر دعوة بروس الى بومباي تلقى تعليمات بعدم تلبيةها ، على أساس ان العلاقات الدبلوماسية الطبيعية بين البلدين كانت متوقفة منذ رحيل ويلوك الى إنجلترا .

ولكن تلك التعليمات وصلت متأخرة بعد ان كان بروس فعلا قد سافر الى شيراز ، وهناك وبغير تصريح من حكومته عقد اتفاقا مكتوبا بتاريخ ٨/٣ مع ميرزا زكي خان احد وزراء أمير شيراز ، وقد تناول الاتفاق جميع المسائل المختلف عليها بين حكومة بومباي وحكومة فارس مثل احتلال قشم ،

=الفارسية بعد سنة ١٨١٤، وقد اقنع ويلوك بان الحل الوحيد لهذه المشكلة هو احواله الموضوع الى وزير الخارجية الذي في استطاعته وحده ان يتخذ موقفا اكثر ايجابية تجاه فارس . غير ان كاننج كان يعتقد بان ويلوك كان يبالغ في تصوراتاه للموضوع وانه ، كما قيل ، قد ابدى بعض الملاحظات عند وصول القائم بالاعمال الى وزير الخارجية لمقابلة كاننج وما جاء في ملاحظاته ، بانه لا يجهل بان ويلوك شخص له اهميته غير ان ذلك في طهران ولبس في لندن (إنجلترا وروسيا في الشرق ص ٣٨ . تأليف رولنسون) .

ووضع البحرين وتدمير بعض سفن فارس من جانب فصيلة ويلوك فى يناير
اذ، هذه الاتفاقية التى يطلق عليها احيانا خطأ (معاهدة شيراز) (١) ،
تتضمن الى جانب الديباجة خمس بنود ، ففي الديباجة أعرب الطرفان عن
رغبتهما فى توثيق أواصر الصداقة بين حكومتها ووصفا حملة كير بأنها
انتهاك لبعض مظاهر هذه الصداقة ، كما اشارت الديباجة أيضا الى أن
مبعوث الأميز قد توصل الى نوع من التفاهم (٢) . أما البند الأول من
الاتفاق فليست له أهمية ، غير أن البند الثانى قد شدد على حق فارس

(١) انظر على سبيل المثال (جزر البحرين تأليف آف. ادميات) : دراسة
دبلوماسية وقانونية للنزاع البحرينى الفارسى طبعة نيويورك عام ١٩٥٥
وكتاب (علوم رضا تاجبخش) «وعنوانه مسألة الجزر البحرانية» طبعة
باريس ١٩٦٠ ، وقد جاء فى وصف لبروس لهذه الوثيقة بأنها (ترجمة
للاتفاق المقترح من جانب السمو الملكى حسين على ميرزا عن طريق وزيره
زكى خان ونوقشت بينه وبين بروس المقيم البريطانى الموقر فى بوشهر
بتاريخ ١٨٢٢/٨/٨) انظر مرفقات للرسائل مجلد ٧ مرفقات لخطاب
السكرتير رقم ٣ فى ١٨١١/٩ .

(٢) توجه المبعوث ميرزا باقر قبل وصول جيوكس الى شيراز ووصل
بومباى يوم ١١/٥ وعلى الرغم من أن الفنبستون قد وافق على الاجتماع
به فقد شعر بأنه ليس هناك نقاط يمكن بحثها معه . (انظر سجل الرسائل
السياسية لحكومة بومباى مجلد ٨ من مجلس الحاكم الى مجلس ادارة الشركة
بتاريخ ١٨٢١/١١/١٤) (رقم ٨ الادارة السياسية) . ويؤكد تاجبخش
(ص ٦٩) أن ميرزا باقر قد نجح فى انتزاع حقوق فارس فى البحرين من
الفنبستون غير أن سجلات حكومة بومباى لا تشير الى ذلك الاتفاق ، كما
أنه ليس من المحتمل أن يكون مثل هذا الاتفاق قد وقع بالفعل نظرا لتسلسل
الأحداث كما ذكرنا آنفا .

فى البحرين (ان جزيرة البحرين كانت دائما من الاقطار الخاضعة لاقليم فارس (١) . وطالب بسحب علم لال خليفة بمقتضى المادة الثالثة لمعاهدة الصلح العام ١٨٢٠ ، كما نصت المادة الثالثة على دفع تعويضات للرعايا الفرس الذين دمرت سفنهم فى شهر يناير ١٨٢٠ خلال حملة ويلوك . أما المادة الرابعة فقد نصت على سحب حكومة فارس اتهاماتها السابقة الى بروس ، بأنه المسئول عن تدمير سفن الرعايا الفرس وعقد المعاهدة المسقطية البحرانية فى شهر فبراير ١٨٢٠ ، كما ورد فى الاتفاق ذكر لرغبة بروس فى الاحتفاظ بمنصبه كمقيم بريطانى فى بوشهر . ولعل البند الأخير هو أهم بنود الاتفاق على الاطلاق وينص على :

« ان القوات البريطانية التى اتخذت لها موقعا فى جزيرة على ساحل فارس وطلب سحب القوات البريطانية منها - وبما ان صاحب المقام الرفيع حاكم بومباى قد أعرب عن رغبته فى السماح لهذه القوات بالبقاء لفترة من الوقت وذلك حفاظا للمظهر والفائدة المتوخاة من ذلك - وعليه فان صاحب السمو الملكى الذى يرى أنه من الافضل بالنسبة لامن الخليج واستقراره المحافظة على المواصلات حرة ومأمونة ، قد وافق على الخمس سنوات التى نصت عليها المعاهدة ريثما يتم تنظيم القوة البحرية اللازمة لهذا الغرض من جانب فارس وذلك على الشروط التالية »

وقد اشتملت الشروط على سحب القوات البريطانية من جزيرة قشم خلال فترة الخمس سنوات فى حالة تمكن الأمير من تنظيم قواته البحرية الخاصة بفارس وعلى تخفيض حجم القوات ، لو زادت عن المعدل الاقتصادى ، واستبدال الجنود البريطانيين الذين يتم سحبهم بعدد مماثل

(١) مرفقات رسائل حكومة بومباى السرية مجلد ٧ ومرفق لخطاب السكرتير رقم ٣ بتاريخ ١٨٢٢/١١/٩ ترجمة الاتفاقية المقترحة من جانب السمو الملكى حسين على ميرزا »

٣١٤ -

من الجنود الفرس ، ونقل الحامية البريطانية الى جزيرة اخرى اذا ما طلب
الامير ذلك ، وتقديم عون بحرى الى الامير اذا ما طلب ذلك من بريطانيا ،
على ان يكون الامير مسئولا عن تأمينهم فى حالة استبقائهم اكثر من اربعين
يوما فى خدمته ، واخيرا نص الاتفاق على حق الامير فى شراء السفن والمؤن
من موانى الهند البريطانية .

ولم يقدم بروس اى توضيح عن الدوافع التى حملته على ابرام هذه
الاتفاقية حين بعث بنصوصها الى حكومة بمباى ، وعلى العكس فقد تركوا
تعليلهم حول نقطتين اثنتين من الاتفاقية :

اولا : ان حسين على ميرزا سوف يخوله بموجب البند الخاص
بتموين السفن الافادة من الخدمات التى يقدمها الاسطول البريطانى .

ثانيا : ان إعادة سيادة فارس على البحرين سوف يساهم فى تحقيق
مزيج من الاستقرار على الجانب العربى من الخليج اكثر من اى عمل او
اجراء آخر . . . (١) . . . وحتى بدون هذا التوضيح الذى قدمه بروس ، يمكن
اكتشاف الاسباب التى دعت بروس الى عقد ذلك الاتفاق ، فقد اتهم اكثر
من مرة من حكومة فارس بأنه المسئول شخصيا عن تدمير السفن الفارسية
فى يناير ١٨٢٠ وعن التواطؤ فى التسوية التى تمت بين آل خليفة والسيد
سعيد فى الشهر الذى اعقب تدمير السفن الفارسية ، كما ان الصدر
الاعظم قد استدعاه الى شيراز فى شهر ديسمبر سنة ١٨٢٠ ، وبالتالي
فان استدعاه الى شيراز اتاح له الفرصة لازالة ذلك الانطباع من ناحية
وتحقيق بعض التحسن فى العلاقات المتوترة بين البلدين من ناحية اخرى ،
وربما يعود ذلك الى التأثير الذى كانت تمارسه شيراز مع المبعوثين

(١) مرفقات لخطابات حكومة بمباى السرية مجلد ٧ ومرفق لخطاب
السكرتير رقم ٣ - ١٨٢٢/١١/٩ من بروس الى الفنتون ١٨٢٢/٩/٣
(رقم ٢٥ الادارة السياسية) .

٣١٥ -

البريطانيين ، حيث كانت تدفعهم الى معالجة المسائل الدبلوماسية الخارجة عن سلطتهم في المناطق التي يعملون فيها . ومهما كانت المبررات التي دعت بروس الى ذلك التصرف الا انها لم تنقذه من غضب الفنستون فقد انتقد الحاكم اجراءاته بحذافيرها ، وفصله من العمل وطلب منه العودة فورا الى الهند ، كما ندد بالاتفاق واعتبره انتهاكا لمبادئ السياسة البريطانية في الخليج . كما رأى الفنستون في تعويض بريطانيا لسكان لنجة وخرن عن الاضرار التي لحقت بهم اعتبر ذلك الفنستون تنازلا من الحكومة البريطانية وليس عملا وديا تجاه فارس (١) »

أما البند الخاص برغبة الأمير في بقاء بروس في منصب المقيم البريطاني في بوشهر فقد جعل موضوع تعيين المسؤولين البريطانيين في بوشهر خاضعا لرغبة فارس ، وأما عن الاعتراف بسيادة فارس على البحرين فلم يكن لذلك الحق أي أساس ، وإن النص المذكور قد أضر باستقلال كل من آل خليفة وحقوق سلطان مسقط صديق حكومة بومباي وحليفها في الجزيرة (أما كيف نجح الفنستون في أن يوفق بين هذين المطلبين فهو موضوع يحيطه الغموض ، والاعتراف بحق فارس في قسم لم يجعل من الاحتلال (عدوانا ظالما فحسب) ولكنه قضى أيضا على حقوق السيد سعيد في الجزيرة ، وأما البند الخاص بالجنود الفرس فإنه لو طبق سوف يؤدي

(١) صدر قرار دفع التعويضات قبل ان يطالب به الفرس

فبعد إصدار الفنستون أمرا الى بروس في شهر مارس ١٨٢٢ ليدفع مبلغ ٢٠٠٠ روبية في أي وقت يراه القائم بالاعمال مناسبا لدفعها (انظر فارس والخليج مجلد ٣٥ من وarden الى بروس مارس ١٨٢٢ ومرفق لخطاب جورج ويلوك الى اللجنة السرية تبريز ٢٧/٨/١٨٢٢) . وكان الميجر جورج ويلوك شقيق هنري ويلوك ينوب عن القائم بالاعمال في الاشراف على البعثة البريطانية التي نقلت الى تبريز خلال غياب شقيقه في إنجلترا .

١٨٢٢/١٠/٢٧

الى اجبار الحكومة البريطانية على تسليم الجزيرة التى تسلموها من سلطان مسقط الى أمير شيراز (١) .

وبصرف النظر عن أى اعتبار آخر فان تهور بروس قد اخرج الحكومة البريطانية بالنسبة لجزيرة قشم ، وبالتالي فقد أصدر الفنتون فى يوم ١٨٢٢/١٠/٢٧ - أوامره بانسحاب بريطانيا من الجزيرة ، ونفهم من السرعة التى تم بها اصدار أوامر الانسحاب - بعد مضي أسبوع واحد من استلام نصوص اتفاقية بروس ، ومن الأسباب التى قدمها بروس - (فان الاتفاقية كما قال الفنتون سوف ترغمه على اتخاذ انقراض لمنحبه الجنود البريطانيين من تلك الجزيرة التى ربما بقيت كما هي) - فإنه من الواضح أن الفنتون قد حيد بالفعل ذلك القرار . ولهذا كتب الى أمير شيراز يتصل من الاتفاق الذى وقعه بروس ويعلن عن قراره بسحب قواته من جزيرة قشم بأسرع وقت ، وتسليمها الى ممثل عن حاكم مسقط . كما بعث برسائل الى كل من شيخ آل خليفة والسيد سعيد يوضح فيها الموقف البريطانى الذى لم يتغير بالرغم من الاتفاقية التى عقدها بروس ، كما كلف الضابط المعين خلفا لبروس بأن يسعى الى أن يزيل من اذهان هؤلاء الحكام أى شكوك او مخاوف تكون قد ساورتهم من جراء تصرف بروس المقيم السابق (٢) .

وكان على شاه يتفق فى الراى مع الفنتون بالنسبة لاتفاقية شيراز، فقد علم بأن الشاه قد استاء استياء شديدا من نجله على الاتفاقية التى

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٧ ومرفق لخطاب السكرتير رقم ٣ - ١٨٢٢/١١/٩ من وادرن (سكرتير الحكومة) الى فريش الامين الاول بالوكالة) بونا ، ١٨٢٢/١٠/٢٧ (رقم ١١٧ الادارة السياسية) .

(٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٧ ومرفق لخطاب السكرتير رقم ٣ - ١٨٢٢/١١/٩ وصيغة خطابات لولى عهد اقليم فارس ، وامام مسقط ، وشيخ البحرين ، وصيغة التعليمات المرسلة الى المفتنان جونا ماكلويد .

وقعها مع بروس دون موافقته ، ورفض التصديق عليها (١) . ولهذه الأسباب فان حسين على ميرزا لم يحاول فى غضون السنوات التالية ان يتخذ من تلك الوثيقة حجة للمطالبة بالبحرين او لمساومة حكومة بومباى فى عدم معارضة خطته الكثيرة للسيطرة على الجزيرة (٢) . ولكن النجاح لم يتحقق له فى كلتا الحالتين ، وعلى سبيل المثال فى بداية عام ١٨٢٣ ، عندما علمت حكومة بومباى بان الشاه كان يتآمر مع السيد سعيد وشيخ القواسم سلطان بن صقر لشن هجوم مشترك على البحرين وجهت الحكومة البريطانية تحذيرا صريحا الى حسين على ميرزا ووالده قالت فيه : « انه اذا ما اختل أمن الخليج وعادت القرصنة من جديد فان الحكومة البريطانية سوف تجد نفسها مضطرة الى اعادة وضع قوات عسكرية فى الخليج (٣) . الا ان هذا الهجوم لم يقع ، كما ان محاولة الأمير فيما بعد عام ١٨٢٤ لحياء هذا المشروع لم يكتب لها النجاح ، وهكذا اصبحت تهديدات الشاه للبحرين مجرد اقوال ، وبمضى الوقت اتخذ موضوع الاستيلاء على البحرين طابع المسرحية التى يقوم بتمثيلها امير فارس امام امبراطور فارس ، كما كان لهذه القضية فى الواقع وجوه اخرى فان هذه المسرحية التى اصبحت تمثل ضد العتوب جزءا لا يتجزأ من سياسة حكومة شيراز لم تكن تقتصر على المطالبة باستقطاع جزء من المعونة السنوية التى تدفع ل طهران فحسب ولكنها ايضا تهدف الى ابتزاز الاموال من المناطق التابعة لها ، كما جاء ذلك فى تقرير المقيم البريطانى فى بوشهر .

(٢) انظر فارس والخليج مجلد ٣٥ من جورج ويلوك الى اللجنة السرية

١٨٢٣/١/٢٠ .

(٢) وبالمثل فان حكومات فارس المتعاقبة وغيرها من المطالبين بتبعية البحرين لفارس لم يترددوا حتى ذلك الوقت من استغلال هذه الاتفاقية لدعم قضيتهم وهناك حالتان يمكن الرجوع اليهما فى مؤلف (قضية جزيرة البحرين) وهى من تأليف تاجبخش (وجزر البحرين تأليف ادميات) . (٣) سجل الرسائل السرية احكومة بومباى مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٤/١/١٤ (رقم ١ الادارة السياسية) .

وفى الاسبوع الاول من يناير ١٨٢٣ تم جلاء الحامية البريطانية من جزيرة قشم ، الأمر الذى بعث الارتياح لدى حكومة الهند البريطانية ومجلس ادارة الشركة ، فقد كان الطرفان ينظران الى وجود القاعدة منذ البداية بشئ من عدم الارتياح . خوفا من التورط فى الشئون الداخلية لمنطقة شبه الجزيرة العربية واحتمال عبء النفقات المتزايدة للاحتفاظ بالحامية وبعد الحملتين على قبائل بنى بوعلى اعرب أعضاء مجلس الادارة عن معارضتهم لمجمل فكرة إنشاء قوة عسكرية للقضاء على القرصنة ، وعلى حين كانوا يقررون بضرورة وجود محطة بحرية للتموين ، وبصلاحية جزيرة قشم لهذا الغرض ، الا انهم كانوا يعارضون فكرة تحويلها الى قاعدة عسكرية (اننا يجب ان ننظر بشئ من الحذر الى الالتزام بأى نفقات كبيرة فى سبيل تحقيق فائدة غير مضمونة (١) ولهذا السبب وعندما وصلتهم انباء الجلاء عن القاعدة لم يخفوا ارتياحهم من ذلك الاجراء ، الذى جنّبهم التورط فى مشاكل مع حكومة فارس من أجل (هدف كئيب متروكين فى السعى اليه لأسبابه الواضحة) ومنذ ذلك الوقت انتقلت مسئولية حماية تجارة الهند البريطانية فى الخليج الى الاسطول ، وقد اقتنع أعضاء مجلس الادارة فى ان ذلك لن يؤدى الى منع القرصنة فحسب ، بل والى الاحتفاظ بقوة من الطرادات ستكلف الحكومات نفقات اقل من تنظيم حملات عسكرية دورية (٢)

- (١) من التقارير السياسية لحكومة بومباى مجلد ٢ من مجلس ادارة الشركة الى مجلس الحاكم فى ١٨٢٢/٨/٧ (مسودة رقم ٣٨٣) .
- (٢) من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٢٢/٨/٧ (مسودة رقم ٣٨٣ ، اما ما اذا كان أعضاء مجلس الادارة على حق فى تقديراتهم المالية فان هذا موضوع قابل للمناقشة ، ان تكاليف حملة كير قد بلغت ٧٦٦٩٩٩ روبية هندية بمجموع يبلغ ١٨٦٢٢٧٨٩ أو ما يزيد على ١٨٠ الف جنيه استرلينى ، اما تكاليف الاحتفاظ بوحدة الاسطول فى عام ١٨٢٣ والتي تتألف من ٧ طرادات لا تزيد على ٤١٣٧٥٥ روبية منها ٢٠٦٨٦١ رواتب للضباط والبحارة و ٢٠٦٨٩٤ للمؤن ، أو ما يزيد على ٤٠ الف جنيه استرلينى ، وبهذا المعدل يكون مجموع نفقات الوحدة البحرية لمدة ثلاث سنوات اكثر من التكاليف الاجمالية للحملة الواحدة (انظر رسائل حكومة بومباى السياسية مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة فى ١٨٢٤/١/٢٤ رقم ١ الادارة - السياسية) .

الفصل السادس

التفتيش والرقابة : الحفاظ على الامن البحرى

١٨٢٣ - ١٨٢٤

فى نهاية الحملة على قبائل بنى بوعلى أعرب الميجور جنرال سميث عن رايه لحكومة بومباى وملخصه، بأنه على الرغم من ان مرابطة الفصيلة العسكرية فى الخليج سيعطى مفعوله على قبائل القرصنة ، إلا ان الاستقرار فى الخليج سوف يعتمد فى النهاية على دوريات الاسطول فيه ، وانه عن طريق ممارسة الاسطول لهذه الدوريات يمكن للحكومة ان تعتمد بصورة رئيسية على الاحتفاظ بالمكاسب التى كلفتها كثيرا من الجهود والأموال (١) ولم يكن سميث راضيا عن الطريقة التى مارسها الاسطول حتى ذلك الوقت، فقد كانت الطرادات تقضى نصف وقتها فى البصرة وبوشهر، حسب نظام تموينها عن طريق الوكلاء المقيمين فى تلك الموانى أولا ، وبسبب اضطرابها الى نقل عوائد السلع الى حكومة بومباى ثانيا . وكان نظام التموين يستغرق فترات طويلة تزيد عن الحد ، بسبب تباطؤ الوكلاء المحليين فى توفير المواد التموينية ، كما ان نقل عوائد السلع يرغم ربانة الطرادات بأن يحضروا اكثر من مرة الى البصرة وبوشهر للقيام بهذه المهمة . وكان هذا النظام فى مجموعة يحول بين ممارسة التفتيش والاشراف الكامل على ساحل القرصنة . وفى رأى سميث أن هذا النقص يمكن تلافيه باعطاء ربانة الطرادات مسئولية تموين سفنهم ، لأن الربانة غير مسئولين من هذه الاجراءات التى يتطلبها تحويل عوائد السلع الى حكومة بومباى ، كما أوصى سميث أيضا بوجوب تعيين أجد الضباط من الرتب العالية، لقيادة

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٩ رقم (١٤) ١٨٢١/٥/١٦

من سميث الى وarden ١٨٢١/٤/٢٣ .

اسطول المراقبة في الخليج وان يكون بدرجة كومندور ، وان يكون مقره العام في جزيرة قشم ، على ان تكون مهمته الاساسية ضمان بقاء الطرادات دائما وابدا في تادية المهمة الموكلة اليها ، اما بالنسبة لتعويضهم عن دخلهم من مبيعات السلع كتشجيع لهم على البقاء في مراكزهم اطول فترة ممكنة فينبغى ان تدفع لربانة الطرادات مخصصات اضافية بمعدل ٢٠٠ روبية كل شهر ، اثناء وجودهم في الخليج . وبهذه الطريقة يرى سميت انهم سيتمكنون من الالام بمنطقة الساحل العربى التى (يجهلوننا جهلا تاما) كما يجهلون وينفس الدرجة خليج البصرة (١) .

بدأ العمل في الساحل العربى في اواخر عام ١٨٢٠ ، عندما بدأت سفينة المسح (وسكفرى) ومعها السفينة (شيش) بقيادة الكابتن بى نوهان ، العمل على الجهة الغربية من شبه جزيرة مسندم ، وتتقدم عمليات المسح اتضح وجود مئات من الخلجان الصغيرة التى تضمها المنطقة الواقعة بين رأس مسندم ورأس الخيمة والتى كانت مجهولة لديهم فى السابق . وفى هذه الخلجان بالذات كانت سفن القواسم تكمن فى انتظار ضحاياها من السفن التجارية التى تعبر مضيق هرمز أو الاختفاء بها للانقراض بها على

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٩ رقم ١٤ فى ١٦/٥/١٨٢١ من سميت الى واردين ٢٣/٤/١٨٢١ وكانت لسميث كلمة نقد أخيرة لاعمال الطرادات نفسها فقد قال عن هذه الطرادات (بأنها صممت بطريقة غريبة) كما كان فى مقدوره ان يشكك فى صلاحيتها للخدمة وضرب مثلا على ذلك لسفينة اريل التى استغرقت رحلتها من البصرة الى بوشهر فى شهر مارس وقتا طويلا للدرجة انها تسببت فى وفاة ٨٧ شخصا من العاملين عليها ، وحسب اقوال المؤرخ 'بحرى' الرسمى ان السفينة اريل تنتمى الى الفصيلة المعروفة باسم (الكفان) او (الموتى) وذلك بسبب كثرة عدد من ماتوا فيها . وقد اعتبرت اريل غير صالحة للخدمة قبل ان يرسلها المستر مارتون مامور الاسطول فى رحلتها الاخيرة . وعند وصولها الى مسقط تبين ان السارية

الطرادات ، وربما كان أهم تلك الخلجان جميعا هو خور الشم الذي يقع على بعد أميال من جزيرة مسندم وهو خليج يمتد الى شبه الجزيرة ، وتقطعه نتوءات يبلغ ارتفاعها من ٨ الى ٥٠٠ قدم ، وتفتش مساحة قطرها ٩ أميال ، وقد أعاد اللفتنانت جى. أن جيه الذى خلف الكابتن نيوهان فى الاشراف على عمليات المسح فى شهر نوفمبر ١٨٢١. تسمية هذا الخليج باسم (خليج الفنستون) وقد واصل عمليات المسح من ساحل القرصنة حتى آخر شبه جزيرة قطر ، ولم تصادفه اى مقاومة من القبائل الساحلية وانما على العكس اقمى هو ورجاله الحماية والمساعدة من حكام المنطقة ، وعلى الأخص من طحنون ابن شخبوط شيخ ابوظبى (١) ، اما المنطقة الواقعة أسفل دبی ، فقد اخذت السفن ترتطم بالمناطق الضحلة والرؤوس الصغيرة التى تزداد كثرة وتعقيدا فيها كلما اتجه الانسان نحو الغرب من ابوظبى حتى المناطق التى يتعذر فيها المسح أو رسم الخرائط . وفى فبراير سنة ١٨٢٣ سلم جى قيادة السفر الى اللفتنانت جى. بى. بروكس قائد السفينة سيش ، وقد تولى بروكس اتمام عمليات المسح للساحل العربى حتى شط العرب خلال العامين التالين ، وفى مستهل عام ١٨٢٦ بدأ عملية مسح الساحل الفارسى ، وقد تبين ان هذه المهمة كانت اصعب بكثير مما توقع ولهذا أوقف بروكس عمليات المسح فى عام ١٨٢٨ ، وتوجه الى رأس مسندم للقيام بعمليات مسح

الرئيسية كانت بالية جدا ، لدرجة ان اخذ الناس يتسائلون ما بها حيث كانت توفر على البحارة رفع أشرعتها . . . الاسطول الهندى الجزء الاول ص ٣٦٩ - ٣٧٠ (تأليف لو) .

(١) انظر مختارات بومباى المجلد الرابع والعشرين ص ٥٤٧ - ٥٤٨ (مذكرات عن الملاحة فى الخليج) تأليف بروكس : . . ان الشيخ طحنون شخصية جذابة ويتمتع بكثير من خصال الكرم والصرافة التى جبل عليها العربى ، وانه كما اعتقد من المتعاطفين جدا مع الحكومة البريطانية سواء من ناحية الميول او المصالح .

(٢١) بريطانيا والخليج)

الساحل العماني ، وقد خلفه بعد ذلك مباشرة اللفتنانت اس.بي. هينز ،
الذي قام بمسح الساحل العماني حتى منطقة رأس الحد ومن هناك انتقل
الى ساحل مكران الذي قام برسم خريطته حتى المنطقة الواقعة الى اقصى
الشرق من كراتشي . وعندما انتهت عملية رسم الخرائط للساحل الفارسي ،
والجزر الواقعة بين جزيرة قشم وجزيرة جاسك وذلك فى عام ١٨٢٩ تكون
عملية مسح الخليج باستثناء شق من الساحل الفارسي ، والذي سبق
ان رسمت خريطته قبل ذلك ببضعة سنوات ، قد انتهت تماما . وعلى الرغم
من بعض الأخطاء والسقطات بسبب عدم توفر المعدات والأجهزة العلمية ،
وما وقع من خطأ فى حساب دائرة خط الطول لبوشهر الذي اعتمدت عليه
أرقام خطوط الطول ، فان عملية المسح تعد انجازا عظيما ومفخرة لمهارة
وصبر رجال وضباط البحرية البريطانية ، وعلى الأخص فى ما جمعته من
معلومات شاملة عن قبائل المنطقة ومناطقها وامكانيات الساحل العربى ،
فقد كان لكل ذلك أهمية خاصة للسلطات فى يومباى فى تعاملها مع القبائل
الساحلية خلال السنوات التى اعقبت ذلك (١) .

(١) للاطلاع على تفاصيل عمليات المسح هذه راجع (مذكرات بقلم
جى وهوتن) وكتاب مذكرات وصفية للملاحة فى خليج فارس (تأليف بروكس
وقد اعيد طبعها فى مختارات بومباى المجلد ٢٤ ص ٥٣١ - ٦٤٣ ، وكتاب
دراسة عن العرب القاطنين ساحل القرصنة و صورة وصفية للجزر والساحل
الواقع على مدخل الخليج ، ترجمة الجمعية الجغرافية فى بومباى مجلد
١. (١٨٣٨) ، ص ٣٢ ٥٤ من ١١٣ - ١٢٧ ، ملاحظات عن
عمليات المسح للشواطىء الشرقية للخليج التى تمت عام ١٨٢٨ : مجلد الجمعية
الجغرافية الملكية مجلد ٥ (١٨٣٥) ص ٢٦٣ ، ٢٨٥ وكتاب (مدينة الخلفاء
تأليف ولستد الفصل الأول ص ١٢٥ - ١٢٦ مذكرات عن عمليات المسح
الهندية (الطبعة الثانية ، لندن ١٨٧٨ ص ١١ - ٣٠ ، الاسطول الهندى فصل =

وقد تبنى الفنستون مقترحات سميث حول القوة العسكرية فى الخليج وقام بتنفيذها على الفور ، وبعث بأوامره الى وكلاء الشركة فى الخليج بعدم تأخير الطرادات فى الموانئ وقتا أكثر مما يجب على الاطلاق ، كما امر بتحويل المكافآت عن حمولات السلع الى خزانة الدولة ، كما رفع المخصصات التى تدفع لرباننة الطرادات وفقا لاقتراح سميث كتعويض لهم عن الجهود التى كانوا يبذلونها وقد تبين للفنستون بأن تعيين عميد بحرى لقيادة الوحدة العسكرية اصبح مسألة أكثر صعوبة مما كان متوقعا ، وكان هنرى مريتون قائد البحرية فى بومباى على توافق تام مع سميث على أن تعيين عميد سوف يسد نقصا كبيرا فى الترتيبات الارتجالية الراهنة ، حيث تسند المهمة الى القائد الأرفع فى الرتبة بصورة تلقائية ، ولكنه توقع ان تنشأ تعقيدات من كون ان ضباط البحرية يتعين عليهم اطاعة أوامر قادة السفن الحربية البريطانية التى قد تزور الخليج . والى حد ما فإن احتمال تضارب السلطة بين الجهتين قد تضاعفت بالقرار الذى أصدره القائد العام للأسطول فى الهند الشرقية فى ديسمبر عام ١٨٢٢ والذى امر فيه جميع رباننة السفن الحربية بالامتناع عن اصدار التعليمات الى رباننة طرادات الشركة فى الخليج ، مما كان يؤدى الى الاضرار بالترتيبات الخاصة بحماية التجارة ، ما لم يتلقوا طلبا بذلك من أحد المعتمدين السياسيين للشركة فى الخليج . ولكن بقيت حقيقة واحدة فيها ، وهى ان ضباط البحرية الهندية يعتبرون خاضعين فى رتبهم لضباط الاسطول الملكى ، ومعنى ذلك أن العميد البحرى الهندى المعين للإشراف على القوة سوف يندرج تحت هذا النظام ، فضلا عن ذلك فان حكومة الهند لا تملك السلطة فى تعيين عميد من البحرية الهندية لان ذلك يعتبر افتئاتا على سلطة قباطنة السفن الحربية الملكية

= واحد ص ٤٠٣-٤٠٨؛ تأليف لو ، ملخص للأبحاث العلمية فى الخليج تأليف البروفوسير ولسن ، مجلد جمعية التاريخ الطبيعى لبومباى مجلد ٣١ (نوفمبر ١٩٢٦) .

البريطانية غير ان الفنستون تمكن من ايجاد حل لهذه العقدة ، عندما عين فى شهر مارس ١٨٢٢ ضابط البحرية الأكبر فى الرتبة وكان فى ذلك الوقت بالخليج لقيادة القوة البحرية مع تزويده بتعليمات تنص على عدم الرجوع الى رئاسة الحكومة فى الهند دون تصريح محدد من حكومة انجلترا الا فى الحالات الطارئة (١) . وقد تم تعيين عدد من ضباط البحرية خلال السنوات القليلة التى تلت ذلك وقد مارسوا كل السلطات التى يتمتع بها العميد دون ان يحملوا ذلك اللقب . وفى نهاية عام ١٨٢٨ وبموجب مرسوم اصدره الملك وليم الرابع بمساواة ضباط البحرية فى الرتب تم تعيين عميد لذلك المنصب (٢) وفى عام ١٨٢١ تولى هنرى ماريتون اعداد الخطط اللازمة لتوزيع وانتشار القوة البحرية فى الخليج على أساس مقترحات سميث ، وقد وضعت موضع التنفيذ قبل ان ينتهى العام وقد اعتمد هذا النظام الذى تطور فيما بعد الى ما يعرف بنظام (القوة المتجولة) على أساس ستة طرادات (٣) ثلاثة من هذه الطرادات ، كل من نوع معين ، ترابط بصفة مستمرة بالقرب من السواحل العربية التى تتطلب المراقبة كرمس - ورأس الخيمة ، والشارقة ، ودبى - حيث تقوم بزيارات الموانئ من حين لآخر ، وطرادان من الثلاثة الباقية يرابطان حول مسار السفن العابرة من مسقط الى البصرة وبالعكس لحماية السفن الجارية والمناطق البرية ، بينما يقوم الطراد السادس بالمحافظة على خطوط المواصلات المتجهة الى بومباي ، وبموجب هذا النظام الدورى فانه لم يكن يسمح لآى طراد بأن يبقى فى العمل لفترة طويلة من الوقت (٤) . وفى شهر اغسطس سنة

-
- (١) المحادثات السياسية لحكومة بومباي حلقة ٣٨٥ مجلد ٥٣ محادثة رقم ١٢ فى ١٨٢٣/٣/١٩ من ماريتون الى الحاكم ١٨٢٣/٢/١٨ ومن وليم نيو هام (سكرتير الحكومة) الى ماريتون ١٨٢٣/٣/١٥ .
- (٢) « سلسلة موضوعات متفرقة عن البحرية » المجلد ٤٦١ ملخص لخطاب من بحرية بومباي فى ١٨٢٨/١٠/٣ .
- (٣) ان نوع الطرادين يتحدد بحجم التسليح وليس بصنف السفينة .
- (٤) ملخص وسائل الخليج ، ١٨٠١ - ١٨٥٣ ص ١٢٨ من ماريتون الى الحاكم ١٨٢١/١١/٢٦ .

١٨٢١ صدرت تعليمات الى ضباط البحرية تحدد لهم طريقة تصرفهم مع السفن العربية العابرة للخليج ، وقد حذروا من ايقاف أى سفينة مالم يشتبهوا فيها ، فاذا امتنعت تلك السفينة عن ابراز هويتها فيمكنهم فى هذه الحالة اطلاق رصاصة تحذير لارغامها على الامتثال للأوامر ، وبهذا يتعين عليهم الانتقال اليها وتفتيشها ، فان كانت تابعة لاحدى القبائل الموقعة على معاهدة الصلح العامة لعام ١٨٢٠ فيتعين ان ترز اوراقها فان تبين ان الاوراق مزورة فعندئذ يطلب من ربانها تصحيح تلك الاوراق ، اما اذا لم تكن تحمل أى اوراق فيتعين تحذير ربانها بأنه لو تكرر منه هذا العمل فسوف تحجز سفينته كما ان أى سفينة يتم حجزها على أساس الاشتباه فى هويتها أو بسبب عدم حملها لاوراق فانه يتم ارسال ربانها الى المعتمد السياسى فى جزيرة قشم لكى يقوم بعرض الموضوع على الشيخ التابعة له السفينة . ولكى يضع الفئستون هذه القوانين موضع التنفيذ قرر بأن لا يسمح لأى سفينة تشترك بلدها فى معاهدة الصلح العامة ولا ترفع الاعلام المميزة المتفق عليها ان تزور موانى الهند البريطانية .

وكنتيجة لخبرة المسؤولين السابقة ادخلت بعض التغييرات على توزيع وانتشار القوة البحرية المراقبة فى الخليج وذلك فى شهر نوفمبر ١٨٢٢ أما الطرادات الثلاثة فقد استمرت فى اداء عملها فى مراقبة الساحل غير انه تم سحب احد الطرادات العاملة على خط مسقط بوشهر البصرة وخصص لاعمال الدورية فى خليج عمان فى المنطقة الممتدة من رأس مسندم الى مسقط ، على ان يقوم بالعمل فى فترة الرياح الموسمية الشمالية عندما تصل حركة الملاحة التجارية الى ذروتها، واما اعمال التفتيش المنتظمة لموانى ساحل القراصنة فقد استمرت كما هى ، ولكن لم يكن يسمح لاكثر من سفينة

(١) الرسائل السياسية لحكومة بومباى رقم ٤٩ حلقة ٣٨٦ مجلد

٣٣ بتاريخ ١٢/١٢/١٨٢٧ من واران الى ماريتون ١/٨/١٨٢١ ٩

- ٣٢٦ -

واحدة من سفن القوة أن تعود الى بومباي لاجراء الصيانة والعمره عليها(١).
 فى نفس ذلك الشهر أى نوفمبر ١٨٢٢ ، وتم نقل مخازن الاسطول من جزيرة
 قشم الى مسقط ، غير أن مريتون كان يعارض ذلك ، وان الانسحاب من
 القاعدة العسكرية فى قشم قد ادى الى فشل هذا الاجراء وظهر على الفور
 ان مسقط هى المكان الاصلح لاقامة محطة لتموين الطرادات وبالتالي اصدر
 الضابط المسئول وامره فى شهر يناير ١٨٢٣ بنقل المخازن الى خليج مغو
 الواقع على الساحل الفارسى المواجه لجزيرة قشم ، وطلب من الطرادات
 بأن تتوجه للتموين الى تلك المحطة ، غير أن الحكومة الفارسية احتجت على
 ذلك الاجراء بعد صدوره مباشرة ، وبالتالي فقد اضطرت السلطات البريطانية
 المسئولة الى الانسحاب منه فى شهر سبتمبر ١٨٢٣ ، اما مريتون فقد
 كان يفضل نقل المحطة الى جزيرة قيس القريبة من ساحل القراصنة غير
 ان الفنستون لم يكن يرغب فى اثارة مشكلة جديدة مع الشاه . وقد بذلت
 محاولات كثيرة لايجاد بديل للمحطة الا ان كل هذه الآراء تركزت حول جزيرة
 قيس او جزيرة قشم وبالتالي لم يجد الفنستون بدا من اصدار امره لاعادة
 المخازن الى جزيرة قشم رغم تعارض ذلك القرار مع حكومة فارس ، وفى
 نهاية عام ١٨٢٣ فوض الفنستون المقيم البريطانى فى بوشهر بنقل المخازن
 الى باسيدو فى الطرف الغربى للجزيرة ، ومن الغريب حقا ان الحكومة
 الفارسية لم تعارض ذلك الاجراء وبفى المستودع فى مكانه كمحطة لتموين
 القوة البحرية المرابطة فى الخليج على امتداد الفترة النافية من الترن .

(١) نفس المصدر مجموعة التعليمات التى صدرت الى الضابط
 البحرى المسئول لاسطول الشركة فى الخليج حول تنظيم وتوزيع القوة
 البحرية التى تحت قيادته للعمل ضد القراصنة ومراقبة السفن التى تعبر
 تلك المنطقة اعداد . امشه . مريتون ١٨٢٢/١١/٢٠ .

وخلال الاعوام الثلاثة التى اعقبت توقيع معاهدة الصلح العامة مع شيوخ الساحل اصبحت العلاقات السياسية بينهم وبين الحكومة البريطانية بواسطة المعتمد السياسى المقيم فى قشم وهو المسئول عن الاشراف على تلك العلاقات . وقد بدأت هذه الفكرة وقرار تعيين الكابتن توماس فى شهر مارس ١٨٢٠ عندما عينه الجنرال كير للاشراف على الفصيلة التى تخلفت فى رأس الخيمة ، وقد لاقت هذه الفكرة فى البداية معارضة من حكومة بومباى على أساس انه سيكلف نفقات لا لزوم لها خصوصا وان الشركة كان لها من يمثلها بالفعل فى الخليج فى شخص المقيمين البريطانيين فى البصرة وبوشهر وعلى أية حال فعندما تقرر نقل طومسون وفصيلته الى جزيرة قشم فى يوليو ١٨٢٠ تقرر تثبيت هذا التعيين وبذلك اسند الى طومسون منصب المعتمد السياسى البريطانى فى الخليج مع تفويضه سلطة لى العلاقات مع شيوخ القراصنة فى جميع المسائل المترتبة على معاهدة الصلح العامة كذلك نظمت على هذا الأساس العلاقات السياسية بحاكم مسقط وان كان هذا قد حدث عرضا ، وان بريطانيا لم تعين ممثلا لها فى مسقط منذ ان توفى الكابتن سيتون عام ١٨٠٩ ويشرف على الشؤون الرسمية لحكومة بومباى المقيم البريطانى فى بوشهر ، ومنذ شهر يونية ١٨٢٠ حتى بداية صيف ١٨٢٢ كان المقيم البريطانى الكابتن بروس متغيبا عن بوشهر ولما كان المقيم البريطانى مسئولا فى الدرجة الاولى بمباشرة مصالح الشركة فى بغداد فقد كان من الطبيعى ان يتولى هذه الشؤون المعتمد السياسى البريطانى فى قشم .

ومن بين الاهداف التى تشملها مهمة المعتمد السياسى فى الخليج هى علاقته مع القبائل العربية الساحلية وقدرته على منعها من ممارسة اعمال القرصنة والالتزام بسيادة القانون ، غير ان هزيمة طومسون فى معاركه مع

قبائل بنى بوعلی قد قللت الى حد كبير من هذا التأثير ولم يفعل خلفاؤه شيئا لاستعادة ذلك المركز نظرا للقيود التي كانت تضعها حكومة بومباي والغموض الذي كان يحيط بالأحكام البحرية الواردة في معاهدة الصلح العامة التي دفعت الى عودة بروس الى مقر عمله في صيف ١٨٢٢ وإلى إعادة النظر في موضوع التمثيل السياسي للشركة في منطقة الخليج وتحديد سلطات وإجبات وأوضاع المقيم السياسي في كل من البصرة وبوشهر والمعتمد السياسي البريطاني في الخليج بشكل أوضح .

كما شمل البحث اوضاع المثلثة البريطانية في بغداد والتي انشئت ابان الحرب مع فرنسا ، ولكنها أغلقت في شهر مايو ١٨٢١ عندما قام المقيم كلوديوس ريش بالانسحاب منها بعد خلافه مع الوالى داود باشا وقد استقر ريش في بوشهر وتوفى في اكتوبر من عام ١٨٢٢ بعد اصابته بالكوليرا خلال وجوده في شيراز (١) . لقد كان مجموع نفقات كل من المثلثة في بغداد والبصرة ٦٠ ألف روبية في العام أما نفقات المثلثة في بوشهر فقد كانت تزيد على ١٥ ألف روبية في العام ، ونفقات الوكالة السياسية في الخليج كانت بنفس المقدار تقريبا ، وإذا أضيف الى هذه النفقات نفقات الوحدات الطبية في كل هذه المثلثات فان المجموع الاجمالي لنفقات التمثيل السياسي للشركة كان يزيد على ١٠٠ ألف روبية سنويا وقد رأى الفنسستون ان هذه النفقات لم يكن لها مبرر وعلى الاخص بالنظر الى تضائل حجم مسئوليات المقيمين في بوشهر والبصرة ولذلك فقد اقترح في شهر أغسطس ١٨٢٢

(١) وقد اغلقت مثلثة البصرة في ديسمبر ١٨٢١ ونقلت الى الكويت ريشما تستأنف العلاقات الطبيعية مع ولاية بغداد وقد اعاد فتحها الكابتن دروبرت تايلور في ابريل ١٨٢٢ (انظر دليل الخليج تأليف لورمار فصل واحد ص ١٣٢٧ - ١٣٢٩) .

- ٣٢٩ -

اجراء تغيير فى بنية التمثيل السياسى للشركة فى الخليج وقرر اغلاق ممثلية بغداد ودمج الممثلتين فى ممثلية واحدة تسمى ممثلية الخليج الاعلى ، أما ممثلية قشم فبقيت كما هى لخدمة منطقة الخليج السفلى وقد خصصت نفقات شهرية لممثلية البصرة وبوشهر فى حدود ٣٥٥٠ روبية ولممثلية قشم ١١٥٠ روبية فكان مجموع النفقات السنوية للثنتين هو ٥٦ الف روبية أو اكثر قليلا عن نفقات الممثلات الحالية كما قرر الفئستون أن يجرى المثلين من ممارسة الاعمال التجارية الخاصة (١) على أن القرار بالانسحاب من قاعدة قشم قد حال دون وضع هذه الاجراءات موضع التنفيذ . وقد قرر الفئستون اغلاق الوكالة السياسية وسحب القوة العسكرية التابعة لها التى انتقلت مسئوليتها الى المقيم البريطانى فى بوشهر وبالنظر الى المسئولية المضاعفة التى كانت ستترتب (٢) على الممثل فقد تعذر تنفيذ عملية الادمج كما كان يتعين تحديد سلطات ومسئوليات المقيم البريطانى من جديد وبخاصة اذا اخذنا فى الاعتبار المعاهدة غير المصريح بها التى عقدها بروس مع امير شيراز .

كان بروس الذى تدهور مركزه من جراء مخالفاته لتعليمات حكومة بومباى آخر المجموعة القديمة من ممثلى الشركة فى بوشهر وان كان هو فى

-
- (١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٨ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٢/٨/٣١ (رقم ٣ الادارة السياسية) ان هذا الاجراء لم يكن اكثر من اعتراف رسمى بأوضاع كانت قائمة سابقاً .
- (٢) مرفقات لرسائل حكومة بومباى السرية مجلد ٧ مرفق لخطاب السكرتير رقم ٣ فى ١٨٢٢/١١/٩ محضر اجتماع الفئستون بونا فى ١٨٢٢/١٠/٣١ .

نفس الوقت أحد رواد المجموعة الجديدة فعندما كان بروس قائدا بحريا حديث العهد عين مساعدا لنيكولاس هنكى سميث فى الحقبة الاولى من القرن ، وكانت الممثلة فى ذلك الوقت مقصورا نشاطها على الأعمال التجارية ، والممثلون ومساعدوهم كانوا ضمن الموظفين المدنيين لشركة الهند الشرقية ، وكانت مسئولياتهم السياسية محصورة فى نقل البريد من الهند الى شيراز او طهران وكان وجود بروس فى يوشهر كمساعد للمقيم ثم كنائب للمقيم واخيرا كمقيم - قد امتد عبر سنوات التغيير الذى حدث ابتداء من بعثة مالكولم الثانية الى فارس عندما كان النشاط الفرنسى فى تلك البلاد يضىء على الممثلة اهميتها السياسية من خلال الاتصالات المتزايدة مع قبائل الساحل العربى وامارة الوهابيين فى نجد بانتهاء ممارسة الحكومة البريطانية لمسئوليتها كحامية لامن الخليج ، ويعزل بروس من منصبه وتعيين خلف له بدأت المرحلة الاخيرة لهذه التغييرات واكتسبت الممثلة الطابع الذى دلت تحتفظ به حتى نهاية القرن الامر الذى اقتضى ان تكون مهمة كل مقيم ضابطا بحريا او عسكريا فى سلك الشركة او فى سلك القوات الملكية فى الهند هى ، مراقبة النشاط البحرى للقبائل العربية والاشراف على امن الخليج ككل وعلى هذا الاساس أصبح المقيم البريطانى فى الخليج الفارسى (١) من الناحيتين الاسمية والفعلية .

وقد اختير اللفتنانت ماكليود اول مقيم ، وكان من سلاح المهندسين فى بومباى وكان ضابطا شابا وذكيا ويتمتع بالكفاءة وقد سبق ان عمل مع الفنستون وقد صدرت التعليمات اليه فى نهاية اكتوبر ١٨٢٢ وكانت اهم

(١) ان اصطلاح المقيم السياسى بالمقارنة الى اصطلاح المقيم وحده لم

يتطور قبل منتصف القرن .

تعليمات تصدر لآى مقيم بريطانى فى ذلك الوقت حتى نهاية القرن هى
ايضاحات شاملة لسياسة حكومة بومباى فى المنطقة والتي استمر العمل
بها فى السنوات التى أعقبت ذلك ، وكان من أهم هذه التعليمات هى ان
الحفاظ على أمن الخليج والقضاء على أعمال القرصنة بالطرق السلمية مع
استعراض للقوة البريطانية والنفوذ البريطانى هى أهم المبادئ التى تقوم
عليها السياسة البريطانية فى الخليج وكان على مكلويد بعد تقلد منصبه فى
بوشهر أن يركزا جهوده على حماية التجارة البريطانية مع جنوب فارس كما
كان عليه ان يتأكد من أن السلطات المحلية هناك لا تميز بين سفن وبضائع
وتجارة الدول الأخرى وسفن بريطانيا ، كما كلف بأن يهتم بالأوضاع السياسية
فى فارس سواء ما كان يتعلق بالداخل أو فى علاقة فارس بدول الخليج
الأخرى ، كذلك يتعين عليه ان يتجنب التدخل فى خلافات هذه الدول او
فى شئونها الداخلية الا فى الحدود التى يتطلبها عمله لمكافحة القرصنة
بطريقة فعالة ، وبالتالي فقد كانت مكافحة القرصنة هى أهم واجباته وكان
نجاحه فيها يعتمد الى حد كبير على طبيعة العلاقات التى تربطه بشيوخ
الساحل الذين يتعين عليه ان يتعامل معهم بالحزم والأسلوب الودى فى
نفس الوقت ، كما كان يتعين عليه أن يقوم بزيارات منتظمة لهم لى يتأكد من
التزامهم بتطبيق نصوص معاهدة الصلح العامة . كذلك كلف بأن يعد تقريراً
عن الامكانيات البحرية للقبائل كقوتهم البحرية والعسكرية وعلاقات بعضهم
بالبعض ، وعما اذا كان هناك نفوذ لآى دولة أخرى . مع اعداد نظام فعال
لتزويد سفن هذه القبائل بالأعلام والوثائق التى تنص عليها المعاهدة كما
ان حكومة بومباى سوف ترحب بأية آراء او تعليقات لمكلويد بشأن تجارة
الرقيق والحروب البحرية ، واذا ما اضطر الى اتخاذ أى اجراء ضد أى
شيخ من شيوخ القراصنة فيتعين عليه ان يقتصر ذلك الاجراء على تدمير

السفن فقط . ولما كانت الحكومة الفارسية تعتبر انها المسئولة عن أية مخالفات بحرية تقوم بها قبائل الساحل الفارسي فانه يتعين على مكلويد فى حالة وقوع مثل هذه المخالفات ان يكتفى بإبلاغ أمير فارس عن تلك المخالفات وأن يطلب منه توقيع القصاص عنها واذا لم تسفر هذه الخطوة عن أى نتيجة فيتعين عليه احوالة الأمر الى المبعوث البريطانى فى طهران ، والى حكومة بومباى للحصول على تعليماتهم ، وقد تحدد لمكلويد راتبه ومقداره ١٢٠٠ روبية شهريا بالإضافة الى علاوات أخرى تبلغ ٦٠٠ روبية فى الشهر كما يسمح له بسحب علاوة اضافية مقدارها ١٠٠ روبية شهريا عند القيام بأى مهمة (١) .

وصل مكلويد الى منطقة الخليج فى أواخر عام ١٨٢٢ وقد جاء وصوله فى الوقت المناسب ليشرف على انسحاب الحامية من قشم . ومن هناك أبحر الى ساحل القراصنة فى اليوم الثانى عشر من يناير ١٨٢٣ على السفينة تزويد يرافقه الكابتن فيثفل الضابط البحرى المسئول فى الخليج والسفینتان اورورا واثيلوب ، وكانت رحلة مكلويد أشبه برحلة استكشاف لأن السفن التى سبق لها ان تواجدت فى تلك المنطقة منذ حملة عام ١٨١٩ - ١٨٢٠ كانت سفنا للمسح وكان أول ميناء يصل اليه هو ميناء رمس ، وهناك علم مكلويد بأن زعيم القراصنة الأسبق حسين بن على الذى قاد معركة الدفاع ثم وقع على المعاهدة قد احتجزه السكان ، وعند وصول مكلويد الى رأس الخيمة كانت البلدة لا تزال انقاضا كما تركها طومسون فى شهر يوليو عام

(١) مرفقات لخطابات حكومة بومباى السرية مجلد ٧ ومرفق لخطاب السكرتير رقم ٣ بتاريخ ١٨٢٢/١١/٩ مسودة التعليمات المرسلة الى مكلويد لـ أكتوبر ١٨٢٢ .

١٨٢٠ ، وقد ظهرت بجانبها بلدة جديدة كانت لا تزال عبارة عن مجموعة من
الأكواخ ، وكان حاكم البلدة محمد بن صقر شيخ القواسم الذى كان يحكم
بالنيابة عن اخيه سلطان بن صقر حاكم الشارقة ، وقد اعجب مكلويد بشخصية
سلطان بن صقر الذى رأى فيه أقوى وأقدر شيوخ منطقة الساحل من رمس
الى البحرين ، ولم يكن حكمه يقتصر على الشارقة ورأس الخيمة فحسب
وانما يتجاوزه الى الجزيرة الحمراء وأم القوين ايضا ، وقد انتهز راشد بن
حمد شيخ عجمان وكان من الشخصيات الهامة فى المنطقة الشمالية لساحل
القرصنة والذى لم يكن يعترف بسلطة صقر عليه انتهز فرصة زيارة مكلويد
فطلب حمايته من زعيم القواسم . وعلى الرغم من أن مكلويد لم يوافق على
طلبه الا انه اثار هذا الموضوع مع سلطان بن صقر خلال المقابلة التى حاول
فيها شيخ القواسم الحصول على اعتراف رسمى بسيادته على ساحل القرصنة
وعلى استمرار الحكومة البريطانية فى اعتبار جميع الشيوخ مسئولين عن
التزاماتهم بالنسبة للمعاهدة التى وقعوا عليها بصرف النظر عن الصراعات
التى قد تنشأ فيما بينهم على السلطة ، وقد اشار مكلويد فى تقريره الى
رؤسائه بأنه لابد أن يأتى الوقت الذى يتوجب فيه الحد من سلطة ونفوذ
سلطان بن صقر .

ولعل مما ازعج مكلويد أكثر هو حجم اسطول القواسم فقد شاهد
أكثر من ٣٠ سفينة شراعية راسية فى الشارقة كلها صالحة للعمل ويستطيع
كل منها أن يحمل أكثر من ٥٠ الى ١٠٠ رجل كما كان العمل يجرى فى بناء
سفينة كبيرة حمولة ١٢٠ طن ولم يكن من المعقول أن يكون القواسم قد
تمكنوا من بناء ذلك الاسطول خلال فترة الثلاثة أعوام التى انقضت على

الحملة ، وكان التفسير الوحيد الذى توصل اليه مكلويد هو ان أغلب تلك السفن كان مختبئا فى الخلجان والمناطق الخلفية قبل وصول حملة كير كما حدث فى عام ١٨٠٩ كما كان من المحتمل ان يكون بعض تلك السفن جزءا من الستين سفينة التى استولى عليها البريطانيون خلال الحملة وتم تسليم عدد منها الى السيد سعيد سلطان مسقط أو أن بعضها يتبع لأشخاص لعلاقة لهم بالقرصنة ، ثم وجدت طريقها الى القواسم فيما بعد . وفى الشارقة حضر لزيارة مكلويد زعماء بنى ياس سكان ابوظبى ودبى وهما طحنون بن شخبوط وزيد بن سيف وأكدوا له صداقتهم ورغبتهم بالالتزام بشروط معاهدة كير وبالمقابل أكد لهم مكلويد مشاعر الود والصداقة من جانب حكومة بومباى طالما انهم ظلوا ملتزمين بالمعاهدة ، ومن الشارقة أبحر مكلويد الى الدوحة او يدعة على الساحل الشرقى من قطر ، وكانت خاضعة لشيوخ آل خليفة حكام البحرين واكتشف بأن الاهالى لا يعرفون أى شئ عن معاهدة الصلح العامة ، وقد أعربوا عن رغبتهم على أى حال بعد ان أوضح لهم المقيم البريطانى الهدف من المعاهدة بالانضمام اليها والالتزام بشروطها وعلى العكس من ذلك كان سكان البحرين التى وصلت اليها مكلويد فى اليوم السابع والعشرين من يناير حيث لمس اهتماما عظيما من شيخها عبد الله بن احمد بالمعاهدة الذى كان يرى فى المعاهدة تعبيرا عن الروابط الوثيقة القائمة وبين الحكومة البريطانية وسندا له ضد خصومه السيد سعيد حاكم مسقط ، ورحمة بن جابر شيخ خور حسن ، وحسين على ميرزا أمير فارس ، وعندما رد عليه مكلويد بأن العلاقة لم تكن بالقوة التى أشار اليها لم يعلق بشئ وقال بأن خصومه لا يشكلون أى خطر عليه وانه باستطاعته الانتصار عليهم (١) .

(١) . المحادثات السياسية لحكومة بومباى رقم ١٣ . حلقة ٢٨٥ مجلد ٣٣ . فى ١٦/٢/١٨٢٣ . من مكلويد الى نيون هام ٢٧/٢/١٨٢٣ .

وانهى مكلويد زيارته للخليج فى بوشهر فى اليوم العاشر من فبراير ١٨٢٣ وفى نهاية الشهر بعث الى حكومته فى بومباى بتقرير مفصل وشامل عن رحلته بالاضافة الى ملاحظاته على بعض النقاط التى وجهت حكومته نظره اليها ومن خلال المناقشات التى اجراها مع ضباط البحرية فى الخليج تبين لمكلويد بأن العقبة الرئيسية أمام الحملة ضد القرصنة هى استمرار الحروب والاشتباكات البحرية بين قبائل الخليج « ان خروج سفن مسلحة الى البحر بقصد الحرب مهما ارتكزت على أسباب شرعية لابد وأن تنحرف الى ممارسة القرصنة عند أول بادرة تسمح لها ممارسة تلك الأعمال » . ويبدو أن فى البند الرابع من المعاهدة فقرة غامضة تحد من احتمال نشوب حروب بين قبائل القرصنة غير ان الهدف من البند المذكور هو حظر القرصنة نفسها وليس حظر الحروب المشروعة . وعلى أى حال فقد طلب سلطان بن صقر من مكلويد اثناء اجتماعه به أن يوضح له ما اذا كان هذا البند من المعاهدة يعنى ان الحكومة البريطانية سوف تتولى حماية السفن التى ترفع اعلام المعاهدة من أى اعتداء خارجى عليها وانها تتعهد برد السلع المنهوبة، وقد رد مكلويد بأنه لا يعتقد بأن البند المشار اليه من المعاهدة يحمل ذلك التفسير ولكنه وعده بالحصول على تفسير واضح للبند المذكور من حكومة بومباى ، وقد عرف مكلويد أن الذى يثير قلق صقر هو احتمال تعرضه لهجوم من السيد سعيد حاكم مسقط ، الذى كان على الرغم من ضعف قواته البرية ، إلا أنه كان قويا فى البحر ، وكان الاثنان يتبادلان شعور العداء وكان احتمال نشوب حرب بينهما قائما باستمرار ، وقد رأى مكلويد الحل الوحيد لمنع انفجار الموقف أو الحرب بين القبائل الواقعة على معاهدة الصلح وعلى غيرها من المعاهدات هو تقديم مجرد الاحتجاجات ومحاولة الحصول على تعويضات للاطراف المتضررة (١) .

(١) رسائل حكومة بومباى السياسية رقم ١٣/حلقة ٣٨٥ مجلد ٣٣

فى ١٨٢٣/٣/٢٦ من مكلويد الى نيوهام ١٨٢٣/٢/٢٧ .

وقد اثار مكلويد موضوع تطبيق بنود المعاهدة وقبل مغادرته الى منطقة الساحل العربى كان مكلويد قد اقتنع بان نظام التصاريح والسجلات الذى نصت عليه المعاهدة قد يكون اجراء كافيا لقمع القرصنة ، بشرط ان يمنح السجلات للسفن التجارية وليس للسفن المسلحة غير ان هذا الافتراض قد واجه اعتراضين ، الاعتراض الاول هو ما اشار اليه الكابتن طومسون قبل ثلاث سنوات من انه لا يمكن رسم خط فاصل بين السفن المسلحة والسفن التجارية اما الاعتراض الثانى فهو ان الحكومة البريطانية وحدها لا تستطيع تحديد هوية السفن عند اصدارها التصاريح لها والنتيجة التى يمكن ان نخرج بها من ذلك هى ان اى محاولة لفرض شروط المعاهدة بالقوة سوف تكون لها اضرار وخيمة . ونفس الراى ينطبق على البند التاسع من المعاهدة الخاص بحظر تجارة الرقيق .

ترك تقرير مكلويد انطبعا ملحوظا لدى الفنسستون الذى وافق على اراء المقيم البريطانى بوجه عام . فبالنسبة للمادة الرابعة من المعاهدة اتفق الاثنان على انها تعنى دعوة القبائل الى العيش فى سلام مع بعضها البعض ، كما انها بمثابة التعهد من الحكومة البريطانية بعدم التدخل فى شئون القبائل او خلافاتها ، وبالتالي فلا يجوز تفسيرها على انها تعنى حظر العمليات الحربية فى البحار . ان ثمة اعتراضات قوية على فرض قيود على السكان العرب الذين تربطنا بهم معاهدات او اتفاقيات ، وهى اعتراضات ناشئة عن استحالة فرض نفس تلك القيود على الدول الاخرى كما اشتهر الفنسستون الى انه فى حالة نشوب نزاع بين العرب انفسهم فان هذا النزاع لن يخلو من وجود مشكلات ، لان كل زعيم من هؤلاء الزعماء يجد نفسه معبونا او مظلوما لابد انه سيطالب الدولة التى تحده من خزيته فى الحصول على حقه بوسائله الخاصة او بتعويض . وبعد ان فرغ الفنسستون من هذا الموضوع

بدأ البحث في موضوع آخر يتعلق بفرض الحظر على بناء التحصينات في الموانئ الخاصة بالقبائل الساحلية ، التي وردت في معاهدة كير ، وفيما اذا كان من الممكن أن يستمر العمل بها ، وكان سلطان بن صقر الذي كان حريصا على اعادة بناء التحصينات في رأس الخيمة والشارقة قد سأل مكلويد ، عما اذا كان ذلك الحظر لا يزال ساري المفعول من حيث أن المعاهدة لم تتضمنه ، وقد اضطر مكلويد الى الاعتراف بأن ثمة بعض الغموض يشوب هذا الموضوع ، ولكنه عاد فحذر سلطان بن صقر بأنه على الرغم من أنه من حقه اعادة بناء التحصينات في رأس الخيمة والشارقة ، الا ان عليه أن يمتنع عن اقامة تحصينات على الناحية البحرية للموانئ وقبل أن يمر وقت طويل استغل سلطان بن صقر غياب الطراد المسئول عن مراقبة ساحل رأس الخيمة فقام ببناء قلعة مربعة الشكل ارتفاعها ٣٠ قدما في مواجهة الساحل ، فما كان من الكابتن فيثفول القائد المسئول عن الاسطول في الخليج والذي رأى في آراء صقر تحديا لتحذيرات المقيم الا أنه أبحر بخمس طرادات الى رأس الخيمة ، وقام بقصف وتدمير القلعة دون ابلاغ مكلويد مقدما بذلك (١) وعلى اثر ذلك اصدر الفنتستون قرارا لم يصل الى مكلويد الا في شهر مارس ١٨٢٣ ويتضمن رفع الحظر على اعادة بناء التحصينات ولكنه طلب الى مكلويد ابلاغ شيوخ المنطقة بذلك القرار على أن يؤكد لهم بأنه في حالة استخدام تلك التحصينات لأعمال القرصنة فان الاسطول سوف يقوم بتدميرها (٢) .

- (١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلد ٩ من مجلس الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٤/١/١٤ (رقم الادارة السياسية) .
 (٢) المحادثات السياسية لحكومة بومباي مجلد ٣٣ حلقة ١٨٥ رقم ١٣ ١٨٢٣/٣/٢٦ من نيو هام الى مكلويد في ١٨٢٣/٣/٢٦ وقد قدم زكي خان رئيس وزراء امير شيراز احتجاجا على اجراءات فيثفول الى = (٢٢٦ - بريطانيا والخليج)

— ٣٣٨ —

وقد وافق الفنستون على آراء مكلويد فيما يتعلق بالبند الخاص بتجارة
الرقائق على أنه سوف يكون غير قابل للتطبيق ، كما كان الفنستون يدرك
أن البند الخاص بسفن وأعلام المعاهدة وتصاريح السفن لا يمكن الاعتماد عليه
فى تحديد هويات السفن وعلى الرغم من أنه اعترف بأن الحكومة البريطانية
لا تملك بموجب المعاهدة حق التمييز بين السفن المشروعة وغير المشروعة
عند اصدار التصاريح الا أنه أكد على أنه لابد من ذلك الاجراء لما سوف
له من اثر على النظام ، غير ان هذا النظام لم يوضع موضع التجربة ، وحتى
بداية شهر مايو ١٨٢٣ لم يتقدم ربان اى سفينة من الموانى التى وقعت على
المعاهدة للحصول على تصريح كما لم يصدر اى شيخ ورئيس تصريحاً لاي
سفينة ، وبالتالي فقد ابلغ مكلويد الفنستون فى نفس الشهر أنه من الأفضل
صرف النظر عن هذا الموضوع نهائياً ، لأنه ليس هناك أمل فى أن يسعى
العرب من تلقاء انفسهم للحصول على سجلات وتصاريح وأن اى ضغط
من جانب السلطات البريطانية عليهم سوف يؤدى الى استفزازهم ، وقد
اعترف الفنستون بصحة هذا الرأى فكلف مكلويد فى شهر يونيو بالغاء
هذا النظام (١) .

= مكلويد ، على أساس انه اجراء يعد افتثانا على سلطة حكومة
فارس على منطقة الخليج باسرها وعلى سكانها . وقد أخبر
الفنستون مكلويد بأن يرد على رسالة زكى خان بأن الحكومة البريطانية غير
معترفة بحق أى دولة فى التدخل فى تعاملها مع قبائل الساحل الغربى
(سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد رقم ٩ من الحاكم الى
مجلس ادارة الشركة فى ١٤/١/١٨٢٤ (رقم ١ الادارة السياسية) .
(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ رقم ٢٥ مجلد
٣٦ فى ١٨/٦/١٨٢٣ من مكلويد الى نيو هام فى ٥/٥/١٨٢٣ ومن نيو هام
الى مكلويد فى ١٧/٦/١٨٢٣ .

وهكذا فبعد انقضاء ثلاثة أعوام على معاهدة كير أصبحت معظم نصوصها غير سارية وغير ضرورية وينطبق هذا على غيره من الإجراءات القسرية التي فرضت للحد من أعمال القرصنة كمنع تصدير الأخشاب من الهند الى ساحل القراصنة واغلاق موانئ الهند البريطانية في وجه السفن القادمة من ساحل القرصنة ، كذلك صرف النظر عن موضوع رفع السفن لاعلام المعاهدة ، ورغم أن بعض الشيوخ كانوا يرفعون تلك الاعلام على سفنهم احيانا فان الاكثرية منهم لم تكن تكثر بذلك ، مفضلة رفع اعلامها التقليدية الحمراء (١) وهكذا تغيرت الأمور من سياسة التهديد الى سياسة التعقل والحكمة المقرونة بالحزم على غرار ما اقترحه كل من واردين وكير سابقا ، وأخيرا مكلويد ، وعلى الرغم من ان فترة عمل مكلويد في الخليج كانت قصيرة فقد توفي بالحمى في بوشهر في سبتمبر ١٨٢٣ وأن تأثيره في علاقات بريطانيا بقبائل السلاسل في الخليج بقى مستمرا ، كما ان المسار الذي تصوره مكلويد لتلك العلاقات قد تحدد بوضوح في ختام تقريره الشهير المؤرخ ١٨٢٣/٢/٢٧ والذي استمر العمل به على امتداد الفترة الباقية من القرن فيما عدا بعض تغييرات طفيفة ادخلت عليه . حيث جاء فيه .

« وينبغي علينا تشجيعهم بقدر الامكان على مزاولة أعمال التجارة ، وان نحاول تشجيعهم على الميول السلمية عن طريق تقديم ما في وسعنا من الحماية ، على ان نؤكد لهم في نفس الوقت حقنا في الحفاظ على الأمن في البحار . غير ان الأحقاد ونزعة النهب والسلب وحياة الفقر التي كانت تعاني منها هذه القبائل والتي كانت نزعات متأصلة فيها بقيت عقبة في تحقيق هذه الاهداف ، وبالتالي فلم يكن من المعقول ان نتوقع اصلاحا كاملا وسريعا كما لم يكن ينبغي ان نعتمد على أي شيء سوى قوتنا لارغامهم على

(١) لقد تغيرت اعلام المعاهدة فيما بعد الى اعلام المصالحة وهذه الاعلام لا تزال قيد الاستعمال من جانب اغلبية شيوخ ساحل الصلح .

احترام التعهدات ، ان هدفنا الرئيسى كما أتصوره هو الحد من الاشتباكات البحرية التى تنشأ بين هذه القبائل بقدر المستطاع كما ينبغى أن نحول بين قيام صراعات داخلية فيما بينها حتى لا تؤدي الى انتشار الفوضى من جديد كما أنه علينا فى الوقت نفسه أن لا نتدخل فى شئونهم الداخلية وأن نكون حذرين كل الحذر فى تجنب ما يسىء اليهم . وثمة مجال واسع للعمل بموجب سياسة الضبط للمنطقة مضمونة بالأسلوب الودى الذى التزمت بها الحكومة فى سياستها ، وعلى أى حال فقد يكون لنا الخيار فى تجنب استعمال الشدة مع الشيوخ تجنباً لاستفزازهم ، ويجب ألا يغرب عن بالنا أن أى إجراء يتسم بالشدة والتسرع سوف يتمخض عن قيام توتر بين هذه القبائل الفوضوية اليائسة .

كان اول عمل للقرصنة ارتكبه رجال القبائل فى منطقة الساحل منذ التوقيع على المعاهدة فى بداية عام ١٨٢٤ عندما هاجمت ثلاث سفن تابعة لقواسم الشارقة بالقرب من جزيرة سقطرة إحدى السفن التابعة للمهرة على الساحل الجنوبى من شبه الجزيرة وقاموا بنهب السفينة وذبح بحارتها، وكانت السفن الثلاثة فى طريقها الى ممباسا ، لمساعدة قبيلة المزاريع التى تقيم هناك ، وكان هؤلاء أعلنوا تمردهم على السيد سعيد حاكم مسقط (١) وعلى اثر ذلك وجه اللغتنانت كولونيل اى.جى ستانوس الذى خلف مكلويد فى منصب المقيم وكان ضمن رجال حملة كير السابقة، رسالة الى سلطان بن

-
- (١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ مجلد رقم ١٣ بتاريخ ١٨٢٣/٣/٢٦ من مكلويد الى نيو هام ١٨٢٣/٢/٢٧ .
- (٢) عن ثورة المزاريع يمكن الاطلاع على كتاب كويلاند «افريقيا الشرقية وغزاتها» ص ٢١٧ - ٢٢٦ بالنسبة لمزاريع افريقيا الشرقية يستخدم كويلاند كلمة المفرد أى المزدوى فى كتابه ولعل هذه القبيلة تمت بصلا الى قبيلة المزاريع المنتشرة على ساحل القرصنة .

سقر يطلب فيها احتياز أصحاب السفن الثلاث عند عودتهم ريثما يتم التحقيق فى الموضوع ، كما بعث بتعليمات الى الضابط البحرى المسئول فى «خور باسيدو» بالبحث عن تلك السفن ، واحتجازها اذا استطاع (١) اما كيف سيتم التصرف بأولئك القراصنة فى حالة القاء القبض عليهم فقد كان هذا موضوعا آخر ، وحتى تسليم استانوس لمنصبه لم تصدر أية أوامر من دار المقيم الى ضباط البحرية بكيفية معاملة القراصنة باستثناء ما صدر منها فى شهر اغسطس ١٨٢١ . وكانت هذه القوانين قد صيرف النظر عنها وبقي ضباط البحرية بغير تعليمات تحدد لهم كيفية التصرف بالقراصنة ، وبمجرد وصول استانوس للخليج أدرك أنه لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر ، ولهذا أصدر فى شهر ابريل ١٨٢٤ مجموعة من القوانين الجديدة ليعمل بها ربانة الطرادات وتنص على أنه فى هجوم احدى السفن على سفينة ترفع العلم البريطانى أو سبق لها أن هاجمت السفن البريطانية فيجب اغراقها على الفور اما اذا وقع الهجوم على سفن غير بريطانية فيجب اعتقال الجناة وحجزهم ، وبالنسبة للسفن المشتبه فى انها تمارس أعمال القرصنة فيجب حجزها وتسليمها للمقيم مع كافة الأدلة التى تدينها بذلك ، اما اذا لم يكن هناك من الأدلة ما يبرر الاستيلاء عليها أو حجزها فينبغى إرسال مواصفات السفينة وتفاصيل عن بحارتها الى المقيم البريطانى للعلم (٢) ، وقد صادق الفنستون على هذه القوانين دون ادخال أى تعديل عليها وقال بأنه فيما يختص باغراق السفن فلا ينبغى أن يفسر بعدم اعطاء الفرصة لأصحاب السفن

-
- (١) سجلات الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٥/٧/٢ (رقم ٦ الادارة السياسية) .
- (٢) محادثات حكومة بومباى السياسية حلقة ٣٨٥ مجلد ٤٨ رقم ٢٠ .
- فى ١٨٢٤/٥/١٩ . من استانوس الى الكابتن سيلى ١٨٢٤/٤/١٨ .

٣٤٢ -

الدفاع عن أنفسهم كما يجب ارسال تلك السفن وبخارتها الى بومباي وليس الى بوشهر لاجراء محاكمتهم (١) .

عندما وصلت انباء عملية القرصنة التي قامت بها سفن القواسم بالقرب من سقطرة الى الفنستون رأى انه من الافضل اعادة النظر فى قرار احضار القراصنة الى بومباي للمحاكمة ، فقد نشأت صعوبات حول هذا الموضوع حتى ان المدعى العام بدأ يشك فيما اذا كانت المحكمة العليا فى بومباي ، بوصفها المحكمة المختصة بقضايا الاميرالية البريطانية ، تملك حق المحاكمة فى القضايا التى تمس الرعايا والسفن غير البريطانية ، فضلا عن ذلك فقد كانت هناك ملاحظات أعضاء مجلس ادارة الشركة على حجز أسرى بنى بوعلى فى بومباي التى لاتزال ذكرها ماثلة فى الاذهان . وقد بدأ ان هناك حلين امام السلطات فى بومباي فى معالجة موضوع المتهمين ، الحل الاول هو تسليمهم الى القبيلة المعتدى عليها ، والحل الثانى هو تسليمهم الى رئيس قبيلتهم لمحاكمتهم ثم اصدار العقوبة المناسبة ضدهم ، أما بالنسبة لتسليمهم الى خصومهم فقد كان يعنى الحكم المسبق عليهم بالاعدام ، وقد قال الفنستون بأن مثل هذا الاجراء سيعيد تطرفا قاسيا لكل الجرائم التى ارتكبوها ، وأما عن الاجراء الآخر فقد قال بأنه قد يسمح للقراصنة بالافلات من العقوبة ، اذ لم يكن من المعقول ان يعاقبهم زعمائهم وبخاصة فى قضية كهذه القضية وانه من المحتمل ان يكون لسلطان بن صقر ضلع فى ارسال السفن الى ممباسا للتحرش بعدوه القديم السيد سعيد . وعلى أى حال فقد كان هذا الاجراء هو الاجراء الوحيد أمام السلطات البريطانية ، وبالتالي فقد أيد الفنستون هذا الحل عند عرضه على الحاكم العام اللورد امهرست على اساس انه يفس مسألة لا علاقة لها

(١) من نيو هام الى استانوس ١٨٢٤/٥/١٨ عن نفس المحادثات ،

بالسفن والرعايا البريطانيين (١) . غير أن امهرست عارض الفنستون فى حيثياته وقال بأن القراصنة لا ينبغي تسليمهم الى القبيلة المعتدى عليها خوفا من المصير الذى سوف ينتظرهم عند تلك القبيلة (. . .) اننا غير ملزمين بأن ندقق فى نوع العقوبة التى قد يفرضها الطرف المعتدى عليه (٢) وعلى اى حال ، اضاف امهرست بأن الضابط الذى يقوم باعتقال اى متهم له الخيار سواء من حيث الجريمة او من حيث أدلتها فى اتخاذ القرار الذى يراه ، سواء بتسليم المتهم الى الطرف المعتدى اليه أو الى شيخ قبيلته ، وقد اضطر الفنستون الى الاذعان لتعليمات الحاكم العام فأبلغ استانوس فى شهر يوليو ١٨٢٤ بادخال تلك التعديلات على القوانين التى قد أصدرها استانوس .

أما السفن الثلاثة التابعة للقواسم فقد عادت من افريقيا الشرقية وما ان علمت بعزم الحكومة البريطانية على الاستيلاء عليها حتى غيرت طريق رحلتها وقد عثر على احداها فيما بعد فى خليج خرك على الساحل الفارسى وقد عثر على احدى تلك السفن فى حالة غير صالحة للعمل وتم تدميرها ، وفى اواخر ١٨٢٤ تناهى الى علم استانوس أن احدى السفينتين موجودة فى مطرح شمال مسقط حيث كانت تختبئ منذ عدة اشهر بسبب تساهل أحد ربانة السفن البريطانية معها ، وبمجرد أن عرف استانوس بهذه الحادثة الغربية أبحر الى مسقط لمقابلة السيد سعيد وعلم منه بأن السفن الثلاثة موضوع البحث قد استوقفها أحد الطرادات البريطانية «ايريادين» وقد

-
- (١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٩/ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٥/٧/٢ (رقم ٦ الادارة السياسية) .
 (٢) المصادف السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ مجلد ٤٩ رقم ٣٠ فى ١٨٢٤/٧/٢٨ م. من جورج سونيتون (مسكرتير الحاكم العام) الى نيو هام فى ١٨٢٤/٦/٢٥ م.

قام ربانه الكابتن هورسم بنقل الحمولة المنهوبة من سفينة المهرة وإعادها
لألى أصحابها واعتقاداً من الربان بأن بحارة السفن المذكورة قد نالوا ما
يستحقون من العقاب فقد سمح لهم بالعودة إلى الشارقة . وقد رأى
استانوس بأنه لو أصر على تسليم السفينة الموجودة فى مطرح فان ذلك
سيكون تصرفاً غير ودى منه وسوف يلقى ظلاً من الشك على نوايا الحكومة
البريطانية كما سيؤدى إلى تفاقم العداء بين السيد سعيد وسلطان بن صقر
كما كانت هناك اعتبارات أخرى وهى أن الحكومة البريطانية لم يكن من حقها
أن تطالب بتسليم السفينة ولذلك فقد أبلغ استانوس الفنستون بأنه من
الأفضل صرف النظر عن ذلك الموضوع وقد وافقه الفنستون على رأيه .

كانت نهاية هذا الحادث عائقاً فى سبيل وضع تعليمات الحاكم العام
موضع التنفيذ ، الأمر الذى تكرر فى حادث خطر آخر من حوادث القرصنة .

وفى صيف ١٨٢٥ تعرضت إحدى سفن البحرين وكانت بالقرب من
جزيرة هنجام لهجوم من سفن القواسم قتل خلاله ثلاثة من بحارتها كما
استولوا على حمولة كبيرة من التوابل . وعند وصول الضابط البحرى
المسئول الى مكان الحادث على رأس قوة بحرية للمطالبة بامادة البضائع
المنهوبة ودفع التعويضات عن الخسائر التى نجمت عن الاعتداء أذعن سلطان
بن صقر لطلبه وتعهد له بمعاينة الجناة ، كما تعهد بدفع الفدية عن ضحايا
الحادث ، ولم يرد أى ذكر فى تلك المقابلة عن تسليم الجناة الى القبيلة
المعتدى عليها ، كما ان هذه المسألة لم تثر مع شيوخ المنطقة خلال الأعوام

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٠١ من الحاكم
الى مجلس الادارة ١٨٢٦/٤/١٩ (رقم ٥ الادارة السياسية) .

الثلثة التالية ٤. وفى اواخر ١٨٢٨ تعرضت إحدى سفن عمان التابعة لصحار (١) لهجوم من سفينة تابعة لرأس الخيمة وكان يقودها شخص يدعى مسلم بن راشد ، وكانت تبخر من ساحل الباطنة وقد ربط جميع بحارتها وعددهم أربعة عشر شخصا على مرساة السفينة وقذف بهم الى البحر وبالنظر الى ما كان متوقعا أن تحدثه تلك الجريمة الشنعاء من ردود فعل لدى الحكومة البريطانية ، فقد قام سلطان بن صقر بإرسال سفينته الخاصة لتعقب مسلم بن راشد وكانت سفينة مسلم وأتباعه قد ارتطمت بساحل لنجى فأمكن انتشالهم ثم أحضارهم الى رأس الخيمة ، كما تم إعادة حمولة السفينة الى حاكم مسقط ، بما فى ذلك القراصنة كتعويض عن مقتل بحارة السفينة وقد أودع مسلم بن راشد سجن رأس الخيمة ثم نفذ فيه حكم الإعدام (٢) فيما بعد .

وفى هذه المرة أيضا لم يرد ذكر لموضوع تسليم المتهمين وهكذا فان هذا القانون لم يطبق منذ اللحظة التى صدر فيها لأن المسئولين السياسيين والبحريين البريطانيين فى الخليج بحكم معرفتهم للظروف السائدة قرروا عدم العمل بالقانون لأنه كان سيسىء فى اعتقادهم لموقف بريطانيا من العرب ، وراؤا من الأفضل أن يلتزموا بقوانين العرف السائدة فى المنطقة وهو فرض تعويضات عن عمليات القتل والنهب التى ترتكب ، الأمر الذى كان يتفق أكثر مع مفهوم العدالة العربية بدلا من ادخال مفاهيم شرعية غريبة مستمدة

-
- (١) كان هناك أكثر من ١٢ نوعا من السفن المحلية فى الخليج خلال القرن الاخير وهى تختلف أساسا فى الحجم والشكل والمقدمة والبطول والقاعدة . وهناك نوع اسمه البقرة اكبر انواعه البغلة ولها ساريقان ، سارية رئيسية وسارية داخلية وكلاهما يحمل شراعا واحدا .
- (٢) مختارات من أرشيف حكومة بومباي المجلد ٢٤ ص ٣٢٢ ، من كتاب اللفتنانت اس هنل (لمحة تاريخية عن قبيلة القواسم الغربية ١٨١٩-١٨٣١ .

من التجارب البريطانية . وقد قام بالتصديق على القانون السير جون مالكولم ،
الذى خلف الفنستون كحاكم على بومباي وذلك فى شهر سبتمبر ١٨٢٨
وكلف المقيم البريطانى الخليج بقصد تدخله فى قضايا القرصنة التى لاتمس
الرعايا البريطانيين فى طلب التعويض فحسب ويترك أمر معاقبة الجناة
الى زعمائهم اما اذا ما تطلب الحصول على التعويضات واستعمال القوة فعلى
تلك الحالة يمكن للمقيم ان يستعين بالقوة البحرية المرافقة فى الخليج لتنفيذ
ذلك كما طلب عدم ارسال المتهمين الى بومباي للمحاكمة الا فى حالة وقوع
الاعتداء على الرعايا البريطانيين (١) ، وقد استمر العمل بأحكام هذا القانون
طوال الفترة الباقية من القرن .

وفى عام ١٨٢٨ تغير مفهوم استعمال القوة البحرية المرافقة فى الخليج
لقمع القرصنة من دور الهجوم حسبما تضمنه شعار (المراقبة والتفتيش)
الى دور الدفاع أى الزيارات الدورية لموانئ المنطقة والزام حكامها بالتعويضات
عن الاعتداءات التى يقتربها رعاياهم فى البحار . والواقع أن التعديل
الذى ادخل على القانون قد فرضته الضرورة الناتجة عن الصعوبة فى
الاحتفاظ بالقوة البحرية فى الخليج بكاملها وعلى الأخص فى الفترة الواقعة
فيما بين سنة ١٨٢٤ وسنة ١٨٢٦ عندما اضطرت البحرية الى توفير سفن
لحملة المرسلة الى بورما . على أن الهدوء النسبى للخليج خلال تلك الفترة
قد ساعد هو الآخر على تخفيض حجم القوة المرافقة فى الخليج دون أن
يؤثر على أمن المنطقة ، وفى شهر يناير من سنة ١٨٢٧ أبلغ الكولونيل ستانوس

(١) من مختارات حكومة بومباي مجلد ٢٤ ص ٣٢٢ « لمحة تاريخية عن

قبيلة القواسم العربية » تأليف اللفتنانت أسى هنالك .

حكومة بومباى بأنه يمكن الاستغناء عن أحد الطرادات العاملة فى الخليج (١) وفى شهر مايو من سنة ١٨٢٨ تقدم خلفه الماجور ديفيد ويلسون بمشروع لقصر أعمال المراقبة فى الخليج على أربعة طرادات فقط . وقد وافقه رؤساؤه على المشروع غير أن العنصر الغالب فى مفهوم وظيفة القوة البحرية فى الخليج أصبح يرتبط بالادراك المتزايد لعدم امكان القضاء على القرصنة فضاء مبرما طالما بقيت الاشتباكات والنزاعات بين سكانه قائمة .

كانت القرصنة الوباء الذى يشكو منه الخليج لأنها كانت تعوق حركة الملاحة التجارية وتؤدي الى الفوضى وتستنزف الموارد الضئيلة للمنطقة وعلى طول ساحل الخليج من الكويت حتى مسقط لم تكن توجد دولة او بلد واحد على الأقل لم يكن متورطا فى صراع او نزاع مع جيرانه ، فكان رحمة بن جابر زعيم فرع قبيلة الجلاهمة من المتوب فى قتال مستمر ضد آل خليفة حكام البحرين ، ولم يقتصر تورط شيوخ البحرين على ضد الهجمات التى كان ينسبها رحمة على سفنهم فى المناطق الواقعة بين الساحلية القريبة من البحرين فحسب ، وإنما كان عليهم ان يواجهوا تمرد زعمايهم فى كل من الوكرة والدوحة شرقى قطر ، بالإضافة الى مواجهة المحاولات التى كان يقوم بها امير اقليم فارس لانتزاع البحرين منهم . كما أن بنى ياس سكان ابو ظبى ودبى كانوا على عداء مستمر مع القواسم سكان الشارقة ورأس الخيمة ، كما كان هؤلاء بدورهم على عداء مع آل بو سعيد حكام مسقط الى حد دفعهم الى التحالف مع كل من يجرؤ على تحدى جبروت السيطرة البحرية لمسقط كما دفعهم ذلك الوضع الى التدخل فى شئون عمان بانحيازهم لقبيلة الغافرية فى عمان ، فكان آل بوسعيد يرون على عكس ذلك مع آل بو فلاح . وكانت هذه الاحقاد والخلافات تؤدي فى أغلب الأحيان الى اشتباكات بحرية بين تلك

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى مجلد ٤٠ حلقة ٣٨٦ رقم ٧ -

١٨٢٧/٢/١٤ من رمتانوس الى نيو هام ١٨٢٧/١/٢٠ .

الاقطار ، وكانت النتيجة الحتمية هي أن الاشتباكات كانت تساعد على انتشار أعمال القرصنة ، أما الاوربيون فانهم لم يكونوا يستطيعون التمييز بين القرصنة والخلافات السياسية وكما أشار كل من طومسون ومكلويد فان أى سفن تخرج الى البحر للقتال لابد وان تتحول الى ممارسة القرصنة ، غير أن المشكلة التي كانت مثار نزاع منذ عام ١٨٢٨ هي الى أى مدى كان فى إمكان السلطات البريطانية أن تمضى فى وقف الاشتباكات الحربية بين تلك الدول البحرية ؟ لقد صرح مكلويد بأن « الهدف الأكبر » للسياسة البريطانية هو وقف الحروب البرية بين قبائل المنطقة ، غير أنه حذر من استغلال الصداقة لتهديد الشيوخ أو التأثير عليهم ، وكانت هناك أسباب حقيقية ، عملية وقانونية تحتم عدم اعتبار الحروب البحرية أعمالا محظورة ليس بين الدول المشتركة فى توقيع المعاهدة وبين غيرها فحسب ، بل فيما بين تلك الدول نفسها ايضا ، وحتى فى حالة نشوب نزاع بين العرب انفسهم فان نشوء مثل هذا النزاع كما أشار الى ذلك الفنستون فى مارس ١٨٢٣ لن يخلو من مشكلات ، لأن الزعماء القبليين الذين يجدون انفسهم مغبونين فى أى صراع سيطالبون بحقوقهم فى التعويض من الدولة التي تقف حائلا بينهم وبين الحصول على حقوقهم بوسائلهم الخاصة (١) . وكانت نتيجة لهذا الوضع المائع ظل المقيمون البريطانيون يفتقدون التوجيه الصحيح عن الكيفية التي يمكنهم التدخل فيها فى الاشتباكات البحرية بين قبائل المنطقة . اذ ان التعليمات كانت تطالبهم بالعمل على وقف تلك الاشتباكات حتى لا تعكر صفو الملاحة التجارية .

ويشكل التجمع السنوى لسفن صيد اللؤلؤ صيف كل عام مرتعا خصبا للفتن والاضطرابات ، ولهذا فقد اقترح الكولونيل ستانوس فى شهر مارس ١٨٢٤ بأن يربط طرادان فى المنطقة لمنع الحوادث وقد تم تنفيذ هذا

(١) محادثات بومباي السياسية حلقة ٣٨٥ مجلد ٣٣ رقم ١٢ - ١٩

مارس ١٨٣٢ من نيو هام الى مكلويد ١٥ مارس ١٨٢٣ .٩

الاقتراح ، وان كان قادة السفن الحربية قد حذروا باتخاذ كل الاحتياطات عند تدخلهم فى مثل تلك المنازعات (١) . ونظرا لوجود تلك الحماية التى تقدمها السفن البريطانية كل عام فانها سوف تمنع نشوب صراعات فى منطقة المصايد خلال موسم اللؤلؤ ، وان أى فئة تخالف تلك التعليمات تعتبر ضمن الفئات التى تمارس القرصنة وقد أصبح هذا القانون سارى المفعول ، وان كان قد فسر غياب الطرادات البريطانية من منطقة المصايد سنة ١٨٢٩ كنتيجة للاشتباكات القائمة بين البحرين ومسقط على أنه اجراء تأديبى للأطراف المعنية .

وكان هذا بالفعل هو المقصود منه (٢) أما بالنسبة للاشتباكات البحرية نفسها فان مالكولم لم يبد أى استعداد لوضع حد لتلك الأعمال فيما عدا الاوامر التى ارسلها الى المقيم البريطانى باستخدام نفوذه فى اقناع زعماء المنطقة بالتعايش السلمى وبعدم اللجوء الى القوة فى حل الخلافات . كما عارض مالكولم التزام حكومته بتقديم ضمانات عن التسويات التى قد يتوصل اليها زعماء المنطقة لخلافاتهم ، اما فيما يتصل بالمسائل العامة للخليج فقد ذكر ما لكولم بأنه ينبغى علينا أن نعتبر أنفسنا مسئولين عن استخدام قوتنا البحرية فى القضاء على القرصنة فى المنطقة ، وانطلاقا من هذا التصور فان تفوقنا فى هذا المجال يخول لنا أن نتقلد مسؤولية توجيه الاطراف المعنية

-
- (١) محادثات بومباى السياسية حلقة ٣٨٤١ مجلد ٤٧ رقم ١٩ - ١٨٢٤/٥/١٢ من ستانوس الى نيو هام ١٨٢٤/٣/١٦ (من نيو هام الى ستانوس ١٨٢٤/٥/٨) .
- (٢) ملخص لرسائل الخليج ١٨٩١ - ١٨٥٣ ض ١٨٥ من السكرتير السياسى لحكومة بومباى الى المقيم ١٨٢٩/٧/١ (رقم ٦٩٣) .

لتسوية خلافاتهم بالطرق السلمية كما علينا أن نقبل نتائج هذه المسؤولية سلبا كانت أو ايجابا .

والواقع أن مالكولم لم يكن اكثر رغبة من الفنستون فى ان يتولى دور الحكم فى منازعات الخليج فقد سبق لمالكولم أن واجه نفس المشكلة عندما تورطت احدى الدول المشتركة فى المعاهدة فى نزاع مع دولة لم تكن مشتركة فى التوقيع على المعاهدة ، وقد نشأ النزاع نتيجة لحرب الاستنزاف التى كان يشنها رحمة بن جابر ضد آل خليفة وكان رحمة قد ترك قاعدته فى خور حسن على الساحل الغربى من قطر سنة ١٨١٦ بعد ان اختلف مع الوهابيين وقام بتدمير قلعة للوهابيين تقع فى الأحساء ، وعلى ذلك اضطر الى نقل مقره العام الى بوشهر حيث بقى فيها عامين كمواطن فارسى ، وبعد اندحار الوهابيين على يد ابراهيم باشا فى عام ١٨١٨ عاد الى الدمام مع اتباعه وأعاد بناء القلعة واستأنف حملاته ضد آل خليفة .

فى ابريل ١٨٢٨ طوبل رحمة بن جابر بأن يلتزم بشروط المعاهدة العامة غير أنه رفض بحجة أنه من رعايا فارس ، غير أن السبب الحقيقى لرفضه يعود الى خصومه فى البحرين لأنهم كانوا شركاء فى التوقيع على المعاهدة . وخلال موسم صيد اللؤلؤ عام ١٨٢١ هاجم رحمة اسطول الصيد البحرينى ، واستولى على سبع سفن وقتل عشرين شخصا من بحارتها ، وقد طلب شيوخ آل خليفة من المقيم البريطانى التدخل لمعاقبة رحمة بن جابر الذى قدم احتجاجا الى السلطات الفارسية يطالبها باتخاذ الاجراءات اللازمة ، غير أن رحمة تخلى عن جنسيته الفارسية ولجأ الى السيد سعيد فى مسقط ، وفى بداية عام ١٨٢٢ وافق على الاجتماع بالشيخ عبد الله بن أحمد اكبر مشايخ آل خليفة ، وتم الاجتماع بحضور المعتمد السياسى للخليج . وبذلت فى الاجتماع محاولات لتسوية الخلافات بين الطرفين وعلى الرغم من ان الاجتماع قد تم فى باسيدو غير ان مطالب الجالبيين

كانت متباعدة جدا لدرجة ان المعتمد السياسى البريطانى اعلن استحالة التوفيق بينهما . وفى شهر نوفمبر من العام التالى رفع السيد سعيد حمايته عن رحمة بعد ان فقد الامل فيه فعاد رحمة الى الدمام من حيث اخذ يمارس اعمال القرصنة ضد سفن البحرين (١) .

قبل ان يعين الكولونيل ستانوس الذى كان خبيرا فى سلوك بن رحمة مقيما بريطانيا فى الخليج سنة ١٨٢٤ قرر القيام بمحاولات لايجاد نسوية للخلاف بين آل خليفة ورحمة ، وكان رائده فى ذلك هو تحقيق الامن والاستقرار فى الخليج . وفى بداية شهر فبراير سنة ١٨٢٤ اثناء اول جولة قام بها للسواحل العربية حاول الاجتماع بجابر وفى ٧ من فبراير وبحضور كل من رحمة وعبد الله بن احمد اتفق الجانبان بوقف العمليات الحربية بينهما واعادة السلع المنهوبة وتحقيق السلم الدائم بينهما (٢) غير ان هذا السلم الدائم لم يستمر اكثر من عامين ، وفى اواخر عام ١٨٢٥ طالب رحمة بن جابر اهالى القطيف باستئناف دفع الزكاة التى كانوا يدفعونها اليه مقابل عدم الاعتداء على سفنهم ، وانهم اذا رفضوا دفع الزكاة فان رحمة سوف يهاجم جميع السفن الداخلة او الخارجة منه ، وقد قام ستانوس بارسال طرادين الى الدمام لحماية السفن التجارية وحذر رحمة مسئولية اصابه وطالبه بالكف عن الاعتداءات على السفن

(١) من مجموعة مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٥٢٣ - ٥٢٦ ،
(صورة لمحادثات رحمة بن جابر شبيب خور حسين) اعداد اف . و اردن
واس هنل .

(٢) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ مجلد ٤٧ رقم ١٧
مؤرخ فى ١٨٢٤/٤/٢٨ من ستانوس الى نيو هام فى ١٨٢٤/٢/٧ ومرفق معه
نص الاتفاق المشار اليه .

غير أن رحمة تجاهل الانذار وقد شجعه على ذلك الوهابيون الذين كانوا قد استغلوا مركزهم في نجد ، وأخذوا يسعون الى تقويض نفوذ بنى خالد حكام الاحساء ، وهما محمد وماجد العيار ، اللذان يحكمان القطيف في ذلك الوقت ، وعند عرض الموضوع على الفستون قرر انه مهما كانت اعمال رحمة تهدد امن المنطقة فقد كانت اعمالا جريئة مشروعة وانه طالما انحصرت تلك الاعمال في المنطقة القريبة من القطيف فلم تكن هناك اسباب تبرر منعه ولذلك ارسلت الاوامر الى استاتونس بسحب الطرادين من القطيف (١) .

غير ان رحمة لم ينتفع من سحب الطرادين لان الكويت والبحرين عبأتا امكانياتهما البحرية واخذتا تهددان جابر بعد ان انتهك الاتفاقية المعقودة مع آل خليفة وهاجم السفن التابعة لهم . كما هاجم سفن آل صباح اقارب آل خليفة وفي نهاية عام ١٨٢٦ تقريبا قام شيخ آل خليفة وبنو خالد حكام القطيف بمحاصرة الدمام وقد خرج رحمة الى المنطقة السفلى من الخليج لجمع امدادات بعد ان ترك ابنه للدفاع عن الدمام غير ان السيد سعيد رفض مده باى مساعدة ، وذلك بسبب الاتفاق الذى كان قد عقده مع آل خليفة والذى كان السيد سعيد يعتقد بأنه اضر بحقوقه في البحرين ، وعند وصول رحمة بن جابر الى بوشهر فى بداية شهر ديسمبر عرف بأن حكومة فارس قد أصبحت هى الاخرى تعتبره رجلا خارجا على القانون ، فكان ذلك بمثابة الصدمة له وبخاصة وانه قد أصبح شيخا كبيرا يناهز السبعين وانه فقد كلتا عينيه ولا توجد منطقة من جسمه الا وعليها آثار الجروح والندوب من اثر المعارك التى خاضها وبما

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٦/٢/١٩ (رقم ٥ الادارة السياسية) ومجموعات مختارات بومباى المجلد ٢٤ ص ٥٢٧ (صورة تاريخية لرحمة بن جابر) .

- ٣٥٣ -

انه لم يبق له من كل اسطوله سوى سفينة واحدة وبما ان اتباعه الذين كان دائما يقودهم الى الموت والدمار قد هربوا فانه لم يجد مفرا من اللجوء الى الكولونيل تشانوس لالتماس المساعدة . لقد كانت النهاية فاجعة . غير انه تحمل الموقف فى شجاعة واعتزاز دفعت كل من استانوس ومساعدته الشاب اللغتيانت صمويل هنل الى النظر اليه نظرة احترام وليس نظرة شفقة ، وخلال اجتماع الرجل العجوز بالمقيم البريطانى لمس الاخير فيه نفس صفات الصرامة والشجاعة التى طبعت سلوكه طوال حياته كما اظهر نفس الشراسة والاحتقار ازاء اعدائه العتوب (١) .

بعد بضعة اسابيع تلقى هنل خبر وفاة رحمة من احد شهود العيان . لقد توجه رحمة الى الدمام وفى الطريق اصدر امره الى سفينة باطلاق طلقة من احد مدافعها كعلامة احتقار لشيخوخ البحرين الذين استفزهم ذلك فتطوع احمد بن سليمان ابن اخ الشيخ الحاكم بمهاجمة رحمة بن جابر وهو فى سفينته . وكان قد وافق حاكم البحرين على ذلك فخرج احمد بن سليمان واخذ يسير بجانب سفينة رحمة وفى هذه الاثناء وقع صراع شرس بين الاثنين وعلى اى حال فان بحارة سفينة العتوب تعرضت لخسائر كبيرة نتيجة للنيران الكثيفة التى كانت تصبها عليهم بحيث اضطرت السفينة الى ان تحترق وتعلدو لى تأتى بمدادات جديدة من السفن البحرانية الاخرى القريبة منها ، وبعد خضتول احمد بن سليمان على الامدادات عاود هجومة على رحمة بن جابر ، وبما ان رحمة قد اصابه الانهاك هو وبحارته فقد احس بأنه لا يستطيع مواصلة القتال وأدرك بأنه لابد

(١) من مجموعة مختارات بومباي المجلد ٢٤ ص ٥٢٧ .

وان يقع أسيرا في يد خصمه الا اذا استسلم اليهم ، غير أن هذا الخيار لم يكن واردا بالنظر الى الحروب الشرسة الطويلة التي كان يشنها على اهل البحرين ، وبعد أن اعطى أوامره لرجاله بمواصلة الاشتباكات اخذ ابنه الصغير (وكان صبيا لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره) بين ذراعيه ، ثم انتزع عود ثقب وطلب من حاشيته مرافقته الى مخزن الذخيرة . ولما كان اتباعه يعرفون صلابة زعيمهم ، ويدركون المصير الذي أصبح ينتظرهم فقد نفذوا أوامره على الفور وفي ثوان قليلة تناثرت شظايا السفينة المتفجرة وامتلا سطح البحر باشلاء رحمة بن جابر واتباعه ، وقد دمر الانفجارات السفينة برمتها ، غير أنه امكن انقاذ الريان والبحارة بقوارب النجاة . وبهذه الصورة انتهت حياة رحمة بن جابر ، الرجل الذي ظل ينشر الأرهاب والرعب سنوات طويلة في هذا الجزء من العالم ، وكان لمصرعه أثر بالغ كبير في نفوس سكان الخليج ، وهكذا اتسمت نهاية هذا الرجل بنفس البشاعة والقسوة التي طبعت حياته بروج الشجاعة وتحدى الاخطار (١) .

وعلى الرغم من العنف والقسوة التي اتسمت بها طبيعة هذا الرجل إلا أنه لا يمكن اعتباره قراصنا أو من الخارجين على القانون بل على العكس من ذلك فقد كانت تصرفاته ضمن القانون ، أي قانون الثار والانتقام الذي كان جزءا لا يتجزأ من مبادئ عرب الجزيرة كما كانت هجماته على السفن تتحدد دائما على أسس واحد ، وهو ما اذا كان أصحباها على وفاق مع خصومه أم لا . لقد كان زعيما مستقلا رغم أنه كان يعتبر نفسه تحت حماية الأمير الوهابي تارة والسيد سعيد تارة أخرى ، كما كان يعتبر نفسه فلوسيا أو من

(١) من مقتطفات حكومة بومباي مجلد ٢٤ ص ٥٢٨ كذلك راجع سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلد ١٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٧/١/٢١ (رقم ٤ الادارة السياسية) .

رعايا الفرس ، ورغم أنه قد رفض التوقيع على المعاهدة العامة فلم يكن من مصلحة الحكومة البريطانية أن تعده مسئولاً عن أعمال القرصنة التي كان يقرتها. وحتى لو كان رحمة قد وقع على المعاهدة العامة فلم يكن في غير مقدور الحكومة البريطانية أن تمنعه من مزاولة الجروب ضد أعدائه إذ لو فعلت ذلك كما كان يعتقد الفنستون في البداية فيستكون الحكومة البريطانية مسئولة عن دفع التعويضات إليه كما أنه لا يكتفى في هذه الحالة بأقل من اذلال آل خليفة.

وعلى أي حال فإن موضوع رحمة بن جابر الذي انتهى بمضرعة لم يكشف عن الموقف الحقيقي لحكومة بومباي تجاه الحروب البحرية. ولعل الأهم من ذلك كله القرارات التي اتخذتها حكومة بومباي عام ١٨٢٥-١٨٢٦ في قضيتهم تمس أحدهما أبو ظبي ودبي، وتتعلق الثانية بالقواسم والسيد سعيد، ففي شهر أبريل من عام ١٨٢٥ إبّان الكولونيل ستانوس الحكومة عن وقوع اعتداء على سفينة من دبي بالقرب من منطقة الهويلة على ساحل قطر . وقد وقع الاعتداء من بعض أفراد قبيلة بنى ياس التابع محمد بن شخبوط حاكم أبو ظبي السابق الذي خلعه أخوه عن الحكم في عام ١٨٢٠ وظل منذ ذلك الوقت يشن حرباً انتقامية ضد طحنون شقيقه، وبما أنه قد قتل عدد كبير من بحارة السفينة نتيجة لذلك الاعتداء ، فقد اقتنع ستانوس بأن الحادث يستدعي القيام بإجراء فعال بموجب البند الثامن من المعاهدة التي تنص على تحريم قتل الأسرى ، وحذر ستانوس الفنستون في رسالته من أي موقف يتسم بالتردد في معاقبة المعتدين سوف يجعل القبائل العربية تعتقد بأن الحكومة البريطانية كانت في حالة حرب مع محمد بن شخبوط وبأنه ليس شخصاً متمرداً ضد الحكم القائم في أبو ظبي ، وبالتالي فقد كان من حقه مهاجمة كل من يتحالف مع شقيقه طحنون . فلو قدر لهذا الانطباع أن يسود المنطقة حسب رأي ستانوس فإنه قد يشجع القبائل على الانتفاض على زعمائهم تحت ستار الدفاع عن النفس أو لممارسة القرصنة في البحار .

غير أن الغنستون لم يوافق على تفسيرات ستانوس ثم خلع محمد بن شخبوط من مشيخة أبو ظبي عن طريق تدخل حاكم مسقط السيد سعيد الذي كان في ذلك الوقت يطالب بالسيادة على أبو ظبي وسواء كان محمد بن شخبوط أو والده لم يكن معروفا غير أن الغنستون يتصور بأن العكس هو الصحيح ، وذلك على أساس تصرف محمد بن شخبوط منذ ذلك الوقت .

لقد كانت كل هذه الأعمال تعتبر ضمن الحروب المشروعة سواء ضد أبو ظبي نفسها أو ضد دبي التي كانت خاضعة لها وإن كانت لم تتحول الى فوضى شاملة في المنطقة . وقد يكون قتل الأسرى في حادث السفينة اجراء مشروعا الا انه في ظل الحضارة العربية الراهنة لا تستطيع الحكومة البريطانية أن تلتزم بشرط اعلان الحرب على شيخ كل قبيلة موقعة على المعاهدة يلزم انتزاعه . الا أن الغنستون لم يقتنع من أن ستانوس قد بحث موضوع الاعتداء على السفينة بحثا جيدا . اذ تبين من التحقيق أن الاعتداء قد وقع بتحريض من زيد بن سيف حاكم دبي ، وفي هذه الحالة يعتبر الاعتداء اجراء مشروعا كعمل من أعمال الحرب ، الامر الذي لا يتطلب التدخل البريطاني في الموضوع ، انما اذا قمنا بمعارضة كل زعيم في استعادة حقوقه المشروعة بالقوة فان هذا سوف يلزمنا بالتحقيق في كل دعوى من دعاوى الاعتداء ، وبأن نفرض العقوبة على الطرف المعتدى في حالة ثبوتها وهذا سوف يورطنا لا محالة في كثير من المنازعات التي تشهدها المنطقة وقد نجد أنفسنا في المدى القريب أو البعيد في موقف معاد لسلطان مسقط (١) .

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلد ٩ من الحاكم

الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٥/٧/٢ (رقم ٦ الادارة السياسية) .

ولقد اثبتت التطورات صحة رأى الغنستون عندما تأكد بأن محمد بن شخبوط لم تكن له أى علاقة بحادث الاعتداء الأخير ، بل أن الحادث المذكور لم يقع إطلاقاً وأن القصة كلها من تلفيق خصوم الشيخ .

وفى أواخر عام ١٨٢٥ وقع حادث أكثر خطورة عندما انفجر القتال بين زعيم شيوخ القواسم سلطان بن صقر والسيد سعيد وطحنون بن شخبوط وكان السبب المباشر للقتال النزاع الذى كان قائماً حول تحصينات واحة البريمى فى أقصى الطرف الغربى من حدود عمان ، وبعد انسحاب الوهابيين أخذ نفوذ كل من طحنون بن شخبوط حاكم أبو ظبى وسلطان بن صقر يتزايد فى البريمى وكان من عادة والد الشيخ شخبوط الشيخ طحنون أن يقضى معظم أوقاته فى واحة البريمى وكان يحظى بنفوذ واسع بين قبيلة الظواهر ، غير أن القبيلة الرئيسية الأخرى وهى النعيم لم تكن تعارض امتداد نفوذ آل بوفلاح الى واحة البريمى فحسب بل كانت أيضاً تستظل بحكم السيد سعيد الذى كانت له حامية فى البريمى ، فكان يؤيدها فى موقفها نعيم عجمان وسلطان بن صقر الذى كانت منطقة عجمان تخضع له ، وبعد أخذ ورد طويل وعلى الاخص فيما يتعلق باحتلال الغديد من القلاع والحصون فى الواحة ، اتفق الثلاثة وهم طحنون بن شخبوط والسيد سعيد وسلطان بن صقر على هدم التحصينات وعدم إعادة بنائها ، وقد وقع هذا الاتفاق فى شهر ديسمبر ١٨٢٤ غير أنه لم تتخذ أى خطوات من جانب الأطراف المعنية لتطبيقه ، وبعد أن قام ستانوس بمحاولات يائسة للتوسط فى النزاع فى شهر مايو ١٨٢٥ نشب القتال بين المجموعات المتصارعة ، ثم امتد هذا الصراع الى البحر ، فأدى الى تعطيل عمليات استخراج اللؤلؤ من البحر ، واغتصاب سفينة بحرانية بالقرب من جزيرة قشم من جانب القواسم الذين ظنوا بأن السفينة تابعة لأبو ظبى ، وعلى الفور أرسل ستانوس الضابط البحرى المسئول الى الشارقة لطلب التعويض عن الاعتداء ، وبعد تردد وافق سلطان بن صقر على

الطلب . وفى تلك الأثناء أبحر السيد سعيد الى أبو ظبى على رأس ثلاث سفن وعدد من السفن التى تسمى (البقله) لدعم موقف الشيخ شخبوط وكان لوجود السيد سعيد على رأس تلك القوة سبب فى حمل سلطان بن صقر على عقد هدنة فى شهر سبتمبر . وفى هذا الاتفاق لم يرد ذكر لتحصينات البريمى (١) .

وقد استاء السيد سعيد من حياد ستانوس فى النزاع اذا استثنينا موضوع السفينة البحرانية بسبب عدم تدخله لحماية سفن مسقط وأبو ظبى وكتب رسالة الى المقيم البريطانى فى نهاية شهر سبتمبر قال فيها بأن أهل الشمال يعتقدون بأنهم فى حل من مهاجمة رعاياى ولم يحدث قبل هذه الواقعة ان يقع، كما اتذكر ، أى خلافات بينكم وبيننا وعلى هذا الأساس فان العرب منذ الأزمنة القديمة متفاهمون مع بعضهم البعض وهم أدري بمصلحتهم (٢) .

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٦/٤/١٩ (رقم ٥ الادارة السياسية) ومن مجموعات مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ١٩٢ - ١٩٣ ودراسة بعنوان لمحة تاريخية لحكومة مسقط (١٨١٩ - ١٨٣١) اعداد اللفتنانت أس هنل ، ويذكر هنل أن التأخير فى تنفيذ اتفاق ديسمبر السابق لهدم التحصينات انما يعود الى مؤامرات السيد سعيد أكثر مما يعود الى مؤامرات سلطان بن صقر .

(٢) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٦ مجلد ٤ رقم ٧ فى ١٨٢٦/٢/١٥ من السيد سعيد الى ستانوس بتاريخ ١٧ صفر ١٢٤١ الموافق ١٨٢٥/٩/٣٠ .

ولكن مثل هذه الشكاوى لم تكن بذات أهمية فقد سبق في مناسبتين سابقتين على الأقل أن أعرب السيد سعيد عن خيبة أمله في الحكومة البريطانية التي لم تفعل شيئاً في منع القواسم وغيرهم من القبائل الموقعة على المعاهدة العامة من الاقتتال في البحر ، كما أعرب عن أسفه بنوع خاص لزيارة مكويد لساحل القراصنة في شهر فبراير ١٨٢٣ واخفاقه في إزالة الانطباع الذي تركه انسحاب الحامية البريطانية من قشم قبل ذلك بشهر واحد ، الأمر الذي فتح المجال واسعه أمام القبائل البحرية للصراع فيما بينها بلا ضابط ، كما أعرب السيد سعيد عن نفس المخاوف والشكوك لستانوس في شهر ديسمبر ١٨٢٥ عندما زاره المقيم البريطاني في مسقط وهو في طريقه إلى بومباي لإزالة بعض الانطباعات السيئة حول السياسة البريطانية والتي أشار إليها السيد سعيد في رسالته . وقد ذكر السيد سعيد لستانوس بأنه كان يعتقد دائماً ، بأن رعاياه يتمتعون بحماية الحكومة البريطانية . ولذلك سأل ستانوس : من الذي سمح للقواسم بالقيام بعمليات عدوانية في البحار ؟ وقد أوضح له ستانوس بأن الحكومة البريطانية لم يكن لها الحق بموجب المعاهدة العامة أن تمنع الحروب البحرية وأن مجال تدخلها محصور في تقديم المشورة والنصيحة ، غير أن السيد سعيد لم يرض عن ذلك الرد ، ولم يحاول الاسترسال في الموضوع أثناء الزيارة ولكنه بعد سفر المقيم البريطاني وجه رسالة إلى الفنسرتون يحتج فيها على موقف الحكومة البريطانية الذي قال أنه يساعد على انتشار الفوضى والعنف في كل أنحاء الخليج .

والواقع أن السيد سعيد كان يعمل تدريجياً على التحرير من أوهامه في السياسة البريطانية وفي البداية كان متصوراً بأن حكومة بومباي قد تؤيد مطالبه وعلى الأخص بالنسبة للبحرين لو أنه استطاع أن يقنعهم

- ٣٦٠ -

بمقدرته على تحقيق الأمن والاستقرار في الخليج. وعندما تأكد ان حكومة
بومباي لن تسايه في هذا الاتجاه خاب أمله في الحصول على التأييد
البريطاني لخطته ، وعلى أي حال فقد ظل السيد سعيد يتذكر الحملة
البريطانية على قبائل بني بوعلی ، على الرغم من أن البريطانيين قد أكدوا له
له أكثر من مرة بأنهم لن يسمحوا بتكرار ذلك التدخل وكان اهتمام سعيد
بعد عام ١٨٢٠ يتركز أساسا على نشاط القواسم ووجد نفسه حرا في بناء
السفن لتحقيق أهدافه في البحرين وأفريقيا الشرقية ورغبة منه في اضعاف
تفوذ القواسم على البر سعى الى التحالف مع أبو ظبي التي كانت في ذلك
الوقت اقوى المشيخات الساحلية عسكريا كما اعتمد على البريطانيين في كبح
جماح القواسم في البحر (١) وبالتالي فقد صدم صدمة كبيرة عندما ابلغه
مكلويد في مارس ١٨٢٣ بأن حكومة بومباي لا تنوى التدخل في موضوع
الحروب البحرية التي تنشب بين القواسم وغيرهم من القبائل كما كانت تنتظر
للسيد سعيد حاكم مسقط خيبة أمل أخرى على يد الفنستون الذي عرف من
مكلويد بمطالب السيد سعيد فكتب يقول : انه ليبدو من حديث امام عمان
انه يتصور بأن الحكومة البريطانية قد ربطت مصالحها به في الخليج ، وانها
سوف تقف دائما الى جانبه فيما ينشب من خلافات بينه وبين الحكام
الآخرين ، الأمر الذي يضطرننا الي ان نوضح لسموه انه كنتيجة للاتصالات
التي جرت معه في أعقاب حملة طومسون ، كان من المتوقع ان يكون عند سموه

(١) مما لا شك فيه أن موافقة السيد سعيد على ما يسمى بمعاهدة
(مورسي) في شهر سبتمبر ١٨٢٢ كانت تهدف الى تحديد موقف الحكومة
البريطانية من امن الخليج اما المعاهدة المشار اليها فتتعلق بحظر تجارة الرقيق
فيما بين زنجبار وجزر موريشيوس .

- ٣٦١ -

فكرة صحيحة عن سياستنا نحوه بدلا من أن يعيش على أمل أن نقدم له العون والمساعدة ضد خصومه (١) .

وقد تضاغت خيبة الأمل هذه في شهر فبراير ١٨٢٤ عندما علم أن سكان ممباسا (المزارع) قد أعلنوا التمرد ضد السيد سعيد ، وكان هؤلاء الثوار يحتمون بالكابتن وليم أوين (من ضابط البحرية الهندية) الذي كان في ذلك الوقت يجري عمليات المسح للساحل الأفريقي (٢) . ويبدو أن الحكومة البريطانية لم تكن تكتفى بسحب تأييدها من السيد سعيد في شئون الخليج فحسب وإنما كانت تعمل على انتزاع ممتلكاته في إفريقيا خفية . ونتيجة لاستيائه وغضبه من الحكومة البريطانية خرج في صيف عام ١٨٢٤ إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وإجراء اتصالات بمحمد علي باشا ، ولما عاد من الحجاز ووجد أن أوين يحيك المؤامرات والدسائس ضد ممتلكاته بإفريقيا الشرقية ، وجه احتجاجا رسميا إلى الفنسبون ، كما بعث في نهاية العام برسالة إلى ملك بريطانيا جورج الرابع عن طريق الفنسبون (٣) وعندما التقى بستانوس في شهر فبراير ومايو من عام ١٨٢٥ شكاه من الشكوى من أعمال الكابتن أوين ، غير أن المقيم البريطاني لم يكن في وضع يسمح بالإدلاء برد مقنع حول هذا الموضوع بعد أن رفع الأمر إلى الملك إنجلترا ، ولكن الحكومة البريطانية لم تتمكن من اتخاذ قرارها في الموضوع قبل نهاية عام ١٨٢٧ وعلى الرغم من أن القرار قد جاء في صالح السيد سعيد وندد

-
- (١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلد ٩ من الحاكم إلى مجلس إدارة الشركة ١٨٢٤/١/١٤ (رقم ١ الإدارة السياسية) .
 - (٢) للاطلاع على عمليات أوين راجع كتاب (إفريقيا الشرقية وغزاتها) تأليف كوبلند فصل ٧ و ص ٤٢٨ - ٤٢٨١ دناه .
 - (٣) كوبلند ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

- ٣٩٢ -

باجراءات الكابتن اوين الا ان القرار وصل متأخرا الى اوين بحيث لم تكن منه
فائدة في تخفيف استياء السيد سعيد .

كانت هذه هي الاسباب وراء احتجاجات السيد سعيد لستانوس في
ديسمبر عام ١٨٢٥ ورسالته الى الفنستون في نفس الشهر ، غير أن رسالة
الحاكم لم تتضمن أى تأكيدات له ، فقد كان موضوع العلاقات بين بريطانيا
ومسقط في تلك المرحلة يخضع للدراسة كنتيجة للاجراء غير القانوني الذي
قام به الكابتن اوين في ممبasa وقد دخلت في تجارة الرقيق في اقاليم افريقية
الشرقية ، وربما كون السيد سعيد رآيه عن علاقته ببريطانيا ومدى التأييد
الذي كان يتوقع ان يحصل عليه منهم على قراءته لاتفاقية عام ١٧٩٨
(القولنامه) وعلى الأخص البند الثاني منها الذي ينص على أن أصدقاء
وأعداء احدى الدول يعتبرون بموجب المعاهدة أصدقاء وأعداء الدول الأخرى
الموقعة على المعاهدة ، وكان هذا هو الانطباع الذي خرج به استانوس من عند
السيد سعيد ، وهكذا عندما قام الفنستون بدراسة الموضوع في شهر يناير
١٨٢٦ لم يستطع أن يقطع ، ما اذا كانت القولنامه سارية المفعول أم لا حتى
ذلك الوقت ، فإن كانت لا تزال سارية المفعول فقد كان لاحتجاجات السيد
سعيد من الاجراءات الأخيرة في الخليج وافريقيا الشرقية ما يبررها دون
شك ، فهل كانت المعاهدة لا تزال سارية المفعول لأنه لم يرد أى ذكر للمعاهدة
المذكورة في المراسلات المتبادلة بين السيد سعيد وسلطات حكومة الهند لعدة
سنوات كما أن السيد سعيد نفسه قد أشار في خطابه المؤرخ ديسمبر ١٨٢٥
الى الفنستون والذي خصص أغلبه لموضوع تجارة الرقيق الى أنه يعتبر الاتفاق
منتهيا أو على الأقل لا يتعدى مضمونه الشئون البحرية الأسطولية ، كما أنه قد
اشترط مقابل حظر تجارة الرقيق أن تتعهد الحكومة البريطانية بعدم المساس
بأى ضرر لأراضيه واذا اعتبرنا (القولنامه) وثيقة منتهية وإن بريطانيا غير
ملتزمة بتقديم المساعدات الى السيد سعيد ضد معارضيه فإن الحكومة

- ٣٦٣ -

البريطانية في رأي الفنسنتون لم يكن لها حق التدخل في شئونه (١) .

أما فرانسيس واردن ، السكرتير الأول السابق وعضو المجلس الآن فلم تكن تساوره أية شكوك حول وضع هذه الوثيقة التي كانت تتناول موضوع الحرب مع فرنسا فقط ، وعندما سمحت حكومة الهند لمسقط في عام ١٨٠٧ ، بالوقوف موقف الحياد في تلك الحرب فقدت معاهدة (القولنامه) مفعولها ، زد على ذلك أن السيد سعيد لم يضالاق عليها كما فعل خلفه بدر بن سيف ، كما لم يشر إليها في العديد من رسائله الى حكومة الهند التي كان يناشدهم فيها للمساعدة ضد الوهابيين ، وكان واردن يوافق الفنسنتون على أنه اذا رفض طلب السيد سعيد للمساعدة في حربه ضد خصومه في شبه الجزيرة العربية فقد كان من حقه أن يعارض شئونه دون تدخل من جانبنا بشرط ألا تؤدي اجراءاته الى تهديد الأمن في مياه الخليج ، وعلى أية حال كما حذر واردن فأنني كنت اتصور دائما أنه لابد من وضع حد لاطباع امام مسقط لأن مثل هذا الاجراء ضروري لتأمين سلامة الخليج ، وإن علينا أن نحذر كثيرا من تدميره السياسي أكثر مما نحذر من سلوك الدول الصغرى في تلك البقعة ، كما أني لا أرى سبباً في الاشادة به اذ ان اكثرية المعتمدين السياسيين الذين اتصلوا به قد تأثروا بشخصيته .

غير أن الفنسنتون كان يختلف في الرأي مع واردن حول الطابع المؤقت للمعاهدة فقد عكف على دراسة الوثائق الخاصة بالمعاهدة ، وللتأكد من أن الغرض من ابرامها هو أن تصبح اتفاقاً دائماً وليس مؤقتاً ، فلم اذن نصت المعاهدة في بنودها على عمليات انقاذ السفن البريطانية التي تنحطم .

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباي حلقة ٣٨٦ مجلد ٤ رقم ٧ في

١٨٢٦/٢/١٨ محضر الفنسنتون ١٨٢٦/١/١٤ .

٢٢٤ -

على حدود سواحل عمان وأقامة مركز تجلى لشركة الهند الشرقية في بندر عباس ؟ وعلى كل فقد كان واضحا من التحفظات التي أبدتها والد السيد سعيد عند ابرام المعاهدة هو احتمال تورطه في حرب مع الفرنسيين . وإن عبارة الأصدقاء والأعداء الواردة في المعاهدة كانت مجرد عبارة مكملة . ولا تعنى عقد حلف هجومي أو دفاعي بين الطرفين . على أن الحكومة البريطانية لم تكن ملتزمة بموجب تلك المعاهدة بمساعدة السيد سعيد ضد معارضيهِ وقد تم ايضاح هذه النقطة للسيد سعيد في مناسبات كثيرة وعلى الخصوص في عام ١٨١٠ ، ١٨١١ ، ١٨١٢ وبالمثل لم يكن من حق الحكومة البريطانية مساعدة خصوم السيد سعيد وإن كل طرف من أطراف المعاهدة كان ملتزما بموقف الحياد من الحرب التي قد تنشب بين الاطراف الأخرى ، وبالتالي لم يكن الفنتسون في وضع يسمح له بمنع السيد سعيد وبخاصة القواسم من شن الخروب عليه في البحر ، لأنها لو فرضت مثل هذا الحظر على القواسم الذين تكمن قوتهم أساسا في امكانياتهم البحرية لوضعهم تحت رُخفة جيرانهم الأقوى عسكريا وعلى الأخص بنى ياس حلفاء السيد سعيد الذين يستمدون قوتهم من ممتلكاتهم الإقليمية ومن ارتباطاتهم بالقبائل البدوية كالمناصير والعوامر (١) .

في فبراير ١٨٢٦ كلف الكولونيل ستانوسن بإبلاغ هذا الموقف للسيد سعيد كما طلب اليه بأن يؤكد له أنه في الوقت الذي لا تستطيع الحكومة البريطانية مساعدته على تحقيق مطالبه إلا أنها لن تفت عثرة في طريقه إذا حاول تحقيق تلك المطالب بطرقه الخاصة وإن الشيء الذي تود أن توجه

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباي حلقة ٣٨٦ مجلد ٤ رقم ٧

في ١٨٢٦/٢/١٥ محضر الفنتسون ١٨٢٦/١/٣٠ .

- ٣٦٥ -

نظرة اليه هو ان المصالح المشتركة للدولتين هي في استتباب الامن في الخليج ووضع نهاية دائمة لأعمال القرصنة ، وعلى ضوء تلك الاعتبارات فقد كان يهم الدولتين ان تتحاشيا أى عمل من شأنه أن يعكر صفو الأمن في الخليج ، وأن تكونا على استعداد للقيام بعمل مشترك ضد أى دولة تحاول إحياء أعمال القرصنة ، وقد أبلغ ستانوس هذه الرسالة الى السيد سعيد في شهر ابريل ١٨٢٦. بعد عودته من إجازته في الهند ، وعلى حين لم يكن للسيد سعيد مفر من قبول وجهة نظر الفنستون في الاتفاقية الا أنه كان فكتشف عن موقفه الحقيقي عندما رفض مقترحات الحاكم حول تصريفاته المقبلة ، وفي شهر مايو أعلن السيد سعيد الحرب على حاكم بوشهر الشيخ عبد الرسول خان بحجة ان الشيخ عبد الرسول قد طعن فيه امام محكمة شيراز بهدف منع زواجه من إحدى شقيقات امير شيراز لكي يتزوجها لنفسه .

وفي أواخر شهر يوليو ظهر السيد سعيد على رأس أسطوله امام مدينة بوشهر غير أن عبد الرسول خان كان متغيبا عن البلاد في رحلة لثأية فريضة الحج ، فأبحر سعيد الى البصرة ليصفي حسابه مع داود باشا والى بغداد ، بعد أن ادعى أن داود باشا لم يلتزم بتسديد الزكاة السنوية لمسقط مقابل المساعدة التي قدمتها مسقط لتركيا في عهد أحمد بن سعيد جد السيد سعيد وقت حصار البصرة في عام ١٧٧٥ - ١٧٧٦ ، وعندما أعلن السيد سعيد عن اعتزامه فرض حصار على البصرة عرض عليه استانوس خدمات الكابتن روبرت تايلور المقيم البريطاني في البصرة لحل النزاع ، ولكن بعد أن صرح داود باشا أنه لن يدفع أى شيء للسيد سعيد لعدم إحقاقه في ذلك قرر تايلور وستانوس الانسحاب من الوساطة غير أن الحصار الذي فرضه السيد سعيد على البصرة قد أرغم داود باشا على

- ٣٦٦ -

تلبية لطلبات السيد سعيد فرفع الحصار عن المدينة في شهر نوفمبر (١) وفي هذه الأثناء نجح السيد سعيد في شهر سبتمبر في اعتقال عبد الرسول خان بالقرب من جزيرة قشم ، وكان عبد الرسول عائدا من مكة ، فأخذه أسيرا هو وسفينته ، وفي شهر مايو ١٨٢٧ أفرج عنه مقابل دفع فدية مقدرها ٨٠ ألف ريال نمسوى ، ثم بعد شهرين تزوج السيد سعيد من شقيقة أمير شيراز (٢) وفي نهاية ذلك العام أبحر السيد سعيد الى افريقيا على رأس قوة من ١١ سفينة و ١٢٠٠ جندي لقمع ثورة المزارع في مبابسا (٣) .

لقد كان الهدف من الزواج بشقيقة حسين على ميرزا هو تحسين علاقة السيد سعيد بأمير شيراز ، وهي العلاقة التي تصدعت خلال السنوات الأربع السابقة ، كما كان لها هدف آخر أيضا وهو تمهيد الطريق لاحتلال البحرين ، ولما كان حسين على ميرزا قد فشل في الحصول على اعتراف بريطاني بمطالبه في البحرين عام ١٨٢٢ فقد حاول في عام ١٨٢٣ الاستعانة بكل من سلطان بن صقر والسيد سعيد للقيام بهجوم مشترك على الجزيرة ، وبما عرف عن أمير شيراز من المناورات فقد أرسل مبعوثا الى السيد سعيد يدعوهُ الى زيارة بندر عباس للاجتماع بركي خان رئيس وزرائه بينما أرسل مبعوثا آخر الى سلطان بن صقر برسالة يمنحه فيها رتبة دريا بيچي اي « القائد الأعلى للأسطول » ويطلب مساعدته في طرد حامية السيد سعيد

-
- (١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلد ١٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٧/٦/٢١ (رقم ٤ : الادارة السياسية) .
- (٢) مختارات حكومة بومباي مجلد ٢٤ ص ١٩٤ - ١٩٥ ، لمحة تاريخية لحكومة مسقط ١٨١٩ - ١٨٣١ تأليف هنل .
- (٣) افريقيا الشرقية وغزاتها تأليف كوبلند ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

وواليه من كل من بندر عباس وجزيرة قشم ، وربما يكون خمسين على مبرزا
قد استهدف من هذه الخطوة وجود قوات سعيد في بندر عباس اذغامه
على الاشتراك في مهاجمة البحرين ثم اذا تحقق ذلك يعود بتماطله في اعادة
بندر عباس اليه كوسيلة للضغط عليه بالانسحاب من البحرين ، بعد ان
يحتلها الفرس ، وعلى اى حال فقد وصل السيد سعيد الى بندر عباس قبل
وصول الفرس ، واستطاع ان يكسب زكى خان الى صفه مقابل وعد بدفع
الف تومان ايجارا اضافيا على مدى السنتين القادمتين (١) .

عندما وصل خبر المؤامرة الى السلطات البريطانية في الهند كلفت
القائم بالأعمال البريطانى في طهران بان يطلب من حكومة فارس الامتناع عن
اى عمل قد يعكر الامن في الخليج ، وأن اى محاولة لحياء اعمال القرصنة في
المنطقة سوف يرغم حكومة بومباى الى انشاء قاعدة عسكرية لها في الخليج
ولكن قبل ان يتسلم القائم بأعمال المثلثة البريطانية في الخليج ، الذى عين
بعد وفاة مكرويد هو الكابتن اتش هاردى ، وكان المذكور قد سبق ان وجه
رسالة الى زكى خان يذكره فيها بان آل خليفة بشيوخ البحرين احد الاطراف
الموقعة على المعاهدة وينصحه بان لا يبدأ باى اعمال عسكرية ضد البحرين
بل ان يطلع حكومة بومباى على ما ينوى عليه .

وعندما علم الفينستون بالإجراء الذى قام به هاردي خشى ان يؤدي ذلك
الى اثاره مشكلة البحرين من جديد ، ولذلك فقد كلف ستانوس عند تعيينه
بان يعمل كل ما فى وسعه لتسوية هذه المشكلة . وقبله زار ستانوس شيراز

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٩ من الحاكم
الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٤/١/١٤ رقم ١ الادارة السياسية .

- ٣٦٨ -

فى النصف الأخير من عام ١٨٢٤ وهناك عرف عن التعاون بين السيد سعيد وأمير شنيراز ، وأن قوة من ٣٠٠٠ خيال و ٢٠٠٠ من المشاة على وشك أن تغادر بوشهر الى البحرين تحت قيادة حسين على ميرزا نفسه وقال لستانوس بأنه اذا كان يرغب فى الاشتراك فى الحملة فعليه أن يقوم بتوفير سفن النقل وتحذير شيوخ آل خليفة بالا يتوقعوا أى مساعدة بريطانية لهم فى الدفاع عن بلادهم ، وقد انجاب المقيم بأن الحكومة البريطانية لا تعتبر نفسها ملزمة بحماية البحرين من أى عدوان ، وأنه يمكن للأمير ان يطمئن بأن بريطانيا سوف تلتزم الحياد التام فى هذا النزاع . غير أن هذا لم يكن الرد الذى كان يتوقعه حسين على ميرزا فبدون وجود سفن كافية للنقل فان الأمير لم يكن يستطيع ان يرفع اصبعاً واحداً ضد البحرين . وأن الحديث المتداول عن تعاون السيد سعيد فى تلك الحملة لم يكن أكثر من ستار (١) وعلى أى حال فقد كان ستانوس متأكداً من أن هذه الحملة كغيرها من الحملات السابقة لن تتحرك من مكانها ، وأنه لم تكن هناك رغبة جديّة منذ البداية للقيام بها . (٢) .

وقد أثبتت الأحداث صدق تنبؤات ستانوس ، اذ لم تدع أى أخبار عن حسين على ميرزا عن هجومه على البحرين ليس فيما تبقى من عام ١٨٢٤

(١) قام السيد سعيد فأمر بإيداع وكيله فى بندر عباس السجن فى قلعة الجلالى التى بقى فيها الى أن توفى هناك (انظر سجل الرسائل السياسية للحكومة بومباى مجلد ١٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٦/٤/١٩ . (رقم ٥ الادارة السياسية) .

- (٢) سجل الرسائل السياسية للحكومة بومباى مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٥/٧/٢ (رقم ٦ الادارة السياسية) .

فحسب وانما للسنوات المقبلة أيضا ولم يكن الحظر على البحرين ينطلق من شيراز وانما كان ينطلق من مسقط ويؤيد ذلك اعتقاد واردين من أن الامن في الخليج لن يستتب مالم يوضع حد لأطماع السيد سعيد .

وفي عام ١٨٢٥. توفي الشيخ سليمان بن أحمد شقيق عبد الله وشريكه في الحكم ولقد برهن عبد الله الذي كان الحاكم الاوحد للجزيرة انه ينوى الاحتفاظ بالحكم . بينما اتجه أبناء سليمان يطلبون المدد من السيد سعيد للاطاحة بعبد الله واحتلال المركز الذي كان لوالدهم . وعلى الرغم من أن السيد سعيد تبنى طلبهم لفترة من الوقت ، إلا انه عاد فتنصل عندما أخطره الفنستون بأن السلطات البريطانية في الهند سوف تنظر الى أى تدخل من جانبه في شئون البحرين على النحو الذى يخل بالامن في منطقة الخليج باستياء شديد وقد بطلت حجة سعيد في التدخل بعد أن حقق عبد الله مصالحه مع النجاشي سليمان بعد أن قبل اشراك احدهما في الحكم وهو خليفة على مدى السنوات الثلاث المقبلة ، وبعد ان بذل هو وأعضاء مجلس ادارة الشركة قسارى جهدهم للتنصل من تحالفهم مع مسقط ، وانهم تحملوا تبعه ذلك التنصل وان هذا السؤال لا يمكن الإجابة عليه نظرا لأن الفنستون قد أحيل على المعاش في ذلك الوقت .

وعندما واجه خلفه مالكولم وضعا أكثر خطورة وجد أنه لا يستطيع ان يفعل شيئا لموقف السيد سعيد بسبب القرارات السابقة حول السياسة البريطانية .

في صيف ١٨٢٨، انتشرت اشاعات في الخليج عن قرب قيام السيد سعيد بهجوم شامل على البحرين ، ولكن السيد سعيد نفى هذا (٢٤ - بريطانيا والخليج)

٣٧٠

الخبر عندما سئل عنه وقام بإرسال هدايا الى الشيخ عبد الله بن حمد لتفتيت تلك الاشاعة ، غير ان عبد الله لم يقتنع بإدارة السيد سعيد وطلب من المقيم البريطاني الكابتن ديفيد ويلسون الذى حل محل ستانوس سنة ١٨٢٧ ان يتدخل ، وعلى الرغم من ان المقيم لم يتمكن من اجابة عبد الله الى طلبه الا أنه بعث برسالة الى طحنون بن شخبوط شيخ دبی ، الذى قيل انه كان هو الآخر يقوم باستعدادات شبه عسكرية ، ينصحه فيها بعدم التورط فى النزاع حتى لا ينضم القواسم الى العتوب . الا ان الشيخ طحنون تجاهل نصيحة المقيم فى شهر افسطس بعد ان أعلن سعيد الحرب على البحرين ، وفى شهر سبتمبر ابحر من مسقط الى أبو ظبي ، وهناك انضم اليه طحنون بفرقة من بنى ياس وبعض القبائل الأخرى ، ووصل الأسطول المشترك الى ساحل البحرين فى نهاية أكتوبر ، وبدأ فى فرض الحصار على قلعة المنامة ، وفى اليوم السادس من نوفمبر قصفت المنامة وهوجمت جزيرة مستره على بعد نحو نصف ميل على الجانب الشرقى للساحل . وكان سعيد يعتزم شن هجوم مباشر على المنامة بعد أيام قليلة ، غير أن بنى ياس قاموا يوم ٩ نوفمبر بالهجوم على الجفير الواقعة على الساحل الشرقى (١) .

وقبل ان يتمكن السيد سعيد من طلب غوثهم كان العتوب قد شنوا عليهم هجوما كاسحا ، ثم توجه السيد سعيد الى البر بقى معه من القوات فى محاولة لانقاذهم ولكنه اضطر الى الانسحاب ثانية الى البحر لينجو بنفسه من الموت . وقد دب الفرع فى قوات السيد سعيد من هول الكارثة التى لحقت برجالهم على الشاطئ فأسرعوا عائدين الى سفنهم بعد ان فقدوا سفينتين ، وبالرغم من الخسائر التى متى بها السيد سعيد فى الجفير وتقرب ٥٠٠ رجل ،

(١) رأس الجفير بروز يقع على بعد قليل الى الشرق .

كما ذكر ، فقد واصل حصاره للمنامة وأخذ يعيد تنظيم قواته لمعاودة الهجوم على العتوب غير أن ظهور وباء الكوليرا بين أفراد جيشه وخوفه من ظهور وباء الكوليرا بين أفراد جيشه وخوفه من أن يخونه بعض أنصاره قرر رفع الحصار والعودة الى مسقط (١) .

وقد طلب عبد الله شيخ البحرين من المقيم البريطاني تعويضات عن الاعتداء الذي وقع عليه وذكره بأن اشتراك طخنون بن شخبوط في الهجوم يتعارض مع البند الرابع للمعاهدة العامة التي تحظر على الأطراف المشتركة أن تعتدى على بعضها البعض .

ولكن ويلسون رد عليه بأنه لا بد من الأخذ بنظر الاعتبار قرار مالكولم الذي كان قد صدر في بداية الصراع بين البحرين ومسقط ، بوجوب التزام البريطانيين بمبدأ عدم التدخل في الاشتباكات البحرية بين دول الخليج وأوضح عبد الله بأن البند الرابع للمعاهدة ينطبق على حروب القرصنة فقط . واتخذ عبد الله من رد ويلسون ذريعة لشن حملة انتقام على مسقط وأبو ظبي فأرسل سبع سفن حربية الى الخليج سنة ١٨٢٩ لمهاجمة سفن مسقط وبنى ياس . وبعد أن يئس الأسطول البحريني من العثور على أي سفن لمسقط وبنى ياس اعتدى على إحدى السفن التابعة لمرياط على الساحل الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة ونهب حمولتها واعتراض أسطول للقراصنة سلفيتين من السفن التابعة لمسقط وقاموا بنهبها . وقد اعتبر ذلك عملاً سافراً من أعمال القرصنة ، وعندما علم به ويلسون بعث بطرادين الى البحرين مع طلب باعادة البضائع المنهوبة ودفع

(١) مختارات بومبي مجلد ٢٤ ص ١٩٦ - ١٩٧ ، و (لمحة تاريخية لحكومة

مسقط ١٨١٩٠٦ - ١٨٣١) و « دليل الخليج » تأليف لوريمر فصل ١ /

ص ٨٥٢ - ٨٥٤ .

تعويض لأصحاب السفن المعتدى عليها فاضطر عبد الله إلى الإذعان لطلب المقيم بسبب ما أسفرت عنه العملية من نتائج مؤسفة .

هذا الحادث أقنع حكومة بومباي باحتمال وقوع أعمال جديدة من أعمال القرصنة فيما لو استمر العداء بين مسقط والبحرين ولهذا طلب إلى ويلسون في شهر مايو ١٨٢٩ بأن يتوسط بين الأطراف المتنازعة لحل المشاكل بينهما سلميا . وقد بذل ويلسون أقصى ما في وسعه غير أن جهوده تعثرت بسبب إصرار عبد الله على أن تلتزم الحكومة البريطانية بحماية الأطراف المعنية وبالرغم من الحاح سعيد على التزام بريطانيا بحماية الاتفاق إلا أن ويلسون لم يكن يملك الخروج على سياسة عدم التدخل التي وضع أسسها كل من الفنستون ومالكولم كما تبين أيضا بأن تقديم ضمانات عن الاتفاقات التي تعقد بين أقطار المنطقة تلاقى معارضة بين دول الخليج لأنها تدفع بالحكومة البريطانية إلى التدخل كطرف في قضايا ظالمة بطبيعتها (١) وكنتيجة لذلك قرر ويلسون الانسحاب من الوساطة ، ولما كانت مطالب عبد الله غير معقولة فقد اقترح ويلسون على مالكولم أن تسحب الحكومة البريطانية سفن الحراسة من منطقة مصايد اللؤلؤ والتي تقرر أن ترابط فيها في أشهر الصيف ، وقد وافقه مالكولم على ذلك ، وتم سحب الوحدات في موسم ١٨٢٩ ، وقد حل السلام أخيرا بين الأطراف المتصارعة في ديسمبر من عام ١٨٢٩ عن طريق وساطة شيخ بوشهر ، واحتوى الاتفاق على عدم تدخل أي من الأطراف في شئون الطرف الآخر ، وعلى أن يتنازل السيد سعيد عن الزكاة التي كانت تدفعها له البحرين ، وقد حصل

(١) محادثات حكومة بومباي السياسية حلقة ٣٨٧ مجلد ٤ رقم ٣٣ في

١٨٣٠/١٠/٢٧ من ويلستون إلى جى. م. موريس (سكرتير الحاكم) يوليو ١٨٣٠

السيد سعيد على شروط افضل من الشروط التى سبق أن اقترحها ويلسون ، مما أدى بالمقيم البريطانى الى أن يعلق على ذلك الاتفاق بقوله ، أن الوساطة البريطانية قد تسببت فى اطالة امد الصراعات بين هذه الدول ، أكثر مما أدت الى انتهائها (١) على أن فشل السيد سعيد فى البحرين قد ترك آثارا عكسية عليه فهو ان لم يكن قد تخلص من عقدة السيطرة على البحرين فإنه على الأقل قد تلقى درسا لن ينساه نتيجة لحملته على البحرين ولكي يعوض سعيد الفشل الذى منى به فى البحرين وجه اهتمامه الى ممتلكاته فى افريقيا ، وكان التمرد الذى وقع فى ممباسة ضده نذيرا بفقدته لتلك البقعة أيضا ، ومن هنا أخذ يفكر فى اعتزال الحكم منذ بداية عام ١٨٢٦ ليعيش بقية حياته فى مستعمراته الافريقية وبالتالي أصبحت هذه المنطقة شغله الشاغل حتى أنه كان يقضى معظم أوقاته فى زنجبار الا أن غياباته الطويلة عن عمان بعد ١٨٢٩ أضعفت سيطرته على البلاد وشجعت زعماء القبائل المعارضة على تحدى سلطته الى درجة أنها حرضت القواسم ثم الوهابيين على الاعتداء على عمان .

اما الاسلوب الذى اتبعه السيد سعيد فى مواجهة هذه التحديات فهو تهديد تلك القبائل التى يقيد فيها التهديد ، ومما طلة الوهابيين بغية ابعادهم عن عمان والاستعانة بحلفائه بنى ياس فى كبح جماح القواسم .

ان الصراع على التفوق والسيطرة بين هذه القوى المتصارعة كان السمة البارزة التى طبعت تاريخ ساحل القراصنة منذ سنة ١٨٢٩ حتى سنة ١٨٣٥ وهو صراع كانت نتيجته استنزاف قوى جميع الأطراف المشتركة فيه ونضوب

(١) من ويلسون الى موريس يوليو ١٨٣٠ انظر كذلك مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ١٩٧ - ١٩٨ (لمحة تاريخية لحكومة مسقط) ١٨١٩ - ١٨٣١ اعداد هنل ودليل الخليج اعداد لورمر فصل واحد ص ٥٥ - ٥٦ .

مواردها وامكانياتها الاقتصادية والبشرية فضلا عن تعريض أمن المنطقة للتهديد والخطر ، كما امتد ذلك الصراع الى المناطق البحرية مما عرض تجارة المنطقة الجنوبية من الخليج للخطر .

وعلى الرغم من أن سياسة الحياة التي انتهجتها الحكومة البريطانية ازاء الصراعات البحرية بين قبائل المنطقة وهى السياسة التى شرعها الفنستون وصادق عليها مالكولم كانت تحتم على حكومة بومباى أن تقف بمعزل عن تلك الصراعات منذ عام ١٨٢٩ ، الا أنه قد تعذر وضع تلك السياسة موضع التنفيذ .

ولو أن البريطانيين مارسوا تلك السياسة لما استطاعوا حماية السفن البريطانية العاملة فى هذه المنطقة (١) أو المحافظة على الكيان الاقليمى والسياسى لمسقط باعتبارها عنصر استقرار بالنسبة لأمن الخليج ، وفى أوائل عام ١٨٢٩

(١) بعد أن تورط بحارة السفينة البريطانية لمشادة فى الشارقة فى شهر يونيه عام ١٨٢٩ عندما حاول بعض أفراد قبيلة القواسم الاستيلاء على بعض الأسلحة والمؤن من السفينة والتي كانت متجهة من مسقط الى ابوظبى اللتين كانتا محاصرتين من جانب القواسم قررت حكومة بومباى بأن تصادق على تصاريح السفر للسفن التابعة لها مع تقييدها بأن ترسو فى موانئ مسقط وصحار والبصرة وبوشهر فقط وبالرغم من أن الحكومة العليا كانت تقدر دوافع السلطات فى بومباى الى اتخاذ هذا الاجراء فقد قررت منع ذلك على أساس ان السفن البريطانية غير مطلوب منها أن تتزود بهذه التصاريح لزيارة الموانئ للدول المتحالفة مع بريطانيا باستثناء الصين حيث كانت الشركة تمارس أعمالها . وقد اضطرت حكومة بومباى الى الاكتفاء بمطالبة ربانة السفن البريطانية التى تزور موانئ الخليج بأن تحصل على موافقة المقيم السياسى =

— ٣٧٥ —

حذر ويلسون مالكولم بأن الخطر قد يحيق بالسياسة البريطانية المتبعة في المنطقة اذا ما تصدع مركز السيد سعيد كنتيجة لهزيمته على يد آل خليفة ، وقد وافقه مالكولم على رايه وكتب اليه يقول : انه مهما ارتكب هذا الأمير من اخطاء لتحقيق اطماعه التوسعية ، ومهما كان التدخل في الصراعات البحرية القائمة بينه وبين بعض زعماء منطقة الخليج غير مضمون النتائج ، فليس من الحكمة ان نسمح لنفوذ هذا الأمير ودولته الصغيرة الموالية ان تتحطم لكى تحل محلها مجموعة من الدول الأخرى ، ولو حدث شيء من هذا فسيكون له آثار ضارة لحليف لنا لا نزال نستمد منه العون فى تأمين المصالح التجارية للهند البريطانية ، تلك المصالح التى كان والد هذا الأمير من المدافعين عنها والعاملين فى سبيل تنميتها . وان الزعماء الذين جعلتهم الظروف يتألبون ضده قد

=البريطانى فى حالة زيارتها لموانىء خلاف مسقط وصحار والبصرة وبوشهر فاذا ما رفضت تلك السفن نصائح المقيم فعليها الا تنتظر أى مساعدة منها فيما لو تعرضت بعد ذلك لأى صعوبات تعترضها فى المنطقة .

للاطلاع على حادث السفينة سمبرى انظر «مختارات حكومة بومباى» مجلد ٢٤ ص ٣٢٣ الى ٣٤٢ وكتاب هنل « نبذة تاريخية عن القواسم » ١٨١٩ - ١٨٣١ والمراسلات المتعلقة بالموضوع - مجادئات بومباى السياسية حلقة ٣٨٦ مجلد ٦١ رقم ١٠ فى ١٠/٣/١٨٣٠ من ويلسون الى موريس انسكرتير الاول لحكومة بومباى ١٨٣٠/١٢/٢٢ مجلد ٦٤ رقم ١٧ فى ٢٣/٦/١٨٣٠ من جورج سونتن (سكرتير الحاكم العام) الى موريس ١٨٠/٣/٢٦ وسجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٥ من مجلس الحاكم العام الى مجلس ادارة الشركة ١٨٣٠/١١/١٦ (رقم ٧ الادارة السياسية) *

يستغلون الفرصة التي قد تحققها لهم تلك النجاحات لممارسة القرصنة بدلا من استغلالها في الأغراض التجارية (١) .

بعد وقت قليل تعرضت آراء مالكولم للاختبار ، ففي شهر ديسمبر من عام ١٨٢٩ قام السيد سعيد بمحاولة غير موفقة لضم ظفار في أعقاب وفاة محمد عقيل الذي كان يحكمها في ذلك الوقت ، وقد أبحر السيد سعيد الى افريقيا الشرقية لقمع ثورة اهالي ممباسا وقبل سفره حاول ان يتخذ الاحتياطات لعدم قيام اي تمرد ضد حكمه في عمان فأودع ابن عمه هلال بن محمد أقوى زعماء القبائل الرئيسية في عمان ووالى السوق السجن بقلعة الجلالى ، ولكنه ما كاد يفادر البلاد حتى قامت شقيقة هلال السيدة خوخة بالاستيلاء على السوق وتحريض القبائل على التحرك لاطلاق سراح شقيقها . وقد استغل السيد حمود بن عزان زعيم الركن الأصفر لال بوسعيد الفرصة فأعلن نفسه حاكما على صحار التي كان يعتبرها الاقطاعية الوراثة لعائلته قبل ان يستولى عليها السيد سعيد قبل وفاة عزان بن قيس والى السيد حمود سنة ١٨١٤ (٢) ولم يستطع السيد محمد بن سالم ابن أخ السيد سعيد والذي عينه نائبا عنه قمع ذلك التمرد ، فبعث برسالة عاجلة الى ويلسون واخري الى مالكولم مباشرة يطلب فيهما مساعدته ، وكان اول ما طرأ على ذهن ويلسون هو أن القواسم قد يستغلون الوضع لاجتياح عمان والاعتداء على السفن العمانية ،

(١) ملخص لرسائل الخليج ص ١٨٥ ، من سكرتير حكومة بومباي الى المقيم السياسى البريطانى فى ١٨٢٩/٧/١ .

(٢) عزان بن قيس هو ابن قيس بن أحمد واحد انجال مؤسس أسرة آل بوسعيد والذي اعطيت له الولاية على صحار بعد دمج بركا اليها سنة ١٧٩٣

ولهذا أوعز الى الطراد افريتيس بالتوجه الى ساحل القرصنة فى أوائل شهر فبراير سنة ١٨٣٠ ومعه رسالة موجهة الى سبطان بن صقر وغيره من شيوخ الساحل يحذرهم فيها من الاعتداء على عمان أو السفن العمانية وبعد أن سلم الطراد الرسائل الى زعماء الساحل توجه الى مسقط لتدعيم موقف السيد محمد بن سالم (١) وقد اثنى مالكولم على التحرك الفورى لويلسون وعلى الاخص أنه قد جاء بالغاية المنشودة دون أن يؤدى الى الخروج على السياسة المرسومة ، وهى التمسك بسياسة الحياد وعدم التدخل الا فى الحالات الهامة وبطريقة فعالة . كذلك كلف مالكولم ويلسون بأن يحذر حمود بن عزان بوجوب احترام سلطة السيد سعيد وبأن يبقى طرادات الوحدة فى حالة استعداد للدفاع عن مسقط اذا اقتضت الضرورة .

وفى ٩ مايو ١٨٢٣ عاد السيد سعيد من أفريقيا وبعد أن فشل فى استرداد ممباسا من المزاريع ولم يعرب عن شكره لويلسون على المساعدة التى قدمها دعما للحكم اثناء غيبته ، وانما على العكس من ذلك فقد حاول ان يقلل من خطورة الأحداث التى وقعت فى البلاد خلال سفره ، وطلب الى الطراد افريتيس بالسفر كما أعرب عن استيائه الى المقيم البريطانى حول الأوضاع السيئة التى وصلت اليها البلاد (٢) ومهما كان شعور السيد سعيد فى تلك اللحظة فمن المحتمل على أى حال أن يكون استياؤه من ويلسون نتيجة الاحراج الذى وقع فيه بعد أن انكشف ضعف مركزه من وجود الطراد البريطانى .

(١) مجموعة مجلس ادارة الشركة مجلد ١٣٩٨ مجموعة رقم ٥٥٤٤٠ من

ويلسون الى نوريس ١٨٣٠/٢/٦ .

(٢) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٧ مجلد ٤ رقم ٣١ -

١٨٣٠/١٠/١٣ من ويلسون الى نوريس ١٨٣٠/٨/٣١ .

ميناء مسقط - فان الحقيقة التي لاشك فيها أن نفوذه في عمان قد تدهور كثيراً ، وأن الهزائم التي منى بها في البحرين ومباسا قد هزت القوة التي كانت تركز عليها دعائم حكمه وعلى العكس من الإمام أحمد بن سعيد وأئمة البعارة الذين كانوا يستمدون سلطتهم أساساً من تحالفهم مع القبائل الداخلية فقد كان السيد سعيد مثل والده سلطان بن أحمد يعتمد في حكمه أساساً على التجارة والأعمال التجارية ، وكان يعتمد بالتالي في سلطته على موارده التجارية والملاحية ، وفي عام ١٨٣٠ اتسعت الفجوة بينه وبين القبائل الداخلية ، ويعود ذلك في المقام الأول الى تعيينه لولاة لم يكونوا يتمتعون بتأييد كبار زعماء القبائل كذلك فان قضية دفع أموال الى شيخ آل بوفلاح في أبو ظبي لقاء اشرافهم على المداخل الشمالية لعمان كان سياسة غير فعالة لدعم الحكم في مسقط ، ومع ذلك فقد كان السيد سعيد يفضل الجري وراء أوهام الفتوحات الخارجية بدلاً من الاضطلاع بمهمة دعم الكيان الداخلي لحكمه .

وقبل أن يغادر السيد سعيد الى افريقيا الشرقية في ديسمبر عام ١٨٢٩ ذكر لويلسون بأنه ينوى الذهاب الى مكة بعد تسوية مشكلة مباسا وأنه سيتغيب عن البلاد لمدة ثلاثة سنوات ، وعلى الرغم من أنه عاد من افريقيا في شهر مايو ١٨٣٠ إلا أنه ما كاد يصل الى العاصمة حتى أبلغ المقيم السياسي بأنه ينوى مساعدة أمير إقليم فارس على اخضاع الشيخ عبد الرسول حاكم بوشهر بغرض حصار على ميناء تلك المدينة ، وبالرغم من أن ويلسون حاول أن يصدّه عن ذلك الاجراء الأحقق إلا أنه فشل ، وبقي سعيد متمسكاً بأذيال مغامراته ، وقد تنبأ ويلسون أيضاً أنه في حالة انهيار مركز السيد سعيد أمام خصومه في عمان كالههابيين مثلاً فمن المحتمل أن يثقل مقر الحكم الى زنجبار حيث سيظل هناك يعاني من تأنيب الضمير الذي سببه له سوء تقديره للأمور

٣٧٩ -

فى السنوات الأخيرة (١) ولم يكشف شئ عن ضعف السيد سعيد كما كشف اخفاقه فى ازاچه حمود بن عزان عن صحار وغيرها من المناطق الواقعة على ساحل الباطنة التى استولى عليها حمود ، وفى أواخر عام ١٨٣٠ أرغم السيد سعيد على الاعتراف بحمود واليا على صحار مقابل زكاة سنوية قدرها ٨٠٠٠ ريال نمسوى يدفعها اليه ، وعلى الرغم من أن السيد سعيد قد نقض هذا الاتفاق فى اوائل عام ١٨٣٠ وقام بفرض حصار على صحار فقد بقى حمود متحصنا داخل المدينة وتمكن من ائزال خسائر جسيمة بقوات السيد سعيد ثم جدد هذا الاتفاق .

وعلى اثر ذلك غادر السيد سعيد فى شهر ديسمبر الى الساحل الافريقى للقيام بمحاولة أخرى لاختضاع ممباسا (٢) وكما حدث فى عام ١٨٢٩ فقد اسفر غيابه عن عمان الى قيام ثورة فيها ، وكان أول من رفع علم هذه التمرد هو السيد سعود بن على بن سيف والى بركا وابن أخ بدر بن سيف الذى كان سلف السيد سعيد فى الحكم ، وكان سعود أحد الثالوث الذى أوكل اليه السيد سعيد اليه مقاليد الحكم فى السلطنة أثناء غيابه اما الاثنان اخران فكانا نجله الأكبر هلال والى السويق ، وابن أخيه محمد بن سالم والى مسقط ، وقد قام سعود باعتقال زميليه فى الحكم فى ابزيلي عام ١٨٣٢ ونزج بهما فى سجن ببركا . وقد استغل حمود بن عزان الظروف فقام بحصار الرستاق بالاشتراك مع هلال بن محمد الذى كان لاعتقال السيد سعيد له سبب فى التمرد السابق .

-
- (١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٧ مجلد ٤ رقم ٣١ - ١٣ أكتوبر ١٨٣٠ من ويلسون الى موريس بتاريخ ٣١ أغسطس ١٨٣٠ .
 (٢) مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ صفحة ٢٠١ ، ٢٠٢ وكتاب « نبذة تاريخية عن حكومة مسقط » (١٨١٩ - ١٨٣١) تأليف هانيل .

وقد أمكن فك الحصار عن الرستاق بمساعدة محمد بن ناصر شيخ بنى جابر ومستشار السيد سعيد الذى حشد نحو ١٥٠٠ فرد من الغافرية لمهاجمة البلدة ، وفى هذه الاثناء تولت شئون الحكم فى مسقط السيدة موزة بنت أحمد عمه السيد سعيد . وقد أظهرت هذه السيدة الشجاعة والطاعة فى السن كفاءة وروحا أكثر من أقاربها الذكور وبعثت بنداء للمساعدة الى حاكم بومباى ايرل اوف كلير والى المقيم البريطانى الجديد فى الخليج دى اى يلين الذى كان قد خلف ويلسون لتوّه ، وقد تحرك يلين بنفس السرية التى تحرك بها خلفه ويلسون قبل عامين فأوفد مساعده اللفتنان هانيل الى مسقط مع طرادين هما تيجريس والفنستون كما كتب الى شيوخ القراصنة يحذرهم من التدخل فى القتال الدائر فى عمان (١) .

غير أن ذلك التحذير وصل متأخرا فعند وصول هانيل الى باسيدو علم أن سلطان بن صقر تحرك عند أول سماعه بالامدادات فى عمان أرسل اسطوله الى شبه جزيرة مسندم واحتل دبا وخور فكان على ساحل الشمالى شمال صحار ، كما كان راشد بن حمد شيخ عجمان وأجد عملاء القواسم قد خرج هو الآخر بسفنه الحربية الى البحر واستولى بالفعل على مجموعة من السفن العمانية وبعض سفن ساحل مكران ، أما هانيل فقد واصل رحلته بالطرادين من باسيدو الى مسقط وفى طريقه توقف فى كل من صحار وبركا حيث علم

(١) مجموعة مجلس ادارة الشركة مجلد ١٤٣٥ رقم ٦٧٢٦ من السيدة موزة الى حكومة بومباى ٨ ابريل ومن بلين الى نوريس ٧ مايو سنة ١٨٣٢ ومن يلين الى هانيل بنفس التاريخ انظر كذلك مجموعة بومباى المجلد ٢٤ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ للفتنات راي بى كامبل نبذة تاريخية لحكومة مسقط ١٨٣٢ - ١٨٤١ .

هناك أن نجل السيد سعيد وابن أخيه قد أفرج عنهما بفضل جهود السيدة موزة بعد دفع فدية عنهما . وعند وصول هانيل الى مسقط يوم ٢٦ مايو كان الثالث الحاكم هناك فأخبروه بأن المرحلة الخطرة من التمرد قد انتهت ، ومع ذلك فقد قرر هانيل أن يترك أحد الطرادين وهو الفنستون فى مسقط للدفاع عنها (١) وحتى فى هذه المرة لم يعرب السيد سعيد عن تقديره للمساعدة التى قدمت اليه غير أن يلين تصور أن السيد سعيد لم يكن يقصد شيئا من ذلك وحتى لو كان السيد سعيد قد تعمد ذلك فإنه يعتبر المساعدة البريطانية له مسألة بديهية .

بعد ستة أعوام على تدمير ابراهيم باشا للدعية مقر الوهابيين سنة ١٨١٨ بقى المصريون مسيطرين على نجد (١) وعلى أى حال فقد كانت المعركة الفعلية على السلطة خلال هذه السنوات تدور بين الاحياء من الأسرة السعودية

(١) مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٢٩ (نبذة تاريخية عن قبيلة القواسم العربية) ١٨٣٢ - ١٨٤٤ تأليف اللفتنانت ايه بى كمبل .

(٢) (افريقيا الشرقية وغزاتها ص ٢٧٤) كوبلاند الفصل الثانى ص ١٨٩ ، ١٩٠ فى تحديد تاريخ الثورة السعودية لسنة ١٨٢٨ ويذكر أيضا ان عودة السيد سعيد قد حسمت الموضوع وقد قام غولين بمسح الساحل الشرقى لافريقيا بناء على تعليمات من وزارة البحرية الفرنسية وكان على ظهر الفرقاطة دورسيدى سنة ١٨٤٦ الى سنة ١٨٤٨ وتضم هذه الوثائق بيانا عن عملية المسح هذه ووصفا مفصلا للمسائل التاريخية وغيرها حول علاقة عمان بزنجبار ويعتبر غولين من اكثر المطلعين حول هذا الموضوع واكثرهم صحة عن تاريخ هذه الفترة .

وزعماء القبائل التي كانت تعارضهم وفي أواخر عام ١٨١٩ أو بداية عام (١) ١٨٢٠ كان مشارى بن سعود شقيق الأمير السابق عبد الله هو المسيطر على الدرعية ولم يدم حكمه إلا بضعة أشهر وانتهى بظهور الرجل الذي كان يؤيد عودة السعوديين إلى الحكم وهو تركي بن عبد الله حفيد محمد بن سعود أول أمير اعتلى دست الحكم (٢) وابتداءً من ١٨٢٠ حتى سنة ١٨٢٤ ظل تركي يتن حروباً متواصلة ضد المصريين والقبائل المعادية له وانتهى هذا الصراع بانسحاب المصريين من الرياض في شهر أكتوبر ١٨٢٤ وخضوع معظم مناطق نجد لتركي بعد ذلك ، ومنذ ذلك اليوم أصبحت الرياض التي لا تبعد إلا بضع أميال إلى الجنوب من الدرعية عاصمة السعوديين وقد أمضى سعود السنوات الخمس الأولى من نجاحه في تثبيت حكمه لنجد ، ولم يتمكن من الاستيلاء على الأحساء من شيوخ بنى خالد محمد وماجد العيار قبل خريف عام ١٨٢٩ وقد نجح هو ونجله فيصل في سحق مقاومة بنى خالد عبر سلسلة من المعارك انتهت بسقوط الهفوف والمناطق الساحلية خلال ربيع سنة ١٨٣٠ (٣) . وبعد وقت قصير من استرجاع الوهابيين للأحساء بدأت

(١) يختلف المؤرخون حول هذا التاريخ ففي الوقت الذي يحدد لوريمر في « دليل الخليج » فصل ١ ص ٢٠٩٣ سنة ١٨١٩ يرى فلبى في مؤلده « السعودية العربية » ص ١٥١ على غرار ابن بشر أنها حدثت في شهر مارس

١٨٢٠

(٢) لم يكن كما يذكر كثرة من المؤرخين نجل الأمير عبد الله بن سعود الذي اعدم في القسطنطينية سنة ١٨١٨ .

(٣) أفضل مرجع لهذه الأحداث هو كتاب تاريخ نجد جزء ٢ ص ١ - ٣٨ تأليف ابن بشر الذي اعتمد عليه فلبى بعد حذف بعض المقاطع في مؤلفه =

تظهر آثار ذلك على امتداد سواحل الجزيرة العربية وقد توقع راشد بن حمد شيخ عجمان الذي سر بتلك الأحداث أن تلك التطورات سوف تؤدي إلى العودة إلى القرصنة البحرية بتحريض من الوهابيين وانطلاقاً من هذا التصور طلب إلى تركي أن يعينه نائباً عنه في المنطقة الساحلية ، ولكنه كما يذكر لوريمر تسلم رداً فاتراً على اقتراحه يفيد ، بأن الأمير الوهابي يعتبر ، وسوف يظل يعتبر ، سلطان مسقط وشيخ الشارقة الزعيمين الوحيدين لقبائل عمان ، وكان تركي قد عقد العزم على أن لا يعيد أخطاء أسلافه من الأمراء ، وكان كما أشار اللغتنانت هانيل المقيم البريطاني بالنيابة شخصاً أكثر ثقافة من الأمراء السابقين ، وأنه كان متقيداً في خطواته بمبادئ السياسة على العكس من الزعماء الوهابيين السابقين الذين كان حماسهم لنشر العقيدة الوهابية أكثر من حماسهم للحكم (١) ولكي يؤكد رفضه القاطع لمقترحات راشد بن حمد كلف شيخ عجمان في منتصف سنة ١٨٣١ بأبلاغ حكومة بمبائى رسالة منه يعبر فيها عن رغبته في إقامة علاقات ودية مع الحكومة البريطانية ، وقد ردت الحكومة البريطانية عليه برسالة تبادلها فيها نفس الرغبة وأرسلتها إليه عن طريق المقيم البريطاني في الخليج . وعلى أية حال فقد ظل راشد بن حمد مصمماً على العودة إلى القرصنة سواء بتأييد من الوهابيين أو بدونهم ، وفي مستهل عام ١٨٣٢ انتهز فرصة التمرد في عمان فشن هجوماً على سفن مسقط وقام بنهب بعض السفن التابعة لساحل مكران وسفينة

= « السعودية العربية » ص ١٤٩ - ١٦٣ كذلك انظر مخترعات بمبائى مجلد ٢٤ ص ٤٩٧ - ٤٩٩. ونبذة تاريخية عن قبيلة الوهابيين العربية ٤٨١٩ - ١٨٣١ ودليل الخليج تأليف لوريمر مجلد ١ ص ١٠٩٣ - ١٠٩٥ .

(١) مختارات بمبائى مجلد ٢٤ ص ٤٣٩ .

تابعة لكتش وقد قام اللفتنان هانيل بزيارة الى ساحل الخليج فى بداية يوليو سنة ١٨٣٢ للحصول على تعويض لأصحاب السفن المتضررة ، وعند وصوله الشارقة إبلغه حاكمها القاسمى سلطان بن صقر شيخ عجمان بأن راشد بن حمد لم يعد يخضع لسلطته ، وأنه على هانيل أن يحصل على التعويض من راشد مباشرة ، وقد وافق هانيل على ذلك وان كان قد لاقى صعوبات كثيرة فى محاولته (١) ومما لاحظته هانيل فى مقابلته للشيخين أنهما كانا يختلفان فى موقفيهما من دعوة الوهابيين الى الحكم وبخاصة من احتمال عودتهم الى غزو عمان مرة أخرى ، وعلى حين كان راشد يرحب بعودة النفوذ الوهابى بدون تحفظ كان سلطان يبدى مخاوفه من ذلك ، وعلى الرغم من أنه كان يفضل وجود حليف قوى الى جانبه فى صراعه ضد آل بوفلاح شيوخ ابو ظبى غير أنه لم يكن يطمئن الى الوهابيين الاقوياء والى وجودهم على مقربة من حدوده ، وكان سلطان فى شهر نوفمبر ١٨٢٥ قد استفسر من الكولونيل ستانوس بشىء من اللباقة السياسية ما اذا كانت الحكومة البريطانية ستساعده فى الاحتفاظ باستقلاله لو استعاد الوهابيون نفوذهم السابق فى شبه الجزيرة ، وبماذا يرد عليهم لو انهم طلبوا أن ينضم اليهم للقيام بهجوم مشترك على مسقط ، وقد أجابه ستانوس بأنه لو فكر فى اقامة علاقات مع الوهابيين فان البريطانيين لن يؤيدوه ، وقد يؤدى ذلك الى عودة أعمال القرصنة ، كما أنه لن عقد أى اتفاقات معهم تهدد مركز السيد سعيد . فسوف يعتبر عمله موقفا عدائيا ، وقد أكد الفنستون هذا الموقف حين ذكر بأنه على الرغم من أن القيام باجراء ضد الوهابيين لم يكن واردا طالما أنهم يحصرون نشاطهم على البر الا أن

(١) مجموعة مجلس ادارة الشركة مجلد ١٤٣٥ رقم ٦٧٢٦، من هانيل

حكومته لا يمكنها أن تغض الطرف في حالة وقوع غزو لعمان كما إنها لن تشجع مثل هذه الأعمال العدوانية لعدم اعلان اهتمامها بهذا الأمر ، ولم يثر سلطان بن صقر هذا الموضوع مرة أخرى حتى شهر يوليو ١٨٣٠ عندما اقترح على المقيم البريطاني في أعقاب استيلاء تركى بن عبد الله على الأحساء بأن تستترك الحكومة البريطانية مع قبائل الساحل الغربى فى وقف التوسع الوهابى وقد رفض اقتراحه هذا وقيل له بأن السياسة البريطانية فى الخليج مبنية على مكافحة القرصنة فحسب ، ولا شأن لها بالسياسات الداخلية لسكان المنطقة . وبعد فترة قصيرة تجددت مخاوف سلطان حول نوايا تركى بعد ان رفض الأمير الوهابى مقترحات راشد بن حمد (١) .

ولما كان تركى مشغولا باهتمامات أخرى فإنه لم يفكر بعد فى الاهتمام بسواحل القرصنة ، ولكنه فى نهاية عام ١٨٣٠ دعا عبد الله بن احمد حاكم البحرين الى الاعتراف بسلطته ودفع الزكاة بالإضافة الى دفع مبلغ ٤٠٠٠٠ ريالاً نمساوى عن بعض الخيول التى تركها الوهابيون فى البحرين أثناء انبجابههم كما إنه طالب بتسليم قلعة الدمام التى كانت فى يد آل خليفة فى ذلك الوقت الى بشير نجل رحمة بن جابر الذى أصبح احد صنائع الوهابيين . وقد طلب عبد الله تأييد البريطانيين فى رفضه لطلب الوهابيين ، ولكنه تلقى نفس الجواب الذى تلقاه سلطان بن صقر سابقا ، وفى عام ١٨٣٠ أوفد عبد الله مبعوثا خاصا لمفاوضة تركى ، وتوصل الجانبان الى اتفاق تعهد بموجبه عبد الله بالاعتراف بالأمير الوهابى كسلطة عليا وبأن يدفع له الزكاة المقررة

(١) مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ٣١٩ و ٣٢٤ - ٣٢٥ نبذة تاريخية عن

الهواشم ١٨١٩ - ١٨٣١ اعداد هانيل .

مقابل ضمان الأمير الوهابي للسيادة الإقليمية لحاكم البحرين ، وهكذا صرف النظر كما يبدو عن موضوع تسليم قلعة الدمام ، أما بشير بن رحمة بن جابر فقد عين مسئولاً عن الطاروت بدلا من القطيف (١) .

كما أجرى السيد سعيد اتصالا هو الآخر بتركي بعد احتلاله للأحساء يعرض عليه الخضوع لسلطته مقابل مساعدته في الهجوم على البحرين (٢) ورغم أن تركي رفض العرض مفضلا أن يعالج موضوع البحرين لحسابه الخاص إلا أن ذلك قد أثار اهتمامه كدليل على عدم اكتراث السيد سعيد بمصلحة عمان كما ظهرت أدلة أخرى على هذا الموقف ، فقبل عامين من ذلك التاريخ قامت قوة بقيادة عمر بن عوفيضان حاكم الأحساء بالاغارة على واحة البريمي ولم يعترض السيد سعيد أو يتحرك ضد الوهابيين . وفي سنة ١٨٣٠ غادر بعض المبعوثين العمانيين موفدين من بعض زعماء القبائل المعادية للسيد سعيد للاتصال بالأمير تركي في الأحساء (٣) كما كشفت حركات التمرد التي وقعت بعد ذلك من ضعف مركز السيد سعيد بصورة أكثر . وهكذا أصبح الوقت ملائما للانقضاض على عمان لانتزاع ما يمكن انتزاعه من الحاكم . وفي أواخر

(١) مختارات بومباي ص ٣٨١ نبذة تاريخية عن قبيلة العتوب العربية .

١٨١٩ - ١٨٣١ ودليل الخليج « اعداد لوريمر مجلد ١ ص ٨٥٦ - ٨٥٧ .

(٢) دليل الخليج مجلد ١ صفحة ٨٥٦ - ٨٥٧ اعداد لوريمر .

(٣) راجع « تاريخ نجد جزء ٢ صفحة ٣٨ تأليف ابن بشر » وعلى الرغم

من أن هذا المؤرخ يحدد القبائل التي انضمت الى القائد الوهابي فقد يكون بعضها جاء من راشد بن حمد حاكم عجمان ومن الزعماء الآخرين ربما يكونون من أمثال حمود بن عزان والي صحار .

سنة ١٨٣٢ اصدر الأمير تركى اسرا الى عمر بن عوفيسان لاعداد حملة
ضد عمان .

زحف عمر بن عوفيسان من الأحساء بقوات قوامها ٣ آلاف رجل فى
منتصف شهر يناير سنة ١٨٣٣ وبعد أن اجتاز منطقة الظفرة وصل الى واحة
البريمى يوم ١٨ فبراير ، وبمجرد وصوله احتل القلعة الرئيسية قصر الخندق
وبعد ذلك طالب القبائل المجاورة بدفع الزكاة وقد اشتمت القبائل من هذا
الطلب أن الانضمام الى القائد الوهابى سوف يجلب لهم الغنائم ، ولهذا
التفوا حوله ، كذلك زاره رسل من راشد بن حمد وسلطان بن صقر (١) وكان
يبدو أن عمر بن عوفيسان لم يكن على عجلة من امره ليتحرك ضد السيد
سعيد ، ولهذا بعث برسل الى مسقط يؤكد له بأن مجيئه الى عمان هو لمساعدة
السيد سعيد على معارضيهِ (٢) لكن بن عوفيسان كان يخشى شيئاً واحداً ،
وهو أن يتعرض لهجوم من قبل طحنون بن شخبوط شيخ أبو ظبى الذى كان
فى وضع يسمح له بقطع خطوط مواصلاته مع الأحساء . فبر أن طحنون بن
شخبوط لقي هو الآخر نفس المصير الذى تعود أن يلقاه حكام آل بو فلاح ، ففى
شهر ابريل من عام ١٨٣٣ اغتاله شقيقاه خليفة وسلطان ، ثم تولى خليفة بعد

(١) نفس المصدر صفحة ٤٤ وملفات المثلثية البريطانية فى الخليج ومن
وكيل المثلثية فى الشارقة الى المقيم لبريطانى ١٣ يناير ، ١٥ ، ٢٤ فبراير
١٨٣٣ .

(٢) ملفات المثلثية البريطانية فى الخليج الكتاب ٣٧ من الوكيل فى مسقط
الى المقيم ٢٢ مارس ١٨٣٣ كذلك فانه لم يتردد بأن يتبادل الرسائل مع عدو
سعيد الأكبر ونعنى به حمود بن عزان وان يقبل منه منحة مقدارها ١٥٠٠ ريال
بمسوى (نفس المصدر) .

ذلك المشيخة، غير أن آل بو فلاسه وهم أقوى الفئات في قبائل بنى ياس رفضت الاعتراف بسلطته وهاجرت الى دبی الأمر الذى أضعف مركز خليفة كما أن خوفه من أن يواجه سخطا عاما نتيجة اغتياله للشيخ طحنون الذى كان يعد من اكفأ الحكام وأشجعهم قد اضطره للاذعان الى عمر بن عوفيسان (١). وقد بدأ القائد الوهابى فى تشديد الضغط على السيد سعيد مطالبا بخضوعه لسلطة تركى بن عبد الله وبدفع الزكاة المقررة للأمير الوهابى . ولكن السيد سعيد كتب فى شهر يوليو الى بلين المقيم البريطانى فى ذلك الوقت يذكره بأنه فى وضع خطير جدا وبأنه غير واثق فيما اذا كان يمكنه الصمود أمام عمر بن عوفيسان أم لا . ورغم تعاطف بلين مع السيد سعيد الا أنه لم يكن متأكدا من أن التعليمات التى لديه تسمح له بمساعدة السيد سعيد ولهذا نصحه بمحاولة التفاهم مع الوهابيين (٢) ، وبعد شهر أبلغ السيد سعيد بلين انه قد توصل الى اتفاق مع عمر بن عوفيسان على أن يحترم كل طرف حدود الطرف الآخر على أساس أن تمتد حدود السيد سعيد الى جعلان وتمتد حدود الوهابيين الى القطيف ، وأن يتعاون الطرفان على قمع أى حركات للتمرد والثورة فى أراضيهم ، غير أن سعيد أخفى عن بلين موضوعا آخر وهو تعهده بدفع زكاة

(١) سجل الرسائل الرسمية لحكومة بومباى مجلد ١٦ من مجلس الحاكم الى مجلس ادارة الشركة بتاريخ ١٤ أغسطس ١٨٣٣ (رقم ٣١ الإدارة السياسية) ومختارات بومباى مجلد ٢٤ صفحة ٤٧١ وكتاب نبذة تاريخية عن قبيلة بن ياس العربية ١٨٣٣ - ١٨٤٣ تأليف اللفتنانت كمبل .

(٢) مجموعة مجلس الادارة مجلد ١٤٣٥ رقم ٥٦٧٢٦ من بلين الى السكرتير السياسى بحكومة بومباى ٢٥ يونيو ١٨٣٣ .

سنوية بواقع ٥٠٠٠ ريال نمساوى الى حكومة الرياض (١) ، وبعد ذلك مباشرة سافر بن عوفيسان الى الاحساء محملا بالغنائم التى قدرت بـ ١٥ ألف ريال نمساوى و ٣٠٠ بعير وقد ترك وراءه نائبه محمد بن عبد العزيز على رأس حامية قوامها ٧٠ جندياً .

ومن الصعب ان نفهم ما الذى حمل السيد سعيد الى ذلك الاستسلام للوهابيين ، صحيح ان مركزه داخل عمان لم يكن قويا كما يتبقى لكنه كانت لديه كل الامكانيات لدحر هجوم بن عوفيسان كما لا يمكن ان تكون عمان فريسة سهلة كما تصور السيد سعيد ، وكان السيد سعيد نفسه مقاتلا وشجاعا وهى الصفة التى اكتشفها فيه كل الاوربيين الذين قابلوه ، قد كتب اللفتنانت جى آر ولستد من الاسطول الملكى فى سنة ١٨٣٥ يصف السيد سعيد بقوله « طويل القامة مهيب ذو ملامح رقيقة ولكنها مؤثرة دمت الاخلاق وقور المحيا ، وكان السيد سعيد فى ذلك الوقت فى الخامسة والاربعين من عمره وأضاف ولستد فى حديثه عن السيد سعيد يقول :

لقد احتفظ الامام فى سلوكه الشخصى ببساطة البدوى ، فهو متقشف فى اعتدال ، ولا يرتدى المجوهرات وان قميصه اذا استثنينا جودة القماش ليس افخر من قمصان كبار مواطنيه وهو يقابل المواطنين من غير ابهة او بروتوكولات وان حكومة هذا الأمير تتميز بالبعد عن الضرائب المجحفة والقوانين العرابة وذلك لما يبيده الحاكم من روح التسامح تجاه أصحاب الأعمال الوافدين الى مسقط من الدول الأخرى وللتسامح العام أزاء كافة المذاهب والمعتقدات ومن ناحية أخرى فان نزاهة هذا الحاكم واستقامة خلقه وعدالته وعدم مغالاته

(١) مختارات بومباى مجلد ٢٤ صفحة ٢٠٦ (نبذة تاريخية عن مسقط .

١٨٣٢ - ١٨٤٤) اعداد كمبل .

- ٣٩٠ -

فى العقوبات التى يفرضها على مواطنيه فضلا عن الحرص الذى يبديه فى سبيل تحقيق الخير لرعاياه قد اكتسبه اعجاب واحترام سكان المدن مثلما اكتسبته لبراليته وشجاعته حب الوطنين البدو (١) .

غير ان شعبية سعيد لم تكن تمتد الى المناطق الداخلية من البلاد الامر الذى يعسر بلا ادنى شك اعراض تلك القبائل عن انتخابه اماما لهم ، ولا توجد اسباب مقنعة عن فشل السيد سعيد فى تولى الامامة ، وقد يكون عزوفه عن الامامة هو أحد تلك الاسباب ، ولكنه من المؤكد الى حد كبير انه لم يكن ليتولى الامامة لو انه سعى لها ، ذلك ان المفاهيم النظرية لبعض القبائل الاباضية المتطرفة قد اهتزت بسبب المعتقدات الوهابية الجديدة الوافدة على المنطقة وكانت النتيجة انهم أصبحوا اقل حماسا لانتخاب امام جديد وان كانوا لا يخفون اهتمامهم بالنتائج التى بدت تنتشر عن انتخاب خلف للامام احمد بن سعيد والى تحديدهم للخصائص التى يجب ان تتوفر فى الامام المرشح ، واذا نظرنا الى الموضوع من زاوية عملية فقد كان غياب السيد سعيد المتكرر عن البلاد يحول بينه وبين ممارسة الوظيفة الاساسية للامام وهى قيادته لصلاة الجماعة . كما كان اختياره لمسقط كعاصمة لحكمه

(١) « رحلات الى الجزيرة العربية » فصل ١ ص ٦ - ٨ للاطلاع على نموذجين لهذا التقييم للسيد سعيد من قبل اثنين من الرحالة الامريكيين رحلة الى العواصم الشرقية لكوشين والصين وسيام ومسقط ... خلال اعوام ١٨٣٢ و ١٨٣٣ و ١٨٣٤ طبعة نيويورك ١٨٣٧ ص ٣٥١ - ٣٦١ وقصة رحلة بحرية حول العالم خلال الاعوام ١٨٣٥ و ١٨٣٦ و ١٨٣٧ مجلدين طبعة لندن ١٨٣٨ فصل ١ ص ١٠٨ - ١٠٩ .

وتفضيلها على الزستاق قد اضاف صعوبات أخرى الى المشكلة (١) .

ان التقديرات التى أعدت عام ١٨٣١ لقوات السيد سعيد المسلحة تعددها (٣٠٠٠) جندى نظامى تحت السلاح يضاف اليهم عشرة آلاف يمكن حشدهم من القبائل فى حالات الطوارئ (٢) اما الجيش فكان جنوده النظاميون مسلحين بالبنادق والرماح والسيوف .

غير أن قبائل الداخلية كانت تنظر بازدراء الى جيش السيد سعيد بل ان السيد سعيد نفسه لم يكن يفخر بجيشه وبالدور الذى كان يقوم به لصالحه وكان يدفع للجندي الواحد من ٣ الى ٥ ريالات فى الشهر ، وكان على الجنود أن يشتروا السلاح بأنفسهم ، ويشمل أهمل السيد سعيد للجيش الثكنات والقلاع التى كانوا يربطون فيها على امتداد ساحل عمان وقد تدهورت حالة القلعتين الرئيسيتين فى مسقط وهما الجلالى والميراني نتيجة لذلك الاهمال . فالقلعة الشرقية (الجلالى) كانت متآكلة ومهترئة ومن وصفه لهذه القلعة جاء فيه « ان القلعة محاطة بثلاثين مدفعا كانت كلها مليئة بالثقوب والخدوش فيما عدا اثنين او ثلاثة من المدافع النحاسية التى خلفها البرتغاليون وكانت مرفوعة فوق عربات رديئة الصنع .

وعلى أى حال كانت معدات السيد سعيد الحربية معدات متواضعة . فقد كان اسطوله البحرى على العكس من ذلك . فقد شاهد الفنانات أج هارت

(١) لا تختلف رواية بادجر عن هذه الا اختلافا بسيطا فى كتابه «أئمة وسلطين عمان» ملحق (١) ورغم التحقيقات التى أجراها فى كل من مسقط وزنجبار لم يجد أحدا يمكنه ان يلقى ضوءا على هذا الموضوع .

(٢) رحلة خمسين شهرا فصل اول ص ٦ ملحق ١ .

من الاسطول الملكى) بعض قطع ذلك الاسطول فى ميناء زنجبار فى شهر فبراير حيث كانت راسية هناك سفينة حربية مسلحة بـ ٧٤ مدفعا تسمى ليفربول وفرقاطة مسلحة بـ ٥٠ مدفعا ، واخرى بـ ٣٦ مدفعا ، وطراد بـ ٢٠ مدفعا وسفينة طراز (برك) مسلحة بـ ١٠ مدافع بالاضافة الى سفينة اخرى وكل هذه السفن بنى فى بومباى (١) وعلى اى حال فخلال شهر سبتمبر الماضى قام زائر امريكى بعد السفن الراسية فى ميناء مسقط فوجد بالاضافة الى السفينة ليفربول خمس سفن اخرى بواقع ٣٠ مدفعا فى كل منها الى جانب ست سفن اخرى من مختلف الحمولات كانت احداها تحمل ٢٢ مدفعا اثنتان اخرى ١٨ مدفعا فى كل منهما واثنان ١٢ مدفعا فى كل منهما .

والى جانب القوة البحرية كان السيد سعيد يمتلك سفينتين تجاريتين من صنع بومباى واربع سفن شراعية (طراز البغلة) نسبة الى البغلا وترمز الى الضخامة وكان كل من هذه السفن مسلحا ببعض المدافع كما كان يمتلك

(١) مختارات بومباى مجلد ٢٤ ، ص ٢٨٢/٢٨٣ مقتطفات من ملخص ملاحظات لرحلة الى زنجبار على السفينة الملكية ابوجين . . . يناير وفبراير ١٨٣٤ افريقيا الشرقية وغزاتها ص ٢٩٠ وقد اقتبس معلوماته من بعثة الى الحكومات الشرقية فى الصين وكوشن وسيام ومسقط ص ٣٦١ - ٣٦٣ وقد اجري ستوكبر نفس التقديرات لاسطول السيد سعيد سنة ١٨٣١ انظر زيادة خمسة عشر شهرا فصل ١ ص ٦ من كتابه كما حدد الكابتن غليوم نفس العدد تقريبا سنة ١٨٤٦ - ١٨٤٨ (انظر وثائق تاريخية لافريقيا الشرقية فصل ٢ ص ٢٤١ .

عددا من السفن التجارية الصغيرة (١) .

ان مكانة اقتصاد السيد سعيد لم تكن موضع شك فقد كان دخله السنوى من الرسوم الجمركية يتراوح بين ١٦٤,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ (٢) ريال نمسوى . وعلى أساس الأرقام القديمة فان رقم الواردات لمسقط يصل الى ما قيمته ٣٣٠,٠٠٠ ريال نمسوى مما يعنى ان مسقط تأتى فى المرتبة الثانية بعد جدة من حيث الاهمية التجارية للموانئ التجارية فى شبه الجزيرة . أما دخل السيد سعيد من جمارك زنجبار فكان اقل من دخل مسقط ، غير انه ابتداء من ثلاثينيات القرن التاسع عشر اخذ هذا الرقم يتزايد

(١) فارس والخليج مجلد ٣٧ من ستانوس الى ويلوك بتاريخ ١٨٢٣/٦/٣ ، ومرفق به صورة من خطاب ويلوك الى كانج ، سلطانية ١٨٢٤/٧/٧ وقد ذكر هاتون ان السيد سعيد كان يمتلك عشرين سفينة تجارية من مختلف الانواع (مختارات حكومة بومباي مجلد ٢٤ ص ٢٧٩) كما ابلغ ولستد فى عام ١٨٣٥ ان نحو ٨ الى ١٠ سفن تجارية وضعفها من السفن الاصغر حجما كانت تعمل فى التجارة مع مناطق البحر الاحمر والهند وتركيا والعراق « رحلات الى الجزيرة العربية فصل ١٠ ص ٤٣ » .

(٢) الرقم الاول لو لستد وقد حددها على أساس مدفوعات الرسوم الجمركية (وباقع ٥ ٪ من القيمة) منها ١٠٥,٠٠٠ من جمرك مسقط و ٦٠,٠٠٠ من جمرك مطرح (رحلات الى شبه جزيرة العرب فصل ١ ص ٢٢) ويذكر ستوكلر انه بالاضافة الى الـ ٥ ٪ كان يدفع رسوم اخرى بواقع ١٠ ٪ عن المنتجات التى تدخل مسقط ولا يفرق ستوكلر بين مسقط ومطرح عن المناطق الداخلية وان الجمارك كانت مؤجرة لاحد الهنود التجار مقابل ١٠٠,٠٠٠ عن كل من المدينتين (رحلة خمسة عشر شهرا) فصل ١ ملحق ١ .

بشكل سريع وكان يأتي معظم هذا الدخل خلال تلك الفترة من تجارة الرقيق .
ولقد قيل للفتنانت هارت في عام ١٨٣٤ ان دخل السيد سعيد من جمارك
زنجبار كان يصل الى ١٥٠.٠٠٠ ريال نمسوى في العام ، غير انه قبل زيارة
السيد سعيد لزنجبار في عام ١٨٣٣ كان يحصل على ٣٠.٠٠٠ الى
٤٠.٠٠٠ ريال نمسوى (١) وقد تكون الارقام التي ذكرها الثلاثة
هارت وولستند وستوكلر مبالغ فيها غير انه من المؤكد ان دخل
السيد سعيد من مسقط وزنجبار لم يكن اقل من ٢٥٠ الف
ريال نمسوى في العام * وقد نقول بأن مجموع دخله اذا اضيف اليه دخل
من بندر عباس والارباح التي تأتيه من معاملاته التجارية الخاصة لا يمكن
ان يقل عن ٣٤٠ الف ريال نمسوى أو سبعين الف جنيه استرليني في
العام (٢) .

(١) مختارات حكومة يومباي مجلد ٢٤ ص ٢٨١ مقتطفات من ملاحظات
لرحلة الى زنجبار .

(٢) كوبلاند افريقيا الشرقية وغزاتها ص ٣١٧ - ٣١٨ ويعتقد كوبلاند
ان تقديرات هارت مبالغ فيها اما هو فيقدر مجموع الدخل من زنجبار بما
لا يقل عن ٢٠ الف جنيه استرليني كل عام او ١٢٠ الف ريال نمسوى اذا
حسبنا السعر على اساس ٦ وليس على اساس ٥ ريالات للجنيه الاسترليني
وهذا على عكس جولين الذي يقدر الدخل في عام ١٨٤٦ - ١٨٤٨ من زنجبار
وملحقاتها بمبلغ ٢٤٩ الف ريال نمسوى سنويا وذلك في كتابه وثائق تاريخية
عن افريقيا الشرقية . وهذه الدخول مضاف اليها دخل عمان وتقدر ١١٦
الف ومائة ريال و ٢٠ الف و ٥٠٠ ريال من جواهر وبندر عباس وملحقاتها
و . . ١٠ الف ريال من المعاملات التجارية الخاصة بالسيد سعيد كانت تعطيه
دخلا سنويا عن ٤٨٠ الف و ٦٠٠ ريال نمسوى او نحو ١٠٠ الف جنيه
استرليني .

وهكذا لم يكن ينقص السيد سعيد شيء فقد كان المال والقوة البحرية واردة القتال في رجاله متوفرة لصد الوهابيين عن حدود عمان ولم يتردد السيد سعيد في استخدام هذه العوامل الثلاثة في حملته التي شنّها على البحرين ومباسا ، فما هي الأسباب التي جعلته يحجم عن استخدام قوته البحرية كما استخدمها في قمع التمرد ضد حكمه في مباسا لغرض حصار على القطيف والعقير لكي يصرف اهتمام الوهابيين عن عمان ، ولماذا فضل ان يخضع لهم خضوعا مشينا يهدد حكمه وبلاده والأجيال القادمة من أسرته ؟ ان الرد على هذه الاسئلة هو ان السيد كان قد عقد العزم بعد سنة ١٨٣٣ على ان يكرس امكانياته لمستعمراته الافريقية ، وأن يجعل من زنجبار العاصمة الفعلية لحكمه ، اما ان السيد سعيد لم يكن يفكر في التخلي نهائيا عن عمان فهو امر لا يمكن ان يجادل فيه انسان غير انه منذ ذلك الوقت كانت عمان بالنسبة اليه اقليما بعيدا متمردا عليه بدلا من ان تكون روح وقلب مملكته ، وفضلا عن ذلك فقد كان سعيد على يقين انه اذا احتاج الى مساعدة سواء للدفاع عن البلاد ضد الوهابيين أو لقمع حركات داخلية فانه سوف يحصل بسهولة على تلك المساعدة من الهند البريطانية ، ولهذا أبحر من مسقط في شهر نوفمبر عام ١٨٣٣ الى مباسا لقمع التمرد هناك وهو مطمئن كل الاطمئنان .

ويبدو ان السيد سعيد كان متفائلا أكثر مما يجب ، وبالتالي فان ما حدث في عمان في سنة ١٨٣٣ قد حتم على الحكومة البريطانية في الهند وفي إنجلترا بأن تعيد تقييم علاقتها بمسقط من جديد ، وقد بدأت دراسة الموضوع بتقرير بلين المؤرخ في شهر يونيو سنة ١٨٣٣ عن ضعف مركز السيد سعيد آزاء اطماع عمر بن عوفيسان ، لقد غدا وجود عمان كدولة مستقلة

على حد راي بلين في كفة الميزان فلم يكن بلين يطمئن الى الوهابيين فاذا قدر لعمان ان تصبح مستعمرة وهابية ، وتصبح مسقط واسطولها التجارى تحت رحمتهم يصبح التدخل البريطانى المسلح امرا لا مفر منه فاذا اضطرت بريطانيا الى اتخاذ مثل هذه الاجراءات فان من الأفضل ان يكون التدخل العسكرى تدخلا مباشرا وليس عن طريق السيد سعيد (١) ، وقد وافق حاكم بومباى ارل اوف اكير على مقترحات بلين ، ودعا كير الى ابلاغ تركى بن عبد الله بأن اى اعتداء على اراضى السيد سعيد لن يكون تصرفا مقبولا من بريطانيا كما قام بتعزيز الاجراءات بالاتصال بمحمد على باشا والى مصر ، اذ كان لا يزال يمارس نفوذا على تركى باعلان تأييده للسيد سعيد الذى كانت تربطه به علاقات صداقة ، اما اذا لم يكن تركى خاضعا لباشا مصر فقد يفكر الباشا فى اخضاع الوهابيين لسلطته مرة اخرى ، وهذا سوف يتيح لبريطانيا فرصة لصنع سياستها الجديدة بالنسبة لهذه المشكلة .

ولما كان موضوع التدخل المسلح لا يدخل ضمن اختصاص بلين بنفسه فقد قرر احالة الموضوع الى الحاكم العام اللورد وليم بيتنك للنظر فيه غير ان بيتنك لم ير ضرورة للتدخل واوضح هذا الامر لكير ايضا كما تاما فى اوائل شهر فبراير ١٨٣٤ ، بأن الحاكم العام غير مستعد لأن يوافق على استخدام الاسلحة البريطانية من اجل المحافظة على ممتلكات امام مسقط . لاننا اذ تورطنا مرة فى سياسة تأييد هذا الحاكم او ذاك فسيكون لابد لنا من متابعة هذا الخط السياسى مهما يكن الثمن ، وبالتالي سيكون من الصعب

(١) مجموعة مجلس ادارة الشركة مجلد ١٤٣٥ مجموعة ٥٦٧٢٦ من

بلين الى السكرتير السياسى لحكومة بومباى ١٨٣٣/٦/٢٥ .

علينا أن نضع حداً لعمليات سفك الدماء واهدار الأموال التي سوف تترتب على هذه السياسة وعلى العكس من كليز وبلين لم يكن اللورد بتتك يعتقد بأن استقلال عمان كان على وشك الانهيار بل على العكس كان واثقا على ضوء الانفاقية المبرمة اخيرا بين الأمير تركي والسيد سعيد أن روح المصالح المشتركة سوف تحول بينهم وبين الوصول بخلافاتهم الى حد الاصطدام . وان الحكومة البريطانية ليس لديها أسباب مباشرة مع الوهابيين كما لاتعنيها الخلافات الكثيرة القائمة بين دول شبه الجزيرة بأي شكل من الاشكال .

ان اهتمامنا ينحصر في التجارة البحرية للخليج وطالما بقيت هذه التجارة في امان فلا يهمنا من الذي يسيطر على الدول الواقعة على سواحل الخليج وحتى لو قدر للوهابيين ان يستولوا على ميناء مسقط وهى مسألة لا يبدو ان امام مسقط تساوره اى شكوك نحوها فان هذا لن يتطلب بالضرورة شروعه في ممارسة القرصنة . ومما يبدو أكثر احتمالا ان الوهابيين قد وعوا دروس الماضي القريب في الخليج بالنسبة لتفوقنا البحرى وانهم بالتالى لن يجرؤوا على استفزازنا وأنهم على ضوء هذه الاعتبارات فانهم سوف يحرضون على العلاقات الودية التي تربطنا بهم مثلما تربطنا بالسيد سعيد ولكن حتى اذا ساءت الأمور وقدر للوهابيين ان يستولوا على مسقط وأن يمارسوا أعمال القرصنة ضد تجارة الخليج فمن المعتقد بأنه سيكون من الأسهل لنا مطاردتهم في هذه المنطقة بدلا من ان نتبنى سياسة التدخل في شئون الخليج ونجعل من انفسنا حراسا لمستعمرات حاكم مسقط .

وعلى العموم فان معالى الحاكم العام يرى بأن الموضوع قد تبلور بوضوح من خلال المناقشات السابقة والتي منعنا من التورط في اتفاقات دفاعية مع حاكم مسقط ، وانه لمن المرغوب فيه ان تخطر السلطات البريطانية في الخليج

بالتقيد الدقيق بسياسة الحياد في المنازعات التي قد تنشأ فيما بين السيد سعيد وأى من الدول المجاورة له في قارة شبه الجزيرة العربية (١) .

وفي شهر مارس ١٨٣٤ ابلغ قرار الحاكم العام الى السيد سعيد عن طريق وكيله في بومباي ، وعلى الرغم من ان القرار لم يكن اكثر تأكيداً للسياسة المتبعة منذ قيام الحملة على قبائل بني بوعلی فان السيد سعيد تمزاً ذلك الموقف الى استياء حكومة الهند البريطانية من المعاهدة التجارية التي عقدها السيد سعيد في شهر سبتمبر السابق مع الولايات المتحدة وليس الى رغبة حكومة الهند في تجنب التوريطات العسكرية في شبه الجزيرة العربية (٢) وكان السيد سعيد قد استقبل في زنجبار خلال شهر فبراير ١٨٣٤ اللفتنانت آتش هارت قائد السفينة الحربية ايموجين من اسطول الهند الشرقية الذي توجه للاستفسار عن نصوص وهدف المعاهدة المذكورة وكان اللفتنانت هارت قد أوفد من قبله الفيلد ادميرال السيرجون جور القائد العام لاسطول الهند الشرقية للتحقيق في اشاعة انتشرت ، ومغادها ان السيد سعيد قد عرض على الأمريكان منحهم قاعدة على الساحل الافريقي مقابل تأييدهم له على اخضاع ممباسا ، والواقع كما اكتشف هارت ان المعاهدة لم تتضمن شيئاً من هذا القبيل ، وقد تم عقد هذه المعاهدة بمبادرة من احد تجار ولاية سالم الذين يتعاملون مع زنجبار واقترح على الحكومة الامريكية ابرام معاهدة تجارية

-
- (١) مجموعة وثائق مجلس الادارة مجلد ١٥١٦ المجموعة رقم ٥٩٨٥٩ من س . اى ترينيليان سكرتيرة الحكومة بالنيابة الى جون باكس سكرتير حكومة بومباي ، وفورت ويليام ١٨٣٤/٢/١ .
- (٢) بعد تعديل الميثاق في عام ١٨٣٣ اطلق على حكومة الهند (الحكومة العلية) .

مع السيد سعيد خدمة للمصالح التجارية لأمريكا ، وكان التاجر الذي يدمى الكابتن اوموند روبرتس قد عين وكيلا خاصا لحكومة الولايات المتحدة في الصين ومسقط ، وقد خول صلاحيات لعقد اتفاقيات تجارية مع حكام هذه الدول، وقد غادر واشنطن في الولايات المتحدة في شهر مارس ١٨٣٢ على الطراد الأمريكى بيكوك ووصل الى مسقط في سبتمبر ١٨٣٣ . وفى يوم ٢١ سبتمبر وقع هو والسيد سعيد على معاهدة للصداقة والتجارة تنص على استيفاء رسم لا يزيد على ٥٪ عن البضائع التى ترد على السفن الأمريكية الى مسقط (وهى نفس النسبة التى تستوفى على البضائع الواردة على السفن البريطانية). وذلك على أساس معاملة للتجار والسفن التابعة للطرفين المتعاقدين، وعلى تعيين قناصل لحكومة الولايات المتحدة في الموانئ الرئيسية لعمان ، على أن يمارس هؤلاء القناصل الصلاحيات الإقليمية على رعايا الولايات المتحدة ، ولم تتضمن المعاهدة أى بند عن تنازل السيد سعيد عن أى جزء من عمان أو تقديم مساعدات عسكرية الى السيد سعيد تساعد على إخضاع سكان ميباسا لحكمه (١) .

(١) للاطلاع على نص هذه المعاهدة راجع مجلد المعاهدات الرقم ١١ اعداد ايشسون ملحق رقم ٥ اما تقرير روبرتس عن مهمته فيمكن الرجوع اليه في كتابه مهمة الى حكومات الشرق والصين وسيلام ومسقط (١٨٣٢ - ١٨٣٤) التصديق على تلك المعاهدة من جانب حكومة الولايات المتحدة في يونيه ١٨٣٤ ، اما بشأن القناصل التى نصت عليها المعاهدة فقد عينوا في زنجبار حيث كانت تتركز المصالح الأمريكية ولم يتم تعيين قنصل في مسقط قبل عام ١٨٨٠ . وقد بقيت المعاهدة سارية المفعول حتى شهر ديسمبر ١٨٥٨ عندما استبدلت بمعاهدة جديدة للصداقة والشؤون الاقتصادية والقنصلية .

وعندما سئل هارت السيد سعيد عن المعاهدة أعرب عن استعداده لتعديلها أو إلغاؤها إذا اعتقد هارت أنها تسبب ضررا للحكومة البريطانية (١) كما عرض السيد سعيد أيضا على هارت تقديرا منه للحكومة البريطانية بأن يهذى إلى الأسطول الملكي سفينة القيادة « ليفربول » (٧٤ مدفعا) التي بنيت في بومباي . وقال لهارت بأن السفينة لا تزال في حالة جيدة وانها تزيد على حاجة مسقط فاذا كان ملك انجلترا يقبل منى تلك الهدية فاني سأكون سعيدا (٢) وقد أبدى الاميرال جور الذي أبلغه هارت بموضوع الهدية استعداده لقبولها ، وأن كان قد راوده الشك في أن يفسر قبوله لها كتعهد باسم الملك لتأييد السيد سعيد في فسخ معاهدته مع أمريكا والتي كان يبدو عليه انه كان نادما على إبرامها (٣) وقد وافق بنتنك عندما أبلغه جور على قبول

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلة ١٧ من الحاكم إلى مجلس الإدارة - ١٨٣٤/٩/٣٠ « رقم ٢٦ الإدارة السياسية » وقد أعيد طبع تقرير هارت وصدر في مختارات بومباي مجلد ٢٤ ص ٢٧٣ - ٢٨٣ ويبدو ان السيد سعيد كان يحاول ان يحصل على ٢٠٠٠ جندي من الملكة رنا فولتا ملكة مدغشقر لضمهم إلى قواته التي تحارب في ممباسا وقد عرض على الملكة ان يتزوجها مقابل هذا الطلب ولكن الملكة رفضت الطلبين (تقرير هارت ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) مختارات حكومة بومباي ٢٤ مجلد ص ٢٧٦ و « افريقيا الشرقية وغزاتها » تأليف كويلاند .

(٣) مجموعة مجلس إدارة الشركة والمراسلات والسياسية العامة مجلد ٢ واحد من جور إلى الكابتن جورج البيط (سكرتير الاميرالية) ١٨٣٤/٤/١٠ . ومرفق لخطاب البيط إلى سكرتير مجلس حكومة الهند ١٨٣٤/٨/١ .

الهدية وان كان قد اعرب عن اسفه لابرام السيد سعيد مع الامريكيين على الرغم من انه لم ير فيها اى شىء يتعارض مع السياسة البريطانية كما انه شك فى جدية السيد سعيد لفسخ المعاهدة (١) .

وعلى اى حال فان عرض السيد سعيد رغم شكوك الاميرال جور لم يكن عرضا جديا ، فقد كان السيد سعيد يدرك الفوائد التجارية التى سيجنونها من تلك المعاهدة ، وبالتالي فليس من المتصور أن يقدم السيد سعيد على الغائها وبالأحرى كان فى نية السيد سعيد أن يترك انطباعا حسنا فى نفس الحكومة البريطانية فى انجلترا التى كان يعلم أن عرضه لفسخ المعاهدة وهديته الى الأسطول الملكى سوف تترك لها اثرا حسنا لدى الحكومة البريطانية وفى مقابل ذلك كان يأمل سعيد أن يتم الضغط على السلطات فى الهند لتدعيم حكمه فى عمان فى الوقت الذى تفرغ هو لمستعمراته فى افريقيا وقد وصل عرض السيد سعيد فى اللحظة التى كان مجلس ادارة الشركة قد بدأ فى اظهار اهتمامه بالخطوط العامة لسياسة حكومة بومباى تجاه عمان فى الأعوام القليلة الأخيرة .

وفى يوم ١٦/٤/١٨٣٤ لخص اعضاء مجلس الادارة رأيهم فى تقرير رفعوه الى الحاكم وأشاروا فيه الى أنه ابتداء من تحذير ميجر ويلسون لشيونخ القراصنة فى شهر فبراير ١٨٣٠ بعدم التورط فى مشاكل عمان فى ذلك الوقت لاحظ اعضاء مجلس الادارة أن هناك انحرافا تدريجيا عن سياسة عدم التدخل فى الشئون الداخلية لدول الجزيرة العربية ، وهى السياسة التى كانت متبعة منذ الحملة على قبائل بنى بوعلى كما أن إرسال الطرادات الى مسقط

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٧ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣٤/٩/٣٠ (رقم ٢٦ الادارة السياسية) .
(٢٦ - بريطانيا والخليج)

فى نفس ذلك الشهر ، ثم مرة أخرى فى شهر مايو ١٨٣٢ يعد تصعيداً لهذا الاتجاه ، وقال أعضاء مجلس الإدارة بأنه من حسن الحظ أن السيد سعيد قد رفض هذه المساعدة بعد عودته من أفريقيا، كما أشاروا الى أن السيد سعيد لو قبل المساعدة لضاف اليها عبئاً جديداً فى كبح جماحه عن القيام بمغامرات طائشة جديدة ضد الدول الأخرى ، وبما أنه من الخطر أن نسمح بوقوع مثل هذه الاعتداءات من حاكم نعتبر نحن مسئولين عن حمايته (١) وعلى أية حال فإن الدروس المستفادة من تلك الأحداث دروس واضحة فنحن لا نعتقد بأنكم ملزمون بأى شكل من الأشكال على ضوء الالتزامات السابقة بأن تقدموا الى السيد سعيد نفس المساعدة اذا تعرض لأزمة مماثلة فى المستقبل تمس مصالحه. وبما أن السيد سعيد قد أصرب بنفسه عن قبول المساعدة سابقاً فإن رفضه لها الآن يعتبر سبباً وجيهاً لعدم تقديمها اليه من جديد. وبعد وقت قليل على ارسال تقرير مجلس إدارة الشركة علم أعضاؤه بالاضطرابات الجديدة فى عمان سنة ١٨٣٣ وبعودة الوهابيين الى البريمى والمقترحات لالتى قدمها كل من بلين وكليز بخصوص التدخل المسلح فى عمان وبالتالى لم يكن أمام بلين وكليز الا أن يكرروا وفى عبارات شديدة اللهجة تحذيرائهما الى حاكم بومباى فى شهر أغسطس ١٨٣٤ والتى جاء فيها ، أنه فى حالة اصراكم على هذا الموقف بعد الآن فقد يجد السيد سعيد نفسه فى حاجة الى حماية الحكومة البريطانية ، وبالتالى سوف تعتبرون المسئولين عن كل تصرفاته تجاه الدول الأخرى . ومن هنا فان تمتعه بهذه الحماية دون أن يلتزم بالكف عن ارتكاب الأعمال العدوانية ضد الأطراف الأخرى يعنى تشجيعه على اقتراف المظالم ضد غيره من الحكام (٢) .

-
- (١) تقرير سياسى الى بومباى مجلد ٤ من مجلس الإدارة الى الحاكم ١٨٣٤/٤/١٦ (رقم ٦ الإدارة السياسية) .
- (٢) التقرير السياسى الى حكومة بومباى مجلد ٤ من مجلس الإدارة الى الحاكم ١٨٣٤/٨/٢٠ (رقم ١ الإدارة السياسية) .

- ٤٠٣ -

أما إذا قلنا ان حكومة بومباي كانت تتصرف فى المقام الأول من منطق اللامبالاة بما يجرى من اضطرابات تهدد الأمن فى الخليج فإن أعضاء مجلس الإدارة لا يخامرهم الشك انطلاقا من تجارب الماضى بأن استيلاء الوهابيين على عمان من شأنه أن يصيب المصالح البريطانية فى الخليج بأضرار بالغة ، وإن أعضاء مجلس الإدارة ليتساءلون عما اذا كانت السلطات المسئولة فى بومباي قد فكرت فعلا فيما كانت تنطوى عليه مقترحاتها للحاكم العام من أن التدخل المسلح قد يكون أمرا لا مفر منه فى يوم من الأيام ؟ غير أن أعضاء مجلس الإدارة لا يشاركونهم هذا الرأى ، وسواء كانت الاجراءات التى اعتدناها قابلة للتنفيذ ام لم تكن فإنها قد وضعتنا من غير شك فى موقف جديد بالنسبة لدول الخليج ، وهو موقف لو تصرفنا على أساسه فإننا لن نستطيع ان نتراجع عنه فاما ان نتراجع عنه وإلما أن نكون على استعداد لتحمل نتائجه وهو ان نقوم بدور الحكم فى جميع المنازعات التى تقع بين دول المنطقة وأن النتيجة الحتمية لهذه السياسة لن تكون فى صالحنا ، ان الحكومة البريطانية لا دخل لها بالخلافات التى تنشأ بين الزعماء العرب الا فى حالة واحدة وهى الا تحول تلك الخلافات الى ذريعة لارتكاب أعمال القرصنة كما أنه لا يهمها اطلاقا من الذى يكون له الغلبة فى الخليج طالما بقيت تجارة المنطقة حرة ومأمونة من أى اعتداء يسودها الاستقرار .

ان أعضاء مجلس الإدارة لا يتصورون بأن هناك خطرا من وجود الوهابيين وانما على العكس يشعرون بأن امتداد سيطرة الوهابيين الى الساحل العربى كله قد تكون فى النهاية فى مصلحة الأمن والتجارة فى المنطقة ، وبناء عليه فإنهم يرون بأنه من الضرورى أن نعارض أى اجراء يهدف الى اتخاذ أى اجراءات معادية من جانبنا ضد شعوب هذه المنطقة كما أنه ليس من مصلحتنا التدخل لحماية أمام عمان أو أى زعيم آخر من الوهابيين طالما ظل

سكان المنطقة يحترمون العلم البريطاني ولا يرتكبون أى أعمال عدوانية ضد حكومتنا أو رعايانا .

كان هذا هو موقف أعضاء مجلس الإدارة من عرض السيد سعيد بالفاء المعاهدة الأمريكية وتقديم السفينة ليفربول كهدية الى الأسطول الملكى عندما أحيل اليهم هذا العرض ، ولذلك لم ينظروا الى العرض بارتياح ، ولما كان من المتعذر عليهم توجيه لومهم الى السيد سعيد فقد صبوا جام غضبهم على اللفتنانت هارت على اثاره مثل هذه المسائل السياسية مع السيد سعيد وعلى سؤاله عن تلك المعاهدة التى أتاحت الفرصة للسيد سعيد ليتقدم بعرضه الذى سبب حرجا لشركة الهند الشرقية فى علاقتها بمسقط ، فالى أى حد كانت هذه المعاهدة تهم الشركة؟ لقد سألت اللجنة السرية لمجلس الإدارة حكومة الهند هذا السؤال فى خطابها المؤرخ ٢٧ أغسطس «ان الأمريكين ليسوا طرفا سياسيا منافسا لنا فى الهند والأعمال التجارية المحدودة التى قد يقومون بها بسفنهم الصغيرة مع ممتلكات سلطان مسقط لاتعارض فى تصورنا مع مصالحنا فى تلك البلاد» (١) ان هارت قد تدخل فى موضوع هو من اختصاص السلطة العليا لحكومة الهند كما جاء فى التعديل الذى وافق عليه البرلمان لميثاق الشركة اى بشأن تنظيم العلاقات مع الدول المجاورة للهند البريطانية ، وكما هو واضح من هذا فقد كان يتعين على حكومة الهند ان تكون على دراية أفضل بالظروف التى يمكنها على أساسها اتخاذ إجراءات سلمية فى أى مسألة من المسائل التى تخص الدول الأخرى . . كما لا يجوز اجراء الاتصالات مباشرة مع تلك الدول فى أى

(١) مجموعة مجلس الهند والمراسلات السياسية العامة مجلد ٢ جزء ٢
(من تى ال . بكوك المفتش المساعد لشركة الهند الشرقية الى جى . ايه
ستيوارت ماكنز (سكرتير مجلس الهند) بتاريخ - ٢٤/٨/١٨٣٤) .

مسألة من المسائل العامة الا عن طريق الحاكم العام وقد طلب القائد العام لاسطول الهند الشرقية موافاته بالتعليمات التي تمكنه من أن يعالج بموجبها هدية السيد سعيد ، وكما ذكرت اللجنة فان هناك تعليمات عامة يتوجب على القائد العام أن يتصرف على أساسها وهي احوالة مثل هذه الموضوعات الى حكومة الهند مشفوعة بالمعلومات والمقترحات اللازمة لتكون موضع التنفيذ وعلى الأميرالية وحدها أن تقرر ما اذا كانت ستقبل السفينة الهدية من السيد سعيد وفي حالة قبولها الهدية أن تقرر ما اذا كان من الضروري رد تلك الهدية بهدية مناسبة . ولكن اللجنة تلاحظ (انه مهما قدم للأمام من هدية مقابل هديته فان ذلك لن يمحو الفكرة المسيطرة عليه وهو أنه قد أهدى حكومة صاحب الجلالة هدية تجعلها مدينة اليه ويمكنه في مقابلها أن يطالب الحكومة البريطانية بالتأييد والمساعدة .

وقد كان لهذه الآراء صداها بين أعضاء مجلس الهند الذين أعربوا عن أسفهم لما قد تسفر عنها من نتائج اذا قبلت هدية السيد سعيد خصوصا وأن حكومة بومباي على حد رأى المجلس قد سبق أن تدخلت بالفعل لصالح امام مسقط أكثر من مرة الى مدى أبعد مما يحتمله ذلك التدخل وعلى أي حال فقد استاء المجلس من زيادة التورط في شئون مسقط فقد كان يتعين عليه بأن ينظر الى العلاقات البريطانية مع مسقط من زاوية أوسع من مجرد كونها سياسة خاصة بالجزيرة العربية وقد صادف ان كان مجلس وزراء الخارجية البريطانية والأميرالية البريطانية في هذه الأثناء يدرسون قضية ادخال الملاحة البخارية الى الهند وأن اللجنة الخاصة بالملاحة البخارية قد تقدمت بتوصية الى البرلمان في شهر يوليو سنة ١٨٤٣ ببذل الجهود الممكنة لتحقيق هذا المشروع ، وذلك عن طريق البحر الأحمر والخليج الفارسي ، وقد كانت أهمية مسقط بالنسبة للطرفين بديهية ، وكان معروفا ان محمد علي باشا يقدر

— ٤٠٦ —

أهمية مسقط الاستراتيجية كما كان يبدى اهتماما بالمناطق الشرقية للجزيرة العربية وبالتالي لم يكن من المصلحة أغفال هذه الاعتبارات عند اتخاذ قرارات تمس السياسة البريطانية تجاه السيد سعيد .

في بداية نوفمبر عام ١٨٣٤ بعث الملك وليم الرابع برسالة الى شارلس جرانت رئيس مجلس الهند يحثه على العمل على فتح طريق البحر الأحمر الى الخليج الفارسي كطريقين للملاحة التجارية الى الهند ، وكان الملك يعلق أهمية بالغة على مشروع الملاحة البخارية ، وقد شجعت المقترحات التي قدمها لادميرال جور لجلالته بشأن طريق البحر الأحمر وأهمية موقع مسقط ، وعلى الأخص في تسهيل عملية احتلال محمد علي باشا لهذا الطريق وما سوف يجنيه من فوائد من سيطرته على مخا وجدة وبما أن الملك لم يكن يتصور أن يتم المشروع بسرعة إلا أنه مع ذلك كان يشعر بأن الأوضاع القائمة كانت تكفل له النجاح الى حد كبير وبالتالي يصبح موضوع إبرام معاهدة مع سلطان مسقط يبدو أنه كان أمرا ضروريا لمنع وقوع المنطقة تحت سيطرة محمد علي باشا (١) وردا على رسالة الملك بعث جرانت اليه بتقرير كير الذي أعده خلال زيارته للسيد سعيد وما أعقب التقرير من مراسلات تتصل بالموضوع ، وقد ذهل وليم الرابع من الضجة التي أثارها شركة الهند الشرقية حول زيارة هارت لمسقط فكتب الى جرانت رسالة بتاريخ ١٠ نوفمبر يعرب فيها عن استيائه من رأى اللجنة السرية في أن الشركة هي وحدها صاحبة الحق في التخاطب مع الولايات الهندية . وإن على حكومة الملك أن تدرك بأن المنطقة

(١) مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٢ (جزء ١)

من السير هربرت تايلور (السكرتير الخاص للملك) الى جرانيت ١٨٣٤/١١/٢ .

الشرقية من شبه الجزيرة العربية والسواحل الواقعة عليها تعتبر جزءا من الهند وهى تشكل أى جزء من شبه الجزيرة تمارس شركة الهند الشرقية « السيادة عليه » .

ومن ثم فان الملك لا يفهم الأسباب التى منعت السير جور من إيفاد الكابتن هارت الى مسقط أو لماذا تحرم حكومة صاحب الجلالة من مزايا وجود سفن لها فى المنطقة أو من المعلومات التى قد تجمعها من ضباط أسطولها عن طريق اتصالاتهم وزياراتهم لمناطق الخليج ، كما لا يتصور صاحب الجلالة أن الزيارة التى قام بها الكابتن هارت لآمام مسقط اجراء يدعو الى الأسف حتى وإن كان هارت لا يوافق على قبول الهدية (السفينة ليفربول) من أمام مسقط .

لقد وقعت تطورات كثيرة على حد رأى الملك تجعل من مسقط وغيرها من المناطق الواقعة على سواحل شبه الجزيرة العربية وشواطئها موضع اهتمام مباشر لحكومة الملك وشركة الهند الشرقية على السواء كما أن محمد على باشا باعتراف السلطات الهندية نفسها قد أصبح القوة الفعالة الأولى فى منطقة شبه الجزيرة العربية ، وأنه قد أخذ يوجه اهتمامه الى الساحل الممتد الى مسقط ولعله يطمع فى السيطرة على هذا الجزء كما أن هناك اعتقادا بأن أمام مسقط ينظر الى باشا مصر باحترام أكثر مما ينظر به الى شركة الهند الشرقية طمعا فى التأييد والمساعدة التى قد يحصل عليها السيد سعيد من محمد على باشا .

وقد أعرب الملك وليم الرابع عن تأييده لموقف شركة الهند التى رفضت أن تتبنى سياسة تدفعها الى التورط فى المنازعات الصغيرة التى تنشأ بين حكام شبه الجزيرة ، كما كان يشاطر أعضاءها الرأى عموما حول هذا

الموضوع غير انه لم يكن مقتنعا بسبب اطماع باشا مصر لسياسة عدم الاهتمام بوضع مسقط الاستراتيجى بالنسبة للصراع فى شبه الجزيرة العربية وسيطرة محمد على باشا على مصر والجزء الأكبر من سوريا وسواحل البحر الأحمر بحيث أن يكون خط المواصلات المقترح انشاؤه عن طريق الفرات والخليج الفارسى يمر عن طريق سوريا ، وخط البحر الأحمر يمر عن طريق مصر، فضلا عن ان الحكومة البريطانية المساهم الأكبر فى هذا الخط فان كل هذه الاعتبارات اقنعت وليم الرابع ورجال حكومته بتوجيه اهتمامهم الى سواحل شبه الجزيرة العربية ولولها والذي كان دورها فى السابق مقصورا على رجال شركة الهند الشرقية وحدهم ، وربما كان استياء وليم الرابع من الموضوع يعود الى حبه للأسطول وغضبه من توجيه اللوم الى أحد ضباط ذلك الأسطول على قيامه بتنفيذ الاوامر الصادرة اليه كما ان امتعاض كل من اللجنة السرية ومجلس الهند من التطفل على اختصاصاتهم السياسية كان امرا بديهيا ، فقد كان هؤلاء لا يزالون يتذكرون قصة الكابتن اوين على ساحل افريقيا الشرقية منذ بضع سنوات كما ان اوين عاد فائرا هذه المخاوف عندما تقدم عام ١٨٣١ بطلب الى وزارة الخارجية لتعيينه قنصلا عاما لبريطانيا فى افريقيا الشرقية والمنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية (١) .

لهذه الاعتبارات لم يكن شارلس جرانت يؤيد ايلاء أى أهمية لاعتراضات الملك . وقد لقنه دروسا دستورية فى المسئولية الأساسية للشركة بالنسبة لعلاقاتها مع الدول التى تقع ضمن مجالات حكومة الهند .

(١) انظر مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٣ (١)

من اوين الى الفايكونت بالمرستون ١٨٣٤/٩/٨ .

- ٤٠٩ -

لقد تقرر بدافع المصلحة القومية أن تسند إلى الشركة مسئولية رعاية المصالح القومية في الخارج ، واستنادا إلى هذا القرار فقد عهد إلى الشركة بالإشراف على الاتصالات مع فارس والعراق ودول الخليج الفارسي الواقعة على سواحل الجزيرة العربية ... والهدف من هذا واضح ، وهو أن السلطة المسئولة مباشرة عن رعاية الاتصالات السياسية مع الدول سالفة الذكر من حقها أن تمارس حقوق الإشراف الكامل على مسئولياتها هذه . فإذا كانت الهند الشرقية تتمتع بهذه المسئولية فينبغي عليها القيام بذلك لأنه ليس من حق الحكومة البريطانية أن تجرى اتصالات سياسية مباشرة مع تلك الدول إلا بعد موافقة الشركة (١) .

لقد كانت زيارة اللفتنان هارت لسلطان مسقط زيارة سياسية في الأساس كما ذكر جرائد وللهذه الأسباب اعترضت الشركة عليها ومهما كانت طبيعة الاتصالات فإن الشركة لن تعترض ولا حق لها أن تعترض طالما أن تلك الاتصالات ليس لها طابع سياسي كما أن توجيه السياسة البريطانية تجاه أى دولة من الدول هو مسئولية الحكومة البريطانية وحدها . ولايجوز لشركة الهند الشرقية أن تصدر أى تعليمات تمس علاقاتنا بدول كدول شبه الجزيرة العربية أو أى دولة من دول الشرق بغير موافقة المفوضين السياسيين (لشئون الهند) والذين يعتبر رئيسهم عضوا في البرلمان أو بعبارة أخرى لايجوز إصدار تعليمات من أى نوع مالم تنسجم تلك التعليمات مع السياسة العامة للحكومة البريطانية ، وأيا كان شكل وطبيعة السلطة فالهند باعتبارها

(١) مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد (١) من جرائد

إلى تايلور بتاريخ ١٨٣٤/١١/٢٥ .

٤.١.١ -

جزءاً من الامبراطورية البريطانية تخضع لحكومة الملك شأنها شأن كندا او جامايكا ، وأن سلطة الشركة مستمدة من سلطة الملك وبين السلطتين لا يوجد خط فاصل ولا تعارض فى المصالح وكل ما يمس سلطة الشركة فى مجال صلاحياتها وكل من ينتقص من هذه السلطة ، او يفرض عليها سلطة اخرى أو سلطة منافسة فانه بالتالى يمس من سلطة الملك نفسه (١) .

وعلى أى حال فقد وضع هذا الخطاب نهاية لخلاف حول زيارة هارت، فلم يعد الملك بعد ذلك يتدخل فى المناقشات الدائرة بشأن الموضوع كما أن الاميرالية بعثت برسالة الى جور تطلب منه تحذير الضباط العاملين تحت قيادته من اجراء اتصالات حول المسائل السياسية مع الحكام الشرقيين (٢) .

(١) مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٢ (١) من جرائد الى تايلور ١٨٣٤/١١/٢٥ .

(٢) مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٣ (١) من جى برو سكرتير الاميرالية) الى جور فى ١٨٣٤/٩/١٢ وعند عودة هارت الى انجلترا فى عام ١٨٣٥ احتج لدى جورج تكرر الذى كان أحد رؤيس مجلس ادارة الشركة عام ١٨٣٤ ضد ما اعتبره هارت ملاحظات قياسية وغير صحيحة جاءت فى تقرير اللجنة السرية حول سلوكه ، وقد لاحظ تكرر ان لهجة احتجاج هارت كانت تتسم بالتشدد ، فرفع الامر الى الاميرالية البريطانية ومنذ ذلك الوقت نشب خلاف بين تكرر وهارت وبين الشركة والاميرالية واستمر الخلاف لمدة شهرين وانتهى بتقديم هارت اعتذاره الى الرئيسين ولكنهما رفضا قبول الاعتذار وعندئذ تدخل اللورد اكولن الاميرال الاول للبحرية البريطانية وحاول اقناع تكرر بقبول الاعتذار والتغاضى عن الموضوع وفى النهاية قدم هارت اعتذارا شخصيا لتكرر (انظر ايضا مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٤ (١) .

غير أن القضية الأساسية وهى موضوع العلاقة بمسقط بقيت على أى حال دون أن يبت فيها وقد أوضح أعضاء مجلس الإدارة موقفهم من هذه المسألة فى التقارير التى بعثوا بها الى حاكم بومباى بتاريخ ١٦/٤/١٨٣٤ وعلى الأخص بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٨٣٤ وأعربوا عن موافقتهم على تصريح بنتيك الصادر أول فبراير ١٨٣٤ الذى جاء فيه : أن السلاح والأموال البريطانية لايجوز استخدامها للدفاع عن ممتلكات السيد سعيد ، كما وافقوا أيضا على رأى جور الذى سبق أن أعلنه عما يمكن أن يحدث من سوء تفاهم اذا قبلت هدية السيد سعيد وانتقلت ملكية السفينة المهداة الى الأسطول الملكى . وقد وافق مجلس الهند على ذلك القرار . وفى نهاية عام ١٨٣٤ أعلنت الاميرالية أنها لن تقبل الهدية . ومن هنا يبدو أن لعبة السيد سعيد قد فشلت . وعلى الرغم من ذلك فلم يكن السيد سعيد من الذين يستسلمون بسهولة ، ولما لم يصله رد قاطع على عرضه حتى شهر ابريل عام ١٨٣٥ قرر أن لا ينتظر وقام بارسال السفينة الى انجلترا مباشرة وقد سلمت الى عهدة الكابتن روبرت كوجان من الأسطول الهندى وكلف ببيعها اذا رفض الملك قبولها كهدية (١) وعند وصول كوجان الى انجلترا عام ١٨٣٦ كان مجلس الهند قد أجرى تعديلا على موقفه من السيد سعيد فعلى الرغم من أن الاعراض عن التورط فى مشاكل شبه الجزيرة العربية ظل قائما

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٨ من الحاكم الى مجلس الادارة - ١٨٣٥/٧/٢٩ . (رقم ٢٠ الادارة السياسية) والواقع أن السفينة كانت عبئا على السيد سعيد وكان سعيد يبحث فى الأصل عن فرقاطة غير أن المواصفات التى سلمت الى أحواض بناء السفن فى بومباى أثناء بناء السفينة ليفربول كانت خصوصا فيما يتعلق بعدد المدافع والتى كان من المفروض أن تضم ٧٤ مدفعا .

وان كانت هذه المشاكل قد خفت حدتها نتيجة ضعف النفوذ الوهابى بعد وفاة الامير تركى بن عبد الله فى عام ١٨٣٤ . الا ان الاهمية الاستراتيجية لمسقط قد تعاظمت فى التصور البريطانى ليس فقط من جراء القرار الحاسم بشأن اجراء مسح لنهر الفرات وطرق البحر الاحمر بهدف انشاء مواصلات بخارية مع الهند فحسب وانما ايضا كما سيأتى شرح ذلك فى فصل جديد من هذا الكتاب بسبب بدء مرحلة جديدة من النشاط المصرى فى المنطقة . ومن هنا فقد ترتب على ذلك استرضاء السيد سعيد وبذلك قبل الأسطول الملكى هديته واسماها «الامام» كما أرسل الى السيد سعيد مقابلها يختا بخاريا . البرنس ريجنت « ردا على هديته (١) غير ان هذه الهدية لم تكن كل ما كان يطمح فيه السيد سعيد وان كانت بمثابة تشجيع مؤقت له من الحكومة البريطانية (٢) .

استغرقت زيارة السيد سعيد الثالثة لافريقيا عاما ونصفا ابتداء من نوفمبر ١٨٣٣ حتى ربيع ١٨٣٥ وقد فشل فى هذه المرة ايضا فى استعادة ممباسا واثناء غيابه أخذت عمان تتداعى من بين يديه ، وقد عين نجله السيد هلال وابن اخيه محمد بن سالم نائبين عنه وكان كلاهما فى اوائل العقد

(١) من التقارير السياسية لحكومة بومباى مجلد (٥) من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٣٦/٦/٨ (رقم ٣ الادارة السياسية) .

(٢) ان السفينة برنس ريجنت التى اهديت للسيد سعيد فى بريطانيا قد تبين انها هى الأخرى قد أصبحت بمثابة عبء عليه مثل السفينة ليفربول حتى انه فى عام ١٨٤٠ سمح له بأن يقدمها كهدية للحاكم العام .

الثالث من عمره ، كما كان كلاهما على حد رأى بلين غير صالح للحكم (١) وقد دب الضعف فى نظام حكم السيد سعيد حتى أصبح مقصورا على مجرد الاحتفاظ بالمدن الهامة على ساحل الباطنة عن طريق الولاة الذين كان يعينهم السيد سعيد ، وعن طريق الاعتماد على عدد من زعماء القبائل المواليين له ولاء تاما لكى يحافظوا على بقايا نفوذ اسرة آل بوسعيد فى المنطقة الداخلية. وفى عام ١٨٣٤ تلقى هذا النظام المهتز ضربتين قويتين ، ففى بداية تلك السنة اغتيل والى الرستاق السيد سعود بن على وعلى أثر ذلك الحادث تحرك خصم السيد سعيد حمود بن عزان والى صحار واحتل الرستاق ، كما توفى فى نفس العام محمد بن ناصر شيخ بنى جابر وهو أقدم الزعماء المواليين للسيد سعيد وأخلصهم ، وبعد وفاته أصبحت مسقط معرضة لآى هجوم يقوم به حمود بن عزان على المدينة لأن تلك العاصمة كانت تعتمد فى الماضى على الأموال التى كان يجمعها الشيخ محمد بن ناصر للانفاق منها على وسائل الدفاع عن المدينة .

كما أصبح من المحتمل أيضا أن يستولى حمود على المقاطعات التى كان يدير شئونها المرحوم الشيخ محمد بن ناصر وهى مقاطعة الظاهرة ومنطقة تجمع مياه الرى شمال جبال الحجر ، كما كان هناك أيضا خطر آخر وهو أن ينتهز نائب الامير الوهابى فى البريمى وفاة الشيخ الموالى للسلطان سعيد لمد حدوده الى منطقة سفوح الحجر .

(١) مجموعة المجلس مجلد ١٥١٦ رقم المجموعة ٥٩٨٥٩ مرفقات لخطابات حكومة بومباى السياسية حلقة ٣٩ فى ١٨٣٤/١٢/٢٤ من بلين الى نوريس ١٨٣٤/٧/٣ .

ولم يظهر أى دليل على أن نائب الأمير محمد بن عبد العزيز قد أصبح يعتبر الاتفاقية التى عقدت بين السيد سعيد والأمير تركى فى العام السابق وتنص على احترام كل من الطرفين لحدود الطرف الآخر كشيء يمنعه من التدخل فى شئون عمان بل على العكس من ذلك كان ينظر اليها حسبما أبلغ بلين فى رسالة بتاريخ ١٨٣٤/٤/١٠ بأنها وثيقة تؤكد امتداد الحكم الوهابى على عمان كله وقد أصبح تركى بن سعود صاحب النفوذ المطلق فى شبه الجزيرة العربية ، وقد اعترف له جميع المواطنين من البدو والحضر والقبائل الداخلية بالسيادة وكان فى الواقع هو الزعيم الفعلى للبلاد بما فى ذلك منطقة الحجر فى عمان ومنطقة الساحل من جعلان الى القطيف (١) كان هذا مضمون رسالة من محمد بن عبد العزيز الى بلين يحتج فيها على رفض احتجاج سابق من جانبه ضد الحملة التى أرسلها المقيم البريطانى لمعاينة قواسم راس الخيمة على اقترافهم بعض أعمال القرصنة ، وجاء ايضا فى رسالة محمد بن عبد العزيز أن القواسم هم من رعايا الوهابيين وأن أى شكوى ينوى المقيم البريطانى تقديمها ضدهم يجب أن توجه الى الأمير تركى أو اليه شخصيا بوصفه ممثل الأمير الوهابى وقد تكون هناك بعض المبررات لادعاء الوهابيين السيادة على القواسم ولكن ادعاء ممثل الأمير الوهابى بهذا الشأن لم يكن صحيحا كما ذكر محمد بن عبد العزيز فى رسالته ، فقد جاء فى تقرير من الوكيل البريطانى فى الشارقة بتاريخ ابريل ١٨٣٤ أن سكان

(١) مختارات حكومة بومباى المجلد ٢٤ ص ٤٤٢ (نبذة تاريخية عن القبائل الوهابية العربية) ١٨٣٢ - ١٨٤٤ (تأليف ايه.ب.كمبل وللإطلاع على النسخة الاصلية من هذه الرسالة انظر مجموعة المجلس مجلد ١٤٣٥ رقم ٥٦٧٢٦ من محمد بن عبد العزيز الى بلين بتاريخ ١ ذى الحجة ١٢٤٩ .

رأس الخيمة موالون للأمير عبد العزيز . الذى تقوم سياسته على بث الفتن والايقاع بين شيوخ المنطقة ومهما كان شيوخ هذه المنطقة فسوف يستحيل على حفنة من الجنود الوهابيين ان يفرضوا سيطرتهم على عمان كلها كما يفرضونها الآن ، أما فى السمر فقد كان الشيخ سلطان شيخ القواسم ينظر الى اجراءات محمد بن عبد العزيز بشيء من الاشمئزاز غير انه لم يكن يستطيع أن يجاهر بمعارضته خوفا من تمرد مواطنيه عليه (١) .

بعد شهر أصبح هجوم الوهابيين على عمان فى عام ١٨٣٤ غير وارد وذلك بسبب مصرع الامير تركى وما وقع بعد ذلك من فوضى واضطرابات فى نجد والاحساء ، وقد ذبح تركى فى الرياض فى بداية شهر مايو من جانب ابن عمه مشارى بن عبد الرحمن بن سعود الذى نصب نفسه أميرا على البلاد ، أما فيصل الأكبر أنجال تركى فقد كان مشغولا فى ذلك الوقت بمحاولة فك الحصار الذى فرضه آل خليفة شيوخ البحرين على القطيف والعقير ، وكان آل خليفة قد نقضوا اتفاقية عام ١٨٣١ مع الامير تركى وأعلنوا الحرب عليه (٢) .

(١) ملفات المثلثة البريطانية فى الخليج المجلد ٣٧ من الملاحين الى

بلين ١٨٣٤/٤/١ .

(٢) يذكر فلبى (السعودية العربية ص ١٠٨) أن مصرع تركى كان نتيجة تحريض من اسماعيل بك القائد المصرى فى المدينة غير أن الراى السائد فى الخليج فى ذلك الوقت يرى أن المسئول عن اغتيال تركى هو عبد الله بن أحمد شيخ آل خليفة . انظر مجموعة المجلس مجلد ١٨١٦ رقم المجموعة ٥٩٨٥٩) من بلين الى كبير سكرتارية حكومة بومباى ١٨٣٤/٦/١١ ومختارات بومباى مجلد ٢٤ .

وقطع فيصل العمليات الحربية مع آل خليفة وتوجه الى الرياض بصحبة عمر بن عوفيسان حاكم الأحساء وفرقة من رجال القبائل . وقد تمكنوا في أوائل شهر يونيو من الوصول الى العاصمة وذبح مشاري ثم نصب فيصل أميرا على البلاد الا أنه كان لابد لفصل من اخضاع بقية المناطق وعلى الأخص الاحساء حيث كانت أسرة العيار تحاول استرداد نفوذها السابق مستغلة حالة الفوضى التي عمت المنطقة اثر اغتيال تركي (١) .

انتهت خدمة بلين كمقيم بريطاني في صيف عام ١٨٣٤ وقد توقف في مسقط وهو في طريقه الى الهند ليرى ما اذا كان حمود بن عزان لا يزال يحتل الرستاق أو انه تخلى عنها لنائبى السيد سعيد وعندما ابلغه نائبا السيد سعيد بأن حمود مازال يرفض تسليم المدينة قام بلين بتوجيه رسالة الى حمود يحذره فيها من محاولة القيام بأى اعتداءات جديدة والا فان الحكومة البريطانية سوف تعتبره طرفا معاديا لها وعند وصول بلين الى الهند تعلل بأنه اضطر الى ذلك الاجراء لعدم كفاءة المسئولين الذين عينهم السيد سعيد للإشراف على الحكم في مسقط وذكر بأن السيد سعيد كان لا يميل الى تسليم شئون الدولة الى الأكفاء من رجاله ربما خوفا منهم او ربما لأن الحكم كان يفتقر الى العناصر ذات الكفاءة ، وانطلاقا من هذا يمكن القول انه اذا كان السيد سعيد لا يحبذ ان يعهد بالسلطة الى الرجال الأكفاء فما كان ينبغي له ان يتغيب كثيرا ولفترات طويلة عن البلاد ، غير أن بلين لم يكن ميالا لتوجيه اللوم للسيد سعيد على هذا التصرف لسبب بسيط وهو أن السيد سعيد كان يحصل على الجزء الأكبر من دخله من مستعمرات في افريقيا

(١) مجموعة المجلس مجلد ١٥١٦ رقم ٥٩٨٥٩ من هانيل الى نوريس

الشرقية بما في ذلك الأموال التي كان يدفعها كرشوة للوهابيين لإبعادهم عن مسقط ، وبالتالي فقد كانت مصلحة السيد سعيد (الفعلية) تقضى بتدعيم تلك المستعمرات والحفاظ عليها ، وإذا ما سلمنا بهذا الرأي عن السيد سعيد وكان الاحتفاظ بتحالفنا مع مسقط لا يزال مرغوبا فيه يصبح دعم السيد سعيد قضية بديهية ، ويضيف المقيم بأن سبب بقاء السيد سعيد لفترات طويلة في أفريقيا الشرقية يعود في الواقع الى التشجيع الذي كان يتلقاه المتمردون ضد حكمه في ممباسا من ضابط الأسطول البريطاني هناك ورغم أن كلير كان يتفق في الرأي مع بلين وكان يتعاطف مع السيد سعيد إلا أنه كان منظرًا الى الالتزام بالسياسة التي وضعها بنتنك في شهر فبراير السابق وصادق عليها مجلس إدارة الشركة في شهر أبريل ، وعلى هذا الأسس أصدر أوامره الى مساعد بلين الكابتن هانيل المقيم البريطاني بالوكالة بالالتزام بتلك السياسة ورفض أي طلب يأتيه سواء من السيد سعيد أو من المسؤولين في حكومته ويبدو أن ما أغفله بنتنك ثم أعضاء مجلس إدارة للشركة (حتى لو كانوا قد تنبهوا اليه ولكنهم رفضوا الاعتراف به) هو أن مطالبة بلين وكلير بتدعيم موقف السيد سعيد سواء من ناحية ثورة داخلية أو من أي اهتمام خارجي عليه لم يكن كافيا في حد ذاته وإنما لا بد وأن يرتبط بقضية تدعيم السلام في الخليج والناطق المجاورة ولو قدر أن تعود الاضطرابات الى عمان نتيجة لأطماع ومؤامرات حمود بن عزان ، أو غيرة من الزعماء المحليين فإن حكم السيد سعيد سوف ينهار وسيعقبه تفتت عمان الى مشيخات ودويلات ، وينقض القواسم على منطقة الشميلية والموانئ الواقعة شمالا ، بخور فكان وخور كلبه ، ودبا، الأمر الذي سيفتح لهم موانئ ينطلقون منها لممارسة أعمال القرصنة في خليج عمان والمناطق الخلفية ، وقد يسمح وضع كهذا لعمود بن

عزان أو غيره من فروع أسرة آل بوسعيد بأن ينضبوا أنفسهم حكاما على بعض المناطق الداخلية من عمان والباطنة بل وعلى مسقط نفسها .

كان الخطر الأكبر الذى كان يهدد عمان هم الوهابيون فلو نجح فيحصل فى الاستيلاء على نجد والأحساء واستعاد نفوذ والده فانه لن يمر وقت طويل حتى يتجه الى الزحف على عمان ولو قدر للسيد سعيد أن يتدهور حكمه فان ذلك سوف يسهل عملية احتلالها بواسطة السياسيين البريطانيين العاملين ولو أصبحت سفن مسقط تحت رحمة الوهابين فان الخليج سوف يتعرض لوجود جديدة من الارهاب البحرى تعادل ان لم تكن تفوق الارهاب الذى شهدته المنطقة خلال العقدين الأول والثانى من القرن . ولم تظهر دلائل تشير الى ان الوهابيين قد غيروا من اسلوبهم وأن هناك تغيرا نسبيا فى نفوذ الأمير فيصل وقبله تركى ومن سبقوهم من حكام نجد ، وعلى حين كان أعضاء مجلس إدارة الشركة يميلون الى الاعتقاد بأن قيام سيطرة الوهابيين على السواحل العربية الخليج لا تملية عليهم دوافع شريرة وأنه يمكن الاعتماد على حسن نية الأمير الوهابى فى منع القراصنة من العودة الى سابق أعمالهم فقد كان بلين والمسئولون البريطانيون فى بومباى يرون بأن الاعتدال الذى أظهره كل من تركى ونجله انما يعود الى انحسار قوة الوهابيين أكثر مما يعود الى تغيير فى طبيعة سياستهم ، ومن المؤكد ان سجل الوهابيين فى المناطق الجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية حتى ذلك الوقت لم يكن يدمو الى التفاؤل ، فبدلا من أن يحاول هؤلاء التقريب بين زعماء القبائل كانوا يبحثون عن كل السبل التى تؤدى الى الايقاع فيما بين تلك القبائل واستغلالها بهدف توطيد أقدامهم فى المنطقة ، وحتى لو كانت نوايا فيصل حسنة فانه لم يكن يملك الامكانيات اللازمة لتحقيقها ، كما أن نائبه فى البريمى لم يكن عاجزا عن تسوية الخلافات بين القواسم وبنى ياس فحسب ، بل كان عاجزا حتى عن تحصيل الزكاة من

تلك القبائل (١) فإذا صحت وجهة نظر بلين عن احتمال اتجاهات فيصل السياسية في المستقبل ، فإن الحكومة البريطانية سوف تجد نفسها مدفوعة الى التدخل للحيلولة دون اضطراب الأمن في الخليج مرة أخرى ، وكان رأى بلين يدعو الى سرعة القيام بمثل هذا التدخل حتى يكون له اثره في دعم حكومة السيد سعيد (الصديقة) من ناحية ومنع خصومه من استغلال وضع السلطنة لتقويض وحدتها من ناحية أخرى . لأن التأخير في اتخاذ ذلك الاجراء قد يضطر السلطات البريطانية الى الدخول في مواجهة مباشرة مع الوهابيين .

وفي النصف الأخير من عام ١٨٣٤ لم يكن التهديد المباشر لآمن الخليج ناتجا عن الاجتياح الوهابي لعمان وإنما عن الحرب التي نشبت بين القواسم وبني ياس وحتى نهاية عام ١٨٣٣ كانت الاشتباكات بين القبيلتين مقصورة بوجه عام على النزاع على مصائد اللؤلؤ أو نتيجة للغارات التي كان يقوم بها المناصير حلفاء آل بوفلاح على المراعى ومزارع النخيل غير أنه في شهر سبتمبر من عام ١٨٣٢ خرج سلطان بن صقر على رأس قوة مقاتلة من القواسم يقدر عددها بنحو ٥٠٠ مقاتل و ٧٥٠ من قبيلة بوفلاسه سكان دهبى لشسن هجوم بحرى على أبو ظبى ، وعند نزول القوة الى الساحل وجدوا في انتظارهم قوات محتشدة من بنى ياس والمناصير ، فعادوا الى سفنهم بعد أن قتل منهم نحو ٤٥ فردا خلال عمليات الانسحاب واسر ٢٣ فردا من قبيلة آل بوفلاسه ، وأرغموا على العودة الى موطنهم وقد كاد أن يفرق الشيخ بسايد بن صقر أثناء عملية الانسحاب وقد تم الاستيلاء على ٦٦ سفينة من مجموع ١٠٢ سفينة كان يتألف منها اسطول الفزو ، ورغم هزيمة سلطان فقد كان

(١) ملفات الممثلية البريطانية في الخليج مجلد ٣٧ من الملاحين (وكيل

التمثلية في الشارقة) الى المقيم البريطانى ١٨٣٤/١١/٢ .

مصمماً على أن يعيد الكرة فقام بجمع أسطول جديد بمساعدة عميله شيخ عجمان وقريبه شيخ لنجه. وأبحر الأسطول الى أبو ظبي في شهر نوفمبر ، وبهذا الأسطول حاول اقتحام المدينة بحرب خاطفة وعندما فشلت خطته قرر أن يحاصر أبو ظبي . ومن هذا العام وبسبب الحصار المفروض على البلدة من البحر والبر . كادت قبائل بنى ياس سكان أبو ظبي أن يهلكوا جوعاً ، ومع ذلك فقد نجحوا في الحصول على ثلاث سفن وأبحروا بها للاستيلاء على عجمان وسفن القواسم . أما في البر فقد نجح خليفة بن شخبوط في طرد حلفاء الشيخ سلطان الذين كانوا يحاصرون طرق تموينه من داخل واحة البريمي ، وبعد ذلك بوقت قصير بدأ بحارة السفن الذين كانوا يحاصرون أبو ظبي يعانقون من المتاعب بقدر ما كان يعاني بنى ياس مما اضطر سلطان بن صقر في النهاية إلى الاعتراف بالفشل ، وقد عقدت هدنة بواسطة شيخ لنجة : تعهد القواسم بموجبها برفع الحصار كما تعهد بنو ياس بإعادة السفن التي استولوا عليها من القواسم (١) ودامت الهدنة حتى شهر يونيه عام ١٨٣٤ عندما نقضها المناصر بفشارتهم على منطقة تابعة للقواسم ، وقد رد القواسم على المناصر باغتصاب عشرة من سفن بنى ياس كانت متجمعة في مصايد اللؤلؤ وأخذوا بحارثاً ومعهم محصول اللؤلؤ . وفي نهاية الصيف عقدت هدنة أخرى بإشراف الشيخ خليفة والد الشيخ شخبوط وقد تعهد زعيم بنى ياس بالاعتراف بسلطة آل بوفلاسه على دبي على أساس الأمر الواقع وأصبحوا منذ ذلك اليوم تابعين

(١) مختارات بومباي ٢٤ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ (نبذة تاريخية عن القواسم ١٨٣٢ - ١٨٤٤ ص ٤٧٠ - ٤٧٣ و (نبذة تاريخية عن بنى ياس ١٨٣١ - ١٨٤٣) انظر أيضاً دليل الخليج جزء ١ / ص ٦٩٠ - ٦٩٣ تأليف لورمار .

لسلطان بن صقر (١) وقد عزى خليفة بن شخبوط أن يضطر الى الخضوع وكاد ان ينفجر الموقف مرة أخرى من جانب بنى ياس .

وفى الشهور الأخيرة من عام ١٨٣٤ أخذ التوتر يسود الأوساط القبلية الى دول ساحل القراصنة فقد انخفض مستوى المعيشة لهذه القبائل الى حد الكفاف واصبح المواطنون على شفا اليأس نتيجة لحروب الاستنزاف التى كانت تدور بين زعماء القواسم وآل بوفلاح كما تلفت المزروعات والمحاصيل ودمرت المباني ونفقت المواشى بسبب الغارات المسلحة كما تأثرت الدورات الزراعية والرعية من جراء الحروب المتتابة التى فرضت على سكان هذه الاقطار . والادهى من كل ذلك أن المواطنين فى هذه المناطق لم يتمكنوا من الخروج الى صيد اللؤلؤ لثلاثة مواسم متتالية مما حرهم من الحصول على المواد الغذائية الضرورية من الخارج . وكان رأى الاغلبية أن المخرج من تلك الأوضاع لا يكون الا بالاعتماد على السلب والنهب . وخلال الصيف وقعت بعض الأحداث التى ساعدت على أن يتحول الأمر من حرب مشروعة بين هذه القبائل الى قرصنة وفوضى قال بوفلاسة سكان دى الذين كانوا ناعمين من نتيجة الحرب مع ابوظبى لم تتح لهم الفرصة للانتقام من خصومهم آل بوفلاح، فقرروا العودة الى أعمال القرصنة ، فخرجوا بأعداد كبيرة للاعتداء على سفن مسقط والبحرين ونابند على الساحل الفارسى وقاموا بسلب ونهب تلك السفن كما اغاروا على بركا الواقعة على ساحل الباطنة وقد انضم اليهم بعض افراد قبيلة السودان التى انفصلت عن عجمان وانضمت الى ابوظبى فاعتدوا على سفينة تابعة لمطرح (فى عمان) وأخذوا كل حمولتها ويقدر ثمنها

(١) مختارات بومباى ٢٤ ص ٤٧٣ « نبذة تاريخية عن بنى ياس »

١٨٣١ - ١٨٤٣ تأليف كامبل .

بـ : ١٠٠ ريال مساوى . وقد رافق معظم هذه الاعتداءات أعمال ارهابية وقتل وعنف . وقد قدم المقيم البريطانى طلبا الى حاكم دى وأبو ظبى لدفع فدية القتلى . وقد ترتب على ذلك توجيه اذار الى حاكم دى بفرض حصار على بلاده ما لم يوافق على توقيع العقوبات على المتهمين ودفع تعويضات لأصحاب السفينة ورغم ذلك فان بعض أولئك القراصنة قد افلتوا من العقاب بعد أن تمكنوا من الهرب الى البريمى (١) وهكذا كلما طال امد الاشتباكات بين بنى ياس والقواسم أو تكرر وقوع مثل هذه الاعتداءات فى منطقة الخليج الامر الذى سبب زعزعة فى موقف أعضاء ادارة شركة الهند الشرقية بسبب رفضهم المستمر القيام بدور البوليس فى المنازعات القبلية بين دول الخليج ، ولما كانت القرصنة هى السبب فى الحروب البحرية بين القبائل الساحلية فلا يكون فى الامكان القضاء على أعمال القرصنة ما لم يتم القضاء أولا على هذه الحروب ، ومع ان أعضاء مجلس إدارة الشركة كانوا يقرون هذا المنطق ، الا أنهم كانوا يرفضون مبدأ العمل به وكان تصورهم يقوم على أساس ان الحكومة البريطانية ليست بالضرورة طرفا فى تلك المنازعات ، الا اذا أدت تلك المنازعات والحروب الى عودة القرصنة الى الخليج (٢) ولكى تحقق الحكومة البريطانية الهدف من هذا فينبغى عليها أن تدلل على أن تلك الاشتباكات هى عمليات قرصنة، الامر

-
- (١) سجل المراسلات السياسية لبومباى مجلد ١٨ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٣٥/١٢/٧ . رقم ٥٧ . الادارة السياسية . مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٩٨-٤٩٩ نبذة تاريخية عن قبيلة ابوفلاسه العربية (دى) . من ١٨٣٤ الى ١٨٤١ ودليل الخليج تأليف لوريمار ص ٦٨٣ - ٦٨٤ .
- (٢) من التقارير السياسية لبومباى مجلد ٤ من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٣٤/٨/٢٠ رقم ١٠ الادارة السياسية .

الذى سوف يتفق مع الدور الذى يريده لها اعضاء مجلس الادارة كما كان عليها أن تتحمل النتائج المترتبة على ذلك الدور . وفى هذا الصدد كتب مونستور الفنستون فى عام ١٨٢٥ يقول :

« اذا لم نسمح لاي فرد بأن يسترد ما يعتبره حقا من حقوقه فانه يتعين علينا ان نقوم بالتحقيق فى كل الادعاءات التى تنشأ وأن نعمل على تسويتها اذا ثبت صحتها » - . وبعبارة اخرى فان على الحكومة البريطانية أن تقوم بدور (المحكم) وهو الدور الذى كان يعترض اعضاء مجلس الادارة عليه ، فرد على ذلك ما جاء فى تقرير الفنستون ، أنه اذا تعين فرض حظر كامل على الحروب البحرية فان الحكومة البريطانية ستكون ملزمة بالدفاع عن مشايخ المنطقة ضد أى هجوم تشنه عليها دولة اخرى لا تشملها المعاهدة ، ووفقا لهذا المنطق فقد كان لابد من نرض نوع من القيود خلال الفترة الواقعة فى منتصف الثلاثينات من القرن التاسع عشر على الحروب البحرية التى كانت تنشب من وقت الى آخر بين شيوخ المنطقة والتى كانت سببا فى الاوضاع المعيشية المتردية فى المنطقة . اما عن دور بنى ياس فى الموضوع فسوف نتطرق اليه فى فصل آخر من الكتاب ، أما الآن فنختتم قصة الأحداث فى الخليج خلال الفترة الواقعة بين عام ١٨٢٣ ، وعام ١٨٣٤ باعطاء بيانات عن الاوضاع التجارية للمنطقة فى تلك الفترة والتعبيرات التى طرأت على الادارة فى الممثلة البريطانية فى الخليج خلال تلك السنوات .

ان السمة البارزة للحالة التجارية فى الخليج بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٣٥ هى أن الحالة التجارية واصلت تدهورها تدريجيا بعد الصعود الذى حققته خلال ذروة نشاط القرصنة قبل حملة البروليم كير بعامين فقد كان مجموع قيمة النشاط التجارى لمحافظة بومباى ومؤسسات فورت ولیم وفورت سان جورج مع بلدان الخليج الفارسى والبحر الاحمر فى حدود ٢٣٠٢٥٣٩٣٠ روبية (أو ما يعادل ٢٣٠٠٠٠ ج س) فيها ١٠٧٧٢٠٢٤٩

روبية للصادرات و ١٢٤٥٣٦٨١ روبية للواردات (١) وبعد عامين على الحملة انخفض الرقم الى ١٧٢٩٥٣٤٤ روبية أى (١٧٠٠٠٠٠ ج س) أو ما نسبته ٢٥ ٪ وكانت نسبة الانخفاض اكثر من الواردات من الخليج الى الهند التى انخفضت من ١٢٤٠٠٠٠ الى نحو ٧١٠٠٠٠٠ ويعود هذا الانخفاض بلاشك الى انتشار وباء الكوليرا الذى اجتاح الخليج عام ١٨٢٠ - ١٨٢١ .

وليس هناك أدنى شك فى أن التدهور فى تجارة الخليج الذى استمر خلال السنوات التالية يمكن رد اسبابه الى الدمار الذى أحدثه الوباء فى المنطقة . وكان مجموع قيمة الواردات الى الهند من الخليج فى عام ١٨٢٤ - ١٨٢٥ بنحو ٣٠٠٠٠٠ ر و ٤٠٠٠٠ ر سنة ١٨٢٦/١٨٢٥ و ٤٥٠٠٠ ر سنة ١٨٢٧/١٨٢٦ و ٣٠٠٠٠ ر سنة ١٨٢٧ - ١٨٢٨ (٢) كما هبطت أرقام الصادرات من الهند الى الخليج عن نفس المدة من ١٠٠٠٠٠ ر الى ١٠٠٠٠ ر فى ١٨٢١ - ١٨٢٢ الى ٧٦٠٠٠٠ ر روبية عام ١٨٢٢ - ١٨٢٤ ثم الى ٦٠٠٠٠ ر روبية عام ١٨٢٥ وعام ١٨٢٦ الى نحو ٧٨٠٠٠٠ روبية، ثم عاد فانخفض خلال العامين التاليين عندما اشتبكت فارس فى حرب ضد روسيا الى ٦٤٠٠٠٠ روبية عام ١٨٢٦ - ١٨٢٧ و ٦٠٠٠٠ روبية فى عام

(١) تقارير اللجنة (١٨٢١) مجلد ٦ ورقة رقم ٧٤٦ التقرير الثالث للجنة المنتخبة عن التجارة الخارجية ملحق ١ ج (أ) .

(٢) بيانات ووثائق ١٨٣١ - ١٨٣٢ مجلد ١٠ ورقة ٧٣٥ ملحق ١٤ غير أن الأرقام الصحيحة هى ٦٠٤٩٩٠ ر روبية و ٣٧٧٢٨٩ ر روبية و ٤٩٨٠٠ ر روبية و ٨٦٧٦٥ ر روبية و ٣٥٠٦٧٠ ر روبية .

١٨٢٧ - ١٨٢٨ وهكذا كان المجموع الكلى لقيمة تجارة الخليج مع الهند غن تلك الفترة هو ١١٣٩٧٢٥٤ روبية أو ثلثى أرقام ١٨٢١ - ١٨٢٢ وأقل من نصف أرقام ١٨١٧ - ١٨١٨ .

وان الأرقام المتوفرة لدينا عن تجارة الخليج خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر قليلة وغير مؤكدة ، ويبدو على أى حال انه لم يطرأ أى تحسن ملموس على الوضع التجارى فى تلك الفترة . وقد قدر السيرجون مالكولم قيمة تجارة الهند مع البصرة وبوشهر فى عام ١٨٣٠ بثمانية عشر مليون روبية ، وكان هذا رقما مبالغاً فيه (١) . وكان مجموع تجارة الخليج مع الهند عن عام ١٨٣١ - ١٨٣٢ حسب تقدير الكولونيل اف . ار . تشيزلى قائد بعثة الفرات هى ١١٤٢٣٣٥١ روبية منها ١٢٨٠٠٠٤٦ عن الواردات و ٦٨٢٣٣٠٢٠٣ روبية عن الصادرات (٢) وفى ذلك العام اجتاحت مرض الطاعون

(١) فى ذلك الوقت كان مالكولم يحاول البحث عن وسيلة للاستيلاء على جزيرة خرك لانشاء قاعدة بريطانية فيها وقد وردت تقاريره هذه فى بيان أعده بتاريخ ٢١/١٠/١٨٣٠ عن الأسطول الهندى وقد أشير اليه فى الخطاب الموجه من اللفتنانت هنل الى السكرتير الأول لحكومة الهند بوشهر ١٩/٥/١٨٣١ كما أشير اليه فى المحادثات السياسية لبومباى الحلقة ٣٨٧ مجلد ١٣ الرقم السلسل ٣١ المؤرخ ٢٧/٧/٣١ وقد تعذر الحصول على النسخة الأصلية للبيان فى كل من المحادثات السرية والسياسية لحكومة بومباى او فى مرفقات المراسلات السرية الصادرة من بومباى او فى مجموعة المجلس . أما فيما يتعلق بالمحادثات الخاصة بالأسطول فقد أتلّف الجزء الأكبر منها ، ولم يعثر على البيان فى الملفات المتفرقة للبحرية .

(٢) تشكلت هذه البعثة للقيام بعمليات مع نهري دجلة والفرات مجلد ٢ طبعة لندن ١٨٥٠ مجلد ٢ ص ٥٩٩ أما بالنسبة لبعثة الفرات .راجع الفصل السابع من هذا الكتاب .

- ٤٢٦ -

سواحل الخليج وامتد الى المنطقة الجنوبية من فارس وتركيا والعراق بوجه خاص وفي شهر يونية ١٨٣٤ رفع المقيم البريطاني في الخليج تقريراً الى حكومته أشار فيه الى ما اصاب تجارة بوشهر من اضرار بالغة وبالتالي فقد انخفضت ارقام التجارة عن عام ١٨٣٢ - ١٨٣٣ بنحو ٥٠٪ عن ارقام ١٨٢٩ - ١٨٣٠ كما انخفضت الواردات من ٨٣٧٤٢٩٨ روبية الى ٤٢٥١٢٥٢ روبية والصادرات من ٣٣٢١٣٧٧ روبية الى ٢٧٠٥٤٤ ر ٢ (١) ومعنى ذلك انه لم يطرا تحسن على تجارة الخليج بوجه عام في غضون الاعوام الخمس التالية ، وربما يكون سبب ذلك هو التدهور الذي سببه مرض الطاعون والاضطرابات الداخلية في فارس في اعقاب وفاة فتح على شاه وظهور الوهابيين على المسرح على الجانب الغربى من الخليج وأخيرا الحروب التي ظلت مشتعلة بين بنى ياس والقواسم والتي اضررت بصناعة اللؤلؤ (٢) وهذه الأرقام تنطبق على تجارة الخليج مع الهند

(١). ملخص من مواصلات وتجارة الخليج عن الفترة ١٨٠١ - ١٩٠٥

ومع ذلك فالواردات من الخليج الى مؤسسة فورت ولیم عن نفس العام كانت ١٥٦١٠٨٨ ر والواردات ٧٢٠ ر ٧٣٥ ر ٢ روبية وهذا يعنى لو كانت ارقام تشيزن عن ١٨٣١ - ١٨٣٢ صحيحة - أى ٩٥٦٧٣٣ روبية فى الواردات من الخليج الى المؤسسة المذكورة ١٨١٦٨٥٥ ر من الصادرات فمعنى ذلك انه لم تكن هناك زيادة فى تجارة الهند مع الخليج بوجه عام خلال ١٨٣٢ - ١٨٣٣ .

(٢) الأرقام التى يحددها شزن (تقرير البعثة فصل ٢

هى ٤٧٢٤٠٢ روبية عن الواردات و ٢٧٦٨٢٣ ر روبية عن الصادرات وهى تشمل تجارة البنغال وبومباى مع منطقة الخليج عن عام ١٨٣٦-١٨٢٧ وهو لم يدخل مدراس فى هذه التقديرات ولكن اذا كانت تجارة مدراس مع

— ٤٢٧ —

وان كانت تشكل فى الواقع القسم الأكبر من تجارة الخليج ، أما ما هى قيمة تجارة الخليج عن كل عام فذلك يستحيل تحديده وهناك رحالة معاصر يبدو انه اشار ببعض التخمينات حول هذا الموضوع ولكننا لا نستطيع التأكد من الرقم الذى حدده وهو ٣٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك او مليون جنيه استرلينى تقريبا .

والنتيجة من كل ذلك انه لا يمكننا أن نحدد بشكل مباشر من المعلومات والأرقام المتوفرة لنا عن تجارة الخليج والأثر الذى أحدثته الحملات البريطانية على القرصنة فيما بين عام ١٨٢٨ - ١٨٣٥ ومن المعروف عموما ان القرصنة كان لها انعكاس سيئ على التجارة رغم أن الوضع لم يكن بذلك السوء قبل ١٨٢٠ كما لا يمكن تأييد رأى القائل بأن انخفاض نشاط القراصنة قد أعقبه تحسن فى الأحوال التجارية وبأن هذا ينطبق على المرحلة التى جاءت بعد عام ١٨٢٠ ، ويمكن القول بأن الهدف من العلاقة التى كانت تربط بين التجارة والقرصنة على غرار ما كان قائما بين القواسم وآل خليفة قبل حلول عام ١٨٢٠ هو استثناء الخليج من القوانين التجارية السائدة وهناك تفسير آخر لهذا الموضوع وهو أن القرصنة التى كانت تؤثر على سير التجارة فى الخليج خلال تلك المرحلة لم تكن هى السبب المباشر فى تدهور التجارة كما يعتقد الأوروبيون وإنما سببها هو تصاعد الأعمال الحربية فى مياه الخليج .

=الخليج قد مرت بأى تغيرات كما حدث لتجارة البنغال وبومباى فيما بين ١٨٣١ - ١٨٣٢ ، ١٨٣٦ - ١٨٣٧ (٢٥٨٨٠٧٥ ر و ٣٩٥٠٣٦٩٩ ر عن البنغال و ٣١٨٠١٩٨ ر و ٨٨٠ ر و ٤٩٠٧ ر عن بومباى) وظلت محتفظة برقمها وقدره ٦٠.٠٠٠.٠٠٠ روبية ، فان المجموع الكلى لقيمة تجارة البنغال وبومباى ومدارس من الخليج عن العام التالى ربما لم تزيد عن ٣٠.٠٠٠.٠٠٠ ر و ١٠ روبية .

فى هذه الفترة كان وضع المثلثة البريطانية فى الخليج موضع مناقشة بين حكومتى الهند وانجلترا، وليس فيما يختص بالشئون الادارية فحسب وانما بالنسبة الى انشاء قاعدة فى الخليج أيضا ، وهو الموضوع الذى كان يشغل اسبابا البريطانيين فى تلك الفترة ، فبعد الجلاء عن القاعدة العسكرية فى جزيرة قشم فى يناير ١٨٢٣ ، لم تبرز هذه المسألة للبحث خلال حكم الفنستون لبومباى وبالتالى لم يكن من المتوقع اطلاقا ان يعمد خليفة مالكولم الذى قلل ينادى لعشرين عاما برأيه حول الاهمية الاستراتيجية والتجارية للخليج واهمية وجود قاعدة للبريطانيين فيه ، الى اغفال هذا الموضوع فترة أطول .

وعندما تسلم مالكولم منصبه كحاكم على بومباى كان النقاش يدور بشكل واسع حول موضوع الملاحة البخارية بين انجلترا والهند عن طريق البحر الأحمر والخليج الفارسى ، وبعد وصوله الى بومباى مباشرة بدأ مالكولم فى دراسة انشاء قاعدة فى الخليج الى جانب نقل المثلثة البريطانية من بوشهر الفارسية الى الخليج . وفى أواخر عام ١٨٢٧ (١) استدعى مالكولم الميجور ويلسون المقيم البريطانى فى الخليج الى بومباى لبحث الموضوع معه ، وفى بداية العام أخطر الكولونيل ستانوس المستر مالكولم الذى خلف ويلسون فى منصب المقيم ، انه بالنظر الى نشوب اضطرابات سياسية فى فارس بين حين وآخر فسيكون من الأفضل أن لو استأذنت حكومة فارس فى نقل المثلثة البريطانية الى ضواحي البلدة . وقد ذكر ستانوس بأن أمير فارس كان

(١) المحادثات السياسية لبومباى حلقة ٣٨٦ مجلد ٢٢ رقم ١٨ فى ١٨٢٧/٥/٢ من ستانوس الى السكرتير الاول لحكومة بومباى من بوشهر ١٨٢٧/٣/٢٦ ومن نيوهام الى المقيم من بومباى ١٨٢٧/١/٢٨ .

يمارس سلطة غير كاملة على بوشهر ، وانه فى حالة استياء الاهالى من المقيم يتعذر على الأمير الحاكم توفير الحماية اللازمة له كما اضاف بأن مبنى الممثلة يقوم على حراسته مجموعة صغيرة من الحراس الهنود ، وليس بها موود خاص للماء ، ولهذا فقد كان يشك أن تستطيع الممثلة أن تقاوم أى هجوم عليها لأكثر من ٤٨ ساعة . وعلى الرغم من أن الفنستون أقر رأى ستاثوس إلا أنه لم يكن يرغب بالنظر الى الحرب الروسية الفارسية والإضطرابات السياسية فى الاقاليم الجنوبية فى أن يضيف متاعب أخرى الى الوضع غير المستقر فى المنطقة ، بنقل الممثلة من بوشهر ، غير أن مالكولم لم يقر الفنستون على ذلك الرأى ، وعندما استدعى ويلسون الى بومباى فى شهر ديسمبر ١٨٢٧ طلب منه أن يقترح عددا من المناطق على الساحل الفارسى تصلح كموقع للممثلة، وبين فبراير ومايو ١٨٢٨ قام ويلسون بمعاينة باسيدو وكنج (الموقع السابق للمركز الهولندى) ولنجه وأسالو . وقال فى تقريره ، انه لا يوجد بين هذه المواقع التى زارها موقع يصلح للممثلة كجزيرة خرك التى تقع بمواجهة بوشهر وذلك لما تنفرد به من المزايا السياسية الى جانب صلاحيتها كم منطقة لتجميع وتوزيع السلع والمنتجات . وقد ارتاح مالكولم من هذا القرار لانه هو نفسه قد سبق أن اختار تلك الجزيرة قبل عشرين عاما ولنفس الأسباب وفضلها على باسيدو الواقعة فى جزيرة قشم حيث كانت ترابط الوحدة العسكرية فى الخليج ، اما باسيدو فقد كانت فى نظره غير صالحة كمركز تجارى لأن تجارة الخليج تتركز فى المنطقة الشمالية ولهذا السبب كانت جزيرة خرك موقعا نموذجيا للقاعدة وان احتلالها فى رأيه لن يسهل بنقل الممثلة من بوشهر فحسب وانما قد يسهل أيضا دمج ممثليتى البصرة وبوشهر فى ممثلة واحدة، هذا رغم أن مالكولم لم يكن يرغب فى اغلاق ممثلة البصرة حتى ذلك الوقت ، نظرا للحرب القائمة بين روسيا وتركيا

والمكاسب التي حققتها روسيا في أذربيجان . والنتيجة أن مالكولم لم يفعل شيئاً في هذا الصدد ، ربما لأنه كان لا يزال واقفاً تحت تأثير الموقف العدائي لفتح شاه ضد وجود قاعدة بريطانية من قبل ، كما أنه من المحتمل أن يكون مالكولم واقفاً تحت تأثير فشل الحكومة البريطانية في الوقوف الى جانب الشاه في خلافاته مع الروس في سنة ١٨٢٦ ، مما لم يشجع الشاه على اتخاذ موقف مؤيد لاقامة القاعدة في خرك .

ولم يعد مالكولم الى بحث هذا الموضوع مرة أخرى قبل شهر نوفمبر من عام ١٨٣٠ فقد بحث موضوع ارتفاع نفقات الاحتفاظ بالمثلثتين . فقد بلغت نفقات المثلثية في بوشهر عن العام المنتهى في ٣٠ ابريل سنة ١٨٣٠ - ٧٨٥٢٤ روبية ، بينما بلغت نفقات مثلثية البصرة عن العام المنتهى في ٣١ يناير ١٨٢٩ مبلغ ٥٤٢٠٢ روبية ، وقد بلغ مجموع نفقات كلتا المثلثتين من عام ١٨٢٩ بما فيها المصروفات الاضافية للحرس بلغ ١٣٨٥٩٠ روبية

(١) المجموعات مجلد ٤١ رقم ٣٧ مؤرخ ١٨٢٨/٩/٢٤ محضر مالكولم بومباي ١٥ ، ١٦ سبتمبر ١٨٢٨ ، رغم اني مازلت اتصور احتمال اجراء تخفيض في نفقات وكالتنا في فارس وتركيا وذلك فيما يختص بحجم الاعمال فاني لا اعتقد ان ذلك ممكن في الوقت الحاضر ما دامت الحرب قائمة كما يقال بين روسيا والباب العالي والقوات الروسية تحتل أذربيجان اننا نستطيع استدعاء الميجور تايلور من البصرة دون أن يترك هذا الاجراء انطباعاً ليست في مصلحتنا في ذلك الجزء من آسيا . وعلى الرغم من ان المثلثية البريطانية في تركيا العربية كان مقرها من الناحية الرسمية في البصرة الا ان المقيم الكابتن تايلور يقضى معظم اوقاته في بغداد ، الامر الذي يتيح له بأن يكون على اتصال اقرب لحكومة الباشا .

- ٤٣١ -

او ١٤٠٠٠ رطلينى . وحسب تقرير المستر شارلس نوريس ، السكرتير
الاول للحكومة كان الانفاق الشهري لمثلثة بوشهر بـ ١٨٨٠ روية ولمثلثة
البصرة ٣٧٩٧ روية . وكان مجموع النفقات الشهرية للمثلثتين هو ٨٩٨٥
روبية . وبالمقارنة الى نفقات مثلثة واحدة فى خرك مكونة من مقيم ومساعد
مقيم وطبيب وحارس فانها لم تكن تزيد على ٤٠٠ روية كل شهر . وبذلك
يكون المبلغ الذى يمكن توفيره من اندماج المثلثتين هو ٤٩٨٥ روية كل شهر
او ٥٩٨٢٠ روية سنويا .

وعلى ضوء هذه الدراسة كلف صمويل هانيل الذى كان مقيما بالوكالة
فى الخليج فى ذلك الوقت بمعاينة منطقة خرك . وقد قضى هانيل عدة ايام
فى الجزيرة فى اوائل شهر مايو ، وقد عاد فقدم تقريراً يفيد بصلاحيّة الموقع
وعلى أساس تقرير سابق أعده ويلسون تبين ان اقامة حامية مكونة من ١٧٨
جندياً اوربياً و ٦١٠ جندياً هندياً تكفى لتوفير الحماية للقاعدة ، ولن تتعدى
نفقات انشاء معسكرات لهم ٣٨٣٠٠ روية كما ان قلعة الجزيرة وتحصيناتها
لا تتعدى ٧٠٠٠٠ روية . اما نفقات الاحتفاظ بالحامية فى تقديرات
هانيل فسوف تتطلب ٢٠٨٠٠٠ روية كل عام، غير انه كان واثقاً من أن تحويل
الجزيرة الى مركز تجارى سوف يضمن تحصيل نصف هذا المبلغ من الرسوم
الجزكية التى فى تقديره ستصل من ٩٠٠٠٠ الى ١٣٥٠٠٠ روية
فى السنة .

وكان مالكولم قد غادر الهند عند وصول تقرير هانيل حول هذا الموضوع،
ولم يتخذ بشأنه اى قرار لمدة عام واحد ، غير ان ظهور الطامون فى سنة ١٨٣٢
وانتشار هذا الوباء على طول الساحل الفارسى ادى فى ذلك العام الى نقل
المثلثة الى جزيرة أصغر الى الشمال من جزيرة خرك تسمى خاركو، وفى شهر

يوليو اقترح كليو حاكم بومباى الجديد على الحاكم العام التحرك للانحناء بالحكومة الفارسية لى تنازل عن جزيرة خرك أو خاركو (١) وكان رد الحاكم العام هو أن البت فى هذا الموضوع من اختصاص السلطات فى إنجلترا، وبناء عليه فقد بعث كليو فى أكتوبر ١٨٣٢ بمذكرة الى اللجنة السرية ، ضمنها التعليقات والمناقشات التى كانت تدور منذ سنة ١٨٢٨ حول الحصول على جزيرة خرك ودمج ممثلى البصرة وبوشهر فى ممثلة واحدة ، وقد شدد بصفة خاصة على امكانيات خرك كمركز تجرى واستعان بتقرير هانيل بتاريخ مايو ١٨٣١ لتوضيح المسألة بالتفصيل (٢) .

ومن المسائل التى ظلت تشغل بال حكومة بومباى قبل سنة ١٨١٢ واستمرت تشغلها لفترة تالية من الوقت ، هو ما يتعلق بالنظام الادارى لممثلة الخليج، ونوع اختيار المقيمين البريطانيين ومساعدتهم . فقد كانت التعليمات التى تلقتها الهند من الحكومة البريطانية سنة ١٨٢٥ تطالب حكومة الهند باجراء تخفيض فى عدد العسكريين العاملين فى الوظائف المدنية ، وقصر الوظائف الجديدة على الموظفين المدنيين ، وفى أكتوبر سنة ١٨٢٦ ابلغ الكونت لاونيل سنانوس الفنسنتون انه كان ينوى العودة الى إنجلترا على الطراد "تولو" ، وأنه سوف يقدم استقالته من منصبه بعد ذلك بقليل . وقد قبل الفنسنتون الاستقالة مع ابداء أسفه عليها ، وعين خلفا له الكابتن دافيد

-
- (١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٧ مجلد ٢٧ رقم ٢٥
 فى ١٨٣٢/٦/٢٧ من نوريى الى سكرتير الحاكم العام بومباى ١٨٣٢/٦/٢١ .
 (٢) سجل الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٦ (١) من الحاكم
 الى اللجنة السرية ١٨٣٢/١٠/١٧ (رقم ٣ الادارة السرية) .

ويلسون من الفرقة السابعة لمشاة بومباي (١) غير أن اختيار ويلسون لقي معارضة من أحد أعضاء المجلس وهو ريتشارد جودون بحجة أنه كان يتعارض مع التعليمات التي أصدرها أعضاء مجلس الإدارة في العام السابق وأشار جودون الى أنه قد سبق ان خولفت هذه التعليمات في شهر فبراير عندما تم تعيين الكابتن هانيل من الفرقة الثانية عشرة مشاة بومباي في منصب مساعد المقيم الجديد وهي الوظيفة التي انشئت حديثا ، وكان رأى الفنستون انه في الوقت الذي تشمل تعليمات مجلس الإدارة بخصوص تعيين العسكريين نصف جملة المناصب السياسية في حكومته ، الا ان المثلثة تعتبر التعيين فيها قضية خاصة بمعنى أن الوظيفة ذات طابع عسكري في الأساس ، باعتبار أن وظيفة المقيم هي مراقبة النشاطات العدوانية التي تجرى بين القبائل البحرية للخليج واتخاذ الاجراءات التأديبية ضدها اذا كانت تهدد الأمن في الخليج . وبالإضافة الى ذلك فانه لا يوجد أى موظف له في الخدمة أكثر من سبع سنوات لشغل الوظيفة التي شغرت باستقالة ستانوس ، بينما الكابتن ويلسون يعتبر من الأشخاص المطلعين على شئون الخليج حيث ان شغل منصب السكرتير العسكري للسير وليم كير خلال حملة ١٨٢٨ ، كما ان ستانوس نفسه ، شحه لهذا المنصب ، وقد أيد فرانسز واردن السكرتير الأول السابق لحكومة بومباي "وأخذ أعضاء المجلس أيد جودون في هذه المسألة بحجة ان النقص الشديد في ضباط جيش بومباي لا يسمح بالاستغناء عنهم لشغل مناصب سياسية ، غير أن الفنستون رفض هذا النقد وكان

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباي حلقة ٣٨٦ مجلد ١٧ رقم الوحدة ٣ في ١٨٢٧/١/١٧ من ستانوس الى نيوهام ١٨٢٦/١٠/٢٠ ومحضر الفنستون ١٨٢٦/١١/٢٢ .

أحد عشر ضابطاً فقط من جهاز حكومة بومباي يشغلون الوظائف المدنية وأن ثلاثة من هؤلاء فقط عينوا أثناء حكم الفنستون وقد ظل هذا الموضوع رهن النقاش طول شهر ديسمبر ١٨٢٦ ، ولكنه لم يمنع حاكم بومباي من تعيين ويلسون كمقيم في الخليج في يناير ١٨٢٧ .

وقد أعيد بحث هذا الموضوع بعد أربع سنوات عندما قدم ويلسون استقالته لأسباب صحية ولما كان مالکولم يرى أن الأوضاع في فارس تتطلب أن يكون المقيم المعين ذا خبرة بشئون المنطقة فقد اختار الدكتور جون مكنيل طبيب البعثة البريطانية في طهران لشغل المنصب ، وقد ثبت كليلر هذا التعيين عند وصوله إلى بومباي في شهر مارس ١٨٣١ ثم صادق الحاكم العام عليه فيما بعد ، لكن عضوين من المجلس وهما جون رومر وجيمس سزولاند اعترضوا على اختيار طبيب لشغل منصب عسكري في الوقت الذي يحرم فيه الموظفون المدنيون من هذه المناصب ، وذكر أنه بالنظر إلى كثرة الموظفين المدنيين الشبان في بومباي لم يتح لأى منهم شغل أى منصب في الممثلة البريطانية في الخليج (١) وكان لهذا الاعتراض أثره فقد قرر كليلر إحالة موضوع تعيين مكنيل إلى أعضاء مجلس الإدارة في أغسطس سنة ١٨٣١ ولكن سبق وصول رسالته إلى أعضاء مجلس الإدارة أن تلقى خذلاً من أعضاء مجلس الإدارة يأمرونه فيه بدراسة موضوع تعيينات الضباط العسكريين في الوظائف المدنية واستعادة الأشخاص الذين لم يعد هناك سبب لاستمرارهم في وظائفهم من تلك التعيينات ، وفور تلقيه رسالة أعضاء مجلس الشركة ودون انتظار رد منهم على رسالته الغى كليلر تعيين

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلد ١٥ من الحاكم إلى مجلس الإدارة ٢٣/٨/١٨٣١ رقم ٢٢ الإدارة السياسية) .

- ٤٣٥ -

مكنيل واختار بدلا منه دى . ايه . بلين وكان قبل ذلك يشغل منصب المعتمد السياسى فى كاثياوار ، ولكنه لم يوافق على استبدال اللفتنانت هانيل المعين مساعدا مقيما بالنظر الى خبرة هانيل بالخليج ومعرفته بأهل البلاد وبعاداتهم وعلى العكس فالبرغم من المحاولات التى كانت قائمة يومئذ لضغط مصروفات المثلية فى بوشهر قرر كليز رفع مرتب هانيل الى درجة تتناسب مع مركزه ومؤهلاته (١) وكان بلين هو أول وآخر الموظفين المدنيين الذين عينوا فى المثلية البريطانية فى الخليج وعندما اضطر لأسباب صحية الى تقديم استقالته فى ديسمبر ١٨٣٤ عادت حكومة بومباى الى اسلوب تعيين ضباط عسكريين لمنصب المقيم فاختارت جيمس موريسون من الفرقة الثانية لخيالة مدراس وبقيت متمسكة بهذا الأسلوب طوال بقية القرن (٢) .

فى فبراير سنة ١٨٣٤ أصدر مجلس الادارة قراره بشأن دمج ممثليتى البصرة وبوشهر وفى موضوع الاستيلاء على خرك كموقع لمثلية مشتركة ولم ينتبه أعضاء مجلس الادارة الى أن المكاسب التى سوف تنتج

(١) من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣١/١٢/٣٠ (رقم ٤١. الادارة السياسية) ويبدو أن كليز قد غير موقفه تجاه المثلية فى الخليج . فعلى حين أنه قد انتقضى ارتفاع نفقات المثلية عند وصوله فى مارس ١٨٣١ (وكانت فى حدود ٤١٥٠ روبية فى الشهر) فإنه عاد نفس العام فوافق على الكادر الجديد للمرتبات والمصروفات السياسية لبومباى مجلد ١٥ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣١/٨/٢٣ (رقم ٢٢ الادارة السياسية) و ١٨٣١/١٢/٣٠ رقم ٤١ الادارة السياسية .

(٢) سجل الرسائل السياسية لبومباى مجلد ١٨ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣٥/١٢/٨ (ورقم ٥٨ الادارة السياسية) .

- ٤٣٦ -

من الاستيلاء على خرك سوف ترجح تكاليفها ولهذا فقد رفضوا الاقتراح (١) وقد رأى الاعضاء أن الأحوال المضطربة في بغداد لم تكن تسمح في تلك الظروف بالتفكير في نقل مقر المثلية من البصرة وأنه عندما تعود الأحوال فيها الى وضعها الطبيعي فعندئذ يمكن التفكير في دمج المقرين في مقر واحد. وعلى هذا الأساس فقد تقرر أن تبقى المفوضية في بوشهر حيث هي ، غير أن أعضاء مجلس الإدارة كانوا قلقين من احتمال وهو الاحتمال الذي تنبه اليه كل من مالكونم والسير جون مكدونالد أحد الوزراء المفوضين السابقين في فارس ، أن يؤدي وجود ممثل بريطاني مستقل على الساحل الفارسي مع وجود مفوض لها في طهران الى تداخل العلاقات مع السلطات الفارسية وعلى الأخص مع أمير فارس . وكحل لذلك اقترحوا تعيين الممثل في بوشهر مساعدا للمفوض في طهران الأمر الذي يخضع المصالح البريطانية في فارس والخليج لاشراف واحد وسيمنح المقيم قدرا من الصلاحيات في الاشراف على الشؤون الأخرى في قضايا القرصنة التي فوض بالتصرف فيها دون الرجوع الى طهران غير أنه لم يخول سلطة التخاطب المباشر مع أمير فارس أو مع أى سلطة فارسية أخرى في المسائل التي لا تتعلق بالقرصنة أو سلامة الرعايا البريطانيين وممتلكاتهم .

وفي التقرير الذي اعده كليلر لتقييم اقتراحات أعضاء مجلس الإدارة لخص موقفه في الفقرة الأولى من التقرير الذي جاء فيها « أنه يبدو أن أعضاء مجلس ادارتكم قد وضعوا تقييما موضوعيا للمهام التي سوف

(١) من التقارير السياسية الى بومباي مجلد ٤ من مجلس الإدارة الى

الحاكم ١٨٣٤/٢/٢٦ (رقم ٤ الإدارة السياسية) .

تضطلع الممثلية بها في بوشهر غير اننا نعتقد أن الاقتراح الخاص بتغيير وظيفة المقيم الى وظيفة مساعد مفوض للمفوض العام في طهران يتعارض مع هذا التقييم (١) وعند استلام كليم رسالة أعضاء مجلس الإدارة قام بتحويلها الى بلين المقيم المتقاعد لبدء الرأي فيها غير أن بلين وجد فيها كثيرا من الصعوبات في فهم الأسباب التي جعلت أعضاء مجلس الإدارة يتصورون أن وجود ممثلية مستقلة في بوشهر قد يؤدي الى تعقيد العلاقات البريطانية مع فارس ، وتسأل بلين عن الأسباب التي تقرر تعيين المقيم البريطاني في بوشهر مساعدا للوزير المفوض في طهران فقد كانت طبيعة العمل في المثلية تختلف اختلافا كبيرا عن العمل الدبلوماسي للوزير المفوض في طهران ، كما أن التعليمات الخاصة بعمل المقيم كانت تمنعه من التدخل بأي شكل من الأشكال في سياسة الحكومة الفارسية . وأضاف بلين بأنه من المشكوك فيه أن يستطيع مجرد موظف بدرجة مساعد وزير مفوض أن يقوم بالاشراف على الأمن في منطقة الخليج بصورة مرضية لأن هذه المهمة تتطلب في المقيم أن يكون لشاغلها الخبرة والرتبة والمهبة التي لا تتوفر في الموظفين من ذوي الرتب الأصغر . إن المحافظة على الأمن في منطقة الخليج يعتمد بدرجة كبيرة على توقيع العقوبات الفورية على المعتدين الأمر الذي يتعذر تحقيقه فيما لو تعين على المقيم أن يحيل الموضوع الى طهران . والمعروف أن إيفاد رسول لهذه المهمة يستغرق شهرا واحدا لقطع المسافة من بوشهر الى طهران وقد يستغرق وقتا أطول في فصل الشتاء بينما في إمكان الطراد اذا غادر بومباي أن يصل الى بوشهر فيما بين ١٢ ، ١٥ يوما تقريبا ويعود في خلال شهر وعلى عكس طهران فان بومباي

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلد ١٨ من الحاكم الى

مجلس الادارة ١٦/٩/١٨٣٥ (رقم ٣٣ الادارة السياسية) .

- ٤٣٨ -

هى المركز الذى تصدر منه الأوامر والتعليمات والمساعدات الى منطقة الخليج أما الاعتراض الآخر الذى رآه بلين - وهو اعتراض له أهميته بالنظر الى مطالبة فارس بالبحرين والمحاولات اليائسة لأمير شيراز لاحتلالها - هو ان الوزير المفوض قد يعاني كثيرا من الحرج اذا عهد اليه بالاشراف على الحامية فى الخليج خصوصا وإن الاشراف على الحامية سوف يعهد به اليه فى الوقت الذى يقوم بالاشراف على أعمال الممثلة فى الخليج . وقد استطاع الوزير حتى ذلك الوقت ارجاء النظر فى طلب الحكومة الفارسية الحصول على بعض السفن التابعة للأسطول الهندى بحجة انه لا سلطة له على طرادات الشركة (١) وقد وافق كلير على رأى بلين وقال « أنه من الافضل لنا بأن نعيد النظر فى الموقف الذى اتخذناه فى الخليج حتى لا يتسبب فى الاضرار بكفاءة النظام المتبع حاليا ، وكان ذلك فى أغسطس ١٨٣٤ .

الى هذا الحد كان كلير يعارض اقتراح مجلس الإدارة وكان مصمما على انه فى حالة وضعه موضع التنفيذ أن يتقدم باقتراح بنقل مسئولية الاشراف على الخليج الفارسى الى حكومة الهند التى كانت تشرف على المفاوضات فى طهران أيضا ولعدم تدخل حكومة بومباى بعد ذلك فى شئون الممثلة فى بوشهر ، فاذا كان الهدف من اقتراح مجلس الادارة هو اخضاع الممثلة لسلطة المفاوضات فى طهران من أجل التوفير فى النفقات فانهم سوف

(١) مجموعة المجلس مجلد ١٥٣٩ رقم ٦١١٦٥ من بلين الى كلير ١٨٣٤/٦/٤ وقد تم تغيير اسم بحرية بومباى الى اسم (الأسطول الهندى وذلك فى يوم ١٨٣٠/٥/١ تقديرا لدورة الشجاعة فى المياه الشرقية لأكثر من مائتى عام .

يمنون بخيبة اذا تبين أن المبالغ التي يمكن توفيرها من هذا الاجراء لا يتجاوز ١٠٠ روبية في العام .

ونتيجة للتغير الذي طرأ على المسؤوليات السياسية في الخليج وفقاً لأحكام القانون الصادر في سنة ١٨٣٤ فقد أضيف عنصر جديد الى القضية. وعملاً بالصلاحيات الواردة في أحكام هذا القانون تولى بنتنك سلطة مباشرة على الممثلين في بوشهر والبصرة بعد اقتناعه برأى كلير فأصدر تعليماته الى المقيمين البريطانيين بالتخاطب مباشرة مع حكومة الهند (١) وقد شجع قرار الحاكم العام في أعقاب وصول مقترحات مجلس الادارة شجع كلير الى ان يصرح بأن شئون ممثلى البصرة وبوشهر لم تعد من اختصاص حكومته وأنه اعتباراً من ذلك اليوم سوف يحيل مراسلات المقيمين البريطانيين الى حكومة كلكتا ، ويحتفظ بنسخ منها لديه (٢) وعندما علم بنتنك بقرار كلير كتب يطمئنه على أن اشراف حكومة الهند على الشئون السياسية للممثلين لا يعنى تجريد حكومة بومباى من صلاحيتها فى توجيه وتنفيذ السياسة البريطانية فى الخليج وسوف يستمر الحاكم فى بومباى فى تصريف الشئون المحلية البحثه كمكافحة القرصنة وغيرها مما يراها فى المصلحة العامة فيما عدا المسائل التى تمس العلاقات السياسية بدول.

(١) مجموعة المجلس مجلد ١٥٣٩ رقم ٦١١٦٥ من سكرتير الحاكم العام الى الحاكم فى بومباى وفورت وبليام ١٨٣٢/١١/٢٠ .

(٢) مجموعة المجلس مجلد ١٥٣٩ محضر كلير ١٨٣٤/١٢/٣١ .

الخليج عموماً. والتي يتعين عليه اطلاع الحكومة بشأنها (١) ولم يعترض السير روبرت جرانت الذي حل محل كلير في منصب الحاكم العام في شهر مارس ١٨٣٥ على هذا النظام ، وإن كان قد أخطر المقيمين البريطانيين في كل من بوشهر والبصرة بأنه على الرغم من أن قد يتلقون أحياناً التعليمات من حكومة بومباي إلا أنه يتعين عليهم بأن يعيشوا بطلباتهم الى حكومة الهند عن طريق بومباي (٢) ومن الواضح أن الوضع لم يكن ليبقى على ما كان عليه فعلى الرغم من عناد كلير وتردده في العمل بمقتضى النظام الجديد فلم يكن ثمة أدنى شك في أن الحق كان في جانبه .

وفي أوائل شهر أبريل ١٨٣٥ عندما تقرر تعيين موظف ليخلف بلين في منصب المقيم في بوشهر عكف السير شارلس متكاف الحاكم العام على دراسة وضع المثلثة وادارتها من جديد ، وقد خرج من تلك الدراسة بأن النظام الذي أدخله بنتنك يمكن أن يستمر ما لم يرفضه مجلس إدارة الشركة، وفي الوقت نفسه ، ولما كانت حكومة الهند لا تزال تمارس اشرافها على ممثلية الخليج رأى متكاف بأن من حقه تعيين خلف لبلين وبالتالي وافق على اختيار ميجر جيمس موريسون من إدارة مدراس لهذا المنصب أما فيما

(١) المجموعة من دبلوائشه مكاناتهم الى ال . ارد . ريد (سكرتير حكومة بومباي) وفورت ويليام ١٨٣٥/١/٢٨ ومرفقات الخطاب السياسي لحكومة بومباي رقم ٣٣ في ١٨٣٥/٩/٢٦ .

(٢) المجموعة من تشيز نوريس (سكرتير الحكومة) الى المقيم بالوكالة في بوشهر بومباي ١٨٣٥/٣/٢٣ ومرفق الخطاب السياسي لحكومة بومباي رقم ٣٣ في ١٨٣٥/٩/١٦ .

يتعلق بموضوع تحول المقيم الى مساعد وزير مفوض ل طهران فقد وافق متكاف على رأى الاغلبية فى حكومة بومباى بأن الاجراء لم يكن سليما واقترح بأن تكون رتبة المقيم فى المرتبة الثانية بعد الوزير المفوض وذلك فيما يختص بشئون منطقة فارس أما الشئون المحلية التى تمس الخليج وقضية القرصنة فعلى المقيم أن يتخاطب ، كما كان الأمر سابقا ، مع حكومة بومباى مباشرة بشرط أن تحال المسائل ذات الأهمية الى حكومة الهند ، أما اذا طرأت أمور تستوجب اجراء فوريا يستطيع المقيم وعلى مسؤوليته الخاصة أن يتخذ الاجراءات الكفيلة للبت فيها دون الرجوع الى حكومة الهند (١) .

ولقد قطع متكاف شوطا طويلا فى وضع التنظيمات الادارية الخاصة بممثلة الخليج ومسئولياتها غير أنه لم يتم وضع نظام فعال ومرن قبل النصف الأخير من عام ١٨٣٦ ففى مستهل ذلك العام انتقلت عملية الاشراف على المفوضيه البريطانية فى فارس الى وزارة الخارجية مما وضع نهاية للاقتراحات التى دعت الى تعديل منصب المقيم الى منصب مساعد للوزير المفوض فى طهران وعلى خلاف ذلك فقد وافق أعضاء مجلس الادارة على التنظيم الذى اقترحه متكاف للاشراف على المقيم والمعتاد لم يكن يجوز للمقيم بموجب ذلك التنظيم أن يتخبر مع السلطات الفارسية مباشرة الا فى

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٧ رقم ١٩ مجلد ٧٤ فى ١٨٣٥/٥/٢٠ ومقتطفات من محادثات الادارة السياسية للحاكم العام بتاريخ ١٨٣٥/٤/٦ كما عرض متكاف انه يمكن توفير نفس المبالغ فى نفقات الممثلة عن طريق الغاء منصب مساعد المقيم بعد سفر هانيل وتركه للوظيفة غير أن هذا الاقتراح لم يوضع موضع التنفيذ مما اضطر هانيل أن يستمر لفترة من الوقت فى عمله .

اطار المسائل الخاصة بالقرصنة أو بسلامة الرعايا البريطانيين فى اقليم فارس . اما اذا رأى المقيم نفسه مضطرا فى أى وقت من الاوقات الى التخطاطب بشأن أى موضوع من الموضوعات فسوف يتعين عليه فى هذه الحالة الرجوع الى الوزير المفوض فى طهران والتقيد بتعليماته (١) وبعد قليل عادت حكومة الهند فأبدت استعدادها للعودة الى النظام المعمول به سابقا ، حيث كان لحكومة بومباى الاشراف المباشر على المصالح البريطانية فى الخليج وأن يكون لها الحق فى اختيار المقيم وفى تعيينه ، وفى شهر سبتمبر سنة ١٨٣٦ أعيد العمل بالنظام القديم وقد أشار السير روبرت جرانت فى وقت ما من ذلك الشهر بقوله (يجب أن نعمل بأنفسنا لأنفسنا) فى جميع القضايا الهامة أو التى تتعلق بالأمور السياسية فيجب أولا ان نحيل المسائل الى حكومة الهند اذا كان الوقت يسمح بذلك ، أما اذا لم يكن الوقت يسمح فيتعين علينا أن ندرس وننفذ على مسئوليتنا الخاصة .

وربما كان لثورة بنى ياس فى سنة ١٨٣٥ ومبادرة السلطات المسئولة فى بومباى لقمعها - رغم أنه لم يرد ذكر مباشر لذلك فى المراسلات الخاصة بالمثلية والتي تم تبادلها بين بومباى وكلكتا فى سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٣٦ - تأثير كبير فى اقناع حكومة بومباى بصواب ابقاء ادارة شئون الخليج فى أيدي الذين كانوا مسئولين عنها فى السنوات السابقة .

(١) من التقارير السياسية المرسله الى بومباى مجلد ٥ من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨/٦/١٨٣٦ (رقم ٣ الادارة السياسية) .

الفصل السابع

الطريق الى الهند

١٨٢٦ - ١٨٣٦

« يمكن اعتبار كل من تركيا وفارس منطقتين عازلتين بالنسبة للهند البريطانية ، وبالتالي فإن وقوع أى من هذين البلدين فى أيدي دولة أوربية سوف يعرض الهند للخطر من حيث أنه سيجعلها منطقة مكشوفة أمام أى غزو تقوم به تلك الدولة للهند ، وانطلاقاً من هذا فإن سياسة الحكومة البريطانية تقوم على دعم وتأييد هاتين الدولتين وعلى خلق وتقوية دول أخرى يتحقق من جرائه نفس الغرض » (١٨٠٧) (١) .

جون مالكولم ١٨٠٧

بعد عام ١٨١٥ ، أخذت المصالح البريطانية فى فارس تتقلص بدرجة سريعة ، وذلك أن الأسباب التى أملت تلك العلاقة مع حكومة فارس قبل بضعة أعوام ، عندما كانت فرنسا تحتل مركزاً هاماً لدى حكومة الشاه ، وكان الروس يتوغلون داخل الأراضى الفارسية بإقليم القوقاز ، هذه الأسباب قد تبخرت بعد هزيمة نابليون وتوقيع معاهدة جوليستان بين فارس ،

(١) متفرقات فى رسائل الحكومة البريطانية مجلد ٧٣٧ من مالكولم

الى بى . امون ستون سكرتير الحاكم العام ميسور فى ١٢/٨/١٨٠٧ .

وروسيا عام ١٨١٣ . وبالرغم من أن روسيا كانت فى ذلك الوقت الدولة الكبرى التى يمكن أن ينطلق الخطر منها على الهند إلا أن هذا الخطر قد تلاشى بعد إبرام معاهدة طهران لعام ١٨١٤ ، والتى ألزمت الشاه بالتصدي لآى جيش أوربى يحاول العبور من بلاده لغزو الهند . وفى مقابل هذا الشرط وعدت بريطانيا بتقديم مساعدتها الى الشاه فى حالة تعرض فارس للهجوم من أى دولة أوربية . وقد تحسنت علاقات بريطانيا بروسيا بعد عام ١٨١٥ ، وأصبح الرأى السائد فى الدوائر الهندية أن قيام الروس بمثل هذا الغزو لم يعد أمرا واردا فى تصوراتهم ، وحتى لو كان هذا الافتراض فرضا صحيحا فقد كان فى الامكان مواجهة ذلك الغزو عند نهر ستلج ، والواقع أن بريطانيا لم تكن ترغب فى انتهاج (سياسة المواجهة مع) عن طريق مد حدود الهند البريطانية الى ما وراء نهر ستلج أى الى حدود الهند الطبيعية عند سلسلة الجبال التى تحيط بالهند من الغرب (١) والشمال كما أنه لم تبدل جهود فعلية من جانب الحكومة البريطانية فى الهند لتدعيم الأحلاف الدفاعية مع الدول الواقعة فى منطقة شمال غرب نهر ستلج والتى كانت على حد رأى ويلسلى تمثل المنطقة العازلة بين الهند وجاراتها . وكانت فارس وهى أهم تلك الدول قد وصلت بسبب سياسة التواكل والاهمال إلى حالة من اليأس والتدمير . وقد فشلت البعثات التى أوفدها الشاه الى إنجلترا فى اقناعهم بالمصلحة المشتركة التى تربط بين الدولتين

(١) سياسة التهدة والاكتفاء وهى السياسة التى أعلنتها حكومة الهند عام ١٨١٨ وهى سياسة تخدم مصالح الشركة وأهدافها فضلا عن كسبها للرأى العام بجانب تطبيق القوانين الدستورية وفقا لما تقضى به حكومة الهند .

فى مقاومة الاطماع الروسية فى القوقاز وبحر قزوين . وفى عام ١٨٢٣ كشف قرار نقل عملية الاشراف على المفوضية البريطانية فى طهران من الحكومة الى الشركة ، عن استخفاف بريطانيا لمصالحها فى فارس .

غير ان اندلاع الحرب او بعبارة أدق استثنائها بين روسيا وفارس عام ١٨٢٦ لم يغير فى ذلك الموقف كثيرا . وقد توافق نشوب الحرب مع تولى جورج كاننج وزارة الخارجية البريطانية ، كما توافق مع وصول طلب الشاه للمساعدة من الحكومة البريطانية ، بموجب نصوص المعاهدة . وقد كان كاننج يسعى الى الوصول الى التفاهم مع الروس حول المسألة اليونانية ، ولم يكن يرغب أن يقضى على فرص النجاح فى مساعيه لتحقيق استقلال اليونان ، وفى نفس الوقت أن يحول بين قيصر روسيا وتفتيت الامبراطورية العثمانية ، باضطرارها الدخول فى حرب ضد روسيا فى آسيا . وقد توصل الى مخرج من هذه الورطة باعتبار حكومة فارس هى المسئولة من الناحية التكنيكية عن بدء الحرب ضد الروس ، وقد أدلى بهذا التصريح حتى لا تطالب فارس بالمعونة البريطانية . وبعد عامين من هذا التاريخ حذفت الفقرة الخاصة بالمعونة فى معاهدة طهران بعد أن تعهدت بريطانيا بتقديم دعم مالى الى حكومة فارس .

وقد كتب رولنسون فى هذا الصدد يقول : لقد نزلنا عليهم نزول الصاعقة وبسرعة تمكنا من ابرام صفقة غير عادية ومربية فى نفس الوقت ، لقد كان الفرس فى حالة يائسة تشبه دانيا فى الاسطورة الاغريقية (١)

(١) اسطورة اغريقية مفادها ان فتاة عذراء اسمها دانيا كانت مسجونة من قبل والدها اكلسيوس فى قبة من النحاس وكان والدها ملك ارجوس وقد عاشرها زيوس فى هيئة وابل من الذهب وأصبحت اما لبرسيوس .

- ٤٤٦ -

على أن الصفقة التي فازت بها روسيا بموجب معاهدة تركمان شاي المعقودة في شهر فبراير ١٨٢٨. والتي وضعت حدا للحرب بينها وبين فارس كانت ضربة قاسية على فارس ، فقد أرغمتها على تأكيد تنازلها عن المنطقة التي اقتطعتها روسيا بموجب معاهدة جولستان بالإضافة الى التنازل عن أرض جديدة لروسيا ودفع تعويضات باهظة لها . وما كادت أخبار معاهدة تركمان شاي تصل الى لندن في نهاية ابريل ١٨٢٨ حتى أعلنت روسيا الحرب على تركيا بسبب المشكلة اليونانية واكتسحت الجيوش الروسية ولايات الدانوب . وقد بدأ في اللحظة الاولى كما لو كانت روسيا على وشك أن تنقض على العالم الاسلامي في أوروبا وآسيا (١) وقد أحييت هذه التطورات احتمال غزو أوروبا للهند ، كما أطلقت العنان لسلسلة من التحركات السياسية الناجحة في الشرق من جانب المسئولين البريطانيين وانتهت بقيام بريطانيا بقصف منطقة النقب والهجوم على كابل في أفغانستان . وكان طبيعيا أن يصاحب مخاوف البريطانيين من غزو على الهند تكهنات حول الطريق الذي سوف يسلكه مثل هذا الغزو . ولعل نظرية دي لاسي ايفانز الى وردت في مؤلفيه « الاطماع الروسية » الصادر عام ١٨٢٨ و « احتمالات غزو الهند البريطانية » الصادر ١٨٢٩ قد لقيت رواجا كبيرا في كل من من إنجلترا والهند في أواخر العشرينات ومستهل الثلاثينات من القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن ايفانز كان يشك في قدرة الروس على

(١) « اللعبة الكبرى في آسيا » ١٨٠٠ - ١٨٤٤ من محاضرة آتشه .

دبليو . س . دافيز في قاعة رالي عام ١٩٢٦ وقد أعيد طبعها في محاضر الأكاديمية عام ١٩٢٧ ص ٩ .

تسير جيش الى منطقة بعيدة عنهم كالهند . فقد كان يعتقد بأن هذه المحاولة لو تمت فان الطريق المحتمل أن يسلكها الجيش هي طرق كيغا وبخارا ثم نهر الاندس . أما الاحتمال الثاني فهو طريق فارسي ، الحيرة فقندهار ولقد وجدت آراء أيفانزا صدى عند اللورد الينبورو الذي تولى رئاسة مجلس الهند في شهر سبتمبر ١٨٢٨ خلال وزارة ديوك أوف ولنجتون . ومنذ أن تولى الينبورو منصبه وهو يبدي معارضته للمحافظين من أمثال كاتنج الذين كانوا لا يمانعون في اخضاع المصالح البريطانية في آسيا لسياستهم الأوروبية . وكان رأيه بأن دعاة سياسة أسيوية لن يسكتوا لو قدر للروس أن يحتلوا الصين غير أن المنادين بسياسة أوروبية لن يتمكنوا من التحرك فيما لو دخل الروس كابل (١) أما الينبورو فلم يكن يخشاه الشك في ان الروس واصلون في النهاية الى كابل . فبعد قراءته لكتاب أيفانز الثاني كتب في مذكراته يوم ٣٠ أكتوبر ١٨٢٩ يقول :

« حول موضوع غزو الهند فان هذه الفكرة ليست ممكنة فحسب بل وسهلة أيضا إلا اذا عقدنا العزم على أن نتصرف كدولة أسيوية . ففي مقابل احتلال الروس لمنطقة كيغا يجب أن نحمل نحن لاهور أو كابل . أن مواجهة العدو لن تكون على نهر الاندس فاذا لم نواجهه في كابل وعلى سفوح جبال هندوكوش وفي ممراتها فالأفضل لنا ان نبقي في ستلج . لأن الروس اذا نجحوا في احتلال كابل فان وجودهم هناك يجعلهم أمام الاندس ريثما

(١) «مذكرات سياسية» ١٨٢٨ - ١٨٣٠ ادوارد لو البارون الثاني واراف الينبورو الأول تصنيف اللورد كولسنشتر مجلدان طبعة لندن ١٨٨١ فصل ١٢٢ - مذكرات يوم ٢٦/١٠/١٨٢٩ .

يتمكنون من تنظيم وحدات للعمل وراء خطوطنا واعادة تسليح قواتهم » (١) .

وعلى اى حال فان الخطر المباشر كما تبين الينبورو انما يكمن فى الامتيازات التى حصلت عليها روسيا الآن بحكم معاهدة تركمان شاي . وكان السير جون مالكولم قد أشار عام ١٨٢٦ قبل بدء الحرب الفارسية الى أن أى سيطرة روسية على حكومة طهران سيكون له تأثير سلبى على الحكم البريطانى فى الهند . وقد يكون الوقت لا يزال بعيداً لشن هجوم خطير على ممتلكاتنا فى الهند ولكن هذه الممتلكات قد تتعرض لتهديدات وأخطار كثيرة لا وجود لها فى الوقت الحاضر ، مما سيضعف من تكاليف وصعوبة السيطرة على هذه الممتلكات الى حد كبير ، وعلى حد رأى مالكولم فان القوة البحرية وحدها غير كافية لحماية الهند من الغزو ، ولا يمكن لآى دولة أن تجنى أى فائدة من الهند أو بالأحرى تحتفظ بها دون أن تكون لها السيادة على البحر ، غير أن هذه الاعتبارات قد لا تعوق روسيا اذا كانت فى حرب مع انجلترا ، من محاولة اضعافنا عن طريق الضغط علينا فى تلك البلاد . ان خط الدفاع عن الهند هو فارس . ولهذا فانه لزاما على انجلترا أن تحمى استقلال فارس من روسيا . وانه لمن الخطا الجسيم أن نتصور باننا لا نمتلك الوسائل لمساعدة فارس حتى تستطيع مقاومة الروس

(١) كان الينبورو متأثراً برأى السكرتير المساعد لمجلس الهند بنجامين جونز الذى كان ينادى منذ زمن ببدء النفوذ البريطانى الى ما وراء الاندس : ان كابل وقندهار هما بوابتا هندوستان (راجع شركة الهند الشرقية ص ٤٦٨ فيليب) ١٣ من تقارير ومراسلات ومذكرات الفيلد مرشال آرثر ديوك اوف ولنجتون تجمع نجله ديوك اوف ولنجتون ٨ مجلدات طبعة لندن ١٨٦٧ - ١٨٧٣ فصل ٣ من مالكولم الى ولنجتون ١٨٢٦/٢/١٦ .

فنحن نسيطر بالكامل على الخليج ، وهو بالنسبة لنا كبحر قزوين بالنسبة للروس . ولدينا رصيد محلى من الثقة يفوق كثيرا الرصيد المالى .

على ان ولنجتون الذى وجه اليه مالكولم هذه الملاحظات عجز عن تحديد موقفه من حقيقة التهديد الروسى للهند . صحيح ان ولنجتون كان يكره روسيا . وكان متفقا من حيث المبدأ مع وجهة نظر مالكولم (١) الا أنه لم يكن يحبذ النفقات المالية التى اقترحها مالكولم (٢) أما الينبورو فلم يكن يعانى من تلك العقدة . لقد كان الروس فى تقدمهم الى نقطة لا تبعد أكثر من ٣٠٠ ميل من الموصل حيث يلتقى نهر الفرات مع الخليج الفارسى ، مما اثار مخاوف ولنجتون . من الايتوقف الزحف الروسى عند ذلك الحد ، وازاء اعتراضات ولنجتون أرسل الينبورو تعليمات الى الحاكم العام فى شهر أغسطس ١٨٢٩ ليزود شاه فارس بـ ١٢٠٠٠ بندقية وايفاد ضباط من الجيش البريطانى الى فارس . على نفقة الحكومة البريطانية اذا اقتضى الأمر لتدريب الجيش الفارسى . وفى الشهر التالى أعلن أنه لو حاول الروس الزحف نحو الخليج عن طريق العراق .

(١) اننا مهجتون جدا بالحفاظ على استقلال فارس هذا ما ذكره مالكولم .
اكانيج فى يناير ١٨٢٧ ونحن ملتزمون بذلك من الناحية السياسية والحفاظة على الشرف « تقارير ومراسلات ولنجتون » فصل ٣ ص ٥٣٩ - ٥٤٠ .

(٢) انظر العلاقات البريطانية الفارسية « من ١٨١٥ - ١٨٤٠ » بقلم سى . جى . كورلى فى المجلة التاريخية لجامعة كمبريدج الجزء الثالث ص ٥٠ - ٥١ (١٩٢٩ - ١٩٣١) .

(٢٩ - بريطانيا والخليج)

هسوف يحتل جزيرة خرك واغلاق الفرات فى وجههم (١) .

وعلى أى حال فان التكهّنات فى غزو الروس للهند ، لم تكن هى السبب فى بحث المصالح استراتيجية البريطانية فى الخليج ، وفى أواخر العشرينات من القرن التاسع عشر ، وانما يعود ذلك الى تطور الملاحة البخارية ومحاولة استغلال تلك الوسائل لانشاء طريق للمواصلات يربط الهند بانجلترا . وكان ثمة طريقان واضحان لانشاء تلك المواصلات ، الطريق البرى عبر مصر والطريق المباشر عبر روسيا والعراق والخليج وقد استخدم الطريق الثانى كثيرا فى غضون القرن الثامن عشر لنقل البريد الى الهند . فالظاريّف كانت ترسل بانتظام من لندن الى بيت اخوان سمثتر فى فينا ، ومن هناك كانت تجد طريقها الى القسطنطينية وحلب ودمشق والبصرة وأخيرا بومباى (٢) . وخلال الاحتلال الفرنسى لمصر من ١٧٩٨ الى ١٨٠١ لم يستخدم طريق الصحراء

(١) جزء ٢ ص ٩٢ - ٩٣ مذكرة يوم ٣ سبتمبر ١٨٢٩ . كان مالكولم أول من نادى بهذه الفكرة وقد تبناها فى شهر سبتمبر ١٨٢٨ أما فى الهند فلم يكن أحد يتوقع وصول الروس وفى شهر يوليو عام ١٨٢٨ كتبت احدى صحف بومباى تطمئن قراءها وتقول (ان الروس لم يصلوا بعد) وسوف ينقضى بعض الوقت حتى يضطر المواطنون الى تخزين موادهم الغذائية ومجوهراتهم عندما تكف صفادع الليل من تشنيف أسماع السكان وتسمع سهيل خيول أبناء القوقاز وهم بالقرب من مضاجعهم (مقتبسة من كتاب « لمحات من بومباى القديمة والهند الغربية » ص ٥٨ طبعة لندن ١٩٠٠ تأليف جيمس دوغلاس) .

(٢) راجع شركة جون واعمالها « تأليف هولدن فريز طبعة كامبردج ١٩٤٨ ص ٣٤٢ وبحث بعنوان الطريق البرى الى الهند فى القرن السابع عشر والثامن عشر مجلة تاريخ الهند مجلد ٢٩ ١٩٥١ ص ١٢١ - ١٢٤ .

٤٥٩

السورية الا بصفة نادرة (١) وعندما اثار ادخال الملاحة البخارية خلال العقد التالي من القرن احتمال نقل البريد بشكل أسرع بين انجلترا والهند تركزا الاهتمام في أول الامر على طريق البحر الاحمر . وفي شهر مايو ١٨٢٢ اقترح كل من مونستوت الفستون واللورد امهرست الحاكم العام للهند على مجلس ادارة الشركة أن تقسم الملاحة على جانبي برزخ السويس لكي تكون هناك خدمة يريدية شهرية الى بومباي . فاذا حال وقوع اضطرابات في مصر من ارسال البريد بالطريق البري في أى وقت من الاوقات فيمكن ارساله عن طريق البصرة . اما رجال الشركة فلم يحبذوا المشروع وبالتالي لم يوافقوا على تخصيص الاعتمادات اللازمة لذلك المشروع (٢) .

عند تولى مالكولم منصب الحاكم في بومباي خلفا لالفستون تحمس لمشروع الملاحة البخارية الى حد كبير وبرغم أنه كان يفضل الطريق البحري ، أنه لم يكن يفضل أهمية الطريق الثاني وعلى الاخص من الوجهة السياسية . وفي عام ١٨٢٩ أرسل مالكولم اثنين من خبراء المسح هما بو. وانز. واليوت للتأكد من صلاحية الخليج ، وان أمكن نهر الفرات للملاحة البخارية . وقد أكد بو. وانز. في تقريره حول هذا الموضوع أن الخليج صالح للملاحة في جميع الاوقات ولا خطر حتى في أسوأ الأحوال الجوية ، ولهذه الاسباب فقد فضل هذا الطريق على البحر الاحمر (٣) وكنتيجة لتقرير بو. وانز تم ايفاد

(١) الطرق البريطانية الى الهند . اتشه. ال هوسكنز طبعة لندن ١٩٢٨

ص ٢١ يونيه ١٩٤٧ .

(٢) هوسكنز ص ٩١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٣) فارس والخليج مجلد ٤٦ آراء جول الخليج والبحر الاحمر .
وصلاحياتها للملاحة البخارية بغداد في ١٧/٦/١٨٣٠ .

٤٥٦

الفتنات هنرى اورمبى من الاسطول الهندى فى أواخر العام للقيام بمسح لموانئ الساحل السورى ، وفى نفس الوقت توجه فريق صغير برياسة جيمس تايلور ، شقيق المقيم البريطانى فى بغداد من بومباى بتشجيع من مالكولم لتعزيز محاولات بومبونا وأورمبى لمسح طريق الفرات . وبعد بضعة أشهر لقي تايلور ورفاقه ومن بينهم بوانز مصرعهم على يد بعض قطاع الطرق العرب . وفى شهر أبريل ١٨٣١ خرج اليوت الذى بقى من أفراد البعثة للتوجه الى سوريا لمسح طريق الساحل السورى واصطحب معه اورمبى . وقد وصل الاثنان بيروت فى شهر يونيو بعد عبور الصحراء الكبرى من منطقة حنا على نهر الفرات الى دمشق ، وهو طريق لم يكن يستعمل كثيرا . وفى بيروت تسلم اورمبى التعليمات التى أرسلت اليه أثناء رحلته ، وتطلب منه استكمال عمليات المسح للموانئ السورية بدءا من بيروت حتى الاسكندرونة وأن يسافر بعد انتهاء مهمته عن طريق حلب الى بيروت على نهر الفرات ثم الى الحلة وخلال ذلك عليه أن يفحص بدقة صلاحية المنطقة للملاحة البخارية (١) ولقد تمكن اورمبى من استكمال الجزء الأول من مهمته ، غير أن عداة السكان العرب فى الفرات الأعلى حال بينه وبين اتمام العمل الذى أوكله من أجله .

فى الوقت الذى كانت حكومة بومباى تبذل جهودها للتأكد من القيمة العملية للطريق المباشر كانت الحكومة فى انجلترا قد بدأت تعى الأهمية السياسية والاستراتيجية للمشروع . وهذا الإدراك لأهمية المشروع يعود

(١) مختارات المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد (١) ملخص

من خطاب موجه من القنصل البريطانى فى بيروت ١٨٣٠/٦/١٨ .

فى المقام الاول الى جهود توماس اوف بيكوك ، المكلف بفحص برید شركة الهند الشرقية والذى اشتهر أخيرا بمواهبه كشاعر روائى . ففى أواخر عام ١٨٢٩ سلم بيكوك الى النيبورو مذكرة مطولة تتناول موضوع الملاحة البخارية ، زعم فيه بأن تطوير الطريق المباشر قضية حيوية بالنسبة للمصالح السياسية فى الشرق (١) وقد أبدیت بعض الاعتراضات على قيام السلطات البريطانية بعمليات مسح للطريق المباشر كى لا يودى ذلك الى استفزاز الروس ودفعهم الى الاهتمام بالعراق على حساب الوجود البريطانى فى الهند « ان الروس يتقنون معرفة الجغرافيا كما يعرفون الزايا النسبية للطرق الى الهند معرفة تامة حتى أنهم لا يحتاجون الى من يعلمهم ذلك وعلى أى حال فان طريق كیفاه على حد رأى بيكوك أكثر اقراء للروس فيما لو فكروا فى الوصول الى الهند فما الذى يجعلهم يتآمرون بالزحف عبر الخليج الفارسي ومواجهة التفوق البحرى البريطانى هناك ، وقد ارتأى بيكوك بأن ذلك الاحتمال لا يمكن تجاهله بأى حال ، كما لا يمكن تجاهل التسهيلات المتاحة للروس فى العراق . اما المعدات العسكرية والبحرية فيمكن نقلها بسهولة من الموانئ الجنوبية الشرقية للبحر الأسود الى تلك المواقع التى يلتقى فيها نهر دجلة والفرات ومن ثم يمكن تعويمها من هناك فى صنادل يمكن بناؤها بأعداد كبيرة من الأخشاب

(١) كان النيبورو معجبا جدا بالمذكرة التى ارسلها بيكوك لدرجة انه بعث بنسخة منها الى ولنجتون فى ديسمبر ١٨٢٩ ثم اعيد طبع تلك المذكرة كملحق « لتقرير اللجنة المنتخبة للنظر فى الملاحظة البخارية للهند عام ١٨٣٤ وتختلف الصيغتان احدهما عن الأخرى ولكنه اختلاف طفيف والاشارة هنا هى للنسخة التى أرسلت لولنجتون وتم نشرها فى تقارير ومراسلات ولنجتون الجزء السادس - ص ٣٣٠ - ٣٤٣ .

التي تنمو في جبال أرمينيا . فاذا قرر الروس الاستيلاء عليها فان كل المنطقة الممتدة من البحر الاسود الى الخليج الفارسي ستكون تحت سيطرتهم ، ولهذا فاذا نحن سبقناهم في الاستيلاء عليها فانها سوف تكون لنا . اما الموانئ فيمكن انشاؤها في بغداد والبصرة وفي المناطق الساحلية من البلاد وكذلك يمكن بناء سفن من مختلف الأحجام ، واذا نشبت حرب بيننا وبين الروس وافترضنا أن الروس قد قاموا فعلا بغزو الهند فلا بد في هذه الحالة من الاحتفاظ بأسطول قوى في الخليج كما يتعين علينا أن نبث الوسائل والامكانيات التي تمكننا من منع ذلك الغزو من تحقيق أهدافه . وربما كان احتلال الروس لبغداد والبصرة هو الخطوات التمهيدية للهجوم على الهند . وعلى أساس هذا الافتراض فانه يتعين علينا أن نحتل أى منطقة تقع بالقرب أو عند مدخل الفرات كذلك فان اهتمامنا بالملاحه في نهر الفرات سوف يكون ذريعة لنا لمقاومة أى تيارات قادمة .

وكتأييد لهذا الرأي أشار بيكوك الى رسالة الكولونيل مكدونالد كينبر الذى سبق له أن عبر نهر دجلة على أحد الصنادل قبل ذلك ببضع سنوات (١) وقد أبدى كينبر في تلك الرسالة مخاوفه من أن يفطن الروس قبل وقت طويل الى أهمية دجلة لنقل المؤن والجنود اذا ما فكروا في تحدى النفوذ البريطانى في الهند « اما نهر دجلة فانه يصلح لسير القوارب الكبيرة من منطقة ديار بكر ، كما أن القلعة الموجودة في هذه المنطقة قد انشئت من الأحجار البركانية وتصلح كقاعدة عسكرية . غير أن منطقة الجزيرة هي الأفضل لأن النهر هناك واسع جدا والمسافة من أرض روم ليست بعيدة عنها . ويتعاطى

(١) لم يحدد بيكوك بالاسم صاحب الرسالة ، وان كان قد تبين فيما بعد من الملاحظات التى دونها بان كينبر هو صاحب تلك الرسالة .

٥٥٠-٥٠٤

السكان في تلك المنطقة بناء الصنادل التي يصنعونها من الجلود والأخشاب وفي إمكان هذه الصنادل أن تبحر بشحنات كبيرة فوق المناطق الضحلة للنهر ، أما أنا فقد قطعت هذا النهر من الموصل الى بغداد بمعدل ثلاثة أميال في الساعة وكانت حمولة الصندل الذي انتقلت به بما في ذلك الأمتعة والركاب ثلاثين طنا وقد بنى هذا الصندل في أقل من ١٢ ساعة .

على الرغم من أن الينبورو كان يرى أن طريق البحر الأحمر عمليا أكثر بالنسبة للملاحة (١) البخارية الا أنه قد اقتنع بوجهة نظر بيكو لكي يصدر تعليماته الى الحاكم العام في شهر مارس ١٨٣٠ بأن يضغط على انتهاء عملية المسح للطريقين (٢) البرى والمباشر . وفى نفس الوقت بعث وزير الخارجية البريطانية اللورد ابردين قائمة بمجموعة من الأسئلة أعدها بيكو حول صلاحية الطريقين الى القنصل البريطانى العام ووكيل شركة الهند الشرقية فى مصر ارنست باركر وطلب منه أن يحصل على أجابة الأسئلة ، وبطريق الصدفة كان باركر قد تلقى فى اللحظة نفسها التى تلقى باركر رسالة وزير الخارجية حضر لزيارته فى الاسكندرية الكابتن اف . ار . شيزنى الذى كان قد وصل لتوه من القسطنطينية وكان شيزنى هذا من أشد المتحمسين لاختيار

(١) انظر مذكراته السياسية الجزء الثانى ص ٧٧ مذكرة يوم

١٨٢٩/٧/٢٨

(٢) مسودات المجلس من تقارير ومختارات الى الهند مجلد ٧ مسودة

للكام العام ١٨٣٠/٣/١٤ وكان شارلى جرانت الذى خلف الينبورو فى رئاسة مجلس الهند قد أصدر تعليمات مماثلة الى جاكم بومباى وذلك فى شهر يونيو ١٨٣١ (نفس الحلقات مجلد ٨ مسودة الى الحاكم بومباى

١٨٣١/٦/١٨)

- ٤٥٦ -

الخط المباشر ، وكان قبل وصوله قد تطوع للعمل في القوات التركية في حربها مع روسيا عام ١٨٢٩ ولكنه عند وصوله الى القسطنطينية وجد أن الحرب على وشك الانتهاء ولأنه كان مترددا في العودة الى انجلترا بتلك السرعة بعد وصوله الى تركيا فقد وافق على القيام بالمهمة التي كلفه بها السير روبرت جوردون السفير البريطاني لدى الباب العالي ، وذلك للتعرف على الاقاليم التركية في آسيا وبنوع أخص على امكانيات مصر . وعند وصوله الاسكندرية في مايو ١٨٣٠ حيث علم بأن باركر قد كلف بمعاينة الطرق الى الهند تطوع شيزني بأن يقوم بتلك المهمة بدلا منه وقد قبل باركر تطوع شيزني وبدأ شيزني أول رحلاته الكبرى عبر الطرق الدولية الى الهند (١) .

وقد قام شيزني أولا بمسح برزخ السويس واقتنع بأن طريق مصر والبحر الاحمر لها مزايا عديدة وأخيرا تنبأ بأن كل النظريات عن طريق السويس سوف تؤدي الى تحقيق تلك « الامنية الكبرى » عن شق قناة عبر البرزخ (٢) من مصر توجه شيزني الى سوريا لمحاولة الوصول الى الفرات للتأكد من صلاحيته للسفن البخارية وفي يوم عيد الميلاد عام ١٨٣٠ شاهدت عيناه لأول مرة النهر العظيم وفي اليوم الثاني من يناير ١٨٣١ بدأ جولته في

(١) حياة الجنرال اف . ا . ار . شيزني بقلم زوجته وكريمته اعداد اس . لين بول طبعة لندن ١٨٨٥ ص ١٦٧ - ٢٠٨ انظر كذلك بعثة مسح نهري الفرات ودجله بقلم اف . ا . ار . شيزني .

(٢) مسودات المجلس تقارير ومختارات الى الهند مجلد ٨ مسودة للحاكم العام ١٨٣١/٣/١٤ (رقم ٢٢٩) ومرفق به صورة من خطاب شيزني لجوردون يافا ١٨٣٠/٩/٢ .

النهر من قرية اناح ، وقد استغرقت جولاته أربعة شهور بكاملها وكاد يقطع مهمته عندما علم من تايلور في بغداد عن وصول كل من اور . مسبي واليوت ، ولحسن الحظ أن اور . مسبي واليوت لم ينزلا الى الفرات ولذلك استطاع تايلور أن يقنع شيزني بالاستمرار في عمله حتى وصل في النهاية الى البصرة . وبعد أن بعث تايلور بتقريره الى جوردون رحل عائدا الى القسطنطينية عن طريق فارس وكردستان وشمال سوريا حيث قام بمعاينة المشارف العليا لنهر الفرات . وقد وصل تايلور الى العاصمة التركية في ابريل ١٨٣٢ ، وهناك التقى بالسير ستافورد كاننج الذي كان موفدا في مهمة خاصة . وقد أبدى كاننج اهتماما بالغا بالمنطويات السياسية لمهمة تايلور . وبعد عودة شيزني الى انجلترا في شهر سبتمبر ١٨٣٢ وقدم تقريره عن عمليات المسح الى مجلس الهند ، وبعث بصورة منه الى كاننج . أما كاننج الذي كان وقتها في باريس فقد أرسلها مع مذكرته الشهيرة المؤرخة ١٨٢٣/١٢/١٩ حول وضع الامبراطورية العثمانية الى الفايكونيت بالمرستون من وزارة الخارجية البريطانية (١) .

ان الآراء التي تضمنتها مذكرات شيزني كانت تؤيد الطريق المباشر تأييدا شاملا . وقد اقر شيزني بالأفضلية المطلقة للطريق البري لاعتبارات تكتيكية ، غير أن الاعتبارات السياسية في نظره كانت ترجح الطريق المباشر ، أي احتمال لأن يؤدي استعمال هذا الطريق الى نشر الحضارة بين العرب وتعزيز فرص التجارة وتدعيم موقف الباشا في العراق عن طريق تشجيع

(١) حياة شيزني ص ٢٢٣ - ٢٥٣ تأليف لين بول وأما بالنسبة لمذكرة

كاننج فيمكن الرجوع الى ص ٢٧٢ من الكتاب .

— ٤٥٨ —

السكان والباشا على الدفاع عن دجلة والفرات لأنهما بوضعهما الحالى يمثلان هدفا سهلا لآى غزو من الشمال (١) .

فبالإضافة الى المزايا التجارية والدفاعية ضد أى غزو محتمل ، فان خط الفرات على حد تعبير شيزنى سوف يوسع من الاتصالات بفارس سواء من فارس أو من انجلترا عن طريق انشاء خط المواصلات اما من طهران أو تبريز الى الفالوجة أو مقدم (٢) وكلا الخطين على أساس المستعجل حيث يتم نقل الرسائل خلال سبعة أيام وهكذا فبدلا من أن تتخلف الرسائل وتسلم الى الفالوجة ، فانها سوف تصل الى البعثة فى بومباى خلال ٢٠ أو ٢٢ يوما ، ثم تسلم الى الرئاسة فى ١٧ يوما ، كما تنقل من فارس الى فلموث خلال ٣٤ يوما وفى العود خلال ٣٢ يوما (٣) .

ولعل نقطة الضعف الكبرى بالنسبة لطريق الفرات كما اعترف شيزنى هى غارات القبائل العربية غير أنه كان واثقا من الاحتكام التدريجى بالأوربيين سيحمل القبائل الى التصرف بأسلوب أكثر حضارة ومدنية ، ان هذا ليس هو الوقت لمناقشة ما هو فى مقدورنا أن نقوم به ، وأن نحققه بغير تكاليف ، وذلك باتباع الخطط القانونية لدعم نفوذ الباشا فى بلاد ما بين النهرين ، وأن نشجع الوالى على تنظيم وسائل الدفاع عن البلاد على نطاق واسع ، وعلى الأخص المداخل الحصينة للنهرين ، اللذين نستطيع نحن

(١) مجموعة التقارير حول الملاحه فى الفرات اعداد اف . آر . شيزنى

١٨٣١ — ١٨٣٣ .

(٢) كلتا المنطقتين تقع على نهر الفرات بالقرب من بغداد .

(٣) تقارير شيزنى .

تعزيرها ودعمها عند الضرورة ، وذلك بإرسال الجيوش الجائرة الى مداخلها ، وبالتالي فينبغى أن نلاحظ أنه اذا كانت المواصلات البخارية عن طريق البلاد العربية سوف تدعم من نفوذها في تلك البلاد فان ذلك يشجعنا ويقوى من عزيمتنا لمواجهة مصاعب طريق الفرات وبالتالي نفضل طريق مصر والباهظ للتكاليف في نفس الوقت ، أما الى أى حد كانت تلك الآراء هي آراء شيزنى وحده والى أى حد كانت آراء غيره في الموضوع ، فمن الصعب أن نحدد ذلك فلقد تم اطلاق باركر بآراء شيزنى عن طريق قائمة الاستفسارات التى سلمها اليه باركر فى الاسكندرية كما أنه أعجب جدا بشخصية بيكوك عندما التقى به فيما بعد فى وزارة شئون الهند (١) كما أن جى . دبليو . فارين الذى كان قد عين قنصلا عاما فى سوريا فى بداية عام ١٨٣١ والذى التقى به شيزنى كثيرا فى تنقلاته ، كان من أشد المتخمين لافتتاح طريق القرات . وعندما كتب فارين الى شارلس جرانت رئيس مجلس الهند فى شهر يناير ١٨٣١ يطلب تعيينه وكيلا لشركة الهند الشرقية فى سوريا حاول اقناع الأخير أن تطوير طريق البحر الأحمر لن يخدم مصالح الشركة «ان الاقطار الواقعة حواله أقطار متخلفة وغير منتجة ، ولا ترحب بوجود مثل هذه المشروعات فى مناطقها وعلى العموم فان الطريق الى الهند الذى لا تعتبره الشركة مشروعا سياسيا وتجاريا مرتبط بهذه الاجراء .. (٢) كما صرح

(١) (لقد اكتشفت أنه كان عميق الاطلاع بالتاريخ القديم للفرات) هذا ما سجله شيزنى فى مذكراته يوم ١/١/١٨٣٣ وأنه كان أول من دفع بهذا المشروع الى حيز الوجود ، لين بول ص ٢٦١ .

(٢) مسودات المجلس ومختارات وتقارير للهند مجلد ٨ . مسودة الى الحاكم العام ١٨٣١/٣/١٤ (رقم ٢٢٩) ومرفق نسخة من خطاب فارين الى جرانت ١٨٣١/١/٢٦ .

فارين بأنه بالمقارنة الى الخط الثاني فان الخط الأول لن يتم الا بتطوير الملاحة البخارية عن طريق سوريا والعراق .»

« ستقوم شركة الهند الشرقية بالتوجيه والاشراف على الخط الأول من أوربا الى آسيا الغربية ومع المناطق الواقعة على هذا الطريق التي يتطلب بحث موضوعها ، وكذلك فان الامر البالغ الاهمية للشركة هو أنها ستعالج الموضوعات الخاصة التي تتصل بجميع علاقاتنا ومصالحنا مع فارس وما يتصل منها بمراسلات الحكومة الهندية معها ومع مجلس الادارة وكذلك مع كل من تبريز وطهران وبغداد واصفهان والبصرة وبوشهر » (١) .

وقد دعا شيزنى الى نفس الرأى ولكنه ربما كان مستقلاً فى رأيه هذا، وقد كون آراءه هذه عن مزايىا طريق الفرات فى وقت مبكر ، كما عاد فأدخل تعديلات عليها . وفى أواخر عام ١٨٣١ كتب الكابتن جى . ان . ار . كامبل القائم بالأعمال البريطانى فى فارس الى اللجنة السرية بطلب زيارة شيزنى له فى تبريز . ومما جاء فى رسالته (من الفوائد الكثيرة التي قد تنجم عن قيام اتصالات عادية مع السكان العرب فى هذه المنطقة هي احتمال تحقيق نفوذ سياسى قد يكون بمثابة توازن ضد أى أطماع تبيتها روسيا تجاه العراق » .

وصل تقرير شيزنى الى مجلس الهند فى وقت كان أعضاء المجلس يساورهم قلق شديد حول تدهور النفوذ البريطانى فى الإقطار الواقعة بين منطقة البحر الأبيض المتوسط وبحر قزوين والحدود الشمالية الغربية

(١) نفس المصدر .

(٢) فارس والخليج مجلد ٤٦ من كامبل اللجنة السرية ١٨٣١/١٢/٢٢ .

للهند البريطانية ، وبناء على ايعاز من جرائت قدمت مذكرات عديدة الى المجلس خلال عام ١٨٣٢ وفى الشهور الاولى من عام ١٨٣٣ وقد جاءت تلك المذكرات من السياسيين البريطانيين الذين يعملون فى تلك الاقطار ومن بينهم السير هنرى وبلوك والسير جور أوزلى والمستتر (السير فيما بعد) هنرى اليس وكافة الوزراء المفوضين والقائمين بالاعمال فى طهران والكابتن (السير فيما بعد) جون كامبل مساعد المشرف على المفوضية البريطانية فى فارس ، والميجور دافيد ويلسون المقيم السياسى البريطانى فى الخليج أخيراً والميجور روبرت تايلور المقيم فى بغداد (١) وأن جميع هؤلاء السياسيين بدون استثناء أكدوا على أن الخطر الكامن على النقوذ البريطانى فى الهند هو ازاء التوسع الروسى فى آسيا وبنوع خاص فى فارس وذلك منذ الحملة على كينفا عام ١٨٢٠ وقد نبه كل من أوزلى واليس وكامبل الى أن أى توسع جديد يأتى من جانب الروس لابد من التصدى له عن طريق تطبيق السياسة التى رسمها الينبورو تجاه فارس بعد معاهدة تركمان شاي ، أى تقديم الاموال والاسلحة والضباط الذين يحتاج اليهم جيش فارس حتى يصل الى مستوى يمكنه من مقاومة الروس (٢) . أما اليس فقد كان يرغب بالاضافة الى هذه الاجراءات إعادة البنود الملغاة الى المعاهدة المذكورة ، أما وبلوك فقد

-
- (١) انظر فارس والخليج مجلد ٤٨. (والمذكرة المتعلقة بفارس التى اعدتها فى الدرجة الاولى المستر اليس وذلك بشأن اتخاذ بعض الاجراءات الحاسمة فيما يتعلق بالمعاهدة مع تلك الدولة كنتيجة لالغاء البند الثالث والرابع من معاهدة طهران الموقعة فى نوفمبر عام ١٨١٤) .
- (٢) مذكرة ويزلى ومذكرات اليس ٤/٢١ ، ١٨٣٢/٦/١٤ ، أما الاطلاع على رأى كامبل فيمكن الرجوع الى تقريره رقم ٢٨ (السرى) المؤرخ ١٨٣٢/٩/٤ وقد جاء فى المجلد ٤٧ من نفس الحلقة .

كان يرى من ناحية أخرى أن الخطر الحقيقي لا يكمن فى الضغط الروسى على فارس ، بقدر ما يكمن فى أطماع الروس الى استعمار المنطقة الواقعة شرق بحر قزوين (ذلك أن احتلال تلك المنطقة يحرم فارس فورا من التمكن من صد التوسع الروسى صوب الهند ويتعين علينا ألا نعلق أهمية كبرى على تحالفنا مع الشاه وأن نبحث عن إيجاد سبل لاثارة أفغانستان وحكامها لإنشاء خط دفاعى ضد الخطر الروسى (١) وعلى أى حال فقد كان الرأى الأرجح هو الذى ينادى بدعم فارس ، وتأسيسا على ذلك فقد اضطر الملك وليم الرابع نفسه بأن يتدخل فى المحادثات فى شهر يونيه ١٨٣٠ حيث صرح جلالتة .. (اننى من المؤيدين بشكل قاطع بتعزيز الاتصالات مع فارس والحفاظ على الاسلوب الودى كوسيلة لتقوية وتعزيز نفوذنا هناك ولاحياط محاولات روسيا لفرض نفوذها على فارس (٢) وكان تايلور هو الوحيد من بين الذين أعدوا المذكرة فى بغداد الذى نبه الى الأوضاع المتهترة للامبراطورية العثمانية فى آسيا وضغط وسائل الدفاع فى كل من العراق والخليج الفارسى .

وكان جرانت وغيره من أعضاء المجلس واثقين من أن الزحف الروسى الى الهند لو قدر له أن يتبلور فانه سيأتى عن طريق فارس وليس عن طريق العراق والخليج ، وبالتالي فإن الامبراطورية العثمانية على أى حال هى موضع اهتمام وزارة الخارجية البريطانية وليس مجلس الهند ، فضلا عن ذلك فإن زملاء تايلور كانوا يعتقدون انه ليس جديرا بالحكم على تطورات الأحداث ، فمنذ اندلاع الحرب الروسية التركية ظل يوجه تحذيراته الى

(١) مذكرة ويلوك ١٨٣٢/٣/٦ .

(٢) مذكرة الملك وليم الرابع قصر وندسور ١٨٣٢/٧/١٦ .

الحكومة الهندية عن هجوم روسى وشيك الوقوع على العراق يتبعه زحف القوات الروسية الى الهند عن طريق البصرة وبوشهر ، وانه فى عام ١٨٣٠ وضع تايلور رؤسائه فى موقف حرج جدا بتأييده داود باشا آخر حكام الممالك فى العراق والذي كان السلطان التركى قد أمر بخلع (١) من منصبه وكان تايلور فى ذلك الوقت يعتقد بقرب انهيار الامبراطورية العثمانية بسبب الانحلال الداخلى الذى كان يسرى فيها، وبأن روسيا التى كانت تراقب الموقف سوف تتحرك لتتمركز على حدود الهند، ولاحباط هذه الخطة دعا تايلور الى اقامة دولة مستقلة فى العراق تحت حكم داود باشا تعمل كم منطقة عازلة بين روسيا والخليج (٢) غير أن خطة تايلور لم تكتسب تأييدا فى الهند ولا فى انجلترا وقيل له بأن العراق جزء لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية وأن السياسة البريطانية تسعى الى الاحتفاظ بالامبراطورية ، كما أبلغ تايلور بالا يحاول أن يزج نفسه فى مسائل هى من إختصاص السفير البريطانى فى تركيا (٣) أما النقاط التى كان مجلس الهند على استعداد الموافقة

(١) انظر سجل الرسائل السرية لبومباى مجلد ٦ من الحاكم الى اللجنة السرية فى ١٧/١٠/١٨٣١ - (رقم ٤ الادارة السرية) .
(٢) كان مالكولم قد تقدم بخطة مماثلة فى عام ١٨٠٧ .

(٣) مسودات المجلس ، التقاير السرية للهند مجلد ٨ مسودة الى الحاكم بومباى ١٨٣١/٧/١ (رقم ٢٣٧) ٠٠ (وقد علق اليس فى خطاب له الى جرانت بعد اطلاعه على بعض التقارير التى كان يبعث بها تايلور أن شيئا فى جو بغداد والبصرة يكسب جميع ممثلى الشركة هناك عقلية دبلوماسية (فارس والخليج) مجلد ٤٨ من اليس الى جرانت بولون ١٨٣٣/٩/٢

على مقترحات تايلور فهي اقتراحه ايفاد ضباط بريطانيين للعراق للقيام بتدريب جنود الباشا، وبالفعل أرسلت تعليمات بهذا الشأن الى الهند في شهر يوليو ١٨٣٢ غير أن ظهور وباء الطاعون في العراق حال دون سفر الضباط من الهند (١) ومهما كان تصور جرانت وزملائه لكفاءة تايلور وبعد نظره فقد كانت الامبراطورية العثمانية عام ١٨٣٢ اقرب الى الانهيار والتمزق من حكومة فارس . أما النقطة التي أساء تايلور تقديرها فيما يتعلق بهذا الموضوع فهي اعتقاده بأن تكون روسيا هي السبب في انهيار الحكومة التركية ، وفي الواقع فقد كانت سياسة روسيا تجاه تركيا بعد ابرام معاهدة أدريان بول سياسة تتسم بالحدس . وكان القيصر نيكولاس الاول يعتقد بأن سقوط الامبراطورية العثمانية لن يكون في صالح روسيا ، فان حدث هذا فقد تضم النمسا اقاليم بوسينا، وألبانيا، ومنتجرو كما قد تستولى على مصر وتستولى بريطانيا على جزيرتي بحر ايجة وكرت ، وقد تصبح القسطنطينية ميناء حرا ويصبح البحر الاسود مفتوحا امام السفن البريطانية والفرنسية . والنتيجة من كل ذلك أن تصبح روسيا محاطة بثلاث دول قوية بدلا من دولة واحدة ضعيفة ، وبالتالي فان تمركز النفوذ العثماني في آسيا يهدد روسيا في منطقة القوقاز . وهكذا فمئذ عقدت معاهدة أدريان بول التزم الروس بسياسة الحد من متعاشين أي خطوة قد تعجل بانتهاء النفوذ العثماني وبأن ما كانت تأمل روسيا في الحصول عليه من تركيا سوف يتحقق لها بالتدريج بدلا من أن تسعى للحصول عليه بالقوة .

(١) فارس والخليج مجلد ٥ . مذكرة حول السياسة البريطانية في تركيا العربية اعداد وليم كامبل (رئيس كتاب مجلس الهند) ١٨٣٤/٦/٢ . انجلترا والشرق الادنى تأليف اتشه دبليو فيه تمبل لندن ١٩٣٦ ص ٥٧ - ٥٨ .

— ٤٦٥ —

وعليه فان التهديد الذى كانت تتعرض له الامبراطورية العثمانية لم يكن ينطلق من الشمال ، وانما كان ينطلق من الجنوب من جانب محمد على باشا فى مصر ، فلقد كانت عيون الوالى مصوبة بشراهة على سوريا منذ وقت طويل وكان يعتقد فى البداية انه سوف يحصل على سوريا كمكافأة للقضاء على الوهابيين . وعندما خاب هذا الامل تصور محمد على بأنه سوف يحقق ما كان يسعى اليه عن طريق قمع التمرد اليونانى فى موريا الذى وقع بين عام ١٨٢٥ - ١٨٢٧ ، ومرة أخرى خاب أمله ، ولهذا فقد عقد العزم فى خريف عام ١٨٣١ ان يحقق بالقوة ما عجز عن تحقيقه بالوسائل السلمية . وفى أكتوبر ١٨٣١ أمر نجله ابراهيم باشا بأن يزحف على الحدود الفلسطينية ويستولى على النقب بعد أن لفق زعماً بأن اهانة قد وجهت اليه من والى دمشق . وقد أبلغ محمد على باشا الباب العالى بأنه على استعداد لسحب قواته من سوريا فى مقابل تعيين نجله ابراهيم باشا والياً على دمشق والنقب . غير أن السلطان محمود الثانى اعتبر ابراهيم باشا شخصاً متمرداً ، وقام بإرسال جيش الى سوريا لقمع قوات ابراهيم باشا . غير أن النقب سقطت فى يد ابراهيم باشا فى شهر مايو ١٨٣٢ ، ثم بعد شهرين أصيبت القوات التركية فى حمص وحلب بهزيمة ساحقة ، كما أصيب الجيش الآخر الذى أرسله السلطان محمود بهزيمة مماثلة ، وذلك فى معركة كينه فى يوم ٢١ ديسمبر وهكذا أصبحت سوريا كلها خاضعة لابراهيم باشا ، بينما أخذت بعض عناصر من جيشه تتقدم نحو الاناضول الغربى حتى وصلت فى تقدمها من منطقة برصه .

فى بداية نوفمبر وجه محمود الثانى نداء الى كل من بريطانيا وفرنسا للمطالبة بمساعدة بحرية لمواجهة محمد على باشا ، غير أن الدولتين رفضتا (٣٠ - بريطانيا والخليج)

٢.الطلب • والواقع أن رفض بريطانيا كان مثيرا للدهشة ، والذي يمكن استنتاجه من هذا الموقف هو أن البرلمان البريطانى فى ذلك الوقت كان مشغولا طوال عام ١٨٣٢ بالمناقشات الدائرة حول القوانين الاصلاحية ، كما كان بالمرستون نفسه مشغولا بمشكلى بلجيكا وهولندا ، ولهذا لم يستطع أن يوجه اهتمامه الى موضوع التوسع الروسى فى آسيا ، كما لم يكن يهتم بمصير الامبراطورية العثمانية أو باطماع والى مصر (١) خصوصا وأن هذه الاطماع كانت معروفة من قبل ، وفى شهر مارس ١٨٣٠ اقترح محمد على باشا على ارنست باركر فى أن مساعدة بريطانيا له سوف تساعد على الحفاظ على الامبراطورية العثمانية تجاه الاطماع الروسية ، وقال له فى هذا الصدد ، (وبمساعدتكم لى سوف يكون لدى السلطان جيش نظامى مكون من ١٢٥ ألف مقاتل ومستعد لاقامة سد منيع ضد روسيا سواء فى تركيا أو فى فارس ، لأن فارس هى الميدان الذى يتعين على بريطانيا أن تواجه فيه روسيا (٢) ، لقد طرح الوالى نفس الاقتراح على مالكولم فى يناير التالى ، عندما كان مالكولم فى طريقه الى انجلترا فى نهاية فترة عمله كحاكم لبومباى ، وقد قال محمد على لمالكولم أثناء اللقاء بأنه من الأهمية بمكان أن يكون لبريطانيا دولة صديقة تقع حدودها بين أوروبا والهند ، وأن مصر تعتبر تلك الدولة ، خصوصا وأن مصر خلال حكم محمد على قد قطعت أشواطاً واسعة فى طريق التقدم ، الأمر الذى ساعد بريطانيا على تأمين طريق

(١) انظر السياسة الخارجية فى عهد بالمرستون ، ١٨٣٠ - ١٨٤١

المجلدين طبعة لندن ١٨٥١ تأليف السير شارلس وبستو •

(٢) من باركر الى ابردين ١٨٣٠/٣/٨ وقد استقى منه دودويل فى

كتابه « مؤسس مصر الحديثة » ص ١٠٥ •

المواصلات الى الهند ، وان انهيار الامبراطورية العثمانية في أوروبا أصبح حقيقة مؤكدة وقريبة ، وبالتالي فان من مصلحة بريطانيا أن تؤمن نفسها ضد أى خطر قد ينجم عن التوسع الروسى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط، وذلك باتخاذ الاجراءات الضرورية بالنسبة للأقاليم الآسيوية للامبراطورية العثمانية ، وقال محمد على بأن هذه أمور لا تحتاج الى شرح من جانبه ، وقد قال مالكولم فيما بعد بأنه قد اتضح له من حديث محمد على باشا بأنه كان يأمل فى الحصول على تأكيدات من جانب بريطانيا باستعدادها للموافقة على توسعات محمد على باشا (١) وقد أثبت سير الأحداث فى بلاد الشام فى صيف ١٨٣٢ بما لا يدع مجالاً للشك بأن الوالى كان مصمماً على المضى فى تحقيق أهدافه حتى ولو كان ذلك على حساب الامبراطورية العثمانية ، ورغم ذلك فان جميع تلك الأحداث لم تثر اهتمامات بالمرستون ، رغم أنه كان يطلع عليها من التقارير التى كان يبعث بها إليه كل من باركر وقارين ، وكان يكتفى بتحويل تلك التقارير الى مجلس الهند (٢) حيث كان يطلع عليها هنرى اليس لأنها كانت تعبر عن خطر حقيقى على المصالح البريطانية . وفى نهاية العام بعث اليس بمذكرة الى بالمرستون وذلك فى الأسبوع الأول من شهر يناير ١٨٣٣ أى بعد فترة لا تزيد على ثلاثة أسابيع من وصول مذكرة استرادفورد كاننج حول أوضاع الامبراطورية العثمانية ، بالإضافة الى تقرير شيزنى حول الملاحاة فى الفرات ، غير أن تلك التقارير الثلاثة أثارت ثائرة بالمرستون ، فلقد كشف تقرير كاننج عن حقائق صارخة ، فقد قال كاننج

(١) حياة مالكولم فصل ٢ ص ٥٥٧ تأليف كى .

(٢) بالمرستون وأزمة بلاد الشام ١٨٣٢ بقلم ام . فريت فى مجلة

التاريخ الحديث ص ١٤٢ - ١٤٧ .

فى تقريره : أن الامبراطورية العثمانية قد وصلت فى انهيارها الى مفترق الطريقين فاما أن تهب من جديد وتبدأ مسيرة من الازدهار أو تتساقط وتهوى الى منحدرات الانحلال والتدهور (١) ان هذه الامبراطورية قد أخذت تتدهور على يد محمد على باشا ، وأن استقلال الاسيرة العثمانية الحاكمة أصبح الآن فى كفة القدر ، ولو سمح محمد على باشا بأن يمضى فى خطه فمعناه أن تركع هذه الامبراطورية تحت أقدام روسيا . ويقول كاننج بأن مصر هذه الامبراطورية مسألة تهمة بريطانيا العظمى لأنها سوف تؤثر على مصالحها التجارية مع الهند الشرقية حتى ولو لم تكن هناك علاقة بالمحافظة على نعوذها النسبى فى أوروبا . لقد كان الخطر على حد رأى كاننج كبيرا جدا بحيث أنه طالب بشن هجوم قوى على مصر تشترك فيه بريطانيا وتركيا لمنع ذلك الخطر ، وأضاف كاننج فى مذكرته يقول : لينجح محمد على فى تكوين دولة مستقلة الأمر الذى سيتبعه تفتيت الامبراطورية العثمانية (٢) .

وقد أفاض هنرى آليس فى ذكر النتائج التى سوف تنجم من مضى

(١) من كاننج الى بالمرستون باريس ١٨٣٢/١٢/١٩ .

(٢) نفس المصدر . فى المذكرة بعض التعليقات المؤثر عليها بالقلم

الرصاص الأمر الذى يدل على أن الذى كتب التأشير لم يكن مقتنعا بقوة رأى كاننج والمعروف عموما ان تلك التعليقات هى تعليقات بالمرستون ويستنتج من ذلك أن بالمرستون كان مترددا فيما اذا كان يساعد السلطان أو يترك محمد على باشا يتلعه غير ان الدكتور فريت يتحدى هذا الرأى على أساس أن الكتابة ليست بخط بالمرستون ويرى أنها من المحتمل أن تكون الكتابة بخط اللورد هولاند ، وقد يكون (وكان هولاند عدوا لتركيا طوال حياته) هذا صحيحا وان رأى فريت بان بالمرستون لم يكن فى الواقع فى حيرة بقدر ما كان يجهل الظروف التى حملت محمد على باشا على ضم سوريا وهو الرأى الاقرب الى الصحة من الرأى الثانى .

محمد على باشا فى تحقيق أطماعه فى آسيا دون ردع (١) وقد استهل تقريره فى تلخيص الآراء التى كان ينادى بها الوالى فى ذلك الوقت لاقنناع الحكومة البريطانية بأن امتداد سلطته سوف يكون فى مصلحة الطرفين . وكانت حجته كالآتى :

أن قيام دولة اسلامية تسعى الى اكتساب خيرة الدول الأربعة فيما يختص بالتجارة والسلاح ، ويشمل نفوذها سوريا وبلاد ما بين النهرين ، وتمتع بإمكانيات بلد كمصر سوف يضع حدا للأطماع الروسية فى الأقاليم الآسيوية للباب العالى وبإنشاء هذه الدولة ويكون بها علاقات للدفاع المشترك مع حكومة الشاه سيجعل فى مقدورها أن تقدم مساعدات فعالة لشاه فارس ضد الاعتداءات الروسية ، وبالتالي تحبط خططها لغزو الهند ، والخلاصة أنه لو نفذت خطة محمد على باشا فسوف يتمخض عنها قيام حلف رباعى يضم السلطان التركى أولاً ، والوالى الجديد لمصر وسوريا والعراق ثانياً وشاه فارس ثالثاً والحكومة البريطانية بوصفها الدولة المسيطرة على الهند رابعاً ، وذلك بهدف إقامة دفاع مشترك فى الأقطار الآسيوية الخاضعة لهم ضد روسيا (٢) .

(١) لقد تم طبع المذكرة بكاملها فى الملحق الأول للكتاب أما النسخة الأصلية فهى فى وزارة الخارجية البريطانية وتحمل رقم ٧٨٢٣٣ فى ١٨٣٣/١/٩ كما توجد نسخة غير مؤرخة فى وزارة شئون الهند (فارس والخليج مجلد ٤٨) (١٥)

(٢) اليس يستقى من حديث دودويل الذى كان يعتقد بأن محمد على باشا كان فى مقدوره أن يحقق هذا الحلم فهو اليوم يمثل القوة التقدمية الحقيقية فى العالم الإسلامى وأنه يمكنه بمساعدة بريطانيا أن يؤسس فى ظل الخلافة العثمانية دولة على غرار دولة شركة الهند الشرقية فى ظل امبراطورية دلهى (مؤسس مصر الحديثة ص ١٠٦) .

وعلى الرغم من أن مقترحات اليس كانت مقنعة الى حد كبير إلا أن اليس لم يكن مقتنعا بأن المصالح البريطانية سوف تتأثر بالفعل لو تم العمل بموجب هذه المقترحات :

وانى لأعتبره مبدأ بأن أقرر أنه ليس من مصلحة الدولة الأوروبية الحاكمة في الهند أن تقوم على أرض الغرات دولة اسلامية قوية ، اذ أنه من المحتمل جدا أن تتحد تلك الدولة مع روسيا لاقتسام فارس بنفس الصورة التى قد تتحد بها مع فارس لمقاومة الأطماع الروسية (١) كما أن أية دولة تنشأ في هذه المنطقة سوف يمتد نفوذها بلا أدنى شك الى جميع أقطار شبه الجزيرة العربية ، وقد تصبح في مدى قصر دولة بحرية هامة ، وان عدم وجود دولة كهذه في الوقت الحاضر لهو خير ضامن ضد غزو الهند من جنوب نهر الاندس ، ان منطقة آسيا الوسطى بأسرها يمكن اعتبارها منطقة اسلامية وانها تشكل حلفا اسلاميا هدفه طرد الدولة المسيحية ، وهذا الكلام ليس وهما فلو توحدت كل ممالك الخليفة الاسلامى في دولة وحدة قوية يتزعمها حكام طموح فانها ستصبح خطرا على المصالح الأوروبية وعلى الرغم من أن الغربى ينتمون الى المذهب الشيعى وبقية السكان في الأقطار الأخرى التى يضمها هذا الحلف من المذهب السنى فان هناك احساسا دينيا مشتركا بينها يدفعها الى الاتحاد مع بعضها البعض في تلك المهمة المقدسة .

(١) ان التأشير بالقلم على هذا الموضوع يوجد في النسخة التى تحتفظ بها وزارة الخارجية البريطانية فقط ويرى الدكتور جى . آتشه بولصوفر ان تلك التأشيرات يمكن أن تكون من وضع بالمستون (انظر كتاب بريطانيا العظمى وروسيا والمسألة الشرقية) ١٨٣٨ - ١٨٤١ (النسخة الخطية لرسالة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن ١٩٣٣ الملحق رقم ١) .

وأضاف اليس يقول : بأنه لا مجال للانكار أن هذا المشروع سوف يوجد أيضا تحالفا ضد روسيا بهدف تحرير الاقاليم التى يقطنها المسلمون فى روسيا غير أنه من المحتمل ، وقد يتم ذلك سريعا ، أن قيام اتصالات مستمرة بين دولة بحرية فى العراق وسكان الهند والأرخبيل الشرقى قد يهيم أهل تلك البلاد أكثر مما يهيمهم من التحالف ضد روسيا .

وقد اختتم اليس ملاحظاته بنقطة هامة : «هل سيستطيع ابراهيم باشا بأن يحتفظ بما حققه محمد على باشا أو بالأحرى هل سيحتفظ به الى الوقت الذى يخلفه فيه غيره سواء من أسرته أو من اختياره ؟ » .

وما لم توجد اجابة حاسمة لهذا السؤال فلن يكون من المصلحة لبريطانيا أن تقوم بتشجيع توسع سلطات محمد على لتشمل سوريا والعراق .

لقد تركت مقترحات اليس انطبعا سريعا على بالمرستون وهى انطباعات لم تفقد حداثتها كما سوف تثبت الايام ذلك ، وفى نهاية يناير ١٨٣٣ أثبت بالمرستون آراءه حول المشكلة السورية فى الخطاب الذى وجهه الى اللورد جرانفيل حيث قال فيه : بأنه يجب المحافظة على الامبراطورية التركية ، كما ينبغى ارغام محمد على باشا بحصر نفوذه على مصر فقط ، لأن احتلال سوريا سوف يؤدى بالضرورة الى احتلال بغداد ، وان اقامة دولة واحدة من مصر وسوريا والعراق بزعامة محمد على باشا لن تفيد بريطانيا فى شىء ، أما السلطان التركى فسوف يزداد ضعفه فى مقاومة روسيا وأنه من المحتمل ان تتألب تلك الدولة مع الوالى للتحرش بفارس وذلك على حساب الوجود البريطانى فى الهند . ان تفتيت الامبراطورية العثمانية سوف يكون ثمننا باهظا لرسالة الحضارة التى ينوى محمد على باشا فى ادخالها على الاقاليم العربية للامبراطورية العثمانية (٢٥)

ان الضرر الذى سوف ينجم عن هذا لمصالح دول أوروبا عن طريق وضع حكام تركيا الاوربية تحت مظلة الحماية الروسية سوف لا يتوافق مع الفوائد التى سوف تجنيها من وجود معاهد علمية فى هذه الاقطار ومن ضم سوريا والعراق الى حكم محمد على باشا (١) .

وقد أشار بالمرستون الى نفس النقاط فى خطاب بعث به الى شقيقه الوزير المفوض فى نابولى بعد ذلك بشهرين ، وحول تعليقه على الجهود التى يبذلها الفرنسيون لايجاد تسوية بين السلطان واليه قال بالمرستون :

ان الشروط التى سوف تفرض على الباشا هى شروط معقولة طالما أن دمشق وحلب لا تنضم الى حكم محمد على وكذلك العراق ، وفوق ذلك فانه سوف يحتفظ بالولايات العراقية بمثل احتفاظه بمصر . ان هدفه هو انشاء مملكة عربية تضم جميع الاقطار التى لغتها العربية وقد لا يكون فى هذا أى ضرر فى حد ذاته ، اما اذا اشتمل هذا المشروع على تقسيم تركيا فاننا سوف نعارضه ، كما أن تركيا ليست أقل صلاحية لحماية الطرق الى الهند من أى حاكم عربى (٢) .

وعلى الرغم من تقدير بالمرستون للمشاكل التى كانت تنطوى عليها تحركات محمد على باشا الا أنه لم يكن يرغب أو بالأحرى لم يكن يستطيع أن يحمل البرلمان على اتخاذ قرار بالوقوف الى جانب السلطان العثمانى .

(١) « وثائق جرانفيل » رقم ٤١٥ من بالمرستون الى جرانفيل
١٨٣٣/١/٢٩ .

(٢) « حياة هنرى تمبل » الفاىكونت بالمرستون فى ثلاث مجلدات طبعة لندن ١٨٧٠ - ١٨٧٤ ص ١٤٥ . المجلد الثانى من بالمرستون الى وليم تمبل
١٨٣٣/٣/٢٤ .

ومن ناحية أخرى فشل محمود الثانى فى الحصول على تأييد من فرنسا ، وأخيرا بعد أن يئس اتجه الى روسيا . وعلى الرغم من أن قيصر روسيا كان يعنى تماما ما قد يسببه تدخله من قلق فى أوساط الدول الكبرى ، الا أنه كان يدرك فى نفس الوقت الأزمات الخطيرة التى سوف تنشأ فى الوضع الدولى فيما لو مضى محمد على باشا فى تنفيذ مخططاته حتى تصل قواته الى مشارف القسطنطينية ، وتأسيسا على ذلك فقد قرر القيصر الاستجابة لطلب محمود الثانى . وقبل نهاية شهر فبراير تحركت قوة من الاسطول الروسى ، ثم تبعتها وحدات من الجيش الروسى ، تحركت فى اتجاه الشاطئ الاسيوى للبوسفور . أما ابراهيم باشا فقد أوقف تقدمه وقرر التراجع عن الاناضول . وقد قامت كل من فرنسا والنمسا بمبادرة لتحقيق تسوية بين محمد على باشا والسلطان التركى ، على أساس انسحاب القوات الروسية من الاراضى التركية وبموجب الاتفاق الكتابى المعقود فى ١٨٣٣/٥/٦ وافق السلطان بأن يتنازل عن ولايتى سوريا وأطنة لمحمد على باشا وفى مقابل ذلك عاد الوالى فاكد ولاءه للسلطان العثمانى . وفى شهر يونيه انسحبت القوات الروسية وتبع هذا الانسحاب عقد معاهدة « هنكيار اكسليس » بين السلطان العثمانى وقيصر روسيا يوم ٨ يوليو ، وقد تعهد الطرفان بموجب تلك المعاهدة بالدفاع عن ممتلكات الطرفين ضد أى هجوم يقع عليها ، فقد تعهد القيصر بتقديم مساعدات للسلطان فى حالة وجود تهديد لاستقلاله ، بينما تعهد السلطان من ناحيته باغلاق مضيق البوسفور فى وجه السفن الاجنبية اذا اشتبكت روسيا فى أى حرب (١) وكانت مدة

(١) لتفسير هذا البند من المعاهدة انظر كيميا تأليف تمبرلى

هذه المعاهدة ثمانية أعوام ، وقد لاحظ بالمرستون أن المعاهدة المذكورة تعطى لروسيا الحق في التدخل في شئون الامبراطورية العثمانية كما أيقظت هذه الاتفاقية مخاوفه من الاطماع الروسية في تركيا وأوجدت في نفسه كراهية مستديمة لمحمد علي باشا الذي كانت سياسته سببا في اعطاء الروس الفرصة التي كانوا يبحثون عنها منذ زمن بعيد .

ولقد كان من غرائب الأزمة السورية لسنة ١٨٣٢ - ١٨٣٣ هو الحادث الذي بعث بها المندوب السامي النمساوي الى مصر في شهر ابريل ١٨٣٣ ويطلب فيها وضع مواد التسوية بين محمد علي والسلطان التركي وبموجب معلومات حصل عليها القنصل البريطاني العام في مصر عن تلك الرسالة أن المندوب وهو الكولونيل بروكيش فون اوشتن ، أبدى تحمسا كبيرا في محادثاته مع محمد علي حول امكانية اقامة مملكة عربية تمتد حدودها من النوبة الى سوريا وتضم اقطار الخليج والعراق (١) ان اقامة مثل هذه المملكة كما ذكر اوشتن سوف يرفع من قيمة محمد علي في نظر العالم الاسلامي للانتقام من السلاطين العثمانيين فهو الرجل الذي قيضه الله لرفع شأن المسلمين . وبالتالي كان يجب البدء في مفاوضة والى بغداد ورؤساء قبائل الضفة الغربية للفرات بعدم معارضة البريطانيين في محاولاتهم لانتقارب مع الحكام في منطقة المحيط الهندي والخليج (٢) .

(١) موضوع رقم ٣٤٣/٧٨ وزارة الخارجية من الكولونيل بي. كمبل (القنصل العام) الى بالمرستون القاهرة ١٨٣٨/١١/٢٧ (رقم ٧٨) ومرفق للملخص المحادثات بتاريخ ١٨٣٣/٥/١٧ الاسكندرية .

(٢) من الكولونيل كمبل (القنصل العام) الى بالمرستون القاهرة ١٨٣٨/١١/٢٧ (رقم ٧٨) ومرفق معه ملخص للمحادثات الاسكندرية ١٨٣٣/٥/١٧ .

غير أن محمد على لم يكن فى حاجة الى تشجيع فون اوشتن ، وقد كان يعرف كل المعرفة الاتجاه الذى كانت تسير فيه أطماعه بعد استيلائه على سوريا ، ولم يكن محمد على باشا يفكر بصورة جدية أن يكون خليفة للمسلمين ، صحيح أنه قد فكر فى هذا الموضوع قبل خمسة عشر عاما أثر هزيمة الوهابيين وتحرير الأماكن المقدسة ، غير أنه سرعان ما صرف النظر عنها (١) غير أن محادثة فون اوشتن قد تثير الفضول وقد يكون لها علاقة وإن كانت واهية بتحركات محمد على القادمة .

ففى أواخر عام ١٨٣٣ أوفد مبعوثا سريا يدعى سيد خالد افندى الى بغداد عن طريق الخليج وقد زار المبعوث فى طريقه بوشهر فى مارس ١٨٣٤ ، وهناك أبلغ المقيم البريطانى بأنه يحمل رسائل من محمد على باشا الى سلطان مسقط وأمير شيراز ومشايخ المنتفك وقبائل بنى كعب سكان شط العرب والعراق الأسفل ، وقال المبعوث للمقيم بأن محمد على باشا قد فوض من جانب الباب العالى للتحدث باسم بغداد وسواحل وجزر الخليج التى كانت أصلا خاضعة للنفوذ العثمانى ابتداء من عام ١٢٥٠ بعد الهجرة (١٨٣٥/٤/٢٨) وأن على باشا والى بغداد قد اطلع على هذه الخطة وأنه وافق عليها وقد بعث تايلور المقيم السياسى فى بغداد يومئذ بتقرير عن مهمة سيد خالد افندى الى القنصل البريطانى العام فى مصر الكولونيل ناترك كامبل وقام هذا بدوره فى يونيه ١٨٣٤ بالاتصال بمحمد على باشا للاستفسار عن الموضوع وعن رأيه عموما بالنسبة للوضع فى بغداد ، غير أن الوالى حاول أن يتنصل من الموضوع وقال لكامل بأنه من المعروف أن سكان بغداد

(١) من كميل الى المرستون بالاسكندرية ١٨٣٣/١٠/١ (رقم ٦٩

سرى) انظر أيضا تمبرلى ص ٤١٩ - ٤٢٢ .

متدمرون جدا من الحكم التركى ، وأنهم قاموا بالاتصال بواليه فى سوريا شريف بك يطلبون منه أن يتحرك للاستيلاء على بغداد بالنيابة عن والى ، أما محمد على باشا فلم يفكر فى شىء من هذا القبيل ، أما بالنسبة لسيد خالد فقد قال والى بان هذا من أتباع داود باشا والى بغداد السابق والموجود حاليا فى المنفى ، وأن المذكور قد تقدم الى والى يطلب العمل عنده ، ولكى يتخلص منه والى قام بارساله الى سلطان مسقط مزودا بخطاب توصية منه (١) .

غير أن كمبل لم يقتنع بتفسيرات محمد على لأن محمد على لم يتعود اعطاء خطابات توصية الى الاجانب دون أن يكون وراء ذلك هدف محدد وبالإضافة الى ذلك فقد كان هناك فى نفس ذلك الوقت مبعوث من السيد سعيد فى دار والى ، وان والى نفسه قد ذكر لكمبل أن السيد سعيد قد عاتبه على شراء سفن لحملته على اليمن فى الوقت الذى كان السيد سعيد على استعداد لأعارته تلك السفن ، ولهذا كان كمبل على يقين من أن سيد خالد قد توجه الى بغداد لأسباب هامة ، حتى ولو كان ذلك لجمع المعلومات عن البلاد، خصوصا وأن محمد على باشا كان يعرف الكثير عن التدمير الذى يسود سكان بغداد . وعلى الرغم من ادراك بالمرستون للأهمية الاستراتيجية لبغداد ادراكا تاما الا أنه كان مترددا لاتخاذ أى إجراء يهدف الى تدعيم الوجود البريطانى هناك ، لئلا يخلق لروسيا وفرنسا الفرصة للتدخل فى شئون الامبراطورية العثمانية وطوال عام ١٨٣٣ كان بالمرستون يتجنب مقابلة شيزنى حتى لا يشير تكهنات حول اعتزامه تبنى مشروع شيزنى الخاص بالملاحة

(١) مختارات المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٢ رقم (١) من كمبل الى بالمرستون ١٨٣٤/٦/٢٤ (رقم ٢٨) ومرفق لخطاب بالمرستون لجراند ١٨٣٤/٨/٢٩ .

البخارية عن طريق الفرات . وكان كل من حكومة الهند ومجلس الحاكم يشاطرون بالمرستون شكوكه بشأن التدخل البريطاني في العراق ، وكان رأى المجلس ان التدخل البريطاني سوف يضعف من نفوذ السلطان التركي ، وبالتالي يساهم في تقوية دعائم الامبراطورية ، كما أنه سوف يعطى الروس الحجة لاثارة موضوع معاهدة هنكيار اكسيس (١) أما حكومة الهند فقد كانت تعارض التدخل من زاوية أخرى فقد كانت هذه الحكومة تتوقع انهيار الامبراطورية التركية وبالتالي فانه سيكون من الأفضل في نظرها أن يحتلها محمد علي باشا بدلا من احتلال الروس لها (٢) وهكذا تركت بغداد لتلقى مصيرها المحتوم حتى منتصف عام ١٨٣٤ عندما أصبحت الأوضاع لا تحتمل السكوت ، ففساد الحكم في العراق قد دفع أهلها الى دعوة محمد علي باشا لاحتلالها ولانقاذ بغداد من ذلك المصير . وكان لابد من البحث عن طريقة لتدعيم الحكم التركي فيها داخليا دون اظهار ذلك التدخل ، وقد دعت تلك الاعتبارات بالمرستون وزملاءه الى تغيير موقفهم من خطة شيزنى لارسال بعثة للتحقيق في صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية .

لقد عرضت هذه المسألة على البرلمان في شهر يونيه ١٨٣٤ ثم أحيلت الى لجنة منبثقة من مجلس العموم البريطاني وعهد اليها بالبحث في موضوع

(١) فارس والخليج مجلد ٥ . مذكرة كمبل ١٨٣٤/٧/٢ .

(٢) محادثات بومباي السياسية حلقة ٣٨٧ مجلده رقم ٢٢ في ١٨٣٤/٦/١١ من مكثائن (سكرتير حكومة الهند) الى السكرتير الاول لحكومة بومباي ١٨٣٤/٥/١٤ ويبدو أن هذا الرأي كان يسود أوساط المجلس في الهند . وقد أشار كمبل في مذكرته هذه بأن تايلور المقيم في بغداد كان يعتقد بأن الطريقة الوحيدة لإبعاد الروس عن العراق هي في قيام بريطانيا أو مصر باحتلالها وتضم المذكرة على هامشها تعليقا بالقلم الرصاص . ويبدو أن هذا التعليق كان بخط توماس ماكولى سكرتير المجلس .

الملاححة البخارية برمته • ولم يغيب عن أذهان المؤيدين لطريق الفرات النواحي السياسية والاستراتيجية للمشروع ، وكان شيزنى فى مقدمتهم و من أكثرهم معرفة بالمشروع كما أن الاهمية التى يوليها أعضاء اللجنة وتوصيات شيزنى كانت تسمح للحكومة بتجاوز اعتراضات الذين كانوا يفضلون طريق البحر الأحمر لأسباب عملية وسياسية (١) •

وقد ظل شيزنى يلح على هذا الموضوع منذ عودته الى انجلترا عام ١٨٣٢ غير أن اتصالاته ببيكوك قد هيات الفرصة لادخال بعض التعديلات على المشروع (٢) بالنسبة لشيزنى كان طريق الفرات هو الطريق الأسهل والمحتمل أن يسلكه الجيش الروسى لو فكر فى غزو الهند ، وعلى الرغم من وجود حمى طرق أخرى يمكن للروس أن يسلكوها للوصول الى الهند ، الا أن طريق الفرات كان أقرب الطرق الى الهند ، فهناك غابات أرمينيا وفارس التى يمكن للروس أن يصنعوا من أخشابها الصنادل اللازمة لنقل الجنود والمعدات ، وخلال شهرين من العام أى من أبريل حتى نهاية ارتفاع منسوب المياه فى الفرات أن يتمكن من نقل المعدات العسكرية والمدافع الثقيلة ، كما أنه يمكن خلال ثمانية أشهر على الأقل من كل عام نقل المؤن فى مياه النهر بمنتهى السهولة ، وأن أربعة الى خمسة أسابيع تكفى لنقل جيش بكامله الى شط

(١) انظر الطرق البريطانية الى الهند ص ١٥٤ - ١٥٥ تأليف هوكنز •

(٢) تضمنت هذه التعديلات فى المذكرة التى أعدها شيزنى وقدمها الى مجلس الهند بتاريخ ٢٣/١٢/١٨٣٤ (انظر المراسلات السرية والسياسية العامة للمجلس) مجلد ٣ •

العرب ، وهى منطقة تصلح لاقامة قاعدة بحرية (١) وأن أى جيش يملك قاعدة فى شط العرب يمكنه أن يزحف عبر ساحل الخليج حتى رأس جاسك التى تقع على بعد ٢٦٥ ميلا من حدود الهند ، وعلى هذا الأساس فانه يمكن لاي قوة عسكرية روسية أن تصل الى حدود الهند فى ظرف ثمانية أو عشرة أسابيع من خروجها من العراق ، فالأذا استطاع الروس أن يتحركوا على هذا الطريق فانهم سوف يغلقون خطوط الدفاع عن الهند ويصبح من المستحيل إيقاف الزحف الروسى من رأس جاسك ، ويمكنهم فى هذه الحالة أن يقوموا بنقل المعدات العسكرية فى مجموعات من القوارب بالقرب من المناطق الساحلية ، وإذا ما اعترضتهم أى قوة بحرية معادية فيمكنهم سحب تلك القوارب الى الشاطئ تحت حماية الجيش وقد ذكر شيزنى « بأنه اذا قدر للروس ان يستولوا على منطقة الفرات فسوف يكون فى مقدورهم الاشتباك معنا على حدود نهر الاندس أو يرابطون فى جاسك ليتقدموا منها تدريجيا الى الهند ، ولو حدث ذلك فانه سوف يؤثر على الروح المعنوية للجنود أمام سكان

(١) مقتبس من مذكرة شيزنى مؤرخة ١٨٣٤/١٢/٢٣ : (من القرنه عند تقاطع نهر دجلة والفرات الى الخليج لاثريد المسافة عن ١٠٤ أميال ويمكن اعتبار مجرى النهرين كميناء كبير تتوسطه البصرة ويتراوح عرض النهر من ٥٠٠ ياردة الى ميلين وعمقه من اربعة الى سبعة قامات وقد وصلت احدى السفن الى القرنه وأما السفن الأصغر فترسو مقابل البصرة (فى حدود ميلين) كما ترسو قريبا من المحمرة وهى ميناء ممتاز يقع عند تقاطع نهري قارون وشط العرب كما أن الضفاف والتربة القوية تصلح لإنشاء مراسى وبناء السفن واقامة مراكز بحرية على شط العرب كما يمكن تقوية جزره وضافه عن طريق اقامة بروج وبطاريات بحيث أن أى محاولة للسيطرة عليه فى منتهى الصعوبة) .

— ٤٨٠ —

الهند ، فضلا عن النفقات التى ستتكبدها من جراء وضع قوة بحرية لمراقبة العدو ومرابطة مزيد من الجند على الحدود الشمالية الغربية لفارس (١) أما اذا اختارت بريطانيا أن تتمركزا فى منطقة الفرات وانشاء أسطول من البواخر فانها سوف تسد الطريق الوحيد أمام الروس لغزو الهند وبالتالي ارغامهم على أن يسلكوا الطريق الشاق والخطر عبر فارس ، وبالإضافة الى كل ذلك نستطيع بريطانيا اذا أقتضى الأمر الحصول على امدادات عاجلة لقواتها فى الهند وأن تقوم بنقل تلك الامدادات بسرعة من منطقة البحر الأبيض المتوسط عن طريق الفرات (٢) .

وقد أيد شيزنى فى هذا الرأى عدد من أعضاء اللجنة الذين ادلوا بشهاداتهم أمام اللجنة حول هذا الموضوع ومن بين هؤلاء جون هاين ، مساعد المقيم البريطانى السابق فى بغداد والفتنانت كولونيل كوك بروك وبيكوك ، أما كول بروك الذى كان من الخبراء البريطانيين فى منطقة الخليج فانه يرى أن التحرك الروسى عن طريق الفرات أمر محتمل وان كان ذلك التحرك سوف يعتمد الى حد كبير على قوة أو ضعف الامكانيات البحرية البريطانية فى مياه الهند .

(١) بيانات ووثائق (١٨٣٤) مجلد ١٩ وثيقة ٤٧٨ تقرير اللجنة المنتخبة للنظر فى الملاحه البخارية للهند وتتضمن شهادة الكابتن شيزنى فى ١٨٣٤/٦/٩ .

(٢) الشهادة التى أدلى بها الكابتن شيزنى ١٨٣٤/٦/١١ وان فكرة ان نهر الفرات يصلح لنقل الجنود الى الهند يشاطر شيزنى فيها الكابتن الكسندر برنس (انظر حياة شيزنى ص ٢٦٨ ويشير الى فقرات من مذكرات شيزنى مؤرخة ١٨٣٤/٦/٩ تأليف لين بول .

ولم يختلف رأى بيكوك هذه المرة عن رأيه فى عام ١٨٢٩ رغم أنه أصبح مقتنعا بأن غزو الهند عن طريق الخليج لم يكن أقل احتمالا من غزوها عن طريق بحر قزوين . وبسؤاله عما اذا كان يتصور بأن هناك احتمالا لهجوم الروس على الهند من بحر قزوين عبر نهر الاكسس أكثر منه عن طريق الفرات والخليج حيث التفوق البحرى البريطانى أمر لا جدال فيه فأجاب : (ولكن التفوق فى البحر ليس طلسمًا فلابد من الاحتفاظ برقابة مستمرة على المنطقة وتوفير وحدات كافية من القوات للرقابة ، كما ذكر بأنه لا يجهل الخطر المحتمل من نهر الاكسس ، غير أن هناك خطرا محتملا لهجوم من العراق داو أستطيع لقلت بإيقاف الخطرين معا ، ثم دعا بيكوك الى البت بسرعة فى مشروع طريق الفرات قبل أن تقوم روسيا بدعم نفوذها هناك ، وهو الحلم (١) الذى كان يداعبها منذ زمن بعيد ، واختتم بيكوك شهادته بأن أكد على الأهمية البالغة لطريق الفرات بالنسبة لبريطانيا وقال : ان جميع مصالحنا وعلاقاتنا مع فارس وما يحتاج اليه التبادل التجارى مع بومباى انما يقع ضمن هذا الطريق وليس على طريق البحر الأحمر كما أتصور أن المصالح السياسية لهذه البلاد تتطلب أن تبقى روسيا بعيدة عن منطقة الخليج أكثر مما تبقى بعيدة عن منطقة البحر الأحمر ، حيث لا مصلحة لنا هناك فى إبعاد أى دولة عن منطقة البحر الأحمر (٢) .

(١) وقد علم شيزنى أن داود باشا قد تقدم بعرض خلال الحرب الروسية التركية بأن يضع الإقليم تحت سلطة الجنرال باسكفيتش القائد الروسى فى القوقاز (انظر مجموعة المجلس السياسية والسرية العامة مجلد ٣ .

(٢) تقرير اللجنة وشهادة بيكوك .

أما المعارضون لإنشاء طريق الفرات والذين ادلوا بشهاداتهم أمام اللجنة منهم الأمير السسير بلتنى مالكولم (شقيق جون مالكولم) وجى . اس . باننجهام الرحالة البريطاني وعضو البرلمان وصاحب مجلة اورينتال هيرالد والكولونيل ستانوس المقيم السياسى البريطانى فى الخليج ، والسير هارفورد جونز المقيم البريطانى السابق فى بغداد والوزير المفوض فى فارس . أما جونز فقد أستخف بفكرة احتمال قيام الروس بغزو الهند عن طريق الخليج وقال للجنة : اننى على استعداد لأن أقدم لهم البصرة ، ولكن بأى طريقة سوف يصلون الى الهند وكيف يدخلون الخليج اذا لم يكونوا يتمتعون بثغور فى القوة البحرية على الاسطول البريطانى ؟ واذا كان لروسيا اسطول أقوى من الاسطول البريطانى فى منطقة الرجاء الصالح فما الذى يضطرها الى دخول الهند عن طريق الفرات ؟ (١) وفى ١٤/٦/١٨٣٤

(١) تقرير اللجنة وشهادة جون يردج هارفورد ١٨٣٤/٦/٢٧ وكان جون يتوقع وقوع هجوم على الهند عن طريق العراق وعندما كان فى بغداد فى أوائل القرن كان يعتقد ان نابليون كان يستطيع ان يقوم بمحاولة لغزو الهند عن طريق البحر الأحمر وذلك بالاستفادة بالمكانيات المصرية والبحرية أكثر مما كان يمكنه ان يقوم بالهجوم عن طريق البصرة وبوشهر ، كما حدد جونز منطقة استرا باء كقاعدة للانطلاق فى الهجوم على الهند وقد ظل جونز متمسكا برأيه هذا لمدة أربعين عاما وفى نشرة أصدرها جونز فى عام ١٨٣٨. خاطب الماركويس ويلسلى المصمم الأول لخطة دفعات الهند فى منطقة الشمال الغربى وجاء فى هذه النشرة حول الموضوع ما يلى : (خلال عملى هنا فقد تلقيت عددا من المشروعات من الدبلوماسيين الهنود الذين زاروا الخليج . . . وقد سئلت مرة وهى المرة الوحيدة التى سئلت فيها عن =

— ٤٨٣ —

صدّرت اللجنة توصياتها وأكدت على سرعة انجاز خطوط الملاحة البخارية مع الهند عن طريق البحر الأحمر ، كما أوصت بإيفاد بعثة لاختيار صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية وتخصيص اعتماد بمبلغ ٢٠ ألف جنيه استرليني (١) ، وفى ٨/١٤ وافق مجلس العموم البريطانى على توصيات اللجنة وكلف مجلس الهند بالاشراف على تشكيلها وأعمالها . وقد أحست الحكومة انها كلما أسرع فى تنفيذ هذا المشروع كما تضاعل أمل محمد على باشا فى التحرك الى العراق عن طريق الشام . وفى صيف ذلك العام كان اللورد بونسوبى السفير البريطانى فى القسطنطينية آنذاك يتوقع أن يتحرك محمد على الى الشام فى اى لحظة الى درجة انه كلف القنصل البريطانى فى بيروت ريتشارد وود بأن يقوم باستطلاع الأوضاع فى العراق وارسال تقرير اليه عن أى تحرك قد يقوم به المصريون فى اتجاه العراق لتنفيذ مشروع امبراطورية مستقلة فى شبه الجزيرة العربية ، وهو المشروع الذى كان يسعى اليه محمد على باشا (٢) وقد تأكدت تكهنات السفير بونسوبى فى شهر سبتمبر عندما أفضى محمد على باشا الى قناصل

= احتمال غزو الروس للهند عن طريق دجلة والفرات وشط العرب والخليج ولعل اللورد ويلسلى يستطيع ان يتكهن عن طبيعة ردى على ذلك السؤال خطاب الى الماركويس ويلسلى بشأن المصالح والشئون البريطانية فى فارس
ضبعة لندن ١٨٣٨ (٥)

(١) التقرير ص ٣ - ٤ .

(٢) مذكرة وود فى أعماله وقد أشار اليها تمبرلى فى كتابه «كريميا»

بالمحق رقم ١ من الكتاب .

الدول الأوروبية في الاسكندرية بنيته في اعلان انفصاله من الباب العالى ،
ولكن بالمرستون حذره من تنفيذ هذا المشروع ، كما اتصل بجراند يحثه
على التعجيل في إنهاء الاستعدادات الخاصة بسفر البعثة الى العراق .

وفي نوفمبر استقالت وزارة ملبون وخلف بالمرستون في وزارة
الخارجية ولنجتون ، بينما خلف جرانت في الهند اليمبورو ، وعلى الرغم
من أن اليمبورو كان ميالا الى روسيا الا أنه لم يكن يحب مشروع ارسال
البعثة الى العراق كما لم يكن يؤيد الأسس التي شكلت البعثة عليها ،
وبالتالى فقد حاول جهده بأن يوقف سفر البعثة . غير أنه لحسن حظ
شيزنى فشل الينبورو في هذه المحاولة لأنه عين رئيسا لتلك البعثة . وقد
كتب شيزنى خطابا الى والده بهذا الشأن قال له فيه : (عندما عدت
الليلة الماضية الى ليفربول وهو الميناء الذى ستغادر منه البعثة الى العراق
يوم ١٨٣٥/١/١٦ ، وخلال تغييبى صدر الامر للبعثة للإبحار الى بومباي ،
ولكن سرعان ما تفرقت ثم عادت واستأنفت رحلتها الى البحر الأبيض
المتوسط بأقصى سرعة ممكنة . . . وقد انتهز اللورد آلينبورزو بعض المتاعب التي
صادفت البعثة في تركيا لصرف النظر عن المشروع الذى كان يعتبره مشروعا
متطرفا ، كما كان يعتبرنى أنا صنيعا لأصحاب المشروع وأنى الشيطان
الذى سوف أقود البعثة الى الهلاك المحقق ، غير أن زملاء الينبورو في البرلمان
انتقدوه على هذا الموقف من المشروع ، وفي مقدمتهم (العضو ابردين . . .) .

غادرت البعثة الفرات ميناء ميناء ليفربول يوم ١٨٣٥/٢/٤ وكانت وجهتها الاولى خليج أنطاكيا حيث كان مقررا أن تنضم اليها السفينتان الصغيرتان دجلة والفرات ، ثم تعبر نهر ارنستوس وذلك قبل أن تبحر الى الفرات فى فصل الربيع عند ارتفاع المد . اما الباخرة دجلة فلم تتمكن من السير فى النهر بسبب التيار وبالتالي تقرر فك أجزائها ، وبعد ذلك بدأت الرحلة العملية الطويلة المضنية لنقلها وبقية السفن وغيرها الى الفرات . وعلى أية حال فانه مما يبعث على السخرية أن يعتمد نجاح مشروع الفرات على موقف ابراهيم باشا . وعلى هذا الأساس فقد تم اصدار مرسوم من السلطان فى شهر ديسمبر يصرح للبعثة فيه بمزاولة نشاطها فى الشام والعراق ويطالب ولاية الاقاليم المذكورة بتسهيل مهمة البعثة . غير أن المرسوم لم تكن له اية قيمة عند ابراهيم باشا أو عند محمد على باشا ، فبالنسبة لمحمد على باشا فقد كان ينظر الى موضوع البعثة بشيء من الاستياء ، وكان له عذره فى ذلك لأن نجاح المشروع البريطانى سوف ينال من أهمية مصر كطريق رئيسى الى الشرق ، كما أن وجود النفوذ البريطانى فى العراق سوف يقضى على أطماع محمد على فى العراق . وبالتالي فلم يكن من الغرابة فى شيء أن يبذل ابراهيم باشا كل ما فى وسعه لانفصال مهمة البعثة ، ومن هذا المنطلق كان اللقاء فى الاهداف بين محمد على باشا والسفير الروسى فى القسطنطينية ، فقد بذل هذا السفير جهودا مستميتة فى شهر ديسمبر ١٨٣٤ لكى يحول بين السلطان واصدار ذلك المرسوم . وعندما فشل السفير « اوفر الى » القنصل العام لروسيا فى مصر بالاتفاق مع محمد على باشا على الوسائل التى يمكن بها احباط مهمة

شيزنى (١) وكان ابراهيم باشا قد نجح بالفعل فى عرقلة موضوع تزويد البعثة بالعمال والجمال وغيرها من وسائل النقل .

وكانت المعاكسات التى تعرضت لها البعثة منذ وصولها الى سوريا كثيرة بحيث لا يمكن أن نعتبرها قضاء وقدرا . فوسائل النقل والبواخر التى كان شيزنى قد قدر بأن الحصول عليها لا يستغرق أكثر من شهر لم تتوفر قبل ربيع ١٨٣٥ ، كما عانت البعثة من الأمراض وعلى الأخص بين الاوربيين من أعضائها . وقد أضاف وصول الكونت موديم السفير الروسى فى تركيا الى المكان الذى ترابط فيه البعثة مشكلة جديدة ، لقد صادف هذا الوقت أن عاد بالمرستون كوزير للخارجية فى وزارة ملبورن الثانية ، وقد أبلغه بونسوبى بأنه لا شئ يمكن أن يضع حدا لمتاعب البعثة الا بصدر مرسوم خاص من محمد على باشا .

وحتى ذلك الوقت كان الباب العالى يرفض اصدار مثل هذا المرسوم حتى لا يفضب روسيا ، غير أن بالمرستون كان يتدبر من هذا الوضع ، وكان غاضبا على محمد على للدرجة أنه أخذ يفكر فى فرض حصار بحرى على الإسكندرية لارغام الوالى على تغيير موقفه (٢) غير أن وصول أنباء

(١) انظر خطاب بونسوبى الى بالمرستون ١٨٣٥/٦/٣٠ رقم ١١٦ وخطاب كامبل الى بالمرستون ١٨٣٥/٧/٣٠ (رقم ٢٦ وخطاب كامبل الى بالمرستون ١٨٣٥/٩/١٨ - وقد أشار الى هذا الخطاب الاخير بولصوفر فى كتابه « بريطانيا العظمى والمسألة الشرقية » ١٨٣٢ - ١٨٤١ ص ١٦٨ . ١٧٠ .

(٢) من بالمرستون الى كامبل ١٨٣٥/٦/٣٠ وقد أشار اليه بولصوفر بالصفحة ١٧١ .

من كامبل لخضوع الوالى لاحتجاجات بالمرستون واصدار اوامره الى ابراهيم باشا بتقديم مساعداته الى شيزنى قد غير من هذا الموقف (١) .

وعلى الرغم من أن موقف ابراهيم باشا من المشروع البريطانى قد تحسن الا أنه هو ووالده محمد على باشا استمرا فى محاولتهما لعرقلة أعمال البعثة حتى ان السير جون هوب هاوس رئيس مجلس الهند آنذاك استاء من هذه التصرفات وطلب من بالمرستون : (بأن يلحق الاسكندرية درساً لن تنساه وقال له : بأنه لا يمكننى أن اتحمل الفشل فى مشروع خط الفرات بحجة أن هذا تدخل فى شئون العراق كما يتصور محمد على ونجله (٢) وقد حدث تغيير فى موقف الوالى مع بداية العام الجديد ، حتى ان ابراهيم باشا طلب من شيزنى بأن يرافقه فى جولته عبر الفرات ، غير أن شيزنى شك فى طلب الوالى . . وربما نصحه أصدقاؤه فى الشمال باتخاذ موقف مضاد من المشروع ولكن بما أنه لم يستطع ايقاف العمل فى المشروع ، وكان يتعين عليه أن يسهل عمل البعثة ، فقد أصبح الآن حريصاً او من دعاة شق الطرق وفتح القنوات (٣) ، أما شيزنى فكان واثقاً من أن الدافع وراء رغبة ابراهيم باشا فى مرافقة البعثة هو أنه كان ينوى القيام

(١) من كامبل الى بالمرستون فى ٢٦/٥/١٨٣٥ (رقم ١١٥) وقد اشار اليه بولصوفر بالصفحة ١٧١ .

(٢) من هوب هاوس الى بالمرستون ٢٩/١٢/١٨٣٥ وقد اشار اليه بولصوفر بالصفحة ١٨٤ .

(٣) متفرقات وزارة الخارجية مجلد ٨٣٣ من شيزنى الى هوب هاوس ٢٧/٢/١٨٣٦ .

بـهجوم مفاجيء على قبيلة عنزة فى بغداد والمنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية ، وكان يريد أن يتخذ من ذلك وسيلة لاختضاع تلك القبائل لطاعته .

وقد يكون شيزنى مصيبا فى تكهناته هذه الى حد ما ، غير أن شيزنى فى تلك الفترة كان يعانى من حالة اضطراب وكانت نفسيته متوترة نتيجة المرض الذى كان يعانى منه والمعاكسات التى كان يتعرض لها كل يوم فى مهمته ، وكان قد مضى على وصوله الى الشام عام كامل ، ومع ذلك فلم يتمكن من القيام بجولاته الاستطلاعية عبر الفرات ، كما كان يتعرض لانتقادات لاذعة فى انجلترا بسبب التأخير الذى تعرضت له البعثة فى برنامجها ، وحتى يوقف تلك الحملات عليه ، وافق زملاءه أعضاء البعثة على نشر بيانات فى الصحف والمجلات يتحدثون فيها عن متاعبهم ، مما كان له أسوأ الأثر لدى السلطات التركية والمصرية والسورية ، بالإضافة الى ردود الفعل التى أحدثتها تلك التصريحات فى الهند وانجلترا ، فقد سببت تلك البيانات احراجا لبالمستون وهوب هاوس اللذين اضطرا الى الدفاع عن البعثة فى البرلمان واقناع مجلس العموم وأعضاء مجلس إدارة الشركة بزيادة اعتمادات البعثة ، وكانت البعثة قد أنفقت المبالغ التى سبق أن خصصت لها كما كان مجلس العموم وأعضاء مجلس إدارة الشركة غير راغبين فى التصويت على اعتمادات أخرى لمشروع أصبح مصيره فى كفة الميزان ، غير أن هوب هاوس تمكن أخيرا من الحصول على جزء من المبلغ الاضافى المطلوب ومقداره ١٨ ألف جنيه استرلينى من أعضاء مجلس الإدارة بعد أن تعهد لهم بأنه سوف يحمل البرلمان على الموافقة على اعتماد المبلغ الاضافى ، وفى يوم ١٨٣٦/٣/٣١ بعث هوب هاوس بتعليماته الى الكولونيل شيزنى يطلب منه التأكد من أن البعثة سوف تنتهى من

أعمالها في أواخر شهر يونيو ، وبعد ذلك يتعين على شيزنى ، اذا كانت الظروف مواتية ، أن يعبر الفرات بمجرد وصوله الى البصرة ، ثم يعود فيعبره للمرة الثانية الى الخليج ، فاذا تعدر هذا الاسلوب من الناحية العملية فيتعين على شيزنى أن يسافر الى بومباي بعد أن يكون قد أنهى العبور الأول للفرات ويقوم بتسليم السفن التي في عهده الى الرئاسة(١) .

وقد أطلق شيزنى سفينته الاولى عبر الفرات يوم ٣/١٦ واطلق السفينة الثانية بعد ذلك بوقت قصير. ثم بدأت عملية العبور في شهر مايو ، وفي يوم ٢١ مايو انقلبت السفينة دجلة في النهر بعد أن هب عليها تيار هوائى وغرقت ومعهما عشرون من طاقمها ، بما فيهم شقيق مساعد ربان البعثة اللغتنانت لنش غير أن لنش استطاع هو وشيزنى أن يسبحا الى الشاطئ وعندما كانت السفينة الفرات تبحر بمفردها كادت أن تتحطم عند مستنقعات منطقة الملون الواقعة في منتصف الطريق ، وفي يوم ١٠ يونيه وصلت الى البصرة حيث كان من المفروض أن يتزود رجال البعثة بالمؤن لرحلة العودة ، غير أنهم لم يجدوا شيئاً ، وبالتالي قرر شيزنى أن يسافر الى بوشهر اعتقاداً منه بأن المؤن قد تكون قد أرسلت الى بوشهر ، حيث كان يأمل اجراء بعض الاصلاحات على السفينة ، غير أنه لم يجد في بوشهر شيئاً من المؤن ولهذا قرر أن يبقى هناك في انتظار وصولها ، وقد استغل فرصة وجوده في بوشهر فقام بجمع المعلومات عن أهل الخليج وعن تجارته وعن امكانياته ، وأخذ يرسل التقارير التفصيلية الى هوب هاوس ، وكان يؤكد في تلك التقارير على الأهمية السياسية والاستراتيجية لخط

(١) مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٢ (١) من

هوب هاوس الى شيزنى ١٨٣٦/٣/٣١ .

— ٤٩٠ —

الفرات بالمقارنة الى خط البحر الاحمر وعلى الاخص بالنظر الى احتمال تحرك يقوم به الروس أو المصريون فى اتجاه العراق ، كما تحدث فى تلك التقارير برغم ما فى ذلك الحديث من غرابة عن السهولة والسرعة التى يمكن أن يتم بها نقل الجيش من شمال سوريا عن طريق الفرات وأن غابات طوروس يمكن ان تستغل فى توفير الأخشاب لصنع الصنادل اللازمة التى يمكن أن تنقل مالا يقل عن مائة ألف جندي ، وأنه لا يوجد على طول المسافة الممتدة الى البحر ما يمكن أن يعوق تحرك مثل هذا الجيش لا من جانب المصريين ولا من جانب الروس (١) ، والى تلك الدرجة كان شيزنى واثقا من نجاح مشروع الملاحة البخارية فى الفرات . . (وانى لأقرر بأن كل من أتبع له بأن يعبر الفرات بعينين مفتوحتين لابد وأن يقتنع بأن هذا النهر صالح للملاحة للسفن العادية ، وأن هناك احتياطا كبيرا من الوقود على ضفاف النهر ، أما ما بقى فيعتبر ذلك من التفاصيل .

وصلت المؤن الخاصة بالبعثة فى شهر يوليو ، غير أن شيزنى قرر البقاء هناك فى انتظار وصول البريد من بومباى ليحمله معه وبذلك يضى على عمله أهمية أكبر . وقد حل شهر أغسطس وانقضى بدون أن يصل البريد ، وفى هذه الأثناء توجه شيزنى الى الكويت حيث اكتشف وجود بعض المبعوثين المصريين هناك ، الأمر الذى أكد له بأن حملة محمد على باشا على الخليج على وشك أن تبدأ . وعند وصول أخبار بدء الحملة المصرية على بغداد فى نهاية أغسطس خشى شيزنى من أنه اذا ذهب الى العراق فقد

(١) متفرقات وزارة الخارجية مجلد ٨٣٧ من شيزنى الى هوب هاوس

١٨٣٦/٧/١٦ بوشهر .

— ٤٩١ —

يقع أسيراً في يد إبراهيم باشا ، ولهذا رأى بأن يقوم أولاً بعملية مسح لنهر دجلة وإذا أمكن نهر قارون وذلك قبل أن يبدأ عمله في الفرات (١) .

وفي يوم ٢٨ سبتمبر وصل شيزنى الى بغداد قادماً من بوشهر ، وهناك وجد رسالة تنتظره من هوب هاوس بتاريخ ١ يونيه ، تكلفه بالقيام بعبور نهر الفرات وقد حاول هوب هاوس في تلك الرسالة أن يؤكد بأن وقوع حرب بين محمد علي باشا والسلطان التركي احتمال مستبعد وبالتالي فإنه لا خوف عليه من المصريين في تنفيذ مهمته (٢) . غادر شيزنى بغداد في طريقه الى دجلة وأخذ يبحر ببطء شديد حتى أنه لم يتمكن من الوصول الى القرنة وهي تقاطع الفرات قبل يوم ١٦ أكتوبر . وقد وجد هناك الباخرة « هيلونس » التي تحمل البريد من بومباي في انتظاره ، وبعد تسلمه للبريد بدأ شيزنى رحلة الفرات ، غير أن الرحلة كانت بطيئة بحيث أنه لم يتمكن من الذهاب الى أبعد من مستنقعات الملون في نهاية أكتوبر حيث توقف هناك بسبب عطب أصيبت به ماكينة الباخرة بسبب تسرب الرمل الى الأبواب الهوائية ، كما كسر الكباس ولهذا الأسباب توقفت الرحلة ، ثم عاد شيزنى الى البصرة حيث سلم قيادة البعثة الى الكابتن ايست كورت وكلفه بمواصلة عمليات المسح لنهرى دجلة وقارون وبانتهاء مهمة البعثة في بغداد يوم

(١) متفرقات وزارة الخارجية مجلد ٨٣٧ من شيزنى الى هوب هاوس

١٨٣٦/٩/٢٧ .

(٢) مسودات المجلس التقارير السرية للهند مجلد ٩ مسودة الى

الحاكم في بومباي ١٨٣٦/٧/١ (رقم ٣٣٧) ومرفق معها خطاب هوب

هاوس الى شيزنى مؤرخ ١٨٣٦/٦/١ .

— ٤٩٢ —

١٨٣٧/١/٣١ غادر شيزنى بغداد فى طريقه الى بومباى (١) .

وفى بريطانيا ساد الاعتقاد بأن البعثة قد منيت بالفشل التام فى مهمتها رغم أن كلا من هوب هاوس وبالمريستون — لأسباب واضحة لم يستطيعا الاعتراف بذلك : (أننا هنا فى بريطانيا لا نعتقد بأن البعثة التى توجهت الى الفرات قد فشلت فى مهمتها ، كما أننا من ناحية أخرى لا نعتقد بأنها حققت نجاحا كاملا فى هذه المهمة) . هذا ما جاء فى رسالة هوب هاوس الى السير روبرت جرانت حاكم بومباى فى شهر فبراير ١٨٣٧ . أما الراى العام فى الهند فقد كان أكثر وضوحا وحسما ، فقد لخصت إحدى صحف بومباى نتائج أعمال البعثة فى الأبيات الشعرية الآتية :

فلننشىء ثلاث خطوط بدلا من خط واحد .

قبل أن يبدأ خط البحر الأحمر
أيها الناس اذرفوا الدموع عند مياه بابل
على ماضع من نفوذ وماسوف يضع
وعلى البريد الذى فقدناه فى هذه العملية (٢)

(١) البيانات الخاصة بتلك البعثة وردت فى كتاب « شيزنى » (بعثة لنهرى الفرات ودجلة) مجلدين طبعة لندن ١٨٥٠ وكتابه الثانى (قصة بعثة الفرات) لبعثة لندن ١٨٦٠ أما الأول فيضم المعلومات التى كانت البعثة قد جمعتها عن جغرافية المناطق التى زارتها وعن سكانها وعن الحالة التجارية فيها أما الكتاب الثانى فإنه يضم قصة البعثة نفسها وقد صدر بعد تأخير وجدل كثير حول هذا الموضوع .

(٢) « لمحات عن مدينة بومباى القديمة » ص ١٣٤ وقد أشار اليه دوغلاس .

- ٤٩٣ -

كان جرانت أحد كبار المسؤولين الذين تحمسوا لمشروع الفرات كما كان أحد الذين تبناه في إنجلترا . وكان ينطلق في تأييده للمشروع من أسباب عملية وفنية ، فلقد كانت تقارير شيزنى السابقة واللاحقة كلها تشيد بالمشروع وتدمو اليه ، ولهذا كانت تقلل من عيوب خط الفرات ، بينما تبالغ في ميزاته ، ولسوء الحظ فإن آراء شيزنى ذهبت أدراج الرياح ، مما حمل هوب هاوس الى استغلال أخطاء شيزنى ويبرهن على أن فشل البعثة يعود الى عدم صلاحية رئيسها وليس الى عيب في الخط نفسه ، وقد انتهر هوب هاوس الفترة التي كان يقضيها شيزنى في بوشهر في انتظار البريد من بمباي قبل بدء الرحلة ليهاجمه في رسالة كتبها اليه في شهر نوفمبر ١٨٣٦ ويقول له فيها (ان الهدف الاساسي من مهمتك ليس هو نقل البريد من البصرة الى سوريا وانما عليك أن تثبت بالتجربة العملية بأن في وسع بحارتك أن تقطع النهر في نفس الفترة التي حددتها لذلك ، واننى سوف أشعر بخيبة الامل لو عرفت أنك قد فوت تلك الفرصة لانجاز الجزء الهام من مهمتك والصعب منها بانتظارك رسائل السيد روبرت جرانت (١) ومما ضاعف خيبة الامل هذه هو أن المبلغ الاضافى وقدره ٨ آلاف جنيه استرليني الذي ساهمت به شركة الهند الشرقية لاتمام المشروع قد تم دفعه بشرط واحد ، وهو أن يتم عبور النهر الذي هو مفتاح المشروع وبما أن هذا لم يتم حسبما كان مقررا ، فلا توجد هناك مبررات لظهور الأسباب التي صرفت بموجبها المبالغ التي رصدت للمشروع وهى ٤٠ الف الى ٤٢ الف جنيه استرليني ، ورغم فشل المشروع فقد كان هوب هاوس مصمما على تنفيذه ، كما كان مصمما على استبعاد شيزنى كليا من المشروع ففى رسالته الى

(١) متفرقات وزارة الخارجية من هوب هاوس الى شيزنى

الكولونيل اوكلاند الحاكم العام للهند فى شهر فبراير ١٨٣٧ ذكر هوب هاوس:
 (بأنه ليس من المناسب بأن نعهد الى الكولونيل شيزنى برئاسة هذه البعثة
 مرة أخرى فقد كانت اجراءاته تتسم بسوء التصرف والتي اعتقد بأنها
 هى من الاسباب الرئيسية وراء فشل البعثة ، وبالتالي فان اللوم يقع الى
 حد كبير فى السماح لمعاونيه من الضباط بالاتصال بالصحف والاساءة الى
 السلطات المسؤولة فى كل من الهند وانجلترا *

وعندما علم هوب هاوس بعد شهرين ان شيزنى بمبادرته الخاصة كان
 يقوم بنقل البريد من الهند عن طريق الفرات وإنه امتنع جرائت بالموافقة
 على ذلك فكتب رسالة الى اوكلاند يقول فيها (لايحوز اطلاقا تعيين شيزنى
 مرة ثانية فى سوريا وأن اللفتنانت لينش الذى تقرر أن يتوجه الى بغداد
 فى ١٥ من الشهر هو الرجل المناسب لهذه المهمة لقد طفى شيزنى
 على جرائت ويبدو أنه أصيب بمس من الجنون (١) وكانت خطة هوب هاوس
 ان يستمر فى عمليات مسح نهري دجلة والفرات باستخدام الباخرة
 الفرات وان يقوم فى الوقت نفسه بنقل البريد من وقت الى آخر . وعلى
 أية حال فلم يكن من المفروض أن يحتفظ لينش باتصالات منتظمة بين منطقتى
 البحر الأبيض المتوسط والخليج عن طريق الفرات وأن القسم الأكبر من
 هذا البريد كان يجرى ارساله عن طريق البحر الأحمر ، فاذا ما أريد ارسال
 نسخ اضافية من هذا البريد عن طريق العراق فهذه النسخ يمكن ارسالها
 عن طريق القوافل ، وهو النظام الذى ادخله فارين أخيرا لنقل البريد بين
 دمشق وبغداد (وبين بيروت ودمشق) أو عن طريق النظام الذى كلف تايلور

(١) متفرقات وزارة الخارجية مجلد ٨٣٨ من هوب هاوس الى اوكلاند

بأنشائه لنقل البريد بين البصرة والمحيرة حيث سيتم نقل ذلك البريد مع بريد حمص - دمشق (١) أما إذا تصادف وجود الباخرة الفرات في بغداد أو في أى منطقة أخرى من العراق عند وصول البريد فيمكن لهذه السفينة أن تنقله عن طريق الفرات كما يمكن أن تنقله أيضا إذا سمحت الظروف من البصرة . ومن الواضح كل الوضوح أن طريق البحر الأحمر سوف يبقى الطريق الرئيسى للمواصلات بين إنجلترا والهند (٢) .

وعندما اتخذت الحكومة البريطانية هذه القرارات لم يغيب عن بالها الاعتبار السياسية التى دفعتها فى الدرجة الأولى الى تشكيل بعثة الفرات ، لقد كانت هذه الاعتبارات معروفة تماما فى الأشهر الأولى من عام ١٨٣٧ أكثر منها فى عام ١٨٣٤ - ١٨٣٥ . وكان شبح الأزمة يخيم على كل من شاه فارس ومحمد على باشا ، وهما يعدان العدة للدخول فى مغامرات جديدة للغزاة والتوسع ، الأول بتأييد مستتر من روسيا ، والثانى بتأييد علنى من فرنسا ، ولتلك الأسباب ان لم يكن لأسباب أخرى كان من الأفضل أن تبقى البعثة فى منطقة عملها لتقوم بمراقبة نشاط الروس والمصريين فى المنطقة من ناحية وتدعيم خطوط المواصلات مع فارس من ناحية أخرى (٣) .

(١) مسودات المجلس التقارير السرية للهند مجلد ٩ مسودات الحاكم العام ١٨٣٦/١٢/١ ، ١٨٣٧/٣/٣ ، رقمى ٣٤٤ ، ٣٥٤ .
(٢) متفرقات وزارة الخارجية مجلد ٨٣٧ من هوب هاوس الى جرائد ١٨٣٧/٢/٢٣

(٣) لقد أقام تايلور محطات إعادة فى كل من كورمنشاه وهمدان وذلك فى عام ١٨٣٨ وذلك لنقل البريد من المفوضية فى طهران الى بغداد (انظر مسودات المجلس) التقارير السرية للهند مجلد ٩ مسودة الحاكم العام ١٨٣٨/٨/١ (رقم ٣٩٤) .

- ٤٩٦ -

استأنفت البعثة عملها برئاسة لينش بعد تغيير اسم البعثة واستمرت في عملها هذا على امتداد فترة الخمس سنوات التالية ، حتى عام ١٨٤٢ .

وقد ثبت من خلال وجود البعثة في العراق ان دجلة والفرات لا يصلحان في أى وقت من الاوقات كطريق دولى بين أوروبا والشرق ، غير أن تشكيل البعثة وما حققته في مهمتها الى جانب الاكتشافات التي توصلت اليها والمعلومات السياسية والتجارية التي جمعتها قد أكدت صحة آراء شيزنى بالنسبة لتشكيل هذه البعثة .

وقد توفى فتح على شاه عام ١٨٣٤ وخلفه في الحكم حفيده محمد نجل ولي العهد السابق عباس المتوفى عام ١٨٣٣ ، وبالرغم من أن الفضل في اختيار محمد شاه لتولى الحكم يعود الى الجهود البريطانية في اقناع الشاه الأكبر والدعم الذي لقيه من السفير الروسى والبريطانى في طهران والى الحملات الناجحة التي خاضتها القوات الملكية الفارسية بقيادة الضباط البريطانيين ضد منافسيه على الحكم ، فقد أعلن الشاه الجديد بوضوح أنه لا يهتم بنصائح بريطانيا . ونظراً لكون الشاه الجديد قد نشأ في منطقة أذربيجان فقد كان يحترم روسيا ويخشها أكثر مما كان من بريطانيا ، كما أنه لم ينس اقدام بريطانيا على إلغاء البنود الخاصة بمسألة الدفاع عن فارس في معاهدة طهران المعقودة عام ١٨٢٨ . كما لقيت أطماعه في الفتوحات والتوسع تساهلاً من جانب الروس الذين كان يهمهم أن تبقى فارس ضعيفة ومفككة ، وأن - ينصرف اهتمام الشاه عن التطلع لاسترجاع أقاليم القوقاز وعلى العكس من ذلك كان البريطانيون ينفعلون بأن يهتم الشاه بإجراء الإصلاحات الداخلية ، غير أن الشاه لم يعد يستمع الا لمشورة شخصين من مستشاريه هما الكونت سموينيش السفير الروسى

فى طهران الذى ظل يحثه على العمل الى استعادة الامبراطورية نادر شاه ، والحاج ميرزا اغاس رئيس وزرائه الذى كان قصير النظر (١) .
ان التغيير الذى طرأ على نظام الحكم فى فارس والاضطرابات السياسية التى كان من المتوقع أن تصاحب ذلك التغيير ، حملت مجلس الهند فى نهاية ١٨٣٤ الى الاقتناع بضرورة نقل الاشراف على المفوضية البريطانية فى طهران من شركة الهند الشرقية الى حكومة التاج ، وذلك للمحافظة على المصالح البريطانية فى فارس .

وفى شهر يناير ١٨٣٥ وافقت اللجنة السرية لمجلس الادارة على هذا الاقتراح وأعربت عن رغبتها فى أن يقوم الممثل البريطانى فى طهران بتكليف إجراءاته وفق هذا النظام وان تحدد إجراءاته منذ ذلك الوقت . فصاعدا فى اطار العلاقات البريطانية الروسية . ولهذه الاعتبارات ارتأى مجلس الادارة أن علاقات بريطانيا بفارس ، وهى علاقات كانت ترتبط بسياسة أوروبا أكثر منها بسياسة الهند ، هذه العلاقات يمكن توجيهها بأسلوب أفضل من داخل بريطانيا بدلا من الهند (٢) ، وعند عودة بالمرستون الى وزارة

(١) كان مغرورا الى حد الحماسة وجاهلا بالسياسة والشئون المالية والعلوم العسكرية جهلا تاما ومع ذلك فقد كان يشعر بالزهو لتلقى المعلومات وكان يشعر بالغيرة الى حد كبير ، كما كان جافا فى حديثه ومتغطرسا فى سلوكه وكسولا فى عمله وقد أدت تصرفاته الى جعل الخزانة البريطانية على وشك الافلاس كما كانت ستؤدى بالبلاد الى الثورة . هكذا كان حكم رولنسون على الحاج ميرزا اغاس (انجلترا وروسيا فى الشرق ص ٨١) .

(٢) مذكرة رقم ٢١٤/٦٥ وزارة الخارجية حول الأسباب التى دعت الى .
نقل الاشراف على المفوضية فى فارس من سلطة الشركة الى سلطة التاج .
١٨٥٦/٥/٩

الخارجية فى شهر ابريل ١٨٣٥ تم تنفيذ هذا الاقتراح فعين هنرى اليس وزيرا مفوضا فى طهران وممثلا للتاج البريطانى وقد عهد اليه بالسفر الى فارس وتقديم تهانى الحكومة البريطانية للشاه الجديد بمناسبة اعتلائه عرش فارس ، كما عهد اليه بالادلاء بآرائه حول افضل الطرق لتقدم العلاقات البريطانية الفارسية . وقد أصبح بالمرستون هذه المرة أكثر ادراكا بخطور قيام الروس باحتلال فارس مما كان فى السابق وفى شهر أكتوبر ١٨٣٥ صرح بالمرستون : (ان استقلال فارس هدف من الأهداف الكبيرة للسياسة البريطانية ليس لارتباط ذلك بالهند فحسب وانما لارتباطه باستقلال الباب العالى أيضا لأن الروس يمارسون نفس الاستراتيجية السياسية تجاه كل من فارس والباب العالى) فروسيا كانت تتوغل فى منطقة البحر الأسود وتثوى أن تقوم بنفس الشيء فى منطقة قزوين والهدف هو الاستيلاء على كل من فارس والباب العالى (١) .

كذلك كان بالمرستون يعرف أن عدااء الشاه الجديد يعود الى حد كبير الى قيام بريطانيا بإلغاء البنود الخاصة بالدفاع فى معاهدة طهران ، وأن ثقة الفرس فى تأييد هذه البلاد ومناصرتها لهم قد حل محلها اليأس من مساعدة انجلترا لهم فى صراعهم للاحتفاظ باستقلال بلادهم ضد روسيا ، كما أن اعتقاد فارس بأنها لا تستطيع الوقوف فى وجه روسيا بغير مساعدة من بريطانيا قد دفعهم أكثر للانصياع لأطماع روسيا (٢) . فاذا قام الروس فى توسيع حدودهم شرقا نحو أفغانستان فإن ذلك سيقرب الروس أكثر الى حدود الهند . ولهذه الاعتبارات كان هدف بريطانيا ذا شقين :

- (١) من بالمرستون الى اللورد درهم السفير البريطانى لدى روسيا ١٨٣٥/١٠/٢٧ وقد أشار الى ذلك ونستون فى كتابه (سياسة بالمرستون الخارجية) فصل ٢ ص ٧٤١ - ٧٤٢ .
- (٢) متفرقات الخارجية البريطانية مجلد ٨٣٣ من بالمرستون الى هوب هاوس ١٨٣٦/٥/٦ .

تعديل معاهدة ١٨١٤ بحيث تتعهد بريطانيا بمساعدة الشاه اذا تعرضت بلاده لآى هجوم من الخارج ، والثانى هو الحيلولة دون قيام الشاه بهجوم على اى دولة أخرى . والواقع أن الشق الثانى كان الشق الأكثر أهمية فى تلك المرحلة ، ليس لمنع الشاه من التفكير فى خلق صدام مع روسيا فحسب بل ان ذلك سيحول بينه وبين غزو افغانستان ، وإن خير ضمان لكلا الاحتمالين هو أن تتعهد بريطانيا للشاه بالدفاع عن فارس بشرط ألا يقوم الشاه بالاعتداء على أى دولة قبل استشارة الحكومة البريطانية فى ذلك .

وقد اختير الدكتور جون مكنيل الطبيب السابق للمفوضية البريطانية فى طهران والوزير المفوض الجديد بتنفيذ تلك المهمة وذلك عند تعيينه فى ذلك المنصب فى شهر مايو ١٨٣٦ ، وقد طلب منه بأن يعرض على الشاه ابرام اتفاقية دفاعية جديدة وفقا للصفة التى اقترحها بالمرستون بالإضافة الى اضافة فقرات جديدة للاتفاقية تنص بالمساعدة وتختلف عن الفقرات التى وردت بمعاهدة طهران السابقة ، على أن تحل الفقرات الجديدة محل الفقرات الواردة فى الاتفاقية السابقة أو عقد معاهدة جديدة (فإذا وافق الشاه على عقد معاهدة جديدة فيتعين على مكنيل أن يحذف منها البنود التى تحظر على الحكومة البريطانية التدخل فى أى صراع ينشب بين فارس و افغانستان مالم يطلب اليها الطرفان المتنازعان ذلك) كما يتعين على الدكتور مكنيل اضافة ملحق للمعاهدة فى شكل اتفاق تجارى جديد يمنح بريطانيا نفس الامتيازات التى حصلت عليها روسيا بموجب معاهدة تركمان شاى والتى تنص بتعيين قناصل بريطانيين فى أى جزء من الاراضى الفارسية . (١)

والواقع ان هذه الأهداف كانت على جانب كبير من الأهمية فإذا كان لابد من الدكتور مكنيل أن يحققها فعليه أن يتحرك بسرعة لأن جميع القرائن

(١) مسودات المجلس التقارير السرية للهند مجلد ٩ مسودات الى الحاكم العام بتاريخ ١٨ مايو ، ٧ يونيه ، ١٥ يونيه ، ٧ يوليه ١٨٣٦ (أرقام ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٨) ومرفق معها صور من تعليمات مكنيل .

فى النصف الثانى من عام ١٨٣٦ كانت تدل على تحرك وشيك يقوم به الجيش الفارسى فى اتجاه الشرق . وكان أحد الدلائل هو إبعاد الضباط البريطانيين من القصر الملكى ، الأمر الذى اعتبر كمقدمة لإبعادهم من الجيش الفارسى كليا ، وكان هذا يعنى شيئا واحدا ، وهو أن الشاه أدرك أن وجودهم فى فارس يشكل عائقا للخطة التى كان ينوى القيام بتنفيذها .

وفى شبه الجزيرة العربية كانت هناك تيارات أخرى . وحتى قبل أن تصطدم خطة محمد على باشا فى التحرك الى سوريا بوجود البعثة البريطانية فى العراق كان محمد على باشا يتطلع الى الجنوب كطريق بديل الى العراق التركى ، وكان فيصل بن تركى الأمير الوهابى الجديد يلقى صعوبات كبيرة فى إخضاع أهالى الأحساء لسلطته بعد أن تمرد شيوخ بنى خالد عليه ، كما كان عبد الله بن أحمد حاكم البحرين يحاصر المناطق الساحلية للأحساء . وفى صيف عام ١٨٣٥ قام أحمد باشا والى الحجاز بإيفاد وكيله عبد الله بن مشارى الى الأحساء وكان هذا من تجار البحرين السابقين ، وقد سافر مشارى عن طريق مسقط حيث رحب به السيد سعيد وقدم له كل المساعدات الممكنة . وعند وصول مشارى الى القطيف أعلن أنه قد جاء ليتولى البلاد باسم أحمد باشا الذى عينه . هناك مقابل دفع إيجار سنوى قدره ٢٠ ألف الى ٢٤ ألف ريال نمسوى . غير أن إقامة مشارى فى القطيف كانت قصيرة ، فقد قام جنود فيصل بطرد مشارى من القطيف وتأكيد سلطة فيصل على المنطقة (١) .

لقد تردد فى أرجاء الخليج بأن القصد من مهمة مشارى هو صرف أنظار فيصل عن اليمن حيث كان أحمد باشا يحاول استكمال سيطرته على

(١) متفرقات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ (لمحة تاريخية عن الوهابية من ١٨٣٢ - ١٨٤٤ تأليف كمبل) .

— ٥٠١ —

قبائل عسير اليمنية (١) كما كان من الممكن أن تكون مهمة مشارى هي لاختبار سيطرة فيصل على الأحساء وفى نفس الوقت جس نبض السيد سعيد فى التعاون على القيام بعمل مشترك لاختضاع كل من البحرين والأحساء للسلطة المسقطية المصرية المشتركة .

وكان محمد على باشا قد عرض مثل هذا المشروع على السيد سعيد عام ١٨٣١ غير أن اهتمام محمد على فى ذلك الوقت كان مركزا على الاستيلاء على سوريا أكثر مما كان مركزا على مغامرات بعيدة من هذا النوع ، ولهذا حاول أن يخدع السيد سعيد بعرض اقتراح مضاد يضم الأحساء والبحرين الى سلطة السيد سعيد ، ووضع قوات كافية فى البلدين لتمكين السيد سعيد من الاحتفاظ بهما فى مقابل دفع زكاة سنوية مقدارها ٣٠٠ ألف ريال نمسوى . غير أن السيد سعيد رفض الفكرة رفضا باتا (٢) أما ما اذا كانت مهمة مشارى تتعلق باحياء تلك الخطة أم لا فان ذلك كله كان نذيرا بما يخبئه الغيب من أحداث .

(١) من مستهل عام ١٨٣٤ تحرك أحمد باشا ضد عناصر من الحامية المصرية فى الحجاز التى سبق أن تمردت على سلطته قبل ١٨ شهرا من ذلك التاريخ وأقاموا لهم سلطة فى اليمن فى كل من مخا والحديدة .وبنهاية ربيع ١٨٣٤ تمكن أحمد باشا من اخضاع المتمردين عليه كما تمكن فى نفس الوقت من ارغام اليمن فى صنعاء على الاعتراف بسلطة محمد على باشا .

(٢) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٥ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٣/٤/١٨٣٢ (رقم ١٠ الادارة السياسية) .

الفصل الثامن

الأزمات المصرية والفارسية (١)

١٨٣٧ - ١٨٤٠

فى أواخر عام ١٨٣٦ أفرج محمد على باشا عن خالد بن سعود أحد أفراد الأسرة السعودية ، وكان الأخير قد أخذ أسيرا من جانب القوات المصرية مع أخيه الأمير عبد الله الذى فقد فيه إبراهيم باشا حكم الأعداء فى القسطنطينية بعد سقوط الدرعية عام ١٨١٨ ، ومنذ ذلك الوقت كان خالد يقيم فى القاهرة تحت الإقامة الجبرية لدرجة أنه تطبع بالطباع المصرية . وما هو الآن يتم أعداده لاسقاط حكم فيصل واخضاع نجد والاحساء لسلطة محمد على باشا . وكانت الأوامر قد صدرت الى اسماعيل باشا حاكم المدينة لتزويد خالد بما يحتاجه من الجنود والعتاد .

وفى أوائل عام ١٨٣٧ بدأ خالد تحركه نحو منطقة القاسم . وقد حاول فيصل فى البداية ان يقنع محمد على باشا بالكف عن تأييده لخالد ، وعرض مقابل ذلك الاعتراف به كحاكم على نجد ، غير أن الوالى لم يكثره لطلب فيصل ، وفى أواخر إبريل أخذت قوات خالد تقترب من الرياض واستطاع بسرعة الاشتباك مع القوات التى يقودها فيصل وهزيمته فى

(١) ان الجزء الأكبر من هذه المعلومات والأخرى الى وردت فى الفصل السابق قد ظهرت فى مقال كتبه فى شهر يوليو وأكتوبر عام ١٨٦٥ فى مجلة دراسات الشرق الأوسط « بعنوان » حملة محمد على الى الخليج الفارسى « ١٨٣٧ - ١٨٤٠ » وانى لادين بالشكر الى رئيس تحرير هذه المجلة البروفسور ايلى خضورى وناشرها المستر فرنك كاس لسماحهما لى لاعادة نشر هذه المعلومات فى هذا الكتاب .

- ٥٠٣ -

المعركة • وتراجع فيصل الى الاحساء بعد أن أخلى العاصمة لخصمه (١) •

وقد تلقى الكابتن هانيل المقيم السياسى البريطانى بالوكالة نبأ سقوط الرياض فى الأسبوع الثانى من شهر مايو واقترن هذا النبأ بانتشار اشاعة عن القوات المصرية المساندة لخالد بالهسا كانت أكثر عددا مما كان معروفا فى البداية ، وعلى الفور أرسل هانيل أحد الطرادات الى البحرين برسالة عاجلة الى حاكمها عبد الله بن أحمد وبرسالة أخرى الى المقيم البريطانى هناك لاستيضاحهما عن صحة تلك الاشاعة وعن التحركات المصرية • وقد رد عبد الله بن أحمد على رسالة المقيم بأن ذكر له بأن القوات المصرية التى هاجمت الرياض تتألف من الف فارس والف من المشاة ، وأن هذه القوات قد وصلت الى ما وراء مدينة الرياض بمسيرة سبعة أو ثمانية أيام • اما وكيل المقيم البريطانى فقد حدد عدد القوات الراكبة بـ ١٥٠٠ والمشاه بنحو ٥٠٠ رجل كلها بقيادة اسماعيل باشا نفسه ، وكان مع القوات اثنا عشر مدفعا والرابعة مدافع من طراز مورتر ، وكانت هذه الأسلحة الميكانيكية تحت اشراف راشد باشا وكانت قوات الاحتياط ترابط فى القطيف وتتألف من ٨٠٠٠ خيال بقيادة خورشيد باشا ، وفى جميع المناطق الواقعة بين الرياض والمدينة قد أصبحت حاميات عسكرية كدليل على ان هذا الجيش ينوى البقاء بصفة دائمة فى البلاد • وكان الشيخ عبد الله بن أحمد كما جاء فى رسالة وكيل المقيم البريطانى قلقا من الهدف النهائى للحملة وكان أكثر ما يخشاه أن يقوم تعاون بين محمد على باشا والسيد

(١) مجموعات مجلس الادارة مجلد ١٦٩٩ رقم ٦٨٧٧٢ من هانيل الى ويلومى ، ٢/٢٥ ، ٣/١٥ ، ٨ ، ١٥/٥/١٨٣٧ . كذلك راجع مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٤٤ مقالة كامبل « لمحة تاريخية عن - الوهابية » ١٨٣٢ - ١٨٤٤ •

سعيد سلطان عمان ، وذلك لاحتلال البحرين عن طريق أساطيل السيد سعيد (١) :

وقد قام هانيل بالرسال التقارير التى تلقاها حول هذا الموضوع الى حكومة بمباى الى ماكنيل فى طهران ، ومن طهران أرسلها ماكنيل الى لندن حيث وصلت الى وزارة الخارجية البريطانية يوم ١٣ نوفمبر (٢) ، غير ان بالمرستون فضل التريث فى الموضوع ريثما ينجلي له الموقف فى شبه الجزيرة العربية (٣) ، وفى أول ديسمبر تلقى بالمرستون مذكرة من بونسونبى وكانت هذه المذكرة قد تسلمها من اللفتنانت لينش من بغداد ، وتاريخها اغسطس ، وتتضمن الرسالة معلومات على جانب كبير من الخطورة ، اذ يذكر فيها : (انه من الصعب تحديد صورة الأوضاع الراهنة والذي أود أن أنبه اليه هو انه لا توجد أى قوة فى هذه المنطقة تستطيع التصدى لمحمد على باشا او أن تضع حدا لمحاولته الرامية الى الاستعانة بالقبائل العربية فى العراق لتحديد أهدافها . فالعرب بوجه عام اما منقسمون ضد بعضهم البعض او أنهم فقراء . ورؤساء عشائر المحمرة يعارضون نفوذ الباشا

(١) نفس الحلقات والمجلد والمجموعة ، من هانيل الى ويلوبى بتاريخ ١٨٣٧/٦/٨ . (رقم ٧٨ الادارة السياسية) ومرفق معه خطاب عبد الله بن حمد الى هانيل المؤرخ ١٧ صفر ١٢٥٣ الموافق ١٨٣٧/٥/٢٣ ، وخطاب ميرزا محمد على الى هانيل أيضا المؤرخ ١٨ صفر ١٢٥٣ الموافق ١٨٣٧/٥/٢٤ :

(٢) انظر فارس والخليج المجلد ٥٧ من ماكنيل الى بالمرستون ١٨٣٧/٨/٣٤ ورقم (٦٧) .

(٣) مراسلات مجلس الادارة السياسية السرية والعامه المجلد الثامن من جى باك هاوس (السكرتير المساعد بوزارة الخارجية) الى سكرتير مجلس الهند ١٨٣٧/١١/٣ .

بصورة علنية ، ولا يمكن لهذه الأحوال أن تستمر لأجل غير مسمى ، كما أن دخل العراق لا يشكل الا جزءا ضئيلا من ميزانية الحكومة التركية ولعلكم أعلم منى بمدى علاقة محمد على بهذه الأوضاع ، ورغم ذلك فإن تحركات الباشا تتطلب اتخاذ قرار فوري بشأن مصير الامبرطورية العثمانية ، ومدى تأثر مصالحنا المباشرة فى الهند اذا استولى محمد على على ضفاف أنهار العراق وموانى الخليج الفارسى فضلا عن سواحل البحر الأحمر التى سمح له للأسف الشديد باحتلالها ، فقد كان من مصلحة الباشا أن يستولى على هذه المناطق جميعها فذلك أمر يعتبر حيويا بالنسبة اليه لأنه سوف يدعم موقفه وبالتالي يمكنه من تحدى بريطانيا الا اذا تورط فى حرب منهكة وطويلة فى صحراء شبه الجزيرة العربية . . وعلى حين يخفى محمد على نواياه بالنسبة للعراق فإن جيوشه تتقدم فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية ، كما انه نجح فى نشر بذور الخلاف بين الوهابيين وفرض نفوذه على هؤلاء الزعماء الى حد ما ، مستغلا مساندة أحد خصوم الأمير الوهابى فى نجد ، وقد سمعنا (وهذا امر مشكوك فيه) أن مرشح الباشا موجود بالفعل فى الاحساء وهى إحدى المقاطعات الخصبة فى نجد ولا تبعد كثيرا عن حدود الخليج الفارسى (١) .

بعد مضى ثلاثة أيام من استلام بالمرستون لهذا التقرير ، علم من كامبل الموجود يومئذ فى الاسكندرية بأن ابراهيم باشا قد غادر مصر الى سوريا فى يوم ٢٥ أكتوبر ، وذلك بعد مناقشة طويلة جرت بينه وبين كامبل ، وتناولت عجز باشا بفسداد عن بيع جماح القبائل البدوية التى كانت تتحرش بسوريا (٢) . وكان هذا شيئا واضحا . وفى يوم ٨ ديسمبر أوعز بالمرستون

(١) وزارة الخارجية - خطاب من لينش الى بونسوبنى ، أغسطس ١٨٣٧ ومرفق بخطاب بونسوبنى الى بالمرستون ٣٠/١٠/١٨٣٧ (رقم ٢٦٠).
 (٢) وزارة الخارجية - من كامبل الى بالمرستون ٣/١١/١٨٣٧ .
 (رقم ٧١) *

الى كامبل بالاتصال بمحمد على باشا وبحث هذا الموضوع معه بطريقة ودية ، وطلب اليه بأن يوضح للبasha بأن حكومة صاحب الجلالة سوف تشعر بالاسف حيال اى خطوة يقوم بها البasha لمد سلطته الى بغداد(١)، وفي اليوم نفسه قرر بالمرستون توجيه تحذير عنيف : وكتب الى كامبل يقول له : « انه ينبغي عليك ان تبلغ البasha بأن لدى الحكومة البريطانية معلومات عن تحركات لقوات محمد على باشا في سوريا وشبه الجزيرة كمحاولة منه لمد نفوذه الى الخليج الفارسي والعراق ، وبناء على ذلك يقتضى أن توضح له في صراحة تامة بأن الحكومة البريطانية لا يسعها أن تتجاهل مثل هذه الاحداث .

سلم كامبل هذا التحذير في أوائل شهر ابريل عام ١٨٣٨ ، وقد انكر محمد على انكارا تاما بأن له أطماعا في العراق وأما بالنسبة للخليج الفارسي فليس من حق كامبل التدخل في هذا الموضوع ، وأن البلد الوحيد الذى يحق له التحدث في ذلك هو حكومة مسقط وأن محمد على يكن لها كل احترام ومودة خصوصا وأن حاكمها قد أعلن عن رغبته في ادخال الاصلاحات الحديثة الى بلده وبالتالي فان احتلاله لمسقط حتى لو تسنى له ذلك فانه لن يعود عليه بأية فائدة ، لأن هذه البلاد تتمتع بحكم مستنير (٢) ، غير أن كل هذه التأكيدات لم تنجح في تبديد شكوك بالمرستون ، أما كامبل فلم يجد من المناسب في ذلك الوقت بالتوسع في محادثاته مع الوالى حول نشاطات الأخير في نجد لعدم وجود ما يبرر ذلك . وفى نهاية الأسبوع الثالث من شهر مايو أبلغ

(١) وزارة الخارجية - من بالمرستون الى كامبل ١٨٣٧/١٢/٨ .
(رقم ٢٣) .
(٢) وزارة الخارجية من كامبل الى بالمرستون ١٨٣٨/٢/٧ .

- ٥٠٧ -

محمد على كامبل بأن نجد كلها قد أصبحت خاضعة له وبأن شبه الجزيرة العربية من مكة الى المدينة ثم الى سواحل الخليج قد أصبحت تحت نفوذه ، كما ذكر الوالى لكامل بأن السيد فيصل بن تركى قد أعلن اعترافه بسلطة الوالى كما تعهد له بتوقيع العقوبات على المعارضين للوالى ، كما عرض السيد فيصل استعداداه بتقديم المساعدة العسكرية ضد قبائل عسير اذا رأى الوالى ذلك وفى احتلال البصرة ايضا (١) . وبعد أربعة أيام على هذا الاجتماع ، وفى يوم ٢٥ من شهر مايو بالتحديد أعلن الوالى استقلاله عن الباب العالى وتأسيس حكم أسرة محمد على لمصر وسوريا (٢) .

وطبيعى ان يستأثر هذا الاعلان باهتمام بالمرستون أكثر مما استأثر باهتمامه خبر خضوع نجد لوالى مصر . وقد جاءت هذه الاخبار الى بالمرستون فى الوقت الذى كان مشغولا بأزمة أخرى مع حكومة فارس . وعلى الرغم من احتجاجات ماكنيل فقد قرر محمد شاه حاكم فارس التحرك بقواته من طهران صيف ١٨٣٧ للهجوم على الحيرة وهى الولاية الجبلية الواقعة على أقصى الطرف الغربى لأفغانستان ، وكانت هذه الولاية فى ملتقى الطرق الشرقية المتجهة الى كابول وفندهار ، وتمتد منها الى حدود الهند ، وتأسيسا على ذلك فان سيطرة الفرس على هذه المنطقة سوف تعطى الروس مركزا متقدما يسمح لهم بحبك المؤامرات ضد البريطانيين فى مناطق الحدود بين أفغانستان والهند ، ولم يكن من المستبعد أن يكون هجوم فارس على الحيرة قد تم بتحريض من السفير الروسى فى طهران الكونت سيمونيش ، وقد تجلّى ذلك فى القرض الذى قدمه الروس الى

-
- (١) وزارة الخارجية من كامبل الى بالمرستون ١٨٣٨/٥/٢١ رقم (٣٥) . ومرفق به خطاب فيصل بن تركى الى خورشيد باشا ٩ ذو القعدة ١٢٥٣ الموافق ١٨٣٨/٢/٤ .
- (٢) « مؤسس مصر الحديثة » دودويل .

فارس ويبلغ نحو ٥٠ ألف تومان أى (٣٥ - ألف جنيه استرليني) كما وعدوا الحكومة الفارسية باسقاط الديون الروسية عليها فى حالة احتلالها للحيرة ، وكانت هذه الديون قد تراكمت على فارس كنتيجة للحرب الأخيرة بينها وبين روسيا (١) •

كان اقليم الحيرة خاضعا للأمير كرمان ميرزا من أسرة سادوزاى من مرع أسرة الدرانية فى أفغانستان • وقبل قيام الشاه بهذه الحملة كان قد عقد مفاوضات مع رؤساء أسرة البراكارى الحاكمة ، الأعداء التاريخيون لأسرة سادوزاى ، وهم دوست محمد خان حاكم كابول ، وكوهنديل خان حاكم كابول ، وكوهنديل خان حاكم قندهار • وقد أسفرت تلك المفاوضات بالنسبة لحاكم قندهار عن عقد اتفاقية تحت اشراف الروس تنهى استقلال الحيرة ، وأما دوست محمد فلم يكن ينظر الى مسألة ضم الحيرة الى فارس بشئ من الارتياح خوفا من أن يؤدى ذلك الى اضعاف مركزه ، غير أن عداؤه لكرمان ميرزا حاكم الحيرة ورغبته فى استعادة اقليم بشاور من رانجندت سنج حاكم البنغال الذى كان حليفا لحكومة الهند البريطانية جعلته يستقبل مبعوثى حكومتى فارس وروسيا • كذلك فان احتمال عقد حلف بين أمراء أفغانستان وشاه فارس بتأييد من روسيا كان يشكل كابوسا لحكام الهند انبريطانية • ومن هنا أصبحت مهمة اللورد اكولند الحاكم العام للهند بعد عام ١٨٣٧ هى العمل على افشال قيام مثل ذلك الحلف والحفاظ على استقلال الدولات الافغانية كمناطق عازلة للهند •

وعلى الرغم من وصول ماكنيل الى طهران الا انه فشل فى محاولته لاقناع الشاه على تعديل معاهدة ١٨١٤ التى كانت تخول للحكومة البريطانية التدخل فى أى نزاع بين فارس وأفغانستان ، كما أنه أخفق أيضا فى منع الشاه من الهجوم على الحيرة ، ولم يبق أمامه بعد ذلك الا أن يلجأ الى

(١) دليل الخليج فصل ١ ص ١٨٦٣ تأليف لوريمر •

أسلوب الحوان ، أو اذا فشل فى ذلك فليستخدم أسلوب التهديد لئلى يقنع الشاه بعدم اللجوء الى الحرب . وهكذا وفى شهر مارس ١٨٣٨ غادر ماكنيل طهران الى معسكر الشاه الواقع بالقرب من الحيرة ، ولكنه قبل ان يغادر طهران كتب الى الحاكم العام فى الهند والى بالمرستون يذكر لهما بأن عملية استعراض القوة فى فارس أصبحت أمرا ضروريا لارغام الشاه على الاحتكام الى المنطق . وفى الأسبوع الثانى من شهر مارس أعرب اللفنتانت كواونيل جوستن شيل سكرتير المفوضية البريطانية فى طهران عن نفس الآراء تقريبا ، وذلك بعد عودته من اجازته فى انجلترا ، وأكد بأن تدهور مركز بريطانيا فى فارس لا يمكن معالجته بقطع العلاقات الدبلوماسية مع فارس لأن الفرس قوم لا يفهمون شيئا اسمه الاعتدال ، ولا يمكن لغير القوة ان تزعزعهم عن موقفهم ، واقترح على غرار ماكنيل ، أن تقوم الحكومة البريطانية باحتلال جزيرة خرك بالقوة والاحتفاظ بها حتى يستجيب الشاه للمطالب البريطانية ، وكتعزيز لهذا الاجراء اقترح شيل احتلال بريطانيا لبوشهر والاحتفاظ بالمنطقتين او باحدهما لأهميتهما التجارية والاستراتيجية ، وقد قال فى هذا المعنى : « بأن مداخل الفرات سوف تصبح بعد ذلك تحت اشراف بريطانيا كما ستخضع منطقة شبه الجزيرة العربية والجزء الجنوبى من فارس لنفوذنا (١) ولكن المشكلة الوحيدة بالنسبة الى اقتراح شيل هو انه قد يشجع روسيا على القيام بخطوة مماثلة باحتلال بعض المناطق الشمالية من ايران وقد يدفع الشاه الى توثيق علاقته بروسيا . ولكن هذه الاحتمالات على حد رأى شيل كانت احتمالات بعيدة بينما سيؤدى اتخاذ موقف سلبى من استفزازات الشاه الى نتائج عكسية على الفور (٢) »

(١) المراسلات السياسية والسرية العامة لمجلس ادارة شركة الهند الشرقية مجلد ٨ مذكرة شيل ١٢/٣/١٨٣٨ .
 (٢) المراسلات السرية والسياسية لمجلس الادارة مجلد ٨ مذكرة شيل ١٢/٣/١٨٣٨ .

كل من بالمرستون وزميله هوب هاوس على استعداد لانتهاج سياسة متشددة مع شاه فارس وأن تطبق هذه السياسة المتشددة على ساحل الخليج . وفى منتصف شهر إبريل كتب هوب هاوس الى اوكلاند يقول : « اننى أتصور أنه فى إمكانك أن تقوم باحتلال بوشهر واحداث قلاقل واضطرابات فى تلك المنطقة اذا تبين لك أن ذلك ضرورى (١) وتضمن الخطاب الذى كتبه الى بالمرستون فى هذا الشأن مايلى : « ان الوقت قد يأتى قريباً عندما يتعين عليك مخاطبة الشاه بلفة تختلف عن اللغة التى تعود سماعها منك قبل الآن، وقد يستدعى الأمر أن تقوم بعملية لاستعراض القوة البريطانية لأرغام الشاه بأنه اذا كان يعرف الطريق الى الهند فانتا نعرف أيضاً الطريق الى أصفهان (٢) غير أن وصول أخبار من الاسكندرية فى أوائل شهر يونيو عن خضوع نجد لمحمد على باشا وعزم الوالى على اعلان استقلاله عن الباب العالى قد حسم هذا الموقف ، فقد كتب هوب هاوس الى اوكلاند يقول : « اننا بالطبع سوف ننحاز الى جانب السلطان العثمانى ، ونحن لدينا بلا أدنى شك الامكانيات اللازمة لهذا الأمر أكثر من أية دولة من الدول الكبرى ، وقد لا يقتصر عملنا على منطقة البحر الأحمر وحدها وانما العراق سوف يكون فى متناول الجيش الهندى ، وأعتقد أنه فى إمكانك أن تقوم بإرسال بعض القوات الى كل من المنطقتين ، وعلى أى حال فان مهمتك الفورية هى أن تقوم باحتلال عدن فهى المنطقة التى كنت تسام عليها منذ وقت طويل ، وهى ليست تابعة لمحمد على باشا ، وأتوقع حتى قبل وصول هذا الخطاب إليك أن تكون قد قمت أنت أو السير روبرت جرانت (حاكم

(١) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٨ خطاب من هوب هاوس الى

اوكلاند ١٨٣٨/٦/٩

(٢) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٩ خطاب من هوب هاوس الى

بالمرستون ١٨٣٨/٤/١٧

بومباي) بالاجراءات اللازمة لتنفيذ هذه الخطة ، ولا يسعنى والحالة هذه إلا أن أفكر فى النتائج التى قد تسفر عنها خطوة محمد على باشا باعلان استقلاله عن العثمانيين ، الامر الذى يبرر لنا احتلال جزيرة خرك ، اذ لابد لوالى مصر أن يتبع اعلانه الاستقلال بمهاجمة العراق فاذا حدث هذا فان القوات البريطانية سوف تكون فى أمس الحاجة الى قاعدة لها فى الخليج الفارسى للتصدى لقوات محمد على . وجزيرة خرك هى المكان الوحيد الذى يصلح كقاعدة عسكرية .: وصحيح أن خرك تابعة للشاه ، غير انه فى ضوء تصرفات الشاه الاخيرة فان الامر بالنسبة لبريطانيا لايحتمل التردد أو الانتظار ، ومن الافضل أن نقوم أولاً باحتلال هذه الجزيرة ، ثم نفاوضه فى شرائها منه ، كما أن هذه الخطوة التى هى فى رأينا خطوة حاسمة قد تدعم موقف ماكنيل فى مفاوضاته مع شاه فارس بشأن الحيرة ، لقد أردت بهذا الشرح أن أضعك فى دائرة الضوء . أما إذا كان باشا مصر سوف يعلن استقلاله عن الباب العالى بالفعل فان هذه الحكومة لاتستطيع أن تترك هذا الامر لتتصرف فيه كيف تشاء ، وانما ينبغى أن توجه إليك أوامر محددة تتصرف بمقتضاها حول هذا الموضوع (١) .

غير أن اوكلاند كان قد قرر قبل أن يصله هذا الخطاب أن يتصرف ، ففى أول مايو أرسل تعليمات الى جرانت فى بومباي يطلب ارسال اكبر قوة ممكنة من الاسطول البريطانى الى منطقة الخليج بالإضافة الى كتيبة من المشاة لاي اجراء قد يتخذه ماكنيل (٢) .

(١) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٨ من هوب هاوس الى اوكلاند

١٨٣٨/٦/٩ .

(٢) بيانات ووثائق (١٨٣٨) مجلد وثيقة ١٣١/٤ خطاب رقم ٢ من

ماكناتن (سكرتير حكومة الهند الى ويلوبى ١٨٣٨/٥/١ .

- ٥١٢ -

كانت القطع الاحتياطية المتوفرة من الأسطول الهندي في ذلك الوقت تتكون من الطراد كوت - والفرقاطة الفرات والفرقاطة البخارية سميراميس والسفینتان برنيس وهولندس وكانت الفرقاطة الفرات قد أبحرت بالفعل الى برسائل الى ماكنيل تتضمن الخطوات التي قررت حكومة بومباي القيام بها ، كما صدرت الاوامر الى برنيس بالاستعداد للسفر بأسرع وقت ممكن . ولما كان من المقرر أن تبحر برنيس بالبريد الصحراوي الى السويس يوم ٢١ مايو ، ولم تكن هولندس صالحة للعمل خصوصا في ذلك الفصل الذي يصادف هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، فقد كانت السفينة الوحيدة المتوفرة للعمل في الخليج هي سميراميس ، ففي بداية شهر يونيو أبحرت هذه السفينة بـ ٥٠٠ جندي من بومباي ، وبمدفعين عيار ٦ ، بالإضافة الى سفينة نقل اخرى الحقت بالقوة ، وقد أبحرت هذه القوة من بومباي بقيادة الكوموندور جى . بى . برکس (من الأسطول الهندي) مساء يوم ٤ يونيه ، وقبل أن تتحرك القوة أصدر قائدها أمرا الى الكابتن هانيل بوجوب انزال الجنود في جزيرة خرك لانه اعترض على بقاء الجنود في السفينتين لفترة محدودة من الانتظار ، كما طلب اليه تحذير السلطات الفارسية في بوشهر بأن القوة العسكرية الموجودة في جزيرة خرك على اهبة الاستعداد للعمل في أى لحظة ، واذا لمس هانيل أن الفرس يستعدون لمقاومة هذه القوة في حالة نزولها للجزيرة فعليه أن يختار بين مواصلة الخطة أم لا (١) .

(١) نفس المصدر خطاب رقم ٤ وخطاب رقم ٨ مداولات اللجنة الطارئة لحكومة بومباي وخطاب من برکس الى ملفيل (سكرتير) شركة الهند الشرقية) سميراميس : ١٨٣٨/٦/١٩ وقد شكل الجيش من بعض جنود الفرقة ١٥ والفرقة ٢٣ والفرقة ٢٤ ومن الفصيلة البحرية .

وصل ماكنيل الى معسكر الفرس الواقع بالغرب من الحيرة يوم ٦ ابريل ، وقد وجد الشاه ممتعضا من فشله فى ارغام حامية الحيرة على الاستسلام . وبالنظر الى تدهور روحه المعنوية فقد رحب الشاه باقتراح ماكنيل للتوسط بينه وبين سكان الحيرة ، ولكن ماكاد المبعوث البريطانى يغادر المعسكر لمفاوضة أهل الحيرة على تسوية النزاع مع الشاه حتى وصل الكونت سيمونيش الى المعسكر ، وكنتيجة لذلك رفض الشاه مشروع الصلح الذى اقترحه ماكنيل واخذ يضاعف من عملياته لاحتلال المنطقة وقد أدى ذلك الى ازدياد الموقف سوءا بين ماكنيل والشاه وبذلك توترت العلاقات بينهما . وفى منتصف شهر مايو تاكد ماكنيل من أن الشاه لا ينوى رفع الحصار عن الحيرة الا اذا قامت بريطانيا بارسال تحذيرات اليه واتخاذ خطوات أشد من جانبها ، ومع ذلك فقد شعر ماكنيل بأن لابد من بذل محاولة اخيرة مع الشاه للاستماع الى صوت العقل . والى جانب موضوع الحيرة كانت هناك مسائل اخرى وكان يهم ماكنيل أن يصل الى حل مرض بشأنها . ومن هذه المسائل ما حدث لساعى المفوضية البريطانية فى طهران الذى تعرض لاعتداء من قبل المسئولين والجنود الفرس بينما كان الساعى فى طريقه من الحيرة الى طهران . وقد استولى الجناة على البريد الذى كان يحمله ، ثم بعد ذلك بشهرين ، أى فى شهر ديسمبر ١٨٣٧ ، نشأ نزاع بين طبيب المثلثة البريطانية فى بوشهر وأحد الدراويش ، وعلى اثر ذلك طلب حاكم بوشهر من المقيم البريطانى بالوكالة تسليم الطبيب للمحاكمة أمام محكمة البلدة ، غير أن المقيم رفض طلب السلطات الفارسية التى أرسلت تهديدات ضمنية الى المقيم بأنها سوف تنزل أشد العقاب بالمقيم ورجال المثلثة وأنهم سيلاقون المصير الذى سبق أن لقيه السفير الروسى لدى فارس الذى هاجمه الأهالى هو

واعضاء سفارته ومزقوهم اربا فى طهران فى فبراير ١٨٢٩ (١) ، وقد رد
ماكنيل بعنف على تهديد السلطات الفارسية وارسل مذكرة لرئيس وزراء
فارس يحتج فيها بشدة ويتهم السلطات الفارسية بأنها تقف وراء تصرفات
حاكم بوشهر وأكد له بأن هذه التهديدات لا تخيف المسؤولين البريطانيين
الذين يستطيعون الرد عليها بقوة (٢) . وقد أيد بالمرستون مذكرة ماكنيل
حول هذا الموضوع وأوعز فى شهر ابريل ١٨٣٨ الى ماكنيل بأن يتصل بالحاج
ميرزا أغاسى وتحذيره بأن حكومة صاحب الجلالة تطالب وتتوقع الحماية
المقيم البريطانى فى بوشهر وأنها تعتبر الحكومة الفارسية مسئولة عن
سلامته (٣) .

وفى مقابلة لماكنيل مع الشاه بتاريخ ١٦/٥ سلمه مذكرة بريطانية
تحدد فيها الشروط التى توافق بريطانيا بمقتضاها على عودة العلاقات
الودية مع فارس ، وأهم ما فى تلك الشروط مطالبة بريطانيا بعقد « اتفاق
متكافئ » بين حاكم الحيرة وشاه فارس بالاضافة الى توقيع العقوبات اللازمة
على المسؤولين الفرس عن الاعتداء على ساعى المفوضية البريطانية فى فارس
وتخلى حكومة فارس عن طلبها بمعاقبة الموظفين العاملين فى الممثلة قبل

(١) فارس والخليج مجلد ٥٩ من الدكتور مكنزى الى ماكنيل بوشهر
١٨٣٧/١٢/٢٧ ومرفق مع خطاب ماكنيل الى بالمرستون طهران
١٨٣٨/٢/١٧ (ورقم ١٧) .

(٢) بيانات ووثائق (١٨٩٠) مجلد ٤٠ وثيقة رقم س/١٧١ وخطاب
رقم ٧٢ من ماكنيل الى الحاج ميرزا اغاسى ومرفق معه خطاب ماكنيل الى
بالمرستون الذى أرسله من طهران بتاريخ ١٨٣٨/٢/٢٨ (٢) خطاب وزارة
الخارجية البريطانية رقم ٦٠/٥٥ من بالمرستون الى ماكنيل ١٨٣٨/٤/١٤
(٣) ٥٥/٦٠ من بالمرستون الى ماكنيل ١٨٣٨/٤/١٤ (رقم ٢٠) .

عرض الأمر على الوزير البريطانى فى طهران ، كما طالبت المذكرة بعقد معاهدة تجارية تمنح الوكلاء التجاريين البريطانيين فى الاراضى الفارسية نفس المعاملة التى يلقاها قناصل الدول الأخرى وإبعاد الموظفين المسؤولين عن توجيه الإهانات والاتهامات الى المقيم البريطانى من مكتب حاكم بوشهر (١) . وفى الرد الذى تلقاه ماكنيل على مذكرته حاول رئيس الوزراء التملص بأسلوب ذكى من المطالب البريطانية ، غير أن ماكنيل لم يتردد فى الاعراب لهم عن هذا الراى . كما لم تسفر المقابلة الثانية لماكنيل مع حاكم فارس والتى تمت يوم ٣٠ مايو عن نتائج أفضل من نتائج المقابلة السابقة ، وأخيرا أدرك ماكنيل بأنه لافائدة من البقاء فى معسكر الشاه حتى لايتعرض لمزيد من الإهانات وبعد أن قام ماكنيل بتوجيه تحذير نهائى الى الشاه من أن الحكومة البريطانية لن تبقى مكتوفة اليدين ازاء حصار الشاه لاقليم الحيرة . حمل ماكنيل علم الممثلة وغادر المعسكر الى مشهد وغادر طهران يوم ١٦/٧ (٢) .

بعد عشرة أيام على هذا الحادث وصلت الحملة البحرية القادمة من بومباى الى ميناء بوشهر ، وفى يوم ١٩/يونيه نزلت القوات البريطانية منها الى جزيرة خرك (٣) أما ماهى الخطوة التى تخطوها بريطانيا بعد هذه العملية فإن ذلك الأمر كان ينتظر البت فيه . لقد كان اوكلاند منذ بداية الأمر يظهر

(١) فارس والخليج مجلد ٦٠ من ماكنيل الى بالمرستون من معسكر الشاه فى الحيرة ١٨٣٨/٥/١٧ (خاص) .

(٢) فارس والخليج من ماكنيل الى بالمرستون من مشهد بتاريخ ١٨٣٨/٦/٢٥ رقم (٣٠) .

(٣) مرفقات لرسائل حكومة بومباى السرية مجلد ١٠ ومرفق معه خطاب السكرتير رقم ١٤ المؤرخ ١٨٣٨/٧/١٤ من هانيل الى السكرتير السياسى لحكومة بومباى بتاريخ ١٨٣٨/٦/٢٠ (رقم ٢٨ الادارة السياسية) .

حماساً شديداً لاتخاذ إجراء ما فى الخليج ، وقد كتب فى هذا الصدد خطاباً الى هوب هاوس بعد خروج الحملة جاء فيه « اننى لا أميل الى الموافقة على هذه الحملة لانى اعارض الأعمال العسكرية الصغيرة التى لا تقوم على هدف محدد ، واذا كان لابد من مثل هذه الاجراءات فانه يتعين على أن اكون أكثر وضوحاً فيما سأرسله من تعليمات الى حكومة بومباى حتى تقوم بوضع السفن والطرادات على أهبة الاستعداد فى بوشهر ، والا ففى إمكانها الاحتفاظ بقوة عسكرية صغيرة تبقى على أهبة الاستعداد هناك . وعلى أى حال فانه من المحتمل أن يؤدي هذا الاستعراض للقوة ، رغم صغره ، الى دعم موقف ماكنيل خلال مفاوضاته مع حكومة فارس ، وأن الخطاب الذى تلقته منه حول هذا الموضوع يتضمن رغبته الاكيدة فى اتخاذ إجراء كهذا (١) وكان اوكلاند يرى بأن أفضل عمل نقوم به لارغام الفرس على الانسحاب من اقليم الحيرة واتقاء الأخطار التى تأتينا من تلك الجهة هو أن نقوم باجراء عسكري ضد افغانستان . وهذا يقتضى تثبيت حكم رانجت سنج فى بشاور والاتفاق معه على خلع دوست محمد حاكم كابول وتنصيب شاه شوجا المطالب بالحكم مكان دوست محمد ، وذلك بسبب غموض موقف روسيا ، واذا تم هذا فان من المتوقع أن يوافق شاه شوجا على عقد حلف مع حاكم اقليم الحيرة السوداوى . وقد أبدى بالمرستون ميلا الى تبني هذا الاقتراح وصرح : « بأن الخطوة المليمه أمامنا هى القيام بعملية عسكرية كبرى فى افغانستان وبعدها نقوم باعادة تنظيم تلك الدولة تحت زعامة حاكم واحد ، على أن يتم تعويض رانجت سنج باعطائه بشاور وكشمير . وبالتالي فان وجود دولة صديقة مرتبطة بعلاقة مع حكومة الهند البريطانية فى افغانستان سيكون أنضل لنا من حكومة فارس لأن تلك الحكومة سوف تكون تحت سيطرتنا

(١) خطاب من اوكلاند الى هوب هاوس شيملا ١٨٣٨/٦/١٧ .

- ٥١٧ -

وسوف يتيح لنا وجود مثل هذه الدولة مركزا جغرافيا لا يقل عن المركز الجغرافي الذي تتمتع به روسيا في فارس (١) .

ومن ناحية أخرى فقد كان ماكنيل يتصور وجوب ممارسة ضغط أكبر على حكومة الشاه كاجراء لدفعها على الانسحاب من اقليم الحيرة، وقد كتب الى اوكلاند وهو في تبريز حيث توقف بعض الوقت ، وهو في طريقه الى الحدود التركية ، كتب يقترح ارسال مابين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ جندي الى الخليج للقيام بزحف على شيراز وطهران . ولم يرفض بالمرستون الاقتراح رفضا مباشرا الا انه أبدى اعتراضات هامة عليه « اذا كان يتعين علينا ان نقوم بعملية زحف على شيراز فانه من المحتمل ان ننجح ومن المحتمل ان نفشل ، فان فشلنا فاننا سوف نعطي انطبعا مؤسفا عن أنفسنا ، أما اذا نجحنا فان هذه العملية سوف تؤدي الى اهتزاز عرض الشاه وحكمه بدرجة تتجاوز مصالحنا . ان هدفنا بالطبع ليس الاحتفاظ بجنوب فارس وانما ارغام الشاه على التسليم بمطالبنا بالنسبة الى اقليم الحيرة وغيره من المسائل ، غير أن وجود قوات غزو في فارس قد يؤلب الرأي العام ضدنا كما قد يؤدي الى انقسامات خطيرة بين الفرس انفسهم بحيث يضطر الشاه الى الاعتماد أكثر وأكثر على الروس ، وهذا شيء لانسى اليه اطلاقا ، أما القيام بعمليات عسكرية في افغانستان فانه سوف يحقق لنا الهدف المنشود وسوف نتمكن من الاحتفاظ بها، لهذا فلا ينبغي أن نسدد ضربة في منطقة ما كي تحدث نتائج عكسية في منطقة أخرى .

كان الشعور الذي يسود البرلمان البريطاني خلال شهرى أغسطس وسبتمبر يكاد يكون نفس الشعور ، وان كان الرأي الغالب فيه أن الخيار قد

(١) متفرقات حكومة بريطانيا مجلد ٨٣٨ من بالمرستون الى هوب

أصبح فى يد اوكلاند ، وقد تحدث مالبورو فى هذا الصدد الى هوب هاوس فقال : « بأنه لايعتقد بأن اوكلاند سوف يقوم بمثل هذه العملية فى أصفهان ولكنه اذا قام بها فينبغى علينا أن نسانده ، وانى أميل الى الاعتقاد بأن القيام بعمليات عسكرية فى أفغانستان سيكون اضمن لنا من القيام بعمل ضد فارس من الخليج خصوصا واننا لا نملك قاعدة ننطلق منها غير السفن البحرية

غير أن فكرة اعداد هجوم على فارس من الخليج ظلت تسيطر على ذهن بالمستون ، وفى أواخر شهر سبتمبر كتب الى هوب هاوس يقول « بأنه اذا كان فى الامكان ارسال حملة عسكرية الى الخليج للهجوم على طهران وخلق الشاه وتنصيب حاكم جديد مكانه موال للحكومة البريطانية، واذا استطاعت هذه الحملة ان تتحدى الشاه وحلفاء الروس فانها تعتبر خطوة جريئة تستحق أن تقوم بها ، غير أننى أعتقد أن هذا الاجراء فوق امكانياتنا ، وبالرغم من أن نجاح مثل هذه العملية سيكون نجاحا عظيما ، فان فشلها سيكون فشلا قاتلا .

غير أن هوب هاوس عارض هذه الفكرة كما عارض موقف البرلمان وعلى الاخص موقفى مالبورو وبالمستون اللذين تركا الامور لاولكلاند لتقريرها : « اننا ملزمون بتحديد موقفنا من التحركات الجارية على سواحل الخليج لان هذه التحركات ان تقتصر على احتلال جزيرة خرك لوحدها وعلى العدد القليل الذين تتألف منهم الحملة ، اننا نعرف أن ماكنيل طلب ارسال ٥٠٠٠ جندي .

وأنه طلب من الكابتن هاثيل المقيم البريطانى العمل على احتلال بوشهر ، واذا قدر للقوات العسكرية ان تصل الى الشاطئ وترفع العلم البريطانى على جزء من اراضى فارس فان الشاه فى هذه الحالة سوف يخبر بين أن يخضع لشروطنا أو أن تقوم الحملة بالزحف على البلاد . ان التردد فى هذه القضية أو التراجع عنها سوف يصيبنا بالعار الابدى ليس بين جيراننا الشرقيين فحسب بل فى أوروبا كلها . وبالتالي فان علينا أن نعد أنفسنا لاتخاذ قرار حاسم وأن نعلنه على الرأى العام وذلك على ضوء الاقتراح القائل بـ

بفزو فارس » .

فى جلسة البرلمان المنعقد فى وندسور يوم ٦ اكتوبر تم اتخاذ القرار النهائي فى هذا الموضوع وقد تم ابلاغ اوكلاند به بموجب المذكرة المؤرخة ٢٤ اكتوبر (١) ، وقد تضمنت هذه المذكرة العدول عن القيام بأى عملية لغزو فارس من الخليج لأن عملية كهذه ستعتبر حربا سافرة . ولما كان من المتوقع أن ينضم عدد كبير من سكان المنطقة الجنوبية من فارس الى القوات البريطانية فان الحملة سوف تظهر وكأنها محاولة لخلع الشاه ، ومهما تكن هذه الخطوة مفيدة لخلع حاكم ، كان ولايزال مستعدا لفتح بلاده لأى دولة تغذى فيه نزعات الفتح والتوسع ، فان هناك احتمالا بأن يدفع هذا الغزو حكومة الشاه الى طلب العون من روسيا ، الامر الذى سيؤدى الى نشوب حرب بين بريطانيا وروسيا فى آسيا ، لهذه الاسباب ينبغى أن تنحصر المطالب البريطانية من حكومة فارس فى الحصول على تعويضات عن الأضرار التى لحقت بالمفوضية البريطانية فى طهران ، وتخلّى الشاه عن أطماعه فى أفغانستان ، كما تقرر بقاء الحملة العسكرية فى خرك حتى يتم الوصول الى اتفاق حول هذا الموضوع ، وبعد أن يتحقق هذا المطلب يمكن أن يطلب من الشاه الموافقة على بقاء خرك كقاعدة للأسطول البريطانى فى الخليج .

أما الشاه فقد قرر رفع الحصار عن اقليم الحيرة قبل أن يعلم البرلمان البريطانى بذلك ، ففى منتصف شهر يوليو تسلم ماكنيل فى تبريز مذكرة من بالمرستون تاريخها أواخر مايو ، وقد أوعز اليه فيها بأنه فى حالة فشله فى اقناع الشاه برفع الحصار عن اقليم الحيرة يتعين عليه أن يوضح له الآتى: أن الحكومة البريطانية لا تستطيع بأى حال أن تغض الطرف عن مخطط الشاه لاحتلال أفغانستان ، وبأن حكومة صاحب الجلالة لديها من الاسباب ما يجعلها تعتقد بأن خطة الشاه هذه قد تمت بالاتفاق مع روسيا ، وأن

(١) من مسودات مجلس ادارة الشركة التقرير السرى المجلد العاشر

الحكومة البريطانية لذلك ينبغي أن تنظر الى هذه الخطة باعتبارها مظهرًا
عدائيا من مظاهر السياسة الفارسية ضد حكومة الهند البريطانية . .
وبالتالى فانه او قدر لخطط الشاه أن تحقق النجاح فان ذلك سوف يضع
حدا لعلاقات الصداقة التى ظلت حتى الآن قائمة بين بريطانيا العظمى
وحكومة فارس ، وبأن الحكومة البريطانية سوف يتوجب عليها تبعا لذلك
أن تتخذ من الخطوات ما تراه ضروريا لتأمين مصلحتها والحفاظ على ممتلكات
التاج البريطانى فى الهند (١) .

وقد قرر ماكنيل تسليم هذا التحذير الى حكومة الشاه وذلك فاقدا
أوفد أحد أعضاء هيئة المفوضية البريطانية الكولونيل استودارت ليقوم
بتسليم التحذير الى الشاه شخصا فى معسكره القريب من اقليم الحيرة .
وقد شعر ماكنيل بأن الشاه قد تلقى من الدروس ما فيه الكفاية من تطورات
الاحداث التى مرت عليه منذ خروج ماكنيل . فقد تحطم الهجوم الكبير الذى
قام به الشاه يوم ٢٣/٦/١٨٣٨ على دافعات الاقليم وتكبد الفرس من جراء
ذلك خسائر جسيمة كما ان الانزال البريطانى فى جزيرة خرك واحتشاد
القوات البريطانية فى الهند استعدادا للهجوم على أفغانستان لتأييد أسرة
السادوزى قد أشاع القلق فى صفوف الفرس مما أرغم الشاه على
الاستماع الى مبعوث ماكنيل وعلى موافقته بعد تردد على جميع المطالب التى
سبق له ان رفضها قبل ثلاثة أشهر . وفى اليوم التاسع من سبتمبر

(١) مذكرة الخارجية البريطانية رقم ٦٠/٥٥ من بالمرستون الى
ماكنيل ١٨٣٨/٥/٢١ وقد عاد بالمرستون فبعث بتحذير آخر شديد اللهجة
وذلك فى شهر يوليو (انظر نفس المجلد من بالمرستون الى ماكنيل رقم ١٣٩
المؤرخ ١٨٣٨/٧/٢٧)

انسحب الجيش الفارسي من اقليم الحيرة متجها الى الغرب (١) غير ان رفع الحصار عن اقليم الحيرة لم يؤد تلقائيا الى الغاء خطة غزو أفغانستان فقد عاد ماكنيل فاكد بان هذه الخطة يجب ان تضى قدما حفاظا على المصالح البريطانية في الهند مستقبلا . وكان هذا يعنى علي اي حال عدم التفكير في غزو فارس من منطقة الخليج لانه اجراء لم يكن يتلاءم مع تفكير ماكنيل كما اكدت ذلك المذكرات التي وصلت حول قرار البرلمان الذي اتخذ في شهر اكتوبر ، واذا وضعنا في الاعتبار معارضة اوكلاند لحملة الخليج والنهاية التي انتهت اليها سياسته الافغانية فان ذلك يجعلنا نتساءل عما اذا كان احتلال جزيرة خورك من جانب القوات البريطانية يخدم الغرض المطلوب منه ، وعلى الاخص اذا كان له تأثير على انسحاب القوات الفارسية من اقليم الحيرة . اما هوب هاوس فقد كان يعتقد بأن ذلك الاحتلال لم يخدم شيئا على الاطلاق ، وذكر رايه هذا لجرانت : « اننى أخشى أن تكون الحملة على الخليج قد بدأت متأخرة بينما قال لاوكلاند » بأن الحملة جاءت فعلا متأخرة جدا ، كما كانت صغيرة في حجمها فاذا اتفقنا مع هوب هاوس على أن : « الحملة تبدو له صغيرة ومحدودة جدا وتتعارض مع رايه الذي يقوم على اساس أننا اما ان نتخذ اجراء فعلا وعنيفا أولا نتخذ أى اجراء » أما اوكلاند فكان يعتقد ، وهذا ما يدعو الى الغرابة ، بأن الحملة كانت فعالة وقد كتب في هذا الشأن يقول : « بأن حملة الخليج قد ساهمت الى حد كبير في تعزيز موقف ماكنيل في مفاوضاته مع الشاه (٢) » . اما الكابتن هانيل الذي كان قريبا من

-
- (١) بيانات ووثائق (١٨٣٩) مجلد ٤٠ وثيقة رقم س ١٧١ وخطاب رقم ٩٨ وخطاب رقم ١٠٠ من ماكنيل الى بالمرستون بتاريخ ١٨٣٨/٩/١١ ، ١٨٣٨/١٠/٦ .
- (٢) متفرقات من ارشيف حكومة الوطن مجلد (٨٣٨) من هوب هاوس اننى جرانت ١٨٣٨/٨/٢٨ وخطاب الى اوكلاند بنفس التاريخ .

مسرح الأحداث فقد كان يرفض الراى وهو : « أن خوف الشاه من قيام البريطانيين من اجتياح المنطقة الجنوبية من فارس هو الذى جعله يقرر رفع الحصار عن الاقليم والعودة الى طهران، كما قيل أيضا ، بأن الشاه كان يحس بانزعاج بسبب اضطراوه الى التخلّى عن مكسب اقليمى كان فى متناول يده وذلك بسبب ذلك الاستعراض التافه للقوة البريطانية . وكان شيل سكرتير المفوضية البريطانية فى طهران يؤيد نفس هذا الراى (١) . ثم جاء هنرى رولنسون فأعرب عن رأيه هو الآخر فى هذا الشأن وقال، بأن انسحاب الشاه من اقليم الحيرة لم يكن بسبب الاحتلال البريطانى لجزيرة خرك وانما يعود الى فشل الهجوم الفارسى يوم ٦/٢٣ والذى قرر المصير لتلك الحملة ، ويضيف هنرى رولنسون بأنه اذا كان وجود كتية من ٥٠٠٠ جندى ومدفعين من عيار ٦ هو الذى أدى الى رفع الحصار عن الحيرة وتخلّى شاه فارس عن أطماعه فى ذلك الاقليم فان هذا يعطينا فكرة واضحة عن قوة هذا البلد الذى كنا نتوقع أن يأتينا الخطر منه (٢) .

لقد وقع الاحتلال البريطانى لجزيرة خرك والهجوم الفارسى الكبير الآخر على اقليم الحيرة خلال بضعة أيام من أحدهما الى الآخر ، وبالتالي فمن المرجح أن يكون تأثيرهما على الشاه تأثيرا جماعيا . فليس المهم حجم الحملة العسكرية ، وعلى أى حال فان كلتا النتيجةين كان يمكن أن تثير القلق والانزعاج للشاه . ومن المؤكد أن الحملة قد أحدثت ارتباكا للروس . ففى أول نوفمبر قام الكونت فوزودى بورجا السفير الروسى فى لندن بتسليم مذكرة من الكونت نسلرود الى بالمرستون يحتج الأول فيها بشدة على احتلال البريطانيين

(١) مسودات مجلس ادارة الشركة التقرير السبرى الى حكومة الهند مجلد ٢١ مسودة مرفوعة الى الحاكم بتاريخ ١٨٥٦/١٠/٢٥ ومرفق معه مذكرة من هانيل من شلتهنهام فى انجلترا بتاريخ ١٨٥٦/١٠/٢٢ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٤ من شيل الى باك هاوس أرض روم ١٨٣٩/٢/١٢ .

لجزيرة خرك ويقول نسلرود فى مذكرته بأنه يتكلم باسم الشاه ويقدم الاحتجاج بالنيابة عنه ، كما يقول وزير خارجية روسيا ، بأن وجود القوات البريطانية فى خرك انتهاك صريح لسيادة فارس ، ويتعين سحبها فوراً هى والأسطول العامل فى الخليج ، فإذا تم ذلك فان روسيا سوف تؤيد بريطانيا فى جهودها لاقتناع شاه فارس بالبقاء ضمن حدود بلاده وعدم القيام بعمليات عسكرية جديدة كتلك التى قام بها على اقليم الحيرة (١) ، وقد ذكر بالمرستون لهوب هاوس بأن الروس تتابعهم الحساسية تجاه خرك فقد ركر السفير الروسى تركيزاً شديداً على هذا الموضوع ، ربما لأنهم يدركون الأهمية التى تتميز بها هذه القاعدة ، وقد قال بوزدى ، انكم سوف تنسحبون منها ولكنكم يمكنكم العودة إليها متى شئتم ، والذي استنتجته من هذا القول هو أنه بمجرد انسحابنا من هذه الجزيرة فائهم سوف يقنعون الشاه بوجوب تحصينها بحيث يتعذر علينا الاستيلاء عليها مرة أخرى (٢) ، غير أن بالمرستون لم يكن يرغب فى الانسحاب من جزيرة خرك فى تلك الفترة على الأقل كما أنه لم يكن يهتم بتهدئة المشاعر لوزير الخارجية الروسية ، وقال بأن الاحتفاظ بالقاعدة سوف يستمر كضمان لوفاء حاكم فارس بالوعود التى قطعها لستوردت ، بل من المحتمل أن تطلب انجلترا من الشاه التخلي عن تلك الجزيرة بصفة دائمة لكى تتخذها بريطانيا قاعدة للأسطول فى الخليج ، ولكن بالمرستون لم يكن يتوقع اطلاقاً بأنه ستكون لاحتلال بريطانيا

(١) انظر متفرقات اضافية رقم ٣٦٤٦٩ من نسلرود إلى بوزدى بورجا ١٨٣٨/١٠/٢٠ ومتفرقات وزارة الهند مجلد ٨٣٩ من هوب. هاوس الى بالمرستون ١٨٣٨/١١/١٦ والى اوكلاند ١٨٣٨/١١/٢٤ .

(٢) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٩ من بالمرستون الى هوب هاوس ١٨٣٨/١١/١٤ ويكمن الاطلاع على رد بالمرستون على بوزدى من الخطاب المؤرخ ١٨٣٨/١٢/١٠ .

لحرك تلك الأهمية العظيمة ، لا فى مساومة الفرس على تحقيق تسوية نهائية للمشاكل المعلقة فحسب وانما كمرساة فى خضم العاصفة الهوجاء التى كانت على وشك أن تهب من سواحل الخليج . وفى شهر مايو عهد الى خورشيد باشا بقيادة الجيش المصرى فى نجد الذى كان قد أقام مقر قيادته العامة على بعد نحو مائتى ميل الى الشمال الغربى من الرياض (١) وأمضى خورشيد باشا طوال فصل الصيف فى تدعيم نفوذه فى شبه الجزيرة وانشاء مراكز لتموين الجيش ، كما تلقى تعزيزات من الجنود تقدر بنحو ألفى جندى، وبهذه القوات مجتمعة تحرك فى شهر سبتمبر نحو الرياض . وعند وصوله اليها انضمت اليه قوات الأمير خالد ، ثم بعد فترة قصيرة تحركت كل هذه القوات فى طريقها الى الأحساء . وكان خورشيد باشا قد قام بمبادرة بارسال وفود الى شيخى الكويت والبحرين يخطرهما فيها بتقدم جيشه ويطالبهما بتقديم ما يحتاجه الجيش من تموين عند وصوله الى ساحل الخليج . أما فيصل الذى يبدو أنه كان يعارض الخضوع لمحمد على فقد أخذ

(١) كان مالبورو على عكس بالمرستون يبدى ضيقا شديدا من النتائج غير المرضية التى قد تترتب على التمسك بجزيرة خرك خاصة على ضوء احتجاج وزير خارجية روسيا وقد قال لهوب هاوس : ان الخروج يبدو ضعيفا بالنسبة لجزيرة خرك ولما كانت الحملة قد حققت هدفها بالنسبة لغزو شاه فارس لأقليم الحيرة فإنى أشك فى مبدأ التمسك بهذه الجزيرة بعد التطورات الأخيرة لأن إمتمرارنا فى جزيرة خرك سوف يضىء على ذلك الاجراء الدفاعى طابع الغزو العدوانى (وزارة الهند - متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٩ مجلد ٨٣٩) من مالبورو الى هوب هاوس ١٨٣٨/١١/٣٠) ونزولا على رأى مالبورو فقد أدخل هوب هاوس بعض التعديلات التى أرسلها الى اوكلاند بخصوص خرك راجع خطاب هوب هاوس الى اوكلاند ١ ، ١٨٣٨/١٢/٥ نفس المجلد .

يستعد لمواجهة عسكرية مع خورشيد باشا عند مشارف الرياض ، وقد وضع خطته على أساس أن يقوم بقتال انسحابى الى الأحساء التى أسند الدفاع عنها الى القائد عمر بن عوفيسان وإلى الأحساء (١) ، وطوال شهرين تمكن فيصل بما كان يتميز به من الشجاعة والحنكة العسكرية من الصمود أمام المصريين وخالد ، غير أن خورشيد تمكن فى بداية شهر ديسمبر من محاصرة الأمير فيصل فى ديلم على بعد خمسين ميلا جنوب الرياض بينما واصل خالد زحفه الى أن وصل الى ساحل الأحساء فى القطيف . وقبل نهاية الشهر اضطر فيصل الى الاستسلام بينما أوقف بن عوفيسان العمليات العسكرية وفر هاربا الى البحرين (٢) .

ان أول خبر تلقاه بالمرستون عن تحرك قوات خورشيد باشا من عنزة جاءت من كامبل فى القاهرة ، أما المعلومات الخاصة عن عزم خورشيد باشا الزحف الى الخليج ومنه الى البحرين فقد تلقاها من اللفتنانت كولونيل تايلور المقيم البريطانى فى بغداد ، وفى ٢٩ نوفمبر بعث بالمرستون بالرسالة التالية الى كامبل : -

« ان المعلومات التى تلقتها حكومة صاحب الجلالة مؤخرا من بغداد تفيد بأن القوات المصرية على وشك الوصول الى الأحساء والقطيف بهدف

(١) وزارة الخارجية رقم ٧٨/٣٤٣ من كامبل الى بالمرستون ١٨٣٨/٧/٢ ومرفق معه خطاب خورشيد باشا الى حسين باشا الياور الاول لمحمد على عنزه فى ربيع الاول ١٢٥٤ الموافق ١٨٣٨/٥/٢٨ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٣ من هانيل الى ماكنيل ١٨٣٨/١١/١ وإلى اللجنة السرية بتاريخ ١٨٣٨/١٢/١٥ ومختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٤٥ « ولمحة تاريخية عن الوهابيين » ، ١٨٣٢ - ١٨٤٤ تأليف كامبل .

الاستيلاء فى النهاية على جزيرة البحرين الواقعة فى الخليج الفارسى .
لهذا فأننى اطالب منك بأن تقوم باستفسار محمد على باشا عن صحة
هذه المعلومات وبأن تبلغه بأن حكومة صاحبة الجلالة تثق وتأمل أنه بعد
التفكير فى الأمر أن تتخلى تلك القوات عن نواياها فى احتلال الخليج ،
لأن مثل هذا العمل كما سبق أن تم توضيحه اليه سوف تنظر اليه الحكومة
البريطانية نظرة جادة (١) .

كان بالمرستون متأكدا من أن ذلك التحذير سوف يأتى مفعوله لمنع
الوالى من القيام بمغامرات عسكرية فى شبه الجزيرة العربية ليس فقط
على جانبها الشرقى وإنما على جانبها الغربى أيضا . وعندما كتب بالمرستون
الى هوب هاوس يوم ١٢/٢٤ يقترح استخدام القوات العسكرية فى جزيرة
خرك اذا لم يكن بد من سحبها فى احتلال عدن ، وقد أشار اليه فى هذا
الصدد بأنه يتعين على اوكلاند بأن لا يبدى أى ارتياح تجاه محمد على باشا ،
كما لا ينبغى أن يخشاه لأن الوالى لن يجرؤ على اتخاذ موقف مضاد
لانجلترا بأى حال من الأحوال أو بأى اجراء خطير قد تقوم به للمحافظة على
مصالحتنا ، وان قائد الحامية فى خرك سوف يقوم بتوضيح هذه النقطة
والنقاط المتعلقة بالخلاء القاعدة لسلطان عدن حتى لا تساوره أى شكوك حول
هذا الموضوع (٢) ، وبعد شهرين أى فى شهر يناير ١٨٣٩ استولت بريطانيا

(١) رسائل وزارة الخارجية البريطانية رقم ٧٨/٣٤٣ من بالمرستون
الى كامبل بتاريخ ١٨٣٨/١١/٢٩ .

(٢) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٩ من بالمرستون الى هوب هاوس
١٨٣٨/١٢/١٢ وقد ورد نص هذه الرسالة فى خطاب هوب هاوس الى اوكلاند
بتاريخ ١٨٣٨/١٢/٢٦ بنفس المجلد وقد جاء فى هذه الرسالة : « اننى
اعتقد بأنك سوف تواجه بعض الصعوبات بالنسبة لاحتلال عدن فارجو
الا تضع الوقت وإنما ان تبادر الى استخدام القوة لاحتلال تلك المنطقة
ولا تحاول أن تجمال باشا مصر اطلاقا » .

على عدن بالرغم من معارضة حاكمها على هذا الاجراء ، وقد قامت باحتلالها
قوة من الجيش الهندى فى بومباى •

وفى بداية الشهر كان كامبل قد انتهى من تسليم احتجاج بالمرستون
الى الحكومة المصرية ، غير ان محمد على باشا كان متغيبا عن مصر فى
السودان وقد حصل كامبل على وعد من وزير محمد على باشا باغوص بك
بابلغ رسالته الى الوالى كما أنكر باغوص بك بأن للوالى أطماعا فى
البحرين ، غير أن كامبل لم يتعرض فى مذكرته الى موضوع الاحتلال
المصرى للاحساء (١) • وفى بداية شهر يناير كان خورشيد باشا قد أقام
حاميات عسكرية فى الموانى الهامة الواقعة على ساحل الاحساء كالتخيف
والعقير وسيحات ، كما أوفد مبعوثين منه الى الكويت والبحرين والى
زعماء قبائل المنتفك فى العراق للحصول منهم على امدادات وتموين ، اما
خورشيد نفسه فقد أقام معسكره فى السليمية على بعد بضعة أميال شمال
ديلم بين الرياض والهفوف • وفى نهاية فبراير وصل يوسف ارتون الطبيب
الخاص لخورشيد باشا الى بوشهر يحمل رسائل للكاتب هانيل المقيم
السياسى البريطانى فى بوشهر والى قائد الحامية البريطانية فى جزيرة خرك ،
وقد ذكر هذا الطبيب الذى يعتبر نفسه فرنسيا ، ولكنه ربما يكون سوريا ، بأنه
قد جاء للحصول على مشروب البراندى وغيرها من الاشياء والمواد التى يحتاج
اليها الباشا ، وقد أنكر خورشيد باشا فى رسالته الى هانيل ما ادعى به
سابقا ، من ان حملته الى وسط وجنوب شبه الجزيرة العربية من أجل خالد
بن سعود ، وأضاف فى رسالته بأن نجد قد خضعت له وأصبحت تحت
السلطة الشرعية لمحمد على باشا ، كما ان البحرين التى كانت تابعة للوهايين

(١) من رسائل وزارة الخارجية البريطانية رقم ٧٨/٣٧٣ من كامبل الى

بالممرستون ١٨٣٩/١/٢٦ •

سوف ترغم على الخضوع للوالى وبأن فيصل بن تركى قد أخذ أسيرا وهو الآن فى طريقه الى القاهرة ، أما اتباع الامير وعلى رأسهم عمر بن عوفيسان فقد لجأوا الى البحرين ولكن الترتيبات جارية للقبض عليهم والاستيلاء على الأموال التى هربوا بها، وأما أهل البحرين الذين يرتبطون بعلاقات تجارية ببريطانيا فلم يمسهم اى سوء كنتيجة للاحتلال المصرى للجزيرة (١) . كما ان هدف خورشيد من ارسال هذا الخطاب الى هانيل هو مواجهته بالامر الواقع . ففى يناير بعث خورشيد برسول يدعى محمد افندى الى شيخ البحرين يطالبه بتسليم عمر بن عوفيسان والأموال التى يقال انه استولى عليها ، كما طلب الى الرسول ابلاغ الشيخ بوجوب حضور نجليه الى معسكر الباشا ليأخذهما كرهينة وأن يطالبه باستئناف دفع الزكاة التى كان يدفعها للرياض مع المبالغ المتأخرة . ولم يعرف ما اذا كان الجزء الأخير من هذه المطالب قد أرسل بالنيابة عن الامير خالد بن سعود أم بالنيابة عن والى نفسه ، وقد حاول شيخ البحرين رشوة المبعوث المصرى وعرض عليه (١٣ الف ريال نمسوى) ولكن عندما رفض المبعوث المبلغ صارحه الشيخ بعدم استطاعته الاستجابة لمطالب خورشيد باشا ، لانه على حد قوله تابع لفارس فى السلطة . وعلى اثر ذلك بادر شيخ البحرين الى ارسال خطاب الى أمير فارس يعرض عليه وضع البحرين تحت حمايته ودفع الزكاة السنوية للأمير (٢) .

- (١) مرفقات لرسائل حكومة بومباى مجلد ١٢ مرفق لخطاب السكرتير رقم (٤) بتاريخ ١٨٣٩/٤/١٣ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٣/٢ (رقم ١٤ الادارة السرية) ومرفق معه خطاب خورشيد باشا الى هانيل بتاريخ ٢٤ ذى القعدة ١٢٥٤ الموافق ١٨٣٩/٢/٩ .
- (٢) فارس والخليج مجلد ٦٤ من هانيل الى اللجنة السرية ١/٢٤ ، ١٨٣٩/٢/١٧ ومن تابلور الى اللجنة السرية بتاريخ ١٨٣٩/٣/٢١ .

- ٥٢٩ -

وقبل ذلك بحوالى شهرين وفى الوقت الذى كان المصريون يتقدمون نحو الاحساء وكان شيخ البحرين الذى يراقب تقدمهم بكثير من القلق قد قدم طلبا مماثلا الى المقيم البريطانى فى بوشهر ، وقد أحال المقيم طلبه الى حكومة بومباى دون أن يعلق عليه ، وعندما استشير فى رأيه بعد ذلك ذكر ، بأنه فى الوقت الذى يعتبر فيه وضع البحرين تحت الحماية خطوة مقيدة لنا فى مقابل تصاعد نفوذ محمد على بين القبائل الساحلية لشبه الجزيرة بعد احتلاله لنجد والاحساء ، كما أن الاحراج الذى سوف يسببه انشاء تحالف رسمى مع الخليفة وبالأخص التزام بريطانيا بالدفاع عن ممتلكات البحرين فى قطر يفوق فى خطورته المزايا التى قد تحصل عليها بريطانيا من القيام بهذه الخطوة . وكان من رأى هانيل أن المحافظة على استقلال البحرين أمر جوهري بالنسبة لأمن الخليج ولكنه كان يعتقد من ناحية أخرى بأنه يمكن اقناع خورشيد باشا بالكف عن تهديداته للبحرين مع توجيه تحذير له بهذا الشأن (١) .

وقد عاد هانيل فاضطر الى تغيير رأيه هذا أو على الأقل إدخال تعديل على الجزء الأخير منه وذلك بعد وصول يوسف ارتون مبعوث خورشيد باشا .

وقد ذكر ارتون لمساعد هانيل اللفتات التى ادمونز أن خورشيد على اهبة الاستعداد للهجوم على البحرين ، غير أنه يريد أن يعرف قبل قيامه بهذا الهجوم رد الفعل البريطانى ، كما أنه فى الوقت نفسه ينتظر وصول

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٢ مرفق للخطاب السرى رقم ٤١ مؤرخ ١٣/٤/١٨٣٩ من هانيل الى ويلوبى ٢٢/٢/١٨٣٩ (رقم ١٣ الادارة السرية) .

الامدادات عن طريق البحر الأحمر والتي يتوقع ان تصل فى أية لحظة . ومع ذلك فقد كان هانيل يعتقد بأن البحرين يمكنها أن تصمد لهجوم خورشيد باشا على الأقل الى أن تصل الامدادات التى ينتظر خورشيد وصولها ، غير أن ادموندز لم يكن يشاطره هذا الرأى فقد كتب يقول : « اننى لا أعتقد أن مغامرا مثل خورشيد باشا الذى قام بالزحف من شواطئ البحر الأحمر الى سواحل الخليج وأصبح يثير الرعب بين سكان تلك المناطق قد لا يلقى صعوبة فى الحصول على بعض السفن لعملية عبور المضيق الفاصل الذى يفصل بين جزيرة البحرين وأرض شبه الجزيرة العربية (١) كما لا أتصور أن أى قدر من الاحتجاجات قد يمنعه من تحقيق اطماعه . . على أن شيئا واضحا يبدو تمام الوضوح ، وهو أن الباشا وجيشه متلهفان للوصول الى البحرين طمعا فى وضع أيديهم على الأموال والآلىء التى يعتقدون أنهم سوف يستولون عليها من البحرين ، وعلى الأخص المبلغ الذى يقدر بـ (٤٠٠ ألف ريال نمسوى) والذى يقال (وربما كان هذا رقما مبالغا فيه) أن وزير الأمير فيصل قد هرب به الى البحرين (٢) وقد ذكر ادموندز بأنه بدلا من تقديم الاحتجاجات فانه سيكون من الأفضل تسوية تلك المشكلة عن طريق تسليم شيخ البحرين للمطلوبين أو الأموال التى اصطحبها معه عمر بن عوفيسان ، وذلك بدلا من المضى فى مطاردة الباشا وجيشه وفى رأى أن هذا الباشا قائد موهوب لأن جميع السكان العرب على امتداد المنطقة المينة الى البحرين متحدون ومنضبطين تحت حكم هذا الباشا لدرجة أنهم يقومون بأنفسهم بحراسة المراكز العسكرية وإبقاء الاتصالات مفتوحة مع مصر .

بالرغم من ان هانيل كان يرود رؤساءه بتقارير منتظمة عن تقدم قوات

-
- (١) متفرقات من ادموندز الى ويلوبى بوشهر فى ١٨٣٩/٣/٥ .
 - (٢) اذا تصورنا ان خورشيد باشا يتسلم بريده فى مدة لا تتجاوز ٣١ يوما وقد اقترح ادموندز على الحكومة البريطانية باتباع نفس الترتيب .

خورشيد نحو الخليج خلال الشهور الثلاثة الماضية ، الا أنه لم تكن لديه التعليمات الخاصة بالخط السياسى الذى يتوجب عليه أن يتبعه فى حالة وصول قوات خورشيد الى الخليج . ومن هنا فقد حرص هانيل فى رده على خطاب خورشيد باشا على القول بأن حكومته سوف تنظر بشئ من القلق تجاه أى خطوة معادية يقوم بها ضد البحرين باعتبارها من الدول الموقعة على المعاهدة العامة لسنة ١٨٢٠ ، كما دعاه الى ارجاء هجومه على الجزيرة ريثما يتمكن من احالة القضية الى حكومة بومباى والحصول على تعليماتها فى هذا الشأن ، وفى حالة رفضه لهذا الاقتراح طلب منه أن يمهله بعض الوقت قبل أن يقدم على عملية الهجوم على الجزيرة ، وذلك لكى يتمكن المقيم البريطانى من ارسال بعض القوات لحماية الرعايا البريطانيين والممتلكات البريطانية فى الجزيرة (١) . وقد بعث هانيل بخطابه الى القطيف بيد ادمونز الذى توجه على الطراد دجلة وقد كلف ادمونز أيضا بعملية استطلاع لقوات خورشيد باشا وتحركاته . وصل ادمونز الى القطيف يوم ٢٤ مارس وقد علم من قائد الحامية هناك محمد الكاشف بأن خورشيد باشا لا يزال فى السلمية مع القوات الرئيسية من الجيش ويقدر عددها بـ ٣٠٠٠ جندي وبأنه قد بعث فى طلب امدادات وتعزيزات جديدة تقدر بنحو ألف جندي من الخيالة وألفين من الجنود المشاة ، وذلك من ضمن الاحتياطى من القوات ويقدر عددها بنحو ١٥ ألف جندي والذين يرابطون فى المدينة بقيادة سليمان باشا وبأنه من المتوقع أن تصل تلك التعزيزات الى السلمية فى بحر ١٥ يوما بالسير السريع وكان معقولا أن يستنتج ادمونز من ذلك كما ذكر لهانيل فيما بعد بأن الباشا لن يتمكن من الهجوم

(١) مرفقات حكومة بومباى السرية مجلد ١٢ مرفق لخطاب رقم ٤١

بتاريخ ١٨٣٩/٤/١٣ من هانيل الى خورشيد باشا ١٨٣٩/٢/٢٨ .

على البحرين قبل وصول تلك التعزيزات اليه (١) .

من القطيف توجه ادمونز للاجتماع بعبد الله بن أحمد في البحرين وقد فوجيء ادمونز عند اجتماعه بالشيخ بأنه لم يكن يشعر بأى قلق بسبب تهديدات خورشيد باشا ، وأكد الشيخ لادمونز بأنه في وسع البحرين أن تصمد في وجه القوات المصرية لمدة عام واحد على الأقل ، غير أنه سيكون من الأفضل لو عمدت الحكومة البريطانية الى العمل على وقف تقدم القوات المصرية الى أكثر مما تقدمت اليه ، وذكر أيضاً بأن محمد علي باشا يهدف من احتلال البحرين الى اخذاها قاعدة لشن هجوم على البصرة واستخدام السفن التابعة لآل خليفة في نقل قواته الى البصرة كما ذكر له بأنه على الرغم من انه لا يفكر في التحالف مع محمد علي باشا الا أنه رغم ذلك قد عرض على محمد علي باشا استعداده لدفع زكاة سنوية زهيدة في حدود ٣٠٠٠ ريال نمسوى ترضية له ولكسب وده ولكن الشيخ عبد الله أخفى أمر الزيادة التي قدمها مبعوث أمير فارس للبحرين والذي كان يحمل للشيخ هدية رمزية عبارة عن عباءة حريرية وكان يأمل أمير فارس من تلك الهدية أن يعود المبعوث بوعد قاطع من الشيخ عبد الله بدفع الزكاة التي كانت تدفع سابقا للأمير الا أن عبد الله لم يكن في الحقيقة يعنى ما يقول (٢) ، وواقع الأمر

(١) مرفق للخطاب السرى رقم ٦٧ المؤرخ ١٨٣٩/٥/١٨ من ادمونز الى هانيل ومرفق بخطاب هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٢/١٠ (رقم ٢٢ الادارة السرية) .

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٤ من هانيل الى اللجنة السرية بتاريخ ١٨٣٩/٥/١٥ وكان هذا المبعوث هو الحاج قاسم رئيس عمال النقل البحرى وكان يصحبه عشرة من الحرس المسلح . راجع ملفات وزارة الهند مرفقات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٨٨ .

أن المصريين كانوا فى ذلك الوقت يشكلون قوة عسكرية تقف غير بعيد من حدود البحرين ، كما أن البريطانيين لم يستجيبوا الى طلب الحماية ولم يقدموا اليه أى شئ يستطيع به التصدى لخورشيد باشا ، بينما الفرس لم يكونوا يملكون القوة البحرية التى يمكن للشيخ ان يستعين بها ضد المصريين، كما ان الشيخ لم يكن بأى حال من الأحوال يرغب فى استبدال نفوذ بنفوذ، كما كان هناك احتمال بأن ينتقل النزاع من فارس وبريطانيا الى مرحلة أكثر خطورة مما قد يؤدي الى تغيير الأوضاع السياسية فى الخليج .

وعلى الرغم من انقضاء وقت طويل على عودة محمد شاه من اقليم الحيرة الا أنه لم يبد أى بادرة لتحقيق الوعود التى كان قد قطعها لاستودارت فى أغسطس ١٨٣٨ ، وعند وصول شيل سكرتير المفوضية الى طهران عائدا من تبريز فى نهاية العام لتقديم احتجاجه على التأخير الذى تعرض له لم يلق احتجاجه أى اهتمام من جانب الشاه الذى كان قد أوفد مبعوثا خاصا الى انجلترا لعرض الموضوع على الحكومة البريطانية مباشرة، وذلك كمحاولة منه للتهرب من الوفاء بالوعد ، وازاء ذلك كله ادرك ماكنيل انه لا يستطيع العودة الى طهران ، وبالتالي فقد قرر نقل المفوضية الى تركيا وأصدر أمره الى الضباط البريطانيين المعارين للقوات الفارسية بمغادرة البلاد الى بغداد (١) . غير ان قطع العلاقات الدبلوماسية مع حكومة قاجار لم يؤد تلقائيا الى اغلاق المثلثة البريطانية فى بوشهر لانه كان قد تقرر من قبل انه فى حالة اتخاذ هذا القرار فلن يكون من الضرورى اغلاق المفوضية لان وجود هانيل فى بوشهر سوف تبقى له فائدة كبيرة (٢) . وكان الدافع

(١) لمحة تاريخية عن قبيلة العتوب العربية ، ١٨٣٢ - ١٨٤٤ تأليف اللغتنايت ايتة بنى كاميل .

(٢) هذا الحادث توجد له سابقة وذلك عندما احتفظت بريطانيا بممثلها فى بوشهر عام ١٨٠٧ - ١٨٠٨ بعد ان قطعت علاقاتها الدبلوماسية احتجاجا على ما حدث فى اجتماع فتح على شاه ببعثة الجنرال جاردن .

- ٥٣٤ -

الى ذلك القرار هو أن الحكومة البريطانية قد اقتنعت بأن وجود الممثل الرسمي البريطاني الوحيد في أراضيها قد أصبح الوسيلة الوحيدة للشاه في اظهار عدائه للحكومة البريطانية . وقد تأكدت هذه الحقيقة من المظاهرات التي قامت في بوشهر عام ١٨٣٨ وأسفرت عن هجوم المتظاهرين على أحياء اليهود ، وبالأخص على سمسار الممثلة بحجة أن ذلك السمسار كان يتاجر في الخمر ، وهو عمل يتعارض مع الشريعة الاسلامية ، وقد قام المتظاهرون بمهاجمة منزل السمسار وضربه ضربا مبرحا مما جعله يهرب الى بيت أمير فارس فرهاد ميرزا ، وقد طلب السمسار من ماكنيل الاتصال بحكومة فارس للحصول على تعويض ، وعلى الرغم من أن وزير خارجية فارس قد أبدى استعداده لارسال تعليماته الى أمير شيراز لاجراء تحقيقات في الحادث ، وبتعويض السمسار اذا ثبتت براءته الا أنه أوضح للمقيم بالوكالة بأنه يرى بأن السمسار كان على خطأ ، لأنه كان يتخذ من منزله مكانا لبيع الخمر وتوزيعها ، وقد أعقب هذا الحادث حادث آخر عندما أصدر حاكم بوشهر مرسوما يحظر شحن الحبوب من داخلية البلاد الى الحامية البريطانية من خرك بحجة وجود نقص في المحصول من المواد الغذائية وبرغم المحادثات التي أجراها هانيل مع حاكم الأقليم الا أن الأخير رفض الرجوع عن قراره ، مما اضطر هانيل الى ان يطلب من السلطات المسؤولة في بومباي القيام بفرض حصار على بوشهر لارغام حاكمها على رفع الحظر بتوريد الحبوب الى الحامية البريطانية في خرك . ولكن اقتراحه أحيل الى الحكومة في لندن ، بينما رفضه بالمرستون على أساس أن فرض حصار على بوشهر قد يسئ الى العلاقة القائمة بين بريطانيا والتجار الفرس الذين كانوا متمسكين بصادقتهم للبريطانيين . وعلي أي حال فان بالمرستون لم يكن يرغب في تعريض سلامة الجنود البريطانيين في خرك للخطر ولذلك فقد كلف هانيل بتوجيه تحذير الى حاكم بوشهر بأن الحكومة البريطانية سوف تلجأ الى التدابير الضرورية لتأمين المواد الغذائية للحامية

البريطانية هناك وبأن عليه أن يقوم بتنفيذ هذا القرار اذا لم تستجب
السلطات الفارسية لطلبه .

لكن قبل وصول هذه التعليمات الى هانيل كان قد تورط في مشكلة جديدة مع السلطات الفارسية في بوشهر حول امداد الحامية العسكرية البريطانية في جزيرة خرك بالمواد الغذائية ، ففي بداية ١٨٣٩ عينت السلطات الفارسية حاكما جديدا على بوشهر يدعى ميرزا أسد الله ، ولقد بدر هذا الحاكم بعد تعيينه الى اظهار تحمس أكثر في تنفيذ الأوامر التي أخذت تصدر اليه من طهران ، ومن سلفه في شيراز ، وأصدر قرارا بفرض حظر شامل على جميع الصادرات من داخل البلاد الى جزيرة خرك ، ومنع المواطنين الفرس من التعاون مع رجال الحامية البريطانية أو العمل لديهم ، وردا على ذلك بعث هانيل باحتجاج على القرار المذكور الى أمير شيراز الذي استجاب لطلبه فأصدر أمرا الى ميرزا أسد الله برفع الحظر ، ولكن هانيل شك في جدية الأمر الصادر من شيراز ، وكان يعتقد بأن حاكم شيراز كان يشجع حاكم بوشهر سرا على اتخاذ مواقف متشددة ، اذ أنه عندما سلم ذلك الأمر الى ميرزا أسد الله رفض الأخير تنفيذه ، ولم يوافق عليه الا بعد أن هدد هانيل حكومة فارس باغلاق المفوضية البريطانية في طهران .

وفي شهر مارس ١٨٣٩ لم يبق أمام هانيل ما يفعله للرد على حاكم بوشهر الا أن يطوى علم دولته ويرحل عن البلاد . في ذلك الوقت كانت أعمال التمرد ضد الحكام الفرس كنتيجة لفشل الشاه في حملته على اقليم الحيرة منتشرة في جميع أنحاء البلاد ، ولذلك كان لابد لأمير فارس من أن يعد الى البحث عن طريقة يسترد بها ولو قليلا من هيبة أسرته الحاكمة فأخذ يهدد بالهجوم على جزيرة خرك لصرف نظر الشعب عن الفشل الذي لقيته حملته على الحيرة . وكان هانيل قد طالب في شهر يوليو ١٨٣٨ بتعزيز الدفاع عن الحامية ، واقترح لذلك ارسال مجموعة من الجنود الأوربيين الى الجزيرة . وفي شهر أكتوبر من نفس العام وصلت الى خرك كتيبة

عسكرية تتكون من ٣٠٠ جندي أوربي من وحدة مدفعية ، وقد أبلغ هانيل بأن الهدف من إرسال الجنود هو العمل على تقوية وسائل الدفاع عن جزيرة خرك ضد أى هجوم محتمل ، كما طلب اليه بأن يعتمد على نفسه فى تقرير الطريقة التى ستعمل بها تلك القوة بالتشاور فى ذلك مع اللفتنانت كولونيل شريف قائد الحامية (١) أما اذا تبين لهانيل وشريف بأنه لا يمكن الدفاع عن الممثلة البريطانية فيمكنهما الانسحاب الى خرك (٢) وقد أصدر ماكنيل أمرا الى هانيل باحتلال بوشهر اذا اكتشف أى نوايا عدوانية من جانب أمير شيراز ضد الحامية فى خرك . غير أن كلا من هانيل وشريف لم يكونا متأكدين من امكانية الاحتفاظ ببوشهر وبالممثلة نفسها فى حالة شن هجوم عنيف عليها من جانب الفرس ، كما كانا مترددين فى المجازفة بحياة الجنود الهنود فى أول اشتباك لهما مع قوات الفرس ، ولذلك اضطر هانيل الى إبلاغ ماكنيل بأن احتلال بوشهر يتطلب وجود قوات كافية من الأوربيين وبأنه اذا تعرض موقفه للخطر فانه سوف ينسحب الى خرك (٣) .

(١) ورد اسم هذا الضابط فى كتاب لوزيمار (دليل الخليج) باسم شريف ولكنه يقطن عادة فى المراسلات المتبادلة فى ذلك الوقت « شريف » .
(٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٠ مرفق بخطاب السكرتير رقم ٣٠ المؤرخ ١٨٣٨/١٠/٢٤ من ويلوبى الى هانيل بتاريخ ١٨٣٨/٩/١٣ (رقم ٢٣٢) الادارة السرية .

(٣) خطاب مبرى رقم ١٥ مؤرخ ١٨٣٨/٩/١٠ من هانيل الى السكرتير السياسى لحكومة بومباى بتاريخ ٧ ، ١٨٣٨/٨/١٣ ومرفق معه خطاب ماكنيل الى هانيل ١٨٣٨/٧/١٠ وخطاب هانيل الى ماكنيل أغسطس ١٨٣٨ والخطاب الاخير لم يرد ذكره فى المخابرات الخاصة بفارس والتى عرضت على البرلمان فى عام ١٨٣٩ وقد اوعز هانيل الى ماكنيل باغلاق الممثلة اذا لم تقم حكومة اقليم فارس بدفع التعويضات عن حادث الاعتداء =

وقد ازدادت الأمور تعقيدا فى عام ١٨٣٩ فى أواخر فبراير استفسر جيمس فاريش نائب الحاكم فى بومباى من القائد العام للهند الشرقية اليراد ميرال السير فريدرك مثلاند الذى كان فى ذلك الوقت فى زيارة كبومباى فيما اذا كان يستطيع الاستغناء عن بعض قطع الأسطول لارسالها الى الخليج لتدعيم مركز هانيل . وقد أبحر مثلاند يوم ٢٣ فبراير على سفينة القيادة ويلسلى (٧٤ مدفعا) ترافقه الفرقاطة الجرين ، وفى يوم ٢٠ مارس وصل الى بوشهر . وبعد مضي ثلاثة أيام من وصوله توجه لزيارته على ظهر السفينة الحربية ميرزا أسد الله ، وقام القائد برد الزيارة فى نفس اليوم ، وخلال اجتماعه بميرزا أسد الله أخبره هذا الحاكم بأنه يتعين على جميع القادمين للبلاد من السفن الحربية البريطانية النزول على رصيف الجمرك وليس على رصيف المثلثة كما كان يتم سابقا عندما كان الضباط البريطانيون وغيرهم من الزوار الرسميين يستعملون فى نزولهم رصيف المثلثة ، وقد اعتبر مثلاند طلب حاكم بوشهر النزول على رصيف الجمرك أهانة له ، وأصر مثلاند على نزوله وصعوده الى البارجة عن طريق رصيف المثلثة وليس عن طريق الجمرك ، غير أن ميرزا لم يوافق على طلب مثلاند ، وبالتالي فقد أنهى مثلاند لقاءه مع حاكم بوشهر ، وقام بابلغ هانيل بما حدث ، وقد قام هانيل بارسال مذكرة الى الحاكم يطلب منه فيها تعهدا كتابيا بالتصريح لمثلاند وغيره من الضباط البحريين باستعمال رصيف المثلثة ، وكنتيجة لرفض ميرزا أسد الله الموافقة على هذا الطلب لم يجد

= على سبصار المثلثة غير ان الخطاب الذى يتضمن هذا الأمر فقد أثناء نقله بين تبريز وبوشهر ولم تصل نسخة منه الى هانيل قبل يوليو ١٨٣٩ - (انظر نفس الحلقات مجلد ١٥ مرفقات للخطاب السرى رقم ١٠٣ بتاريخ ١٨٣٩/٩/١٠ من هانيل الى ويلوبى بتاريخ ١٨٣٩/٧/٢٥) ورقم ٦٩ الادارة السرية) ، ومرفق معه خطاب ماكنيل الى هانيل تبريز ١٨٣٨/١٢/٢٨ .

مثلاند مفرا من مغادرة بوشهر واستعمال رصيف المثلثة عند مغادرته البلاد بواسطة قوة مسلحة من الطراد ويسلى .

صباح اليوم التالى الموافق ٢٥ مارس وقف القائد مثلاند ومجموعة من الضباط البحريين على رصيف المثلثة فى انتظار القوارب التى ستقلهم الى الطراد ويسلى . وبالقرب منهم تجمع عدد من اهالى بوشهر مع بعض الجنود الفرس الذين أنيطت اليهم مهمة الحراسة من قبل الحاكم ، وقد وقف احد هؤلاء الجنود على الساحل عندما وصل القارب الذى يقل الكابتن توماس مثلاند أخ الأدميرال وعند وصول هذا القارب الى الشاطئ صوب الجندى الواقف ببندقيته على الكابتن مثلاند ليمنعه من النزول . وعندئذ تقدم السير فريدريك ودفع ببندقية الجندى وقبل أن يتمكن الجندى من القيام بأى حركة جرد من السلاح من جانب هانيل والمرافقين له من الضباط ، غير أن هذا التصرف أحدث رد فعل عنيف من جانب الاهالى الذين أخذوا يقدفون البريطانيين بالحجارة والعصى ولم يتوقفوا الا بعد أن تدخل بحارة القارب وصوبوا بنادقهم نحو الاهالى المتجمعين ، وتبين أن هناك مجموعة أخرى من الجنود كانت تكمن وراء أحد المتاريس وأخذوا يطلقون النار على مثلاند وزملائه ، وقد اضطر البحارة الانجليز الى الرد بالمثل وقتلوا جنديا وأصابوا اثنين بجراح . وقد أرسل هانيل مذكرة احتجاج عاجلة الى قاضى بوشهر الذى كان هانيل يعتقد بأنه هو الذى كان يحرض الجنود . وقد حذر هانيل القاضى بأن البريطانيين سوف يردون عليهم باطلاق النار اذا لم يتوقف الاعتداء على الطراد دون حدوث عواقب (١) .

(١) خطاب الاميرالية رقم ١/٢١٩ من مثلاند الى وود (سكرتير الاميرالية) من الطراد ويسلى فى خرك ١ ، ١٨٣٩/٤/٧ ، ١٨٣٩/٥/١ ، (أرقام ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٩) من مثلاند الى فاريش ، ١٨٣٩/٣/٣٠ (رقم ٢٥ ومرفقات رسائل حكومة بومباى السرية مجلد ١٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٥٥ المؤرخ ١٨٣٩/٥/٨ من هانيل الى ويلوبى جزيرة خرك ١٨٣٩/٣/٣٠ (رقم ٢٣ الادارة السرية) .

- ٥٣٩ -

ولما لم يصل التعهد الذى طلبه هانيل فى اليوم السابق بعدم التعرض لقوارب الأسطول البريطانى فى استخدام رصيف المثلثة للنزول والصعود من السفن البريطانية حتى ليل ٢٥ قرر هانيل فى ذلك اليوم انزال العلم البريطانى واغلاق المثلثة . غير أن هذا القرار الذى اتخذه هانيل والذى أوضح أسبابه ميرزا اسد الله وللمستولين فى بومباى لم يكن بسبب الاهانة التى تعرض لها مثلاند فى ذلك اليوم فحسب ، وانما بسبب العراقيل والاهانات الكثيرة التى وجهتها السلطات الحاكمة فى بوشهر الى مثلاند خلال الشهور السابقة . وقد خشى التجار فى بوشهر من أن يؤدى اغلاق المثلثة الى نتائج ضارة على تجارة الميناء وناشدوا هانيل اعادة النظر فى قراره ، غير أن هانيل رفض الطلب .

وفى صباح يوم ٢٦ مارس امر بنقل اثاث المثلثة الى السفن الحربية البريطانية الراسية فى الميناء . وعندما فقد تجار بوشهر الامل فى استجابة هانيل لطلبهم بعثوا بوفد منهم الى الطراد ويلسلى لتقديم الاعتذار عن سلوك الاهالى ويعدون بتقديم اعتذار كتابى من حاكم بوشهر عن أحداث يوم ٢٥ مارس . غير أن مثلاند أوضح لهم بأنه لا يملك أى سلطة على قرار المقيم ، ولكنه رحب بوعدهم بارسال اعتذار من حاكم بوشهر فى هذا الشأن (١) . أما ميرزا اسد الله فإنه لم يكن يفكر بالاعتذار للسلطات البريطانية عما حدث ، وانما فعل العكس من ذلك ، فقد طلب من بأقر خان حاكم تنجستان أن يشترك معه فى القيام باظهار عدائه للمقيم البريطانى . وفى الوقت الذى كان تجار بوشهر يحاولون تهدئة الموقف مع مثلاند كان حاكم بوشهر وتنجستان مشغولين ببناء منصة امام رصيف المثلثة ، وقد أضفى هذا الموقف بعدا جديدا الى سلامة القرار الذى اتخذه هانيل لمغادرة بوشهر .

(١) نفس المصدر من مثلاند الى وود ، الطراد ويلسلى الخليج

— ٥٤٠ —

وقد طلب من مثلاند حماية مسلحة لتغطية انسحاب موظفي المثلثة بينما قام هو بالاشراف على نقل الامتعة الى السفينة وذلك فى يوم ٢٩ مارس . وفى ذلك اليوم كان هناك ٣٠٠ رجل مسلح تحت اشراف باقرخان يحتلون رصيف المثلثة ، غير أن عملية الانسحاب تمت فى هدوء وبدلا من حدوث أى بادرة عدائية من باقرخان فان هذا أبدى استعدادا لحماية عملية الانسحاب والمحافظة على المثلثة الى أن يعود هانيل الى بوشهر مرة أخرى .

وقد غادر المقيم البريطانى بوشهر تحت حراسة السفن البريطانية وتوجه الى جزيرة خرك وكانت ترافقه فى هذه الرحلة ثلاث سفن حربية هى ويلسلى والجرين والفنستون بينما بقيت السفينة كوت (١) لمراقبة الوضع هناك .

تسلم بالمرستون خبر اغلاق المثلثة فى الاسبوع الثالث من يونيه أى بعد وصول حسين خان سفير فارس الجديد لدى حكومة بريطانيا ، ولم يتردد بالمرستون من مصارحة السفير بموقف بريطانيا ، وقد ذكر له فى الاجتماع الذى تم بينهما ... « حتى ولو أن الاميرال ضرب بوشهر بالمدافع ودمرها لكان له الحق فى ذلك » (٢) . غير أن اوكلاند كان له موقف آخر فعلى الرغم من انه قال بأن اقامة المنصة فوق رصيف المثلثة يعتبر عملا يشكل تهديدا مباشرا لسلامة أعضاء المثلثة ، الا انه كان يود لو أن هانيل

(١) مرفقات للخطاب السرية لحكومة بومباى السرية مجلد ١٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٥٥ المؤرخ ١٨٣٩/٥/١ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٥ مذكرة بمحضر اجتماع اللورد بالمرستون وسفير فارس حسين خان بتاريخ ١٨٣٩/٦/١٩ اعداد جى.بى. فريزر وكان فريزر الذى سبق له أن رافق الدكتور جوكسن فى مهمته فى شيراز سنة ١٨٢١ قد عين مترجما للقسم الشرقى لشؤون وزارة الخارجية البريطانية .

اتخذ موقفا وديا ازاء ذلك الاجراء ، ولو انه فعل ذلك لما اضطر الى اغلاق الممثلة ، كما كان اوكلاند يعتقد بأن قرار هانيل باغلاق الممثلة والانسحاب الى جزيرة خرك قد تم بتشجيع من مثلاند . غير ان هذا لا يتفق مع التعليمات التي تسلمها هانيل من حاكم بومباي في شهر سبتمبر ١٨٣٨ وكلفه فيها باغلاق الممثلة اذا ما رأى أن الأوضاع تستدعي ذلك كما لا يتفق ايضا مع التعليمات الأخرى التي أصدرها ماكنيل في يوليو وتضمنت مطالبته باتخاذ موقف متشدد وإنذار السلطات الفارسية بعزم البريطانيين على احتلال بوشهر اذا ظلوا متمسكين بموقفهم العدائي تجاه بريطانيا . غير أن اوكلاند نفسه لم ين من المناسب اصدار تعليمات على الإطلاق وبالتالي فإن القيود التي عاد فرضها على هانيل لم تكن ضرورية . أما مثلاند فقد رفض الانتقادات التي وجهت اليه واستعمل لهجة تتسم بالخشونة وذكر بأنه لم يتعود أن يتلقى اهانات كالأهانات التي تلقاها في بوشهر من قبل السلطات الفارسية (١) ، وان وجد أية شكوك حول التأثير الذي مارسه مثلاند على المقيم في اتخاذ قراره باغلاق الممثلة فقد تبددت بما قاله هانيل نفسه ، بأنه لو قدر له أن يتسلم تعليمات ماكنيل التي أرسلها في ديسمبر الماضي في وقتها لمضى في تنفيذها دون إبطاء ولكان قد اضطر الى اغلاق الممثلة تحت ظروف أسوأ مما كان عليه الحال في أواخر شهر مارس (٢) وإذا تأملنا في الأمر نجد أن اوكلاند قد عاد فأدرك بأن انتقاداته السابقة لم يكن لها

-
- (١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباي مجلد ١٤ رقم ١٢ للخطاب السري رقم ٩٢٠ المؤرخ ١٨٣٩/٧/٣١ من مثلاند الى السير كرنالك (حاكم بومباي) على الطراد ويلسلي خليج ترانكوماي ١٨٣٩/٦/٢٢ .
- (٢) الخطاب السري رقم ١٠٣ المؤرخ ١٨٣٩/٩/١٠ من هانيل الى ويلوبي جزيرة خرك ١٨٣٩/٧/٢٥ (رقم ٦٩ الادارة السرية)

ما يبررها ، كما اعترف بأن الأوضاع فى بوشهر كانت تحتّم على هانيل بأن يفادر البلاد . وإذا صرفنا النظر جانبا عن مضمون العدالة فى هذا الموقف نرى أن الظروف التى تم فيها اغلاق الممثلة تبدو ، بأن الاثنين قد اضطرا الى اتخاذ الخطوة التى اتخذها للخروج من بوشهر (١) وعلى أى حال فقد كانت النتيجة أن هيبة الحكومة البريطانية قد تلقت ضربة شديدة فى نظر سكان الخليج فى نفس الوقت الذى كان فيه خورشيد باشا يصول ويجول فى شبه الجزيرة العربية .

فى أوائل شهر مارس ١٨٣٩ تسلم اوكلاند صورة من المذكرة التى بعث بها بالمرستون الى كاميل ، وتتضمن تعليمات بالمرستون لتوجيه تحذير الى محمد على باشا من محاولة التوسع نحو الخليج ، وفى ١٣ مارس بعث الحاكم العام فى الهند بأوامر الى هانيل عن طريق حكومة بومباى بضرورة استخدام كل ماله من نفوذ لوقف توسع خورشيد باشا فى المنطقة ، كما تضمنت التعليمات تكليف ماثلاند بتقديم كل مساعدة ممكنة لهانيل فى هذا الصدد ، وبتقديم كل تأييد ممكن الى شيخ البحرين فيما عدا المباشر مع المصريين . وقد ذكر ماثلاند بأن تلك الاجراءات هى الحد الأقصى لما يمكن أن يقوم به البريطانيون فى تلك المرحلة . حتى ذلك الوقت لم يكن من المحتمل أن يكون خورشيد باشا قد تلقى التعليمات التى أرسلها اليه محمد على باشا بعد استلام الأخير احتجاجات بالمرستون ، خصوصا وأن اوكلاند كان واثقا بأن محمد على باشا لابد أن يصدر تعليمات الى خورشيد باشا ، وأن هذا

(١) كان هذا هو رأى اللفتنانت آدموندز المقيم البريطانى المساعد راجع مرفقات خطاب حكومة بومباى السرية مجلد ١٩ المرفق للخطاب السرى رقم ١٠ فى ١٨٤٠/٢/٢٨ من آدموندز الى ويلوبى ١٨٤٠/١/٢٢ رقم (٢) الادارة السرية .

سوف يقوم بتنفيذها (١) ثم نقل تعليمات الحاكم العام الى هانيل على الطراد كروز الذى أبحر من ميناء بومباى فى اليوم الثانى من ابريل ، كما نقل الطراد مجموعة أخرى من التعليمات التى أصدرها جيمس فاريش حاكم بومباى بالوكالة ، وكانت هذه التعليمات قد صدرت قبل استلام هانيل لمرسالة خورشيد باشا والتى هددت فيها خورشيد باشا باحتلال البحرين بالقوة المسلحة وقد طلب فاريش بمقتضى تلك التعليمات أن يقوم هانيل بتوجيه تحذير الى خورشيد باشا ، بأن العلاقات بين مصر وبريطانيا سوف تتدهور فيما لو حاول خورشيد تنفيذ تهديده باحتلال البحرين (٢) ، غير أن هانيل كان قد قرّر اتخاذ إجراء قبل أن تصله تلك التعليمات . وكان القائد مائلاند قد أبلغ هانيل خلال الأسبوع من ابريل بأن احتياطيهما من المؤن يفرض عليه التوجه الى بومباى للتزود بالتموين قبل نهاية الشهر وانه اذا كان المقيم يريد منه القيام بعملية استعراض للقوة البريطانية على الساحل العربى فانه لا يستطيع ذلك قبل منتصف الشهر التالى ، واقترح على هانيل بأن يتوجه مائلاند بالطراد الى البحرين أولا ، ومنها يبحر فى سرعة بطيئة بمحاذاة الساحل العربى على أن يبتعد عن مياه الخليج فى أواخر الشهر . وقد وافق هانيل على الاقتراح وسلم مائلاند رسالة الى خورشيد باشا تتضمن الاحتجاج الذى بعث به بالمرستون الى والى مصر بتاريخ ٢٩ نوفمبر والذى لم يتسلم هانيل صورة منه الا فى ذلك اليوم .

-
- (١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى - محضر فاريش
١٨٣٩/٤/١ ومن ويلوبى الى هانيل بنفس التاريخ رقم «٦٧١ الادارة السرية» .
(٢) مرفق للخطاب السرى رقم ٦٧ المؤرخ ١٨/٥/١٨٣٩ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٤/١٠ (رقم ٢٢ الادارة السرية) ومرفق به خطاب هانيل الى خورشيد باشا بنفس التاريخ .

فى يوم ١٧ أبريل أقلع ماثلاند من جزيرة خرك يرافقه ادموندز المقيم المساعد ، ولالكومندور جى.بى بركىس قائد الوحدة البحرية فى الخليج وذلك على السفينة الفنستون ٠ وفى يوم ٢١ وصلوا الى البحرين ، وفى اليوم التالى زارهم على ظهر السفينة اثنان من انجال عبد الله بن أحمد شيخ البحرين وذكرنا لمثالاند بأن والدهما قد سافر الى قطر ، وانه لم يتلق مطالب أخرى من خورشيد باشا منذ زيارة ادموندز له فى الشهر الماضى ، كما ذكرا له بأنهما لا يتوقعان هجوما يقوم به خورشيد باشا على البحرين فى الوقت القريب وبالفعل لاحظ ماثلاند بعدم وجود أى مظاهر للهجوم على البحرين ٠ وفى يوم ٢٣ أبريل عندما كان الطراد ويلسلى يفادر منطقة المنامة وصل الشيخ سلطان بن شخبوط حاكم أبو ظبى لزيارة القائد ماثلاند وليؤكد له استمرار روابط الصداقة القوية التى تربط بين البحرين وأبو ظبى ، وفى اليوم التالى عندما كان الطراد المذكور يفادر مياه الخليج الى لنجة التقى بالسفينة كروزر وكانت متجهة الى الخليج لتسليم تعليمات اوكلاند وفاريس الى هانيل ، غير أن ذلك لم يغير شيئا من خطط ماثلاند ، لقد كان احتياطيه من المواد التموينية على وشك النفاد بحيث لا يسمح له بالبقاء فى الخليج فترة أطول . وعلى أية حال فقد كان ماثلاند يشعر بأنه قد قام فعلا بتنفيذ المهمة التى اوكلت اليه .

استقبل ماثلاند فى لنجة استقبالا حارا من حاكمها سعيد بن قتب ، وقد ذكر لمثالاند بأنه على الرغم من أنه لم يكن يخشى شيئا من المصريين الا أن مصلحة وأمن أبناء الخليج فى مقدمة الأمور التى تهمة ، كما اكتشف ماثلاند بأن الشيخ سلطان بن صقر كبير مشايخ القواسم قلق هو الآخر من الوضع عندما التقى به ماثلاند يوم ٢٧/٤ فى مشيخة رأس الخيمة ، وقد صرح ماثلاند بأن السكان العرب لا يستطيعون وحدهم إيقاف خورشيد باشا ، وأنهم يتطلعون الى الحكومة البريطانية لحمايتهم وقد رد عليه ماثلاند فأبلغه بالتحذير الذى وجهه بالمرستون لمحمد على باشا وان كان قد أعرب له عن رأيه فى أن قبائل الساحل

العربي في وسعها التصدي لخورشيد باشا لو انها وجدت صفوفها ، وذكر
مائلاند للشيخ بأنه علم من الكلونيل بركنس بأن قبائل اتحاد القواسم وحدها،
والذي يضم رأس الخيمة وأم القوين ، وعجمان والشارقة تستطيع تعبئة
١١ ألف مقاتل ، غير أن سلطان بن صقر لم يوافق على رأيه ، وذكر له بأنه على
الرغم من احتمال تعبئة هذه القوة من القبائل في تجمع واحد تحت قيادة
بريطانيا ، إلا أن الحزازات القبلية سرعان ما ستعمل على تحطيم هذا
الاتحاد ، وقد وافق مائلاند في قرارة نفسه على رأى الشيخ ، وقال مائلاند
« انه لما يحز في النفس أن أرى زعماء القبائل غير مدركين للخطر الذي
يداهمهم وانهم رغم المخاوف التي يعربون عنها من حين إلى آخر فانهم لم
يتخذوا أى خطوة لمواجهة هذا الخطر (١) ولم تؤد الزيارة التي قام بها شيخ
أبو ظبي للقائد مائلاند في صبيحة ٣٠ ابريل الى تغيير رأى هذا ، وقد غادر
رأس الخيمة في وقت متأخر من صباح اليوم ، ثم عبر الخليج بسرعة بعد
الظهر (٢) .

وقد تخلف الكابتن ادمونز للاشراف على الاجراءات الخاصة بتجديد

(١) من مائلاند الى وود رقم ٢٢٠/١ بتاريخ ١٨٣٩/٥/٢ (رقم ٤٠)
ومرفق به محاضر اجتماع الاميرال السير مائلاند مع شيوخ الخليج ،
وقد قام بكتابة تلك المحاضر الكابتن ادمونز - المقيم البريطاني المساعد فيما بين
٢٢ ، ٣٠ ابريل ١٨٣٩ (ونشير بهذه المناسبة بأنه قد تمت ترقية ادمونز الى
رتبة كابتن وهانيل الى رتبة مييجور في ربيع ١٨٣٩ .

(٢) مذكرات مائلاند ٣٠/١٧ ابريل ١٨٣٩ رقم ٢١٤/٥٠ ومرفقات
للخطابات السرية لحكومة بومباي المجلد ١٣ مرفق للخطاب السري رقم ٦٩ في
١٨/٥/١٨٣٩ من مائلاند الى فاريش ٣/٥/١٨٣٩ .

معاهدة الصلح البحرية . وفى أول مايو استقبل جميع شيوخ المنطقة على ظهر السفينة الفنستون (١) وقد أبلغ الشيوخ الكابتن آدمونز بأن جماعة من المسلمين تقدر بـ ١٥٠ رجلاً قد دخلت إلى الشارقة قادمة من نجد فى منتصف شهر إبريل ، وكان يقودهم سعد بن مطلق نائب الملك فيصل فى واحة البريمى سابقاً ، وكان سعد هذا قد غادر البريمى إلى نجد فى بداية العام ، بعد أن وصله نبأ استسلام الأمير فيصل لقوات خورشيد باشا ، وأن مطلق هذا يعتبر نفسه النائب لـ خالد بن سعود خليفة فيصل ، وخلال الفترة التى تغيب فيها سعد بن مطلق عن منطقة البريمى قام النعيم بطرد افراد الحامية للبريمى واحتلال القلعة الرئيسية قصر الخندق ، وقد أعلنوا بعد احتلالهم للقلعة بأنهم ان يتخلوا عنها حتى ولو دفنوا جميعاً تحت أنقاضها (٢) وبعد احتلال النعيم للقلعة بعثوا بـ نداء إلى السيد حمد بن عزام وإلى صحار يطالبونه بالتأييد ، فأوفد أخاه على بن راشد رجلاً لمساعدتهم فى الدفاع عن الواحة . وعند وصول سعد بن مطلق إلى الشارقة أبلغ سلطان بن صقر بأنه قد جاء إلى المنطقة موفداً من قبل الأمير خالد بن سعود لاحتلال واحة البريمى ، وعلى الرغم من أن وصول هذا القائد قد سبب خيبة أمل لسلطان بن صقر كما ذكر فى حديثه لآدمونز إلا أنه اضطر إلى استقباله والترحيب به حتى لا ينصرف عنه إلى خليفه بن شخبوط حاكم أبو ظبى الذى كان يومئذ الخصم اللدود لسلطان ، غير أن آدمونز نصح سلطان بالتخلص من سعد بن مطلق بأى شكل من الأشكال مهما تكن مخاوفه من رد الفعل لأنه من المحتمل أن يكون سعد

-
- (١) للاطلاع على الاتفاقيات المعقودة بين حكومة الهند ومشيوخ ساحل الخليج انظر فصل ٩ ، ولقد كان الاجتماع الذى عقده ماثلاند مع شيوخ المنطقة بحضور المقيم هو أول اجتماع من نوعه .
- (٢) مختارات من حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٤٦ — لمحة تاريخية عن الوهابيين ١٨٣٢ — ١٨٤٤ تأليف كامبل .

بن مطلق قد جاء بتكليف من خورشيد باشا وليس بتكليف من الأمير خالد بن سعود (١) .

كان التوسع المصرى فى جنوب شرق وشمال شرق الجزيرة العربية الشغل الشاغل لهانيل طوال هذا الوقت وحتى قبل أن يكتشف ادمونز ما رآه فى رأس الخيمة كانت الاشاعات تملأ المنطقة بأن عملاء مصر منتشرون فى جميع أنحاء منطقة الخليج . وفى يوم خمسة مايو أوفد هانيل الدكتور تى . مكنزى طبيب المثلثة البريطانية على ظهر أحد المراكب للكويت والبصرة والمحمرة للتأكد من صحة تلك الاشاعات . وبعد يومين من ذلك أرسل الطراد كليف الى شيخ الكويت جابر بن عبد الله ومعه رسالة لخورشيد باشا لى يطلب تسليمها الى القائد المصرى عن طريق حاكم الكويت ، وكانت هذه الرسالة عبارة عن نسخة مشمعة بالشمع الأحمر من الخطاب الذى كان قد بعث به هانيل الى الباشا يوم ٢٩ ابريل الى القطيف فى موضوع التحذير الذى ورد فى تعليمات كل من اوكلاند وفاريس التى صدرت فى الشهر السابق ، وكان هدف المقيم من ارسال صورة من ذلك الخطاب الى حاكم الكويت هو أن يقوم هذا باقناع خورشيد باشا بالتخلى عن أطماعه لأن الحكومة البريطانية كانت مصممة على منع القائد المصرى من التحرك بقواته الى أبعد من الاحساء (٢) :

(١) الخطاب السرى رقم ٨٧ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٦ ومرفقات الخطابات السرية لحكومة بومباى من ادمونز الى هانيل بتاريخ ١٨٣٩/٥/٤ ومن ملاحسين وكيل المقيم البريطانى فى الشارقة الى هانيل بتاريخ ثالث ربيع الاول ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٥/١٧ .

(٢) الخطاب السرى رقم ٧٦ بتاريخ ١٨٣٩/٦/١٢ ومرفقات الخطابات السرية لحكومة بومباى من هانيل الى ويولبى ٢٩/٤ ، ١٨٣٩/٥/٧ (رقم ٣٧ ، ٤١ الادارة السرية) ومرفق به نسخة من خطاب - هانيل الى خورشيد باشا بتاريخ ١٨٣٩/٤/٢٩ .

وقد اتضح لهانيل بصورة أوسع بأنه لابد من أن يعتمد على شخصيته الخاصة فى وقف تقدم الزحف المصرى أكثر من اعتماده على المساعدة التى قد تصل اليه من الهند . وعندما توجه ماثلاند عائدا الى بومباى ومنها الى ترانكومالى ترك السفينتين كروزر والجرين فى الخليج وطلب أن يلحق به بأسرع وقت ممكن ، وفى منتصف شهر مايو أصبح لديه قوة مؤلفة من أربع سفن بينها كلايف والفرنستون ، وكان احتمال لقائه ببعض قطع الأسطول الملكى مرة أخرى احتمالا ضئيلا جدا ، وهذا ما أوضحه ماثلاند لفاريش فى بداية شهر يوليو حيث قال : « ان الصلاحيات التى أتمتع بها صلاحيات واسعة ، وقد قال هذه العبارة ردا على طلب تلقاه من نائب الحاكم لارسال بعض قطع الأسطول أو سفينة حربية على الأقل لى منطقة الخليج فى أسرع وقت ممكن ، وقد أضاف ماثلاند فى رسالته يقول : لقد أصبحت الطلبات على السفن القليلة التابعة لقيادتى كثيرة وعاجلة ، بحيث لا أجد هناك مجالا لارسال بعض من هذه القطع الى الخليج الفارسى من وقت الى آخر (١) . لقد وضع هنا نهاية للتأييد الذى كان يلقاه هانيل من اوكلاند . وفى الاسبوع الثالث من شهر ابريل تلقى فاريش ردا من الحاكم العام للهند على الاستفسار العاجل الذى بعث به الى الحاكم حول السياسة البريطانية التى يتعين اتباعها مع خورشيد باشا فى حالة رفض الأخير للتحذيرات التى وجهت اليه ، وقال الحاكم العام فى رده ، بان

(١) من سجلات حكومة بومباى السرية مجلد ٩ (جزء ١) من الحاكم الى اللجنة السرية ١٨٣٩/٨/٤ (رقم ٨٥ الادارة السرية) ومرفق به خطاب ماثلاند لفاريش ترانكومالى ١٨٣٩/٦/٣١ كانت هناك فى ذلك الوقت ١٤ سفينة تعمل فى مياه الهند الشرقية وتتألف من سفينة حربية وأربع فرقاطات وتسع سفن أخرى شراعية (انظر مطبوع سيلويد) - تقييم وتوزيع السفن الحربية البريطانية خلال القرن التاسع عشر مجلد مارنر ميرو عدد ابريل ١٨٤٩ ص ١١٤ .

- ٥٤٩ -

خورشيد باشا لابد وأن يكون قد تلقى تبليغا من القاهرة حول احتجاج
بالمستون المرسل بتاريخ ٢٩ نوفمبر ، وتأسيسا على ذلك فقد كان اوكلاند
يتصور بأن خورشيد باشا اما أنه سوف يمضى فى فتوحاته باستخدام القوة
بحيث تمتد تلك الفتوحات الى أقصى المناطق كى يواجه الحكومة البريطانية
بالأمر الواقع أو أن يكون قد أوقف زحفه العسكرى بناء على توجيهات من
سيده والى مصر ، وقال اوكلاند بأنه فى كلتا الحالتين لا يرى هناك ما يمكن
القيام به بالنسبة لجزيرة البحرين : « . . ان مسألة قيام هذه الحكومة بتدخل
عسكرى لمنع سقوط البحرين فى يد القائد المصرى قد انتفت كلية نتيجة
لاحتمالين الاحتمال الاول ، وهو أن يتمكن خورشيد باشا من احتلالها قبل
وصول الحملة اليها أو بوصول الحملة ونجاحها . فى انقاذ الجزيرة من هجوم
خورشيد عليها ، واذا كان مثلاند بالرغم من وجوده هناك قد فشل فى منع
خورشيد باشا من الهجوم على البحرين فانه يتعين عليه أن يستنبط أفضل
السبل لحماية البحرين ضد تهديد خورشيد باشا (١) »

قبل أن يتمكن اوكلاند من ارسال تعليماته الى مثلاند بهذا الخصوص
كان الأخير قد قطع المسافة عبر الخليج وفى ١٠ مايو كتب اوكلاند السير
ميثلاند رسالة ذكر فيها : « لقد وضعت للسير فريدريك ميثلاند مشروع خطة
أعتقد انها ستلبى مطالب سياستنا الخارجية وانى أعتقد اننى بهذا العمل
قد مارست مسئوليتى ولسوف اشعر بأسف كبير لو نشبت خلافات جديدة ،
غير اننى أخشى أن تصل هذه التعليمات الى ميثلاند قبل وصوله الى بومباى ،
وعلى أى حال فليس هناك ضرر من ارسالها وعلى الأخص أن لهجة خورشيد

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٣ الخطاب
السرى رقم ٥٥ المؤرخ ١٨٣٩/٥/٨ من مادوك الى ويلوبى شيملا
١٨٣٩/٤/١٨

قد أصبحت أقل عداء ، وبعد أسبوعين علم أوكلاند بصورة مؤكدة بأن ميثلاند قد غادر الخليج بالفعل واعترف لهوب هاوس بأنه لم يكن يعرف ما الذى يتوجب عليه أن يفعله فى ذلك الوقت وكتب لهوب هاوس يقول : « كنت أفضل لو أنك زودتني بالتعليمات اللازمة حول الاجراء الذى ينبغى أن أسلكه ازاء خورشيد باشا وموضوع البحرين لاني كنت أخشى أن أتخذ اجراء فعالا أو أن لا أتخذ أى اجراءات على الإطلاق ، وبالتالي يسعدنى ان اتلقى منك تعليمات اخرى بعدم القيام باى اجراءات ، وقد استمر موقف التردد هذا حتى شهر يونيو ، وفى ١٦ من نفس الشهر كتب اوكلاند لغاريش رسالة يقول فيها « انه لما يبعث السرور أنه ليس هناك احتمال بقيام خورشيد باشا بعدوان على البحرين وبأن التعليمات التى أصدرتها بشيء من التردد لحماية البحرين من أى اعتداء لم يعد لها لزوم ، كما كتب رسالة اخرى الى هوب هاوس يذكر فيها : « أننى حريص على أن أعرف منك عما يجرى من أحداث وتطورات على الجانبين الشرقى والغربى للخليج ، وعلى الرغم مما تحت أيدينا من امكانيات يتعين علينا أن نبقى مطمئنين بالنسبة للمشكلتين وان كان نفوذنا سوف يتأثر تبعاً لذلك الى حد ما ، لقد أصدرت تعليمات مشددة الى طرادتنا العاملة فى الخليج بالدفاع عن جزيرة البحرين ضد أى هجوم يشنه خورشيد باشا على الجزيرة ، غير أن خورشيد باشا كما يبدو لا ينوى القيام بأى خطوة من هذا القبيل وسواء كان التصرف من جانبى سليما او خاطئا الا أنه لم يؤد الى أية نتائج عكسية وخيمة .

كان التردد الذى يعانى منه اوكلاند أو بالأحرى مواقفه السلبية من هذا الموضوع لا تعود الى عجز فى اتخاذ القرارات ، وانما لأن الامكانيات العسكرية والمالية للهند كانت قد نضبت بسبب العمليات العسكرية التى قامت بها هذه الحكومة فى أفغانستان . كما كان هذا الوضع يستدعى الاحتفاظ ببعض السفن والقوات فى عدن للدفاع عنها ضد هجوم القبائل الداخلية أو ضد أى هجوم قد يقوم به المصريون عليها من اليمن ، كما كانت العلاقات مع الصين

توجب مرابطة بعض السفن فى منطقة الشرق الاقصى ، ومن هنا فان القيسام. بعمليات عسكرية فى الخليج لم يكن أمرا واردا ، وقد ذكر اوكلاند لفاريش فى هذا الصدد : « قد تكون العمليات الحربية فى الخليج اجراء مرغوبا فيه ، غير أن هذا الاجراء لم يكن يتم بأقل من ١٠ ألف جندى وست من السفن الحربية وملايين الروبيات ، وبالتالي ارى أن الظروف غير مواتية للقياس بهذه العملية (١) ورغم كل هذا لا يمكن اخلاء اوكلاند من المسؤولية فى عدم اتخاذه أى اجراءات واسعة كانت أو محدودة لأنه بموقفه ذلك كان يعرض الوجود البريطانى فى الخليج للخطر ، وهو الوجود الذى حققته بريطانيا بعد ثلاثين عاما من الجهود والاجراءات .

وقد طرح ادمونز كبير سكرتيرى حكومة بومباى هذه المسألة فى شهر مارس على النحو التالى : « .. ان الوقت لن يكون بعيدا عندما يتوجب علينا أن نقرر ما اذا كنا سنقدم لشيخ الساحل الحماية التى تستهدف بها لهم او نتخلى عن مسئوليتنا تجاه شئون الخليج ونقصرها على ابقاء طراد أو طرادين لحماية تجارتنا مع المنطقة ، ونترك الشيوخ والباشوات والفرس والمصريين يتقاتلون فيما بينهم (٢) ، كان هذا رأى فاريش فى الموضوع ، ولهذا أوعز الى اوكلاند فى بداية شهر ابريل باعادة النظر فى موضوع الحماية البريطانية بحيث تشمل البحرين ، وفى نفس الوقت أوعز الى الميجور هانيل بالعمل على اقامة علاقات أوثق بين الشيخ عبد الله بن أحمد حاكم البحرين والحكومة البريطانية (٣) وعملا بهذه التعليمات قام هانيل فأصدر أوامره الى

(١) من اوكلاند الى فاريش شيلا ١٦/٦/١٨٣٩ .

(٢) من ادمونز الى ويلوبى ٥/٣/١٨٣٩ .

(٣) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٢ مرقق للخطاب

السرى رقم ٤١ المؤرخ ١٣/٤/١٨٣٩ ومحضر فاريش المؤرخ ١/٤/١٨٣٩ وخطاب من ويلوبى الى هانيل بنفس التاريخ (رقم ٦٧١ الادارة السرية) .

— ٥٥٢ —

ميثلاندى فى يوم ١٨ إبريل بادخال البحرين ضمن مناطق الحماية غير ان ميثلاندى لم يوافق على فكرة اعطاء الحماية صيغة رسمية وأستند فى اعتراضه هذا على الاسباب التى سبق أن ذكرها لهانيل قبل شهرين سبقا •

وسواء ادرك اوكلاندى الاخطار التى كانت تحيق بالوجود البريطانى فى الخليج أو انه لم يدرك ، فانه لم يتمكن من العمل على هذا الاساس وعلى نقيض أوكلاندى كان بالمرستون الذى كانت سلطاته واسعة • وفى يوم ٩ مايو علم بالمرستون من المذكرة التى بعث بها اليه هانيل عن تهديد خورشيد باشا باحتلال البحرين عن طريق القوة (١) كما تلقى بالمرستون فى نفس اليوم تقريراً من كامبل للمخص حديث جرى بين القنصل البريطانى وبين محمد على باشا يوم ٢ إبريل بعد عودة الوالى من زيارته للسودان • فقد حاول محمد على التقليل من خطورة الحملة التى يقوم بها فى شبه الجزيرة ، وذكر بأن الهدف الأساسى فيها هو حماية مكة والمدينة من سطوة الوهابيين والحصول على الجمال التى يحتاج اليها جيشه فى الحجاز • كما ذكر الوالى لكامل بأن قوات خورشيد باشا سوف تتسحب خلال بضعة أشهر • وسوف يتم تسليم السلطة فى الحجاز لخالد بن سعود ، وعندما استوضحه كامبل عن البحرين أجاب الوالى بأن البحرين كالكويت ولاية من ولايات نجد ، وأنها كانت تدفع الزكاة الى ابن سعود لسنوات عديدة • ولقد اتضح لكامل من سير الحديث أن الوالى يعتبر نفسه الحاكم الشيعى لنجد وملحقاتها ، وتسأل كامبل فى قرارة نفسه ما اذا لم تكن تصوراته للمشكلة سليمة على ضوء المرسوم الذى أصدره السلطان العثمانى وفوض فيه والى مصر فى اخضاع نجد كان لايزال سارى المفعول حتى تلك اللحظة (٢) •

(١) فارس والخليج مجلد ٦٤ خطاب من هانيل الى اللجنة السرية

١٨٣٩/٢/٢٨

(٢) من كامبل الى بالمرستون ٦ إبريل ١٨٣٩ (رقم ٢٠) وقد جاء ذكر كامبل فى هذا الخطاب وصول الامير فيصل الى القاهرة فى ٢٦ مارس وتحديد اقامته فى نفس المنزل الذى حددت فيه اقامة الامير عبد الله فى عام ١٨١٨ •

ولعل الاحتمال الآخر حال بين المرستون واتخاذ موقف أكثر تشدداً ضد محمد علي باشا . وفي يوم ١١ مايو بعث بالمرستون برسالة الى بنسوبنى بالقسطنطينية يكلفه ببحث الموضوع مع الباب العالي والتأكد مما اذا كانت فتوحات محمد علي باشا الأخيرة فى نجد قد تمت بتأييد من السلطان ، كما كلفه بأن يوضح للحكومة العثمانية بأن أمن الولايات العثمانية فى العراق قد يتعرض للخطر فيما لو نجح محمد علي باشا فى مد نفوذه الى مناطق الخليج (١) . وقد طلب بالمرستون من كامبل أن ينتظر نتائج الاتصالات التى كلف بنسوبنى بإجرائها مع الحكومة العثمانية ، فاذا تبين أن الباب العالي يعارض هو الآخر امتداد النفوذ المصرى الى المناطق الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة العربية فيتعين عليه تحذير الوالى بأن الحكومة البريطانية لن تسمح لمحمد علي بعد سيطرته البحرية والعسكرية على شواطئ الخليج ، وانه اذا ما أصر الوالى على هذا التوسع فان القوات البريطانية سوف تقوم بمنعه من توطيد سيطرته على أى قاعدة من القواعد البريطانية على ساحل الخليج (٢) .

بعد أكثر من ثلاثة أسابيع على وجه التقريب وفى يوم ٦ نوفمبر تلقى بالمرستون تقريراً من تايلور المقيم البريطانى فى بغداد تطرق فيه الى تدهور حالة الولايات العثمانية فى العراق وقال بأنها قد أصبحت فى حالة خطيرة من الناحيتين الادارية والعسكرية ، كما علم بالمرستون من التقرير الذى بعث به هانيل عن وصول ماتيلاند الى الخليج على ظهر الطراد ويلسلى (٢) . وعلى

(١) من بالمرستون الى بنسوبنى رقم ٦٤ فى ١٨٣٩/٥/١١ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٤ من تايلور الى اللجنة السرية ٨ ابريل ١٨٣٩ (رقم ٢١ الادارة السياسية) وخطاب من هانيل الى اللجنة السرية ١٨٣٩/٥/٢١ .

الرغم من علم بالمرستون باحتمال مغادرة ماثيلاند منطقة الخليج الا أنه مع ذلك ، صدر أمره عن طريق الأمير اليه بوجوب الدفاع عن جزيرة البحرين بما كان لدى ماثيلاند من السفن وذلك اذا ما تعرضت البحرين لهجوم من المصريين ، كما كتب رسالة خطية الى كامبل كلفه فيها بتحذير محمد على باشا من أنه في حالة قيام خورشيد باشا بالزحف على البصرة فان ماثيلاند قد يضطر الى استخدام القوة لمنع خورشيد من ذلك (١) . كما أرسلت تعليمات أخرى تتسم بالحد من هوب هاوس الى المقيم البريطاني في بغداد تتضمن أنه في حالة قيام خورشيد باشا بهجوم على بغداد وطلب باشا بغداد المساعدة من بريطانيا فيتعين على تايلور ألا يقدم أى تعهد باعطاء أى مساعدة بريطانية نظرا لعدم وجود امكانيات جاهزة يمكن وضعها موضع التنفيذ . وفي حالة احتلال خورشيد باشا للبصرة فإنه يتعين على تايلور الافاد ضابط من الضباط البريطانيين مزودا بمذكرة احتجاج الى خورشيد باشا وابلاغه باحتمال اتخاذ اجراءات عسكرية لارغامه على الانسحاب من البصرة (٢) .

(١) من شيز آدم وليم باركر الى ماثيلاند ١٨٣٩/٦/١٤ وخطاب رقم ٧٨/٣٧٢ من الخارجية البريطانية وموجه من بالمرستون الى كامبل بتاريخ ١٨٣٩/٦/١٥ (رقم ١٧) وقد كانت هذه هي المرة الاولى التى يخرج فيها بالمرستون بتصريح عنيف ضد محمد على باشا وقد ورد هنا التصريح فى الرسالة التى بعث بها الى اللورد جرانفيل بتاريخ ١٠ يونيه وجاء فيه : أما بالنسبة لى فانى اكره محمد على باشا ... الخ (راجع كتاب كريميا) ص ٨٩ .

(٢) مسودات مجلس ادارة شركة الهند الشرقية مجلد ١٠ مسودة الى تايلور بتاريخ ١٨٣٩/٦/١٣ (رقم ٦٧ سرى للغاية) كما كتب هوب هاوس رسالة خاصة الى اوكلاند يقول فيها : « لو أن الظروف سمحت لك بتوفير خمسة آلاف أو ستة آلاف بندقية نصفها من بريطانيا - لربما فكرنا فى إرسالها الى بغداد أو على الأقل الى جهة ما من تلك المنطقة ولكنك كما اعرف سوف تحتاج الى قواتك بكاملها للعمل فى مياه الهند (وزارة الهند) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٩ من هوب هاوس الى اوكلاند ١٨٣٩/٦/١٥ .

وعلى الرغم من السرعة التى تصرف بها بالمرستون فى اتخاذ قراراته الا أن مفعولها قد تعثر بسبب الظروف التى طرأت فى منطقة الخليج خلال شهر يونيه ١٨٣٩ خصوصا فيما يتعلق بالبحرين ، وفى ٢ يونيه سلم كامبل الى محمد على باشا صورة من التعليمات التى أصدرها اوكلاند فى ١٨ ابريل الى مثلاند ، وعهد اليه فيها بالدفاع عن البحرين ضد أى هجوم يقوم به خورشيد باشا . وكان كامبل قد تسلم تلك التعليمات من بومباى فى ذلك اليوم . وقد اعترض الوالى على هذه الاجراءات بحجة أن هدفه الوحيد من التهديد باحتلال البحرين هو حماية نفسه من المؤامرات التى كان يحيكها اللاجئون الوهابيون فى البحرين ضد المصريين ، وقد أصر خورشيد من جانبه على استلام أوامر صريحة من محمد على باشا بعدم مهاجمة البحرين تحت أى شكل من الأشكال . وفى ١٢ يونيه سلم باغوص بك الى كامبل صورة من الأوامر التى أرسلت الى خورشيد باشا فى نفس اليوم يطلب اليه فيها عدم التدخل فى شئون البحرين حتى يتسنى للحكومة البريطانية بحث هذا الموضوع مع الجهات المختصة ، ومن ثم تقوم بالرد على التفسيرات التى أدلى بها الوالى لكامل فى شهر ابريل (١) . وقد كان من السهل أن يذكر الوالى مثل هذا القول فهو مهما حاول اخفاء موقفه بالتصنع أمام كامبل الذى حاول استغلال تردد الوالى فى موضوع البحرين وادعائه بتلبية رغبة الحكومة البريطانية فى هذه المسألة الا أن شيئا من هذا لم يحدث فقد كانت البحرين واقعة بالفعل تحت سيطرته .

(١) خطاب من وزارة الخارجية البريطانية موجه من كامبل الى بالمرستون بتاريخ ١٨٣٩/٦/١٥ رقم ٤٢ - ومرفق به صورة من خطاب محمد على باشا الى خورشيد باشا بتاريخ ٢٩/ربيع الاول ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٦/١٢ .

فى ٢٧ مايو وصل الى خرك مبعوث سرى من خورشيد باشا للاجتماع بهانيل وكان يدعى محمد افندى ، وكان يحمل معه رد خورشيد باشا على تحذيرات هانيل المؤرخة ٢٨ فبراير والتي ذكر فيها بأن الحكومة البريطانية سوف تنظر نظرة خطيرة الى أى غزو مصرى للبحرين ، وكما قال الباشا فى رسالته بأنه ليس هناك سبب يدعو هانيل الى الاهتمام بالبحرين منذ الآن لأن خورشيد كان قد استولى عليها بالفعل بتكليف من والى مصر لكى يمنع من أن تتحول هذه الجزيرة الى وكر للمتمردين النجديين ، فالبحرين كانت ولا تزال من توابع نجد وليس لاية دولة حتى فارس سلطة عليها . كما حاول خورشيد أن يتهم فى رسالته فقال بأنه سوف يكون سعيدا باعادة البحرين الى فارس اذا استطاعت هذه اولا أن تسترد كافة أجزاء الامبراطورية الفارسية القديمة والى ان يتم ذلك فسوف تبقى البحرين خاضعة للسيطرة المصرية(١) . وللتأكيد على هذه النقطة فقد ارفق خورشيد مع رسالته صورة من الاتفاق الذى وقعه مع عبد الله بن أحمد حاكم البحرين والذى يعترف فيه الشيخ بالسيادة المصرية على البحرين ودفع زكاة سنوية قدرها ٣٠٠٠ ريال نمسوى (يخصم منها مبلغ ٥٧٠٠ ريالا نظير الخدمات) كما تعهد الشيخ بتقديم كل مساعدة الى والى اذا ما احتاج الى مساعدته ، وفى مقابل ذلك اعترفت الحكومة المصرية بهذا الاتفاق بتاريخ ٢٢ صفر ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٥/٧ غير ان هانيل قد اكتشف بعد اتصال قام به مع شيخ البحرين بأن التاريخ المذكور ليس تاريخ التوقيع وانما تاريخ التصديق على الاتفاق ، لان توقيع

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٤ خطاب سرى رقم ٨٧ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٦ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٥/٣٠ (رقم ٥٧ الادارة السرية) ومرفق به خطاب خورشيد باشا الى هانيل بتاريخ ١٨ محرم ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٤/٣ مع صورة من الاتفاق .

الاتفاق قد تم قبل زيارة مثلاند للبحرين والتي تمت فى ٢٢ ابريل بنحو
ثلاثة اسابيع (١) ١٠

وبالتالى فعندما كان محمد على يفاوض كامبل بشأن البحرين فى
اوائل شهر يونيه كان الوالى يعلم بان البحرين قد كانت خاضعة له بصورة
رسمية ، كما كان يعلم بان مطالبته بالسيادة على الجزيرة باعتبارها منطقة
من المناطق الخاضعة لنجد لم تعد موضع نقاش ، ومنذ بداية ذلك القرن
خضعت البحرين من الناحية الاسمية والفعلية لعدد من الغزاة ، وأن الزكاة التى
كانت تدفعها البحرين للوهابيين انما كانت تدفعها عن طريق القوة ، ثم انها
لم تعد تدفعها فى الستوات التى أعقبت عام ١٨٠٣ عندما كانت تؤخذ منها الزكاة
خوة واقتدارا ، ثم عادت البحرين فقطعت دفع هذه الزكاة فيما بين عام ١٨١٥ ،
١٨٣١ ، وعندما تولى الامير تركى بن عبد الله الحكم قام بارغام البحرين على
استئناف دفع الزكاة السنوية الا انها توقفت عن دفعها قبل وفاة الامير تركى
فى عام ١٨٣٤ ، كما أن محاولات ذلك الامير لارغام البحرين على استمرار دفع
الزكاة لم تنجح ، الا انه ابقى عام ١٨٣٦ وافق الشيخ عبد الله على دفع الزكاة

(١) مرفقات لرسائل حكومة بومباى السرية مجلد ١٤ مرفق بالخطاب
السرى رقم ٨٩ المؤرخ ١٨/٧/١٨٣٩ من هانيل الى ويلوبى ١٠/٧/١٨٣٩
عند اطلاع اوكلاند على الاتفاق لم يصدق بان هذا الاتفاق قد وقع فى شهر
مارس وان كان مما لاشك فيه انه قد وقع فى ذلك التاريخ بالفعل كما
ان خطاب خورشيد باشا - لهانيل والذى يبلغه فيه باستسلام البحرين له
كان بتاريخ ١٨ محرم ١٢٥٥ الموافق ٣ ابريل ١٨٣٩ وكان عبد الله بن احمد
حاكم البحرين قد ذكر لادمونز عندما التقى به فى الاسبوع الاخير من
مارس بانه قد عرض على خورشيد باشا ان يدفع مبلغا قدره ٣ الاف ريال
نمسوى كزكاة وانه كان مبلغا زهيدا .

وقدرها ٢٠٠٠ ريال نمسوى سنويا مقابل وعد من الأمير السعودى بمساعدة الشيخ ضد سلطان مسقط وأمير فارس اللذين كانا يتآمران عليه كما كان يتصور الشيخ عبد الله . ومن المشكوك فيه أن يكون الشيخ عبد الله قد دفع شيئا من الزكاة قبل اندحار قوات فيصل' والتي أدت إلى إلغاء الاتفاق (١) . وفيما يتعلق بدعوى محمد على باشا بنجد فان بنسوبنى لم تمنح له الفرصة ند مما إذا كانت تلك الدعوة تقوم على أساس المرسوم الأسمى القديم الذى انقضى عليه ما يقرب من ثلاثين عاما أو أن هذه الدعوة كانت تقوم على أسس أخرى ، لأنه فى نهاية شهر يونيه وقعت العاصمة العثمانية فى فوضى نتيجة لوفاة السلطان محمود الثانى وهزيمة الجيش التركى على يد إبراهيم باشا .

وفى ربيع ١٨٣٩ قرر محمود الثانى على عكس نصيحة بوتسوبنى القيام بهجوم عسكري على محمد على باشا فارسلى فى أواخر شهر إبريل جيشا إلى سوريا غير أن المعارك لم تبدأ ضد الأتراك قبل منتصف شهر يونيه الذى منى الجيش التركى فى الرابع والعشرين منه بهزيمة ساحقة ، وذلك فى موقعة نصيب بالقرب من بريجيك إلى الجانب الأعلى من نهر الفرت ، وفى ٢٢ يونيه توفى محمود الثانى وخلفه على الحكم عبد المجيد الذى لم تتجاوز سنه لاسدسة عشر ثم بعد ذلك بأسبوع ترك كبتان باشا القائد العام للأسطول العثمانى معسكر الأتراك وانضم إلى محمد على باشا وأبحر بالجانب الأكبر من الأسطول إلى الاسكندرية ، وبذلك أصبحت الطرق ممهدة أمام محمد على لدخول القسطنطينية غير أن والى تلكا فى الاستيلاء عليها وكلف قائده إبراهيم باشا بمراقبة قواته على مشارف جبل طوروس بينما اتجه هو إلى أحداث بعض التغيرات فى النظام القائم فى القسطنطينية عن طريق دفع الرشاوى السخية والوعود الكثيرة بالإصلاح .

(١) فارس والخليج مجلد ٦٥ من هانيل إلى اللجنة السرية
١٨٣٩/٧/٢٥ .

كانت هذه الفترة هي أنسب فترة لقيام إبراهيم باشا بهجومه على البصرة وبغداد لو أن محمد علي باشا كان يفكر بالفعل في الاستيلاء عليهما ، وفي بداية شهر يونيه اتصل القنصل الفرنسي العام المسيو كوشليت بالاستفسار عن الاشاعات التي كانت تملأ العاصمة المصرية عن قيام خورشيد بالرحف على البصرة ولكن الوالي أجابه بأن هذه اشاعات وقال بأن خورشيد باشا مازال حتى تلك اللحظة في الرياض وقد عاد كوشليت فأثار هذه المسألة في ٢٤ يونيه بعد علمه بالتعليمات التي بعث بها بالمرستون الى بونسنبى بتاريخ ١١/مايو والتي حذر فيها بأن بريطانيا لن تقف مكتوفة اليدين ازاء توسع نفوذ محمد علي باشا في الخليج . وفي التقرير الذي كتبه كوشليت عن محادثاته مع والي مصر ذكر ما يلي :

وقد كرر الوالي (١) تأكيد هذا لكامل بعد أسبوعين من هذا التاريخ وذلك عندما قابله كامل للاستفسار حول هذا الموضوع على أثر وصول تعليمات بالمرستون المؤرخة في ١٥/٦/١٨٣٩ غير أن محمد علي باشا لم يحاول التنصل من خططه فحسب وانما بعث برسالة خطية الى بالمرستون تتضمن انكاره لاي شيء من هذا القبيل على الرغم من الحاح كامل عليه بأن ذلك لم يكن ضروريا (٢) : ومن المؤكد أن خورشيد باشا لم يكن ينوى

(١) من كوشليت الى دلمانى ٢٥/٦/١٨٣٩ عن تسلم سولت تقرير بوشليت الاول كلفه بان يوجه نظر محمد علي باشا من محاولة تعقيد مشكلة هي بالفعل معقدة عن طريق القيام بمبادرات عدوانية ضد بغداد أو الخليج حتى لا يستفز البريطانيين لاحتلال البصرة أو أي منطقة أخرى (كتاب دريوت جزء ١ ص ١٢٧ - ١٢٨) من درماتى الى كوشليت ٧/٧/١٨٣٩ .

(١) من كامل الى بالمرستون ١١/٧/١٨٣٩ رقم (٥١) ومرفق به خطاب باغوص بك الى كامل بتاريخ ٩/٧/١٨٣٩ .

الانسحاب من نجد ، وكان الشيخ جابر حاكم الكويت قد
أبلغ هانيل في الأسبوع الثاني من شهر مايو بأن خورشيد ما يزال
في الرياض وأن رسله الذين حضروا الى الكويت للحصول على بعض المؤن
لم يسيروا الى أن خورشيد باشا ينوى القيام بهجوم على البصرة في المستقبل
القريب . وقد أيد هذا الرأي كلايف قائد الطراد الذي كان هانيل قد أوفده
في بداية شهر مايو الى الكويت للتأكد من الاشاعات عن وجود نشاط
للمصريين هناك ، كما أن ماكنزى طبيب المثلثة الذي أوفده هانيل في نفس
المهمة الى كل من البصرة والمحمرة قد ذكرنا بأنه على الرغم من كثرة تردد
الاشاعات في البلدين عن هجوم مصرى وشيك فانه لم ير أى دليل يؤكد
ذلك (١) وكان من الواضح أنه فيما يتعلق بالقضايا التي تهم محمد على باشا
فان التطورات في كل من سوريا والقسطنطينية قد طفت على موضوع
بغداد وأن أى تفكير في غزوها كان لا بد وأن يؤجل النظر فيه ، وعلى أى حال
فان الازمة التي كان يعاني منها خورشيد في ذلك الوقت لم تكن تسمح له
بالبقاء في نجد دون القيام بأى اجراءات ، فاذا لم يجد منفذا لتوجيه طاقاته
الى منطقة الخليج العليا فلا بد أن يوجهها الى منطقة الخليج السفلى .

وفى أواخر شهر يونيه تقريبا علم هانيل من وكيل المثلثة في الشارقة
بان سعد بن مطلق واتباعه لا يزالون في الشارقة وأن الشيخ سلطان بن صقر
قد رحب بمقدم مبعوث خورشيد بدلا من أن يعترض على وجوده هناك ،
كما أبلغ سعد بن مطلق شيخ القواسم بأنه لم يحضر الى المنطقة كمعتمد لخاله

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباي مجلد ١٤ مرفق للخطاب
السرى رقم (٨٧) المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٦ من هانيل الى ديلوبى ١٨٣٩/٥/١٨
(رقم ٥٣ الادارة السرية) مرفق بخطاب جابر بن عبد الله الى هانيل بتاريخ
٢٥/٢٥/١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٥/١٠ كممثل للحاكم المصرى فى المنطقة
ولاثبات هذه الصفة ابرز سعد بن مطلق خطابا معتمدا من خورشيد باشا .

بن سعود فحسب وانما كممثل للحاكم المصرى كما قال بأنه لا ينوى مفادرة الشارقة الا بأمر خطى من المقيم البريطانى نفسه وأنه اذا خرج على ذلك الأساس فسوف يقدم احتجاجا على أمر المقيم (١) وقد أدرك هانيل بأنه اذا سمح لنائب الأمير بالبقاء فى منطقة الساحل فلن يمضى وقت طويل حتى يكون جميع شيوخ الساحل قد خضعوا لمحمد على بنفس الطريقة التى أخضعت له البحرين . فى ذلك الوقت كانت السفينة البريطانية هيولنس فى طريقها الى البصرة بالبريد الصحراوى ، وقد اصدر هانيل أمرا بنقل البريد الذى كانت تحمله السفينة الأخرى ثم قام هو بعد أن تلقى تقريراً من وكيل المثلثة فى الشارقة بالإبحار بعد أربع وعشرين ساعة الى منطقة الخليج السفلى .

وصل هانيل الى أبو ظبى يوم أول يوليو وقد حضر لزيارته على ظهر السفينة خليفة بن شخبوط حاكم أبو ظبى ، وقد بادره هانيل بالاستفسار عن رسالته التى قيل انه قد بعث بها الى سعد بن مطلق ، غير أن الشيخ أنكر ذلك بصورة قاطعة وأكد لهانيل بأنه لم يقم بأى خطوة تؤدى الى تشجيع وكيل المصريين فى مهمته كما عرض على هانيل بأن يكتب تعهداً بمقاومة اطماع خورشيد باشا فى المنطقة ، وأنه تبعاً لذلك يتوقع المشورة والتأييد من الحكومة البريطانية وقد قبل هانيل التعهد من الشيخ خليفة بن شخبوط على الرغم من أنه لم يعلق عليه أهمية كبيرة وأقلع بسفينته فى نفس اليوم الى دبی ، وفى دبی علم من حاكمها الشيخ مكتوم بن بطى بأن هناك شبهة اجماع من المنطقة بوجود اتصال وثيق بين سعد بن مطلق وحاكم أبو ظبى .

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٤ خطاب رقم ٨٧ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٦ انظر أيضاً نفس المجلد خطاب رقم ٨٩ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٨ من ملا حسين الى هانيل بتاريخ ٧/ربيع الاول/١٢٥٥ الموافق ٢١ مايو ١٨٣٩ .

- ٥٦٤ -

وكان موقف عبد الله بن راشد حاكم أم القيوين نفس الموقف . وعند وصول هانيل الى الشارقة وتوقفه هناك وهو في طريقه من دبي الى أم القيوين علم بأن أحد الرسل قد وصل الى هناك موفدا من خورشيد باشا ، وأن هذا الرسول قد أفاد بوصول بعض الامدادات الى سعد بن مطلق ، كما قيل لهانيل . ان الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة من المؤيدين لنائب الأمير ، وعندما اجتمع هانيل في يوم ٣ يوليو بالشيخ سلطان في رأس الخيمة أقسم له أغلظ الايمان بأن تأييده لسعد بن مطلق كان رغم انفه وأنه لو طلب الى سعد بن مطلق بمغادرة الشارقة كما جاء في نصيحة ادمونز له فان مطلق سيتوجه الى أبو ظبي وقال : شيخ الشارقة بن خليفة شخبوط على وفاق تام مع سعد بن مطلق وبرز الشيخ كتأييد لقوله هذا خطابا كان قد بعث به خليفة بن شخبوط الى وكيل المصريين ، وأنه هو الذي تمكن من الاستيلاء على الخطاب ، وقد عرض حاكم أبو ظبي على سعد بن مطلق وضع امكانيات أبوظبي كلها تحت تصرفه ، وقد أثار هذا الخطاب دهشة هانيل ، لأنه كان يعرف بأن بنى ياس من الأعداء التقليديين للوهابيين ، ولكن ربما يكون السبب حسب اعتقاد هانيل يعود الى أطماع أبوظبي في الاستيلاء على قلعة البريمي التي كانت في يد النعيم ، وكان يتوقع ان يحصل على مساعدة سعد بن مطلق في تحقيق هذا الطلب (١) .

كذلك ذكر سلطان بن صقر سرا لهانيل بأنه لو زوده بأمر خطي لطرد سعد بن مطلق من الشارقة ولما كان يتردد في تنفيذ ذلك ، غير أن هانيل لم يكتف بتسليم هذا الأمر لليه فحسب وإنما بعث برسالته الى الوكيل المصري مباشرة يستنكر فيها شرعية ولايته على المنطقة ويدعوه الى مغادرتها على الفور كما يحذره من التدخل في شؤون النعيم سكان البريمي الذين يعتبرون تحت الحماية البريطانية ، طالما بقي النزاع قائما بين بريطانيا ومصر . وقد تكرر هذا

(١) المرفقات السرية لخطابات حكومة بومباي الخطاب رقم ٨٩ المؤرخ

١٨٣٩/٧/١٨ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٧/١٠ .

الطلب فى الرسالة التى بعث بها الى خورشيد باشا فى اليوم التالى وسجل فيها استنكاره لتعيين خورشيد باشا سعد بن مطلق حاكما على المنطقة ، وعلى الأخص بعد أن قام محمد على باشا باعطاء ضمانات مؤكدة بأنه لا ينوى توسيع سلطته فى منطقة الخليج ، كما طلب من خورشيد باشا سرعة سحب الوكيل من المنطقة . وقد حصل هانيل من سلطان بن صقر على تعهد خطى مماثل ومن خليفة بن شخبوط ومن غيره من حكام الساحل يعربون فيها عن رغبتهم فى التعاون مع حكومة بريطانيا فى مقاومة أى تدخل من جانب خورشيد باشا فى أراضيهم . وقد وافق هانيل على التعهد بالحماية لزعماء المنطقة وتعهد بتزويد سلطان بن صقر بالأسلحة اذا اضطر الى الدخول فى حرب مع المصريين نظير تعهد الشيوخ بعدم اجراء مفاوضات أو عقد اتفاقات مع الحكومات الأجنبية الا بموافقة الحكومة البريطانية ، واعتبار أعداء أو اصدقاء بريطانيا أعداء أو اصدقاء لهم ، وفى ختام جولته عقد هانيل اجتماعا مع رسول قبيلة النعيم الذى وصل خصيصا للاجتماع به وأمر له بمؤونة من الأرض والبارود كما أبلغه بأن الحكومة البريطانية بصدد تعيين وكيل لها فى البريمى .

ورغم ما قام به هانيل فى هذه الجولة الا أنه لم يكن متفائلا بالنتائج وذلك ان انتصار ابراهيم باشا على العثمانيين ، ورغم أن أخبار هذه المعركة لم تكن قد وصلت بعد الى هانيل ، ووصول تعزيزات من الأسلحة والمعدات الى سعد بن مطلق وعودة هذا الى المنطقة بدفعة جديدة من القوات . كل هذه الاحتمالات كان لابد وأن تكون لها عواقب وخيمة على نفوذ المقيم البريطانى فى المنطقة ، وبهذا المعنى بعث هانيل بتقرير عاجل الى حكومة بومباى وأبدى فيه شكه فى جدوى الاحتجاجات التى كان يقدمها السفير البريطانى فى مصر الى حكومة محمد على باشا كى تحدد من التوسع العسكرى لخورشيد باشا فى الجزيرة العربية ، وأكد هانيل بأنه ليس هناك أى شىء يمكن أن يوقف محمد على باشا عند حده غير التهديد بالقوة المسلحة كما طالب هانيل بتعزيز الأسطول العامل فى الخليج : ونبه أنه اذا حاول خورشيد باشا إعادة سعد بن مطلق

الى منطقة الساحل بمزيد من العتاد والرجال فينبغى فرض حصار بحرى على سواحل القطيف والعقير وسيحات ، كما انه فى حالة قيام خورشيد بهجوم على البريمى التى تعتبر مفتاح الطريق الى عمان الشمالية ، وفى حالة اشتراك بعض شيوخ المنطقة فى هذا الهجوم يتعين توجيه انذار اليهم بالكف عن هذا العمل والا سيقوم الاسطول البريطانى بتدمير تحصيناتهم ، ولا ينبغى على أى حال أن يضيع الساحل منا كما ضاعت البحرين من قبل بسبب سياسة العجز والتردد التى نسير عليها . وكان حاكم البحرين الشيخ عبد الله بن أحمد قد ذكر لهانيل فى أواخر شهر يونيه عند زيارة المقيم للبحرين وهو فى طريقه الى أبو ظبى بأنه فى الحقيقة كان ينوى التصدى لخورشيد باشا لو انه لم يكن قد فقد الأمل فى الحصول على التأييد من بريطانيا وأن الحكومة البريطانية لم توفر له اطلاقا الحماية التى يحتاج اليها كى يستطيع مجابهة خورشيد باشا . ولكن هانيل لم يكن يثق فى أقوال الشيخ وكان يرى أن السياسة الاستسلامية التى يسير عليها الشيخ تعود الى الشيخوخة والى رغبته فى حياة هادئة بالرغم من أن هانيل كان يعتقد بأن أحاديث الشيخ عبد الله لم تكن كلها عارية من الصحة ، وذكر هانيل أيضا أن خورشيد باشا قد أصبح يتمتع بمركز مرموق بين سكان المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة واننا اذا لم نقم باجراء سريع لدرء هذا النفوذ فإن خورشيد باشا سوف يجد المجال مفتوحا أمامه للتوسع كيف يشاء . ومن ناحية أخرى أشار هانيل بأنه لو وجه تحذير الى محمد على باشا باعتباره مسئولا عن أى اصابات أو تلف ينجم عن فتوحاته العسكرية فان مثل هذا التحذير سوف يدفعه على الانسحاب من سواحل الخليج .

ومن منطقة الساحل توجه هانيل الى مسقط لاستطلاع رأى العام هناك عن وجود القوات المصرية فى شبه الجزيرة العربية . وكان مبعوث من سعد بن مطلق قد زار مسقط أيضا خلال الأسبوع الأول من يونيه مزودا بخطابات من نائب الأمير ومن خورشيد باشا للسيد سعيد ، بأنه أرسل سعد

بن مطلق الى البريمى للاشراف على شئون الحكم فى منطقة الساحل، وأنه لذلك يطلب من السيد سعيد تقديم المساعدة الممكنة اليه ، أما خطاب سعد بن مطلق الى السيد سعيد فقد كان شديد اللهجة ، وقد ذكر فيه بأن السيد سعيد لم يقدم اليه أى مساعدة فى مهمته ، كما طالبة بدفع الزكاة السنوية التى كان السيد سعيد يدفعها فى الماضى للحكومة الزيلضى (١) . وعند وصول هانيل الى مسقط وجد ان السيد سعيد متغيب عن البلاد وقد استقبله نجله ثوينى وابن أخيه محمد بن سالم اللذان كانا ينوبان عنه فى الحكم ، ولكن النائبين أكدا للمقيم البريطانى بأنهما لا ينويان تقديم أى مساعدة الى خورشيد باشا وانهما على العكس من ذلك يقفان الى جانب الحكومة البريطانية فى مواجهة الاعتداءات التى كان يقوم بها نائب الأمير ، غير أن معارضتهما لسعد بن مطلق لم تتحول الى عمل ايجابى ، وعندما اقترح هانيل عليهما تنفيذ وعودهما بمقاومة خورشيد باشا وذلك عن طريق تقديم العون الى مقيم البريمى رفض اقتراحه بطريقة مهذبة ويرجع السبب فى ذلك حسب اعتقاد هانيل الى الغيرة التى كانتا يحسان بها من حمود بن عزام والى صغار واحد اقربائهما ، وكان هذا قد قدم بعض المساعدات للمقيم فى الربع الماضى .

لقيت مقترحات هانيل تأييدا قويا من جانب السير جيمس كرتاك حاكم بومباى بعد أن اطلع عليها من التقرير الذى بعث به اليه وقال : « انه يبدو ان انصاف الحلول قد تؤدي الى الفشل الذريع فالما ان نقف بكل ثقلنا الى جانب الحكام العرب فى تصديهم لاعتداءات خورشيد باشا أو ان نستسلم

(١) مرفقات للخطابات السرية لبومباى مجلد ١٤ مرفق للخطاب

السرى رقم ١٤ مرفق للخطاب السرى رقم ٨٧ المؤرخ ١٦/٧/١٨٣٩ من روبرين اسلام (وكيل شركة الهند الشرقية فى مسقط) الى هانيل ٢٩ ربيع الاول ١٢٥٥ الموافق ١٠/٦/١٨٣٩ .

- ٥٦٦ -

للسيطرة المصرية على الساحل العربى للخليج ، غير ان اوكلاند عارض هذا
الرأى وأشار الى كرنالك فى بداية شهر أغسطس بأن اتخاذ اجراءات
للمحافظة على نفوذ بريطانيا على الساحل العربى انما تتوقف على الخط
السياسى الذى تسير عليه حكومة بريطانيا ازاء محمد على باشا وعلى نتائج
مباحثات كامبل فى القاهرة وازاد اوكلاند :

بأن من الواضح أنه ليس فى وسع حكومة الهند أن تقدم على أى
اجراءات من قبيل استعراض القوة البحرية فى الخليج لمساعدة الحكام
العرب الذين يرغبون فى التصدى لخورشيد باشا بالطريقة المتاحة لهذه
الحكومة ، وقد تؤدي الى نتائج حاسمة كانسحاب جيش خورشيد باشا
من المنطقة انسحابا تاما ، والتخلي عن النفوذ الذى حققه مؤخرا لتشجيع
محمد على باشا كما اننا لا نستطيع أن نعتمد على السلوك المتقلب والمواقف
الخادعة لكثير من هؤلاء الحكام والى تأييدهم للجهود التى نبذلها نحوهم .
ان خورشيد باشا كما يبدو قد أصبح يمارس نفوذا كبيرا عليهم ، وفى الوقت
الذى يستمر هؤلاء الحكام فى تخاذلهم فان محاولتنا لتشجيعهم على الحفاظ
على استقلالهم سوف يتطلب منا حجما من القوة لتحقيقه ، الامر الذى
لا يتفق مع الاعتبارات السياسية الراهنة التى تلزم بها حكومة الهند فى
الوقت الحاضر من هذه القضية .

كان احتلال خورشيد البحرين يسبب خداعا شديدا لاولكلاند ومن ثم
فقد رفض التفسيرات التى قدمها الشيخ عبد الله بن أحمد لهذا الاحتلال
ويعتقد اولكلاند بأن الشيخ عبد الله بن أحمد كفيه من شيوخ المنطقة ملزم
تجاه الحكومة البريطانية بمقتضى معاهدة الصلح العامة المعقودة فى عام ١٨٢٠
وأن تعاونه مع خورشيد باشا يصبح تبعا لذلك خرقا لذلك الالتزام ، كما
ينطبق هذا الرأى على بقية حكام المنطقة كسلطان بن صقر وخليفة بن
شخبوط ، ويرى اولكلاند بأن الاجراء الوحيد الذى سوف يلزم هؤلاء الشيوخ
بالتقيد بنصوص المعاهدة وعدم التماذى فى خضوعهم للمصريين هو الحصول منهم

على تفهيد خطى بالاستمرار فى ذلك الالتزام مقابل تقديم بعض المساعدات العسكرية اليهم والتي تمكنهم من الوقوف فى وجه المصريين والحفاظ على استقلالهم ، غير أن أوكلاند عارض رأى هانيل بتقديم الحماية للمقيم وقال ان هذا يتعارض مع الخطوط الاساسية التى تقوم عليها العلاقات البريطانية مع تلك القبائل العربية ، وهو عدم التدخل فى شؤونهم الاقليمية ولكنه على أى حال وافق من حيث المبدأ على تقديم الحماية البريطانية للمقيم ، وأحال مقترحات هانيل باستعراض القوة الى القائد العام للأسطول البريطانى بالهند الشرقية للنظر فيها ، وان كانت الشكوك قد ساورته فى احتمال الموافقة على هذا الاجراء فى القريب العاجل . أما توفير السفن لهذه الحملة فقد كانت من اختصاص حكومة بومباى ، وأبدى أوكلاند موافقته على اقتراح هانيل بارسال أحد الطرادات البريطانية الى الخليج اذا استطاعت حكومة بومباى توفير هذا الطراد بالقياس بدوريات بحرية لمنع تسلل الجماعات المسلحة المؤالية لخورشيد باشا الى ساحل الصلح .

ويبدو أن أوكلاند فى هذا الخطاب كان يحاول التملص من الموضوع لانه كان يعلم علما اكيدا « . . كما أن خورشيد باشا فى انتظار أن تأتية التعليمات من القاهرة كذلك فانى انتظر التعليمات من لندن » . . وقد كتب هذا القول الى ماثيلاند فى شهر يوليو وأضاف أوكلاند « بأن الموضوع برمته يرتبط بالسياسة المصرية والتركية والاوروبية مثلما هو مرتبط بالسياسة الشرقية ، وأن المعلومات القليلة التى فى حوزتى لا تكفى للارسترشاد بها فى هذا الموضوع (١) غير أنه لا يمكننا اللقاء اللوم على أوكلاند وذلك بسبب نقص الامكانيات التى كانت تحت تصرفه ، غير أن المبررات التى أبدىها فى عدم اتخاذ أى اجراءات لاتبدو سليمة ، ولما كان يعتقد بأن الحل الوحيد هو انسحاب المصريين انسحابا تاما من الخليج فقد كان يتعين عليه أن يتخذ

(١) خطاب من أوكلاند الى ماثيلاند ٢٩/٧/١٨٣٩ .

الخطوات اللازمة لمواجهة هذا الوضع فضلا عن انه كان يعلم تمام العلم أن أحكام المنطقة كانوا مترددين وغير جادين في مواجهة التوسع المصرى ، هذا بالإضافة الى أن خورشيد باشا كان له نفوذ واسع على أولئك الشيوخ ومع ذلك فإن اوكلاند لم يتخذ أى إجراء للرد على ذلك النفوذ كما لم يكن اوكلاند موافقا فى احكامه على شيوخ الساحل ، وكان شيخا دى وأم القوين قد رفضا استقبال سعد بن مطلق أو الترحيب به فى منطقتهم .

وان تصرفه على أساس مبدأ عدم التدخل ، والتدخل العسكرى بوجه خاص فى شؤون شبه الجزيرة العربية لم يكن واقعيا ، وصحيح أن هذا المبدأ كان معمولاً به منذ عام ١٨٢١ غير أن اوكلاند قد صرف النظر عنه منذ بداية عام ١٨٣٩ عندما أقر الحملة البريطانية لاحتلال عدن حتى لا تقع فى ايدى المصريين ، وبالتالي فإن الاوضاع فى شبه الجزيرة العربية فى تلك الفترة كانت تشبه الوضع فى عدن . ومنذ بداية دخول النفوذ البريطانى الى الخليج فقد ظل يواجه تحديات مستمرة من الخارج كما أن مركز خورشيد باشا بين القبائل قد نشأ بحكم الانتصارات العسكرية التى حققها وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت انه رغم تفوق البريطانيين فى البحر إلا أنهم لم يكوّنوا ندا للمصريين فى البر .

فى أول شهر أغسطس وصلت الى خرك أخبار عن اندحار الجيش التركى على يد ابراهيم باشا ، ثم أعقب ذلك وصول خبر عن وفاة السلطان العثمانى وانضمام الأسطول التركى لمحمد على باشا وخلال أيام قليلة كانت أخبار هذه التطورات قد وصلت الى منطقة الخليج السفلى ، غير أن سعد بن مطلق ورجاله كانوا قد غادروا منطقة الساحل الى نجد قبل وصول تلك الأخبار ، وقد أوفى سلطان بن صقر بوعدة فأخرج نائب

الأخير من رأس الخيمة غير أنه وعده نرا كما ذكر وكيل المثلثة فى الشارقة ، وعده بتأييد القواسم له لو عاد الى المنطقة بقوات أكبر (١) ، وقد وافق نبا انتصارات خورشيد باشا فى نجد وصول خبر تسليم خورشيد باشا سلطة الحكم فى نجد لخالد بن سعود تنفيذا لأوامر صريحة وصلت خورشيد باشا من محمد على باشا (٢) ومن التفسيرات غير الصحيحة التى أضيفت على هذا الحادث هو أن خورشيد باشا كان ينوى الزحف على بغداد بعد إعادة تنظيم قواته هناك ، وقد ضاعفت انتصارات المصريين فى سوريا ووفاة السلطان العثماني من خطورة الوضع على بغداد ، ولم يعد هناك أدنى شك فى أن خورشيد يستطيع متى شاء احتلال العراق بكل سهولة خصوصا اذا جاءته مساعدات من جيش أحمد باشا فى الحجاز ومن قبائل المنتفك سكان المنطقة السفلى للعراق وحسب تقديرات هانيل كانت قوات خورشيد لا تزيد عن ٣٠٠ فرد خيال و ٣٥٠٠ فرد من النظاميين وغير النظاميين ونحو ٨ الى ١٠ مدافع ميدان يوجد أكثرها فى الثرمدة الواقعة فى منتصف الطريق بين المدينة

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى خطاب سرى رقم ١٠٣ مؤرخ ١٨٣٩/٩/١٠ من هانيل الى ويلوبى بتاريخ أول أغسطس ١٨٣٩ (رقم ٧٣ ، ٧٨ سرى الادارة السرية) ومجلد ١٦ مرفق للخطاب السرى رقم ١١١ مؤرخ ١٨٣٩/١٠/٤ من هانيل الى ريد بتاريخ ١٨٣٩/٨/٢٦ (رقم ٨٨ الادارة السرية) .

(٢) نفس المصدر مجلد ١٥ مرفق للخطاب السرى رقم ١٠٣ مؤرخ ١٨٣٩/٩/١٠ من هانيل الى ويلوبى بتاريخ ١٨٣٩/٧/٢٩ (رقم ٧١ الادارة السرية) انظر نفس الحلقات مجلد ١٤ ومرفق للخطاب السرى رقم ٩٢ مؤرخ ١٨٣٩/٧/٣١ من خورشيد باشا الى باغوص بك الموافق ١٨٣٩/٤/٨ ومرفق بخطاب كامبل الى ويلوبى فى ١٨٣٩/٦/١٦ .

- ٥٧٠ -

وعنزته ، أما زميله أحمد باشا فقد كان لديه جيش قوامه ٤٠٠٠ مقاتل في المدينة وان اندماج هاتين القوتين في جيش واحد سوف يمكن خورشيد من الزحف على العراق (١) .

كان كامبل يعتقد بأن محمد علي لم يتراجع عن العهد الذي قطعه على نفسه في شهر يوليو بالتحرك الى البصرة وبغداد ، كما كان يعتقد بأن خورشيد باشا ، المعروف لديهم معرفة وثيقة كما ذكر في رسالته وبأنه كان يكن له كل التقدير والاحترام ، بأنه سوف يعصى أوامر محمد علي باشا وبالإضافة الى ذلك فان إبراهيم باشا بعد الهزيمة التي منى بها مع الأتراك قد انسحب الى الضفة الغربية للفرات الامر الذي لا يدل على أنه ينوى القيام بأى عمليات عسكرية ضد العراق (٢) .

ويبدو أن آراء كامبل بوصول خطاب خورشيد باشا الى هانيل في نهاية اغسطس والذي أكد فيه القائد المصري بأنه لاينوى التحرك من قاعدته في الثرمدة مالم تصله أوامر من مصر بذلك . وقد ابلغ المبعوث الذي حمل خطاب خورشيد الى هانيل ابلغ هذا الأخير بأن سعد بن مطلق قد توجه الى معسكر خورشيد بعد نزوله في العقير مباشرة الامر الذي استنتج منه هانيل احتمال تحركات جديدة يقوم بها المصريون ضد البريمي (٣) .

- (١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباي مجلد ١٥ مرفق للخطاب السري رقم ١٠٣ مؤرخ ١٨٣٩/٩/١٠ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٨/١ (رقم ٧٣ الادارة السرية) ومجلد ١٦ مرفق للخطاب السري ١١١ مؤرخ ١٨٣٩/١٠/٤ (رقم ٧٢ الادارة السرية) .
- (٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباي مجلد ١٦ مرفق للخطاب السري ١١١ مؤرخ ١٨٣٩/١٠/٤ من كامبل الى ريد ١٨٣٩/٨/٢٢ .
- (٣) نفس الحقائق والمجلد والمجموعة من هانيل الى ريد ١٨٣٩/٨/٢٨ (رقم ٨٩ الادارة السرية) - ومرفق به خطاب خورشيد باشا الى هانينسل المؤرخ ١٧ جمادى الاولى ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٧/٢٩ .

- ٥٧١ -

وقد عزز هذا الاستنتاج وصول أخبار من ساحل القرصنة تفيد بأن خليفة بن شخبوط حاكم أبو ظبي قد قام بهجوم في أواخر يوليو على قلاع البريمي لاحتلالها . وفي نفس الوقت تمكن وكيل الممثلة البريطانية في الشارقة من الاستيلاء على بعض الرسائل التي كان قد بعث بها كل من خورشيد باشا وخالد بن سعود إلى سعد بن مطلق وسلطان بن صقر ، وبعث بها إلى هانيل ، الأمر الذي يتضح منه بأن هدف خورشيد باشا من إيفاد سعد بن مطلق إلى الشارقة هو لتوطيد نفوذه في منطقة الساحل ، وقد حدا هذا بهانيل إلى تحذير خورشيد باشا بأن الحكومة البريطانية لن تحتل تدخله بعد الآن في شئون القبائل الساحلية ، وأن على خليفة بن شخبوط أن يعلم بأنه لا يمكنه التحلل من التزامه بمقتضى المعاهدة بهذه السهولة . وقد تقدم المقيم بمقترحات إلى حكومة بومباي يطالبها بتوجيه تحذير إلى شيخ بنى ياس بأن الحكومة البريطانية سوف تقوم بتدمير سفنهم وتحصيناتهم إذا لم يتوقف عن الاعتداء على النعيم أو يعرضهم عن الأضرار التي لحقت بهم من جراء الاعتداء على منطقتهم . وقد انتهز هانيل الفرصة فنبه رؤسائه إلى المقترحات التي سبق أن بعث بها إليه في نهاية شهر يونيه بوجوب مرابطة إحدى السفن البريطانية بالقرب من ساحل القطيف وتوجيه تحذير إلى والي مصر هناك بعدم إرسال أي سفن تحمل أسلحة إلى منطقة الساحل (١) .

لم يبين أوكلاند مقترحات هانيل التي صيغت بلهجة شديدة فحسب .
وتما طلب إلى ميثلانده القيام بعملية الاستعراض لقوة بريطانيا كإجراء له

(١) نفس المصدر من هانيل إلى ريد بتاريخ ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ أغسطس ١٨٣٩ (رقم ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١) الإدارة السرية وانظر أيضا نفس المصدر مجلد ١٥ مرفق للخطاب السري رقم ١٠٣ مؤرخ ١٠/١٠/١٨٣٦ من هانيل إلى ويلوبي ١٨٣٩/٧/٣١ رقم ٧٢ سري .

اهميته وقد قام هذا القائد البرى بتنفيذ ما طلب اليه بأقصى الحسم والسرعة الممكنة، فقد غادر قاعدة ترنكومالى فى أواخر سبتمبر الى مدراس للتموين من هناك ، ثم أبحر مسرعا الى بومباى التى وصلها يوم ٣ نوفمبر ، ترافقه السفن الحربية الملكية ويلسلى ولارن والجرين ، الا انه قبل مغادرته اضطر الى الانتظار فى بومباى ريثما تصله تعليمات من انجلترا بشأن الوضع فى الصين، وعند وصول تلك التعليمات وجد نفسه مضطرا الى الإبحار على الفور الى الشرق الأقصى (١) وبسفر القائد الى الشرق الأقصى تلاشى كل أمل فى توفير جانب من القوة البحرية البريطانية للعمل فى الخليج . كما كانت السلطات الهندية فى النصف الثانى من سنة ١٨٣٩ تعاني من مشكلة أخرى ، هى حالة الوحدة البحرية المربطة فى الخليج . وفى أواخر سبتمبر أبلغ الكومندور برکس القائد المسئول عن هذه الوحدة هانيل بأن السفينتين اللتين تحت قيادته لم تعودا تصلحان للأعمال المنوط بها ، والتى تتطلب مالا يقل عن أربع سفن شراعية وباخرة واحدة (أو سفينتان شراعيتان وباخرتان) تقوم احدهما بحراسة القاعدة فى خرك والأخرى لأعمال المراقبة فى بوشهر والثالثة للقيام بدوريات على ساحل القرصنة تمتد شمالا حتى الكويت ، وهذه العملية تستغرق مالا يقل عن شهر ، وبالإضافة الى حامية للأشراف على المواصلات مع بومباى . كما أشار برکس الى احتمال أن تطرأ ظروف فى منطقة الخليج العليا أو السفلى مما يتطلب وجود طرادين أو ثلاثة معا . غير ان حكومة

(١) من سجلات الرسائل السرية لحكومة بومباى المجلد العاشر رقم (١) من الحاكم الى اللجنة السرية فى ١٠/٢٦ ، ١٨٣٩/١١/٢٨ (كما ١١٨ ، ١٢٧ سرى) انظر أيضا خطاب رقم ١/٢٢٠ من ميشلاند الى وود فى ١٨٣٩/٩/١٥ (ورقم ١١٠) ومرفقات حكومة بومباى السرية مجلد ١٨ خطاب سرى رقم ١١٣ مؤرخ ١٨٣٩/١٠/٥ من مدوك الى ريد شمبلا ١٨٣٩/٩/١٦ .

بومباى لم تفعل شيئاً لسد العجز الذى يعانى منه أسطول الخليج .
 أما الباخرة هيوليدس التى كانت تقوم بأعمال الدورية فى الخليج خلال يوليو
 فقد تقرر سحبها لكى تستأنف عمليات نقل البريد الصحراوى الى السويس ،
 وكانت السفينة الوحيدة الموجودة يومئذ فى بومباى هى السفينة الفستون
 ولكنها كانت تجرى عليها بعض الاصلاحات ولم تكن جاهزة للعمل فوراً ،
 ولحسن حظ هانيل لم يظهر خورشيد باشا أى دليل خلال شهر سبتمبر
 لاستئناف عملياته العسكرية فى شرق شبه الجزيرة . وكان خورشيد قد
 استاء من قيام وكيل المثلية بطرد سعد ابن مطلق من ساحل القراصنة ومن
 امثال خليفه لمطالب هانيل وقام بدفع تعويضات الى النعيم عن الاضرار التى
 لحقت بهم بعد أن اتضح لهانيل بأنهم هم الذين اضطروه الى مهاجمتهم . وقد
 رد خورشيد على هذه الاجراءات بارسال قوة من القطيف للاغارة على الفرع
 الشمالى للنعيم فى قطر ، وذلك فى شهر سبتمبر تدرعاً برفض النعيم دفع
 الزكاة المقررة عليهم عن طريق عبد الله بن أحمد شيخ البحرين . ولقد قام
 المصريون بالثلاث مزارع النعيم ، ولم ينسحبوا الا بعد أن راجت اشاعة عن
 مقتل حاكم القطيف فى أوائل شهر أكتوبر (١) وفى ٢٧ أكتوبر وصل يوسف
 ارتون طبيب خورشيد باشا الى خرك برسالة من خورشيد باشا الى هانيل
 ولم يتطرق فى الرسالة الى ابعاد سعد بن مطلق من منطقة الساحل وانما
 تركزت رسالته على البريمى التى ادعى أنها هى الأخرى تابعة لآل سعود
 وبالتالي لمحمد على باشا (٢) .

-
- (١) نفس المصدر مجلد ١٧ وخطاب سرى رقم ١٣٣ فى ١٨٣٩/١٢/٢٤
 من هانيل الى السكرتير الاول - بالوكالة بومباى فى ٢٦ ، ١٨٣٩/١٠/٢٧ ،
 (رقم ١٠٩ ألف و ١١٠ سرى) .
 (٢) نفس المصدر من هانيل الى رين ١٨٣٩/١٠/٢٨ رقم (١١١ سرى)
 ومرفق معه خطاب خورشيد باشا الى هانيل المؤرخ ١٦ رجب ٢٥٥ الموافق
 ١٨٣٩/٩/١٥ .

ان الاهمية المتزايدة للبريمى من التطورات التى كانت تأخذ مجراها فى الخليج يومئذ قد اقنعت هانيل بأنه يتعين أن يكون لديه المام بشئون المنطقة . فلم يقم أى أوروبى بزيارة البريمى اطلاقا ، كما كانت المعلومات عنها قليلة فى أرشيف الممثلة . وفى منتصف نوفمبر طلب هانيل من الكابتن اتكنسر هامرندن من قوات مشاة بومباى الذى كان قائدا للكتيبة الميدانية فى خرك بالإبحار الى الشارقة ومنها الى البريمى (١) بينما استقل هانيل نفس الباقرة الى مسقط ، وذلك للتعرف على ما أعلن ان السيد سعيد يقوم به وقد عاد لتوه من زنجبار لمساعدة حكام الحدود العمانية ضد المصريين . وفى لقاءهما ذكر السيد سعيد لهانيل انه لا يعتقد فى امكانه القيام بأى عمل لوقف تقدم خورشيد باشا بالقوات القبلية الموجودة أو بالقوات التى يمكن أن يساهم بها السيد سعيد ، وبالتالي فهو ليس فى حاجة الى الأسلحة وغيرها من معدات الحرب التى عرض هانيل تقديمها لتسليح تلك القوات ، كما ذكر أنه لا جدوى من محاولة توحيد القبائل ضد خورشيد باشا الا أنهم يتقيدون بالتزامهم . وعندما ذكر له هانيل بأن نعيم البريمى قد صمدوا لخورشيد باشا أجاب السيد سعيد بأن للنعم وضعاً خاصاً لأنهم عانوا كثيراً من اضطهاد سعد بن مطلق لهم فى الماضى ويعتقد هانيل أن رغبة السيد سعيد عن تقديم المساعدة . وهو نفس الموقف الذى سبق ان اتخذه كل من نجله وابن أخيه ، انما يعود الى غيرته من حمود بن عزان وإلى صحار .

لقد كان النزاع بين السيد سعيد والسيد حمود خطيراً بحيث بات يشكل خطراً على كيان السلطنة نفسها فى تلك الفترة الدقيقة من تاريخ المنطقة على حد تعبير هانيل الذى رأى أن يقوم بمحاولة لراب الصدع بينها . وقد وفق فى مساعاه هذا وتم عقد اتفاق بينهما يوم ٢٣ ديسمبر يحقق سلاماً دائماً بين

(١) أعيد نشر المعاهدة فى كتاب « المعاهدات » تأليف إيتشيسون .

— ٥٧٥ —

الزعيمين وحدهما وبين رعاياهم (١) وبطبيعة الحال لم يكن في مقدور هانيل ان يتنبأ الى متى سيدوم ذلك السلم بينهما ، غير أن الأمل كان يحدوه بأن يستمر الالتزام بالاتفاق حتى تنتهى الأزمة المصرية البريطانية . أما فيما يختص بالهدف الاساسى من زيارة هانيل للسلطنة وهو اقناع السيد سعيد باتخاذ موقف أشد ضد أطماع خورشيد فقد كان نجاحه ضئيلا ، فقد أصر السيد سعيد على القول بأن الجهة القادرة على ردع خورشيد باشا هى بريطانيا وحدها . وان أفضل وسيلة أمامها لتحقيق ذلك هى احتلال البحرين وارسال فصيلة من الجنود للمرابطة فى واحة البريمى . وعندما ذكر له خورشيد عدم وجود تفكير فى اتخاذ أى من الاجراءين ابدى السيد سعيد دهشته وقال بأنه لا بد من احتلال البحرين فان لم يقم البريطانيون بذلك فانه سوف يتولى هذا الأمر بنفسه (٢) .

ان التناقض بين اصرار السيد سعيد على احتلال البحرين وعدم اهتمامه بأمن عمان يبدو مثيرا للاهتمام أكثر مما يبدو مثيرا للدهشة . فمنذ ثلاثين عاما والسيد سعيد يحاول الاستيلاء على البحرين ولأنه فشل فى مشروعه هذا أكثر من مرة فقد اضطره ذلك الفشل الى الاعتكاف فى زنجبار وتكريس وقته لممتلكاته فى أفريقيا الشرقية . وأيا كانت دوافع السيد سعيد فى محاولاته لاحتلال البحرين فان هانيل لم يشأ ان يرفض هذه الفكرة من حيث المبدأ . وكما شرح فى تقريره لحكومة بومباى عن اجتماعه بالسيد سعيد

(١) اعيد نشر هذا الاتفاق فى كتاب « المعاهدات » تأليف اتشيسون

ص ٨٧ — ٨٩

مرفقات الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٧ خطاب سرى

رقم ١٣٥ مؤرخ ١٨٣٩/١٢/٣١ من هانيل الى ريد ١٨٣٩/١٢/١٠ (رقم ١١٧

الادارة السرية)

فقد كان احتلال البحرين ليس اجراء هاما فحسب وانما سيضمن للحكومة البريطانية نفوذا اكبر فى سياسات الخليج . واذا أضفنا الى ذلك فكرة احتلال البريمى فان هذا الاجراء سوف يكون كفيلا بوضع حد لنشاط خورشيد باشا فى المنطقة . اما اذا اعتبر الاستيلاء على البحرين من جانب بريطانيا قضية غير واردة فانه يمكنها ان تقدم مساعدات الى السيد سعيد للاستيلاء على الجزيرة بدلا منها . ورغم ذلك فان هانيل نفسه لم يكن مقتنعا بهذه الفكرة كل الاقتناع ، فقد كانت الشكوك تساوره حول سلامة العلاقة التى تربط بريطانيا بحكومة مسقط ، ولم يكن نشاط اولئك الذين كانوا ينحون باللائمة على فتور تلك العلاقة فى الأعوام الأخيرة . . اننى لا اتصور أن هذا الموضوع من الموضوعات الهامة لأن تلك العلاقة الحميمة التى تربطنا بحكومة مسقط كانت كما برهنت الأحداث مصدر ازعاج لنا ، لأنها كانت تؤدى الى توريط بريطانيا فى هذه المشاكل .

غادر هانيل مسقط فى الأسبوع الأخير من ديسمبر متوجها الى الشارقة ، وعند وصوله اليها فى السادس من يناير ١٨٤٠ علم هناك بأن الكاتبن هامرتون لم يتمكن من الدخول الى المنطقة بسبب موقف سلطان بن صقر حاكم الشارقة . وعند وصوله كانت الاشاعات تملأ جو المنطقة عن قرب قدوم المصريين وانتهاء النفوذ البريطانى فى المنطقة ، وانحياز الفرنسيين الى صف محمد على باشا . كما كانت لهجة سلطان بن صقر حين اجتمع به شديدة . كذلك فان المبعوث الذى أوفده هامرتون بخطاب الى شيوخ النعيم فى البريمى قد تعرض للاعتداء من جانب البدو المواليين لحاكم الشارقة ، ولما تعذر على هانيل الوصول الى واحة البريمى قرر شيوخ النعيم التوجه اليه بأنفسهم فى النصف الأخير من شهر ديسمبر ومقابلته فى عجمان التى كان يحكمها شيخ من اقاربهم وعندما علموا أن هانيل سيصل فى الأسبوع الأول من شهر يناير فقد فضلوا البقاء هناك حتى يصل ويجتمعوا به شخصيا (١) .

(١) المداولات السرية لحكومة بمباى مجلد رقم ١٣٢ محادثة بتاريخ ١٨٤٠/٤/٢ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤٠/١/٣٠ ومرفق به تقرير هامرتسونى .

استقبل هانيل حكام المنطقة بعد وصوله الى عجمان مباشرة وقد أشاد بهم المقيم على حسين موقفهم من أطماع خورشيد باشا ونائبه وسعد بن مطلق ولكنه أوضح لهم بأن الحكومة البريطانية فى الوقت الذى لا تنوى التدخل فى شئون الجزيرة أو فرض أى نوع من الحماية على القبائل التى لا تستطيع الدفاع عن نفسها فإن بريطانيا يهتمها جدا أن تتوحد قبائل المنطقة ضد الخطر المصرى ولهذه الأسباب فإنه يأمل أن يرى نهاية للخلاف بين النعيم وجيرانهم الظواهر سكان البريمى لأن استمرار هذا الخلاف يعرض أمن الواحة للخطر ، وقد استجاب له النعيم فوافقوا على عقد حلف دفاعى بينهم وبين الظواهر ضد المصريين بشرط اقناع خليفة بن شخبوط بالكف عن التهديد بالهجوم عليهم ، وبعد مناقشة الموضوع مع شيوخ الظواهر الذين جاءوا للاجتماع بهانيل نجح المقيم فى عقد معاهدة دفاعية بين القبيلتين ضد الخطر المشترك وقد قدم هانيل الى كل من القبيلتين بعض الأموال والذخيرة وقبل أن يغادر عجمان أجرى الترتيبات اللازمة لزيارة همرتون للبريمى تحت حماية قبائل النعيم (١) .

لم يغادر همرتون الشارقة الى البريمى قبل ٢١ من يناير بسبب موقف سلطان بن صقر ، ولم يتمكن من الوصول الى الواحة قبل أربعة أيام ، وبذلك كان أول أوربى تعلق قدمه هذه المنطقة وقد وجد همرتون أن البريمى مساحتها واسعة ، وفى حالة يرثى لها من التهدم ، فقد كان السور الذى يحيط بالبلدة مجرد انقاض (٢) وكان ارتفاع القلعة الرئيسية المطلة على البلدة من الجهة

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٩ مرفق للخطاب

السرى رقم ١١٠ فى ١٨٤٠/٢/٢٨ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤٠/١/١٢

(رقم ٢ الادارة السوية) .

(٢) المحادثات السرية لبومباى مجلد ١٣ محادثة بتاريخ ١٨٤٠/٥/٢٥

خطاب من همرتون الى هانيل ١٨٤٠/٣/٢٧ .

(٣٧ - بريطانيا والخليج)

الجنوبية يبلغ ١٥٠ قدما ويحيط به أسوار يبلغ علوها ١٤. قدما ومن خمسة إلى ستة أقدام عند القاعدة ومن ١ ١/٢ إلى ٢ قدم عند القمة وكانت تحيط بالقلعة بروج مستديرة يبلغ ارتفاعها من ٨ إلى ١٢ قدما من قدم الأسوار بالإضافة إلى سور آخر يبلغ ارتفاعه من ٥ إلى ٦ أقدام ويحيط بالقلعة بمسافة تبلغ نحو ٣٠ قدما وخلف الحائط الخارجى للقلعة يوجد خندق عرضه نحو ٢٤ قدما ولهذا أطلق على هذه القلعة (قصر الخندق) وكانت على حد رأى همرتون فى حالة يرئى لها من القدم والاندثار ، ولا يمكن أن تصمد لآى هجوم بالمدافع ولو لساعة واحدة ، وكل ما فيها من الأسلحة عدد من المدافع القديمة ، ولكنها كانت تعتبر بمقاييس أهل المنطقة من القلاع الحصينة . ويعتقد همرتون بأنه يمكن للقلعة أن تصمد ضد عدو ليس لديه مدافع وإلى الشمال الغربى وعلى بعد ٣٠٠ ياردة كانت توجد قلعة أخرى لحماية قرية حماسة ، وكانت هذه القلعة مربعة الشكل وقطرها ١٢٥ قدما تحيط بها الأبراج من جميع الجهات والأسوار التى يصل ارتفاعها من ١٥ إلى ١٦ قدما ، وهى بسمك ٥٠ أقدام عند القاعدة وقدم ونصف عند القمة والمدافع المسلحة بها القلعة غير مغطاة ولا أحد يعرف شيئا عن تاريخها ويتم إطلاق تلك المدافع بوضع صخرة أو قطعة من الخشب لرقع زناد المدافع عن الأرض وليس لهذه المدافع قذائف ولكن شيوخ المنطقة عثروا على بعض الأحجار المستديرة وكتل الحديد وذلك عندما جاء سعد بن مطلق إلى الشارقة فى العام الماضى . ويقال ان مطلق المطيرى والد سعد ابن مطلق هو الذى بنى تلك القلعتين عندما كان نائبا للأمير فى واحة اليريمى فيما بين عام ١٨٠٨ - ١٨١٣ (١) ؛ وكانت القلعة

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٣٥ محادثة بتاريخ ١٨٤٠/٥/٢٠ خطاب من همرتون الى هانيل بتاريخ ١٨٤٠/٥/٢٧ وقد يكون من المحتمل جدا أن تكون قلعة رأس الخندق قد بنيت قبل ذلك التاريخ ولكن ربما اميد بناؤها فى عهد مطلق .

والبريمي نفسها تخضعان لمحمد بن عبد الله ، بينما تخضع منطقة حماسه
 لحكم أحمد بن سرور ، وكان كلاهما من شيوخ آل بوشامس المتفرعين من
 النعيم . أما منطقة النعيم فكان شيخها على بن حمودة من فرع آل بوخريبان
 وكان مقره في السينية ويبعد عن الواحة بضعة أميال جنوبا ، وقد ذكرها
 همرتون في تقريره ، بأن عدد قبيلة النعيم قد تناقص وأنهم اندمجوا في
 القبائل العمانية . وكان تعداد قبيلة بوشامس نحو ٤٠٠٠ شخص بينما انخفض
 التعداد حاليا الى ٨٠٠ نفر ، وقد عرف همرتون بأن كافة التقسيمات القبلية
 للنعيم كان لا يمكنها أن تعبى أكثر من ٢٦٥٠ مقائلا (١) .

غادر همرتون البريمي في ٢٨ يناير برفقة محمد بن عبد الله وشقيقه
 وحرس مكون من خمسة أفراد ، وكانت وجهتهم صحار على ساحل الباطنة
 ليستقل من هناك الطراد . ولكنه شاهد في وادي الجزى وهو في طريقه
 الى صحار مدفا عيار ١٨ وكان ذلك في منطقة تسمى برج الشجيرة . وعندما
 سأل عن ذلك الموقع أخبروه بان السيد سعيد كان قد أرسله الى قلعة
 البريمي ، غير أنه تعذر حبه الى أبعد من برج الشجيرة ، ولم يتمكن همرتون
 من معرفة التاريخ الذي أرسل فيه ذلك المدفع . وصل همرتون الى صحار
 يوم ٣٠ يناير وقد قال عند وصوله معلقا على رحلته « بأنني لو كنت وحشا من
 نوع لا يوجد له مثيل لما أثرت من الفضول بين أهل المنطقة ما أثرت » فقد
 تقاطر الناس لمشاهدة الرجل الانجليزي الذي زار البريمي (٢) .

(١) نفس المصدر والفرع الثالث من قبيلة النعيم هو الخواطر .

(٢) نفس المصدر ويوجد ملخص لتقرير همرتون (من مخبرات حكومة

أثارت زيارة هانيل الى منطقة الساحل ومسقط والجولة الاستطلاعية التي قام بها همرتون لواحة البريمي عددا من القضايا التي كان يتوجب على حكومة الهند اتخاذ قرار بشأنها ، وعلى رأس تلك القضايا احتمال قيام بريطانيا باحتلال البحرين ، وتدعيم وسائل الدفاع عن واحة البريمي ، ثم العمل على حماية عمان من تعرضها لغزو المصريين ، ومما زاد الطين بلة هو وصول تقرير من ادمونز المقيم البريطاني بالوكالة بأن سفينة شرعية يعتقد أنها كويتية الجنسية قد دخلت مياه الخليج من البحر الأحمر وانها تتجه الى القطيف بحمولة من الأسلحة الحربية لخورشيد باشا ، وكان ادمونز يريد أن يعرف ما اذا كان يتعين عليه حجز السفينة وما اذا كان وصول الأسلحة والمواد الحربية الى المصريين عن طريق البحر يتوجب اتخاذ اجراء أو تدخل في الأمر وكان من رأى كرنالك بأنه طالما بقيت العلاقة بين مصر وبريطانيا علاقة طبيعية فلا مبرر للتدخل ، غير أن السلطة الحقيقية القادرة على البت في ذلك الموضوع هو الحاكم العام للهند نفسه (١) ، غير ان الحاكّم لم يتمكن من اتخاذ أي قرار في هذه المشكلة عندما عرضت عليه ، وفي شهر فبراير ١٨٤٠ كتب الحاكم العام رسالة الى بالمرستون جاء فيها : « انني حتى الآن لم أفهم بوضوح اتجاهات السياسة المصرية وكنت اتصور أن تصفية هذه المشكلة تقع في اختصاصكم وأرى على أي حال أنه طالما ظلت لهجة حكام القاهرة معتدلة فيما يتعلق بتحركات خورشيد باشا في منطقة الخليج فإنه لا يبدو أن هذا القائد سوف يتراجع عن خطته في توسيع نفوذه في تلك المنطقة وأنه من المحتمل سواء بكثير من الجهد أو بقليل منه أن يمتد نفوذ هذا القائد أكثر ، كما سيزداد مركزه قوة في هذه المناطق ، وهكذا ففي الوقت الذي

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباي مجلد ١٨ مرفق للخطاب السري رقم ١٣٣ المؤرخ ١٨٣٩/١٢/٢٤ من ادمونز الى ويلوبى ١٨٣٩/١١/٢٣ ، (رقم ١٢٠ الادارة السرية) ومن ويلوبى الى المقيم ١٨٣٩/١٢/٢٦ (رقم ١٨٤٢ الادارة السرية) .

— ٥٨١ —

يتصاعد نفوذ محمد على باشا يزداد موقف حكاه هذه المناطوق ضعفا . وحتى اذا افترضنا ان الوالى سوف يواصل سياسته هذه فانى أجب احتلال البحرين لأنها حسب معلومتى منطقة غير صحية وكبيرة المساحة الى درجة يتعذر الدفاع عنها بقوات محدودة ، والواقع أنى لا أعرف وسيلة من الوسائل يمكننا ان نحصل بها على قاعدة مناسبة فى الخليج تسمح لنا بالانطلاق منها بصورة فعالة بدلا من الارتباط بأحلاف دفاعية او هجومية مع سلطان مسقط ، غير أن احتلال البحرين سيكون خطوة على جانب كبير من الخطورة وليس من الحكمة تنفيذها قبل تقييم نتائجها الخطيرة (١) .

وكان اوكلاند قد أعرب عن نفس هذه الآراء فى الشهر السابق عندما ذكر له بأن الحكومة البريطانية هى التى عليها ان تقرر السياسة التى نسير عليها ازاء القوات المصرية فى منطقة الخليج وان حكومته حتى ذلك الحين لم تزوده بتعليمات محددة حول هذا الموضوع (٢) وبالتالى كما يرى اوكلاند فمن الأفضل تجنب أى صدام مع المصريين خصوصا وان محمد على باشا نفسه يفضل الوسائل السلمية على ان نحتفظ فى الوقت نفسه بتصميمنا على التصدى لخورشيد باشا ، وذلك عن طريق القيام بعملية استعراض لقوتنا البحرية

(١) خطاب من اوكلاند الى بالمرستون كلكتا فى ١٦/٢/١٨٤٠ .

(٢) فى شهر يوليو ١٨٣٩ صدرت بالفعل تعليمات محددة من هوب هاوس . وقد جاء فيها : « اننا نترك لك اتخاذ القرار الذى تراه فى هذا الشأن مع اجراء التنسيق مع القائد العام لاسطول صاحب الجلالة وذلك فى حدود الامكانيات التى تحت تصرفك بطريقة تضمن المحافظة على استقلال حكام السواحل العربية للخليج (وزارة الهند مسودات مجلس الادارة - من التقارير السرية المرسلة للهند مجلد ١٠ مسودة الى الحاكم العام للهند بتاريخ ١٨٣٩/٧/١ (سرى جدا) .

— ٥٨٢ —

كما ينبغي على حاكم بومباي بأن يخطر الجهات المعنية في الحكومة البريطانية عن عدد السفن التي يمكن أن يساهم بها من ضمن الاسطول الهندي وعن مطالبه من الحكومة البريطانية لانجاح هذه الخطة ، اما تزويد سلطان مسقط وشيوخ الساحل بالأسلحة وتوفير الحماية البحرية لهم فأمر لا يمكن تنفيذه إلا في حالة قيام خورشيد باشا بتوغل سريع في جنوب شبه الجزيرة ، وحتى في هذه الحالة فان اوكلاند لم يكن يوافق على اعادة الضباط البريطانيين لسلطان مسقط لتدريب الجيش العماني ، كما طرحت بعض الجهات ، الأبعد التعرف على امكانية السلطان ومدى الخطر الذي يواجهه في هذه الناحية : « .. وربما كانت الخطوة الأولى لاستعادة النفوذ البريطاني على سواحل الخليج والتصدى بشكل فعال لاعتداء المصريين على تلك المناطق هو تعيين ممثل بريطاني في سلطنة مسقط وتخويله صلاحيات واسع مع اشراف الكابتن هانيل على شئوننا السياسية هناك (١) » .

اما فيما يختص بالنعيم فلم يكن مطلوباً من اوكلاند بأن يفعل أكثر مما فعل فلقد كان في الواقع يشعر بحرج كبير بشأن التعهد الذي قطعه هانيل لمبعوث قبيلة النعيم في شهر يوليو العام الماضي عند اجتماعه به في الشارقة بحماية حكام الساحل وذلك حتى لا يأخذ النعيم كتعهد رسمي ، ولهذا فقد شعر بالارتياح عندما أوضح لهم خلال اجتماعه بزعمائهم في عجمان في شهر يناير بأن الحكومة البريطانية لم تتعهد بحمايتهم وانما كان هدفها التعاون معهم لمقاومة التوسع المصري في شبه الجزيرة (٢) اما بالنسبة للبحرين فقد كان

-
- (١) مرفقات لخطابات حكومة بومباي السرية مجلد ١٩ مرفق للخطابه السري رقم ٥ في ١٨٤٠/١/٣١ من مادوك الى ويلوبى ١٨٤٠/١/١٣ .
 (٢) نفس المصدر مجلد ١٩ مرفق للخطابه السري رقم ٥ في ١٨٤٠/١/٣١ من مادوك الى ويلوبى بتاريخ ١٨٤٠/١/١٣ ومجلد ٢٠ خطاب سري رقم ١٥ بتاريخ ١٨٤٠/٣/٣١ من هانيل الى ويلوبى في ١٨٤٠/٢/١ (رقم ٩ الادارة السرية) .

هانيسل يرى بأن الشيخ عبد الله بن أحمد قد قضى بتصرفاته على علاقة الصداقة التي تربطه بالحكومة البريطانية غير أن اوكلاند لم يوافق على تأييد سلطان مسقط في الهجوم على البحرين خوفا من التورط في حرب مع المصريين . وأخيرا فقد كان اوكلاند متفقا مع كرنك بأنه طالما ظلت العلاقة الطبيعية مستمرة بين مصر وبريطانيا فلا مبرر للتدخل في موضوع ارسال الأسلحة الى الجيش المصرى وان كان يرى وفقا لاتفاقية السلم البحرى للخليج أنه من حق بريطانيا بأن تطالب السلطات المصرية فى شبه الجزيرة بتفسيرات عن تحركات السفن والعتاد فى مياه الخليج، وفى الوقت الذى كان الحاكم العام يناقش هذا الاقتراح كان هانيل قد قطع شوطا فى فرض حصار على نقل الأسلحة الى خورشيد باشا من طريق البحر وذلك بموجب تفويض اوكلاند له فى شهر سبتمبر بمنع نقل الجنود والأسلحة من الاحساء الى ساحل الامارات، ففى يوم ٢٧ فبراير بعث هانيل برسالة الى الحاكم المصرى فى القطيف يحذره من أى محاولة للتسلل الى عمان عبر المنطقة لان الاسطول البريطانى سوف يقوم بمنعها . ولقى هذا الاجراء تأييد كرنك (١) كما سبق ان وافق هوب هاوس فى البداية على مثل هذه الاجراءات (٢) وعندما أدركت حكومة بومباى أن ذلك التحذير قد يفسر كتعهد بريطانى لمقاومة أى غزو عسكرى لأراضى عمان (٣) بعث بخطاب عاجل الى كرنك يلفت نظره فيه الى أن اجراء كهذا

-
- (١) مرفق لخطابات حكومة بومباى السرية مجلد ٢٠ مرفق للخطاب السرى رقم ١٥ فى ١٨٤٠/٣/٣١ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤٠/٢/٨ (رقم ١٤ سرى) .
- (٢) نفس المصدر خطاب سرى رقم مؤرخ ١٨٤٠/٤/١٧ من مادوك الى الى ويلوبى ١٨٤٠/٢/٨ (رقم سرى ٥٦٧) .
- (٣) ملحوظة هوب هاوس على خطاب هانيل تقول : « قل اننا نؤيد هذا الاجراء بالنيابة عن المقيم » .

سوف يكون بمثابة عمليات عسكرية لا يقرها القانون والتي سبق للمسؤولين البريطانيين أن عارضوها (١) لكن هانيل اضطر آخر الأمر الى توضيح نقطة كانت واضحة منذ البداية ، وهى ان رسالته الى الحاكم المصرى للقبط لم تكن ترجى الى أكثر من ابلاغ روح التعليمات التى كان قد تلقاها من الحاكم العام فى سبتمبر الماضى وأنها تمس ساحل الامارات وليس سلطنة مسقط . وقد وجد كثيرا من الضعوبة كى يفهم بأن الاجراء الذى اتخذه قابل لأن يفسر بكونه تعهدا من بريطانيا بالدفاع عن عمان (٢) .

فى الوقت الذى أوقف خورشيد نشاطاته العسكرية فى نجد فى الأشهر الأخيرة من عام ١٨٣٩ لم يبد بالمرستون أى اهتمام بهذا الموضوع . فقد كانت جهوده منصبه على الوصول الى صيغة وفاق مع روسيا والنمسا بشأن الخطوات التى يتعين اتخاذها فيما لو قام الوالى بشن هجوم على تركيا .

وعلى أى حال فان تخوف بالمرستون من نوايا محمد على فى منطقة الخليج لم تهدأ . فقد تجددت تلك المخاوف غداة تلقى بالمرستون فى شهر فبراير تقريرا من ادمونز حول موضوع نقل الامدادات العسكرية الى خورشيد عن طريق البحر بالإضافة الى تقرير آخر بعث به ادمونز فى شهر ديسمبر وذكر فيه ان الأوامر الأخيرة التى تلقاها خورشيد باشا من محمد على تحثه على مواصلة الزحف حتى سلطنة عمان . ويؤكد هذان التقريران، بالإضافة الى استمرار احتلال خورشيد باشا للقطف والعفير وسيحات ، أن محمد على باشا لم يلتزم اطلاقا بتأكيداته على أنه لا ينوى توطيد أقدامه فى الخليج . وكان محمد

(١) مسودات المجلس - مسودة مرفوعة الى حاكم بومباى ١٨٤٠/٧/٤ .

(٢) مرفقات لرسائل حكومة بومباى السرية مجلد ٢٦ خطاب سرى رقم ٧

مؤرخ ١٨٤٠/١/٣١ من هانيل الى ريد ١٨٤٠/١٢/٢ (سرى رقم ١١٤) .

على قد أدلى بهذه التأكيدات الى الكولونيل جى.ال هودجز القنصل البريطانى العام فى القاهرة وذلك يوم ١٢ فبراير (١) . وفى أواخر فبراير ذكر بالمرستون لهوب هاوس انه يعتقد بأنه قد أصبح من حق حكومة الهند اللجوء الى القوة اذا دعت الظروف لارغام المصريين على الانسحاب من موانئ الاحساء ومائة منطقة أخرى يحتلونها على سواحل الخليج وأن الحد الأدنى لمثل هذه الاجراءات هو كما اقترح هانيل فرض حصار على سواحل القطيف . أما بالمرستون فقد كان على استعداد لاتخاذ اجراءات أشد لمنع محمد على من تزويد جيشه فى شبه الجزيرة بالأسلحة والمعدات عن طريق البحر ومن احتلال البحرين ولو لفترة مؤقتة وقال ، بأن هذا الاجراء سوف يتمخض عن نتائج ايجابية (٢) .

عند قيام هوب هاوس بابلأغ هذه التعليمات الى أوكلاند حذره من أن يستنتج مما قاله وزير الخارجية بأنه هناك رغبة فى استخدام القوة لخراج المصريين من الاحساء أو أن يتصور بأن المسألة لاتستدعى القيام بأى اجراء على الرغم من أننا قد لانكون على استعداد لتحريك قوات برية الى النقاط التى يتركز المصريون الآن فيها الا اننا قد نستعيز عن هذا الاجراء باستخدام أى قوة بحرية لدينا لحصار تلك الموانئ أو منع الملاحة بها من موانئ البحر الأحمر او الخليج الفارسى . الأمر الذى قد يسمح للمصريين بالحصول على ما يحتاجون اليه من الأسلحة والمعدات (٣) وعلى أى حال فانه يوجب علينا

(١) خطاب وزارة الخارجية رقم ٧٨/٤٠٤ من هودجز الى بالمرستون الاسكندرية فى ١٤/٢/١٨٤٠ رقم ٢٤ ولقد حل هودجز محل كامبل فى شهر سبتمبر السابق .

(٢) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية لحكومة الهند مجلد ١٢ من بالمرستون الى هوب هاوس ١٨٤٠/٢/٢٩ .

(٣) مسودات مجلس ادارة الشركة من التقرير السرى الى حكومة الهند مجلد ١٢ مسودة الى الحاكم العام فى ٣/٣/١٨٤٠ (رقم ٥٧٩) .

الا نسمح لمحمد على باشا بأن يكون فى وضع يسمح له بمنافسة النفوذ البريطانى فى الخليج ، ولو كان حجم هذا التنافس لا يشكل خطرا فى البداية الا أنه بحكم تفوقنا البحرى فى تلك المنطقة قد يشكل فى النهاية خطرا على نفوذنا ومصالحنا هناك ، ولهذا فنحن نأمل أن يوضع حد لهذا الخطر فى اسرع وقت ممكن ، أما فيما يتعلق بالبحرين فإن أى محاولة من جانب المصريين لاحتلالها بالقوة يبرر لنا اتخاذ نفس الاجراءات للاستيلاء عليها أيضا أو تقديم مساعدتنا الى سلطان مسقط لاحتلالها، ويضيف هوب هاوس فى رسالته بأننا لابد من الانسحاب من خرك بمجرد عودة العلاقات الطبيعية بين بريطانيا وفارس مما يتيح لنا بعد ذلك أن نوجه اهتماما أكبر الى البحرين ولكنه عاد فأوضح « بأنه لا يمكننا أن نعتبر قول اللورد بالمروستون فى هذا الصدد ، وكانت رغبة ضمنية لاعداد حملة عسكرية بريطانية لاحتلال البحرين مالم تطرأ ظروف تستوجب ذلك أو تحدث تطورات تتيح الفرصة والمبررات لك لاحتلالها .

وقد اتسمت التعليمات التى أصدرها هوب هاوس فى الاسابيع القليلة التالية بنفس اللهجة التحذيرية فيما يختص بسلطنة عمان ضد أى عدوان مصرى محتمل . فقد عقدت اتفاقية تجارية بين مسقط وبريطانيا يوم ١٨٣٩/٥/٣١ وأصبحت فى انتظار التصديق عليها بين آونة وأخرى وقد تضمنت الاتفاقية بندا بتعيين قنصل لبريطانيا فى السلطنة وقد جاءت التطورات التى مرت بالمنطقة بعد إبرام تلك الاتفاقية فأكدت على أهمية تعيين قنصل بريطانى فى سلطنة عمان ، ويبدو من المعقول على ضوء هذا التعيين أن يكون القنصل هو المعتمد السياسى الذى كان اوكلاند قد اقترح تعيينه فى بلاط السيد سعيد ، وكان الشخص الذى رشح لشغل هذا المنصب هو الكابتن

همرتون (١) وعلى أى حال فلم يكن بالمرستون أو هوب هاوس يهدف من تعيين همرتون اعطاء انطباع عن وجود تحالف قوى بين مسقط وبريطانيا فقد أوضح هوب هاوس هذه النقطة ايضا كما تالما فى التعليمات التى ارسلها حاكم بومباى وحدد فيها شكل السياسة التى يتعين على الحاكم العام انتهاجها من حالة استشعار تحركات عدوانية من المصريين ضد السلطنة * فالذا ما قرر محمد على باشا أن يلجأ الى استخدام القوة ضد سلطنة مسقط فسيعتبر عمله هذا انتهاكا صريحا للاحتجاجات التى تقدمت بها اليه الحكومة البريطانية . غير أننا لا نعرف الطريقة التى يمكنكم بها استخدام الامكانيات المتاحة لكم فى ردع مثل هذا العدوان لو وقع كما ذكر بأن مثل هذه العمليات سوف تقتصر على الخليج وعلى غيره من المناطق الساحلية الواقعة فى متناول الاسطول البريطانى (٢) *

قبل وصول هذه التعليمات الى بومباى وردت رسالة من السيد سعيد تفيد عن زيارة قام بها مبعوثون من خورشيد باشا لمسقط وأن هؤلاء المبعوثين قد ابلغوه بأن خورشيد باشا لا ينوى القيام بأى عمل ضد البحرين أو البريمى أو البصرة مع أن خورشيد باشا نفسه كان قد ذكر للسيد سعيد فى احدى الرسائل عن نيته ارسال حملة عسكرية فى وقت قريب الى البريمى ولكنه أكد بأن الحملة لن تتعدى حدود الواحة كما ذكر بأنه مصمم

-
- (١) مسودات مجلس الادارة من التقرير السرى الى حكومة الهند مجلد ١٢ مسودة لحاكم بومباى ١٨٤٠/٤/٣ (رقم ٥٩٨) ومرفق خطاب بالمرستون الى هوب هاوس ١٨٤٠/٤/٢. انظر أيضا المكاتبات السرية مجلد ١١ من الحاكم الى اللجنة السرية ١٨٤٠/٢/٢٨ رقم سرى (١٠) *
- (٢) مسودات مجلس الادارة التقرير السرى لحكومة الهند مجلد ١٢ مسودة لحاكم بومباى ١٨٤٠/٤/٣ (رقم ٦٠٨) *

على اخضاع كافة المناطق التي كانت خاضعة في السابق لآل سعود لسلطته .
كما عرض خورشيد باشا على السيد سعيد تقديم أى مساعدة قد يحتاج اليها في مواجهة خصومه . وعندما نقل السيد سعيد هذه المعلومات الى كارناك أكد له بأنه قد رفض عرض خورشيد باشا الا أن كارناك قد اكتشف فيما بعد بأن السيد سعيد قد طلب من مبعوثي خورشيد بأن يطلبوا من الباشا امتناع عبد الله بن أحمد شيخ البحرين بتسليم منطقة الدمام اليه ، وكانت هذه المنطقة قد خضعت لبعض الوقت لسلطة عبد الله بن أحمد (١) ومن المشكوك فيه ما اذا كان خورشيد باشا جادا في موضوع الحملة التي قال انه كان يعدها ضد البريمي . وقد ذكر محمد علي باشا لهودجز في نهاية شهر مارس بأنه لم يسمع قط عن سعد بن مطلق الذي كان مرشحا لقيادة الحملة المزمعة ضد منطقة الساحل ، كما ذكر له بأنه يكن كل احترام للسيد سعيد ، وأنه لم يفكر في التآمر عليه اطلاقا (٢) ولم يكن ثمة ما يدعو هودجز الى التشكيك في أقوال الوالى لأن السيد سعيد كان أكثر تلهفا في خطب ود خورشيد باشا من خورشيد باشا له وعلى الاخص انه كان يرى في وجود خورشيد باشا في الجزيرة فرصته الأخيرة للاستيلاء على البحرين .

-
- (١) مرفقات لخطابات حكومة بومباي السرية مجلد ٢٠ مرفق للخطاب السرى رقم ١٥ مؤرخ ١٨٤٠/٣/٣١ من سعيد الى كارناك ذى الحجة ٢٥ الموافق ١٨٤٠/٣/٦ مرفق للخطاب السرى رقم ١١٦ فى ١٨٤٠/٤/٢٧ من سعيد الى كاناك فى مجرم ١٢٥٦ فى ١٨٤٠/٣/٦ ومجلد ٤٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٣٧ الموافق ١٨٤٠/٦/٢٢ من هانيل الى ريد ١٨٤٠/٥/٢٠
- (٢) خطابات وزارة الخارجية من هودجز الى البارستون ١٨٤٠/٣/٣١ (رقم ٣٥) وقد ذكر خالد بن سعود لاحد الضباط البريطانيين فى ديسمبر ١٨٤١ ان خورشيد كان ينوى شن هجوم على البريمي ولكنه عدل عن هذه الخطة بعد ان تلقى أوامر من محمد علي باشا اصدرها بالحاح من الحكومة البريطانية .

لم يتخل بالمرستون نهائيا عن فكرة احتلال البحرين لطفى اواخر شهر
يناير أصدر تعليمات بوجوب اجراء تخريبات عن امكانيات الجزيرة وقابليتها
للاحتلال (١) .

بعد شهرين عاد بالمرستون فاقترح على هوب هاوس أن يقوم بمحاولة
لعقد نوع من الاتفاق مع زعماء البحرين يسمح للكتيبة البريطانية المراقبة حاليا
في خرك أن تقضى في البحرين بعض الوقت ، وحتى تكون في مأمن من وقوع
اي عدوان عليها من محمد علي (٢) وقد أخذ بالمرستون يتفهم أكثر وأكثر
ن الاستيلاء على قاعدة دائمة في الخليج سوف لا يعزز وضع الحكومة
بريطانية فحسب ، وانما سيمنكها من أن تتصرف بغالعية أكثر في سياسات
شبه الجزيرة وفارس . واذا أردنا أن نحكم على موقف بالمرستون من خلال
سير الاحداث في الخليج قبل ١٨٤٠ وبعدها فيبدو أنه كان على حق ، وكان
هانيل يشاطره هذا الرأي ، وفي بداية ١٨٣٩ طلب الى ادموندز وضباط آخرين
من أسطول الخليج أن يقوموا بمسح لجزيرة فيلكه عند مدخل ميناء الكويت
للتأكد مما اذا كانت تصلح كقاعدة بحرية وعسكرية ، غير ان نتائج هذه المهمة
جاءت غير مشجعة فقد كان المرسى الرئيسى في الجزيرة عرضة للرياح
الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية ، الأمر الذى يجعل الجزيرة غير
صالحة .

(١) مسودات المجلس التقرير الحبرى الى الهند مجلد ١٢ مسودة
لحاكم بومباى ١٨٤٠/١/٢٥ (٥٦٨) .

(٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٧ مرفق للخطاب
السرى رقم ١٣٥ المؤرخ ١٨٣٩/١٢/٣١ من هانيل الى كبير أمناء بومباى
بالوكالة ، بومباى فى ١٨٣٩/١١/١١ (رقم ١١٥ سرى) ومرغنى تسعة تقارير
ادموندز والفتنات جى . تى . جونز ١٨٣٩/١١/٥ وقد اعيد نشر تقارير
جونز فى مجموعة مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ .

— ٥٩٠ —

أما هانيل فكان يعتقد بأن خرك هي المكان الأنسب للقاعدة وكان اوكلاند يؤيده في هذا الرأي كما كان كلاهما يعارض احتلال البحرين أو ضمها : اوكلاند بسبب النفقات التي قد يتطلبها الاحتلال والثاني لاعتقاده بأن مناخها غير صحي أو خطر على صحة الأوربي . كانت البحرين تستخرج كمية من اللؤلؤ تصل قيمتها إلى ٣٥٠٠٠ ريال نمسوى كل عام، وهذه الكمية بالإضافة إلى محصول البحرين من البلح والذهب وغيرها من المنتجات كانت تشكل صادرات البحرين التجارية وتصل قيمتها إلى ٨٠٠٠٠ ريال نمسوى وثلاثة أرباع هذه السلع يعاد تصديرها إلى مناطق أخرى من الخليج . فلو قامت الحكومة بضم البحرين فأنها سوف تعطى إيرادا سنويا يقدر بنحو ثلاثمائة ألف روبية ، وليس هناك أدنى شك في أن موقع جزيرة البحرين وبحارها ومينائها يجعل لنا ذكرا سياسيا وتجاريا غير أن مناخها إذا استثنينا مسقط وباسيدو هو أسوأ مناخ في الخليج . إلا أن وجود العتوب فيها يجعل احتلالها والاحتفاظ بها مشكلة صعبة (١) وعلى أي حال فإن المسألة الملحة في ذلك الوقت لم تكن هي الوصول إلى قرار باحتلال البحرين وإنما في توفير السفن اللازمة لتنفيذ خطة حصار الموانئ التي كان يحتلها المصريون على ساحل الأحساء ومنع المؤن من الوصول إلى خورشيد باشا عن طريق البحر . وعندما علم هانيل بأن الحكومة البريطانية قد وافقت على فكرة الحصار استفسر من القائد المسئول عن أسطول الخليج وهو الكومندور إي . ج . نوث عن عدد السفن التي يحتاج إليها لتنفيذ خطة الحصار ، وكان تقدير نوث هو خمس سفن : سفينة لكل من القطيف والعقير وسيحاح واثنتان لأعمال المراقبة الساحلية . ولما كانت الأعمال المعادية في مياه الخليج تتطلب ثلاث سفن على الأقل فإن العملية ستحتاج إلى ٨ سفن وإن كان القائد نوث يعتقد بأن ست سفن تكفي للعملية .

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباي مجلد ٢٣ بكتاب سري رقم ٢٧ في ١٨٤٠/٦/٢٢ من هانيل إلى ريد ١٨٤٠/٥/٢١ (رقم ٤٨ سري) مرفقات خطاب هانيل إلى ويلوبي ١٨٣٩/٣/٢ :

أشار باغوص بك عند اجتماعه بالكولونيل هودجز فى الاسكندرية فى أواخر فبراير الى هذا الموضوع (٢) وبعد شهر تحدث الوالى بنفسه الى كوشليت بأنه قد أصدر أوامره بالفعل الى خورشيد باشا بالانسحاب من المنطقتين الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة غير أن محمد على لم يتطرق الى الموضوع عند اجتماعه بهودجز مرة أخرى (٣) وفى أواخر فبراير وصلت الى هانيل أخبار بأن الجنود المصريين بنيتهم فى الانسحاب . وفى هذا الوقت أيضا أخذت القبائل فى كل من نجد والاحساء تعلن الثورة المسلحة على خورشيد مما وضع صعوبات كثيرة فى اتصالاته مع المناطق الشرقية والغربية من شبه الجزيرة . وقد أكد هذه المعلومات يوسف ارتون طبيب خورشيد باشا الخاص خلال زيارته لخرنك فى نهاية فبراير عندما كان فى

- (١) نفس المصدر من هانيل الى ريد ١٨٤٠/٥/٢٥ (رقم ٤٩ الادارة
السرية) ومرفق خطاب فوت الى هانيل ١٨٤٠/٥/٢٠ (رقم ٥١٠ الادارة
السرية)
(٢) فارس والخليج مجلد ٦٨ من هودجز الى بالمرستون ١٨٤٠/٤/٢١
(رقم ٢٥٠)
(٣) من هودجز الى بالمرستون الاسكندرية ١٨٤٠/٣/٣١ (رقم ٣٥)

- ٥٩٢ -

طريقة إلى الهند لبيع بعض الجياد لحساب خورشيد باشا (١) وعلى الرغم من
ل سمع الكثير من الاشاعات عند وجوده في الساحل الغربى في شهر
ابريل لتجديد « معاهدة الصلح البحرية » عن الصعوبات التى كان يواجهها
خورشيد الا انه لم يستطع التأكد من صحة تلك الاشاعات . وأخيرا فى
الاسبوع الاخير من مايو تلقى تقريرا من وكيل المثلثية فى البحرين يفيد بأن
المصريين قد جلوا عن الاحساء كما أن القوات الرئيسية لخورشيد قد انسحبت
من نجد .

وبمجرد ان تم الاستغناء عن السفينة دويل تايجر فى خرك طلب اليها
هانيل الابحار الى ساحل القطيف لجمع ما يمكن جمعه من معلومات عن
الأوضاع هناك ، وقد ذكر قائد السفينة فى تقريره ، بأن المعلومات التى
تضمنها تقرير الوكيل سابقة لأوانها . فقد كانت القطيف لاتزال تخضع لحكم
محمد أفندى احد رجال خورشيد باشا ، وهو نفس الشخص الذى زار خرك
قبل عام واحد ، كما أن سلاح الفرسان والقوات غير النظامية التابعة لجيش
مصر لاتزال فى نجد رغم أن القسم الأكبر من قوات المشاة قد غادرت المنطقة
الى الحجاز ، وقد ذكر محمد أفندى أن خورشيد باشا قد تلقى أمرا من
محمد على بالانسحاب الى المدينة وأنه سوف يبقى هناك للاشراف على شئون
المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة . وعلى أى حال فقد كان خورشيد كما قيل
مترددا فى التخلي عن فتوحاته أو على الأقل قبل أن يعتصر آخر قطرة من تلك
الفتوحات ولهذا أرجأ تنفيذ أوامر الوالى ريشما يعرف نتيجة اقتراحه للوالى
بتأخير عملية الانسحاب لبعض الوقت . كما ذكر محمد أفندى بأن خورشيد
باشا ينوى تعيين أحد اتباع خالد بن سعود كحاكم على القطيف على الرغم

(١) مرفقات الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٢ مرفق للخطاب

السرى رقم ٢٦ المؤرخ ١٨٤٠/٥/٢٠ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤٠/٣/٧

(رقم ٢٢ الادارة السياسية)

انه كان ينوى البقاء قريبا من الميناء لفترة من الوقت لمراقبة سير الأمور ، وعلى الرغم مما ذكره فقد كان من الواضح أن خورشيد لم يعد يستطيع الاستمرار فى نجد أو الاحساء فقد كانت البلاد تغلّى بالثورة ضده وأصبحت مشكلة القائد المصرى هى البحث عن وسيلة ينجو فيها بجلده (١) .

وقد كان هذا رأى محمد على باشا أيضا الذى أصبح فى حاجة الى جيشه للدفاع به عن سوريا ومصر ، وبنهاية يونيو كانت الفرق الثلاث عشرة المصرية من القوات النظامية فى طريقها الى مصر كما أن إبراهيم باشا النجل الأصغر لمحمد على باشا قد انسحب هو الآخر من اليمن ، بينما انسحب خورشيد باشا من نجد ، وعاد إبراهيم باشا الى القاهرة فى بداية أغسطس ، ثم أعقبه خورشيد باشا وفرقتان من الجيش ، أما مكة والمدينة فقد ترك امرهما للقوات النظامية تحت اشراف محمد بن عون شريف مكة الذى كان عينه محمد على باشا حاكما على الحجاز خلفا لأحمد باشا (٢) .

وبعد انسحاب المصريين من شبه الجزيرة لم تعد هناك حاجة الى الاجراءات التى كان هوب هاوس وبالمستون قد قررا اتخاذها . وفى منتصف يونيو تلقى هانيل أمرا بوقف العمل بالتعليمات التى سبق أن تلقاها لحصار

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٥٦ المؤرخ ١٨٤٠/٨/٢٢ من هانيل الى ريد ٢ ، ٤ يوليو ١٨٤٠ (رقم ٨ ، ٨٢ الادارة السرية) ومرفق معه خطابات محمد أفندى وميرزا محمد على (وكيل المثلثة فى البحرين) .

(٢) درأيلوت ٢ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ من كوشليت الى تيرز ١٨٤٠/٦/٢٢ جزء ٣ ص ٨٨ - ٩٠ من كوشليت الى تيرز ١٨٤٠/٨/٦ وجزء ٦ ص ١٦١ من كوشليت الى جيوزوت ١٨٤٠/١٢/٢٤ .

(٣٨ - بريطانيا والخليج)

— ٥٩٤ —

حوانى الاحساء (١) وكانت حكومة بومباى قد قررت بالفعل فى شهر مايو أن تقطع علاقاتها بنعيم البريمى كما رفضت مقترحات هانيل وهمرتون تقديم مساعدة للنعيم لترميم حصونهم • فقد أبلغ هانيل بأن مهمته لا تتعدى مجابهة رؤسائهم وتقديم بعض الهدايا الصغيرة اليهم من وقت لآخر وحثهم على توحيد صفوفهم ضد أية محاولة لاختصاصهم كما أبلغ بأن الحكومة البريطانية لا توافق على أية نفقات جديدة فى هذا الشأن •

أما قضية البحرين فقد كانت أكثر تعقيدا • وكانت التقارير غير المشجعة التى يبعث بها هانيل الى هوب هاوس قد جعلته يقطع بأن الجزيرة غير صالحة ، وبالتالى فليس هناك ما يدعو الى اتخاذ أى اجراء للاستيلاء عليها (٢) ، كما أشار القيم الى أن موقف الشيخ عبد الله حاكم البحرين من الحكومة البريطانية تبرر لها اذا شاءت تأييد السيد سعيد فى مطالبته بالبحرين • وقد رحبت حكومة بومباى بهذا الاقتراح ، وأوعزت فى شهر يوليو الى هانيل بعدم وضع أية عراقيل فى وجه السيد سعيد لاحتلال البحرين •

وفى بداية أغسطس قابل هانيل السيد سعيد فى مسقط وناقش معه هذا الموضوع • غير أن السيد سعيد ذكر له بأنه لم يكن يريد احتلال البحرين ليحتفظ بها لنفسه وأنه كان يفضل لو تولت الحكومة البريطانية بنفسها هذا الأمر • أما اذا كانت بريطانيا لا تريد احتلالها وتفضل أن يقوم السيد سعيد

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٣ مرفق للخطاب السرى ٤٧ المؤرخ ١٨٤٠/٧/١٨ من ريد الى هانيل ١٨٤٠/٧/١٤ (١١٦٤ الادارة السرية) •

(٢) مسودات المجلس من التقارير السرية الى الهند مجلد ١٣ مسودة لحاكم بومباى ١٨٤٠/٨/١٥ (رقم ٦٤٥) •

— ٥٩٥ —

بالاستيلاء عليها فإنه على أتم استعداد للقيام بهذا الأمر وتوفير الإمكانيات اللازمة له ، غير أن هانيل لم يكن في وضع يسمح له بإعطاء تعهد للسيد سعيد بعدم ممانعة الحكومة البريطانية على احتلاله للبحرين . والواقع أن السيد سعيد قد رحب بالفكرة أيما ترحيب وأسر الى هانيل بأنه قد بدا يفقد الأمل في تحقيق هدفه هذا وأنه يستعد للعودة الى زنجبار . وقال بأنه قد يؤجل سفره الى افريقيا الشرقية اذا كان هناك أمل في تأييد بريطانيا له بالاستيلاء على البحرين .

ولقد بقيت هناك تحفظات لدى هانيل في أهمية التحالف مع السيد سعيد بوجه عام وفي تأييده لاحتلال البحرين بوجه خاص ، وقد أشار هانيل في هذا المعنى بأنه سوف يكون اجراء خاطئاً من الوجهة السياسية أن تبدو بريطانيا وكأنها تكافئ السيد سعيد على مواقفه السابقة وعلى الأخص بشأن تجارة الرقيق بالتواطؤ معه على شن عدوان على البحرين (١) ، وعلى أي حال فقد أيد هانيل بشدة سياسة السيد سعيد لدى حكومة بومباي ، وذكر لها في تقريره أنه على ضوء مواقف السيد سعيد السابقة تجاه الحكومة البريطانية فإن السيد سعيد جدير بالحصول على تأييدها ، لأنه من مصلحة بريطانيا أن تتعاون مع السلطان في استرجاع نفوذه المنهار في الخليج ، وبالتالي فإن استيلاءه على البحرين سوف يسهم في تحقيق هذا الهدف . فهو قد تخلى عن البحرين نزولاً على رغبة الحكومة البريطانية برفضه عرض خورشيد باشا للقيام بحملة مشتركة لاحتلالها ، فاذا كنا الآن نفكر في مساعدته في احتلال الجزيرة فإن هذه العملية كلها لن تتطلب قوات كبيرة ويكفيها ٥٠٠

(١) مرفقات للخطابات السرية للحكومة بومباي مجلد ٢٣ مرفقات للخطاب السري رقم ١٥٦ في ١٨٤٠/٨/٢٢ من هانيل الى ريد ١٨٤٠/٨/٤ (رقم ٨٧ الادارة السرية) .

جندى أوربى وفصيلة من الجنود الهنود وستة مدافع ميدان (١) ، وقد حظيت مقترحات المقيم بشيء من التأييد فى الأوساط الحاكمة فى بومباى ، وعلى أى حال فلم يكن كارناك يعتقد بأن الممثلة البريطانية فى بومبهر يمكنها الاستغناء عن بعض قواتها للقيام بهذه المغامرة العسكرية خصوصا وان الوضع فى أفغانستان لا يدعو الى الارتياح . وكان اوكلاند يرى نفس الشيء . وقال بأننا لا ينبغي أن نلوح للسيد سعيد بالمساعدة قبل تدعيم الوضع البريطانى العسكرى فى الخليج بوصول سفينة أو أكثر من السفن الحربية من بريطانيا (٢) وعلى الرغم من ان هوب هاوس كان يؤيد هانيل الى حد كبير الا انه فى الوقت نفسه كان يتفق مع اوكلاند على: « ان الوقت لم يحن بعد للقيام بعمليات عسكرية أو بحرية لتمكين سلطان مسقط من احتلال البحرين وأنه لا يزال من السابق لأوانه القيام بالحملة المقترحة قبل أن تعرف نتائج الحرب فى سوريا والطريقة التى سوف يتم بها حل الازمة المصرية (٣) وفى نهاية العام أنهى هوب هاوس المناقشة حول هذا الموضوع بارسال تعليمات حاسمة الى بومباى بالحيولة دون قيام السيد سعيد (٤) باحتلال البحرين أو القيام

-
- (١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٥٦ فى ١٨٤٠/٨/٢٢ من هانيل الى ريد ١٨٤٠/٨/٤ (رقم ٩٧ الإدارة السرية) .
- (٢) من سجلات الخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١١ جزء ١ من الحاكم الى اللجنة السرية ١٨٤٠/٨/٢٢ (رقم ٥٦ الادارة السرية) .
- (٣) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٦ مرفق للخطاب السرى رقم ٩٠ المؤرخ ١٨٤٠/١٢/٢٨ .
- (٤) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية الى حكومة الهند مجلد ١٣ مسودة الى الحاكم فى بومباى ١٨٤٠/١٠/٣١ (رقم ٦٧٤) .

بأى اجراء بشأن الجزيرة قبل الرجوع الى السلطات في انجلترا غير أن السيد سعيد كان قد صرف النظر عن هذه الفكرة قبل وصول التعليمات من هوب هاوس وعاد يرى فيها فكرة عقيمة ثم سافر الى زنجبار .

وفيما بين شهرى سبتمبر ونوفمبر ١٨٤٠ منى الجيش المصرى بهزيمة ساحقة على يد القوات المشتركة لتركيا وبريطانيا والنمسا . وقد وضع هذا حدا نهائيا لمخططات محمد على التوسعية ولتطلعاته فى انشاء امبراطورية مصرية تمتد من النيل الى الفرات . وبمقتضى اتفاق الاسكندرية المعقود فى شهرى نوفمبر وديسمبر وافق محمد على والى مصر على التخلي عن سوريا وأطنة وكرت وشبه الجزيرة العربية واعادة الاسطول التركى الى السلطان العثمانى . وبهذا القرار فقد محمد على باشا المناطق التى احتلها خورشيد باشا وهى القاسم ، ونجد والاحساء ، كما ضاعت منه الحجاز ، والاماكن المقدسة واليمن . أما خالد بن سعود الذى عينه خورشيد باشا اميرا لنجد والاحساء صنيعة للمصريين فلم يكن يستطيع المضى فى تحقيق اطماع الباشا فى البحرين وعمان ورغم ذلك فقد قرر اوكلاند تكليف حكومة بومباى بايعاز من هانيل فى شهر فبراير ١٨٤١ بتوجيه تحذير الى خالد بأنه اذا حاول توسيع رقعة نفوذه الى منطقة جنوب شرقى الجزيرة العربية بازسال قوات مسلحة من الاحساء عن طريق البحر الى ساحل القرصنة فانه سوف يلقى مقاومة من السفن البريطانية الحربية (١). وبعد شهر علم ان خالد قد اعترف بسلطة الباب العالى وتم تعيينه واليا على نجد ، وفى

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٣٠ مرفق للخطاب

السرى رقم ١٨ المؤرخ ١٨٤١/٥/٢٦ من مادوك الى ويلوبى ١٨٤١/٢/٢٢

(رقم ٢٢ الادارة السرية) .

- ٥٩٨ -

شهر أسيتمبر كتب الى هانيل معربا عن رغبته فى انشاء علاقات ودية مع
الحكومة البريطانية (١) .

وعلى الرغم من عرضه هذا فقد علمت السلطات البريطانية فى شهر
توفمبر بأن خالدا يفكر فى ارسال حملة عسكرية برية لاحتلال البريمى ومن
المنطقى أن يعين خالد بن سعود سعد بن مطلق قائدا لتلك الحملة ، وسرعان
ماقرر هانيل ايفاد مبعوث خاص الى الامير خالد ، وأختار اللفتانت كيف
جوب لهذه المهمة وتم ايفاده الى الهفوف للاجتماع بخالد وتحذيره من
القيام بأى تحرك عسكرى ضد ساحل القرصنة سواء عن طريق البر او البحر،
وعلى الرغم من أن خالدا خلال مقابلته لجوب أكد على حقه المطلق فى احتلال
البريمى الا انه وافق على صرف النظر عن الفكرة . وقد أعاد تأكيد رأيه هذا
فى الخطاب الذى بعث به الى هانيل بصحبة جوب ، والواقع أن خالدا لم يكن
ملزما بتوجيه ذلك الخطاب الى هانيل ، وجاء فى تقرير المبعوث الى هانيل بأنه
متأكد مما سمع وشاهد بأن الامير ليس فى وضع يسمح له بالقيام بعمليات
عسكرية خارج الاحساء وأن جيشه القتالى لايزيد على ٣٠٠٠ مقاتل وان
القوات المقاتلة الاخرى لايزيد عددها على ٨٠٠ جندى مصرى غير نظامى نصفهم
من الفرسان ونصفهم من المشاة وتسليحهم كإن ضعيفا جدا وهم متدمرون
لسننب تأخر صرف الرواتب لهم (٢) .

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومبائ خطاب سرى رقم ٦٧
المؤرخ ١٨٤٢/٨/٣٠ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤١/٦/٣٠ رقم ٨٠ الادارة
السرية) ومجلد ٣٦ مرفق للخطاب السرى رقم ١٠٧ المؤرخ ١٨٤١/١٢/٣١
من هانيل الى ويلوبى ١٨٤١/١٠/٥ (رقم ١١٢ الادارة السرية) .

(٢) نفس الحلقات مجلد ٤١ مرفق للخطاب السرى رقم ١٧ فى
١٨٤٢/٢/٢٨ من جوب الى هانيل (ديسمبر ١٨٤١) ويمكن مقارنة تقرير
جوب مع لجنة خليفة لوشليت الذى ارسله من القاهرة فى مايو السابق وجاء
فيه ان جميع الجنود المصريين النظاميين كانوا قد عادوا من شبه الجزيرة .

وعلى امتداد عام ١٨٣٩ لم يظهر بالمرستون أى رغبة فى الوصول الى تسوية مع حكومة فارس وعلى العكس فقد كان يميل الى ترك الأمور تأخذ مجراها فى كل من فارس وأفغانستان . وقد تم رفع الحصار عن اقليم الحيرة كما أصبح هناك جيش بريطانى يربط فى كابل ، كما حصل بالمرستون على وعد من تسارود باستدعاء سيجونيس من طهران . وأضف الى كل ذلك نشوء أزمة فى الشام بين محمد على والسلطان بحيث لم تترك له وقتا يخصصه لبحث المشاكل مع فارس . وعندما بلغه فى الربيع بأن مبعوثا من الشاه فى طريقه الى إنجلترا للاجتماع به كان رد فعله فى البداية هو رفضه للاجتماع به ، وعلى اى حال فعند وصول المبعوث حسين خان الى إنجلترا فى شهر يونيو ١٨٣٩ وافق بالمرستون على الاجتماع به بصفة غير رسمية ، وكان حسين شاه يحمل معه مذكرة من الشاه ، أوضح فيها الأسباب التى دفعته الى الهجوم على الحيرة وهى (انقاذ الرعايا الفرس من القهر) والقى اللوم على ماكنيل عن الأزمة التى نشأت بين الدولتين . كما كشف المبعوث عن عدد من القضايا التى تدين بريطانيا واحتلالها لخرق وقال بأنه مالم تقم بريطانيا بخطوات مرضية فى هذا الشأن فإن الشاه سوف يضطر الى الاحتماء بالحل ، وهو تهديد كشف الشاه عنه بنفسه ، برسالة صورة من المذكرة الى تسارود ، غير أن بالمرستون رفض التهديد ، وعندما قابل حسين خان فى اليوم التاسع عشر من يونيو أبلغه بأن خطوة ماكنيل قد تمت بموافقة الحكومة البريطانية ، وأن الهجوم على الحيرة كان فى نظر بريطانيا تحريضا من الروس ، وهو يمثل تهديدا للهند البريطانية وبالتالي كان احتلال بريطانيا لخرق دفاعا عن النفس ضد ما كانت حكومة فارس تقوم به من إجراءات ضد مصالحنا فى المناطق الأخرى (١) . وقد رد حسين خان على بالمرستون بقوله : « أن الاحتلال

(١) فارس والخليج مجلد ٦٥ مذكرة بمحضر الاجتماع المعقود بين اللورد بالمرستون وحسين خان بشارع شيه نهوب فى ١٩/٦/١٨٣٩ اعداد جى بى . فريزر .

البريطاني كان عملا من أعمال الغدر لأنه لم يسيقه اعلان رسمي للحرب ضد فارس . وربما كان في هذا القول بعض الصحة وكاد بالمرستون أن يعترف به عندما قال : بأن اوكلاند قد تصرف على النحو الذي رآه مناسباً للموقف . وعلى أي حال فإذا كان حسين خان قد أشار الى موضوع الغدر فما هو رده على الاعتداءات التي قام بها المسئولون الفرس على مثلالند وهانيل في بوشهر . غير أن حسين خان لم يعلق بشيء على ذلك لأنه لم تكن لديه أي معلومات عن ذلك الحادث . وعندما أشار الى أن تصرف اهالي بوشهر جاء نتيجة لوجود الاسطول البريطاني في مياههم الاقليمية مما استنفذ مشاعرهم لم يقبل بالمرستون هذه الحجة منه (١) .

وقد اشترط بالمرستون لعودة العلاقات الودية مع فارس أن تقدم الحكومة الفارسية اعتذارها عن الاهانات التي لحقت بالقيم ، وبالأمرال ، وأن تدفع تعويضا عن الاعتداء على صراف الممثلة وسامى المفوضية البريطانية في طهران ، وعلى أي حال فهذه لم تكن شروطا بالمعنى الدقيق للكلمة لعودة العلاقات . وبالتالي يتعين على الشاه أن يوافق على عقد اتفاق تجارى وان يتخلى عن أطماعه في أفغانستان ، وان يقوم بسحب حميته من حدود غوريان الواقعة في الأراضي الافغانية بالقرب من الحيرة ، وفي اجتماع آخر مع مبعوث الشاه يوم ١٣ يوليو كور بالمرستون هذه المطالب مؤكدا على حوادث بوشهر ومطالباً بسحب حاكم بوشهر . وعندما وعد حسين خان ببحث الموضوع بحثا كاملا رد بالمرستون بلهجة عنيفة بأن هذه عبارة مألوفة من جانب الفرس ، وهم يلجأون اليها عندما يواجهون واقعة ما . وعلى أي حال فقد كان المبعوث لايعرف شيئا غير ماسمعه من بالمرستون في لندن ولايملك

(١) نفس المصدر « تاريخ فارس » تاليف واتسون ص ٣٣٤ للاطلاع

على كلمات بالمرستون لحسين خان في هذا الاجتماع انظر اعلاه ص ٣١ .

- ٦٠١ -

صلاحية تقديم الاعتذار . وقد وافق بالمرستون على تأجيل البت في هذا الموضوع (١) .

وقد سببت صراحة بالمرستون استياء شديدا للشاه فعبر عن غضبه باعطاء المبعوث علقه غير ان غضب الشاه سرعان ما تلاشى . ففي شهر سبتمبر امر رئيس وزرائه الحاج ميرزا اغاس بأن يكتب الى بالمرستون رسالة يشعره فيها بموافقة الشاه على المطالب البريطانية ، كما قدم رئيس الوزراء اعتذار حكومته عن الاعتداء الذي وقع على ساعى مأكنيل كما أصدر الشاه مرسوما « فرمانا » بمنح الحصانة لأفراد هيئة المفوضية البريطانية وارسل أمرا آخر الى أمير شيراز يأمره بتوقيع العقوبات على المسؤولين عن الاعتداء على صراف الممثلة . كما وعد رئيس الوزراء بإبعاد حاكم بوشهر وإخلاء منطقة غوريان واستعداده لتوقيع اتفاق تجارى عند وصول السفير البريطانى الجديد الى طهران (٢) ، وتبدو هذه التعهدات فى ظاهرها وكأنها موافقة واضحة على المطالب البريطانية الا أن تنفيذها واجه عراقيل كثيرة . . فقد بقيت غوريان فى أيدي الفرس عدة شهور ولم تقدم الحكومة الفارسية أى اعتذار عن الاهانات والاعتداءات التى وجهت للمسؤولين البريطانيين . وكان الوضع فى بوشهر لا يدعو إلى الارتياح فقد حل محل ميرزا اسد الله المسئول عن توجيه الاهانات الى ميثلاند وهانيل حاكما جديدا فى شهر يونيو ، وبالتالي فإن وعد الحاج ميرزا اغاس بإبعاده لم ينفذ . وعلى الرغم من أنه كان متوقعا أن يربط، كما كان متوقعا، إبعاد ميرزا اسد الله برغبة الحكومة الفارسية فى الاستجابة لمطالب الحكومة البريطانية حتى ولو تم ذلك بعد ٣ أشهر من

(١) نفس الحلقات والمجلد مذكرة بشأن الاجتماع الثانى المعقود بشارع

سنا شهوب. فى ١٣/٧/١٨٣٩ اعداد جى.بى.فريزر .

(٢) فارس والخليج .

٦٠٢ -

الوعد إلا ان الواقع أن الظروف التي احاطت بإبعاده لم تكن تتفق أساساً ومضمون الطلب فلم يصدر بيان رسمي عن الأسباب التي دعت الى استدعائه فضلاً عن أن يكون السبب هو سلوك ذلك الحاكم مع مائيلاند وهانيل فرد على ذلك. انه منح رداء الشرف (حلقة) قبل مغادرته بوشهر . وعلى أى حال فقد اعتاد سكان بوشهر على سرعة ذهاب ومجيء حكامهم . فقد تم تعيين وابعاد مالا يقل عن عشرة حكام ، وتم ابعاد بعضهم باستعمال القوة فيما بين يونيه ١٨٣٨ وديسمبر ١٨٣٩ .

وقد عاد بالمرستون فآثار هذا الموضوع حين بعث برده على خطاب الحاج ميرزا اغاس . وأكد فى خطابه لرئيس وزراء فارس انه مالم يصدر بيان رسمى بأن ابعاد ميرزا اسد الله تم بسبب سلوكه تجاه مائيلاند وهانيل فان الحكومة البريطانية لن تعدل عن مواقفها من حكومة الشاه ، كما عبر بالمرستون عن عدم ارتياحه من صيغة المرسوم الذى يكفل الحصانة للعاملين فى المفوضية او فيما يتعلق بحادث الصراف . ومن ثم فان بالمرستون كما ذكر سوف ينتظر من المقيم معلومات تؤكد على تلبية الحكومة لتلك المطالب (١) . وفى شهر ابريل اصدر الشاه مرسوماً جديداً بمنح حصانة اوسع للعاملين فى المفوضية البريطانية غير ان هانيل قد بعث بتقرير فى شهر مايو ذكر فيه أنه لم يتم حتى ذلك الوقت أى تعديل للموقف فى بوشهر (٢) وربما كان السبب هو

-
- (١) مسودات مجلس ادارة شركة الهند الشرقية - من التقارير السرية الى الهند مجلد ١٢ مسودة الى الحاكم البريطانى العام ١٨٤٠/١/٢١ (رقم ٥٦٠) ومرفق به خطاب بالمرستون الى الحاج ميرزا اغاس فى ١٨/١/١٨٤٠ ومسودة الى المقيم فى الخليج ١٨٤٠/١/٢٢ (رقم ٥٦٠) .
(٢) فارس والخليج مجلد ٦٩ من هانيل الى اللجنة السرية ١٨٤٠/٥/١٦ .

٦٠٣ هـ

الأوضاع المضطربة في إقليم فارس كما أمر الشاه بوقف فرهاد ميرزا كحاكم عام وتعيين حاكم آخر مكانه أكثر انقيادا للشاه ومن غير الأسرة الملكية الحاكمة كما أعاد تثبيت الحكم الوراثي في بوشهر الى الشيخ ناصر في منصبه مع منحه لقب دريابيجي « قائد البر الأعلى » (١) وكان من الصعب التكهّن في ذلك الوقت عما اذا كان ذلك الاجراء يقصد به استفزاز الحكومة البريطانية لاسيما وأن الشيخ ناصر كان الرجل المسئول عن التهديدات التي وجهت الى المقيم بالوكالة في شهر ديسمبر ١٨٣٧ غير أن الشيخ ناصر قد رحب بالحملة البريطانية لدى وصولها الى خرك في يونيو التالي ، ووضع نفسه تحت تصرف قائدها (٢) ولم يكن دافعه الى ذلك التصرف بريئا لأنه كان قد جرد من منصبه كحاكم لبوشهر خلال مايو ١٨٣٨ لفشله في دفع الزكاة المقررة عليه الى إقليم شيراز ، كنتيجة لذلك لجأ الى خرك التي كانت تعتبر اقطاعية خاصة لأسرة الناصري ، وفي شهر ابريل ١٨٣٩ طرده الكولونيل شيريف قائد القوات البرية للحامية البريطانية في خرك لاقتناعه بأن وجوده في الجزيرة كان يشكل خطرا معنويا على نفسيات الجنود البريطانيين . وقد أمضى الشيخ ناصر بقية

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباي مجلد ١٦ مرفق للخطاب

السري رقم ١١١ المؤرخ ٤ أكتوبر ١٨٣٩ من هانيل الى ويلوبي ١٨٣٩/٨/٢٤ (رقم ٦٧ الادارة السرية) ومجلد ٢٠ مرفق للخطاب السري رقم ١٥ المؤرخ ١٨٤٠/٣/٣١ من هانيل الى ويلوبي ١٨٤٠/٢/٩ (رقم الادارة السياسية) .

(٢) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباي مجلد ١٠ مرفق للخطاب السري رقم ١٤ المؤرخ ١٤/٧/١٨٣٨ من هانيل الى السكرتير السياسي لحكومة بومباي ١٨٣٨/٦/٢٠ (رقم الادارة السياسية) .

- ٦٠٤ -

شهور العام فى التودد الى مانوش خان الذى كان فى ذلك الوقت معتمدا للدولة لاسترداد منصبه السابق فى بوشهر (١) *

وعلى أية حال فإن المشكلة الأساسية لم تكن المضايقات الصغيرة فى بوشهر وإنما استمرار الاحتلال الفارسي لغوريان وفى شهر نوفمبر بعث بالمرستون بخطاب شديد اللهجة الى الحاج ميرزا أغاس قال فيه : ان ما يهم بريطانيا ليس الجلاء عن القلعة وإنما الجلاء نفسه ، وحول بقية النقاط أبدى بالمرستون استعداد حكومته للتساهل وقبول بيان رئيس الوزراء بنصه حول ابعاد حاكم بوشهر بأنه قد تم نزولا على رغبة الحكومة البريطانية وبأن الحكومة البريطانية مقتنعة بعزم الحكومة الفارسية على توقيع العقوبات على المسؤولين عن الاعتداء على صراف المثلثة .

وقد شاء هوب هاوس بأن يضيف فقرة الى خطاب بالمرستون تقول بأن انسحاب بريطانيا من خرك مرتبط بانسحاب القوات الفارسية من غوريان وبأن الحكومة البريطانية لا تمنع فى امهال الحكومة الفارسية فترة زمنية محددة تعلن بعدها بأن خرك أصبحت جزءا من ممتلكات التاج البريطانى اذا

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٦٧ المؤرخ ١٨/٥/١٨٣٩ من هانيل الى ويلوبى ١٦/٤/١٨٣٩ (رقم ٢٧ الادارة السرية) ومجلد ١٦ مرفق للخطاب السرى رقم ١١١ المؤرخ ١٠/٤/١٨٣٩ من هانيل الى ويلوبى المؤرخ ٢٤/٨/١٨٣٩ (رقم ٦٧ الادارة السرية) وللسير ويتشارد برتون راي طريف عن الشيخ ناصر وذلك فى المقالة الختامية من ألف ليلة وليلة .

- ٦٠٥ -

لم تقم حكومة فارس بخطوات ترضى عنها حكومة بريطانيا (١) وكان اوكلاند اول من دعا الى هذا الامر وقد طرأت تغييرات على موقفه منذ ربيع ١٨٣٨ عندما كان مترددا بشأن احتلال خرك والمزايا التي ستعود على الحكومة البريطانية من وجود قاعدة دائمة لها فى الخليج .

ففى شهر فبراير أعرب اوكلاند عن امله لمارستون فى الا يتخلى عن خرك بسرعة (٢) ثم عاد فى شهر أغسطس فبعث برسالة الى هوب هاوس يقول له فيها : انى أرجوك بأن تتوسل الى المارستون بضرورة التفكير فى موضوع خرك ولا بد من تحديد فترة زمنية محدودة لحكومة فارس تصبح بعدها جزيرة خرك اذا ما نكثت فارس بعهودها من ممتلكاتنا ، وياجبذا لو صدر هذا التصريح كى تصبح هذه الجزيرة سنغافورة الخليج (٣) غير ان المارستون لم يوافق على اصدار التصريح المذكور فى تلك الظروف وعلى الاخص بسبب تحفز روسيا لمراقبة ما يجرى بين بريطانيا وفارس ، وحاجة إنجلترا اليها فى الوقوف فى وجه اطماع محمد على باشا . وقد صحت تنبؤات المارستون فى شهر مارس ١٨٤١ سلم الشاه بالمطالب البريطانية

(١) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية الى حكومة الهند مجلد ١٣ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٠/١١/٣٠ (رقم ٦٨٤) ومرفق به خطاب بالمارستون الى الحاج ميرزا اغاس ١٨٤٠/١١/٢٤ .

(٢) خطاب من اوكلاند الى المارستون كلكتا ١٨٤٠/٢/١٦ .

(٣) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٤٢ من اوكلاند الى هوب هاوس كلكتا فى ١٨٤٠/٨/١٥ .

وتم جلال القوات الفارسية عن غوريان وسلمت المنطقة الى حاكم البحيرة
وحضر مراسيم التسليم مندوب عن المفوضية البريطانية في طهران .

وعلى الرغم من علم أوكلاند بأن عودة خرك الى فارس مشروطة
بانسحاب قوات فارس من غوريان فقد واصل ضغطه على هوب هاوس
للاحتفاظ بها بشكل او آخر (١) وكان هوب هاوس نفسه شبه مقتنع بوجهة
نظر أوكلاند في هذه المسألة ، وذلك لارتباطها بموضوع اقامة قاعدة دائمة في
الخليج . غير أن هوب هاوس كان يبحث عن منطقة بديلة لخرك لو أمكن
العثور عليها . وفي الوقت الذي كان هوب هاوس يذكر عدم تحييد هانيل
لفيلكه في ١٨٣٩ فقد كتب اليه يستفسر عما اذا كانت الكويت نفسها
تصلح كقاعدة (٢) . وقد زار هانيل الكويت في شهر ابريل في مستهل
جولته السنوية واقتنع بأنها هي الأخرى لا تصلح لهذا الغرض ، ووجد أنه
بالرغم من صلاحية الميناء إلا أن البلدة وحدها غير صحية المناخ ومياه
الشرب فيها رديئة ، كما كان هانيل مقتنعا بأن الحاكم الكويتي الشيخ جابر
سوف يعترض على تحويل الكويت الى قاعدة كما إن هانيل نفسه كان يعارض
اقامة قاعدة فوق الجزء الاساسي من شبه الجزيرة العربية لاستحالة الدفاع

(١) نفس الحلقات مجلد ٨٤٣ من أوكلاند الى هوب هاوس في
١/٢٣ ، ١٤/٢/١٨٤١ . ٠٠ قد لا تكون المبادلة عملية خاسرة ولو اني ساشعر
بالأسف لو اننا خسروا مركزنا الذي نتمتع فيه بالاستقلال والاستقرار في
الخليج .

(٢) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية الى حكومة الهند مجلد
١٤ مسودة الى المقيم في الخليج - بتاريخ ٢٢/٢/١٨٤١ (رقم ٧٠٩) .

-٦٠٧-

عنها بالأسلحة البحرية وحدها (١) ، وقد عاد المقيم فأكد صلاحية خرك كقاعدة ، وفى شهر أغسطس ١٨٤١ اقترح هوب هاوس على بالمرستون الاستفسار من الشاه عما اذا كان على استعداد لبيع خرك لبريطانيا ، غير أن إثارة هذا الموضوع مع الشاه فى ذلك الوقت كان تصرفا خطيرا . وكان السير جون هاكنيل فى طريق عودته الى فارس فى ذلك الوقت يحمل تعليمات بانسحاب الحماية البريطانية من خرك فور التصديق على الاتفاق التجارى . الذى كان من المتوقع ابرامه فى ذلك الوقت مع الشاه . ولأن هانيل عرض على الشاه طلب شراء الجزيرة فى ذلك الوقت لكان قد فسر بأنه محاولة للتخلص من الالتزام البريطانى بالانسحاب . والانكى من ذلك هو أن يحاول الروس استغلال استمرار الاحتلال البريطانى لخرك للحصول على امتيازات اقليمية من الشاه فى شمال فارس . وكانت فارس لا تزال مدينة لروسيا بجزء من التعويضات التى فرضتها عليها فى عام ١٨٢٨ ، وبالتالي فقد كانت روسيا تفضل الحصول على مناطق اقليمية فى جيلان مقابل التعويضات . وكان أقصى ما تطمح فيه بريطانيا كما ذكر بالمرستون لهوب هاوس هو أن تسمح حكومة فارس ببناء المثلثة البريطانية فى خرك وقتما ترغب بريطانيا فى ذلك كما كان من المحتمل أن يوافق الفرس على اقامة مستودع للفحم هناك لتموين السفن التى تتراد منطقتى دجلة والفرات ، غير أن الجزيرة سوف

(١) فارس والخليج مجلد ٧٢ من هانيل الى اللجنة السرية ١٨٤١/٤/٢٤ (رقم ٩ الادارة السرية) كما زار هانيل جزيرتى هنجام وديرستان بجزيرة قشم ولكنه وجدتهما لا تصلحان لتكونا قاعدتين عسكريتين .

- ٦٠٨ -

تبقى من الناحية الاسمية تابعة لفارس . وقد وافق هوب هاوس على ذلك
الحل الوسط وكلف ماكنيل في أواخر شهر أغسطس ببذل قصارى جهده
للحصول على موافقة الشاه على تلك المطالب (١) .

ولما كان اوكلاند يجهل ما استجد من تطورات على الوضع فقد بادر
بارسال أوامر الى ماكنيل في شهر أغسطس بارجاء عملية الانسحاب من
حركه الا اذا قدم الشاه تعهدا قاطعا بالتخلي عن أطماعه في أفغانستان كما
اوضح اوكلاند لبارستون بأنه سوف يكون مسئولاً عن أى تغيير فى التعليمات
الاصليه التى وصلتته من بالرستون ، وفى الوقت نفسه بعث اوكلاند
بتعليمات الى هانيل بعدم سحب القوات من حركه ريشما تصله تعليمات
جديدة من الهند بهذا الشأن (٢) ويعود السبب فى هذا الاجراء الذى اتخذه
اوكلاند الى تدهور وضع الحامية البريطانية فى أفغانستان . وكان اوكلاند
يرمى الى الحصول على تعهد من الشاه بوقف تدخلاته فى أفغانستان قبل
ان يزداد الوضع سوءاً هناك ، غير أن هذه التعليمات وصلت للأسف
متأخرة الى ماكنيل . وصل المبعوث البريطانى الى طهران يوم ١١ أكتوبر
فوجد الشاه فى انتظاره لتوقيع الاتفاق التجارى ولم يشأ المبعوث أن تضع

(١) من هانيل الى اللجنة السرية ١٩/٥/١٨٤١ رقم ١١ الادارة السرية .

(٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٣٩ ومرفق
الخطاب السرى رقم ٢٠٧ المؤرخ ٣١/١٢/١٨٤١ من ماكنيل الى السكرتير
الاول لحكومة بومباى ٣٠/١٠/١٨٤١ ومسودات مجلس الادارة من التقارير
السرية الى حكومة الهند مجلد ١٥ مسودة الى الحاكم العام ٣٠/١٢/١٨٣١
(رقم ٨٠٤) ومرفق معها خطاب ماكنيل الى بالرستون ١/١١/١٨٤١ .

- ٦٠٩ -

منه هذه الفرصة ، وهكذا وقع الاتفاق يوم ٢٨ أكتوبر وتم التصديق عليه في نفس اليوم . ونص الاتفاق على حرية التبادل التجاري بين رجال الأعمال البريطانيين والفرس . وحرية تنقلاتهم في أراضي كل من الدولتين المتعاقبتين ، كما نص الاتفاق على حق القناصل البريطانيين في الإقامة في تبريز مع أن هذا يعتبر أقل من الامتيازات التي حصلت عليها روسيا بمقتضى معاهدة تركمنشاه كما سمح للمقيم البريطاني بموجب الاتفاق البقاء في مقره في بوشهر (١) .

كما كلف ماكنيل بالحصول على تعهد خطي من حكومة الشاه بعدم معاقبة أهالي خرك على تعاونهم مع القوات البريطانية أثناء احتلالها للجزيرة . وقد حصل ماكنيل على التعهد المذكور في نفس اليوم الذي تم فيه التوقيع على الاتفاق البريطاني الفارسي . ولم يعد أمام المبعوث البريطاني بعد كل ذلك الا أن يطلب من قائد الحامية البريطانية في خرك الانسحاب منها فوراً وتسليم شئون الإدارة لمدوب حكومة فارس . وقد بعث ماكنيل بهذه الأوامر الى قائد الحامية يوم ٢٨ أكتوبر وطلب اليه ابلاغ الممثل المنتدب من الحكومة الفارسية عند تسليم الجزيرة بعزم الحكومة البريطانية الاحتفاظ بمستودعات الفحم فيها لتموين السفن البريطانية العاملة في مياه دجلة والفرات تحت اشراف مسئول بريطاني وذلك كما سبق لماكنيل ان ابلاغ وزير.

(١) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية الى حكومة بومباي مجلد ١٦ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٢/١/٢٩ (رقم ٨١٦) . ومرفق بها خطاب من ابردين الى ماكنيل ١٨٤٢/١/٢٢ .
(٣٩ - بريطانيا والخليج)

— ٦١٠ —

خارجية فارس بذلك (١) غير أن تعليمات اوكلاند وصلت متأخرة الى ماكنيل، كما لم توافق الحكومة في لندن عليها ، فقد سقطت حكومة ملبورن ولم يرغب اللورد أبردين الذى خلفه في وزارة الخارجية في تعكير صفو العلاقات مع حكومة الشاه أو أن يسئ الى مركز الحكومة البريطانية عن طريق تمسكه بخرك (٢) . وحتى يتفادى أبردين تردد اوكلاند في تنفيذ الانسحاب من القاعدة فقد بادر الى ارسال تعليمات الى بومباي في نهاية شهر يناير ١٨٤٢ لتنفيذ عملية الانسحاب فورا (٣) .

والواقع أن قلق أبردين من هذه الناحية لم يكن له ما يبرره . فعندما علم اوكلاند بأن الأوامر التى أصدرها الى ماكنيل لم تصل اليه بادر في الأسبوع الثالث من ديسمبر الى ارسال تعليمات أخرى الى بومباي بوجوب تنفيذ الانسحاب (٤) .

(١) مسودة الى حاكم بومباي ١٨٤٢/١/٢٩ (رقم ٨١٨) .

(٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباي مجلد ٣٩ مرفق للخطاب السرى رقم ١٠٧ فى ١٨٤١/١٢/٣١ من مادوك الى ويلوبى ١٨٤١/١٢/١٨ من مادوك الى ويلوبى ١٨٤١/١٢/١٨ (الادارة السرية) .

(٣) مرفق للخطاب السرى رقم ٤٢ المؤرخ ١٨٤٢/٤/٣٠ من الكولونيل ج دى روبرتسون (المقيم بالوكالة) الى ويلوبى ١٨٤٢/٣/٢٦ (رقم ١٨ الادارة السرية) .

(٤) مرفق للخطاب السرى رقم ٨٢ المؤرخ ١٨٤٢/٧/١٨ من روبرتسون الى ريد ١٨ مايو ١٨٤٢ (رقم ٨١ الادارة السرية) .

غادر الجانب الأكبر من القوات البريطانية خرك فى نهاية شهر فبراير ، وقد استكملت عملية الانسحاب من الجزيرة يوم ٢٦ مارس . وقد أثارت السرعة التى تم بها سحب القوات البريطانية دهشة الفرس . ولم يتسلم المسئول الفارسى المنتدب عهدة الجزيرة قبل شهر مايو . وقد بعث سحب القوات الارتياح فى نفس ابردين . فقد كان على غرار سلفه بالمرستون يخشى أن يؤدى استمرار احتلال بريطانيا للجزيرة الى تشجيع الروس على احتلال مناطق ساحلية أخرى من فارس على بحر قزوين . كما كان لابد من وضع معارضة الشاه للاحتلال موضع الاعتبار . ولم يكن واضحا ما اذا كانت معارضته للاحتلال البريطانى لجزيرة خرك ناشئة عن الخوف من وجود قاعدة أجنبية بالقرب من شواطئه ام من احتمال اضطرابه الى اعطاء الروس امتيازات مماثلة فى شمال البلاد (١) غير ان استيائه من الوجود البريطانى فى خرك لم يكن يقل خطورة عن خنق جده قبل عشرين عاما نتيجة لوجود قاعدة لبريطانيا فى جزيرة قشم . واستمر موقف الشاه البودى تجاه البريطانيين نحو اربعة أشهر ، اى حتى وقت وقوع مذبة البعثة البريطانية فى كابول ، وتفهم الجيش البريطانى الى حدود داخل الهند فى

(١) مسودات مجلس الادارة التقارير السرية الى الهند مجلد ١٦ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٢/٢/٢٥ (رقم ٨٢٢) ومجلد ١٧ مسودة الى المقيم فى الخليج ١٨٤٢/١١/٢ - (رقم ٨٩٦) وكان هانيل فى الاجازة عندما تقرر اعادة المثلثة فوجدها فى حالة غير صالحة ولذلك فقد عاد الى خرك الى ان تم تجديدها (انظر فارس والخليج مجلد ٧٦ من شيل الى ابردين ١٨٤٢/٨/١٠ (رقم ٤١) .

شتاء ١٨٤١ - ١٨٤٢ ، وقد إنقلب موقف الشاه الى العداء ، حتى أن ابردين قد اضطر منعا للمزيد من تدهور العلاقات الى معارضة الاقتراحات التي وصلت اليه من الهند بابقاء الممثلة في خرك بصورة دائمة كما عارض انتقال المقيم الى خرك في شهور الصيف (١) . وما أن نجحت الحكومة البريطانية في تحسين العلاقات بينها وبين الشاه حتى شرع الأخير في حملة لاغلاق مستودع الوقود في جزيرة خرك بعد أن سبق ووافق على بقاءه هناك . وقد تصاعدت حملة الاحتجاجات من جانب الشاه وحكومته بالنسبة الى هذا الموضوع ضد الحكومة البريطانية ، وربما يرجع السبب في ذلك على حد رأى جوستين ريشيل القائم بالأعمال البريطاني في طهران الى خوفه من قيام الروس بانشاء مستودع مماثل لهم بالقرب من أسترابان ، بحيث اضطر وزير الخارجية البريطاني في شهر مارس ١٨٤٤ الى تكليف حكومة الهند بالنظر في هذا الأمر واتخاذ التدابير اللازمة لاغلاق المستودع بأسرع وقت .

وضعت الخلافات الكثيرة التي نشأت بسبب بوشهر نهاية مؤسفة للعلاقات الودية مع فارس . ولم يحصل ميثلاند أو هانيل على رد الاعتبار عن الاهانات التي تعرض لها في شهر مارس ١٨٣٩ ، وقد توفي ميثلاند في البحرين في شهر نوفمبر من ذلك العام بينما كان في طريقه الى بحر الصين ، كما كان هانيل في اجازة عندما أعيد فتح الممثلة البريطانية في بوشهر في شهر مايو ١٨٤٢ ، كما لم تقم حكومة فارس من جانبها بأية خطوة بشأن

(١) فارس والخليج مجلد ٧٩ من شيبيل الى ابردين ١٢/١/١٨٤٤ للإطلاع على الرسائل المتبادلة حول هذا الموضوع انظر نفس الحلقات مجلد ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ومسودات مجلس الادارة مجلد ١٧ ، ١٨ .

٦١٣ -

أصدار بيان للسكان في بوشهر . يؤكد ان فصل ميززا اسد الله من منصبه قد تم بسبب مسلكه تجاه ممثلى الحكومة البريطانية ، فقد اغتتم المسؤولون الفرس في بوشهر وشيراز كل فرصة لخلق المتاعب للمقيم بعد عودته الى المدينة . فقد منع من قضاء شهور الصيف خارج بوشهر كما حظر على الممثلين الانتقال بعد غروب الشمس ، كما احيطت المثلثة بأسوار وتمت محاولة أخرى لمنع المسؤولين البريطانيين من استخدام رصيف المثلثة خلال انتقالهم من السفن الى المدينة والعكس بالعكس (١) .

ولم تقدم الحكومة الفارسية أى دليل على تحسين موقفها ومسلكها تجاه الحكومة البريطانية وخاصة فيما يتعلق بالاعتداء على صراف المثلثة كما انها لم تدفع له أى تعويض عن الاضرار التى تحملها ، كما لم تقم الحكومة الفارسية بالقبض على الجناة أو معاقبتهم . والأسوأ من كل هذا هو موقف حكومة الهند من قضية الصراف رغم الحاح بالمرستون فى سنة ١٨٣٩ على تعويضه . فقد اقترح الكولونيل ا . ج . دى ربرسون المقيم بالوكالة فى ١٨٤٢ دفع تعويض للصراف عن الاضرار والخسائر التى تعرض لها بعد ان فقد الأمل فى الحصول على تعويض من السلطات الفارسية . هذا وعلى

(١) للاطلاع على الرسائل المتبادلة حول هذا الحادث انظر (فارس والخليج) مجلد ٨٠ وعلى الاخص تقارير شيل بتاريخ ٨ ، ١٥ ، ١٨ / ١٢ / ١٨٤٤ (رقم ١١ ، ١٢١ ، ١٢٩) انظر ايضا نفس الحلقات مجلد ٨١ وعلى الاخص خطاب شيل الى ابردين المؤرخ ١٧ / ٦ / ١٨٤٥ (رقم ٦٥) ومسودات مجلس الادارة مجلد ١٨ وعلى الاخص مسودة الى الحاكم العام بتاريخ ١٣ ، ١٦ / ١٠ / ١٨٤٥ (رقم ١١٢٣ ، ١١٢٥) .

الرغم من ترحيب حكومة بومباي بالاقترح الا أن حكومة كلكتا لم توافق عليه . وكان المبلغ المطلوب هو ٢٠ جنيها فقط (١) ومثل آخر على سوء مسلك حكومة فارس هو ما حدث لسكان جزيرة خرك ، فعلى الرغم من أن الشاه قد أصدر مرسوما (فرمان) الى أمير شيراز فى شهر نوفمبر ١٨٤١ طالبه فيه بعدم الاساءة أو الانتقام من سكان جزيرة خرك المتعاونين مع السلطات البريطانية فقد ارسل أمير شيراز قوة من ٢٠٠ جندي فى شهر سبتمبر ١٨٤٣ لاحتلال الجزيرة ، غير أن حجم هذه القوة بالمقارنة الى عدد سكان الجزيرة الذى لا يتعدى ٣٠٠ نسمة انما يدل على أن أمير شيراز يبيت امرا ، وما ان علم سكان خرك بوصول القوة الفارسية الى الجزيرة حتى خرجوا منها بالجملة ولجأوا الى الكويت ولم يعودوا الى مواطنهم الا بعد أن وجه هانيل تحذيرا الى المسؤولين الفرس من أن الحكومة البريطانية لن تسمح بأى حال من الأحوال بالحاق أى ضرر بسكان الجزيرة (٢) .

لم تشعر الحكومة البريطانية بالارتياح من نتيجة التسوية الشاملة مع حكومة فارس ، صحيح أن الاتفاق التجارى الذى كانت تطالب به قد وقع ، كما صدر مرسوم بمنح الحصانة للعاملين فى المفوضية البريطانية ، وقدمت الحكومة الفارسية اعتذارا رسميا عن الهجوم على ساعى المفوضية ، غير أن

(١) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية الى حكومة الهند مجلد ١٨ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٤/٣/١٩ (رقم ٩٨٣) ومرفق به خطاب ابردين الى الاميرال يربون (رئيس مجلس الهند) .

(٢) من شيل الى ابردين ١٨٤٣/١٠/٢٧ (رقم ٨٥) ومجلد ٧٩ من شيل الى ابردين ١٨٤٤/٤/١٨ (رقم ٤٣) .

- ٦١٥ -

جذور الخلاف بين الدولتين لم تحسم كما لم يتخل الشاه عن أطماعه فى اقليم الحيرة . وقد حاول اوكلاند عبثا اقناع الشاه بالكف عن التدخل فى أفغانستان لأن الحكومة البريطانية لم تؤيده فى تلك الخطوة . ولم تتضح الأسباب التى منعت بالمرستون من الاصرار على الحصول على تعهد رسمى من الشاه حول هذه النقطة . ولعل خوفه من الروس فى آسيا قد خف كنتيجة للخلافات التى دبت بين القيصر ومحمد على باشا . وعلى الأخص انتهاء العمل بمعاهدة هنيكار اسكليس والعودة الى العمل بالنظام القديم بالنسبة للمضائق التركية بمقتضى معاهدة يوليو ١٨٤١ ، وبالتالي فلا يصح أن ننظر الى تعليمات بالمرستون الى ماكنيل فى ذلك الشهر من زاوية تناقض شكوك بالمرستون فى نوايا الروس فى آسيا من ناحية أو كتغيير عن اعتقاده بأهمية التوصل الى تسوية ما مع حكومة فارس لأن بقاء الوضع على ما هو عليه قد يدفع الروس فى استغلال توتر العلاقات الانجلو - فارسية لتوسيع قاعدة نفوذهم فى فارس . فاذا كان الاحتمال الثانى هو الاحتمال الاصح فان قرار بالمرستون بالنظر الى الانتكاسة العسكرية البريطانية فى أفغانستان والتى جاءت بعد التسوية مباشرة يعتبر قرارا حكيما ، غير ان هذا القرار أبقى على مشكلة الحيرة بدون حل وتطلب الأمر حروبا طويلة مع فارس قبل ان تحل هذه المشكلة .

وعلى الجانب الآخر من الخليج كان التهديد الذى تمثله الحملة المصرية على المنطقتين الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة فيما بين عامى ١٨٣٧ ، ١٨٤٠ فى الرؤية البريطانية أقل خطرا من هجوم الشاه على اقليم الحيرة لا لخلو الاول من التورط الروسى فحسب وانما من حيث حجم ذلك الخطر

- ٦١٦ -

أيضا ، رغم انه كان مصدر أخراج للحكومة البريطانية . أما جيش خورشيد باشا فلم يكن يزيد عن ٤٠٠٠ مقاتل في أى وقت من الأوقات بما في ذلك الجنود البدو غير النظاميين ، كما أن اختيار خورشيد باشا « السليمية » كمقر عام لهذا الجيش ثم اتخاذ الثرمدة مقرا له فيما بعد انما يدل على أن خورشيد باشا لم يكن ينوى التوغل بجيشه الى ما وراء الحدود التي استقر بها خلال ربيع ١٨٣٩ ، أما حملة سعد بن مطلق وتهديده للبريمي فقد كانت تنطلق من دوافع شخصية وليس بتحريض من خورشيد باشا الذي كان على ما يبدو يطمح في احتلال سلطنة عمان .

والسؤال الآن عن الأسباب الحقيقية التي دفعت محمد علي باشا الى شبه الجزيرة العربية . من المؤكد أن تلك الدوافع لم تكن مجرد احتلاله لنجد أو الاستيلاء على البحرين رغم ما كان لثروتها من جاذبية وسحر . كما لا يبدو بأن نية محمد علي باشا كانت هي الوصول الى المشارف الجنوبية للعراق في ذلك الوقت الذي كان اهتمام السلطان العثماني والدول الأوروبية مركزا في الدرجة الأولى على نفوذه ونشاطه في الشام . لقد كانت حملة محمد علي باشا تسير بصورة بطيئة حيث بدأت عام ١٨٣٧ وانتهت في الأشهر الأولى من سنة ١٨٣٩ حيث كان محمد علي باشا يتخذ من الأمير خالد ستارا لاختفاء أهدافه الحقيقية من حملته ، وأصبح هذا الأمير يمثل دور التابع للسيطرة المصرية . ومن سوء حظ محمد علي أن يتوافق ظهور الجيش المصري على الضفاف العربية للخليج مع انفجار الصراع البريطاني الفارسي على ضفافه الشرقية مما جعله يحدث أصداء أكثر مما كان متوقعا له .

وإذا نظرنا الى تهديد خورشيد باشا من زاويته الفعلية وتردد خورشيد في أن يواجه الموقف بسرعة وفعالية فان موقفه هذا لا يعتبر

- ٦١٧ -

موقفا شاذا . وعندما نتذكر بأن حكومة بومباى وبالمرستون وهوب هاوس
وأخيرا أوكلاند الى حد ما قد احسوا بخطر ذلك التهديد فان تردد خورشيد
باشا كان نابعا من ضعفه . وحتى اذا لم نضع فى الاعتبار الالتزامات
الكثيرة والنقص فى الامكانيات العسكرية والبحرية لحكومة الهند فى ذلك
الوقت فلقد كان فى امكان أوكلاند أن يتخذ اجراءات أكثر مما اتخذه .

وعلى أى حال فان عجز حكومة بومباى الواضح فى المجابهة مع
المصريين وذلك باستعراض القوة البريطانية المسلحة فى المنطقة أدى الى
تشجيع القبائل الساحلية على تحدى قوة بريطانيا . وإذا كان هؤلاء الحكام
قد غيروا من مواقفهم هذه فيما بعد فان ذلك يرجع الى جهود حكومة
بومباى والضباط السياسيين والبريطانيين فى منطقة الخليج . وبنوع خاص
الى جهود رجل واحد هو صمويل هانييل المقيم البريطانى فى الخليج فى
تلك الفترة .

الفصل التاسع

نظام الصلح

١٨٣٥ - ١٨٥٣

—

فى ليل ٢٥ نوفمبر عام ١٨٣٤ انتهى حمود بن عزان والى صحار ، فرصة غياب السيد سعيد عن البلاد ، وقام باحتلال بلده السويق على ساحل الباطنة ، وبعد ان اجتاحتها عاد فانسحب الى المنطقة الداخلية من البلاد ، وقد قام كل من هلال أكبر أنجال السيد سعيد ومحمد بن سالم ابن أخيه اللذين عينهما السيد سعيد نائبين عنه بالرد على اجراء حمود بن عزان بارسال عدد من السفن الى ساحل السويق كما طلبا مساعدة كل من سلطان بن صقر شيخ القواسم وخليفة بن شخبوط شيخ بنى ياس وزعيم النعيم ضد حمود بن عزان . وقد رأى سلطان بن صقر فى ازمة آل بوسعيد ضالته المنشودة لتحقيق مكاسب اقليمية من وراء ذلك . وهكذا أبحرت خمسون سفينة شراعية على الفور من الشارقة ورأس الخيمة وغيرها من موانئ القواسم على خليج عمان ، بينما انطلقت قوة من القواسم للاستيلاء على خور فكان ، وكان ملجأ للسفن على ساحل الشيلية ، كما كان يستخدمه القواسم كقاعدة للانقضاض على السفن التى ترتاد مضيق هرمز . كما تحركت بطلب من نائبى السيد سعيد إحدى سفن بنى ياس وكانت ترسو فى ميناء مسقط ، وأبحرت الى ساحل صحار للاستيلاء على أى سفينة تصادفها فى مياه تلك المنطقة وبعد ذلك بوقت قصير قام بنو ياس بنهب سفينتين تابعتين لشيخ جزيرة قشم .

— ٦١٩ —

واصبح من الواضح جدا ان النائبين قد فتحا البلاد لموجة من الاضطرابات والفوضى لم يعد فى وسعهما السيطرة عليها . وكان الاحتمال ضعيفا ، ان يلتزم شيوخ القرصنة بالتمييز بين السفن الصديقة وغير الصديقة ، كما كان من الصعب على النائبين التدخل فى هذا الأمر خوفا من انحياز بنى ياس الى معسكر حمود بن عزان .

لقد كان هذا رأى الكابتن هانيل المقيم المساعد الذى عهد اليه بالاشراف على شئون المثلثة بعد رجوع بلين الى الهند فى الصيف ، وقد وجه هانيل تحذيرا الى كل من سلطان بن صقر والشيخ شخبوط فى أوائل شهر يناير ١٨٥٢ ، بأن السلطات البريطانية تراقب تحركاتهما مراقبة دقيقة . غير ان هذا التحذير وصل متأخرا جدا الى شيخ ابوظبى .

إن السهولة التى تمكنت بها سفينة بنى ياس من الاستيلاء على بعض الغنائم من السفن التى اعترضتها على ساحل صحار ، ثم اندلاع القتال فى عمان من اقصاها الى اقصاها قد هيا الفرصة لخليفة بن شخبوط من تحسين اوضاع بلاده الاقتصادية . وفى أوائل شهر فبراير قرر شيخ بنى ياس اطلاق اسطوله الحربى للعبث بالملاحة التجارية فى الخليج . وقد اتخذ هذا الاسطول منطقة القوين على مدخل الخليج قاعدة لنشاطه ، ومن هذه القاعدة أخذ يستولى على كل سفينة غصبا ، ويقوم بنهب محتوياتها من السلع ، ويقوم فى أغلب الأحيان ببتز أعناق بحارتها بحد السيف . وحتى شهر فبراير ومنتصف شهر ابريل وقعت فى أيدي اسطول بنى ياس ما لا يقل عن ١٧ سفينة ، وقاموا بالاستيلاء عليها ونهبها وأرسالها الى أبو ظبى . وكانت أغلب السفن المنهوبة تنتمى الى الموانى الفارسية عدا اثنتين منها فقد كانتا ترفعان العلم البريطانى . وقد قام بنو ياس بقطع

رَقَابَ عَدَدُ غَفِيرٍ مِّنْ بَحَارَةِ السَّقِينَةِ « ذَرِيَا ذَوْلَت » التَّابِعَةِ لِبُومْبَايَ كَمَا مَزَقُوا
شَعَارَهَا .

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يَكُنْ يَوْجَدُ إِلَّا طَرَادَ وَاحِدٍ مِّنْ طَرَادَاتِ أُسْطُولِ
الْخَلِيجِ بِالْقَرَبِ مِنْ تِلْكَ الْمَنْطَقَةِ . وَقَدْ صَدَرَتْ الْأَوَامِرُ إِلَى ذَلِكَ الطَّرَادِ
بِالْبَحَارِ فُورَ وَصُولِ الْأَخْبَارِ عَمَّا يَرْتَكِبُهُ أُسْطُولُ الْقَرَاصِنَةِ . وَقَدْ قَامَ قَائِدُ
أُسْطُولِ الْخَلِيجِ بِعَمَلِيَّاتٍ مَسَّحٍ شَامِلَةٍ فِي مَنْطَقَةِ الْخَلِيجِ الْأَسْفَلِ مِنْ
هَنْجَامَ إِلَى أَبُو ظَبْيٍ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ عَلَى أُسْطُولِ الْقَرَاصِنَةِ . أَمَّا الطَّرَادُ
الْفَنَسْتُونُ أَحَدُ السَّفَنِ التَّابِعَةِ لِلْأُسْطُولِ فَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي شَطِ
الْعَرَبِ . وَقَدْ أُصْدِرَ هَانِيلُ أَوَامِرُهُ إِلَى قَائِدِ الطَّرَادِ لِلتَّوَجُّهِ إِلَى بُوْشَهْرٍ فِي
الْأُسْبُوعِ الْآخِرِ مِنْ مَارَسٍ ، كَمَا سَافَرَ بِنَفْسِهِ عَلَى ظَهْرِ ذَلِكَ الطَّرَادِ مُتَوَجِّهًا
إِلَى قَاعِدَةِ الْأُسْطُولِ فِي بَاسِيدُو يَوْمَ ٦ أِبْرِيلٍ . وَعِنْدَ وَصُولِ هَانِيلِ إِلَى
القَاعِدَةِ عَلِمَ بِأَنَّ الْقَرَاصِنَةَ بَعْدَ انْتِصَارَاتِهِمْ الْآخِرَةِ الَّتِي حَقَّقُوهَا قَدْ بَعَثُوا
بِرُسُولٍ إِلَى بَاسِيدُو ، يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ قَائِدُ الْأُسْطُولِ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْبَحْرِ
لِمُبَارَزَتِهِمْ . وَقَدْ كَلَّفَ هَانِيلُ جُونِ سُوْبِرٍ قَائِدَ الطَّرَادِ الْفَنَسْتُونِ يَقْبُولُ
التَّحْدِي ، بَيْنَمَا اسْتَقَلَّ هُوَ السَّفِينَةَ الْحَرْبِيَّةَ امْهَرَسَتْ وَهَاجَمَ بِهَا
أَبُو ظَبْيٍ .

فِي نَهَارِ يَوْمِ ١٦ أِبْرِيلِ التَّقَى الطَّرَادُ الْفَنَسْتُونُ بِأُسْطُولِ بَنِي يَاسٍ
الْمُؤَلَّفِ مِنْ أَرْبَعِ سَفَنٍ مُخْتَلِفَةِ الْحَجْمِ ، وَكَانَ هَذَا الْأُسْطُولُ يَقْطُرُ السَّفِينَةَ
الْفَارَسِيَّةَ الَّتِي اسْتَوْلَى عَلَيْهَا . وَفِيمَا يَلِي وَصَفَ لَأَحْذَاثِ الْأَصْطِدَامِ الَّذِي
وَقَعَ بَيْنَ الطَّرَادِ وَأُسْطُولِ الْقَرَاصِنَةِ عَلَى لِسَانِ سُوْبِرٍ نَفْسَهُ : -
« وَمدوا أيديهم مسرعين في المجيء نحونا ، وفي الساعة السادسة
صباحاً أرغمتناهم على أن ينحنوا قليلاً بالسفينة وأصبحنا في موقع

التحكيم منهم ، واخذنا نستعد للدخول في معركة معهم ، وفي الساعة السابعة اطلقنا مدافعنا ورفعنا اعلامنا ، ولاحظنا أثناء ذلك أن السفينة الامامية من سفن القراصنة مكتظة بالرجال وكانوا يقطرون سفينة أخرى ، وقد اطلقت طلقة ثم رفعت علما أحمر ثم أغطست العلم ثلاث مرات في الماء كعلامة على التحدي فاطلقنا طلقة لكنها لم تصب الهدف وقد ردت السفينة الكبيرة على الفور ولكن قذائفها سقطت في منتصف الهدف ، ثم انزلوا اعلامهم كما انزلت احدى السفن اشروعها ، وتقدمت نحونا ربما بهدف لفت انتباهنا ، وعندما امعنا النظر فيها وجدناها مكتظة بالناس واقتنعنا عند ذلك بأن تلك السفن ما هي الا أسطول للقراصنة التابع لأبو ظبي ، كما أكد لنا ذلك القبطان الغربي ، وعند اقتراب تلك السفينة منا تعرفنا عليها ، وقد تأكد لنا ان السفينة تقل الشيخ سلطان بن شخبوط وعندما تبين لهم باننا اقوى منهم قاموا بفك السفينة المقطورة ونكسوا اشروعهم واقتربوا منا إلى حد مرمى المسدس دليلا على استعدادهم للمعركة . وقد تحركنا حتى كنا في وسطهم ونجحنا في تلك الحركة دون أن تحرك سفينا بسفنههم بحيث أصبحت سفينة الشيخ في الجانب الايمن والمقطورة على الجانب الأيسر ، وإثناء مرورنا فيما بينهم وجهنا عليهم نيران مدافعنا لدرجة أن مدافعنا كادت أن تلامسهم . وقد أخذ بحارة سفينة الشيخ يصيحون فينا « الله اكبر ، انهم الكفار » وقد شوهده بعضهم يحاول أن يرمى برماحهم نحونا ، غير أننا اطلقنا عليهم النار ، وإذا بنحو ٩٠ أو ١٠٠ رجل يهجمون برماحهم الطويلة علينا بهدف الصعود الى سفينتنا ، غير انهم فشلوا أمام سيل القذائف التي اطلقناها عليهم . وكان في السفينة ما لا يقل عن مائة رجل وكانوا يمثلون خطرا علينا برماحهم ، كما تعرضت سفينتهم لأضرار بالغة إذ كانت قطع الخشب تنثر منها في كل الاتجاهات ، وعند مرورهم قفز نحو ٩٠ رجلا من السفينة المقطورة والتقطتهم سفينة الشيخ شخبوط

- ٦٢٢ -

التي كانت قد رفعت اشرعتها واستقرت في الناحية الشمالية منا ، وكانت تصحبها إحدى السفن من طراز الباتل ثم افترقت عنها ، ثم حاولنا الالتفاف عليها ولكنها انطلقت بسرعة وقد حاولنا استخدام مدفع المقدمة في محاولة لأحداث خلل بها ولكننا لم ننجح لأن القذيفة لم تصبها ، ثم قامت السفن الأخرى بتغيير اتجاهها نحو السفينة المهجورة وجردوها من اشرعتها وبعض الأشياء الصغيرة الأخرى ووقفوا في الجنوب الغربي . وفي الساعة التاسعة شاهدنا السفينة المطاردة تنقل بعض الأشياء الى ظهرها ولكننا لم نتمكن من معرفة تلك الأشياء وقد اصلنا مطاردتها حتى الغروب حيث تمكنت من تغيير وجهتها نحو الشرق على بعد عدة أميال منا وبعد أن حل الظلام تخلينا عن فكرة المطاردة واتجهنا الى الجنوب على أمل ان نلتقى معها في النهار .

وعلى الرغم من أن الريان سوبر لم يفلح في الاشتباك مرة أخرى مع اسطول القراصنة في اليوم التالي ، فإن العملية التي جرت في منطقة ذي جريت تومب قد قصمت ظهر قبائل بنى ياس . كما كانت تلك العملية هي الاشتباك الأخير التي يشترك فيه اسطول الخليج ضد قبائل الساحل الغربي .

وقد وصل الكابتن هانيسل الى أبو ظبي على ظهر السفينة امهرست يوم ١٩ أبريل . وبعد بضع ساعات من وصوله واجتماعه بالشيخ خليفه وافق الأخير ، وبعد نقاش حاد مع المقيم المساعد ، على استدعاء السفن المشتركة في العملية ، واعادة السفن التي تم الاستيلاء عليها مع بحارتها ودفع تعويضات عن السلع التي تم الاستيلاء عليها وبعدها سافر هانيسل الى باسيدو لانتظاره تنفيذ خليفة لوعوده . وطوال الأسابيع الثلاثة الأخيرة

- ٦٢٣ -

من شهر مايو رابعت ثلاثة طرادات فى مياه أبو ظبى للتأكد من تنفيذ الاتفاق . وقبل نهاية الشهر كان بنو ياس قد نفذوا وعدهم ، فأعيدت السفن المغتصبة وبحارتها ، وقاموا بدفع تعويضات رمزية عن السلع والبحارة المقتولين مقدارها ٢٥٠٠٠ ريال نمسوى (نحو ٥٠٠٠ ج س) كما تم تسليم ربانى السفينتين اللتين قامتا بالاعتداء على دريا دولت وغيرها من السفن التى كانت ترفع العلم البريطانى الى السلطات البريطانية . وقد جرت محاكمة الربانة فى بومباى بتهمة اقتراف اعمال القرصنة . وكان أحد الربانة وهو محمد بن صقر بن دياب من افراد أسرة آل بوفلاح الحاكمة فى أبو ظبى . وربان السفينة ممباسة التى قامت بالهجوم على السفينة البريطانية الفنستون . أما التهمة الموجهة الى الربان الثانى وهو محمد بن ماجد أحد المنشقين عن القواسم ، فلم تثبت التهمة عليه لعدم توفر الادلة ، وبالتالي فقد أعيد الى منطقة الخليج ليقوم زعيم قبيلته بتوقيع العقوبة عليه .

امضى هاتيل فترة الانتظار فى قاعدة باسيدو يفكر فى الكيفية التى يمكن بها منع تلك الحوادث فى المستقبل . ولا جدال فى أن الاسباب الاقتصادية ووليدة الحرب الطويلة بين قبائل بنى ياس والقواسم هى التى دفعت قبائل بنى ياس الى ممارسة القرصنة . ثم ان افتقارهم لمصايد اللؤلؤ فى عام ١٨٣٤ كان القشة التى قصمت ظهر البعير . ان اقتصاد القبائل الساحلية كان يعتمد فى المقام الاول على مواسم صيد اللؤلؤ السنوية وعلى الرحلات التجارية البحرية الى البصرة وبومباى وزنجبار والبحر الاحمر . واذا ما توقف هذا النشاط او انخفض كنتيجة لما يحدث من اشتباكات بحرية بين هذه الدويلات فان النتيجة تكون قاسية على

- ٦٢٤ -

سكان هذه المناطق ، بل على تجارة الخليج عموماً . وكان تمرد بنى ياس أهم وآخر تمرد تقوم به هذه القبائل ، وأن كان أقسامها تعبيراً عن النتائج المشؤمة والخطيرة لحرية القبائل الساحلية فى إن تشن الحروب ومتى وكيف تشاء . كما أن هذا - التمرد قد أظهر السهولة التى يمكن أن يتحول بها هذا التمرد الى حروب مشروعة ، وكمثل على هذا التمرد موضوع محاصرة نائب السيد سعيد لمدينة صحار وتحوله الى عمليات للقرصنة ، غير انه لم يكن هناك أقل أمل فى أن توافق القبائل من تلقاء نفسها ، بالكف عن الاقتتال فيما بين بعضها البعض مهما كانت الفوائد التى قد تأتىها من ذلك ، وقد اثبتت التجربة أن الطريقة الوحيدة لارغام تلك القبائل على الحد من اندفاعها الى الحروب هى ان تقوم الحكومة البريطانية بفرض معاهدة صلح بحرى على هذه القبائل وتسوية الخلافات القائمة بينها . غير ان مجلس ادارة شركة الهند الشرقية كان حتى اغسطس ١٨٣٤ يعارض حكومة بومباى فى القيام بهذا الدور ومهما كان موقف مجلس الادارة فقد كان واضحاً على أية حال ، ومنذ أعوام عديدة أن الاحداث قد ترغم السلطات البريطانية فى النهاية على التحول عن سياسة الحياد التى كان قد وضعها مونستارت الفنسرتون والتزم بها المسئولون البريطانيون حتى ذلك الوقت . ولعل تمرد بنى ياس هو أحد تلك الاسباب التى فرضت نفسها .

وصل الشيخ شخبوط بن دياب والى الشيخ خليفة الى باسيدو فى منتصف شهر مايو لدفع التعويضات المستحقة على بنى ياس . وصادف وصوله وجود الشيخ سلطان بن صقر شيخ مشايخ القواسم الذى انتهز فرصة وجود المقيم فى باسيدو ليرهبه بمزيد من الشكاوى . وقد وجد

— ٦٢٥ —

هانيل فى تواجد الزعيمين فرصة لتسوية الخلافات بين القواسم وبنى ياس ، مما يتيح للجانبين الاشتراك فى موسم صيد اللؤلؤ ١٨٣٥ كما تصور المقيم انه فى الامكان اقناع الزعماء الآخرين على اجراء تسوية سلمية ، لهذا فقد بعث بطراد الى دبی وعجمان لاحضار الشيخ عبيد بن سعيد شيخ ملاسة ، وراشد بن حمد شيخ النعيم . وكان هانيل يدرك تمام الادراك صعوبة التوفيق بين جميع الأطراف نظرا لأن مواقفهم متعارضة ، كما أن مطالب كل فريق من الفريق الآخر متطرفة بحيث كانت امكانية التسوية بينهم معدومة . فضلا عن ذلك ، كما اكتشف هانيل من مقابلتهم على انفراد ، انهم كانوا جميعا يصرون على أن تضمن الحكومة البريطانية أى تسوية تتم فيما بينهم . وبما أنه لم يكن فى وسع هانيل قبول هذا الشرط ، فقد اقترح عقد هدنة بحرية تمتد طوال موسم صيد اللؤلؤ سنة ١٨٣٥ . ولما كان هذا الاقتراح لا يلزمهم بالتخلى عن تحفظاتهم ويضمن لهم فى نفس الوقت الاستفادة من موسم الصيد ، فقد وافقوا عليه بدون تحفظ . وفى يوم ٢١ مايو وقع شيوخ المنطقة على أول معاهدة للهدنة البحرية . وقد نصت المعاهدة على الامتناع عن اللجوء للحرب اعتبارا من ٢٢ محرم ١٢٥١ — الموافق ٢١ مايو ١٨٣٥ الى ٢٩ شهر رجب ١٢٥١ الموافق ٢١ نوفمبر ١٨٣٥ ، كما تعهدوا بدفع قيمة التعويضات عن أية انتهاكات لهذا الاتفاق يقوم بها رعايا هذه الامارات ضد بعضهم البعض اثناء الفترة التى تكون المعاهدة سارية المفعول فيها ، والابلاغ عن أية انتهاكات من هذا القبيل الى المقيم البريطانى او الى قائد أسطول الخليج ، ليقوم باجراء التدابير اللازمة فى الامر ، كما تعهد شيوخ المنطقة بالتخلى عن القيام بأى اجراءات انتقامية ضد بعضهم البعض ، كذلك تعهد زعماء المنطقة بالعمل على تجديد هذه المعاهدة على أسس راسخة قبل (٤٠ — بريطانيا والخليج)

- ٦٢٦ -

أربعة أسابيع من انتهائها ، أما اذا لم يقرروا تجديد المعاهدة وفضلوا
استئناف صراعاتهم فيتعين عليهم ابلاغ المقيم البريطاني بهذه النية
مسبقا (١)

على الرغم من ان الاتفاقية تشبه الى حد ما اقتراحات مالكولم لعام
١٨٢٨ التي تنص على اعتبار المصايد مناطق محايدة تكون بعيدة عن
الحروب البحرية القبلية ، كما أضافت نصا آخر يحظر الحروب لفترة محدودة
كما حددت عقوبات لمن يرتكب أية مخالفة . لقد كان هانيل هو الذي
توصل الى فكرة الهدنة البحرية وأن الفضل في ذلك يرجع اليه وحده .

ولقد حذر هانيل حكومته في التقرير الذي بعث به اليها حول هذه
الاتفاقية بالا تتفاعل بها كثيرا . ولعل أهم ما في الاتفاقية هو تعهد زعماء
المنطقة بالاحتكام الى السلطات البريطانية عند أية انتهاكات بدلا من
الانتقام بأنفسهم من بعضهم البعض . فاذا نجحت الاتفاقية في أهدافها
فيمكن اقناع الشيوخ بالموافقة على تجديدها في العام التالي . وكان
الخوف الوحيد على الاتفاقية ، كما يتصور هانيل ، هو أن تعتمد المشيخة الأقوى
في الامكانيات البحرية كالقواسم الى الانتقام في البحر عن اعتداء امارة أخرى عليها
في البر . وبالإضافة الى ذلك فان المعاهدة لم تقض على الاشتباكات البحرية بين

(١) مجموعة مجلس الادارة مجلد ١٥٩٦ ، خطاب من هانيل الى

ماكناتن (السكرتير الاول لحكومة الهند) باسيدو ١٨٣٥/٥/٢٦ .

- ٦٢٧ -

القبائل بشكل حاسم ، وبالتالي فقد كان من المحتمل ان تعاني التجارة البحرية من انعكاسات تلك الاشتباكات . وتأسيسا على هذا الاعتقاد فقد اقنع هانيل الشيوخ الموقعين على المعاهدة بالاعتراف بالخطوط الملاحية الرئيسية الواقعة على امتداد الساحل الفارسي كمياء دولية محايدة ، لا يحق لاي من سفن تلك المنطقة التواجد في أي وقت من العام في هذه الخطوط الملاحية ، ولضمان التزام الشيوخ بهذه التحديدات ، رسم هانيل خطا بين جزيرة موسى وجزيرة سري باعتبارها الحد الجنوبي للمنطقة المحايدة ، وحصل على تعهد من كل شيخ بحصر صراعاتهم الى الجنوب من ذلك الخط .

وخلال شهر يناير التالي وبينما كان هانيل في اجازة قام المقيم الجديد الماجور جيمس مارسون باعادة رسم الخط الفاصل وقد راعى أن يكون هذا الخط بعيدا عن الساحل الفارسي بعد ان نبه الضباط العاملون في الاسطول بأن جزيرتي أبو موسى وسري هما قواعد مشهورة للقراصنة ، وأصبح الخط الجديد يمتد من قشم على الجانب الغربي من شبه جزيرة مسندم الى نقطة تبعد عشرة أميال جنوب أبو موسى امتدادا منها الى جزيرة سر أبو نعيم . وعند ابلاغ سلطان بن صقر بهذا التعديل ، حثج عليه بأنه قد يمنعه من ارسال سفنه حول رأس مسندم الى خليج عمان للدفاع عن ممتلكاته الواقعة في خور فكان . وقد رفض موريسون احتجاجه بشدة وذكره بأن استيلاءه على خور فكان قد تم نتيجة الاضطرابات التي وقعت في عمان في اواخر ١٨٣٤ . وقد كان السبب الحقيقي وراء رفض موريسون احتجاج سلطان بن صقر كما ذكر موريسون لرؤسائه هو أن التعديل سوف يفلق تماما اكثر جوانب خط

الملاحه تعرضا لسفن القواسم ، كما أنه فى نفس الوقت يمنح سلطان مسقط بعض الضمان ضد اعتداءات القواسم على سفنه .

. وقد التزم الاطراف بالمعاهدة بشكل مرض دون وقوع اى انتهاك لها حتى نهاية العمل بها فى ٢١ نوفمبر . ومن جهة اخرى لم يظهر شيوخ المنطقة اى بادرة لتقدير مزايا الاتفاق او الرغبة فى تحويله الى نظام دائم . وقد جاءت ساعة الاختبار بعد ٢١ نوفمبر عندما أصبح الشيوخ احرارا فى استئناف صراعاتهم البحرية . وقد انقضى شهران دون ان تبدو اى دلالة على استعدادهم لتنفيذ ذلك .

وفى الربيع استفسر موريسون من هؤلاء الشيوخ عما اذا كانوا راغبين فى تجديد اتفاقية الهدنة للموسم القادم لصيد اللؤلؤ ، فردوا بالايجاب ، وتم التوقيع على الاتفاقية الجديدة يوم ١٣ ابريل ١٨٣٦ . وهى لا تختلف عن الاولى الا من حيث مدتها التى لم تتجاوز ثمانية أشهر ، واشترك فيها بالاضافة الى الزعماء الموقعين عليها سابقا شيخ ام القوين وكان قد تعذر اشتراك هذا الشيخ فى الاتفاقية الاولى بسبب اعتراض حاكم راس الخيمة الذى أصر على أن ام القوين تابعة له . وباشتراك شيخ ام القوين أصبحت الاتفاقية تشمل توقيع جميع الزعماء الرئيسيين الذين وقعوا على معاهدة ١٨٢٠ البحرية ، باستثناء شيخ البحرين . وكانت الاسباب المباشرة لعدم اشتراك البحرين فى معاهدتى ١٨٣٥ و ١٨٣٦ ذات شقين ، ففى المقام الاول لم تكن النية متجهة الى اشراك دول كالبحرين والكويت اللتين لم تمارسا القرصنة . اما السبب الثانى والاھم فهو احتمال قيام السيد سعيد من جديد باحتلال البحرين ، مما قد يضع الحكومة البريطانية فى موضع حرج من الالتزام بارغام السيد سعيد بالانسحاب ، ومما يثير الغرابة أن نقول

بأن الخلافات الداخلية فى البحرين أصبحت الخطر الأكبر الذى يهدد الأمن فى مياه الخليج فى الأعوام التى أعقبت عام ١٨٣٥ . كان الشيخ عبد الله بن أحمد الحاكم الوحيد فى البحرين بعد وفاة ابن أخيه وشريكه فى الحكم خليفة بن سلمان فى شهر مايو ١٨٣٤ . ولكن حكومة عبد الله كانت ضعيفة جدا ، كما كانت سلطته على أنجاله الأقوياء وأقاربه وأهية ، مما ألقى بالبلاد من الالتزام بارغام السيد سعيد بالانسحاب ، ومما يثير الغرابة ان تقول فى خضم المشاكل والاضطرابات . فقد تدهورت اوضاع المناطق ، كما انهارت حالة التجارة فجأة ، وتضاعفت الهجرة الى درجة خطيرة لأن الكثيرين من السكان قد تركوا البلاد هربا من اضطهاد آل خليفة . وفى عام ١٨٣٥ ثارت قبائل آل بو على وآل بو عيينين سكان هديلة على ساحل قطر ضد عبد الله . وقد تم تليفق نوع من الصلح عن طريق السيد هلال أكبر أنجال السيد سعيد ، غير أن هذا الاتفاق سرعان ما انهار بعد ان قام أحد افراد اسرة عبد الله بشن هجوم على هديلة ، واغرق إحدى سفنها ، وقتل أحد اقارب زعيم آل بو عيينين عيسى بن طارق . وعندما تقدم الشيخ بطلب التعويض من الشيخ عبد الله لم يحصل منهم على أكثر من تعهد بعدم تكرار مثل تلك الأعمال . وقد قام عيسى بن طارق وآل بو على وآل بو عيينين بفك تحالفهم مع البحرين وهاجروا جماعات الى أبوظبى فى أواخر تلك السنة احتجاجا على ما تعرضوا له من ظلم حكام البحرين (١) ، فى هذا الوقت كانت مدة اتفاقية الهدنة الأولى قد انتهت . وكان هناك احتمال أن يتخذ خليفة بن شخبوط من وجود اللاجئين

(١) مرفق للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٦٧ المؤرخ ١٨/٥/١٨٣٩ ملخص من اعداد ويلوبى (السكربتير السياسى للحكومة) للنزاع بين عبد الله بن أحمد وعيسى بن طارق بومباى ١٨٣٩/٢/٢٥ . ودليل الخليج ص ٥/٧٩٤ لوديمر .

- ٦٣٠ -

فى مشيخته حجة للهجوم على البحرين وسفنها . ولكن خليفة فى ذلك الوقت كان فى حالة نفسية سيئة بسبب العقوبات التى وقعت عليه فى العام السابق ، وان كان على أية حال غير ملزم بموجب نصوص اتفاقية الهدنة بعدم مهاجمة المشيخات غير المشتركة فى التوقيع على المعاهدة . وقد دفعت نتائج احتمال نشوب صراع بين ابوظبى والبحرين ، الماجور موريسون ، وكان قد فرغ من ادخال بعض التعديلات على الخط الملاحي الفاصل فى شهر يناير ١٨٣٦ الى استمرار العمل بموجب الخط شمال غرب المنطقة وبذلك تم وضع خط حاجز بين المنطقة الخطرة بالقرب من البحرين وخط الملاحة الدولى . ولهذا فقد صدر بلاغ الى شيوخ المنطقة يفيد بمد الخط الفاصل الى ما وراء جزيرة سرابو نصير من خلال جزيرة هول الى نقطة تبعد عشرة اميل من رأس فكان ، على طرف شبه جزيرة قطر ومنها الى جزيرة القرين حتى رأس الزور على الساحل الغربى أسفل الكويت وقد تم ابلاغ الشيخ عبد الله بالتعديل وطلب اليه اعلان موافقته الخطية على رسم الحدود الجديدة ، وقد نفذ عبد الله الطلب يوم ٢٦ مارس ١٨٣٦ وكان يبدو غربيا بعض الشيء ان يكون الحاكم الذى استبعد من اتفاقية الهدنة أول الموقعين رسميا على تعديل الخط الملاحي . وقد دار بخلد اعضاء مجلس ادارة الشركة عند استعراضهم للتركيب الذى قام عليه نظام الهدنة فى الخليج ان يوجهوا رسالة فى شهر سبتمبر الى حاكم بومباى لاستطلاع رأيه فى تجميع كافة شيوخ المنطقة الموقعين على اتفاقية ١٨٣٥ ، ١٨٣٦ لتقديم تعهد رسمى باحترام الحدود الجديدة لخطوط الملاحة فى الخليج . وقد رد هانيل الذى كان قد عاد الى الخليج كمقيم بالوكالة فى بداية ١٨٣٧ بأنه ليس من المناسب استعمال شيوخ المنطقة فى تبديل تقاليدهم البحرية بهذه السهولة ، وراى الاكتفاء فى البداية بنظام الهدنة المعمول به ، وقال بأنه ليس ثمة أية فائدة من استفزاز

— ٦٣١ —

الشيوخ بمثل هذه الاقتراحات • وبدلاً من ذلك عرض هانيل اقتراحاً مضاداً يقوم على اقناع زعماء المنطقة عند انتهاء اتفاقية الهدنة بالموافقة على احترام الحدود الدولية للملاحة والتوقيع على تعهد بهذا • وقد تمت الموافقة على الاقتراح من جانب كل من حكومة بومباي ومجلس إدارة الشركة (١) •

وفي منتصف ١٨٣٨ قرر عبد الله بن أحمد القيام بمحاولة لإرغام المتمردين من آل بنى على وآل بوعينين على العودة إلى ديارهم ليكونوا تحت سلطته ، غير أن هانيل حاول أن يمنعه من ذلك ونبهه إلى أنه على الرغم من أن عيسى بن طارق وخليفة بن شخبوط لا يستطيعان تأليف قوة بحرية لشن هجوم على البحرين ، إلا أنه في وسعهما إلحاق الضرر بتجارة البحرين إلى حد كبير • وعلى امتداد عامين ظل هانيل والماجور موريسون يكبحان جماح عيسى واتباعه من القيام بعملية انتقامية من عبد الله عن طريق مهاجمة سفن البحرين التجارية • كما أن عبد الله من ناحيته لم يبذل أى محاولة لتسوية خلافاته مع المتمردين من رعاياه بل استمر يرفض بشدة تعويضهم عن الأضرار التي لحقت بهم • وبالتالي فقد نبه هانيل عبد الله بأنه لم يعد يرى سبباً في الاستمرار في منع عيسى بن طارق من اللجوء إلى القوة لاسترداد حقه ، وأنه بالتالي ينفض يده من النزاع وعلى الرغم من أن عبد الله قد فوجئ بموقف هانيل المتصلب إلا أنه لم يعدل عن المضي في خطته للانتقام من

(١) التقارير السرية إلى حكومة بومباي من مجلس الإدارة إلى الحاكم ١٨٣٧/٩/٥ ومجموعة المجلس رقم ٧٢٤٦٣ مجلد ١٧٦٧ من هانيل إلى ويلوبى بوشهر ١٨٣٨/٥/١٥ ومن ريد (السكرتير السياسى لحكومة بومباي) إلى هانيل ١٨٣٨/٧/١١ •

- ٦٣٢ -

عيسى بن طارق . فبذل عبد الله محاولة مأكرة ، فعرض على هانيل ان يوافق على اعفائه من الالتزام بالخط الملاحي الفاصل فى موضوع نزاعه مع زعيم آل بنى على . وكان يريد استغلال حرص المقيم على قضية أمن المنطقة مما يضطره الى منع نشوب اصطدام بين عبد الله وخصمه فيضطر هانيل الى اقناع عيسى بالعودة الى المنطقة . ولكن يبدو ان عبد الله قد أساء فهم المقيم . وكان خليفة من جهة أخرى قد أبلغ هانيل فى وقت مبكر بأنه لم يكن يؤيد نشوب قتال بين عيسى وشيخ البحرين ، وبالتالي فان خطر انفجار صراع واسع فى الخليج لم يكن موضوعا واردا . وعليه فقد ابلغ هانيل شيخ البحرين ، أنه بالنظر الى سلوكه المرن منذ عام ١٨٢٠ فليس مطلوبا منه ان يلتزم بمراعاة الخط الفاصل . ثم عندما يئس عبد الله من خلافه مع عيسى طلب من هانيل أن يدبر نوعا من التسوية بينه وبين خصمه ، وقد وافقه المقيم ، الا ان المفاوضات بين الطرفين توقفت بسبب اصرار عبد الله على أن تعلن الحكومة البريطانية ضمانها لاية تسوية يتم التوصل اليها . غير ان هانيل رفض هذا الطلب على أساس المبادئ التى يلتزم بها ، حسبما ابلغ هانيل رؤساءه بذلك ، و اشار الى خطأ السماح للمتمردين بترك مواطنهم بالجوء الى بلد معاد يقومون منه بشن الاعتداءات على حاكمهم الشرعى . وقد نشبت الحرب بين عبد الله وعيسى بن طارق فيما بعد ، وكان لها تأثير مدمر على تجار البحرين واصحاب السفن فيها اكثر مما كان على عيسى بن طارق واتباعه . وكان القتال لايزال مستمرا بين الشيخين عندما ظهر خورشيد باشا على مسرح الأحداث فى شبه الجزيرة العربية ، وخوفا من احتمال غزو مصرى لبلدهم وجه تجار البحرين نداء الى هانيل يناشدونه العمل على انتهاء الصراع بين الطرفين حتى تتمكن البحرين من توحيد قواها الوطنية للوقوف فى وجه المصريين . وعند زيارة ادموندز مساعد هانيل للبحرين فى شهر مارس

١٨٣٩ (١) ، كانت لديه تعليمات لمحاولة تسوية الخلاف بين عبد الله وعيسى بن طارق ، ولكن محاولاته اصطدمت بإصرار شيخ البحرين على ضمان الحكومة البريطانية للتسوية بصورة إجبارية (٢) . ولما كانت السلطات البريطانية في الهند حريصة على منع انتشار النفوذ المصري بين القبائل العربية الساحلية ، وعلى الأخص في البحرين فقد كانت على استعداد بالرغم من معارضة هانيل على إرغام عيسى بن طارق للعودة الى تحالفه السابق مع شيخ البحرين . غير أنها لم تحصل على التأييد لهذا الموقف من إنجلترا ، حيث عارض هوب هاوس الفكرة باعتبارها غير سليمة . وأثنى على تراجع هانيل عن الرسالة وأضاف هوب هاوس ... أننا لا نرغب في أن تتحمل الحكومة البريطانية أى مسئولية حول مسلك الأطراف المعنية سواء في البحرين أو على الساحل الغربى لأنها لا سلطان لها على ذلك ، فضلا عن أنها لا تملك الوسائل الفورية والفعلية لمثل هذا التدخل وقد صدقت تنبؤات هوب هاوس فانجاز عبد الله بن احمد الى جانب المصريين ، وقد وضعت نهاية لهذه الحالة المؤلمة بإبرام اتفاق بين عبد الله والشيخ خليفة حاكم أبوظبي ، تعهد فيه الشيخ خليفة بإرغام عيسى بن طارق بوقف نشاطاته المعادية وإن يبحث له عن مكان آخر يلجأ اليه بعد انتهاء موسم صيد اللؤلؤ ١٨٣٩ . وفى أواخر العام

-
- (١) مسودات المجلس ، التقارير السرية الى الهند مسودة الى الحاكم العام ١٨٣٩/٩/٣ (رقم ٤٠٣) انظر ايضا نفس الحلقات مجلد ١٠ مسودة الى الحاكم ١٨٣٩/٧/١١ .
- (٢) نفس المصدر مجلد ١٩ خطاب سرى رقم ٥ فى ١٨٤٠/١/٣١ من هانيل الى ريد ١٨٣٩/١٢/٢٧ (الادارة السرية رقم ١٤٠) ودليل الخليج تأليف لوريمر ص ٨٦١ .

أبلغ عيسى بن طارق بأنه يود أن يستقر هو وأتباعه في جزيرة قيس على الساحل
الفارسي .

وخلال العامين الأولين من إبرام معاهدة الصلح كان للمعاهدة دور
كبير في تحسين الظروف الاقتصادية للمنطقة رغم أن أصحابها لم يدركوا
تلك الحقيقة بسهولة . وعند وصول هانيل إلى المنطقة في شهر إبريل من
عام ١٨٣٧ للتمهيد لتجديد المعاهدة لثمانية شهور أخرى وجد شيوخ القرصنة
أو شيوخ الهدنة كما أصبحوا يعرفون الآن (١) متلهفين لتجديدها ، والواقع
أن الشيخ سلطان بن صقر شيخ القواسم الذي ظل أتباعه يرهبون منطقة
الخليج بأعمالهم ، أصبحوا الآن من أشد المتحمسين لتجديد المعاهدة . وعلى
أثر تجديد المعاهدة لسنة ١٨٣٧ مباشرة أوفد الشيخ سلطان بن صقر مبعوثا
إلى هانيل يقترح أن يقوم هو وزملاؤه الشيوخ الآخرون بعقد اتفاق لإنهاء
الصراعات البحرية بينهم إلى الأبد . وكان غرض سلطان الرئيسى من الاقتراح
هو ضمان سلامة السفن التابعة له والتي كانت تبحر إلى الهند خلال موسم
الرياح الشمالية الشرقية ولا تتمكن من العودة قبل انتهاء صلاحية المعاهدة
في شهر نوفمبر من كل عام . وقد رد هانيل على مبعوث الشيخ بأنه شخصيا
لا يملك الصلاحيات لعقد مثل هذا الاتفاق ، وأنه لا يعتقد بأن حكومته ستكون
على استعداد للقيام بدور الحكم في كل نزاع ينشب بين القبائل الساحلية .

(١) لم يبدأ استعمال هذا التعبير قبل أواخر القرن ، وإن كنا لانستطيع
أن نحدد تاريخ استعماله بالضبط . وحسب معلومات المؤلف أن المقيم
السياسى اللغتينات كولونيل روس هو أول من استخدم هذا اللفظ في
التقرير السنوى للممثلة في الخليج عام ١٨٧٥ - ١٨٧٦ .

- ٦٣٥ -

ولقد كان هائل مصيبا فى تصويره ، قفى شهر نوفمبر عام ١٨٣٧ أكد اوكلاند الحاكم العام بشكل قاطع بأنه لا يرغب فى ان تلتزم حكومته بالتدخل فى كل نزاع ينشب بين هذه الاقطار ، ولكنه يحتفظ بالحق فى التدخل او عدم التدخل حسبما تقتضيه المصلحة .

غير ان سلطان بن صقر لم يئأس فعندما زار هائل منطقة الساحل فى شهر أبريل ١٨٣٨ عاد الى طرح الفكرة عليه . وللمرة الثانية رفض المقيم التزام حكومته بمثل هذه التدابير التى اقترحها . وأضاف بان سبب نجاح معاهدة الصلح يعود الى النص الوارد فيها والذي يكفل للشيوخ الموقعين حرية العودة الى ممارسة صراعاتهم عند نهاية موسم الصيد وان وضع أى حجر على هذا البند سوف يؤدي الى حزازات جديدة بينهم ، فاذا كان حرص الشيخ سلطان يقتصر على سلامة سفن القواسم وضمن عودتها من الهند كل عام ، فيمكن تبديد مخاوفه ، حسب اقتراح هائل بتجديده صلاحية الاتفاقية من ثمانية أشهر الى عام كامل . وقد وافق سلطان على هذا الاقتراح ، وتم حصول موافقة بقية الشيوخ ، وبالتالي فقد تم اعداد اتفاقية سنوية جديدة ووقع عليها يوم ١٨ ابريل ١٨٣٨ ، ومنذ ذلك الوقت كان يتم تجديد المعاهدة سنويا فى ربيع كل عام .

واعتبارا من عام ١٨٣٥ حتى ١٨٤٣ لم يرتكب اهالى المنطقة أى حادث قرصنة يستوجب تدخل السلطات البريطانية فى الخليج . وفى صيف عام ١٨٣٩ نشب القتال فى مصايد اللؤلؤ بين قبائل بنى ياس سكان البوظى وقبائل آل بوفلاسه سكان دبی ، ادى الى توقف العمل فى منطقة المصايد وارسال طراد بريطانى الى المنطقة للتحقيق . وقد عادت أعمال صيد اللؤلؤ بعد توجيه تحذير الى الشيوخ المعنيين وبأن يعملوا على السيطرة على

- ٦٣٦ -

رعاياهم ، وفى ربيع ١٨٤١ استوجب ارسال طراد الى دبی وعليه قوة للعمل على رد ثلاث سفن لأبوظبى ، استولى عليها بعض افراد من قبيلة القبيسات ، وكانت قد انشقت عن قبيلة بنى ياس ولجأت الى دبی ، وقد أدى اطلاق بعض الاميرة النارية فى اتجاه دبی الى ارغام شيخها مكتوم بن بطى الى اعادة السفن الى اصحابها . وكلا الحادثين كان حصيلة عداوة مريرة بين بنى ياس سكان أبوظبى وحكامهم آل بوفلاح وآل بوفلاسه سكان دبی . ولعل اخطر الجرائم التى اقترفت فى مياه الخليج فيما بين عام ١٨٣٥ و ١٨٤٣ هى الاعمال القرصنية التى تمارسها عناصر من خارج المنطقة ، أو التى تقطن على اطرافها البعيدة . وقد انشق فرع القبيسات من قبيلة بنى ياس عن أبوظبى فى عام ١٨٢٣/١٨٣٦ تهربا من دفع حصتهم من التعويضات التى فرضت على القبيلة المذكورة عن تمرد ١٨٣٥ ، ولكى يكونوا فى حل من ممارسة اعمال القرصنة . وقد استقر بهم القرار فى خور العديد على الحافة الشرقية لقطر ، حيث اقاموا مستوطنات لهم تحولت بسرعة الى قاعدة للقرصنة . وحتى يفهم هؤلاء وغيرهم بأن المناطق المنزوية أو الخطيرة على الجنوب الشرقى من قطر لايمكن ان تؤمن لهم حماية من الهجوم عليهم هناك . فقد أرسل هانيل فى عام ١٨٣٦ ثلاث سفن حربية للابحار بالقرب من الساحل الشرقى لقطر . وقد رست السفن فى الدوحة ، والوخرة ، والعديد ، وأخذت تعهدات من شيوخها بانهم سوف يصادرون أى سفينة تقترب عملا من أعمال القرصنة وتلجأ الى مناطقهم ، والا فعليهم أن يدفعوا غرامات عن ذلك .

وفى شهر مايو ١٨٣٧ قام خليفة بن شخبوط بعد استئذان المقيم بهجوم على العديد وقتل خمسين من سكان المستوطنة وتغريم الباقي وتدمير

مساكنهم . وقد فر عدد من القبيسات الى الدوحة ومنها الى دبي . وقد امكن فى النهاية التوفيق بينهم وبين الشيخ خليفة فعادوا الى ابوظبى .

كان جاسم بن جابر اخطر قرصان عرفته المنطقة خلال هذه الفترة ولكن يتخذ من الدوحة وغيرها من القرى الواقعة على الساحل الشرقى لقطر قاعدة لنشاطه . وعلى اثر ارتكاب قاسم بن جابر لأبشع عملية قرصنة ، عبأ المقيم أسطول الخليج كله بقيادة الكومندور بركس على ظهر سفينة القيادة سيسو تريس ، وقد أبحر الأسطول فى شهر فبراير ١٨٤١ الى الدوحة مزودا بتعليمات لفرض تعويض على جاسم بن جابر لضحاياه أو لورثتهم . وقد رفض جاسم فى البداية الامتثال ، ولكنه عاد فغير رأيه بعد أن اندر هانيل سكان قريته باخلائها باطلاق بعض القذائف على حصن القرية .

لقد جرت العادة منذ أواخر العشرينات للقرن التاسع عشر أن يقوم المقيم البريطانى فى الخليج بجولة سنوية على الجانب الغربى للخليج ، وكانت هذه الجولة تتم عادة فى فصل الربيع من كل عام . واعتبارا من عام ١٨٣٦ أصبح الغرض من جولة المقيم فى المنطقة هو العمل أساسا على تجديد اتفاقية الهدنة . وفى الحالات التى تدب فيها الصراعات والخلافات بين المشتركين فى المعاهدة فان المقيم يصطحب معه فى جولته أسطول الخليج . وكان كثيرا ما يطلب منه التدخل فى حل خلافات الشيوخ وأحيانا يضطر الى تدخله اذا احس بأن أمن الخليج يتعرض للخطر ، غير ان تدخله هذا لم يتخذ فى أى وقت من الاوقات مجال الوساطة ، لأن الحكومة البريطانية ظلت ترفض باستمرار حشر نفسها فى موضوع فرض التسويات التى يتم التوصل اليها ، فقد كان شبح الحملة على قبائل بنى بو على لايزال ماثلا

— ٦٣٨ —

امامها من عواقب التورط فى السياسات الداخلية لعرب المنطقة . وكان المقيم يستقبل ضيوفه من حكام المنطقة على ظهر الطراد ، حتى لا يثير احراجا لآى منهم فيما لو زار أحد الحكام ولم يزر الحكام الآخرين . كما كان هناك سبب آخر لهذه الاحتياطات ، وهو العمل على تقليل وقوع حوادث ، قد تؤدى الى تورطه شخصيا وتكون لها نتائج محرجة .

وفى كل الجولات كان المقيم حسب التقاليد يأخذ معه بعض الهدايا لتقديمها للشيخو وكانت أغلب هذه الهدايا تتكون من النقود والسيلان والمسدسات وقماش للعباءات وبعض البارود . كما بذلت جهود لتلبية بعض طلبات الشيخو كالبوصلات والسيوف والمناظير ، كما كان طبيب الطراد يلبى طلبات الشيخو الذين كانوا يبعثون بطلبات لصيدلية الممثلة لحصولهم على عقاقير وأدوية منشطة للجنس، وكان العمل يتطلب ان يقوم احد الطرادات التابعة لاسطول الخليج بجولة فى خلجان اللؤلؤ خلال الموسم . كما كان المفروض أن يتواجد طراد فى مناطق الصيد طوال فترة الموسم ، غير أن الامكانيات لم تكن تسمح بذلك وبسبب كثرة المشتركين فى أعمال الصيد ، والذين قد يصل عددهم الى ٤٠ ألف عامل فى ذروة الموسم كانت المحافظة على النظام فى منطقة الصيد عن طريق تنظيم زيارات دورية للطرادات غير ممكنة ، وفى جولة قام بها بركس فى أحواض الصيد فى شهر اغسطس من عام ١٨٤١ قدر عدد السفن المشتركة بنحو ٢٤٠٠ الى ٢٥٠٠ سفينة تعمل عبر مساحة تمتد من البحرين الى جزيرة سر بنى ياس . ويعمل فيها ما لا يقل عن ٣٧ الفا الى ٣٨ الف رجل (١) وعلى الرغم من انخفاض عدد الحوادث خلال

(١) من مرفقات حكومة بومباى السرية مجلد ٣٦ مرفق للخطاب السرى رقم ٧٩ المؤرخ ١٨٤١/٩/٣٠ من بركس الى هانيل ١٨٤١/٨/٢٥ لقد لاحظ=

هذه المواسم الا انها كانت تقع فى بعض الأحيان ، ويحدث هذا عندما يحاول بعض العمال الهرب من الشيخ الذى يعمل معه الى شيخ آخر من غير أن يرد له السلفة التى كان قد حصل عليها فى بداية الموسم . كما يحدث أيضا عندما ينتهز أحد شيوخ المنطقة فرصة خلو احدى المشيخات من سكانها خلال موسم الصيد فيشن هجوما على تلك المشيخة وقد وقع حادث من هذا النوع فى عام ١٨٤١ عندما اعتدى الشيخ خليفة حاكم ابوظبى على مشيخة دبى ، وقام بنهبها ، وكانت فى ذلك الوقت شبه خالية من السكان . وعلى اثر ذلك طلب حاكم دبى الشيخ مكتوم مساعدة من القواسم فى كل من الشارقة وراس الخيمة ، غير ان الشيخ خليفة رد على هذا الاجراء بشن هجوم آخر على القواسم وقد امتد حتى الشارقة وقد اضطرت اغلبيه سفن القواسم الى ترك المصايد والعودة الى بلادهم للدفاع عنها كما بعث شيخ القواسم فى لنجة ب ١٠٠ من رجاله فى محاولة لمساعدة اخوانه القواسم .

وقبل وقوع هذا الحادث بوقت قصير كانت حكومة الهند قد اقترحت على المقيم البريطانى فى بوشهر وضع صيغة لاتفاقية جديدة بصلاحية لمدة اطول ، وذلك على أساس النجاح الذى حققته اتفاقية عام ١٨٣٥ على ان تكون الاتفاقية الجديدة شبيهة بالاتفاقية التى اقترحها الشيخ سلطان بن

==بركس بالنسبة لهذه المصايد كثرة عدد السفن المشتركة فيها من دبى وعدد قليل من البحرين ، الامر الذى يعود الى الاضطرابات الداخلية فى الجزيرة وهو يذكر بهذه المناسبة ان مجموع ما أرسلته كل من البحرين وقطر من السفن نحو ١٥٤٠ فى عام ١٨٢٦ بينما لم يتجاوز عدد السفن فى عام ١٨٤١ ٥٧٣ سفينة .

صقر فى عام ١٨٣٧ ، غير أن هانيل رأى عدم المضى قدما فى هذا المشروع لنفس الأسباب التى أدت الى وقوع الصدام بين كل من أبوظبى من جهة والشارقة ودبى من جهة أخرى . وكانت القيود التى تضمنتها هذه الاتفاقية البحرية تشكل عبئا على القواسم الذين تعتمد قوتهم العسكرية على امكانياتهم البحرية ، عكس بنى ياس الذين تعتمد قوتهم العسكرية على امكانياتهم العسكرية البرية ، فبمقتضى هذه الاتفاقية يحق لحاكم أبوظبى اعلان الحرب على القواسم الذين يشكلون قوة عسكرية أضعف من قوته ، بينما لا يحق للقواسم الذين يتفوقون عليه فى البحر ان يعتدوا على بنى ياس فى البحر ، وقد استطاع الشيخ خليفة ان يكبح جماح اتباعه خلال العامين أو الثلاثة أعوام الماضية من الانتقام من القواسم عن طريق تذكيرهم بالفرص التى سوف تنهأ لهم فى نهاية صلاحية الاتفاقية السنوية غير انه ما تكاد تنتهى صلاحية الاتفاقية ويجنى الجميع الفوائد الكثيرة من الموسم الوفير حتى يطفى هذا العامل على الحروب القبلية ، الأمر الذى يتيح لهذا الحاكم من تجديد اتفاقية الهدنة عاما آخر ، وكان هانيل يتصور بأن مد أجل الاتفاقية الى فترة اطول قد يحرم القبائل من ذلك الاحساس بالحرية فى شن الحروب البحرية على بعضها البعض متى حان الوقت ، كما قد يتسبب فى حدوث مزيد من الانتهاكات للاتفاقية .

وقد ادركت حكومة بومباى أهمية آراء هانيل حول هذا الموضوع ولم تحاول أن تعطى الموضوع أهمية أكثر . غير ان مجلس الهند كان له رأى آخر ، فقد أبلغ حكومة بومباى فى سبتمبر ١٨٤١ أنه يؤيد مشروع عقد اتفاقية تكون مدة صلاحيتها اطول ، كما ذكر بأنه يتطلع الى اليوم الذى يفكر فيه الشيوخ فى أن تشمل الاتفاقية الصراعات داخل المنطقة وتمثل للوساطة

— ٦٤١ —

البريطانية ، والتي لن ترفضها الحكومة البريطانية لأسباب تتعلق بمصالحها مع عدم التورط فى تدخلات عسكرية ، وعلى أى حال فإن هذا التحول الجذرى عن السياسة السابقة يمكن ارجاعه الى مسلك الشيوخ إبان الحملة المصرية على شرقى الجزيرة العربية خلال عام ١٨٣٩ و ١٨٤١ . كما يرجع بشكل مباشر الى الاهتمام الذى يوليه بالمرستون وهوب هاوس لشئون الخليج ، وعند وصول تعليمات المجلس الى الهند كلف اللفتنانت كولونيل أج . دى . روبرتسون — لأن هانيل قد سافر فى اجازة — بجس النبض لشيوخ المنطقة بالنسبة الى مد صلاحية الاتفاقية . غير أن تحريرات روبرتسون اقنعتة بأن الوقت لم يحن بعد لاجراء كهذا . فلقد كان الشيخ خليفة بن شخبوط الذى كان فى حرب برية مع القواسم فى الشارقة ورأس الخيمة فى شتاء ١٨٤١ — ١٨٤٢ كان لايزال يعاني من فشله فى تلك الحرب ، ولهذا لم يكن فى حالة نفسية تسمح له بالموافقة على مد صلاحية الاتفاقية سواء من حيث الزمان أو المكان .

وقد تولى هانيل هذا الموضوع بعد عودته الى الخليج ١٨٤٢ . ففى شهر مارس من ذلك العام أوفد مساعده اللفتنانت كامبل الى ساحل الهدنة للتأكد مما اذا كان شيوخ المنطقة وعلى الاخص الشيخ خليفة بن شخبوط ، قد غيروا رأيهم بشأن المعاهدة . وقد اكتشف كامبل بأن جميع الشيوخ بما فيهم الشيخ خليفة قد أبدوا رغبتهم فى عقد اتفاقية جديدة تكون مدتها عشر سنوات حسب الاقتراح الذى عرض عليهم . وفى اليوم الاول من يونيه ١٨٤٣ تم توقيع اتفاقية لمدة عشر سنوات بحضور هانيل . وبموجب نصوص هذه الاتفاقية تعهد الشيوخ بمراعاة شروط الهدنة فى الخليج لمدة عشر سنوات من تاريخ توقيعها ، كما تعهدوا بالنظر فى إبرام اتفاق دائم بعد انتهاء صلاحية

(٤١ — بريطانيا والخليج)

— ٦٤٢ —

الاتفاقية أو بمد صلاحيتها ، كما تعهد كل شيخ من الموقعين على تلك الاتفاقية بدفع تعويضات عن أية أضرار تنجم عن أعمال يرتكبها رعاياه فى مياه البحر من أى طرف آخر ميثبترك فى تلك الاتفاقية ، وكذلك الامتناع عن القيام بأعمال انتقامية ضد بعضهم البعض وباحالة أى مخالفة أو اعتداء الى الحكومة البريطانية لتتولى البت فيه باعتبار الحكومة البريطانية الطرف الضامن للاتفاقية . ويمكن للانسان أن يستشعر مدى مساهمة هانيل فى وضع صيغة هذه الاتفاقية من قراءة البند الرابع والآخر من الاتفاقية الذى ينتهى بالقول : « انه فى حالة عدم التوصل الى حل بالنسبة لأى من المشكلات فاننا نتعهد بإعلان موقفنا هذا الى المقيم البريطانى واخطاره بعدم رغبتنا فى تجديد الاتفاقية عند انتهاء صلاحيتها أى فى شهر مايو ١٨٥٣ (١) » .

لم تتضمن الاتفاقية أى اشارة الى الاشتباكات التى تقع فى البحر ، وقد أوضحت الحكومة البريطانية موقفها عند توقيع المعاهدة على انها مرتبطة فيما يتعلق بمنع الاشتباكات فى البحر ، وأما فيما يتعلق بالاشتباكات التى تنشأ بين القبائل على البر ، فان بريطانيا لا علاقة لها بها ولن تتدخل فيها ، كما أنها قد أوضحت للمشاركين فى المعاهدة بأنها لا تعتبر ان الاتفاقية تنطبق على الاعتداءات التى تقع على السفن فى البر أو من الخلجان أو البحيرات أو ضد السفن المسحوبة على الشاطئ ، كما كانت هناك نقطتان أخريان فى

(١) كتاب المعاهدات ص ١٣٤ - ١٣٥ تأليف اتشيسون الموقعون على هذه الاتفاقية هم سلطان بن صقر حاكم الشارقة ورأس الخيمة خليفة بن شخبوط حاكم أبو ظبى ، مكتوم بن بطى حاكم دبى ، عبد العزيز بن راشد حاكم عجمان وعبد الله بن راشد حاكم أم القيوين .

- ٦٤٣ -

حاجة الى ايضاح ، ونعنى بهما نقل الأسلحة بالسفن وحق كل حاكم فى اعادة احد مواطنيه ممن يكون قد هرب ولجأ الى حاكم آخر من حكام المنطقة . أما بالنسبة لنقل الأسلحة بالسفن فقد تم حظر هذا لأنه يبرز للخصم الهجوم على تلك السفن التى تستعمل لهذا الغرض ، الامر الذى يشكل انتهاكا لاتفاقية الهدنة . أما النقطة الأخرى فتتعلق بمشكلة المديونين الذين يتركون دائنيهم من اصحاب السفن تهربا من رد السلف التى يحصلون عليها فى مستهل موسم الصيد . وعلى اى فان التدخل فى الحقوق التقليدية والحد من ممارسة تلك الحقوق سواء عن طريق ارغام المدين على العودة ، أو بمنع حاكمه من اعتقاله فى أحواض الصيد عند نهاية الموسم ، كما يحدث غالبا ، فان ذلك يشكل نوعا من التدخل فى الشؤون الداخلية للمشيكات الامر الذى لم يكن هاتيل يحبذه فى تلك المرحلة من الظروف . لأن ذلك قد يحرم رجال القبائل من ضمانات هامة ضد ملاحقتهم من حكامهم .

ان نجاح نظام الهدنة منذ بداية عام ١٨٣٥ انما يعود الى حد كبير لصبر ودأب ومهارة صمويل هاتيل ، فلقد وفق هذا الرجل فى تحقيق بداية لحل مشكلة تطويق الحروب البحرية فى الخليج ضمن نطاق محدود ، حتى لا تؤدى انعكاسها الى الاضرار بالملاحة البرية فى المنطقة ، وكان عند تطبيق هذا الحل حازما ولبقا فى نفس الوقت . أن الفرق الجوهرى بين اتفاقية الهدنة والمعاهدة العامة لسنة ١٨٢٠ هو ان الأولى كانت تهدف الى منع القرصنة بالقضاء على أسبابها . وذلك بمنع الجروب البحرية ، بينما كان هدف المعاهدة العامة هو القضاء على القرصنة عن طريق فرض العقوبات على ممارستها . وعلى أية جال فان المعاهدة العامة تعتبر مرحلة ضرورية فى عملية فرض الأمن البحرى فى الخليج . وبدون ذلك لم يكن من الممكن للشيوخ

- ٦٤٤ -

الاشتراك فى نظام الهدنة أو الالتزام به فيما بعد ، ويعود نجاح نظام الهدنة الى درجة كبيرة الى فاعلية الرقابة البحرية وفق النظام الذى ادخل عام ١٨٢٠ ، وذلك لاشعار حكام المنطقة بتصميم الحكومة البريطانية على المحافظة على الأمن فى البحار . فعلى حين كان الأمر قبل عام ١٨٣٥ يقضى بارغام الشيوخ على دفع تعويضات عن الاعتداءات التى يقترفها رعاياهم فى البحر ، فان هذا قد أصبح نادر العمل به بعد الاتفاقية . فقد تغيرت نظرة الشيوخ بعد توقيع اتفاقية العشر سنوات لدرجة أنهم أخذوا يفرضون عقوبات على مرتكبى الاعتداءات من رعاياهم حتى قبل أن يعلم المقيم البريطانى بها . بل أنهم ذهبوا الى أبعد من ذلك ، وذلك بمنع اعمال القرصنة قبل وقوعها ، وعلى سبيل المثال عندما قذفت الأمواج بالحدى سفن القواسم سكان لنجة الى عجمان عام ١٨٤٥ بادر حاكمها الى التوجه الى مكان الحادث. صلبة اخوته وسيفه فى يده ، وأقسم هناك بقطع رأس كل من يحاول الاقتراب من السفينة . ولعل الحافز الأكبر لمراعاة الهدنة يأتى من المكاسب الاقتصادية التى تحققت لاهل المنطقة . ومن الأدلة النسبية للأمن الذى حققه نظام الهدنة للمنطقة فى بداية الأربعينات للقرن التاسع عشر هو الانخفاض فى عدد السفن الاوربية التى تراول التجارة فى الخليج . وخلال هذه الفترة على سبيل المثال أصبحت الكويت فى مقدمة الاقطار الناقلة للمنتجات التجارية فى الخليج (١) كما انعكس هذا الاستقرار ايضا على تواجد سفن الأسطول.

(١) من مرفقات الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٥. الخطاب السرى رقم ١٠٤ المؤرخ ١٨٤٢/٩/٢٨ من روبرتسون الى السكرتير الاول لحكومة بومباى ١٨٤٢/٧/٢٣ (رقم ١١٨ الادارة السياسية) وقد انضمت الكويت الى اتفاقية الهدنة مؤقثا فى عام ١٨٤١ ، وقد تم هذا بالصدفة وليس =

- ٦٤٥ -

البريطاني التي انخفض عددها تبعا لذلك في مياه الخليج . والواقع ان حجم الانخفاض لقوة اسطول الخليج كان مسألة مقلقة فقد تعذر تخصيص سفن لاي من الخليج والبحر الأحمر بسبب تزايد الطلب على السفن لنقل الجنود والبريد . فقد كان لدى الاسطول الهندي عام ١٨٤٤ نحو ١٤ سفينة من مختلف الاصناف والاحجام (١) وكان هذا النقص في السفن يعود الى استمرار تواجدها في الخدمة في مياه الخليج والبحر الأحمر لفترات تمتد الى سنتين

= بالقصد ، فعندما زار هانيل الكويت في شهر ابريل ١٨٤١ ، بايعاز من السلطات البريطانية في انجلترا للتأكد عما اذا كانت تصلح لاتخاذها قاعدة فقد حاول اخفاء القصد الحقيقي من مهمته حين قال بأنه قد جاء للبحث في احتمال انضمام الكويت لنظام الهدنة . وقد ذكر الشيخ صباح أكبر أنجال الحاكم الشيخ جابر والذي كانت بيده مقاليد الحكم بسبب عجز والده بأنه في الوقت الذي لا يمانع على التوقيع على اتفاقية الهدنة البحرية الا انه لم يكن يرغب في اقامة علاقات مع شيوخ الساحل . وعلى أى حال فقد سلم تعهدا خطيا منه بالامتناع عن الاشتراك في قتال بحرى لمدة عام ، وبأن يحيل حوادث الانتهاكات ضد سفن رعاياه الى المقيم البريطاني قبل اتخاذ اجراءات انتقامية ضد المعتدين . غير أن هذا التعهد انتهت صلاحيته بعد عام واحد ولم يجدد (انظر أيضا مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباي خطاب سرى ٥٨ المؤرخ ١٧/٧/٤١ . مجلد رقم ٥٨ من هانيل الى ويلوبى ٢٧/٤/١٨٤١ (رقم ٤٢ الادارة السرية) .

(١) من سجلات الخطابات السياسية لحكومة بومباي مجلد ٢٩ من حاكم بومباي الى مجلس ادارة الشركة ٣١/١/١٨٤٤ (رقم ٥ الادارة السياسية) .

- ٦٤٦ -

وثلاث سنوات ، يرافق ذلك تدهور فى حالة السفن وعدم صلاحيتها للخدمة بسبب ضغط العمل عليها . وفى أواخر عام ١٨٤٣ حذر قائد الاسطول الهندى حاكم بومباى بأن هذا النظام فيه ضرر كبير على المصلحة العامة والانضباط فى العمل ، كما أنه ضار بصحة البحارة ومصدر للمتاعب والتدمر وقد أوصى هذا القائد بعدم إبقاء السفن المخصصة للخليج أو الساحل العربى أكثر من اثنى عشر شهرا ، وعند وجود هذه السفن فى أعمالها هذه فلا ينبغى أن يسمح لها بالبقاء فى الموانئ غير الصحية كميناء عدن وبوشهر كما كان الحال فى الماضى ، بل ينبغى أن ترسو بعيدا عن الشاطئ بقدر المستطاع ، بحيث يمكنها القيام بواجبها الذى أرسلت من أجله الى تلك المناطق ، وهو منع حوادث القرصنة وحماية التجارة .

وقد وافق حاكم بومباى على توجيهات المسئول وأوعز الى المقيم البريطانى والمعتمد السياسى فى عدن بتنفيذها ، كما طلب منهما موافاته بخطة لفرض رقابة بحرية على الخليج والبحر الأحمر على أساس سفينتين أو ثلاث لكل من المنطقتين . وقد قدم هانيل خطته فى شهر إبريل ١٨٤٤ ، وصدر الأمر بتنفيذها بحذافيرها . وعلى حين كان هانيل يفضل أن يكون هناك أربعة طرادات لعملية ، بحيث تتواجد ثلاثة منها فى قاعدتها على الدوام ، الا أنه كان يعتقد ان أعمال الدورية فى مياه الخليج يمكن ان تقوم بها ثلاث من السفن بشرط أن تتم الاستعانة بسفينة المثلية فى بوشهر ، وعلى أن يقوم طراد آخر برحلته الى بومباى ، فى بداية شهر يناير من كل عام ، ويعود فى شهر مارس ، كما يتوجه طراد آخر الى الهند ويعود منها فى نهاية شهر يونيو ، على أن تبقى جميع الطرادات الثلاثة فى قواعدها خلال موسم اللؤلؤ اعتبارا من أول يوليو حتى أواخر سبتمبر ، يفصل عنها احد الطرادات فى بداية أكتوبر للتفرغ لأعمال المثلية ، ويعود الى قاعدته فى نهاية

- ٦٤٧ -

ديسمبر . أما السفينة المخصصة للممثلة فيتعين أن تقوم برحلتها الى بومباي على مرحلتين خلال العام الواحد ، اى فى منتصف فبراير وبداية نوفمبر ، على ان تكون جاهزة للاشراف على حراسة خطوط المواصلات خلال شهور الصيف ولسوء الحظ فان سفينة الممثلة تحطمت بالقرب من جزيرة قيس فى شهر مارس عام ١٨٤٥ ، وعندما تقدم هانيل الى المسئولين بطلب لاستبدالها . باخرى رفض طلبه رغم تزكية قائد الاسطول الهندى لطلبه ، وكان السبب فى الرفض ان الظروف لم تكن تسمح بانفاق مبلغ ١٨٨٤٢ روبية ، نظرا لسياسة التقشف الاقتصادى التى كانت حكومة الهند تنتهجها فى ذلك الوقت .

ان ثمة عاملين ساهما فى انجاح نظام الهدنة البحرية وهما رحيل الوهابيين وابعادهم عن المنطقة الشمالية من عمان فيما بين ١٨٣٩ و ١٨٤٥ والاستقرار النسبى الذى تحقق فى داخل عمان خلال هذه الفترة . ان اقضاء الحامية الوهابية من واحة البريمى عام ١٨٣٩ قد وردت الاشارة اليه فى غير هذا المكان فى سياق مذكرات رحلة الكابتن همرتون الى الواحة والى صحار عام ١٨٤٠ . وعلى اى حال فلم يكن همرتون أول أوروبى يصل الى المنطقة الداخلية من عمان . بل الفضل فى ذلك يعود الى اثنين من الضباط البريطانيين . الشبان العاملين فى الاسطول الهندى وهما اللفتنانت جى . ار . ولستد . والفتنانت اف . وايتلك ، اللذان قاما برحلة فى هذه البلاد فى أواخر عام ١٨٣٥ وبداية عام ١٨٣٦ ويقتضى التنويه برحلة هذين الضابطين ، لا من حيث اهميتها فحسب ، وانما من حيث المعلومات التى دونها احدهما ، وهو ولستد ، حول انطباعاته عن تلك الرحلة ، وتعد هذه المعلومات من أهم الخفائق عن وضع عمان قبل قرن من الزمان .

- ٦٤٨ -

غادر ولستد مدينة مسقط في نوفمبر ١٨٣٥ بعد أن اذن له السيد سعيد يارتياد المنطقة الداخلية من عمان . وقد أبحر في البداية الى مدينة صور على الساحل الشرقى . ومن هناك جنوبا عبر المنطقة جعلان الى بلاد بنى بوعلى وبنى بوحسن ، ثم منهما الى رمال وهيبة بمنطقة الجنبه وبعد أن اجتاز بلاد يبنى بوعلى اتجه الى وادى بطما عبر الشمال الغربى ومنها الى بديه حيث لقي القائد الوهابى مطلق المطيزى مصرعه على أيدي الحجرين عام ١٨١٣ ، ومن بديه واصل ولستد رحلته الى وادى بطما فى سمد التى وصلها فى منتصف شهر ديسمبر ، وفى هذه المنطقة التقى بواتيلك الذى قطع المنطقة عبر الممرات قادما من مسقط ، وتوجه الاثنان عن طريق منح وفرق الى نزوى قلب عمان الام ، وقد دهش ولستد كثيرا من منظر المدن والقرى التى زارها وماتسم به من وجاهة التصميم وروعته ، ومن الخصوبة التى تتميز بها هذه البلاد ، ويرجع جمال ووجاهة القرى الى لون بيوتها الرمادى الداكن والى وجودها وسط خمائل النخيل وحدائق الفاكة ، ومن وراء تلك الخضرة ترتفع صفوف التلال العارية الداكنة الألوان ، كما دهش الى حد بعيد من روعة تصميم المدن والقرى العمانية ، ويتحدث ولستد عن نظام الرى فى عمان فيقول :

انها عبارة عن قنوات يتم شقها داخل التربة على عمق ٦ او ٨ اقدام ، وتكون التربة التى تستخرج من حفر القناة على حوافيها . وقد لاحظت أن هذه القرى التى زرتها والقرى الأخرى فى عمان يرجع الفضل فى خصوبتها وأزدهارها الى هذا النظام الذى يطبقه السكان فى رى المزارع ، وهذا النظام يكاد يكون وقفا على عمان وحدها ، وان كانت المهارة والتكاليف التى يتطلبها هذا الاسلوب ذات سمة صينية اكثر منها عربية .

ويسمى نظام الرى هذا بنظام الأفلاج الذى يشبه نظام القنوات الجوفية فى فارس ، والذى يستمد مصادر مياهه من الينابيع القريبة منه . ويتم

- ٦٤٩ -

تنظيف الأفلاج بزج قضبان داخلها لازالة التراكمات . وقد ساهم هذا النظام وخصوبة التربة فى عمان فى زراعة أنواع كثيرة من الفاكهة على نطاق شد انتباه ولستد ، فقد شاهد اشجار اللوز والتين والجوز بأحجام هائلة ، وكانت الثمار على اشجار الليمون والبرتقال كثيفة لدرجة أنها كانت تغطى المزارع ، بالإضافة الى ذلك فهناك اشجار النخيل التى تضى مزيدا من الجمال على المنطقة غير ان لهذه الأوضاع عيوبها ايضا ، فبمجرد أن تخرج من المناطق المقفرة فانك تحس بتغير هائل فى الجو . فالهواء بارد ورطب ، والتربة فى كل مكان مشبعة بالرطوبة وأن المنظر يبدو لك من كثافة الظل معتما وكثيبا ، ولهذه الأسباب فان معظم السكان يشكون من الأمراض الصدرية ، وهم أقل صحة من البدو سكان الصحارى .

وصل ولستد ووايتلك مدينة نزوى يوم ٢٢ ديسمبر ، وهذه المدينة باعتبارها العاصمة القديمة لعمان ، تتميز بقلعتها الهائلة والتى يعتقد اهل البلاد انها قلعة حصينة لا يمكن اقتحامها أو احتلالها لمناعتها . وقطر القلعة حسب تقدير ولستد حوالى ٣٠٠ قدم وارتفاعها ١٥٠ قدما .

» والى ارتفاع نحو ٩٠ قدما ملئت بكتل من الاتربة والاحجار ، وحفر نحو ٧ أو ٨ آبار خلال هذا البناء ، تقوم بتزويد القلعة بما يكفيها من الماء . أما الآبار الجافة فتتخذ كمخزن للدخيرة والبارود ويحيط بالقلعة سور يبلغ ارتفاعه اربعين قدما وهو سور حصين قد لا تؤثر فيه القذائف والمدافع ، وهو عال جدا بحيث يتعذر التصويب عليه حتى ولو أصيب الحائط . وفى تصورى بأن الطريقة الجيدة للاستيلاء على القلعة هي ، اما بمحاصرتها ، أو بث الألغام حولها .

- ٦٥٠ -

وترجع أهمية مدينة نزوى من بعض الوجوه الى كونها المدينة الوحيدة التى كان السلطان يحصل على الضرائب منها ، ولكن هذه الضرائب حسب ملاحظة ولستد ضرائب محدودة اذ لا تزيد على الف ريال كل عام .

خلف نزوى مرتفعات الجبل الأخضر ، وقد استمد اسمه هذا من الأودية الخصبة التى تجرى خلال قممه الجيرية . ولما كان الضابطان مصممين على التوغل الى ما وراء الضباب الكثيف الذى كان يحجب منطقة الجبل الأخضر . فقد غادرا نزوى يوم ٢٦ ديسمبر عبر الطريق الجبلى الذى يؤدى الى تنوف . وعلى امتداد مائة عام من ذلك التاريخ لم يقدر لى اوروبى أن يرى ويشاهد ما رآه كل من ولستد وواتيك فى هذه البلاد . وفى يوم ٢٨ ديسمبر وصل الرجلان وادى وقرية سيت ، وهى قرية اكثر جمالا ورومانتيكية لدرجة يتعذر تصورها وعلى امتداد المنحدرات والسفوح الجبلية كانت ترتفع المنازل التى بنيت من الحجر الأبيض ، واحدا فوق الآخر ، وكانت تبدو لمن يشاهدها من السفح وكأنها معلقة فى الفضاء . وكانت منطقة الوادى زاخرة بمزارع الفاكهة والثمار : الرمان والبرتقال بأنواعه ، واللوز ، والصمغ والجوز بالإضافة الى أشجار البن ومزارع العنب . ويقع خلف سيت واد آخر يسمى وادى الشجيرة ولا يقل جمالا عن بلاد سيت ، ويضم مالا يقل عن مائتى منزل تقع كلها على طرف الوادى (١) .

(١) لم يصل اوشير الوى الى منطقة الشريحة أطلاقا التى يقول انه شاهدها من السفح الأخر الذى يشير الشك فى كونه وصل الى قمة الجبل الأخضر . وارتفاع الجبل حسب تقديره من ٨٠٠ الى ٩٠٠ تويسن أى ١٢٠٠ الى ٧٦٠ قدم . كتاب وصف لرحلة فصل ٢ ص ٥٦٣/٥٦٤ .

وقد قضى الضابطان ثلاثة أيام يتجولان عبر هذه الأودية والمنحدرات وأكثر ما أثار إعجابهما ودهشتهما هو انتشار مزارع العنب التي تمتد صفوفها على ضفاف الأودية لعدة أميال تغطي المنحدرات وتلتف حول الأودية . ويزرع فى الجبل الأخضر العنب بنوعيه الأسود والأبيض ، ويتم تجفيف العنب الأسود أما الأبيض فتصنع منه الخمور . وبنو ريام هم سادة الجبل الأخضر ويبلغ تعدادهم نحو ١٠٠٠ نسمة ولم يسبق ان خضعوا لى سلطة ، وهم نادرا ما يفادرون مناطق سكناهم الا للأسباب التجارية التي لا تتعدى منطقة السفوح أثناء تنقلاتهم . وبقية قبائل عمان تعتبر سكان الجبل عصبى الطباع وكسالى ومنحلي أخلاقيا ، ولعل عيبهم الأكبر كما لاحظ ولستد هو البخل والتحفظ فى الضيافة اما أكبر نقطة ضعف فيهم، فهي انهم مدمنو خمر : -

« على الرغم من أن سكان الجبل الأخضر اقوياء ورياضى الأجسام اذا قارناهم بسكان السهل الا أنهم لا يتمتعون بالجسم الصحى السليم الذى يميز الجليين عادة ، فهم على العكس لهم وجوه متغضنة وشاحبة ، وكانهم يعانون من الشيخوخة المبكرة . واعتقد أن يكون السبب فى ذلك هو الخمر الحادة التى يتناولونها ويستقظرونها بأنفسهم بكميات كبيرة من الكروم ويتناولونها عيانا فى خلال وجباتهم اليومية وهم يتحججون بمعاقرة الخمر ببرودة الجو عندهم (١) .

ونساء الجبل الأخضر على العكس من رجاله ويقول ولستد انهن على جانب كبير من الحسن والجاذبية ، ويبدو أن الحركة المستمرة التى تقوم بها النساء فى الهواء الطلق تكسبهن رشاقة وخفة فى الحركة بالإضافة الى

(١) رحلات ولستد فضل ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ :

صحة ابدانهم ونقاء بشرتهم التى لا توجد الا فى نساء السهل ، وهذه الخصائص يضاف اليها تقاطيع نساء الجبل التى لا تقل جمالا ، وقاماتهم الطويلة تميزهن عن الرجال (١) .

وقد قرر كل من الرحالتين ولستد وواتيلك وهما عائدان الى نزوى أن يمررا بالمنطقة الساحلية وإن يواصلوا رحلتهم عبر ساحل الباطنة الى السوق ، قبل أن يعودا الى المنطقة الداخلية مرة اخرى . وقد وصلا السيب عن طريق وادى سمايل يوم ٣٠ يناير ، ثم السوق بعد أسبوع من ذلك ، وقد حلا هناك ضيفين على السيد هلال نجل السلطان ونائبه السابق ، وبقيا هناك حتى الأسبوع الأول من مارس ثم غادراها بعدئذ الى منطقة الحجر على أمل الوصول الى واحه البريمى ، ومنها يواصلان سفرهما اذا سمحت الظروف الى نجد ، وفى اليوم السابع من مارس قطعوا الجزء الداخلى من الحجر ، وبعد عدة أيام وصلا عبرى ، حيث تلتقى سفوح الحجر بمرتفعات الظاهرة ، وقد استقبلهم شيخ البلدة بطريقة غير ودية ، ولم يتغير أسلوبه معهم حتى بعد أن أبرزوا له التصريح الذى يحملانه من السلطان ويقول ولستد ، بأن شيوخ عمان بصفه عامة شخصيات مهذبة ويتحلون بقدر من المجاملة والسلوك الودى ، الا ذلك الشيخ فقد كانت لهجته وسلوكه فى غاية الفظاظة ، وكان اشبه بالحيوان الدميم منه بالانسان ، وكان أقرب الى أن يكون سفاحا منه شيخا . كانت عبرى ولا تزال حتى هذا الوقت مشهورة بعنف سكانها وقسوة طباعهم . ويذكر جيران عبرى ، انه يستحيل على أى شخص أن يدخل بلدتهم ما لم يكن مسلحا

- ٦٥٣ -

تسليحا كاملا ، أو أن يكون شحاذا تحيط الاسمال بخصره وليس شخصا عاديا مهذبا .

قضى الضابطان تلك الليلة فى خيمة خارج البلدة . وقد بعث الشيخ اليهما يطلب منهما سرعة مغادرة المكان نظرا لأن البلدة مليئة بالوهابيين المسلحين الذين لا يقل عددهم عن ألفين . ورغم ذلك فقد طلبهما وقال أن البلدة غير آمنة ، وفى هذه الأثناء كان خبر وجودهما قد انتشر ، وأخذ المئات من رجال القبائل يقتربون من مخيمهما . وكان هؤلاء المتجمعون صفار القامة ويلبسون رداء واحدا حول خصورهم وكانوا سمر البشرة ولهم شعور طويلة وقد شعر ولستد وزميله بأنه من الحماقه اطالة البقاء ، ولذلك فقد طويا خيمتهما سرا وركبا بعيرهما . وقد أخذ المتجمعون من السكان يصفرون ويقذفونهما بالحجارة . وقد علم الضابطان بعد أسبوعين بأن الوهابيين كانوا يقومون بغارة على عمان وانهما وصلا الى مسقط بقيادة سعد بن مطلق المطيرى نائب الامير .

وكان قد عين سعد بن مطلق المطيرى حاكما على البريمى فى أواخر عام ١٨٣٥ . وعندما التقى به ولستد وواتيلك فى عبرى كان سعد فى طريقه ومعه ٣٠٠٠ قبلى لشن هجوم على الحجرين فى بداية ، والانتقام لمقتل والده الذى شهده وهو صبى قبل ٢٢ عاما . وقد علم ولستد بنتيجة تلك الغارة فيما بعد وهى كما يلى : « ما ان علمت القبيلة التى كان مطلق ينوى ابادتها قبل ساعتين من وصوله حتى عبأت نحو ٨٠٠ رجل من الموجودين فى ذلك الوقت للتصدى لقوات سعد بن مطلق . وكان جميع هؤلاء مسلحين تسليحا جيدا . كما أن تهديدات الشيخ سعد بعدم التراجع عما كان ينويه جعلهم يبذلون أقصى ما فى وسعهم لتحطيم هجومه . وعلى الرغم من عدم التكافؤ فى عدد المقاتلين فقد قام العمانيون بمفاجأة الوهابيين بشن هجوم

— ٦٥٤ —

عنيف عليهم وأرغموهم على الإنسحاب من ميدان المعركة ، وبعد إبادة أعداد غفيرة من الوهابيين ، أرغموا البقية على الفرار . وقد تمكن مطلق الذى أصيب بجنون من نتيجة الهجوم من الافلات بفضل بعض الموالين له من رجاله ، ولولا ذلك للقى نفس المصير الذى لقيه والده من قبل .

بعد ثلاثة أعوام من هذه الواقعة كان سعد بن مطلق خلالها قد أثار عدا كل قبائل الظاهرة بشراسته وغطرسته ، وانتهاز شيوخ البريمي فرصة غياب نائب الأمير عن الواحة فقاموا بطرد الحامية وأخرجهم نهائيا من عمان .

خلال العقد التالى من انشاء نظام الهدنة فى الخليج تعرض هذا النظام ليكون موضع الاختبار ، نتيجة للصراعات المسلحة التى انفجرت بين القواسم وبنى ياس خلال فترة اتفاقية الهدنة ، وتغلغل الوهابيين الى جنوب شرقى الجزيرة . ومن الغريب أن تلك الصراعات لم تترك لها مضاعفات فى البحر . وكما حدث خلال الفترة الواقعة بين ١٨٣٥ - ١٨٤٣ كانت الاضطرابات تقع نتيجة للخلافات التى نشبت بين الدول غير المشتركة فى اتفاقية الهدنة وعلى الأخص كنتيجة للصراع الذى نشب للإستيلاء على البحرين . ومن الميسور تقديم بعض البيانات عن تلك الصراعات قبل الدخول فى تفاصيل ما حدث فى مشيخات الهدنة وعمان بعد ١٨٤٣ والاتجاه الذى سارت فيه الأحداث التى انتهت الى انشاء نظام الهدنة فى الخليج .

وكانت الصعوبات ترجع الى عدم الرقابة الفعالة من جانب الاسطول بسبب قلة الصلاحيات التى يمارسها الاسطول الهندى فى مراقبة ساحل الخليج . فبعد جملة عام ١٨١٩ / ١٨٢٠ ولبضع سنوات كانت وحدة أسطول الخليج هى التى تتولى الرقابة على السواحل الفارسية ، وعلى الأخص تلك السواحل الموبوءة ، وكان هذا يتم بموافقة ضمنية من

السلطات الفارسية . وقد صرف النظر عن هذه العمليات في أعقاب وفاة فتح على شاه سنة ١٨٣٤ ، الأمر الذي يعود بشكل خاطئ الى تدهور العلاقات البريطانية مع فارس بعد تولي محمد شاه الحكم في فارس وقد ثبت من التجربة ان السلطات الفارسية في اقليم فارس لا تقوى بشكل فعال على السيطرة على قبائل فارس الساحلية . وبعد انتهاكات عديدة من قبل هذه الموانئ خلال عام ١٨٣٩ ، اقترح هانيل على حكومته في شبهر سبتمبر من ذلك العام أن تقوم بريطانيا بممارسة مسؤولياتها في مراقبة المنطقة على أساس الأمر الواقع . ولما أعيدت العلاقات الدبلوماسية التي كانت مجمدة في ذلك الوقت بسبب مشكلة الحيرة ، فقد كان هناك احتمال أن توافق حكومة فارس على قيام بريطانيا بهذا الدور .

والخطر الذي نشأ بنوع خاص عند افتقاد مثل تلك الرقابة للساحل الفارسي هو المضاعفات المعاكسة لذلك الوضع على عملية الهدنة على الساحل الغربي . فالدول التي لم تكن من ضمن المشتركين في الهدنة كانت حرة في القيام بالهجوم على مشيخات الساحل ، كما أن دول المنطقة لم يكن هناك شيء يمنعها بموجب المعاهدة من الاقتتال في البحر كيفما شاءت . وعلى أي حال فقد كان هناك الحظر الدولي الفاصل الذي يمنع تلك الاقطار من مد أمد الحرب الى الساحل الفارسي . ون واقعة الصدام بين بنى ياس والقواسم في صيف ١٨٤١ ، عندما عبر قواسم لنجة الخليج لمساعدة أخوانهم ، فكشف عن هذا الحظر بشكل واضح . وكتيجة لهذا فقد تبنت حكومة بومباي مقترحات هانيل التي عرضها في شهر أكتوبر عام ١٨٤١ واقترحت على السلطات المسؤولة في إنجلترا وجوب اتخاذ الترتيبات اللازمة للاتفاق مع حكومة فارس لمنع وقوع مثل هذه الحوادث وكان اقتراح هانيل هذا قد أحيل بالفعل الى وزارة الخارجية في شهر يناير ١٨٤٠ للدراسة ، ولكن بالمستون

لم يؤيده ، ليس بحجة أن الشاه سيعارضه فحسب ، وإنما لأنه قد يصبح مبررا للروس لمطالبة الحكومة الفارسية بامتيازات مماثلة في منطقة بحر قزوين . وكان رأى بالمرستون « بأن على حكومة بومباى أن تكتفى » باتخاذ تلك الاجراءات التى يسمح بها قانون الأمم لقمع أعمال القرصنة فى تلك المناطق غير الخاضعة للسلطة الفارسية وقد ارسل نفس الرد على اقتراح حكومة بومباى الذى تقدمت به فى شهر نوفمبر ١٨٤١ ولم تبحث الموضوع مرة أخرى قبل سنة ١٨٤٦ ، عندما طلب حاكم فارس بنفسه من المقيم مساعدة بريطانيا له فى مكافحة القرصنة على سواحل فارس .

فى شهر مارس من عام ١٨٤٥ تحطمت السفينة البريطانية اميلى بالقرب من جزيرة قيس ، وقد قام السكان بنهب محتوياتها . وقد قدم الوزير البريطانى فى طهران طلبا الى الحكومة الفارسية بالتعويض ، ولكن لم يكن ثمة أمل فى نجاح الطلب ، اذ أن طلبات سابقة من هذا النوع لم تسفر عن نتيجة ، لاسيما وأن حكومة فارس كان ينقصها الوسائل البحرية اللازمة لمراقبة شواطئها . وبالنسبة لهذا الحادث بالذات فقد تعهد حسين خان حاكم الاقليم بالعمل ، وبالتالي ففى شهر ابريل ١٨٤٦ طلب الى هانيل ارسال طراد الى جزيرة قيس ليطلب من حاكمها رد السلع التى استولى عليها سكان الجزيرة أو دفع تعويض عنها . وقد امتثل هانيل لطلب الحاكم وتم الحصول على التعويض فى الشهر التالى . ولكن حسين خان عاد فقدم طلبا آخر الى هانيل أكثر خطورة . فلقد جرت العادة منذ مدة أن يقوم بإرسال لطلبات الخاصة بالمخالفات للقوانين البحرية الى الوزير البريطانى المفوض فى طهران لارسالها الى حكومة فارس . وقد نتج عن ذلك خروج سيل من المراسيم من طهران الى شيراز ، الأمر الذى كان حسين لا يعارضه فحسب بل كان يخشاه ، لأن فيه تحديدا لسلطاته فى فارس . ولكى يتجنب

هذا الاحراج ، اقترح الأمير على هانيل فى شهر يوليو ١٨٤٦ بأن يرأسه مباشرة حول أى حادث من حوادث القرصنة يرتكب ضد السفن أو الرعايا التابعين للحكومة البريطانية من جانب القبائل الساحلية لفارس . وفضلا عن ذلك فقد أبدى رغبته فى السماح للمقيم باستخدام طرادات أسطول الخليج لأرغام القبائل اذا اقتضى الامر ، وأن تساعد عموماً فى أعمال مكافحة القرصنة وفمعهما . والشرط الوحيد الذى وضعه حسين خان ، هو أن يرافق كل طراد واحد من ضباط الجيش الفارسى فى أى حملة تأديبية يتقرر القيام بها لهذا الغرض ، وقد بعث هانيل بتقرير حول هذا الموضوع الى حكومة بومباى جاء فيه : لقد حققنا مرحلة هامة بعد أن أصبحت عملية المراقبة فى أيدينا ، فاذا أحسنا خطواتنا فى الاستفادة من السلطة التى حصلنا عليها بموجب ذلك ، فان الأمل يراودنى بقوة فى أن أعمال السلب والنهب وانتهاك القانون التى سادت تلك المنطقة قد يتم القضاء عليها بصورة فعالة بحيث يستتب الأمن فى المستقبل . ولقد صحت تنبؤات هانيل . وتم العمل بموجب التدابير التى تمت مع حاكم فارس للمرة الأولى فى شهر نوفمبر ١٤٨٦ ، عندما قام اثنان من الطرادات بزيارة الى اسيلو ، وشيرو ، ونخيلو لأرغام شيوخ تلك الموانئ على تسليم السلع التى استولوا عليها من الرعايا البريطانيين . ومنذ ذلك التاريخ أخذت أعمال القرصنة فى المياه الفارسية تتضاءل عاما بعد عام ، مما أسهم فى التقليل من الحاجة الى استخدام القوة تبعا لذلك . غير أن هذا الاتفاق لم يوثق رسميا من جانب حكومة الشاه ، كما أن الحكومة البريطانية لم تجد من المناسب مطالبة حكومة فارس بذلك ، فالتفويض الضمنى الذى اعطى للأسطول البريطانى بفرض رقابة على المياه الاقليمية الفارسية كان يعنى اعترافا بالضعف وهو الشيء الذى يعارضه الشاه فى قرارة نفسه .

ان النجاح الذى تحقق فى مجال مكافحة القرصنة على السواحل
 الفارسية قد شجع هانيل على أن يستشير المقيم والقنصل البريطانى فى
 بغداد هنرى رولنسون فى أواخر سنة ١٨٤٦ فى اتخاذ اجراءات مشابهة
 لحل مشكلة القرصنة فى المياه التركية بعد أن تأكد بأن القراصنة العرب
 والفرس يفلتون من الاعتقال عن طريق اللجوء الى المياه التركية علاوة على
 أن غيرهم من القراصنة يمارسون هذه الأعمال فى المياه التركية نفسها
 وعلى الأخص فى مياه شط العرب ، دون أن تستطيع السلطات التركية
 معاقبتهم . وطالب بمحاولة اقناع والى بغداد نجيب باشا بتحويل الأسطول
 البريطانى سلطة القبض على القراصنة العرب والفرس فى المياه التركية عن
 أعمال اقترفوها فى مناطق أخرى واعتقال نفس القراصنة على أعمال
 اقترفوها فى المياه التركية . ولسوء الحظ رأى رولنسون فى طلب هانيل
 اليه تطورا خطيرا ، وعلى حين تظاهر باعتبار اقتراح هانيل غير سليم ، فقد
 بعث بتقرير مطول الى وزارة الخارجية البريطانية اشار فيه الى الصلاحيات
 الواسعة التى أصبح هانيل يتمتع بها بالنسبة للسيادة البحرية والتى تخوله
 الحق فى معاقبة القراصنة عن الأعمال التى يقترفونها ضمن الخط الفاصل
 أى الى الشرق من حدود الخط الملاحى الدولى . وفى رأى رولنسون أن
 هانيل كان يتصور بأن شط العرب يدخل ضمن هذا الخط ، وبالتالى فانه
 يتصور بأنه من حقه اعتقال أى مواطن عربى أو فارسى يقترف أعمال القرصنة
 فى المياه التركية . غير أن هذا الافتراض كانت ترفضه السلطات الفارسية
 لانه يهدف الى تجريدتها من حقوق سيادتها على مياه شط العرب . وفى
 مناقشة خاصة مع نجيب باشا اكتشف رولنسون أن الوالى يعارض بشدة
 المقولة البريطانية فى تحويل الأسطول البريطانى القبض على القراصنة فى
 المياه التركية ، وهو لا يعارض هذا فحسب وانما يعارض أيضا معاقبة رعايا

الدول الأجنبية الذين يقتربون أعمال القرصنة في المياه التركية . وكان رولنسون يؤيد هذا الرأي . أولا لأنه موقف ينسجم مع القانون الدولي ، وثانيا لأن أى تساهل من جانب الباب العالي في هذا الشأن سوف يخلق سابقة مؤسفة قد تشجع للدول الأوروبية الأخرى الى استغلالها لانتهاك حياد الملاحة التركية وموانئها (١) .

وقد اثير بالمرستون هذه الآراء وأبلغ حكومة الهند عن طريق مجلس الهند في إنجلترا في شهر مارس ١٨٤٧ بعد الاحقية للأسطول لبريطاني في القبض على القراصنة في المياه التركية أو حجزهم في المياه الدولية عن جرائم اقترفوها في المياه التركية . وقد كان هذا القرار مفاجأة بعد أن كان الباب العالي قد وافق قبل بضعة أسابيع على حظر استيراد العبيد بطريق البحر الى العراق التركي وأنه قد خول الأسطول البريطاني حق تفتيش أى سفينة تخالف هذا الحظر وقد علق هانييل باستياء بعد علمه بقرار وزير الخارجية هذا بقوله :

اننى اعترف وأنا أرى سياستنا المتقلبة في الخليج الفارسي على امتداد العشرين عاما الماضية ، اننى كنت تحت انطباع خاطيء ، اننا اذا ما ادخلنا في الاعتبار انتهاك احد الزعماء العرب لآى معاهدة تربطنا به ، حتى ولو تم هذا الانتهاك ضمن حدود سيادة دولة أجنبية ، فاننا اذا اعتبرناه مسئولا عن ذلك الجرم ، ففي هذه الحالة لا نكون مخالفين للقانون الدولي . وفي الوقت نفسه اذا اعترفنا بالتصور الخاطيء الذى كنا نعمل على أساسه حتى الآن ،

(١) مفاوضات المجلس - من التقارير البحرية الى الهند مجلد ١٩ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٧/٣/١١ (رقم ١٢٦٠) ومرفق به خطاب رولنسون الى بالمرستون ١٨٤٦/١٢/٢٨ .

ماننى أرى أن التطبيق الحرفى لمبادئ هذا القانون كما هو مطبق بين الشعوب الأوروبية على القبائل المتحضرة والمتحاربة التى تقطن سواحل الخليج الفارسى قد يودى الى نتائج فى غاية الخطورة بالنسبة لعلاقتنا مع تلك القبائل (١).

ولقد تساءل هانيل عن الخطوات الواجب اتباعها لو وقع انتهاك لاتفاقية الهدنة بين دولتين مشتركيتين فيها ؟

فلو قيل فى هذه الحالة للطرف المتضرر ، عندما يتقدم بطلب التعويض ، بوجوب الاتجاه الى السلطات التركية ، « فان مثل هذا الرد لن يصدق » وكما ذكر هانيل فاننا لا نستطيع أن نقدم تفسيراً مقنعاً لانسحابنا من نظام الرقابة فى المياه الدولية مما يؤدى الى ازالة الانطباع من أننا قد اضطررنا الى اجراء هذا التغيير فى مسئوليتنا بسبب ما أصاب نفوذنا وسلطتنا من ضعف . غير أن أقواله وحججه لقيت أذناً صماء . فقد شكّا شيل الوزير المفوض فى طهران والذي كان متخوفاً من أن يعلم الروس عن تلك الامتيازات التى اعطاها الحاكم العام فى فارس سنة ١٨٤٦ للبريطانيين فيتخذها مبرراً للحصول على امتيازات مماثلة فى منطقة بحر قزوين ، وكان يجب على هانيل أن يستشير رولنسون قبل ارسال اقتراحه اليه ، كما أن رولنسون فى نظر شيل قد عقد الأمور أكثر ، وذلك بمناقشة الموضوع مع والى بغداد ، بل وأكثر من ذلك باحالة الموضوع الى السفير البريطانى فى القسطنطينية حيث تكشفت المسألة للرأى العام وعلى العكس من شيل ورولنسون فقد أيدت حكومة بومباى هانيل تأييداً تاماً . وأبدت أسفها على الطريقة العشوائية التى عالج بها رولنسون هذا الموضوع .

(١) مرفق لسجل الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٨٨ مرفق للخطاب السرى رقم ٥٦ المؤرخ ١٨٤٧/٦/١٦ من هانيل الى ماليت ١٨٤٧/٥/٢٢ (١٩٤ الادارة السرية) .

وفى شهر أغسطس ١٨٤٧ وضع بالمرستون نهائية لهذه المشكلة ،
عندما أيد آراء رولنسون ووينغ هانيل على تصوراته العقيمة لسياسة قمع
القرصنة فى الخليج بحجة أن سفن الاسطول البريطانى لم يكن فى مقدورها
ملاحقة القراصنة الى المياه التركية . وقال فى هذا الصدد « انه يبدو
أن الماجور هانيل قد كون افتراضات مبهمة تقوم على أسس ضيقة جدا »
وسيكون من الأوفق أن تترك الأمور كما هى حتى تتوفر الظروف الملائمة
للحصول على التصريح الذى يطلب به هانيل » وختم بالمرستون رسالته قائلا
« ولعله من الخطورة بمكان مناقشة الموضوع الا اذا دعت الضرورة ، اذ أن
الاتصال بالحكومة التركية للحصول على مثل هذا التصريح ، قد تفسره بأنها
نملك حق الرفض ، وهو الشئ الذى قد لا يفتنون اليه الآن .

لم يطلب الى البحرين الاشتراك فى اتفاقية العشر سنوات وذلك
للأسباب نفسها التى دعت الى استثنائها من المعاهدة السنوية : وهى عدم
استقرار الأوضاع فى البحرين وتوابعها والتهديدات التى كانت تتعرض
لها من القوى الخارجية ، والتى جعلت من المحقق ، أن المياه القريبة من
البحرين قد تصبح مرتعا لحروب مستمرة ، كما أن مطالبة زعماء البحرين
بالامتناع عن الدخول فى حروب بحرية ، يعنى مطالبتهم بالتخلى عن مبدأ
أساسى من مبادئ الدفاع عن أنفسهم ، بالإضافة الى ما سيؤدى اليه ذلك
من توريط بريطانيا بغير أسانيد قانونية فى خلافات ونزاعات تافهة . وعلى
أى حال فقد كان هناك أمر أكثر خطورة ، لأن اتفاقية الهدنة تتضمن التزام
بريطانيا بالدفاع عن الأطراف المشتركة فى الاتفاقية ضد أى هجوم عليهم من
الدول الخارجية . أما فيما يتعلق بالمشيخات الساحلية فان هذا الالتزام
هو تطور منطقى للسياسة التى كانت متبعة فى الثلاثينات من القرن التاسع
عشر ، وكان هدفها الحيلولة دون تعرض استقلال تلك الدويلات وسلطنة
عمان للانتهاك من جانب الوهابيين أو غيرهم من الدول ، بحيث يتعرض الأمن

البحري للخطر عن طريق اعاقة هؤلاء الشيوخ من ممارسة التزاماتهم بموجب معاهدة ١٨٢٠ بشكل فعال من ناحية ، ووقوع مسقط وموانئها وسفنها تحت سيطرة الوهابيين لاستخدامها في أعمال القرصنة . وهكذا فقد تدخلت الحكومة البريطانية في عمان خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لمنع خضوع سلطان مسقط لسيطرة الامير الوهابي أو سقوط حكمه عن طريق العناصر المنافسة والمناوئة له في داخلية البلاد . ثم تدخلت بعد ذلك ببضع سنوات لمنع تغفل النفوذ الوهابي على السواحل العربية مما كان سيؤدي الى تعكير صفو الأمن في مياه الخليج .

وفي الوقت الذي تم فيه إبرام معاهدة هذه السنوات العشر ، أصبحت السياسة المتفق عليها ، ان لم تكن السياسة للحكومة البريطانية ، هي ضمان استقلال مشيخات ساحل الهدنة وسلطنة عمان ضد خصومهم في شبه الجزيرة ، وذلك لمصلحة الاستقرار في منطقة الخليج ، غير أن ذلك كن على الدوام يتم على أساس الاعتماد على قوة الأسطول والضغط السياسي أو على كليهما ، ولم يتطلب التدخل بقوات عسكرية على أراضي المنطقة . اما الذي لم يكن مقبولا في عام ١٨٤٣ ثم أصبح حقيقة لا مفر منها في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر ، أن نظام الهدنة قد جعل أمر الدفاع عن استقلال المشيخات التزاما على بريطانيا وليس مجرد ضرورة .

وكان هذا يعني اشراك البحرين في ذلك النظام وتحل مسؤولية الدفاع عنها ضد أعدائها الكثيرين . وعلى الرغم من أن السيد سعيد سلطان مسقط لم يعد مهتما بالاستيلاء على البحرين ، فان البحرين كانت معرضة لحركات تمرد وعصيان من جانب قبائل آل بني علي وآل بوعينين بزعامة عيسى بن طارق ، ومن جانب الفرس الذين كانوا يدعون السيادة عليها ، ومن جانب

- ٦٦٣ -

ذوى الميول التوسعية لحركة الوهابيين فى نجد ، وأخيرا وان لم يكن بدرجة أقل من جانب القطاعات المتدمرة من أسرة آل خليفة . ومع ذلك فان حكومة بريطانيا قد اتخذت أول خطواتها فى مسئولية حماية البحرين سنة ١٨٣٩ ، عندما حاولت فى تلك الفترة منع المصريين من فرض سيطرتهم عليها . كما اضطرت الحكومة البريطانية الى اتخاذ سلسلة اجراءات من هذا القبيل للتدخل فى شئون البحرين ابتداء من عام ١٨٤٣ بسبب الازمات التى تعاقبت على الجزيرة .

وقد اتجه حكم عبد الله بن أحمد فى البحرين الى الاستبداد فى عام ١٨٤٢ لدرجة أن تشكل حلف من العناصر التى تعرضت للاضطهاد على يديه وأعلنت نيتها فى اقصائه عن السلطة . وكان الحلف مشكلا من محمد بن خليفة أكبر أبناء أخيه ونجل شريكه السابق فى الحكم خليفة بن سلمان وعيسى ابن طارق وبشير بن رحمة ابن القرصان الخليجى المشهور رحمة بن جابر . وكان يساند هؤلاء الأمير الوهابى عبد الله بن نوينى الذى كان يناصر عبد الله العداء بسبب حصاره للقطيف والاحساء . وفى أواخر عام ١٨٤٢ طلب كل من عيسى بن طارق وبشير بن أحمد من هانيل السماح لهما بالانطلاق من جزيرة قيس حيث كانت تتجمع قبائل آل بنى على وآل بوعينين لشن حرب ضد عبد الله بن أحمد . وقد سمح لهما المقيم بشرط حصر عملياتهم الى الغرب من الخط الدولى . وقد احتج عبد الله الى هانيل على اجرائه هذا قائلا بأنه سوف يستعين بالأمير الوهابى اذا لم يضع هانيل خصومه عند حدهم ، غير أن هانيل لم يكثرث لاحتجاج عبد الله . فمئذ تواطؤ عبد الله مع المصريين عام ١٩٣٩ كانت حكومة الهند البريطانية تقف موقفا سلبيا منه ، ولم تكن تشعر بأى ندم على اسقاط حكمه . وفى شهر مارس ١٨٤٣ شن هذا الثلاثى هجومه على جزيرة البحرين . وخلال شهر أرغموا عبد الله على الاستسلام

وقد أقصى من الجزيرة بعد أن اصطحب معه سفينتين من سفنه .

وخلال الأعوام الستة التى أعقبت ذلك ظل عبد الله يتنقل فى مناطق الخليج حتى مرض . وقد رفض عرض أبناء عمومته الكويتيين لايوائه عندهم ، وفضل عبد الله بن أحمد التحالف مع بعض العناصر المشبوهة التى كانت تتخذ منه مقلب قط فى تحقيق أغراضها . وكانت تروق ضميره باستمرار تصرفاته القديمة ، كما أعلن فيصل بن تركى الذى استعاد إمارة الوهابيين عام ١٨٣٤ بأن عبد الله عدوه اللدود لا بسبب توطئه فى عملية اغتيال والد فيصل ١٨٣٤ وانما لابتهاجه بقيام المصريين ١٨٣٨ باقصاء فيصل عن الحكم . وفى عام ١٨٤٢ طرده عبد الله من الدمام ، وكانت الدمام البقعة الوحيدة التى بقيت له على ساحل شبه الجزيرة ، والتى كان قد احتلها خلال الفوضى التى عمت المنطقة فى أعقاب انسحاب المصريين منها . كذلك أعطى فيصل تأييده السافر لمحمد بن خليفة ، خليفة عبد الله على الحكم فى البحرين ، والذي تعهد بدفع الزكاة للأمير الوهابى فى مقابل ذلك التأييد . كما أن شيوخ الساحل رفضوا مساعدة عبد الله لعدم رغبتهم فى اغصاب فيصل من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب التحذير الذى وجه اليهم هانيل بعدم التورط فى تلك المشكلة حتى لا تقع المنطقة فى حروب دموية . وبعد أن يئس عبد الله بن أحمد من كل هؤلاء عبر الى الساحل الفارسى فى عام ١٨٣٩ لطلب المساعدة من الفرس .

وباستثناء المحاولة الفاشلة التى قام بها الفرس عام ١٨٣٩ للحصول على اعتراف من حاكم البحرين بالسيادة على الجزيرة ، فإن فارس لم تحاول مرة أخرى المطالبة بالبحرين منذ إبرام مايسمى بمغامدة شيراز لعام ١٨٢٢ وقد راجت الاشاعات خلال عام ١٨٤٢ عن غزو تنوى فارس القيام به للبحرين ، مما دفع حكومة الهند فى شهر اغسطس من ذلك العام الى اصدار

تعليماتها الى المقيم البريطانى فى الخليج تقول : « انه فى حالة قيام الحكومة الفارسية بارسال قوة من السفن المسلحة ، او سفن تحمل مسلحين ، يتعين مراقبة تلك السفن بحيث اذا قامت تلك السفن بالاستيلاء فعلا على اراضى تابعة للزعماء العرب المتحالفين مع الحكومة البريطانية ، والاحتجاج لدى السلطات الفارسية فى البداية ضد تلك الاجراءات ثم التصدى لها فى حالة اسرارها على الاستيلاء على تلك الاراضى ، ولم تصدر هذه التعليمات لوجه عبد الله بن أحمد وانما لمصلحة الأمن البحرى فى الخليج . وكانت تلك التعليمات خطوة أخرى فى اتجاه الاعتراف باستقلال البحرين وتحمل مسئولية الدفاع عنها .

وأعقب هذه الخطوة التى اتخذتها سلطات الوطن سنة ١٨٤٤ بعد تلقيها تقارير من الخليج بأن عبد الله بن أحمد يتآمر مع حاكم فارس للانقضاض على البحرين . وقد أوعز اللورد ابردين وزير الخارجية فى ذلك الوقت الى الكولونيل شيل المقيم فى طهران فى شهر مايو بتقديم تحذير الى الحكومة الفارسية ، بأن أى تدخل من جانبه فى نزاع عبد الله بن أحمد سيكون موضع استياء من جانب حكومة الهند البريطانية ، وأنها ما لم يكن تدخل فارس فى هذه المسألة بشكل قانونى ، فانه قد يسفر عن قيام خلافات مع إنجلترا ، واستطرد ابردين فى رسالته يقول : مالم تثبت حكومة فارس أن لها حقا شرعيا فى هذا التدخل فعليه أن يبلغها بأنه مالم يكن لها حق واضح وغير قابل للنزاع فى السيادة على البحرين ، وانها قد مارست هذه السيادة وبغير انقطاع خلال حكم اسرة الفاجار ، وأن اجراءها هذا هو من منطلق ممارستها لهذه الحقوق المشروعة ، وليس على أسس غير مستندة

على حقوق قانونية ، فان على فارس أن تتوقع مجابهة نشطة من حكومة الهند البريطانية حول هذه القضية (١)

وقد سلم شيل تحذيره الى حكومة الشاه فى الشهر التالى . وكما كن متوقعا فقد تمخض هذا الاجراء عن التوجه باحتجاج من حكومة فارس الى بريطانيا . غير أن المسألة توقفت عند هذا الحد . وخلال هذه الفترة قام عبد الله بسلسلة من الغارات على سفن البحرين من ملجئه فى نابند على الساحل الفارسى . وقد أدى ذلك بمحمد بن خليفة الى أن يطلب من المقيم البريطانى بوقف عبد الله عند حده أو السماح له بعدم الالتزام بالخط الملاحي الفاصل حتى يتمكن من ردع الشيخ عبد الله بن أحمد بنفسه ، ولما كان من المحتمل أن يؤدى الجزء الثانى من الطاب الى نشوب القتال بالقرب من الخط الرئيسى من الملاحة البحرية للخليج ، فقد وافق هانيل على كبح جماح عبد الله . ولما رأى عبد الله ، وكان على حق ، أن الحكومة البريطانية تعامله معاملة مجحفة غادر نابند الى الكويت فى خريف عام ١٨٤٥ (٢) وفى صيف العام التالى استأنف عبد الله عملياته ضد محمد بن خليفة وذلك بالتعرض لسفن البحرين فى المياه الواقعة بين الجزيرة والساحل . ثم غاب عن المسرح لعدم واحد عاد بعده بمحاولة جديدة لاسقاط حكم خلفه عن الحكم ، وقد انضم هذه المرة الى عدوه القديم عيسى بن طارق ، الذى اختلف مع محمد بن

(١) مسودات المجلس من التقارير السرية الى الهند مجلد ١٨ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٤/٥/٢ (رقم ١٠٠١) ومرفق نسخة من خطاب ابردين الى شيل ١٨٤٤/٥/١ (رقم ٢٣) .

(٢) من سجلات الخطابات السياسية لحكومة الهند مجلد ٣٣ من حاكم بمباى الى مجلس ادارة الشركة ١٨٤٦/١/٣١ (رقم ٢٠ الادارة السياسية) .

- ٦٦٧ -

خليفة بعد مساعدته للوصول الى الحكم مباشرة فى عام ١٨٤٣ ، والذي ظل منذ ذلك الحين يتحرك ذهابا وايابا بين جزيرة قيس والدوحة . وفى شهر نوفمبر من عام ١٨٤٧ وبتحريض من عبد الله شن عيسى بن طارق هجوما على ممتلكات محمد بن خليفة الواقعة فى المنطقة الشمالية من قطر . غير أن هذا الهجوم قد فشل وسقط عيسى بن طارق قتيلًا فى المعارك التى نشبت بالقرب من الغويرات . وعندما علم هانيل بمقتل عيسى أبدى أسفه على موت رجل كان يتمتع بطاقت كبيرة وأخلاق عالية ، حتى ولو كان غيابه عن مسرح السياسة فى الخليج سوف يسهم ولاشك فى اقرار السلم فى المنطقة .

وكان أتباع عيسى بن طارق من قبائل آل بنى على وآل بوعينين لا يزالون مقيمين فى جزيرة قيس ، ولو استمر هؤلاء هناك وظلوا يواصلون نشاطهم ضد محمد بن خليفة ، فانهم سوف يخلقون للحكومة البريطانية نفس المشاكل التى كان يسببها لهم عبد الله بن أحمد ١٨٤٥ عندما كان ينطلق من قواعده على الساحل الفارسى للاغارة على سفن البحرين . ونصافا للواقع فانه لم يكن فى وسع المقيم أن يسمح لخصوم محمد بن خليفة بمهاجمته ، كما لم يكن فى وسعه أن يمنعه من اجتياز الخط الفاصل للانتقام من معارضيه . وكان محمد بن خليفة ملما بهذه الحقيقة ، وبالتالي عندما عرف فى عام ١٨٤٧ أن عيسى بن طارق ينوى الهجوم عليه فى قطر ، وقد استفسر من هانيل عما اذا كان له الحق فى اجتياز الخط الفاصل لمهاجمة خصمه عيسى ابن طارق وارغام المتمردين على العودة الى موطنهم الاصلى للانصياع لسلطته . وعندما فشل فى ذلك عاد يسأل عما اذا كانت الحكومة البريطانية على استعداد لكبح جماح المتمردين المقيمين فى جزيرة قيس ، كما فعلت بالنسبة لعبد الله ابن أحمد .

- ٦٦٨ -

وكان محمد بن خليفة يراهن على خوف المقيم من تجدد القتال على الطريق العام للملاحة الدولية بحيث يضطره الى رفض الجزء الاول من الطلب ويوافق على الجزء الثانى . غير أنه قد تبين لشيخ البحرين بأن المشكلة لم تكن بتلك البساطة . فقد كان رد هانيل على طلب محمد بن خليفة بأنه سوف يبعث بطلبه الى رؤسائه ليقرروا رأيهم فيه . ولكن حاكم بومباى رأى احوالة الموضوع الى الحاكم العام للهند ، ولذلك فقد أحاله الى كلكتا وقد أحاله الحاكم العام بدوره وبالنظر الى أن الموضوع يمس العلاقات البريطانية مع فارس بحكم أن جزيرة قيس جزيرة فارسية فقد رفع الامر الى السلطات فى لندن .

وفى وزارة الخارجية كان بالمرستون واثقا من الاجراء الذى سوف يتخذه وقد أوعز الى اقائم بالأعمال البريطانى فى طهران فى أواخر العام بالاتصال بالحكومة الفارسية لمنع الفارين فى جزيرة قيس من شن هجوم على البحرين ، كما طلب من مجلس الهند فى الوقت نفسه ، ليتأكدوا من حصول هانيل على تفويض باستعمال الامكانيات البحرية للدفاع عن البحرين اذا دعت الحاجة ولكن رئيس وزراء فارس الحاج ميرزا أفاس بعد أن اكتشف نوايا الجانب البريطانى قدم احتجاجا الى القائم بالأعمال البريطانى فى طهران اللفتنانت كولونيل فيرانت على تدخل الحكومة البريطانية فى شئون البحرين التى قال عنها أنها احدى الولايات الفارسية . أما فيرانت فقد ذكر لرئيس الوزراء عند تسليم رسالة وزير الخارجية اليه فى فبراير ١٨٤٨ بأن الحكومة البريطانية لاتعترف لفارس بسيادتها على البحرين ، وهنا توقفت المسألة عند هذا الحد . كما أن المتمردين فى جزيرة قيس لم يشنوا أى هجوم على البحرين طوال عام ١٨٤٨ ، ولم يقم محمد بن خليفة هو الآخر بأى تحركات ضد هؤلاء المتمردين . ولذلك فان هانيل لم يعد فى حاجة الى مناقشة الموضوع ، كما

أن حكومة فارس كانت مشغولة فى تلك الفترة بآثار وفاة محمد شاه وتقلد الشاه الجديد للحكم ، بما لم يكن يسمح لها هذا الموقف بآثار موضوع البحرين .

فى مطلع عام ١٨٤٩ وقد ساءت حالة عبد الله بن أحمد الصحية والمالية ، فقد غادر بوشهر حيث كان يقيم فى ذلك الوقت وتوجه الى مسقط فى طريقه الى زنجبار لكى يحاول اقناع السيد سعيد خصمه القديم بأن يتبنى قضيته ، غير أن سفره أثار ازعاج محمد بن خليفة ، لأنه كان متورطا فى ذلك الوقت فى مشاكل داخلية مع الأمير فيصل بن تركى ، بصدد ممتلكاته فى شبه الجزيرة العربية ، بالإضافة الى احتمال نشوب نزاع مع عمه الأكبر . وقد كان هذا عبئا ثقيلا عليه . وهكذا ففى بداية عام ١٨٤٩ قرر محمد بن خليفة وأفراد أسرة آل خليفة جميعهم الاتصال بالحكومة البريطانية لوضع البحرين تحت سيادتها . وفى ٩ من فبراير (١٥ ربيع الأول ١٢٦٥) بعث محمد بن خليفة برسالة الى هانيل ضمنها هذا العرض :

« اعرفكى بأننى اعلم أن جميع البلدان الواقعة فى هذه المنطقة تعتمد على أخذ السلاطين فى وجودها ، وعلى سبيل المثال فان حكومة اقليم فارس تعتمد على الفرس وهكذا أيضا سكان الكويت والوهابيون وغيرهم يعتمدون على تركيا . أما عن نفسى فكما تعلمون فانى اعتمد على الحكومة البريطانية الموقرة ، وانى أحد اتباعها . وانى متأكد انكم لن تقبلوا وقوع أى ضرر او اساءة للبلدان التابعة لحكومتم . ولهذا فانى اطلب منكم ، اذا كنتم توافقون الآن على ما اريد ، وقد صممت على تحقيقه . ان تعملوا على عودة اولئك الذين اتشبقوا على طاعتى وذلك لمصلحة البلد واهلها . أما اذا كنتم

تعتقدون اننى اتبع دولة أخرى فارجو أن تعرفونى عن الخطة التى تناسب الحكومة البريطانية كنى انفدها .

وقد بعث هانيل بخطاب الاسرة الحاكمة فى البحرين الى الحاكم فى بومباى مع ملاحظة واحدة وهى أن التصور المصطنع لمحمد بن خليفة أن رخاء الكويت من ناحية ، ورخاء بوشهر وغيرها من الموانئ الفارسية من ناحية أخرى إنما يعود الى خضوعها الى السلطان العثمانى وشاه فارس ، وبالتالي فإن أحوال البحرين سوف تزدهر فيما لو خضعت هذه الجزيرة للنفوذ البريطانى . وعلى أى حال فقد أشار هانيل الى أن السبب الرئيسى لتدهور أوضاع البحرين فى السنوات الأخيرة إنما يرجع الى الحكم التمسلى الذى كان يفرضه عليها كل من عبد الله بن أحمد ومحمد بن خليفة . أما فيما يختص بطلب محمد بن خليفة فقد ذكر هانيل بأنه كان يعارض انشاء تقارب مع البحرين أعمق مما كان قائما بموجب اتفاقية الصلح العامة لسنة ١٨٢٠ ، وتمهد عبد الله ابن أحمد فى ١٨٣٦ باحترام الخط الدولى للملاحة البحرية . وأن هذه الوثائق تكفى لمنع البحرين من تعكير صفو الأمن فى البحار . أما الجزيرة نفسها إذا استثنينا ممتلكاتها الداخلية ، ففي قدرة الأسطول البريطانى أن يضعها عند حدها ، وأن فرض الحماية على البحرين قد يؤدى الى تورط بريطانيا فى شئون المناطق الساحلية لشبه الجزيرة العربية وقد أقرت حكومة الهند هانيل على آرائه ورفضت عرض محمد بن خليفة ١٨٤٩ لوضع بلاده تحت الحماية البريطانية . فى هذا الوقت تضالم اهتمام محمد على بمشاكله . فقد سوى نزاعه مع الأمير فيصل وفى شهر فبراير توفى خصمه عبد الله بن أحمد ، فى مسقط . أما وقد تخلص محمد بن خليفة من الد خصومه ومناوئيه ، فقد أصبح فى مقدوره أن يتنفس الصعداء . أما موضوع

وضع البحرين تحت الحماية البريطانية أو موضوع دخولها الى عضوية اتفاقية الهدنة ، فلم يعرض للبحث مرة اخرى لفترة من الوقت .

لقد توافق ابرام اتفاقية الهدنة الموسعة مع قيام السلطات الوهابية وانتشار مبادئها فى المنطقتين الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة العربية ، بعد انسحاب المصريين منها ١٨٤٠ . أما خالد بن سعود صنيعة المصريين ، والذي أخلفه خورشيد باشا على الحكم بعد انسحابه ، فقد اقصاه عن الحكم ابن أخيه عبد الله بن ثنيان وذلك فى شهر ديسمبر ١٨٤١ والتجأ الى الاحساء ومن قاعدته فى الدمام ظل يحاول استعادة السلطة فى نجد ، غير أنه اضطر فى صيف عام ١٨٤٢ الى الاعتراف بعجزه عن تحقيق اهدافه . وفى شهر يونيو وصل الى جزيرة خرك حيث أبلغ المقيم بالوكالة انه ذاهب الى الكويت . وفى شهر مايو من عام ١٨٤٣ افرجت السلطات المصرية فى القاهرة عن فيصل بن تركى حاكم نجد السابق وسرعان ما عاد الى نجد حيث سلمه الحكم هناك عبد الله بن ثنيان ، ويبدو أن فيصل قد عاد الى السلطة فى نجد كصنيعة لمحمد على باشا وللسلطان العثمانى فى نفس الوقت ، لأنه شرع منذ ذلك الوقت فى دفع الزكاة الى محمد بن عون شريف مكة الذى أوكل اليه محمد على باشا السلطة فى الحجاز على أثر انسحاب القوات المصرية منها وقد سبق أن اعترف الأمير خالد قبل عامين بالسيادة العثمانية على الحجاز على الرغم من أن الباب العالى لم يكن يتمتع بالاسس القانونية للسيادة على نجد .

على أن السلطات البريطانية فى الهند أخذت تنظر الى عودة فيصل ابن تركى الى الحكم بتحفظ كبير . أما هانيل فقد كان يتصور أن خالد سيمارس نفوذا أكثر ثباتا فى الأوضاع السياسية لشبه الجزيرة العربية من

خالد ، حتى أنه اوصى فى شهر فبراير ١٨٤١ بممارسة الضغط على محمد على باشا للانفراج عن فيصل ، اعتقادا منه ان مثل تلك الخطوة بالاضافة الى ان الانطباعات التى كان فيصل قد كونها عن قوة النفوذ البريطانى قد تشجعه على تأييد الجهود البريطانية التى تبذل لتحقيق السلم والاستقرار فى شبه الجزيرة العربية ، غير أن سلوك فيصل بعد عودته لم يكن يبرر ثقة هانيل فيه ، فخلال شهر من عودته اغتنم فرصة اقضاء عبد الله بن أحمد عن الحكم فى البحرين للتدخل فى شئون الجزيرة تحت شعار الوساطة وقبل أن ينتهى فصل الصيف أخذ يخبر شيوخ الساحل غير أن حكومة بومباى وبعد اجراء مشاورات مع حكومة الهند قررت فى نهاية العام أن تستمر فى اظهار مشاعر الصداقة تجاه فيصل طالما اقتصرته جهوده على تثبيت حكمه على ممتلكاته السابقة ، أما اذا أصبحت علاقته بالبحرين وبمشيخات الساحل تهدد بعودة أعمال القرصنة الى المنطقة فينبغى مقاومة تلك السياسة ، وبعبارة أخرى فلم تكن هناك نية لوضع حدود معينة للمناطق التى يشملها نفوذه ، وعليه فعندما اتصل شيوخ النعيم فى البريمى بالمقيم البريطانى فى شهر نوفمبر ١٨٤٣ يعربون عن مخاوفهم من هجوم وهابى محتمل على منطقتهم ويطلبون بالمساعدة البريطانية لرده ، وقد أخبرهم المقيم بأن سياسة المحافظة على استقلال البريمى فى وجه التهديدات القادمة من نجد ، انما كانت تنطبق فقط على الفترة التى كان المصريون يحتلون فيها شبه الجزيرة العربية ، وخلال حكم مرشح الادارة المصرية الأمير خالد ، أما وقد انسحب المصريون والأمير خالد من المسرح ، فان الحكومة البريطانية بدورها لاتسعى الى التدخل فى سياسات شبه الجزيرة . وفى شهر ديسمبر تلقت المثلثة رسالة من الأمير فيصل يبلغها فيها استئنافه الحكم فى نجد والاحساء ، ويعرب عن أمله فى استمرار العلاقات الودية التى كانت قائمة بينه وبين الحكومة البريطانية .

وقد بعثت حكومة الهند برد ودى اليه، واشارت فى ردها الى حرص الحكومة البريطانية على الامن البحرى فى الخليج . كما اشارت بنوع خاص الى انها تأمل بأن لايتعارض امتداد نفوذه مع ممارسة شيوخ الساحل للتزامهم للمحافظة على السلم فى المنطقة . ولم يظهر فيصل أى دليل على القيام بأى تحركات فى اتجاه عمان الشمالية أو الساحلية قبل بداية عام ١٨٤٥ . ففى ١٣ يناير من عام ١٨٤٥ تحركت قوة من ٧٠٠ رجل بقيادة سعد بن مطلق من الاحساء فى طريقها الى عمان وفى ٧ فبراير وصلت القوة الى البريمى وسرعان ماسلم النعيم القلعة اليهم وقد استقبل سعد بن مطلق عند قدومه بحماس شديد وعلى الأخص من جانب القبائل الغافرية ، بينما سرى الخوف من وصولها بين القبائل الهناوية . وقد غادر السيد سعيد مسقط الى زنجبار فى شهر ديسمبر عام ١٨٤٤ ترافقه كتيبة من ١٠٠٠ مقاتل تم جمعها من ساحل الهدنة ، وذلك للاشتراك فى القتال فى افريقيا الشرقية . وقد أناب السيد ثوينى نجل السيد سعيد عنه فى الحكم . ونظرا لضعف شخصية ثوينى وعجزه عن مواجهة مثل هذه المواقف ، فقد شعر بالخوف من ظهور الوهابيين ، فبادر بالكتابة الى هانيل يسأله رأيه فيما يمكن أن يفعله ازاء تلك التطورات . وقد أشار عليه هانيل بعدم استفزاز الأمير فيصل بلا سبب ، وانما عليه أن يوافق على مطالبه منه اذا لم تكن تمس استقلال عمان . ولكى يطمئن هانيل السيد سعيد فقد أشار فى رسالته اليه بعلاقات الصداقة الوثيقة القائمة بين آل بوسعيد والحكومة البريطانية والواقع أن مخاوف السيد ثوينى كان لها ما يبررها . ذلك أن شيوخ الساحل ، فيما عدا خليفة ابن شخبوط، جاكم أبو ظبى العدو العريق للوهابيين ، ومكتوم بن بطى شيخ دوى الذى كان موجودا فى افريقيا الشرقية مع السيد سعيد سارعوا الى الاعراب

عن ولانهم لسعد بن مطلق . وفى إبريل وجه نائب الأمير رسالة بمطالبه من السيد ثوينى وابن أخيه السيد حمود بن عزان وإلى صحار ، باستئناف دفع الزكاة التى كانت تدفعها مستقط فى السابق إلى الرياض . وقد طلب سعد مبلغ عشرين ألف ريال من ثوينى وخمسة آلاف ريال من حمود وقد اعتزم السيد حمود أن يدخل فى معركة مع الوهابيين ، غير أن السيد ثوينى نصحه بالتريث . وبعد ذلك بعث السيد ثوينى برده إلى سعد وقال بأنه لابد من إحالة الطلب إلى والده فى زنجبار ، وأنه يطلب منه مهلة ريثما يتلقى الرد . وقد وافق سعد بن مطلق على طلب السيد ثوينى الذى وجه نداء عاجلاً بالمساعدة إلى حاكم بومباى .

وقد كانت حكومة بومباى على استعداد للقيام بكل ما تستطيع لمساعدة السيد ثوينى . فقد كان الوضع فى عمان يبدو لهم مشحوناً بالأخطار ، سواء فيما يمس استقلال السلطنة ، أو فيما يختص بنجاح نظام الهدنة . وكانت الفرصة سانحة أمام سعد بن مطلق لكى يثير الخلاف الأبدى بين بنى ياس والقواسم ، ويسوق القبيلتين إلى حرب قد تمتد إلى البحر . ومع ذلك فقد كانت حكومة بومباى مقيدة اليدين بموجب بيان مجلس إدارة الشركة الصادر عام ١٨٤٤ بعدم أحقية سلطان مستقط فى طلب الحماية البريطانية ضد الوهابيين أو ضد أى من خصومه فى شبه الجزيرة ، وبعدم جواز تقديم المساعدة إليه طالما الوهابيون على علاقة ودية مع الحكومة البريطانية . أما عن حكومة الهند فإنها من جانبها ظلت متمسكة برأى بنك ١٨٣٤ بعدم استخدام الأسلحة والأموال البريطانية للدفاع عن عمان وإذا كان هدف سعد ابن مطلق هو السيطرة على القسم الشمالى من عمان ، فإن هذا الهدف ، كما قالت عنه حكومة الهند لحكومة بومباى بأنه لا يستدعى التدخل البريطانى . . .

إلا إذا كان غرض فيصل بن تركى هو دفع نفوذه الى ماوراء الحدود السابقة ، والاعتداء على أراضى حليفنا سلطان مسقط ، أو اذا ماتبين أن هذه الاجراءات سوف تهدد علاقاتنا بالقبائل العربية على ساحل الخليج وجهودنا لوقف أعمال القرصنة ، فان هذا قد يثير موضوع تدخلنا فى المنطقة ، وفى هذه الحالة ينبغى التوضيح للامير فيصل بن تركى بأن صبرنا واحتمالنا الذى هو السبب فى تشجيعه على المضى فى هذه السياسة ، سوف ينفذ : وبأننا لا يمكن أن نتساهل أو نسمح بشن اعتداء متعمد على حليفنا القديم وأن لحاكم العام يرغب على أى حال فى أن يوضح بأنه لاينوى توريط حكومته فى الوقت الحاضر فى سياسة من المحتمل أن تستدعى ارسال قوات الى الخليج من ناحية ، ومن ناحية أخرى لن يوجه أى تهديد الى الامير الوهابى أو نائبه سعيد بن مطلق لا يستطيع تنفيذه .

وعلى كل فان الوضع فى المنطقة لم يكن من الواضح الذى كان عليه قبل عقد من الزمن . فمن ناحية فان السيد سعيد قد قدم جملة تنازلات للحكومة البريطانية فى موضوع تجارة الرقيق على امتداد السنوات الاخيرة ، كما كان يطلب اليه من جانب المعتمد البريطانى فى زنجبار الموافقة على وضع حظر شامل على تصدير العبيد من ممتلكاته فى افريقيا الشرقية . فالتنازلات التى قدمها السيد سعيد سابقا قد حولت الراى العام ضده فى دول الخليج العربية ، واذا قدم تنازلات أخرى فقد تجعله هدفا لاجراءات انتقامية منهم . وبالتالي فقد كان هناك التزام من جانب الحكومة البريطانية ١٨٤٥ بتأييده . وهو تأييد لم يكن واردا فى ١٨٤٣ . ومن ناحية أخرى فان السيد سعيد قد أثبت خلال تلك المرحلة من علاقاته ببريطانيا ، أن مصلحة عمان لا تدخل فى اعتباره ، فقد كانت زنجبار قلب امبراطوريته . وبالتالي فان السؤال الذى

كان يطرح نفسه عندما ظهر سعد بن مطلق على المسرح لم يكن الجواب عليه سهلاً وكانت المسألة لاتزال رهن البحث في أوساط الحكومة البريطانية حتى ذلك الوقت .

ان سعد بن مطلق بالرغم من وعده لثوينى بانتظار رد من السيد سعيد على مطالبه فقد أخذ يشن الغارات على ساحل الباطنة ، وعندما احتج ثوينى على ذلك ، تلقى رداً قاسياً متعجرفاً ! ! صحيح فان القائد الوهابى كان يرمى الى أكثر من العبارات والتهديدات . . . أما حمود بن عزان فقد استسلم لسعد وقام بدفع الزكاة المطلوبة منه . وفى شهر يونيو استدمى سعد بن مطلق قبائل الظاهرة وطلب منها الاشتراك فى حملة ضد مسقط . وقد تحمس البعض لهذا الاجراء حتى يقال (أن بنى قتب وحدهم أبدوا استعدادهم للمساهمة بنحو ١٣٠٠ رجل) وهكذا أصبح مصر عاصمة عمان فى كفة القدر . أما الحكومة فى مسقط فقد اظهرت العجز والتخاذل ، ولم يتمكن ثوينى من تعبئة قوات للدفاع عن العاصمة كما ذكر هانيل . وفى هذه اللحظة بالذات تدخل هانيل وأرسل طرادين لمراقبة ساحل الباطنة ودعم موقف السيد ثوينى ، كما اضطر سعد بن مطلق بوقف عملياته ، كما بعث برسالة احتجاج الى الأمير فيصل يحتج على تصرف نائبه ، ويطالبه بوقفه عند حده . وقد رد فيصل رداً مؤكداً حق السيادة على عمان ، غير انه لم يجرؤ على القول بإمكان فرض تلك السيادة بالقوة .

فى هذه الاثناء كان ثوينى قد تلقى رد والده الذى أوعز اليه بالعمل على تقوية دفاعات عمان ، كبركا وسمائل ونخل ، وبأنه فى حالة اندلاع قتال سافر مع الوهابيين فعليه أن ينسحب الى مسقط، واذا اضطر الى دفع الزكاة للوهابيين فيمكنه أن يدفع لهم ٦٠٠٠ ريال نمسوى فى كل عام . وفى أواخر

يونيو أو أوائل يوليو توصل السيد ثوينى الى اتفاق مع سعد بن مطلق وافق بمقتضاه على دفع ٥٠٠٠ ريال نمسوى سنويا للامير فيصل وباعطاء سعد ابن مطلق نفسه هدايا بقيمة الفى ريال نمسوى . ويعتقد هانيل بأن الاعتدال النسبى فى موقف سعد ترجع أسبابه الى تضاؤل التأييد القبلى له وظهور الأسطول البريطانى على ساحل الباطنة . وقد وافق مجلس ادارة الشركة فى صيف ١٨٤٥ على اجراءات هانيل بشىء من التحفظ ، وأقر المسئولون لهانيل بأن علاقة بريطانيا- بمسقط قد توثقت أكثر منذ ١٨٣٤ ، وذلك فى الدرجة الاولى نتيجة الاتفاقات التى عقدت بين الحكومتين حول تجارة الرقيق ، غير أنهم لم يفكروا فى الخروج على الخطوط العامة للسياسة التى قرروها فى ذلك الوقت . فالاعتراضات التى كانت موجودة يومئذ على التدخل فى الشئون الداخلية لعمان كانت لاتزال قائمة . وان المساعدة البحرية من النوع التى قدمها هانيل للسلطان يمكن ان تقدم اليه مرة أخرى اذا تعقدت أموره مع الوهابيين ، وان مساعدة كهذه قد تساعده على الخروج من تلك المشاكل ، خاصة وأن الوهابيين يخشون من أى نشاط يقوم به الأسطول ضد موانئهم فى الاحساء وأنه لمن تكرار القول أن تؤكد على خطأ القيام بأى عمليات برية فى شبه الجزيرة . وقد كان أعضاء مجلس ادارة الشركة يلحون على أن لا تقدم بريطانيا أى مساعدة للسلطان دون ثمن . وانما نظير تنازلات جديدة منه فى موضوع تجارة العبيد ، ومقابل تعهد منه بتنظيم شئونه الداخلية . ونتصور انه لابد لنا من مطالبة سلطان مسقط بتكريس قدر أكبر من اهتمامه الشخصى الى حماية ممتلكاته فى شبه الجزيرة . وأن الحكومة المحلية الموجودة حاليا فى مسقط لا يبدو أن فى وسعها مواجهة أى مشكلات داخلية كانت أو خارجية . وأنه مالم يقم السلطان فى البلاد ولو على فترات ، فانه لايمكنه الاهتمام بمصالحه ، مالم يكن يتصور أن هناك

من سيحيمه من الخارج . كانت هذه التحليلات ، تحليلات تتمشى مع واقع عمان ومشاكلها ، غير أن أعضاء مجلس إدارة الشركة قد فشلوا فى ادراك اهمال السيد سعيد لعمان وتكريس نفسه لتحقيق اطماعه الشخصية فى افريقيا الشرقية .

ظلت الحالة هادئة هدوءا مشوبا بالقلق فى المنطقة الشمالية من عمان خلال الفترة الباقية من عام ١٨٤٥ . وقد عادت الامور فاضطربت بشكل خطير عندما اغتيل كل من خليفة بن شخبوط ، شيخ ابوظبى واخيه سلطان ، من قبل أحد أفراد آل بوفلاح فى نهاية الصيف ، غير أن القاتل قتل هو الآخر من قبل بعض اتباع سعيد بن طحنون نجل الزعيم السابق طحنون ابن شخبوط الذى وقع صريع ضربة نصل من خليفة فى شهر ابريل ١٨٣٣ . وقد خشى هانيل أن الاضطرابات فى ابوظبى والخلاف بين أسرة آل بوفلاح حول الخلافة على السلطة قد يمتد الى المناطق البحرية ، ولهذا رأى أن يعترف لسعيد بن طحنون بالمشيخة باعتباره الرجل الاقوى . وانطلاقا من هذا التصور أرسل هانيل الطراد دجلة الى ابوظبى فى شهر اكتوبر لتسليم خطاب الاعتراف الى الحاكم الجديد ، وعرض التأييد والمساندة للشيخ . وقد رحب بنو ياس بخطوة هانيل ، وتعهد سعيد باحترام التزامات المشيخة للحكومة البريطانية . وفى بومباى أمر الحاكم الكومندور هنرى بلاكود الذى كان فى ذلك الوقت فى زيارة لبومباى على رأس بعض قطع من أسطول الهند الشرقية بالابحار الى الخليج واثبات الوجود البريطانى هناك . وقد قام هذا القائد البحرى على رأس السفن فوكس ، وفيليانث وبيلسوت وبعض طرادات أسطول الخليج بجولة على امتداد ساحل الباطنة خلال شهرى نوفمبر وديسمبر كما زار مسقط .

وعلى بعد مائتى ميل الى الشرق من ابوظبى وفي صحار كانت تجرى أحداث أكثر خطورة ، فقد قرر السيد حمود بن عزان أن يقوم بمحاولة لانتزاع السلطة وتنصيب نفسه حاكما على عمان التى تخلى عنها السيد سعيد ، وكان نجله ثوينى غير كفاء لها . وكان السيد حمود يلقى التأييد لحركته هذه من رجال الدين فى عمان ومن أكثر الإباضية تعصبا . بعد أن ضاقوا ذرعا باهمال السيد سعيد لشئون البلاد وبسبب علاقته بالأجانب والنصارى ، وعلى الاخص تنازلاته للبريطانيين فى موضوع تجارة العبيد ، ويعتبر هذا أخطر تنازل منه فى هذا الصدد فى شهر اكتوبر عام ١٨٤٥ وقد وصل الى علم هانيل فى شهر فبراير ١٨٤٦ بأن السيد حمود قد سلم حصن صحار وغيرها من المراكز الدفاعية الى أحد مطاوعة (١) قبيلة بنى سعد التى تستوطن السفوح الشرقية لمنطقة الحجر على الجهة الغربية من صحار . كما كتب السيد حمود الى غيره من مطاوعة رجال القبائل الأخرى يستنكر ضعف حكومة السلطان ويحثهم على الانتفاض عليها . وقد انزعج السيد ثوينى من تلك الأعمال فوجه رسالة الى هانيل للتدخل . وكان خوفه ناشئا كما ذكر هانيل من أن يتمكن السيد حمود بتأييد ومساعدة قبائل بنى سعد من انتزاع الحكم على حساب مصلحة السيد سعيد أما هانيل فلم يكن متأكدا مما اذا كان السيد حمود يهدف فعلا للوصول الى الحكم أم لا ، غير أنه كان يعتقد

(١) المطوع وجمعها مطاوعة يعنى الشخص الذى يطيع أو يقدم الطاعة

بأنه كانت هناك أسباب حقيقية اضطرت السيد حمود الى القيام بتلك المحاولة . وكان السبب الواضح هو عجز السيد حمود من مواجهة الوهابيين بمفرده وعلى الاخص بعد أن خدله أقاربه فى مسقط ، ولم يقدموا اليه العون الضرورى . وانهم لو كانوا قد أبدوه وقدموا اليه المساعدة اللازمة لربما تمكن من صد العدوان الوهابى بنجاح . أما بنو سعد فانهم لم يكتفوا برفض مطالب سعد بن مطلق بدفع الزكاة فحسب ، وانما هاجموا رسله ومندوبيه بينما كانوا فى طريقهم الى مسقط . وبالتالي فلم يعد هناك من الشك فى أن بنى سعد سوف يقدمون الحماية للسيد حمود للدفاع عن صحار ضد اعتداءات الوهابيين . وان كان سوف يكشف النقاب آخر الأمر بأن ذلك لم يكن بغير ثمن وقد بعث هانيل رسالة الى السيد حمود يطالبه فيها بتوضيح موقفه ، كما يذكره فيها بالاتفاق الذى عقده فى ديسمبر ١٨٣٩ مع السيد سعيد بعدم التعرض أو الاعتداء أو التآمر سرا أو علنا على المناطق الخاضعة لحكم السيد سعيد . وقد رد السيد حمود على رسالة هانيل ينكر فيها انه ينوى القيام بأى عمل من شأنه الاساءة الى السيد سعيد ، كما ذكر فى الرسالة بأن مخاوف السيد توينى لم يكن لها أى مبرر .

ان شراسة وغطرسة سعد بن مطلق سرعان ما أثارت عليه القبائل العمانية . فقد أصبح كافة الزعماء يكونون له الكراهية والازدراء وتألّبوا جميعهم ضده ولقاومة أطماعه فى المنطقة . ولم يبق من مؤيدى سعد بن مطلق الا حاكم أم القوين . أما سلطان بن صقر شيخ القواسم فقد بعث بخطاب الى الأمير فيصل يطلعه فيه على الأعمال الارهابية والتعسفية التى يقتربها نائبه . وقد اقتنع فيصل بمضمون الخطاب واستدعى نائبه الى العودة الى نجد . غير أنه سرعان ما عفا عنه بعد أن قدم لأميره ٢٥٠ بعيرا وكميات كبيرة من الغنائم والأسلاب . وقد عاد سعد بن مطلق فاقترح على الأمير فيصل بأن

يرسل ابنه مشارى بن سعد بن مطلق بالخطابات التى أرسلها سلطان بن صقر الى الأمير فيصل لردّها اليه على أساس أنها مرفوضة . وقد تم ارجاع الخطابات الى سلطان بن صقر فى شهر يونيو ، ولكن هذا الاجراء كان سبباً فى احراج زعيم القواسم واثارته .

وقد عاد سعد بن مطلق الى البريمى فى وقت لاحق من العام ، كما أن رحلته القصيرة الى نجد لم تغير شيئاً من سلوكه ، وقد أخذ يسيل من الشكاوى يصل الى الأمير فيصل ضد سعد بن مطلق ، وقد تضمنت هذه الشكاوى بانه كان يجمع الزكاة من القبائل ويأخذها لنفسه . وقد أحس سعد بما قد تؤدى اليه تلك الشكاوى من تأثير على وضعه ، ولذلك فكر أن يشد الرحال مرة أخرى الى نجد ، حينما وصلتة اشارة من الأمير فيصل بالبقاء فى منصبه وبارسال مايتجمع لديه من الزكاة الى الرياض . وقد تمكن سعد من ارسال مبالغ ضخمة من الزكاة ، ومع ذلك فلم يطل المكوث هناك إذ استدعى الى الرياض فى أوائل ١٨٤٧ . وقد سافر عن طريق الشارقة بعد أن عهد بحصنى البريمى الى مساعده محمد بن سيف العجاجى وما أن حل الخريف حتى وجد العجاجى نفسه عاجزاً عن السيطرة على منطقة البريمى . وكان سعد قبل ذلك بعام قد قام بمحاولة لاحتلال بلدة ضنك من آل بوخريبان وهم فرع من قبيلة النعيم ، ولمواجهة هذا الاجراء تكتل هؤلاء مع خصومهم التقليديين آل بوشامس وطلبوا مساعدة من السيد حمود . وقد وجد العجاجى نفسه عندئذ محاصراً من الجنوب والشرق بينما كان بنو ياس من الناحية الغربية يراقبونه باهتمام . ولقد حاول فيصل فك الحصار عن العجاجى فى ربيع ١٨٤٨ بارسال امدادات اليه من نجد بقيادة نائب جديد هو عبد الرحمن بن ابراهيم ، غير أن عبد الرحمن لم يصل الى ابعد من الاحساء ،

- ٦٨٢ -

فلقد كان بنو ياس وحلفاؤهم يحاصرون الطريق الصحراوى ابتداء من قاعدة شبه جزيرة قط حتى الظفرة ، كما لم يكن فى امكانه اقناع شيخ البحرين بنقله هو ورجاله عن طريق البحر .

ولما نفذت المؤونة والذخيرة عند العجاجى قام بمحاولة فى شهر مايو ١٨٤٨ لحمل السيد حمود بن عزان على تزويده بشئ من المؤن ، وذلك بارسال فريق منه للاغارة على صحار عن طريق وادى الجزى ، غير أن قافلة العجاجى وقعت فى كمين أعده لها سيف ابن السيد حمود بالتعاون مع النعيم (فرع آل بوخريبان) واضطرت الى الفرار . ومن ناحية أخرى فان سعيد بن طحنون الذى كان قد طلب منه آل بوخريبان المساعدة فى الهجوم على العجاجى كان مستعدا للتحرك صوب المنطقة الداخلية ومعه مجموعة من قبائل المزاريع والعوامر وغيرها من القبائل البدوية . وقد بدأ زعيم بنى ياس زحفه على واحة للبريمى فى بداية شهر يونيو ، وتمكن من احتلال منطقة الظواهر ، وهى القبيلة الرئيسية الثانية فى الواحة . ومن الشرق أطبق سيف بقواته من النعيم . غير أن العجاجى تحصن داخل القلعتين وأخذ يبعث بنداوات عاجلة الى الأمير فيصل لنجدته عن طريق كل من ميناءى الشارقة ودبى وهما الطريقان الوحيدان المفتوحان أمامه . أما شيخ القواسم سلطان بن صقر وشيخ آل بوفلاسه مكتوم بن بطى حاكم دبى فقد ابديا استعدادهما لمساعدة العجاجى وذلك انطلاقا من غيرتهما من سعيد بن طحنون اكثر من حبهما للوهابيين ، غير انهما عدلا عن الخطة بعد وصول معلومات عن كثافة القوات التى كانت تحت امره بنى ياس . وفى ١٧ يونيو أخلى العجاجى قصر الصبارة . وفى هذه اللحظة انضم الى القوات المهاجمة فصائل من بنى كعب وبنى قتب والقفارة . وفى يوم ٢٠ منه استسلم العجاجى للقوات المهاجمة وقد سمح له ولجماعته من الوهابيين بمغادرة البريمى الى الشارقة بأسلحتهم

الشخصية . ومن هناك يشقون طريقهم الى نجد بالبحر ، وقد فكر سعيد بن طحنون فى هدم القلعتين ، وهما قصر الخندق وقصر الصبارة ، إلا أن السيد سيف بن حمود أيدى استعداداه ليقم بها حامية من جنوده ، وقد وافقه الشيخ سعيد إلا أنه قرر بأن يبقى قريبا من المكان فى منطقة الظاهرة طول فصل الصيف .

وخلال شهر يونيو انطلقت اشاعات من نجد عن الأمير فيصل بأنه يعد حملة لفك الحصار عن قلعة البريمي أو استعادتها . وكان المفروض أن تتحرك الحملة فى نهاية شهر رمضان أو فى نهاية شهر أغسطس . أما هانيل الذى كان يراقب مجرى التطورات فى عمان ، فقد كان يشك فى صحة تلك الاشاعات ، خصوصا أن يقوم فيصل بإرسال حملة خلال فصل الصيف عندما تكون منطقة الظفرة شعبة من اللهب ، وتصور هانيل أن الأكثر احتمالا أن تتحرك تلك الحملة عن طريق البحر ، وذلك باستعمال سفن يقدمها كل من شيخى الشارقة ودبى . ولو شعر هانيل بأن شيخى هاتين المشيختين ينويان بالفعل التعاون مع الأمير فيصل . فقد كان يفكر فى لفت نظرهما الى أن شحن أسلحة فى سفنهما سيعتبر خرقا لقانون نظام الهدنة البحرية .

غير أن الأمر لم يتطلب توجيه تحذير بهذا الشأن . إذ أنه مهما كان عداء سلطان بن صقر ومكتوم بن بطى لسعيد بن طحنون ، ومهما كان استعدادهما للتعاون مع الأمير فيصل للقضاء على خصمهما هذا ، إلا أنهما لم يكونا راغبين فى استقرار السلطات البريطانية فى الخليج . وقد وقع الهجوم الوهابى المنتظر فى فصل الخريف . غير أن سعيد بن طحنون كان على أتم استعداد للتصدى لذلك الهجوم . فقد استبدل رجال حامية صحار الذين كانوا يرابطون فيها بقوات من رجاله ، وعقد لواءها لرعيم آل بوشامس

حمود بن سرور ، كما دعا قبائل العوامر والمزاريع وبنى قتب والغفارة للدفاع عن الواحة من الجناح الغربى ، كما وضع قوات من المناصير والمزاريع من منطقة الظفرة الواقعة بين واحة ليوا والساحل لصد أى قوة تحاول التحرك من الاحساء . وفى اليوم الثامن من أكتوبر خرجت قوة مسلحة من الوهابيين بقيادة سعد بن مطلق من الاحساء متجهة الى ساحل الهدنة . غير أن قوات سعيد بن طحون المرابطة فى الظفرة حاصرتها ومزقتها اربا ، وقد تمكن سعد بن مطلق نفسه من الافلات والتوجه الى الشارقة حيث وضع كل من سلطان بن صقر ومكتوم ابن بطى جميع قواتهما تحت تصرفه على الفور ، وبهذه القوات وبما تبقى من قواته المهزومة ، وبرجال حامية العجاجى الذى كان ولا يزال فى الشارقة بالاضافة الى بعض قوات ساهم بها كل من شيخى عجمان وام القيوين ، تحرك سعد بن مطلق من الشارقة فى الاسبوع الاول من ديسمبر وبرفقتة زعيما القواسم وآل بوفلاسه لفرض حصار على البريمى .

قبل أن يتحرك سعد بن مطلق من الشارقة كتب الى الأمير فيصل ، بناء على اقتراح سلطان بن صقر يطالبه بالاستفسار من هانيل ، عما اذا كان سيسمح بنقل الأسلحة والامدادات من الاحساء الى منطقة الساحل بطريق البحر . وفى هذا المعنى تلقى هانيل رسالة من الأمير فيصل فى شهر يناير ١٨٤٨ يدعى فيها ، بأن له حق السيادة على عمان ويذكره بالصدقة التى تربط آل سعود بالحكومة البريطانية مما يتوجب عليها تأييد اجراء سعد بن مطلق والحيلولة دون تدخل أى طرف فى عملية نقل الامدادات الى نائبه عن طريق البحر . وقد عامل هانيل رساله فيصل بما تستحقه من اجراء ، بعد أن شعر هانيل بانه ليس فى نطاق واجبه أن يعرض نظلم الهدنة للخطر عن طريق تحقيق أطماع الأمير فيصل فى

- ٦٨٥ -

المنطقة ، وبالتالي فقد رد عليه بأنه لا يستطيع الإخلال باتفاقية الهدنة أو المجازفة بتشجيع سعيد بن طحنون بخرقها عن طريق شن هجوم بحرى على السفن الناقلة للامدادات من الاحساء الى عمان ، وقد أيدت حكومة الهند موقف هانيل ، وكلفته باستخدام القوة ، اذا دعا الأمر لمنع نقل الحملات العسكرية المسلحة الى ساحل الهدنة عن طريق البحر .

وقد استمر حصار البريمي من جانب سعد بن مطلق وحلفائه نحو شهرين ، دون أن يحقق أى نجاح . ومنذ البداية كان يبدو وضع سعيد بن طحنون وضعاً غير مطمئن ، فقد انقلب عليه السيد سيف بن حيود ، ربما بسبب وضع رجاله فى قلعتى البريمي وأخذ يتوحد الى زعماء التحالف كما أن نعيم آل بوخريبان قد تخلوا عنه أيضاً ، ولم يكن لديه أى أمل فى وصول عون اليه من السيد ثويني فى مسقط . وبمضى الوقت أخذ وضع المحاصرين للواحة يتأرجح بسبب الخلافات التى نشبت فيما بينهم ، وكاد ينتهى الحصار بنهاية مجزئة ، لولا دخول عنصر جديد الى حلبة الجراع ، ويبدو أن غرض الأمير فيصل من خلق الاضطرابات فى شمال عمان هو التنصل من تحويل الزكاة السنوية المقررة عليه الى الباب العالى عن سنة ١٢٦٤ هجرية (١٨٨٤ ميلادية) وقبل أن يقوم بايفاد سعد بن مطلق من الاحساء فى شهر أكتوبر ناشد رئيسه شريف مكة محمد بن عون التدخل مع سعد بن طحنون واقناعه بتسليم البريمي اليه . وقد بادر محمد بن عون بارسال مبعوث عنه الشريف على الذى وصل الى منطقة الساحل فى شهر فبراير ، ومنها توجه الى البريمي حيث نجح فى إعادة الامور الى وضعها الطبيعى قبل الحرب . فبعد أن يؤس سعيد بن طحنون من الحصول على مساعدة من سلطان مسقط ، وافق على إخلاء القلعتين وتسليمهما الى سعد بن مطلق ، بشرط أن يسمح لقوات التحالف بالانسحاب سالمة ، وأن يسنخ

له بإصطحاب كل ما حصل عليه من غنائم واسلاب كنتيجة للحرب التي شبت .

وصل الشريف على بوشهر في الاسبوع الثاني من مارس بخطاب نهانيل من محمد بن عون جاء فيه :

« اعرفكم بخصوص ابن سعود فيصل بان هذا من رعايا السلطان العثماني ، وغير خاف عليكم ان هناك بعض القلاع التي تخصه في عمان وان ابو سعيد وسعيد ابن طحنون قد طرداه منها ، وهو يدفع لخزينة السلطان ١٧٠٠ ريال ، وانه عرض الامر على ، وبلغنى بعداء ابن طحنون والابو سعيد ضده كما ذكر لى بان ابن طحنون يقيم فى احدى الجزر فى البحر ، ولا سبيل له الى الوصول اليه ، وانى اعرفكم ان ابن سعود هو من رعايا السلطان، واملئ فيكم الا تسمحوا بالقيام بأى اجراء ضده . ولا أحب ان اطيل عليكم فى الرسالة لعلنى انكم لا تفهمون اللسان العربى جيدا» . وقد طلب الشريف على من هانيل بالنيابة عن سيده ان يمنع بنى ياس من خلق المتاعب لفيصل ، غير ان هانيل رد يقول بان ذلك غير ممكن لان سياسة الحكومة البريطانية تقوم على أساس من عدم التدخل فى النزاعات القبلية على البر وقد عاد فيصل فكتب رسالة أخرى الى هانيل فى الشهر التالى تتضمن نفس المطالب ، وتترح ازغام بنى ياس على ان يختاروا بين الاوضاع الاقليمية والاضاع البحرية . واذا اختاروا مهنة البحر فيمكن للحكومة البريطانية ان تتولى مسئوليتهم ، واذا اختاروا ان يبقوا كشعوب برية ، فعندئذ يحرمون من الاستفادة من الملاحة وأيا ما كان الجانب الذى سيختارونه ، فان مشيخة أبو ظبى سوف تبقى تحت رحمة الأمير فيصل .

أمضى سعد بن مطلق فترة ثقل عن العمام فى البريمى منذ عودته الاخيرة اليها . غير ان الاوضاع قد تغيرت بالنسبة لما كانت عليه سابقا

فى شمال عمان ، وعلى الاخص بعد تحدى القبائل لسلطته ، وهزيمته على يد سعيد بن طحنون . وبعد أن جاءت عودته الى الواحة على حساب زعيمها . وقد غادر سعد بن مطلق البريمى بصفة نهائية فى شهر مارس ١٨٥٠ متوجها الى موطنه نجد عن طريق الشارقة والبحرين وعلى أثر ذلك قام سعيد بن طحنون فورا بطرد بقايا الحامية الوهابية واعادتها الى بلادها كما استولى على القلعة الصغرى ووضع فيها حامية من ٥٠٠ رجل ، وقد تمت هذه العملية بالتوافق مع تحرك السيد ثوينى نائب حاكم مسقط الذى أخذ هو الآخر يبدى اهتماما بما يجرى من أحداث فى المقاطعات الحدودية لعمان ، فبعث باربعين خيالا للمساعدة فى عمليات البريمى ، غير ان اهتمام السيد ثوينى بمصالح بلاده لم يتجاوز هذا الحد . ففي الوقت الذى كان سعيد بن طحنون ورجاله من نعيم آل بوشامس يخاصرون الحامية الوهابية فى البريمى . كان ثوينى منصرفا الى احياء خلافه مع السيد حمود بن عزان ، بأمل القضاء على زعيم صحار قضاء مبرما . وقد أقصى حمود عن السلطة فى صحار فى الشهور الاولى من عام ١٨٤٩ ، وقاد عملية اقضاء ابنه سيف الذى أخذ يضيق ذرعا بالنصايح والده الى جماعة المطاوعة . وبمساعدة من والى شناص الواقعة على الساحل قام سيف بأبعاد هذه الطائفة المترهبة من صحار وطرد معها والده أيضا . وعند لقاء هانيل بسيف فى مايو ، والحصول منه على تعهد بتحريم استيراد العبيد الى منطقة صحار وتوابعها . وجد ان الحاكم الجديد لايتجاوز الثانية والعشرين من العمر ، وكان هادىء الطبع متحفظا ولكنه لا يخلو من سحنة الوقار التى يتميز بها كافة أفراد أسرة صاحب السمو امام عمان وقد انتقم حمود الذى انسحب الى الرستاق من ابنه سيف باغتياله فى مارس ١٨٥٠ ، فبعد استيلاء حمود على السلطة استدعاه ثوينى للاجتماع به فى شناص ، ربما بهدف التباحث معه بشأن الاشتراك

— ٦٨٨ —

فى الاعداد لهجوم على الوهابيين فى البريمى . وعندما لم يبد حمود حماسا للفكرة ، أمر ثوينى باعتقاله واحضاره الى مسقط حيث زج به فى قلعة الجلالى . ثم قام ثوينى بعد ذلك بمهاجمة صحار التى كان قيس بن عزان والى الرستاق وشقيق حمود هو المسئول عن الدفاع عنها غير أن قيس دعا سلطان بن سقر ومذتوم بن بطى لكى يخفا لمساعدته ، وعلى أساس ذلك عبرت قوات الشارقة ودبى جزيرة رأس مسندم واستولت على شناس . وفى يوم ٢٧ ابريل توفى حمود بن عزان فى سجن مسقط .

ان أسلوب الخيانة والتهور الذى استخدمه السيد ثوينى ضد السيد حمود قد أثار إستنكارا شديدا فى الأوساط المسئولة فى بومباى ، التى رأت أنه أسلوب سوف يقوض اركان الحكم المتزعزع بالفعل لسلطان مسقط خصوصا اذا قررت القوات القبلية فى ساحل الهدنة الزحف من شناس الى الباطنة . ان اغتيال حمود والهجوم على صحار قد كان لهما تأثير مباشر على حكومة بومباى ، لأن هذه الأعمال تشكل خرقا لاتفاق ١٨٣٩ المعقود بين السيد سعيد وحمود بن عزان . والذى تمت مناقشته والتوقيع عليه عن طريق هانيل . زد على هذا أن التعهد الذى حصل عليه هانيل من السيد حمود بمنع رعاياه من الاتجار فى الرقيق يعد اعترافا من بريطانيا بالاستقلال الداخلى للولاية . وبالتالي فقد كان الفايكونت فوكلاند حاكم بومباى مصمما على توبيخ السيد ثوينى ووالده على الأعمال المخجلة التى قاما بها ، غير أنه لم يكن يعرف الطريقة التى ينفذ بها تلك الرغبة . والواقع أن تأييد ودعم حكم السيد سعيد لعمان هو من قبيل السياسة الثابتة للحكومة البريطانية ، ومنع ذلك فقد قام الحاكم بالإيعاز الى هانيل بأن يفعل ما فى وسعه لتحقيق تسوية للنزاع بين مسقط وصحار ، وللحصول على

تعويضات لورثة السيد حمود . كما صدرت الأوامر للسفينة المسلحة أوكلاند بالتوجه الى الخليج لدعم موقف هانيل ، غير أن المقيم خذر من استخدام أى وسيلة من وسائل القوة ، أو الزام حكومته بشئ فى أية تسوية يعقدها بين الطرفين . كذلك أوعز الحاكم الى المعتمد البريطانى فى زنجبار ، وهو لكابتن اكنس همرتون ، بأن ينصح السيد سعيد بالعودة الى مسقط بأسرع وقت ممكن ، وأن يقترح عليه اصدار بيان يستنكر فيه تصرفات نجله وتقديم تعويضات الى أسرة السيد حمود .

على أنه قبل أن يتلقى هانيل تلك الأوامر ، كان السيد ثوينى والسيد فيس قد توصلا الى نوع من الاتفاق فيما بينهما . وكان الاتفاق فى صالح فيس ، بحكم أن حليفه الأكبر سلطان بن صقر قد قرر فى بداية فصل الصيف توزيع رجاله على مصائد اللؤلؤ واخلاء بلدة شناس . أما ما اذا كان سلطان سيتمسك بموقف الاعتدال هذا حتى فصل الخريف ، وهو الوقت الذى تنتهى فيه اتفاقية الهدنة ، فقد كان هذا موضع تساؤل وكما كان متوقعا فقد انشغل سلطان فى الخريف بمحلة جديدة من العلاقات بينه وبين سعيد بن طحنون . وبما أن سلطان قد ضاق ذرعا بالطريقة المتعالية التى عاملها به سعد بن مطلق ثم خليفته فى البريمى بتال المطيرى ، وبعد كل المساعدات التى قدمها لهم فى العام السابق ، قرر الانضمام الى سعيد بن طحنون والنعيم وكان ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٨٥٠ خلال الحصار المضروب على الحامية الوهابية فى الواحة . وفى الأسبوع الثانى من نوفمبر ارغموا قائد الحامية ابن بتال المطيرى على الاستسلام . وقد سمح له ولرجال حاميته بالرحيل الى نجد ، ثم تسليم القلعتين الى النعيم . وفى فصل الربيع الثانى تم الوصول

لبي معاهدة سلام تضم جميع قبائل عمان المتهادنة ، كما تضم قيس بن عزان ،
والى صحار وقبائل بنى ياس وزعماء القواسم ، وقد تم التوقيع على المعاهدة
فى الشارقة بتاريخ ٥ ابريل ١٨٥١ . وكان الهدف الاساسى من ابرام المعاهدة
هو توحيد صفوف القبائل فى مقاومة أى تدخل من جانب الامير فيصل وتأكيد
سلطانها على أراضيها العمانية .

وقد لزم هانيل الفراش بسبب مرض شديد أصيب به فى خريف
١٨٥٠ ، ولم يتمكن من مغادرة بوشهر لتففيذ تعليمات أوكلت له قبل نهاية
ديسمبر . وفى مسقط رحب به ثوينى ترحيبا لائقا ، ولكنه لم يسمح له
بالمساهمة بأى إجراء فى تحقيق تسوية بينه وبين قيس . وأوضح له بأنه قد
تم تمديد الهدنة الى الخريف على أساس تعهد الطرفين باحترام الأوضاع
القائمة حتى عودة السيد سعيد التى كانت متوقعة فى أى يوم . وهنا شعر
هانيل بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا فى هذا الصدد ، وغادر السيد سعيد
زنجبار فى اليوم الثانى عشر من ابريل يرافقه همرتون ووصل مسقط يوم
١١ مايو ولكن حالته لم تكن ملائمة . فلم يظهر السيد سعيد أى بادرة لاستنكار
إجراءات السيد ثوينى ، وأخذ يتضح لهمرتون أكثر وأكثر بأن الهجوم الاول
على صحار واعتقال حمود بن عزان قد تم بإيعاز من السيد سعيد نفسه .

وكان يبدو عليه أنه مصمم على سحق قيس بن عزان وتأكيد سلطته
على صحار ، وكان غير مكترث باتفاق ١٨٣٦ وفى الخريف زحف السيد
سعيد على اقليم صحار ، بعد أن نجح فى جلب سلطان بن صقر حليف قيس
الرئيسى الى صفه ، وبذلك احتل صحم والخابورة ثم أخذ يساوم قيس ،
بالسماع له بالاحتفاظ بصحار وشناس ، وأمهله شهرين لقبول عرضة
أو رفضه . وقد أمضى قيس الوقت بحثا عن حلفاء يدعمونه ولكنه لم يفلح .

فخلال السنة الجديدة أرسل السيد سعيد قوة كبيرة ساهم فيها الشيخ مكتوم بن بطي حاكم دبي . وقد تمكنت هذه القوة من احتلال صحار وشناص ، وأسر قيس وكان هذا نهاية لاستقلال هذا الاقليم . فهذه الولاية التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي منذ اتفاق بركا في ١٧٩٣ ، الحقت بأراضي السلطنة ، وسمح لقيس بالعودة الى موطن أسرته في الرستاق .

وفي غضون العاميين اللذين أعقبا طرد الحامية الوهابية من واحة البريمي في نوفمبر ١٨٥٠ ، لم يجد الأمير فيصل وقتا يخصصه لاسترجاع نفوذه الضائع في عمان ، وذلك لأنشغاله بمشكلات أهم في نجد . فقد كان يواجه بعض المتاعب في الاحتفاظ بمنطقة القاسم ، وهي المقاطعة الواقعة بين الحجاز ونجد ، حيث كان سكانها لا يزالون يحتفظون بولائهم للأمير السابق خالد بن سعود ، مما أضر فيصل في ربيع ١٨٥٠ الى القيام بحملات لاختضاعها لنفوذه ، كما أن ظهور حركة مناوئة له في الشمال بقيادة ابن رشيد كانت تريد من متاعبه على أن أكبر تحد كان يواجهه هو خضوعه لمحمد بن عون شريف مكة . وقد علم في أواخر ١٨٥٠ أن شريف مكة قد أجر نجد من الباب العالي نظير ٦٠.٠٠٠ ريال نمسوى كل عام ومن هنا فقد كان فيصل في أمس الحاجة الى المال لدفع الزكاة التي كان يطالب بها شريف مكة ، ولهذا فقد قرر انتزاع تلك الأموال من البحرين . وهكذا ففي أوائل عام ١٨٥١ تحرك نحو الجنوب من القطيف في اتجاه قطر ، بهدف تهديد المستعمرة البحرينية في شبه جزيرة قطر ، وبالتالي أرغام آل خليفة الى دفع الزكاة اليه . وحدث وصول قواته الى قطر في شهر مارس قلقا واسعا على طول ساحل الهدنة ، وقد ساءت الأحوال أكثر من جراء الاستقبال الفاتر الذي استقبل به مبعوثه من جانب الشيخ سلطان بن صقر . وبالتالي فقد كان الأمير يكن منتهى الكراهية لزعيم القواسم ، وعلى الأخص من جراء ما قام به شيخ القواسم من دور في اقضاء

الحامية الوهابية من البريمي .. وقد دفع هذا الخطر الزعيم القاسمي الى الاسراع في عقد اتفاق مع سعيد بن طحنون في شهر ابريل ، هدفه مقاومة زحف الأمير فيصل على المنطقة . كما أن عزم الأمير فيصل على سحق بني ياس دفع سعيد بن طحنون بدوره ولنفس الأسباب الى تقديم مساعدته لحاكم البحرين محمد بن خليفة وذلك للوقوف في وجه الأمير فيصل .

وقد حفزت هذه المخاوف حاكم البحرين الى بدء مفاوضات مع شريف مكة في الخريف السابق يعرض عليه وضع البحرين تحت السيادة العثمانية ، ورفع العلم العثماني ودفع زكاة سنوية للباب العالي . غير أن تصرفه هذا أثار قلق الدوائر المسؤولة في كل من الهند وإنجلترا . وفي صيف عام ١٨٤٩ بعث ستافورد كانبينج السفير البريطاني في القسطنطينية ، بتقرير يقول فيه بأن الباب العالي قد أعلن فصل بلدة ومقاطعة النصيرة عن بغداد، وأن هذه المقاطعة مع إقليم الأحساء والساحل الجنوبي الغربي من الخليج الفارسي قد أصبح مقاطعة منفصلة والى جانب التقرير الذي ورد بكشف عزم الأتراك وضع سفينتين من سفنهم للعمل في مياه الفرات وسفينة ثالثة للعمل في الخليج ، فإن ذلك كله كان يشير الى عزم الباب العالي على اتباع سياسة توسعية في هذه المنطقة . كما يبدو أن محمد بن خليفة كان مدفوعا في اتصاله بشريف مكة برغبة تفادي الرقابة البحرية التي يفرضها البريطانيون على سواحل الخليج . والتي كانت تسبب له احراجا ، وكان على خلاف مع هانيل حول بعض الحوادث التي وقعت في أحواض صيد اللؤلؤ خلال عام ١٨٥٠ ، وكان يستنكر مواقف الحكومة البريطانية في مجالسه ويقول ، أنها كانت منحازة الى الفرس وأنه لاشأن له بهم .

وفي ابريل عام ١٨٥٠ دعا فيصل محمد بن خليفة الى الامتثال لدفع الزكاة السنوية المستحقة عليه بمقدارها ٤٠٠٠ ريال نمسوي وعشرة من الخيول

- ٦٩٣ -

والا فسيلوم نفسه . ولم يمض وقت قليل على هذا الاجراء حتى قام مواطنو الدوحة بالانتفاض على حاكم البحرين واعلان ولائهم للامير الوهابي وقد تناسى محمد بن خليفة خلافه مع هانيل ، فبعث اليه برسول الى بوشهر في شهر يونيو للتعرف عما اذا كان المقيم مستعدا للتدخل بالنيابة عنه . غير أن هانيل لم يعره اهتماما ، فقد أوضح للمبعوث بان السياسة البريطانية كانت دائما تقوم على الامتناع عن التدخل في تصرفات الامير فيصل او غيره من زعماء المنطقة طالما لم تؤثر مواقفهم او تعكر صفو الامن في الخليج وقال : مما لاجدال فيه أن وقوع البحرين تحت سلطة الوهابيين سوف يثير أسف الحكومة البريطانية ، غير أنه مالم يتلق تعليمات من حكومة بمباي بالتدخل فانه لا يستطيع أن يفعل شيئا .

ولخوف الامير فيصل من توجيه حاكم البحرين نداء الى الحكومة البريطانية ولاقناعه بان موقف المقيم سيكون أمرا حاسما في تحديد نتيجة الخلاف فقد بادى بارسال مبعوث سرى الى بوشهر في نفس الفترة . وقد وصل المبعوث الشيخ عبد العزيز الى بوشهر عن طريق الكويت ، لأن ميناء القطيف كان تحت حصار الاسطول البحريني . وقد أبلغ المبعوث هانيل عند وصوله بان الامير فيصل حائر من الاتجاه المعاكس الذي أخذت تسير فيه السياسة البريطانية تجاهه في الآونة الأخيرة . فعلى حين كانت الحكومة البريطانية تحترم أسس التفاهم القائمة بينها وبينه ، والتي تقوم على امتناعها عن التدخل في علاقاته بسكان الساحل الغربي . فانهم قاموا في الفترة الأخيرة بمنع رعاياه في رأس الخيمة ودبي من تقديم المساعدة البحرية اليه لاختصاص رعاياه المتمردين في البحرين . كما انها سمحت في الوقت نفسه لسعيد بن طحنون حاكم دبي بمساعدة محمد بن خليفة بالرجال والسفن . وقد رد هانيل على المبعوث بأن الحكومة البريطانية لم تعترف بسيادة الامير فيصل على البحرين أو مشيخات الساحل . ولقد سبق لعدد من الدول أن

- ٦٩٤ -

ادعت بسيادتها على البحرين ، غير أن الحكومة البريطانية لم تعترف لها بتلك السيادة على البحرين التي تربطها به علاقات معاهدة منذ ثلاثين عاما .
وأنها لن تنظر بارتياح الى انتقال السيادة عليها من حكامها شيوخ آل خليفة .
وان عزوف شيوخ الهدنة عن مساعدة فيصل نابع من قلقهم على مصر الامن في البحر ، وليس نتيجة موقف عدائى . أما مساعدة بنى ياس لآل خليفة فانها لم تكن بايعاز من الحكومة البريطانية ، وانما لان الامير فيصل قد نذر نفسه للقضاء عليهم . وكان هانيل يميل الى تذكير محمد بن خليفة بفضائل الامير فيصل عليه ، وان يحاول تحسين علاقته به ، وكان هذا أقصى ما فى استطاعة هانيل أن يقوم به ، أما فيما عدا ذلك كما اشار هانيل الى رؤسائه فى بومباى فسوف لا يتعارض مع السياسة البريطانية المقررة للمنطقة فحسب ، وانما سيؤدى الى تسهيل وضع البحرين تحت السيادة العثمانية . أما من حيث العلاقة القائمة بين الامير فيصل والباب العالى فليس هذا موضع شك فى اعتقادى ، فعندما كان الشيخ عبد العزيز فى الكويت كان يعتبر نفسه مبعوث عباس باشا . وكان قد أخبرنى بأن رسلا من الباشا موجودون عند الامير فى الوقت الحاضر .

وفى الاسبوع الثانى من فبراير أصدر بالمرستون بوزارة الخارجية أوامره الى ستافورد كاننج ، بعد علمه بموضوع عرض محمد بن خليفة على شريف مكة بأبلاغ الباب العالى بأن الحكومة البريطانية لا يمكنها الموافقة على أى ترتيبات تتعلق بوضع البحرين تحت الحماية التركية وأرسلت نسخة من تلك الأوامر الى الكولونيل شيل فى طهران الذى قام بأحالتها الى هانيل .
وهنا قرر هانيل بالإلا ينتظر وصول تعليمات من الهند ، وبالتالى ففى الاسبوع الاول من يوليو طلب الى قائد اسطول الخليج بتوجيه ثلاثة طرادات للتجول

بالقرب من سواحل البحرين . كما كتب الى فيصل فى الوقت نفسه بأنه اذا حاول غزو البحرين فان الاسطول سوف يقاومه .

قام أسطول الخليج بالاشتراك مع أسطول البحرين بحصار ساحل القطيف طوال شهر يوليو . وفى بداية شهر أغسطس وصلت معلومات عن عقد اتفاق بين فيصل ومحمد خليفة عن طريق الوساطة غير المتوقعة لسعيد بن طحنون . وبموجب الاتفاق اعيدت الدوحة الى خليفة ، كما تعهد محمد بن خليفة بدفع الزكاة الى الامير فيصل بواقع ٤٠٠٠ ريال كل عام . وبهذا تكون المشكلة قد حلت فى وقتها وقد ظهرت الكوليرا فى البحرين ومنها انتشرت الى الاسطول المحاصر حيث اودت بحياة عدد من طاقم الطراد الفينستون . وفى اليوم السادس من أغسطس وصل الى بوشهر مبعوث آخر من فيصل هو الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم وهو نفس الشخص الذى بدل المحاولات لفك الحصار عن الحامية الوهابية فى البريمي فى مطلع عام ١٨٤٨ لمقابلة هانيل ، وقد ابلغ المقيم بأن فيصل قد صرف النظر عن الهجوم على البحرين ، وذلك نزولا على رغبة الحكومة البريطانية ، رغم أنه لا يزال يطالب بالسيادة على القبائل البحرية بما فى ذلك عمان وساحل الباطنة .

ثم أخذ عبد الرحمن يسأل هانيل عما اذا كان سيرتب تسوية دائمة بين فيصل وشيوخ البحرين على أساس الاتفاق الأخير ، وفى حالة عدم تمكنه من فرض هذه التسوية فهل لدى الحكومة البريطانية ما يمنع من قيام الامير فيصل بنفسه بارغام البحرين على دفع الزكاة ، فيما اذا توقفت عن ادائها فى أى وقت من الأوقات ، وقد اجابه هانيل بأن الحكومة البريطانية لن تسمح للأمير فيصل بوقوع البحرين تحت سيطرة أى دولة ، مهما كانت الحجج وأنها من ناحية أخرى لا تعترف للأمير فيصل بأية سلطة على قبائل الساحل العربى

التي كانت ولا تزال تعتبرها وتعاملها كدولة مستقلة .. وأما فيما يتعلق
 بإبرام اتفاق بين البحرين وأمير نجد فانه ، أي هانيل ، لا يستطيع ذلك قبل
 حصوله على موافقة من حكومته ، وأن هذه الموافقة غير واردة في اعتقاده .
 ولقد كتب هانيل الى رؤسائه بعد هذا اللقاء التقرير التالي : « اننى لا أتصور
 أن تكون سياسة غير حكيمة او وافقت الحكومة على ممارسة ضغط على شيخ
 البحرين لحمله على دفع الزكاة الى الأمير الوهابى بصورة منتظمة ، مع الحرص
 على أن يكون دفع تلك الزكاة من منطلق دينى محض ، باعتبارها ضريبة
 مستحقة للامام أو الحاكم الدينى لطائفة الوهابيين ، وليس كاتاة ، وعلى
 أساس أنها لا تتضمن اعترافاً له بالسيادة على البحرين ، وأن دفع مبلغ ٤٠٠٠
 ريال سنوياً ليس مبلغاً كبيراً ، اذا وضعنا فى الاعتبار موارد البحرين ، وبما
 أن هذه الضريبة السنوية ظلت تدفع من جانب حكام الجزيرة الى رئيس
 الوهابيين منذ وقت طويل ، فان مطالبة الأمير فيصل الآن باستمرار دفع
 الزكاة موقف له ما يبرره ، اننى متأكد كل التأكد أن هذا الاقتراح قد لا يلقى
 الموافقة ، الا اننى ارى انه جدير بالنظر باعتباره خطوة تساهم فى اقرار
 السلام فى الخليج (١) .

فى شهر فبراير من عام ١٨٥٢ قام اللغتنانت كولونيل هانيل بجولته
 الأخيرة فى الخليج . وقد اصطحب معه فى هذه الجولة مساعده الكابتن
 ارنولد كامبل ليقدمه الى الشيخ باعتباره المرشح الذى سيخلفه فى منصب

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بمباى مجلد ١٠٢ مرفق للخطاب
 السرى رقم ٧٣ فى ١٨٥١/١٠/٢ من هانيل الى ماليت ١٨٥١/٨/٩ (رقم
 ٢٥٨ الإدارة السرية) .

تقديم . غير أن رحلة الوداع التي قام بها لمشايخ المنطقة لم تحظ بأى اهتمام ولم يظهر الشيوخ أى أسف على رحيله . غير أنهم عندما صعدوا الى المركب الذى كان يقام فى كل من الشارقة وأم القيوين وعجمان ودبي لتوديع هانييل للمرة الأخيرة ، شعروا جميعا بأن سفره يعنى نهاية المرحلة . ولقد كانت لحظة فريدة اختلطت فيها المشاعر واستيقظت ذكريات الماضي بفواجهه وفوضاه ، وما تتخلله من أعمال السلب والنهب فى البحر وعلى الأخص من جانب شيخ مشايخ القواسم سلطان بن صقر ، وعلى الرغم من شيخوخته وتدهور حالته الصحية فقد كان ولا يزال فى مقدوره اشعال المنطقة من رمس الى أبو ظبي ، رغم أنه لم يعد يستطيع أن ينشر الرعب الذى كان يثيره اسم القواسم فى كافة أرجاء الخليج . كما أن سعيد بن طحنون شيخ مشايخ بنى ياس ، والذى التقى به هانييل فى مسقط فى أواخر الشهر ، كان من حقه أيضا أن يهتم برحيل المقيم عن المنطقة ، أن لم يكن للحملة التى قادها هانييل نسحق تمرد بنى ياس سنة ١٨٣٥ . فعل الأقل نتيجة للتأييد الذى منحه هانييل لشيخ بنى ياس خلال الايام الحرجة التى أعقبت استيلاءه على السلطة والمساعدة التى قدمها اليه لاجراج الوهابيين من عمان .

غير ان سعيد بن طحنون وأمثاله من شيوخ المنطقة لم يكونوا من النوع الذى يعترف بالجميل . فلقد كان الحقد والجشع أهم بالنسبة اليهم من التفاهم وبعد النظر ، وأن الأمن بالنسبة اليهم قد لا يساوى شيئا أمام المكاسب اليومية التافهة ، كما أن المراوغة عندهم غاية وليست وسيلة لغاية ، فخلال عامين تحول سعيد بن طحنون من الموقف المعادى للوهابيين الى موقف المتعاون معهم ثم العداء مرة أخرى . وعند مقابلة هانييل له فى مسقط كان سعيد مشغولا بشراء سفينة حمولة ٣٥ طنا «بايدال» وقيل أنه حصل عليها من الأمير فيصل . وقد سأل هانييل فيما اذا كان فى استطاعته أن يقف الى

— ٦٩٨ —

أحد الجانبين فيما لو نشب خلاف بين الأمير فيصل ومحمد بن خليفة . ولقد راودت هانيل الشكوك أن تكون السفينة التي كان يقوم سعيد بن طحنون بشرائها قد تخصص لنقل جنود الوهابيين من الاحساء الى البحرين ، غير أن هانيل اجابه بأنه لا يستطيع تقديم أى مساعدة مجزية لاي من الجانبين . ولما استاء من رد هانيل عاد يسأله عن الموعد الذى ستنتهى فيه صلاحية اتفاقية الهدنة . فرد عليه هانيل بأنه باق على الاتفاقية عام واحد ، وعند انتهائها سوف تجرى التدابير لتجديدها .

وفى التقرير الذى بعث به هانيل الى رؤسائه اشار الى ما لاحظته من نفاد الصبر بين قبائل المنطقة حول هذه النقطة . ولقد استمر التحالف الشاذ بين القواسم وبنى ياس لعله بسبب عزم المشيختين على سحق دوى . وكان الشيخ مكتوم بن بطى موجودا هو الآخر فى مسقط عندما زارها هانيل ، وكان يحاول شرح مشكلته للسيد سعيد ، غير أن السيد سعيد كان قد مال الى جانب سلطان بن صقر وسعيد بن طحنون . وعلى الرغم من الهدوء الذى يسود الخليج من اقصاه الى اقصاه ، الا أن هانيل كان يتوجس خوفة من المستقبل وعلى الاخص عندما تنتهى مدة الاتفاق . وبعد استلام تقرير هانيل أو عزت حكومة بومباى الى الكابتن كامبل الذى خلف هانيل بالعمل على جس نبض شيوخ الهدنة حول رغبتهم فى تجديد الاتفاقية عند انتهائها فى ٣١/٥/١٨٥٣ ، سوء بشكل دائم أو لمدة محدودة أخرى . وقد تم توجيه السؤال الى الشيوخ فى أواخر عام ١٨٥٢ ، وكان رد الفعل خليطا من المواقف . فقد أجاب كل من شيخ دوى وعجمان وأم القيوين بأنهم يرغبون فعلا فى تحقيق طلب المقيم . أما زعيما بنى ياس والقواسم فقد أجابا بأنهما يفضلان عدم اتخاذ قرار قبل زيارة المقيم الى منطقتهم فى فصل الربيع القادم . وكان كامبل يفضل اتفاقية

دائمة بدلا من اتفاقية محدودة المدة ، وكان يشاطره هذا الرأي رجال السلطة فى بومباي .

ان الاجوبة المتناقضة لمشايخ المنطقة كانت تعود فى المقام الاول الى التوتر وحالة عدم الاستقرار التى تسود السواحل العربية للخليج ابان سنة ١٨٥٢ . وفى شهر ابريل استقبل الأمير فيصل فى الرياض أحد أشقاء سعيد بن طحون واثنين من أنجال سلطان بن صقر . وفى أواخر ذلك الشهر وصل الأمير عبد الله أكبر أنجال فيصل الى الاحساء قادما من نجد ، وقد كان الهدف من زيارته هو مطالبة حاكم البحرين بدفع الزكاة المستحقة عليه بموجب الاتفاق المنوه عنه سابقا. والذى لم يتم تسديده بالكامل حتى ذلك الوقت . غير أن الزيارة كانت تنطوى على هدف أخطر من ذلك الا وهو غزو عمان ، وقد بقى الأمير عبد الله فى الاحساء طوال الصيف . وكانت الاشاعات تنطلق متدفقة بغزو وشيك للبحرين ، ثم يتبعه زحف على عمان . وكان أحد أنجال السيد حمود قد قام بزيارة للرياض ، وأن فيصل وعده خلال تلك الزيارة بأن يسترد له ميراثه من السيد سعيد . أما محمد بن خليفة حاكم البحرين فقد بعث بوفد الى مسقط يعرض عقدا حلف دفاعى ضد الأمير فيصل ، وفى نفس الوقت كان السيد سعيد على اتصال بعباس باشا والى مصر ، لكى يطلب منه كبح جماح فيصل وفى شهر أغسطس توفى مكتوم بن بطى شيخ دوى ، وعلى اثره نشب صراع على السلطة بين أنجاله وشقيقه سعيد . وقد وجه أنجاله نداء الى سلطان بن صقر للمساعدة ، بينما وجه سعيد بن بطى نداءه الى السيد سعيد ، وعلى الرغم من أن السيد سعيد قد بعث اليه بحقنة من الرجال ، الا أنه لم تعد تهمه مشاكل عمان والخليج أو شبه الجزيرة . ونظرا لشيخوخته المبكرة بعد أن استنزفت قواه الازمات والمثائب ، شعر بالحنين الى زنجبار ، وهكذا عند هبوب أول نسيمات الفصل المسمى أطلع مرة أخرى الى ماواه فى أفريقية الشرقية .

- ٧٠٠ -

غير أن غياب السيد سعيد عن عمان فتح الباب واسعا أمام أمير الرياض وفي الأسبوع الأخير من يناير ١٨٥٣ ، تحرك عبد الله بن فيصل من الاحساء الى عمان ورافقه في الحملة أحمد السديري والى الاحساء ، وكان القائدان على رأس قوة من ٣ آلاف راكب جمل و ٣٠٠ الى ٥٠٠ خيال وبعد شهر من خروجهما وصلا واحة البريمي ، ورابطت قواتهما في مزارع النخيل التي تحيط بالبلدة . ولقد بادر النعيم الذين كانوا يقومون بحراسة القلعتين بتسليمهما الى عبد الله ، وقد صرح عبد الله بأنه قد جاء كحكم ومنقذ لابنائه الشيوخ مما كانوا يعانون منه من ظلم واضطهاد في عمان غير أن أهدافه الحقيقية لم تكن أهدافا سامية كما صرح . وقد بادر عبد الله الى استدعاء السيد ثويني نائب السيد سعيد للحضور الى البريمي على الفور ، وطالبه باعادة ولاية صحار لقيس بن عزان ، ودفع متأخرات الزكاة وجميع تكاليف الحملة . ولقد كان المبلغ الذي طلبه عبد الله بن فيصل ضخما ، مما يقطع بأن الهدف الأساسي من ذلك الشرط ، هو أن يتخذ عبد الله من رفض السيد ثويني لمطالبه ذريعة الهجوم على ساحل الباطنة واجتياحها . ولكي يقطع عبد الله على السيد ثويني كل طريق في الحصول على مساعدات وتأييد من شيوخ الساحل ، دعاهم الى الحضور الى مقره في البريمي واستبقاهم هناك .

وفي يوم ٢١ مارس وصل الكابتن كامبل الى الشارقة على ظهر الطراد كلايف لمفاوضة الشيوخ في عقد اتفاقية بحرية دائمة . ولما علم بأن شيوخ الساحل مجتمعون كلهم بعيد الله في البريمي كتب اليهم رسائل يدعوهم للاجتماع به على الساحل فورا لعقد الاتفاقية . ثم بعد ذلك انسحب كامبل الى باسندو في انتظار وصولهم . ولم يرد عليه من الشيوخ سوى اثنين هما سلطان بن صقر وحمد بن راشد شيخ عجمان وذكر له في رسالتهما أنهما لا يستطيعان الحضور . ومن ناحية أخرى بعث الأمير عبد الله برسائل الى

- ٧٠١ -

كامبل يقول فيها أنه يهيم بقاء الشيوخ لديه (لأنهم مرتبطون بنا ومحسوبون علينا) وبأنهم لا يستطيعون الحضور لمقابلته لبعض الوقت ، وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس وصل وكيل المثلثة في الشارقة الى باسيدو ، وأفاد بأن سلطان بن صقر قد انحاز الى زعيم الوهابيين وذلك لسببين : الاول : العمل على إعادة قيس بن عزان لولاية صحار ، الأمر الذي سيسمح له بتوسيع رقعة نفوذه الى ساحل الباطنة من ناحية ، والثاني تأكيد سلطته على عجمان وأم القيوين من ناحية أخرى . ومن ناحية ثالثة فإن زعيم بني ياس سعيد بن طحنون رغم أن علاقته بمسقط لم تعد كما كانت سابقا بسبب تخاذل السيد ثويني في الدرجة الأولى ، إلا أنه رفض الاشتراك في هجوم على مسقط وشرح القسم الأكبر من رجال القبائل الذين كانوا معه . وقد عاد الأمير عبد الله فأرسل طلبا قاطعا الى السيد ثويني لتسليم صحار ، وساعتها شعر كامبل بأن الوقت قد حان لكي يتدخل . فقام بإرسال خطابات الى كل من الأمير عبد الله و سلطان بن صقر أبدى فيها أسفه البالغ على تصرف الأمير بمنع الشيوخ من الاجتماع به ، كما وبخ زعيم القواسم على اشتراكه في التحريض على شن عدوان على أرض أحد أصدقاء بريطانيا القدماء كما أمر كامبل في الوقت نفسه الطرادين كلايف وتجرنيس بالتحرك للقيام بدوريات على طول ساحل الباطنة لدعم موقف السيد ثويني .

أما ثويني فقد قذف بكل بالديه من رجال الي ميدان المعركة في صحار ورفض التهديدات التي وجهها اليه عبد الله وقد توافق قرار السيد ثويني وموقف السيد سعيد بن طحنون مع تدخل كامبل الى جانبهما الى تميع موقف الأمير عبد الله ، مما اضطره في الاسبوع الثاني من ابريل الى ايفاد مساعده ، أحمد السديري الى صحار برفقة سعيد بن طحنون كوسيط لمفاوضة السيد ثويني وقد أمضى كامبل اسبوعين عصبيين ، وهو ينتظر في

— ٧٠٢ —

قاعدة باسيدو ، وهو نفس المكان الذى وضعت فيه صيغة نظام الهدنة ، وبالتالي أصبح مصير ذلك النظام بل ومصير عمان نفسها فى كفة القدر ، فإذا فشلت المفاوضات أو أطلق عبد الله قواته لشن هجوم على عمان ، فإن منطقة الساحل سوف تفرق فى بركة رهيبة من الدماء ، كما ستعرض سلطنة عمان للدمار ، فضلا عن أن نظام الهدنة البحرية برمته سوف ينهار . والواقع أن صحار كانت تشهد فى ذلك الوقت صراعا بين كامبل وعبد الله ، أو بين الحكومة البريطانية وامارة الوهابيين فى نجد من أجل سبيل السيطرة على الدول البحرية للخليج . وفى يوم ٢ مايو علم كامبل بأنه قد كتب له النظر فى ذلك الصراع . فقد حضر اليه معبوث الى باسيدو ليبلغه عن عقد اتفاق لتسوية الأزمة تم توقيعه فى مدينة صحار .

لقد كان الاتفاق مجتفا بالنسبة لمسقط ، غير أنه كما الملح سعيد بن طحون لكامل بأن البديل سيكون تمزيق السلطنة . فقد تعهد ثوينى لعبد الله بدفع ٦٠ ألف ريال كمتأخرات عن الزكاة المستحقة عليه ، وإن يدفع بعد ذلك ما مقداره ١٤٠٠٠ ريال سنويا عن مسقط و ٨٠٠٠ ريال سنويا عن ولاية صحار ، كما تعهد بتوفير ٥٠٠ شوال من الأرز وأربعة صناديق بارود ، وكمية كبيرة من الرصاص لاستعمال الحامية الوهابية فى البريمى ومن جانب الأمير عبد الله فإنه قد عقد حلفا وثيقا وكاملا مع السيد ثوينى ، تعهد فيه باعتبار أصدقاء وأعداء أحد الطرفين المتعاقدين اصدقاء وأعداء للطرف الآخر وأن يؤيد كل طرف الطرف الآخر فى كافة المسائل التى تهم الطرفين وتتطلب مساعدة الواحد للآخر وبموجب الاتفاق المعقود تم الاعتراف بالسيادة الوهابية على عمان الداخلية ابتداء من وادى الجزى جنوبا على امتداد سلسلة الحجز حتى بهلا ومنها الى رأس الحد ، كما اعترف للأمير بتبعية الباطنة له .

وفى مقابل ذلك اعترف أمير نجد للسلطان بالسيادة على عمان الأصلية ،
ومسقط والشرقية وجعلان .

لم يبق عبد الله فترة طويلة في البريمي بل غادرها قبل حلول فصل
الصيف الحار ، وقد أخذ معه قوات الخيالة والهجانة ، بعد أن ترك أحمد
السديري وحامية صغيرة في الواحة لجمع الزكاة السنوية من مسقط
وقبائل عمان الشمالية . وقد غادر البحر الى الساحل بمجرد علمه باتفاق
صحار ليرتب لتجديد اتفاقية الهدنة . وقد اكتشف لدى وصوله أن جميع
الحكام دون استثناء راغبون بل ومتلهفون على إبرام اتفاق بحرى للهدنة
الدائمة . وفيما بين ٤ و ٩ مايو وقع الشيوخ الخمسة - سلطان بن صقر
حاكم الشارقة ورأس الخيمة ، وعبد الله بن راشد حاكم أم القيوين ، وحمد
بن راشد حاكم عجمان ، وسعيد بن بطي حاكم دبي وسعيد بن طحون حاكم
أبو ظبي على معاهدة السلم البحرية الدائمة ، تعهدوا فيها بالالتزام بها هم
وخلفائهم من بعدهم ، وبموجب البند الأول للمعاهدة تعهد الفرقاء انه
اعتبارا من هذا التاريخ وهو الخامس والعشرون من رجب ١٢٦٩ - الموافق
الرابع من مايو ١٨٥٣ ومن الآن فصاعدا سوف تتوقف جميع العمليات الحربية
في البحر بين رعايانا وأتباعنا ، وأن تقوم هدنة حقيقية دائمة فيما بيننا.نحن
الموقعين وفيما بين خلفائنا من بعدنا ، والى الأبد وفى البند الثانى تعهد كل
شيخ من هؤلاء الشيوخ بمعاينة كل فرد من رعاياهم أو أتباعهم عن أى انتهاك
يرتكبه فى البحر ضد ممتلكات رعايا وأتباع الأطراف الأخرى الواقعة على
المعاهدة ، كما أن عليهم أن يدفعوا ما يترتب على تلك الاعتداءات من تعويض
وغرامات ، كما تعهد كل منهم فى البند الثالث من المعاهدة ، أنه فى حالة
وقوع اعتداء على رعايا أحد منهم فى البحر من جانب رعايا طرف آخر من
المشاركين فى المعاهدة فليس من حقه الرد على الاعتداء وانما يبلغ عنه المقيم

البريطاني في الخليج ، او قائد اسطول الخليج الذي سيقوم باتخاذ الاجراء
للزام للتعويض عن الاعتداء .

مر ثلاثون عاما منذ توقيع معاهدة السلم العامة باشراف السير وليم
كبي . وقد أمكن التوصل اخيرا الى حل المشكلة الخاصة بأعمال القرصنة
في الخليج . وحتى ذلك الوقت لاتزال هناك ثغرات في المعاهدة . نظرا لأن
المعاهدة لم تلزم الشيوخ بمراعاة السلم في الخليج تجاه الدول غير المشتركة
فيها . وقد سأل الشيخ سلطان بن صقر الكابتن كامبل عند توقيع المعاهدة
عما اذا كان الوضع يجيز له الرد على السيد سعيد فيما لو حاول شن
هجوم على ممتلكاته في الشيلية ، فاجابه كامبل بأنه يمكن ذلك بشرط أن
يوجه تحذيرا الى الطرف الآخر بمدة كافية ولقطع خط الرجعة على هذه
الثغرة في المعاهدة فقد كان الالتزام بالخط الدولي للملاحة يمنع الى حد كبير
نشوب صراع بين الدول المشتركة في المعاهدة ودولة خارجية . كما تمنع امتداد
ذلك الصراع الى الخط الملاحي الرئيسى . وثمة ثغرة اخرى في المعاهدة وهي
أنها لا تحوى نصا بشأن الدفاع عن مشيخات الهدنة ضد أى اعتداء يقع عليها
في البحر من دولة خارجية . ومن ناحية أخرى فان مسئولية الدفاع عن
مشيخات الساحل انما تقع على عاتق الحكومة البريطانية التى تستمدّها
من نظام الهدنة نفسه . وكان الشيخ بطى بن مكتوم حاكم دبي قد اشار
لكامبل عند توقيع المعاهدة بأن الوجود الموهابى في عمان يتعارض مع مصلحة
القبائل الساحلية ، وأنه قد يأتى وقت يشكل فيه هذا الوجود نوعا من
الإحراج للحكومة البريطانية ، واستطرد الشيخ يقول بأن اسهل طريقة أمام
الحكومة البريطانية لمواجهة هذا الوضع هي إعلان المنطقة الساحلية الممتدة
من أبو ظبى حتى رأس مسندم ، منطقة خاضعة للحماية البريطانية ، ثم تسأل
هل اذا هاجم الوهابيون مشيخة دبي ستنبرى الحكومة البريطانية للدفاع

عنها ؟ وقد أجابه كامبل بأن سياسة حكومته تقوم على أساس الحياد في المشكلات التي تقع داخل المنطقة رغم أنها حريصة كل الحرص على استقلال وسلامة الدول البحرية ، وأنها ستدافع بلاشك لو تعرضت لهجوم من البحر وأما مسألة الدفاع عن هذه الدول ضد الاعتداءات الوهابية على البر فقد ظلت بغير تحديد .

ان تردد الحكومة البريطانية في موضوع التدخل في العمليات العسكرية في داخلية شبه الجزيرة ظل مستمرا ، وكان في رأيها أنه طالما أمكن الحفاظ على استقلال تلك الدول ضد الوهابيين عن طريق الضغط السياسي واستعراض القوة البحرية عند الضرورة ، وظل الشيوخ متمسكين بالتزاماتهم الخاصة بالامن والسلم في الخليج ، فان مثل هذا التورط يظل خارج تفكير الحكومة البريطانية . وقد كان هذا التصور هو الأساس في استبعاد البحرين من نظام الهدنة في ١٨٥٣ كما كان الحال سابقا ، لان البحرين لا تتألف من الأرخبيل فقط وإنما تشمل بعض أجزاء من قطر . وإذا كان الدفاع عن الأرخبيل ممكنا بالوسائل البحرية ، فان الامر يختلف بالنسبة للقطاعات الداخلية للجزيرة ، وبالإضافة الى ذلك فان الخطر على البحرين بعد غياب السيد سعيد عن المسرح بدأ ينطلق من دولة فارس . وفارس دولة ليس لها أسطول . اما الخطر البري على البحرين فقد كان مصدره نجد ، وكان يشكل معضلة خطيرة للبريطانيين ، اذ لم تكن تجد القوة العسكرية الرئيسية في المنطقة فحسب ، وإنما لانها كانت تستطيع أن تهدد ممتلكات آل خليفة . وهكذا ففي الوقت الذي كانت الحكومة البريطانية على استعداد لممارسة مسؤوليتها في البحر بمنع فارس من السطو على المشيخات العربية ، وإنما قد سبق لها أن مارست (٤٥ - بريطانيا والخليج)

- ٧٠٦ -

هذه المسئولية الا أنها لاتجد نفسها فى وضع يسمح لها بممارسة هذه المسئولية
ازاء الوهابيين .

وقد بنى نظام الهدنة سارى المفعول حتى يومنا هذا ، كما بقى رمزا
لجهود كل من صمويل هانيل وارنولد كامبل مساعده . ولم يحدث أن قام
رجل بما قام به هانيل فى توطيد اركان النفوذ البريطانى فى الخليج وحفظ
الامن فيه .

ولد هانيل من أب يعمل صائفاً بمنطقة روزهل فى برمنجهام سنة ١٨٠٠
والتحق بالخدمة العسكرية سنة ١٨١٩ بالفرقة ١٢ من مشاة بومباى . وفى سن
السادسة والعشرين عين فى منطقة الخليج كمساعد للمقيم ، فى ذلك الوقت
كانت قبائل القرصنة لاتزال تعاني من آثار هزيمتها على يد كبر ، وكانت
حماية الملاحة البحرية تتطلب وجود مالا يقل عن ٦ طرادات . وعند مغادرة
هانيل للمنطقة بصفة نهائية كان هناك طراد واحد فقط يتولى أعمال الرقابة
على الامن فى الخليج . ولقد استطاع هانيل خلال الفترة التى قضاها فى
الخليج أن يكتسب ثقة شيوخ الساحل ، كما نجح فى مناسبات كثيرة وبعمليات
خاطفة وضربات ساحقة أن يخمس سلطنة عمان من الوقوع فى خضم الحرب
الاهلية أو الاجتياح الوهابى لها . وعلى امتداد السنوات الحرجة من عام
١٨٣٨ حتى ١٨٤١ عندما كان البريطانيون يقاتلون بضراوة على جانبى الخليج ،
استطاع هانيل بهدوء أعصابه أن يستخدم الامكانيات المحدودة كأحسن ما
يكون الاستخدام ، ويحافظ بالتالى على سمعة حكومته وهيبته على امتداد
تلك المرحلة الحرجة . كما أن نجاحه فى اقناع سلطان مسقط وشيوخ
الساحل بوقف تجارة الرقيق لا يقل أهمية . بل ويضاعف من أهميته هذا
الانجاز الذى يكشف عن براعة ودبلوماسية هائلة ، لقد كان هانيل بلا جدال

- ٧٠٧ -

أعظم المقيمين السياسيين البريطانيين الذين خدموا في منطقة الخليج ، ورغم هذا فإنه عندما أحيل على المعاش من عمله في الشركة اعتباراً من ٣ أكتوبر ١٨٥٤ ، غادر المنطقة دون تكريم من حكومته ، كما أن السنوات السبب والعشرين التي أمضاها في عمل مستمر في الخليج ذهبت سدى دون أن يلقى ما هو أهل له من ثواب وتكريم . ويومها عاد هانيل ليستقر في شلتنهام حيث أمضى بقية عمره حتى الثمانين وتوفي يوم ١٣ سبتمبر ١٨٨٠ .

انتهى الجزء الأول

ويليه

الجزء الثاني

محتويات الجزء الأول

صفحة	
٧	الفصل الأول : الخليج في أواخر القرن الثامن عشر
٩٥	الفصل الثاني : الحرب مع فرنسا الوفود الى فارس .
١٥٦	الفصل الثالث : القرصنة والوهابيون (١٨٠٠ - ١٨١٨ م) .
٢٣١	الفصل الرابع : الحملات العسكرية ضد موانئ القرصنة (١٨١٩ - ١٨٢٠ م) .
٢٧٧	الفصل الخامس : البحث عن قاعدة في الخليج والحملة على قبيلة بنى بوعلی (١٨٢٠ - ١٨٢٣ م) .
٣١٩	الفصل السادس التفتيش والرقابة : الحفاظ على الأمن البحري (١٨٢٣ - ١٨٣٤ م) .
٤٤٣	الفصل السابع : الطريق الى الهند (١٨٢٦ - ١٨٣٦ م) .
٥٠٢	الفصل الثامن : الأزمات المصرية والفارسية (١٨٣٧ - ١٨٤٠ م) .
٦١٨	الفصل التاسع : نظام الهدنة (١٨٣٥ - ١٨٥٣ م) .

